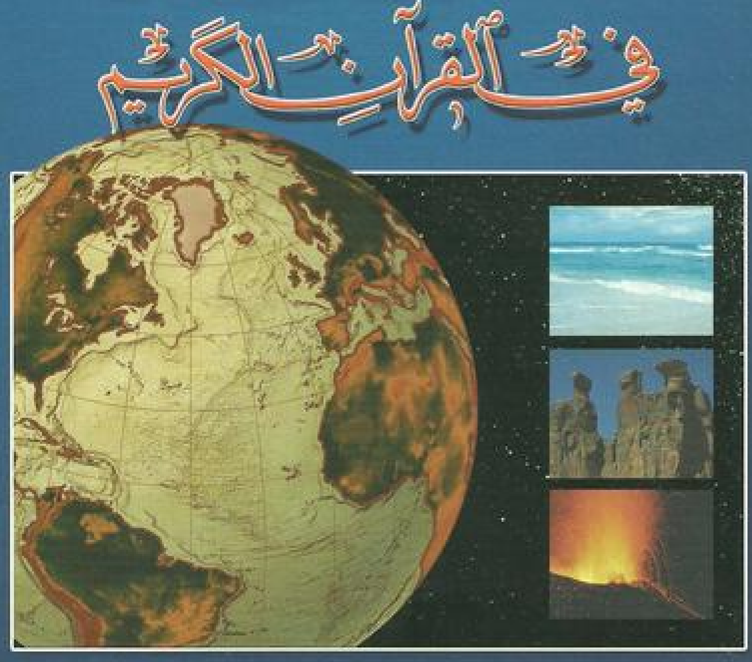
الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي



الأرض في القرآن الكريم



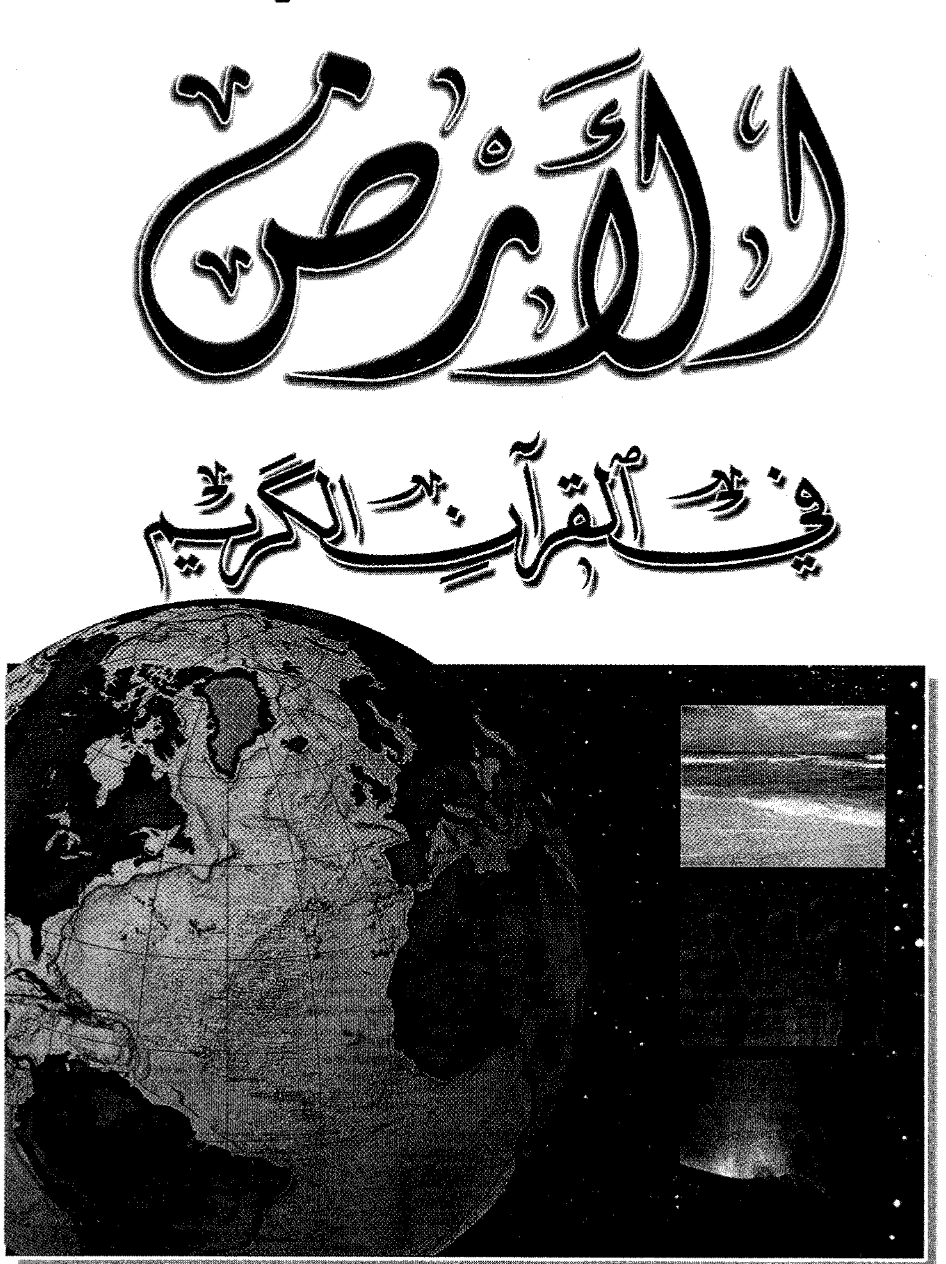
دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار
الأرض في القرآن الكريم
دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

الأرض في القرآن الكريم



دار المعرفة
بيروت - لبنان

ISBN 9953-85-006-2

الطبعة الأولى

1426 هـ 2005 م







جسر المطار - شارع البرجاوي - ص.ب: ٧٨٧٦ - هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٥٨٨٣٠ - فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت - لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858830, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www. marefah.com E.mail: info@marefah.com

بسم الله الرحمن الرحيم



الأستاذ/ الدكتور/ زغلول راغب محمد النجار

• أستاذ/ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية.

• رئيس لجنة الإعجاز العلمي بالقرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ج ـ م ـ ع.

• **زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.**

• ولد الدكتور زغلول النجار في قرية مشال، مركز بسيون بمحافظة الغربيّة في 17 نوفمبر عام 1933.

• تعلم القرآن الكريم منذ الصغر في كتّاب القرية وعلى يد والده الذي كان أحد رجال التعليم البارزين.

• تخرج من جامعة القاهرة عام 1955م حاصلاً على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف، فمنحته الجامعة جائزة بركة للجيولوجيا وكان أول الحاصلين عليها.

• حصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز/ بريطانيا عام 1963م ومنحته الجامعة درجة زمالتها فيما بعد الدكتوراه، كما حصل على منحة روبرتسون للأبحاث فيما بعد الدكتوراه.

• عمل بشركة صحاري للبترول، المركز القومي للبحوث بالقاهرة، ومناجم الفوسفات بوادي النيل، ومناجم الذهب بالبرامية (صحراء مصر الشرقية)، وبمشروع الفحم (بشبه جزيرة سيناء)، وبكل من جامعات عين شمس، والملك سعود، وويلز، والكويت، وقطر، والملك فهد للبترول والمعادن. كما عمل أستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجيليس ـ بالولايات المتحدة الأميركية، ومديراً لمعهد ماركفيلد للدراسات العليا ببريطانيا.

• حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر البترول العربي سنة 1970م وعلى درجة الأستاذية عام 1972م.

• له أكثر من 150 بحثاً وخمسة عشرين كتاباً منشوراً.

• أشرف على أكثر من خمسٍ وأربعين رسالة علمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات العربية والأجنبية.

• عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية. وعضو في هيئة تحرير عدد من الدوريات العلمية.

• عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها.

• عضو مؤسس للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة، وعضو مجلس إدارتها.

• عضو مجلس أمناء الهيئة الإسلامية للإعلام ـ لندن ـ بريطانيا.

• شارك في عدد كبير من المؤتمرات العربية والإسلامية والدولية.

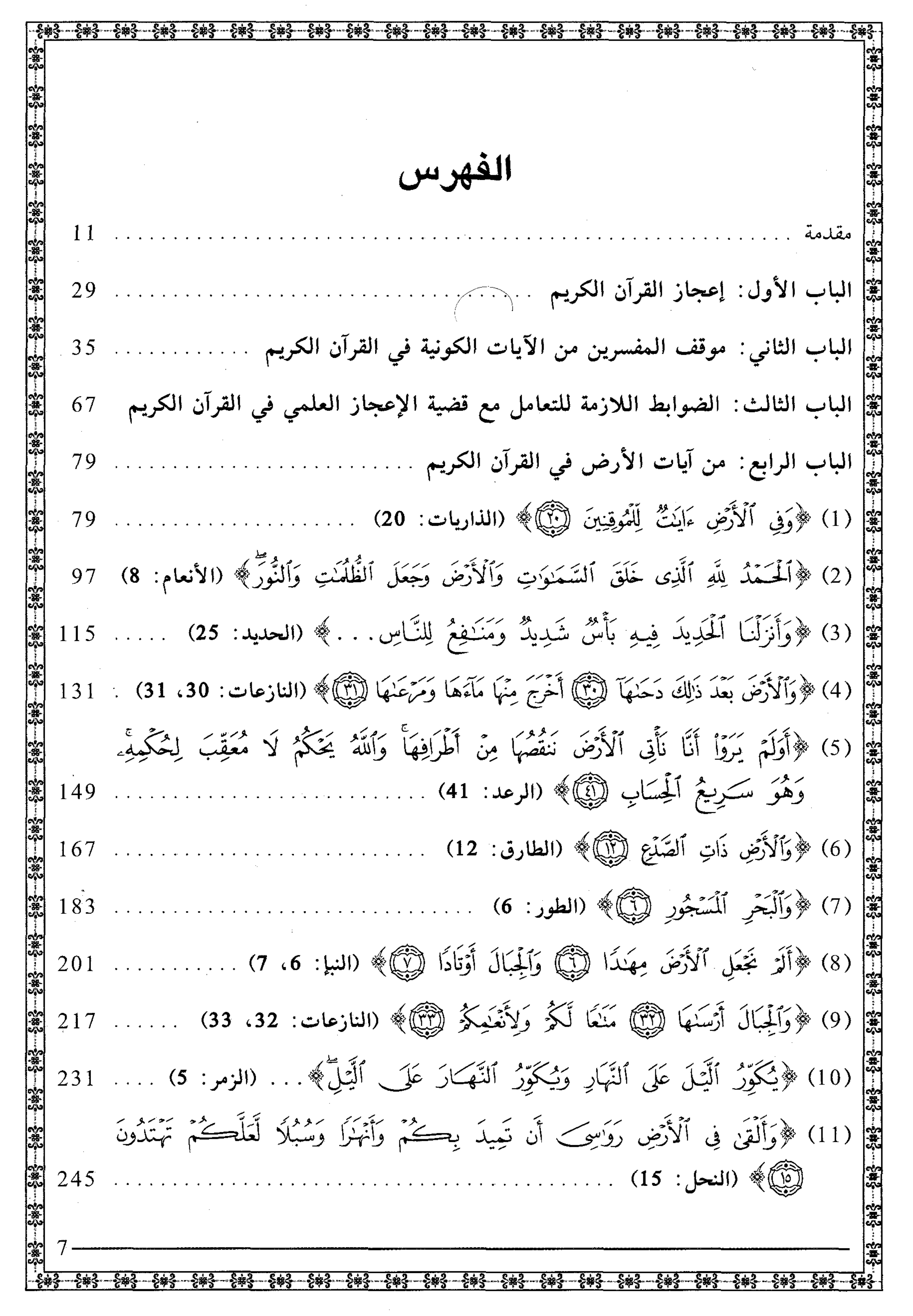
• عضو هيئة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم.

• مستشار في شؤون التعليم العالي بالمعهد العربي للتنمية.

• له مقال أسبوعي بجريدة الأهرام المصرية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في صفحة كاملة صدر منه حتى الآن حوالي مائتي (200) مقال تعد للنشر الآن في سلسلة كتب متتابعة إن شاء الله تعالى ـ، وقد صدر أولها بعنوان (السماء في القرآن الكريم).

• كتب أكثر من ستين مقالاً عن الإعجاز العلمي في الحديث النبوي الشريف نشرته جريدة الأهرام المصرية خلال رمضان 1422هـ ـ 1424هـ وتم نشرها في كتاب من جزءين، تمت ترجمتهما إلى اللغة الإنجليزية. والجزء الثالث طور الإعداد.

• جاب كافة دول العالم محاضراً عن الإسلام وقضايا المسلمين، وعن الإعجاز العلمي في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وذلك باللغتين العربية والإنكليزية.



الفهرس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونثني عليه الخير كله. ونصلي ونسلم على كافة أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد النبي الأمين، الذي ختم الله ببعثته النبوات، وأكمل برسالته الرسالات، وأتمها في محكم كتابه ـ القرآن الكريم ـ الذي أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه في نفس لُغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، فحفظه حفظاً كاملاً: حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، بنفس الترتيب الذي نجده مكتوباً في بلايين النسخ من المصحف الشريف، ومدوناً في وسائل التسجيل المختلفة، ومحفوظاً في صدور البلايين من الحفاظ منذ أربعة عشر قرناً، وسوف يبقى عهد الله قائماً إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، في الوقت الذي كانت كل صور الوحي السابقة قد فقدت، وتعرض ما بقي من ذكريات عن بعضها للتحريف والتبديل والتغيير الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها. وبذلك بقي القرآن الكريم هو الوحي السماوي الوحيد المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس اللغة التي أُوحي بها محفوظاً بحفظ الله ـ تعالى ـ الذي أنزل في محكم كتابه قضاءه الذي لا يرد والذي قال فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ **(الحجر: 9)**.

ولما كان القرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظة بين أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ كان لا بد وأن يكون معجزاً في كل أمر من أموره؛ لأنه مغاير لكلام البشر: فهو ليس بالشعر ولا بالنثر، ولكنه نمط من العربية فريد، وصياغة متميزة، لم يدركها فصحاء العرب وبلغاؤهم وهم في قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان، وعجزوا عن الإتيان بشيء من مثله رغم تحدي القرآن الكريم لهم بذلك.

وبما أن القرآن الكريم هو بيان من الله ـ تعالى ـ فلا بد وأن يكون كل ما فيه حقاً مطلقاً: حديثه عن العقيدة (وهي غيب مطلق)، وعن العبادة (وهي أوامر إلٰهية محضة)، وعن الأخلاق والمعاملات (وهي ضوابط للسلوك) ـ، والتاريخ يؤكد أن الإنسان كان عاجزاً دوماً عن وضع ضوابط في أيٍّ من هذه القضايا لنفسه بنفسه؛ ومن هنا كانت ضرورة الدين.

وبالمثل فإن إشارات القرآن الحكيم إلى الكون ومكوناته، وبعض أشيائه وظواهره هي حق مطلق لأنه كلام الخالق. ومن أدرى بالخلق من خالقه؟ وكذلك استعراضه لسير عدد من الأنبياء والمرسلين والأمم السابقة التي لم يدون لنا التاريخ شيئاً عنها هو حق مطلق، والاكتشافات الأثرية المتتابعة تثبت صدق ذلك.

والقرآن الكريم هو أيضاً معجز في دستوره التربوي الفريد، وفي خطابه إلى النفس الإنسانية وارتقائه بها في معارج الله إلى ما لا يمكن لأي خطاب آخر أن يصل، وفي إنبائه بعدد من الغيوب التي تحققت ولا تزال تتحقق، وفي تحدِّيه للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله دون أن يتمكن عاقل من التقدم ليقول: نعم لقد استطعت أن أكتب سورة من مثل سور القرآن الكريم.

وعلى ذلك تتعدد جوانب الإعجاز القرآني (بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء من مثله) بتعدد الزوايا التي ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله، ومن هذه الجوانب:

1 ـ الإعجاز اللغوي (الأدبي، البياني، البلاغي، النظمي، اللفظي، والدلالي).

2 ـ الإعجاز العقدي (الاعتقادي).

3 ـ الإعجاز التعبدي (العبادي).

4 ـ *الإعجاز الأخلاقي (بمعنى مواءمة دستوره الأخلاقي للطبيعة البشرية بغير غُلوٍّ ولا إقلال).*

5 ـ الإعجاز التشريعي.

6 ـ الإعجاز التاريخي (الذي تؤكده الاكتشافات الأثرية للأمم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم).

7 ـ الإعجاز التربوي.

8 ـ الإعجاز النفسي.

9 ـ الإعجاز الاقتصادي.

10 ـ الإعجاز الإداري.

11 ـ الإعجاز التنبئي.

12 ـ الإعجاز العلمي.

13 ـ إعجاز التحدي للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله دون أن يتمكن أحد من ذلك.

14 ـ إعجاز حفظه بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد ـ وإلى قيام الساعة ـ دون أن يضاف إليه حرف واحد أو أن ينتقص منه حرف واحد، في الوقت الذي تعرضت فيه كل صور الوحي السابقة للضياع التام، وتعرض ما بقي من ذكريات بعضها على هيئة ترجمات مهلهلة إلى التحريف تلو التحريف، والتحرير بعد التحرير، وإلى التبديل والتغيير، وإلى الحذف والإضافة، وإلى غير ذلك من صور التزييف الذي لا يزال مستمراً إلى يومنا هذا، مما أخرج تلك الرسالات السماوية السابقة عن إطارها الرباني، وردها إلى عدد من الوثنيات والشركيات القديمة، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها، وهذا هو السبب الحقيقي من وراء المظالم العديدة التي تجتاح مختلف بقاع الأرض اليوم، وتغرقها في بحار من الدماء والأشلاء، والدمار والخراب.

ولهذا الفارق الكبير بين كتب سماوية تركت لأصحابها فضيعوها وحَرَّفوا ما بقي من ذكريات نقلت شفاهاً عنها لقرون قبل تدوينها. وكتاب سماوي خاتم تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه فحفظ، وامتدح ربنا ـ تبارك وتعالى ـ القرآن الكريم في العديد من آياته والتي منها قوله ـ عز من قائل ـ:

• ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة: 1، 2).

• ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾ (البقرة: 23).

• ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: 166).

• ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ (الأنعام: 92).

• ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾ (يونس: 37).

• ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (هود: 13، 14).

- ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد: 1).

- ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ (إبراهيم: 1).

- ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ (إبراهيم: 52).

- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: 9).

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ (الحجر: 87).

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: 88).

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ (الكهف: 1).

- ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ (طه: 1 ـ 4).

- ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الحج: 54).

- ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الفرقان: 1، 2).

- ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ (الفرقان: 6).

- ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ (السجدة: 1 ـ 3).

- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ (سبإ: 6).

• ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ (الزمر: 1، 2).

• ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: 1ـ 3).

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ (فصلت: 41، 42).

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ (الشورى: 7).

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ (الشورى: 17).

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ (الشورى: 52، 53).

• ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ (قٓ: 1).

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾ (الطور: 33، 34).

• ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ (البروج: 21، 22).

والقرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية في أمر الدين بركائزه الأربع الأساسية: **العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات**، وهي من الأمور التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة ومن هنا كانت ضرورة الدين لتستقيم الحياة على الأرض، وليتمكن الإنسان من تحقيق الغاية من وجوده عليها.

ولكن الله ـ تعالى ـ يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل في يوم من الأيام إلى زمن كزمننا الراهن يُفْتَحُ فيه على الإنسان من أبواب المعرفة بالكون وسننه ما لم يفتح من قبل، فيغترُّ بالعلم ومعطياته وتطبيقاته في مختلف المجالات وبما يوصله ذلك إلى عدد من التقنيات المتقدمة التي تغرقه في ماديات الحياة فتنسيه الموت، والحساب، والآخرة، والجنة، والنار؛ خاصة وأن هذه المفاهيم وغيرها من ركائز العقيدة قد اهترأت اهتراءً شديداً في معتقدات غير المسلمين، مما دفع كثيراً من علمائهم إلى إنكارها والسخرية منها،

ولكي يقيم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الحجة على أهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية الذي نعيشه ـ أبقى لنا في محكم كتابه أكثر من ألف آية كونية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وهذه الآيات القرآنية تحوي من الإشارات الكونية ما لم يكن معروفاً لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعد زمن الوحي، مما يؤكد أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وهذه الآيات الكونية في كتاب الله لها أهداف عديدة منها ما يمكن إيجازه فيما يلي:

أولاً: الشهادة لله الخالق بطلاقة القدرة في إبداعه لخلقه، ومن ثم الشهادة له سبحانه وتعالى بالألوهية، والربوبية، والوحدانية؛ لأن كل شيء في هذا الوجود قد خلق بقدر، وفي زوجية واضحة تشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ثانياً: الشهادة لله ـ تعالى ـ أنه كما أبدع هذا الكون من العدم، وعلى غير مثال سابق، فهو قادر على إفنائه إلى العدم، وعلى إعادة خلقه من جديد، خاصة وأننا نرى الخلق من العدم والإفناء إلى العدم يتكرر أمام أنظارنا في صفحة السماء، حيث أن المجرات تتباعد عن بعضها البعض بمعدلات تقترب من سرعة الضوء وتتخلق المادة والطاقة لملء المسافات الناتجة عن هذا التوسع من حيث لا نعلم، في الوقت الذي، نرى مختلف صور المادة والطاقة تُبْتَلَعُ بواسطة النجوم الخانسة الكانسة ـ الثقوب السود ـ إلى حيث لا نعلم، ونرى التقاء اللبنات الأولية للمادة بأضدادها فتفنى إلى ما لا نعلم..!! وعلى الرغم من ذلك بقيت قضية البعث وإنكار إمكانية وقوعه هي الحجة الرئيسة للكفار والملحدين، وللحائرين المتشككين، لأنهم من جهلهم يقيسون على الله ـ تعالى ـ بمقاييس البشر، وإرادة الله ـ تعالى ـ لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها عائق.

ثالثاً: هذه الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد صيغت صياغة مجملة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني يتناسب مع ما توفر لهم من علم بالكون ومكوناته، وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يبقى القرآن الكريم مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، تصديقاً لنبوءة المصطفى ﷺ في وصفه للقرآن الكريم بأنه «**لا تنتهي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد**». وليس هذا لغير كلام الله ـ تعالى ـ...!! لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية في القرآن الكريم مصدراً غير الله الخالق، والقرآن الكريم كتاب قد أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها

الساحقة من الأميين، وفي فترة زمنية لم يكن لأحد من الخلق إلمام بشيء من هذه الحقائق العلمية التي لم تكتشف إلا بعد أكثر من عشرة قرون كاملة من تنزل الوحي، ولا تزال تكتشف اليوم وإلى يوم الدين.

والإشارات الكونية في القرآن الكريم جاءت في أكثر من ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتشكل هذه الآيات الكونية حوالي سدس مجموع آيات القرآن الكريم.

وهذه الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهماً كاملاً في إطارها اللغوي فقط ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ؛ ولا يمكن الوصول إلى سبقها بالحقيقة الكونية ـ وهو ما نسميه بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم ـ دون توظيف الحقائق العلمية التي توافرت لأهل زمننا، لأن في هذه الآيات الكونية من المحتوى العلمي ما لا يقف على دلالته إلا الراسخون في العلم ـ كلٌّ في حقل تخصصه ـ ومن هنا كانت تلك الآيات القرآنية العديدة التي تشير إلى مستقبلية الاستكشاف في دلالات بعض الآيات القرآنية، وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

- ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧﴾ (الأنعام: 67).
- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ (النمل: 93).
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾ (صٓ: 87، 88).
- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ (فصلت: 53).

وفي المقابل فإننا نجد الآيات القرآنية المتعلقة بركائز الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات قد صيغت صياغة محكمة، محددة الدلالة، واضحة المعنى، لا تحتمل غير وجه واحد يفهمه البدوي في قلب الصحراء كما يفهمه أعلى الناس ثقافة وعلماً، وهذا أيضاً جانب من جوانب الإعجاز القرآني التي لا تحصى ولا تعد. ولذلك يحضنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حضاً على تدبُّر آيات القرآن الكريم فيقول ـ عز من قائل ـ:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ (النساء: 82).
- ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام: 104).

• ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (صٓ: 29).

• ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد: 24).

وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: **«أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»**[1].

وإعراب القرآن الكريم يقصد به معرفة معانيه، والتماس غرائبه يعني فهم ما غمض من معانيه على قارئه، ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الآيات الكونية التي تتسع دلالاتها باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وذلك لندرة تلك المعرفة بالكون ومكوناته وظواهره في الأزمنة القديمة، ولطبيعتها التراكمية مع الزمن، بمعنى اتساع دائرة المعرفة فيها بزيادة استقراء الإنسان للكون وتعرفه على السنن المنتظمة الحاكمة له، والتي وضعها الله ﷻ فيه، ولولا انتظام تلك السنن واطرادها ما تمكن الإنسان من معرفة شيء منها، ولا عنها، وهذا الانتظام والاطراد في سنن الكون وظواهره هو من وسائل تسخير الكون للإنسان، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك التسخير في مواطن عديدة.

ومبررات الاهتمام بالإشارات الكونية في القرآن الكريم عديدة ومنها ما يمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ إن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه، والآيات الكونية لا تفهم فهماً كاملاً في إطار اللغة وحدها، والمعرفة كلٌّ لا يتجزأ.

2 ـ إن الإسلام والمسلمين يتعرضون اليوم لهجوم ظالم في جميع وسائل الإعلام العالمية والمحلية بسبب إنكار غير المسلمين لنبوة المصطفى ﷺ، وللوحي بالقرآن الكريم، والإشارات الكونية خير دليل لأهل عصرنا على حجية ذلك كله، وباللغة التي يفهمونها.

3 ـ إننا قصرنا في التبليغ عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ تقصيراً كبيراً، ولذلك وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تكتل أهل الباطل علينا، وتآمرهم على ديننا ومقدساتنا وأعراضنا وأموالنا وأراضينا، وخير وسيلة لتبليغ هؤلاء القوم اليوم عن فضل الإسلام العظيم على غيره من الأديان وفضل القرآن الكريم على غيره من الكتب: هو ما ورد من حقائق علمية راسخة في كل من كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ؛ لأن العلم قد أصبح الوسيلة المقنعة لأهل عصرنا.

4 ـ إن العالم قد أصبح قرية كبيرة تلتقي فيها كل الحضارات بما فيها من معتقدات وفلسفات وثقافات، وثقافة عصرنا الراهن ترتكز على العلوم البحتة والتطبيقية وما تنتجه من

---

(1) رواه أبو يعلى في مسنده، والسيوطي في الجامع الصغير.

تقنيات مختلفة، ولكن هذا التقدم العلمي والتقني المذهل قد صاحبه انحسار ديني وأخلاقي وسلوكي كبير، ويريد الغرب بحكم قوته المادية الكبيرة أن يهيمن على العالم وأن يفرض قيمه الهابطة وسلوكياته الساقطة على غيره من الدول خاصة الدول الإسلامية، التي ظلت محتفظة بقدر من قيمها الروحية العليا، وسلوكياتها الصحيحة رغم انحسارها الحضاري وتخلفها العلمي والتقني، ومن أنجع وسائلنا في مقاومة ذلك الغزو الفكري تأكيد صدق الوحي بالقرآن الكريم، وصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وذلك بإثبات سبق كلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون.

5 ـ إن المؤامرة الدولية على الإسلام والمسلمين قد أسقطت من أيدينا كل سلاح نستطيع به الدفاع عن أنفسنا، وأراضينا، وعن ديننا، ومقدساتنا، وأعراضنا، وكرامتنا، ولكن على الرغم من ذلك فقد بقي بأيدينا سلاح الدعوة إلى الله على بصيرة بلغة العصر ـ ومن أقواه: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ والذي لو أحسنّا توظيفه لفتح الله ـ تعالى ـ علينا الدنيا من أطرافها. والتجارب المحدودة في هذا المجال تثبت جدوى ذلك وأهميته.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد عارض نفر من أبناء المسلمين قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان السبب الرئيسي في معارضتهم هو ازدواجية التعليم والمفاصلة الكاملة بين تعليم ديني /إنساني/ نظري لم يعد له اهتمام بالمعطيات الكلية للعلوم، وتعليم مدني /علمي/ تقني لا يعطي للدارس الحد الأدنى من الثقافة الدينية التي تعينه على فهم أصول دينه، وعلى القيام الصحيح بعباداته، وعلى التبليغ عن الله ورسوله بالكلمة الطيبة والحجة البالغة، وعلى فهم رسالته في هذه الحياة فهماً صحيحاً. ونتيجة لهذه المفاصلة تخوف كل من الشرعيين والعلميين من الخوض في هذه التجربة التي بدأها علماء المسلمين منذ القرن الهجري الثالث واستمرت في مد وجزر حتى عصرنا الراهن.

وكان للمعارضين حجج ومبررات نذكرها ونرد عليها فيما يلي:

1 ـ اعتبارهم التفسير العلمي للقرآن الكريم نوعاً من التفسير بالرأي ـ وهو عندهم مذموم ـ. ولكن المقصود بالرأي المذموم هو الهوى، وليس الرأي المؤسس على الحقائق العلمية الثابتة التي يقبلها كل عقل سوي، وتؤيدها الحجة المنطقية المقبولة والدليل المادي الملموس.

2 ـ اعتبارهم أن الإسرائيليات كانت قد نفذت إلى التفسير أول ما نفذت عن طريق محاولات السابقين التعرض لشرح دلالة الآيات الكونية استناداً إلى ما جاء في سفر التكوين

وهو من أسفار العهد القديم، باعتباره محتوياً على عدد من الإشارات التي تصف بداية الخلق، وقد أثبت العلم خطأها، كما جاء في كتاب الدكتور الفرنسي «موريس بوكاي» والمعنون «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم».

3 ـ أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية؛ وبما أنه كلام الله ـ في صفائه الرباني ـ فهو حق كله، وثابت ثبوت الرواسي، والعلوم المكتسبة متغيرة، ولا يجوز مقابلة الثابت بالمتغير؛ أي لا يجوز مقابلة كلام الله بكلام الناس.

وللرد على ذلك نقول: إن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه ولنتدبر آياته بإمكاناتنا البشرية المحدودة، والعلوم المكتسبة ليست كلها فروضاً ونظريات قابلة للتغيير، ولكن العلم يصل إلى العديد من حقائق الكون وقوانينه الثابتة الراسخة التي لا تتغير مع الزمن.

4 ـ أن العلوم الكونية انطلقت في زماننا من منطلقات مادية بحتة، لا تؤمن بما فوق المدرك الملموس من صور المادة والطاقة، ولذلك تصاغ أحياناً صياغات منافية لأصول الدين، نتيجة للصراع المرير الذي قام بين العلميين ورجال الكنيسة في العالم الغربي، وانتهى بانحسار دور الكنيسة.

وللرد على ذلك نقول إن هذا الموقف كان في البدايات الأولى لتطبيق المنهج العلمي في الغرب، أما اليوم فإن المعطيات الكلية للعلوم أصبحت تؤكد على العديد من حقائق الدين؛ ولذلك فإن من واجبات المسلمين اليوم تأصيل المعرفة الإنسانية بمختلف فروعها تأصيلاً إسلامياً صحيحاً خدمة للإسلام وللعلم وللإنسانية بصفة عامة. وهو دور لا يستطيع القيام به إلا المسلم المتميز في علمه والمتفقه في دينه: كل في حقل تخصصه.

5 ـ أن بعض الذين تعرضوا لتفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ـ بغير خلفية علمية سليمة ـ إما تكلفوا في تحميل الآيات ما لا تحمله، أو توسعوا أكثر من اللازم في إعطاء الآية القرآنية الكريمة من المعاني ما لا تقصده، والقرآن العظيم أجلُّ من ذلك وأكرم.

وللرد على ذلك نقول إن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة لا يتم إلا بواسطة المتخصصين ـ كلٌّ في حقل تخصصه ـ وعلى الناقلين عنهم أن ينسبوا كل قضية إلى محققها، وإلا لأصبح الأمر فوضى لا ضابط له.

وهذه الحجج مردود عليها في متن هذا الكتاب حجة حجة، غير أن خير رد إجمالي عليها هو الدعوة إلى الالتزام الدقيق بضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، والتي أفردت لها باباً كاملاًفي هذا الكتاب وأوجزها فيما يلي:

1 ـ حسن فهم النص من القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، وحسب قواعدها، وأساليب التعبير فيها؛ لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ولذلك فالنص مقدم على الظاهر، والظاهر مقدم على التأويل.

2 ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والإلمام بجهود المفسرين السابقين.

3 ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، والقراءات الصحيحة لها، ورد بعضها إلى بعض مع مراعاة السياق القرآني، وعدم اجتزاء النص عما قبله وعما بعده، ومراعاة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وتوظيف كل الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالموضوع الواحد في فهم النص القرآني المدروس؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما تفسره أقوال رسول الله ﷺ.

4 ـ عدم التكلف، أو محاولة ليّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ لأن القرآن الكريم أعزّ علينا وأكرم من ذلك انطلاقاً من كونه كلام الله الخالق، ومن حقيقة أن الخالق هو أدرى بخلقه من كل المخلوقين، وأن علم الله الخالق المنزل في محكم كتابه ـ القرآن الكريم ـ، والموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ هو بالقطع أكبر من علوم كل المخلوقين.

5 ـ البعد عن القضايا الغيبية غيبة مطلقة، وعدم الخوض فيها بأكثر مما أثبته القرآن الكريم وفسرته السنة النبوية المطهرة، وذلك من مثل قضايا الروح، وحياة البرزخ، وموعد قيام الساعة، والملائكة، والجن، والجنة، والنار، والذات الإلهية، وغير ذلك من غيوب مطلقة.

6 ـ مراعاة التخصص الدقيق لكل دارس لموضوع الإعجاز العلمي في كتاب الله ـ كل في حقل تخصصه ـ؛ لأن هذا ليس مجالاً للخوض من كل خائض؛ وهنا يجب التفريق بين تحقيق المحقق ونقل الناقل.

7 ـ يجب تحري الدقة والأمانة في التعامل مع كتاب الله، والتجرّد عن كل هوى شخصي حتى يتحقق إخلاص النية في ذلك لله ـ تعالى ـ وحده.

8 ـ الالتزام بتوظيف الحقائق العلمية الثابتة التي لا رجعة فيها في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، باستثناء حالة واحدة، وهي حالة الآيات والأحاديث التي تفصّل قضايا الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثلاث ـ خلق كل من الكون والحياة والإنسان وإفنائهم جميعاً ثم بعثهم ـ؛ لأن هذه من القضايا التي لا

تخضع لإدراك الإنسان ولا لمشاهدته بطريقة مباشرة، وبذلك لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها مرحلة التنظير ـ أي وضع نظرية من النظريات التي تتعدد بتعدد خلفية واضعيها ـ. وفي هذه الحالة يمكن للمسلمين الارتقاء بإحدى هذه النظريات السائدة إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله ﷻ أو في سنة رسوله ﷺ.

9 ـ يجب التفريق بين قضيتي التفسير العلمي والإعجاز العلمي لكلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ وذلك لأن التفسير العلمي هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية الكونية في هذين المصدرين من مصادر وحي السماء. ونحرص في التفسير العلمي على توظيف الحقائق العلمية كلما توافرت، ولكن لما كان العلم المكتسب لم يصل بعد إلى الحقيقة في كل أمر من الأمور، فلا أرى حرجاً من توظيف النظرية العلمية السائدة في تفسير الآية الكونية التي لم تتوافر بعد الحقائق اللازمة لتفسيرها ـ ولا حرج في ذلك حتى لو ثبت خطأ النظرية الموظفة في التفسير بعد ذلك ـ؛ لأن الخطأ هنا لا ينسحب على جلال القرآن الكريم ولكن ينسحب على جهد المفسر.

أما الإعجاز العلمي فهو موقف من مواقف التحدي، والمتحدي لا بد وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة؛ ولذلك لا يجوز أن يوظف في الإعجاز العلمي إلا القطعي الثابت من الحقائق العلمية كما أوضحنا في النقطة السابقة إلا في حالات الخلق والإفناء والبعث.

10 ـ يجب عدم التقليل من جهود السابقين الذين خدموا القرآن الكريم في حدود المعارف المتاحة لهم ـ كل في زمانه، وفي حدود سقف المعرفة الذي كان متاحاً له ـ.

من جوانب الإعجاز في كتاب الله:

كتب كثيرون في موضوع **الإعجاز اللغوي** للقرآن الكريم تحت عناوين مختلفة مثل: (الإعجاز البياني/ البلاغي/ الأدبي/ اللفظي/ النظمي/ الدلالي) ومنهم **الجاحظ** في القرن الهجري الثالث (ت255هـ)؛ وكل من **الواسطي** (ت306هـ)، **والرماني** (ت386هـ)، **والخطابي** (ت388هـ) من علماء القرن الرابع الهجري، وكل من **الباقلاني** (ت403هـ)، **والقاضي عبد الجبار** (ت415هـ). **والظاهري** (ت456هـ)، **والجرجاني** (ت471هـ)، **والغزالي** (ت505هـ)، من علماء القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري، وكل من القاضي عياض (ت544هـ) **والفخر الرازي** (ت604هـ) من علماء القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري، وكل من **السكاكي** (ت626هـ) **والعز بن عبد السلام** (ت660هـ)، في القرن السابع الهجري؛ **والزركشي** (ت794هـ) من أعلام القرن الثامن الهجري؛

والبقاعي (ت885هـ) من القرن التاسع الهجري، **والسيوطي** (ت911هـ) من أعلام القرن العاشر الهجري، **والألوسي** (ت1270هـ) من أعلام القرن الثالث عشر الهجري.

ونشطت الكتابة في موضوع الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين نشاطاً ملحوظاً، وكان ممن خاض هذا المجال كل من: **الزرقاني، الرافعي، الجزائري، المراغي، دراز، أبو زهرة، النورسي، محمد رشيد رضا، بنت الشاطئ، والمطعني** وغيرهم.

أما الذين تناولوا **الإشارات الكونية** في القرآن الكريم بشيء من التفصيل فكان في مقدمتهم **الجاحظ** (ت255هـ) في كتابه «الحيوان»، **وابن حزم الأندلسي** (ت405هـ) في كتابه «المفصل»، **والغزالي** (ت505هـ) في كتابيه «إحياء علوم الدين» و «جواهر القرآن»، **والفخر الرازي** (ت606هـ) في تفسيره «مفاتيح الغيب»، **وطنطاوي جوهري** (ت1359هـ) في موسوعته «الجواهر في تفسير القرآن الكريم»، **ومحمد بن أحمد الإسكندراني الطبيب، وعبد الله فكري، وعبد العزيز سيد الأهل، أحمد مختار الغازي، حنفي أحمد، محمد أحمد الغمراوي، محمد محمود إبراهيم، إبراهيم عبد القادر محمد فرج، محمد جمال الدين الفندي، عبد الرزاق نوفل، يوسف مروة، عبد الغني الخطيب، أحمد محمود سليمان، عبد الله شحاتة، مصطفى محمود، يوسف السويدي، منصور حسب النبي**، وجيش من المعاصرين الذين أضافوا إضافات أصيلة إلى هذا الموضوع.

وقد بدأت الاهتمام بقضيتي التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منذ دخولي إلى كلية العلوم بجامعة القاهرة في سنة 1951م، حين تعرضت ـ وتعرض غيري من الطلاب المسلمين ـ لسيل من التحديات الوافدة مع تيارات التغريب المختلفة من مادية دهرية ـ يمينية أو يسارية ـ، وكانت تيارات عاتية بأيدي العديد من الأساتذة والإداريين والطلبة الذين سُخِّروا لمهاجمة الإسلام والمسلمين، وكان في مواجهة هذا التيار التغريبي تيار إسلامي قوي ينتصر لهذا الدين الخاتم بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة والمنطق السوي، وكان على رأس هذا التيار الراشد أستاذي وأستاذ جيل كامل ممن تخصصوا في علوم الأرض وهو الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد القادر محمد فرج ـ بارك الله في عمره وأحسن لنا وله الخاتمة ـ الذي كان يملأ محاضراته ومذكراته وأحاديثه بحسن الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فكوّن مدرسة علمية في هذا المجال أسأل الله تعالى أن يجزيه عنا وعنها خير الجزاء.

وكان من قادة هذه المدرسة الإيمانية الأستاذ الدكتور محمد محمود إبراهيم رحمه الله

الرئيس السابق لقسم هندسة التعدين والبترول بجامعة القاهرة، والذي كان أول من كتب كتاباً بعنوان «إعجاز القرآن الكريم وطبقات الأرض»، وصال وجال بهذا الأمر في العديد من المحاضرات والنقاشات على مستوى جامعة القاهرة وخارجها.

كما كان من الفرسان المجاهدين في هذا المجال الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي رحمه الله الذي عمل أستاذاً بكلية الصيدلة ـ جامعة القاهرة، وعميداً لكلية الصيدلة بجامعة الملك سعود بالرياض حيث سعدت بصحبته، ودرَّس بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف كتاباً من تأليفه بعنوان «في سنن الله الكونية».

هذا بالإضافة إلى التحديات التي كنت قد لقيتها من قبل في طفولتي وشبابي من الحملات التنصيرية التي كان يشنها المستشفى الأمريكي بطنطا، وكان مركزاً تنصيرياً نشطاً باءت جهوده كلها بالفشل. والتحديات التي لقيتها من بعد في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وقد سافرت إلى بريطانيا بعد حرب قناة السويس التي وقعت في سنة 1956م بفترة وجيزة، وكانت مشاعر البريطانيين لا تزال مشحونة بالكراهية ضد كل من مصر والمصريين والعروبة والإسلام، وكان عليّ أن أفند دعاوى هؤلاء المبطلين من الغلاة المتشددين بالأسلوب المناسب في كل حالة. ثم سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف السبعينيات من القرن العشرين وعملت أستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجيليس، وحدث في أثناء إقامتي في هذه الغربة أن دخلت في عدد من الحوارات بين الإسلام والمسيحية واليهودية، واشتركت في مناظرات عديدة فيما يسمى باسم مجلس الحوار بين الأديان (**The Inter-Religeous Council**)، والذي يضم العديد من الملل والنحل. ثم حدث أن زار الولايات المتحدة الامريكية وأنا مقيم بها شيخ الأزهر الشريف فضيلة الإمام الأكبر الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله وفي صحبته كل من فضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل رحمه الله وفضيلة الشيخ محمود خليل الحصري رحمه الله، وطلب مني فضيلة الإمام الأكبر مرافقته والترجمة له طوال رحلته الكريمة ودار خلالها من الحوارات الدينية ما أقنعني بجدوى الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ بصفة عامة، وباستخدام الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ ـ بصفة خاصة ـ.

وبعد ذلك وقعت زيارة الرئيس السادات إلى القدس الشريف، واشتعلت المشاعر وانقسم المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية بين معارض لتلك الزيارة المفاجئة ومؤيد لها، وتحركت أقلام وألسنة عديدة بالقضية الفلسطينية، وباستنكار اغتصاب الصهاينة الغرباء لهذه الأرض العربية الإسلامية بمؤامرة دولية حاكتها القوى الصهيونية الصليبية العالمية

المستترة منها والمعلنة بدهاء وخبث ومكر شديد. ولقي ذلك صدى عند غلاة المتطرفين الغربيين الذين استردوا بذلك شيئاً من هزائمهم التاريخية. وقد أعان على تنفيذ هذا المخطط الشيطاني كل قوى الشر في العالم وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا وروسيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية وغير ذلك من دول الغرب والشرق على حد سواء.

وكان من دوافع هذا التآمر الدولي أن المسلمين لم يؤدوا الواجب الملقى على عواتقهم بتفنيد دعاوى الصهاينة الباطلة بحقٍ مزعوم لهم في أرض فلسطين، وهي دعاوى لا سند لها من دين، أو لغة، أو عرق، أو تاريخ. كذلك قصر المسلمون تقصيراً كبيراً في التبليغ عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ وتركوا الساحة مفتوحة لغلاة الحركة الصهيونية العالمية ـ وأغلب وسائل الإعلام بأيديهم ـ يسمّمون أفكار الناس بتخويفهم من الإسلام، وبملء قلوبهم بالكراهية للمسلمين، وبوصفهم الكاذب للمسلمين بالخطر الداهم على الحضارة الغربية وجميع منجزاتها، ومن هنا كان هذا التآمر الدولي الحقير على شعب فلسطين، ثم على المنطقتين العربية والإسلامية بصفة عامة.

وفي خضم هذه الحوارات ثبت لي أن عرض قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هو من أيسر وسائل الدعوة إلى دين الله الخاتم، وأكثرها إقناعاً لأهل عصرنا، لأنها تقدم لهم الدليل المادي الملموس على نبوة الرسول الخاتم ﷺ وعلى صدق رسالته، وعلى أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق، وذلك دون الخوض في أية خلافات دينية أو تاريخية.

وانطلاقاً من ذلك كله كان اهتمامي بالإشارات الكونية في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وكان حرصي على زيارة أغلب دول العالم من كندا شمالاً إلى أستراليا جنوباً، ومن الأمريكيتين غرباً إلى إندونيسيا وماليزيا شرقاً أتحدث في هذه القضية، حتى استضافني سعادة السفير الدكتور غازي القصيبي في محاضرة عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بالمركز الإعلامي السعودي بلندن في سنة 1998م حضرها عدد غفير من الدبلوماسيين المسلمين، وعلق عليها الصحفي الكبير الأستاذ عرفان نظام الدين بزاويته المعنونة «من الحياة» في جريدة الحياة وذلك بتاريخ 5/ 3/ 1998 (الموافق 7/ 11/ 1418هـ)، «ثم استضافني الأخ الأستاذ أحمد منصور بعد ذلك بسنة في مقابلة على قناة الجزيرة في برنامجه المعنون «بلا حدود»، وكتبت الأخت الفاضلة الأستاذة ابتسام الهواري في يوميات الأخبار بتاريخ 6/ 10/ 1999م (الموافق 26/ 6/ 1420هـ) تحت عنوان «نحن أولى بعلمائنا» كلاماً فوق ما أستحق، فجزى الله ـ تعالى ـ الجميع عني خير الجزاء.

وبعد ذلك بقليل استضافني الأخ الكريم الأستاذ عاصم بكري في برنامجه بالقناة الثالثة المصرية في حوار عن قضية إعجاز القرآن أثار تعليق العديدين من المهتمين بالقضية، ومضيت أكتب وأحاضر في قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والدلالات العلمية للآيات الكونية في هذين المصدرين من مصادر الوحي الإلهي المحفوظين بحفظ الله في أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيهما ـ اللغة العربية ـ واللذين حفظا بكامل صفائهما الرباني، وإشراقاتهما النورانية، وذلك في محاولة لإبراز ما يحتويه كل من هذين المصدرين من مصادر الدين الخاتم من الحقائق الكونية التي لم تعرف إلا بعد تنزل الوحي بأكثر من عشرة قرون كاملة. ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذا الحق مصدراً غير الله الخالق سبحانه وتعالى.

وفي صبيحة الأربعاء العاشر من رمضان سنة 1421هـ (الموافق السادس من ديسمبر سنة 2000م) مررت بالقاهرة في إحدى رحلاتي بين أوروبا والمشرق العربي. وكانت هذه الرحلة قد أخذتني من «ماركفيلد» إلى «لندن»، ثم إلى كل من دولة الإمارات العربية المتحدة والكويت للمشاركة في البرنامج الثقافي المصاحب لاحتفالات دبي بجائزتها الدولية للقرآن الكريم، ثم للمشاركة في برنامج الكويت الدعوي بمناسبة شهر رمضان المبارك وبدعوة كريمة من وزارة الأوقاف فيها. ومن الكويت اتجهت إلى البحرين بدعوة نبيلة من جمعية النور للبر لإلقاء محاضرة في برنامجها الثقافي بمناسبة الشهر الفضيل. ومن البحرين توجهت إلى القاهرة لأجد دعوة كريمة من الأخ العزيز الأستاذ أحمد فراج لاستضافتي في حلقتين من حلقات برنامجه التليفزيوني الشهير «نور على نور». وبعد إتمام هذا اللقاء بأقل من أربع وعشرين ساعة سافرت من القاهرة إلى «لندن» ومنها إلى «ماركفيلد» حيث كنت أعمل مديراً لمعهدها للدراسات العليا.

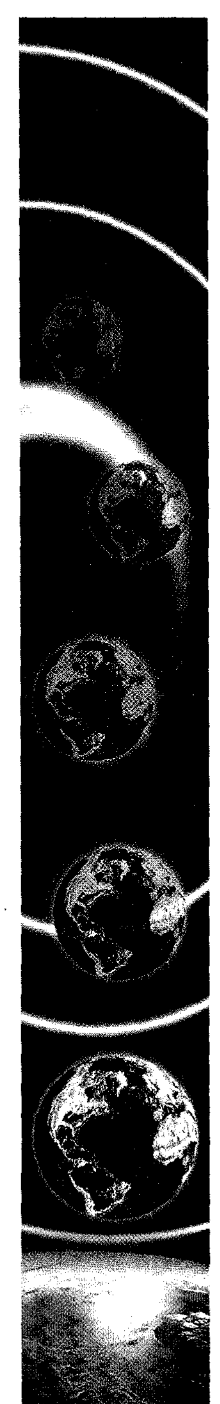
وبعد أسابيع قليلة أذيعت الحلقة الأولى لي من برنامج «نور على نور» ولم أشاهدها، ولكن بدأت الاتصالات الهاتفية والبرقية تترى تحمل قدراً هائلاً من تأثر الذين شاهدوها، ثم تلتها الحلقة الثانية وظلت اتصالات المشاهدين تترى معبرين عن إعجابهم بالطرح في الحلقتين، وتحمل ثناءهم المحمود على ما احتوتاه من معلومات جديدة عن الإشارات العلمية في القرآن الكريم لدرجة أن جميع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في مصر، بل في غالبية الدول العربية قد علقت على هاتين الحلقتين بإيجاب وقبول كبيرين، وتحت إلحاح المشاهدين قامت كل من القناة الأولى للتليفزيون المصري والفضائية المصرية ببث كل من الحلقتين لعدة مرات متتالية، وببث الحلقتين مجتمعتين لأكثر من مرة في سابقة لم تحدث من قبل.

ولم تتوقف الاتصالات بي بخصوص هاتين الحلقتين على مصرنا الحبيبة، بل جاءت من عدد من كبار الشخصيات العربية في العديد من دول العالم، وحمدت الله على ذلك حمداً كثيراً. وكان من أهم هذه الاتصالات بي اتصال مؤسسة الأهرام الصحفية ممثلة في رئيس مجلس إدارتها الأستاذ إبراهيم نافع (حفظه الله) الذي طلب مقابلتي في أول زيارة لي للقاهرة. وفي فجر الاثنين 11/ 11/ 1422هـ (الموافق 5/ 2/ 2001م) توجهت من «ماركفيلد» إلى «لندن»، ومنها إلى كل من الرياض، وجدة، والمدينة المنورة لحضور مؤتمر عن القرآن الكريم، ثم سافرت من المدينة المنورة إلى القاهرة حيث التقيت بالأستاذ إبراهيم نافع الذي عرض عليَّ مشكوراً تخصيص صفحة لي بجريدة الأهرام المصرية للكتابة في موضوع الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، فشكرته على ذلك ودعوت له بالخير.

وابتداءً من الإثنين 29/ 11/ 1422هـ (الموافق 23/ 4/ 2001م) بدأت في كتابة مقال أسبوعي بجريدة الأهرام تحت عنوان: «من أسرار القرآن: الآيات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية» وذلك في سلسلة صدر منها حتى اليوم حوالى مائتي مقال،ويمثل هذا الكتاب الذي يقع بين أيدي قارئه الكريم بضعاً وثلاثين من تلك المقالات التي جمعتها تحت عنوان «من آيات الإعجاز العلمي في كتاب الله»: آيات الأرض في القرآن الكريم»، وذلك بعد صدور المقالات الثلاث والثلاثين الأولى في مجلد خاص تحت عنوان: **«من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم»** وسوف يتبع ذلك إن شاء الله ـ تعالى ـ ببقية المقالات حسب أبوابها.

ولا يفوتني هنا أن أسجل لأخي الكريم، والصحفي الكبير الأستاذ إبراهيم نافع ـ حفظه الله ـ هذا القرار التاريخي الذي أفسح للقرآن الكريم صفحة كاملة أسبوعياً في أهم صحيفة عربية، ألا وهي جريدة الأهرام القاهرية، وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل ذلك ثقيلاً في ميزان حسناته وأن يجذل المثوبة لكل من أعان على تحقيق ذلك من رجالات مؤسسة الأهرام الغراء، وأن ينفع الأمة بما ينشر في هذه الصفحة والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه
زغلول راغب محمد النجار
٢٠/٦/١٤٢٦ هـ
(٢٥/٧/٢٠٠٥ م)



الباب الأول

إعجاز القرآن الكريم

في أي حديث عن القرآن الكريم لا بد لنا من التأكيد على أنه كلام الله تعالى، الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، والمحفوظ بين دفتي المصحف الشريف، بنفس اللغة التي أوحي بها: ـ اللغة العربية ـ محفوظاً حفظاً كاملاً: كلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ﷻ على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾. (الحجر: 9).

وقد تحقق هذا الحفظ الكامل لكتاب الله الخاتم في الوقت الذي كانت كل صور الوحي السابقة على تنزُّل القرآن الكريم قد تعرضت للضياع التام، وكان كل ما بقي منها من ذكريات ـ نقلت شفاهاً لقرون قبل أن تدون في لغات غير لغة الوحي التي أوحيت بها ـ قد تعرَّض لقدر من التحريف والتبديل الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها. ومن هنا كان القول بإعجاز القرآن الكريم؛ لأنه كلام الله الخالق، والإعجاز هنا معناه: عجز الخلق قاطبة عن الإتيان بشيء من مثله، ولذلك أنزل الله ﷻ في محكم كتابه قوله الحق:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾. (البقرة: 23، 24).

كما أنزل قوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾. (يونس: 38).

وقال ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾. (هود: 13، 14).

وقال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾. (الإسراء: 88).

وقال ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾. (الطور: 33، 34).

ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله تعالى فلا بد وأن يكون مغايراً لكلام البشر؛ أي متميزاً عنه بميزات يعجز البشر جميعاً عن تحقيقها: من الكمال، والشمول، والإحاطة، ودقة التعبير، وجمال النظم، وروعة الإشارة، وصدق الإخبار في كل قضية من القضايا التي تعرَّض لها كلام الله ـ الخالق البارىء المصور ـ، وهو كله حق، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا لا يتوفر إلا لكلام الله، فلا يمكن لمخلوق أن يتناول كم القضايا التي تناولها القرآن الكريم دون خطأ واحد في اللغة أو الصياغة أو المحتوى والدلالة، وهذا هو المقصود بالتعبير عن «إعجاز القرآن الكريم».

ونحن نعلم أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية للإنسان، في القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة، من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، والتي تشكل القواعد الأساسية للدين؛ وذلك لأن هذه القضايا إما أن تكون من أمور الغيب المطلق، الذي لا سبيل لوصول الإنسان إليه إلا عن طريق وحي السماء، أو هي أوامر تعبدية لا بد وأن تكون توقيفية على الله ورسوله ﷺ، ولا بد للإنسان فيها أيضاً من وحي السماء، أو هي ضوابط للأخلاق والسلوك والمعاملات.

والتاريخ يؤكد لنا أن الإنسان كان عاجزاً دوماً عن وضع الضوابط الصحيحة لأخلاقياته وسلوكه ومعاملاته في غيبة من الهداية الربانية، ومن هنا كانت ضرورة الدين.

وهذه القضايا المتعلقة بالعقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات ـ التي تمثل صلب رسالة القرآن الكريم ـ هي من أوضح صور الإعجاز في كتاب الله، إذا نظر إليها الإنسان بشيء من الموضوعية والحيدة، والتبصر والحكمة، ولكن الناس قد درجوا في غالبيتهم على

ميراث الدين، دون النظر فيه بعين البصيرة، فأخذوه بشيء من التعصب الأعمى، والحمية الشخصية، حتى لو لم يلتزموا به، مما جعل إقناعهم بالحق أمراً صعباً في أغلب الأحيان. . . إلا من أراد الله ﷻ له الهداية، وهم قلة قليلة ولكن لم يَخْلُ منهم عصر من العصور.

ونحن نعلم أن كلَّ نبي من أنبياء الله، وكل رسول من رسله قد آتاه الله ﷻ عدداً من المعجزات الحسية التي تشهد له بالنبوة أو بالرسالة، وأن هذه المعجزات الحسية كانت دائماً مما برع فيه القوم حتى تكون حجة عليهم؛ فموسى عليه السلام بعث في زمن كان السحر قد بلغ فيه مبلغاً عظيماً فآتاه الله ﷻ من العلم ما أبطل به سحر السحرة، وعيسى عليه السلام بعث في زمن كان الطب قد بلغ فيه شأواً عظيماً فأعطاه الله ﷻ من العلم ما تفوق به على أطباء عصره، ونعلم أن القرآن الكريم قد نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في زمنٍ كان العرب قد وصلوا إلى قمة الفصاحة العربية، والبلاغة في التعبير بها شعراً ونثراً، وجاء هذا الوحي الخاتم بأسلوب عربي مبين، مغاير لأساليب العرب، فهو ليس بالشعر وليس بالنثر، وجاء يتحدى العرب جميعاً أن يأتوا بقرآنٍ مثله، أو بعشر سورٍ مفتريات من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً، منذ أربعة عشر قرناً، دون أن يجرؤ عاقل على مجابهته، أما المجانين فلا عتب عليهم.

وقد دفع ذلك بنفر من المسلمين إلى قصر الإعجاز القرآني على جوانب بيانه ونظمه، وأفاض الأقدمون والمحدثون في ذلك؛ فأفصحوا عن جوانب من الإعجاز البياني في القرآن الكريم، تملأ العديد من المجلدات، دون أن يتمكنوا من إيفاء ذلك الجانب حقه كاملاً.

ومع تسليمنا بالإعجاز البياني للقرآن الكريم، وبأنه المجال الذي نزل كتاب الله يتحدى به العرب ـ وهم في قمة من قمم الفصاحة والبلاغة، والقدرة على حسن البيان أن يأتوا بشيء من مثله ـ إلا أن البيان يبقى إطاراً لمحتوى، والمحتوى أهم من الإطار الذي وضع فيه، ومحتوى القرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وكل قضية من هذه القضايا تشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، وكذلك استعراض عدد من الأمم السابقة وأخبارها، والخطاب القرآني للنفس الإنسانية، والجوانب التربوية، والإدارية، والاقتصادية، والتنبؤية، والعلمية، وغير ذلك مما جاء في كتاب الله، وعلى ذلك فإن القرآن الكريم يبقى معجزاً في كل أمر من أموره، لأنه كلام الله الخالق البارىء المصور، فما من أمر من الأمور تعرَّض له هذا الكتاب الخالد إلا وهو

معجز حقاً، وما من زاوية من الزوايا ينظر منها إنسان عاقل بشيء من الموضوعية والحيدة إلى هذا القرآن الكريم إلا ويرى منها جانباً من جوانب الإعجاز؛ فالقرآن الكريم معجز في بيانه ونظمه، كما أنه معجز في محتواه من قواعد الدين الصحيح الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه، فهو معجز في عرضه لقضايا العقيدة، وأوامر العبادة، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، معجز في تشريعاته المحكمة الدقيقة العادلة، معجز في استعراضه التاريخي للعديد من الأمم السابقة أمة بعد أمة، موضِّحاً كيف تلقت وحي ربها، وتفاعلت مع أنبيائه ورسله، وكيف كان جزاؤها أو عقابها، معجز في خطابه للنفس البشرية، وتحريك كوامن الخير فيها، وتربيتها التربية الصحيحة، معجز في إشاراته العديدة إلى دخائل تلك النفس الإنسانية، وإلى إيحاءات الشيطان إليها، ومعجز في تنبؤاته المستقبلية، التي تحققت بعد نزوله بفترات طويلة ولا تزال تتحقق إلى يومنا هذا وحتى قيام الساعة، معجز في إشاراته إلى العديد من حقائق الكون وظواهره، وفي استعراضه لكيفية بداية الخلق، وإفناء الكون، وإعادة خلق كل ذلك من جديد، معجز في استعراضه للعديد من أمور الغيب، مثل البعث والحشر، والحساب، والصراط، والجنة والنار، معجز في كل كلمة من كلماته، وكل حرف من حروفه، وكل آية من آياته، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: إن هذا القرآن «**لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد**»[1].

وقد عالج كثير من العلماء عدداً من جوانب الإعجاز القرآني؛ إلا أن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لم تتضح لنا جوانبه الكثيرة إلا في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه في هذه الأيام؛ فأصبح أسلوباً فريداً في الدعوة إلى دين الله، في زمن فتح الله سبحانه وتعالى العديد من أسرار الكون ومكوناته للإنسان، وفتُن الناس فيه بالعلوم الكونية ومعطياتها فتنةً كبيرة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ **(الأنعام: 44)**.

الفرق بين التفسير العلمي، والإعجاز العلمي للقرآن الكريم

يحتوي القرآن الكريم على أكثر من ألف آية صريحة تتحدث عن الكون، ومكوناته وظواهره؛ بالإضافة إلى آيات أخرى كثيرة تقترب دلالاتها من الصراحة، وهذه الآيات لم ترد من قبيل الإخبار العلمي المباشر للإنسان؛ وذلك لأن الكشف العلمي قد ترك لاجتهاد الإنسان وتحصيله عبر فترات زمنية طويلة، نظراً لمحدودية القدرات الإنسانية، وللطبيعة

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (الحديث: 2906).

التراكمية للمعارف الكونية؛ ويؤكد ذلك أن كافة تلك الآيات الكونية قد جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق، وعلى أن الخالق المبدع ﷻ قادر على إفناء خلقه، وعلى إعادة هذا الخلق من جديد، وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير كما يحتاج غيرها من آيات هذا الذكر الحكيم، وهي بحكم طبيعتها لا يمكن أن تفهم فهماً دقيقاً في إطار اللغة وحدها. ومن هنا كان لزاماً علينا أن نوظف كافة المعارف الكونية الصحيحة والمتاحة في تفسير تلك الآيات الكونية الواردة في كتاب الله. ولمَّا كانت المعارف الكونية في تطور مستمر وجب على أمة الإسلام أن ينفر منها في كل جيل نفرٌ من علماء المسلمين، الذين يتزودون بالأدوات اللازمة، للتعرض لتفسير كتاب الله، من مثل الإلمام التام باللغة العربية، وعلومها المختلفة، وبأصول الدين، وبأسباب النزول، وبالناسخ والمنسوخ، وبالمأثور من التفسير، وبجهود السابقين من كبار المفسرين، وبأحدث العلوم المتاحة عن الكون، ومكوناته، وغير ذلك مما يحتاجه كل من يتشرف بالقيام بمثل هذه المهمة العظيمة.

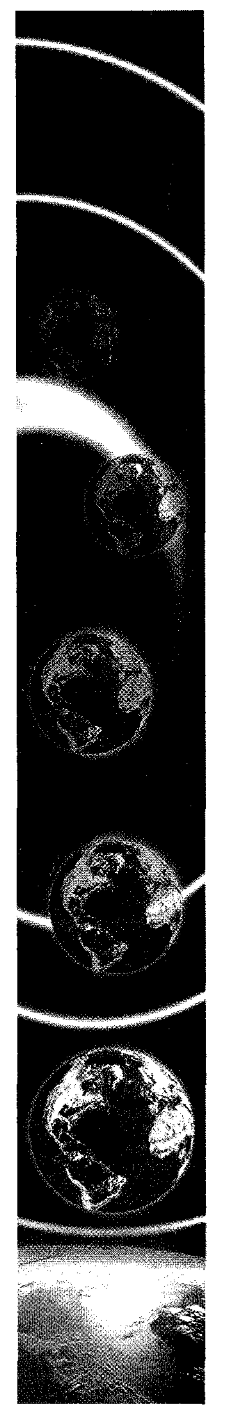
وفي **التفسير العلمي للآيات الكونية** يجب أن توظف كل المعارف المتاحة من الحقائق والثوابت العلمية، ولكن بما أن العلم لم يصل بعد إلى الحقيقة في كل أمر من الأمور، ولا يزال أمامه من الغيوب الشيء الكثير، فلا أرى حرجاً في مجال **التفسير العلمي للقرآن الكريم** من توظيف: النظريات، والفروض، والمشاهدات إذا لم تتوفر الحقائق والقوانين؛ وذلك لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، لمن أصاب فيه أجران ولمن أخطأ أجر واحد. والخطأ في التفسير لا يمكن أن ينسحب على جلال القرآن الكريم.

أما **الإعجاز العلمي للقرآن الكريم** فلا يجوز أن يوظف فيه إلا القطعي من الثوابت العلمية؛ وذلك لأن المقصود بالإعجاز العلمي هو: إثبات أن القرآن الكريم، الذي أوحي به إلى نبيٍّ أميٍّ ﷺ في أمة أميَّة، قبل أربعة عشر قرناً، يحوي من حقائق هذا الكون ما لم يتمكن الإنسان من الوصول إليه إلا منذ عقود قليلة، وبعد مجاهدات طويلة استغرقت أعمار آلاف من العلماء عبر عدد من القرون المتواصلة، وهذا لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً إلا بوحي من الله الخالق البارىء المصور.

وعلى ذلك فلا يجوز توظيف غير الحقائق القطعية الثابتة في مجال الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، باستثناء آيات الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثلاث: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان وإفناء ذلك كله وإعادة بعثه؛ وذلك لأن هذه القضايا لا يمكن أن تخضع مباشرة لإدراك الإنسان؛ ومن ثم فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز فيها

مرحلة التنظير، وتتعدد النظريات في مجال الخلق بتعدد خلفيات واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو في حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يمكن أن يعين المسلم على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد وصلت فيها إلى الحقيقة، ولكن لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ.

وهنا أيضاً لا بد من التأكيد على صعوبة التعرض لقضايا الإعجاز العلمي في كتاب الله إلا من قبل المتخصصين، كلٌ في حقل تخصصه، فلا يقوى فرد واحد على معالجة كل القضايا الكونية التي تعرض لها القرآن الكريم من خلق الكون وإفنائه، إلى خلق مراحل الجنين الإنساني المتعاقبة، إلى العديد من الظواهر الكونية المتكررة، إلى غير ذلك من مختلف الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، الخالد.



الباب الثاني

موقف المفسرين من الآيات الكونية في القرآن الكريم

طال الجدل حول جواز تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات علوم العصر وفنونه، وتفاوتت مواقف العلماء من ذلك تفاوتاً كبيراً بين مضيّقين وموسّعين ومعتدلين، مما يمكن أن نوجزه فيما يلي:

موقف المُضَيقِين:

وهو الموقف الذي يرى أصحابه أن تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، على ضوء ما تجمَّع لدى الإنسان من معارف هو نوع من التفسير بالرأي ـ الذي لا يجوز ـ استناداً إلى أقوالٍ منسوبة لرسول الله ﷺ منها: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[1]، و«**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[2]، وإلى أقوال منسوبة إلى كل من الخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، من قول الأول: «أيّ سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 2952) وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم (الحديث: 3505).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 2950).

قلت في كتاب الله برأيي؟» وقول الثاني: «اتَّبِعُوا ما تبيَّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكِلوه إلى ربه»، وكذلك استناداً إلى قول كلٍّ من سعيد بن المسيب وعبدِ الله ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيح المنقول عن الأول: «إنا لا نقول في القرآن شيئاً»، وإلى الثاني: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير». وإلى القول المنسوب إلى مسروق بن الأجدع رضي الله عنه: «اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله».

الرد على المُضَيِّقِين

أولاً: الرد على الرافضين للتفسير بالرأي:

فات أصحاب هذا الموقف المُضَيِّق أن المقصود بالرأي في الحديث هو الهوى، لا الرأي المنطقي المبني على الحجة الواضحة والبرهان المقبول، ويؤكد ذلك عبارة «بغير علم» التي وردت في الحديث الثاني، هذا بِغَضِّ النظر عن كون الحديثين قد اعتبرا من ضِعاف السند. كذلك فاتهم أن ما قد ورد على لسان بعض الصحابة والتابعين مما يوحي بالتَّحَرُّج من القول في القرآن الكريم بالرأي الاجتهادي، إنما هو من قبيل الورع، والتأدب في الحديث عن كلام الله؛ خاصة أنهم كانوا قد فُطِرُوا على فهم اللغة العربية، وفَطِنُوا بها وبأسرارها، ودَرَجُوا على عادات المجتمع العربي، وألَمُّوا بأسباب النزول، وعايشوا رسول الله ﷺ عن قرب وهو الموصول بالوحي، وسمعوه ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم ويفسّره، واستعانوا به على فهم ماوقفوا دونه، وأدركوا تفاصيل سنّته الشريفة في ذلك وغيره، فهل يمكن لمن توافر له كل ذلك أن يكون له مجالٌ للاجتهاد بالرأي؟ خاصة وأن العصر لم يكن عصر تَقَدُّم علمي كالذي نعيشه، وأنهم كانوا لا يزالون قريبي عهد بالجاهلية التي كان قد خَيَّم فيها ـ على شبه الجزيرة العربية، بل وعلى العالم أجمع ـ ركام من العقائد الفاسدة، والتصورات الخاطئة، والأفكار السقيمة، والأوهام والأساطير... ولم يسلم من ذلك الركام أحد حتى أصحاب الحضارات البائدة، وأن العصر كان عصر انتشار للإسلام، ودخول للكثيرين من أصحاب العقائد واللغات الأخرى في دين الله أفواجاً، ومعهم خلفياتهم الفكرية الموروثة، والتي لم يتمكنوا من التخلص منها كليّة بمجرد دخولهم في الإسلام، وأن أعداداً من هؤلاء كانوا قد دخلوا الإسلام دخولاً صورياً ليتآمروا عليه، ويكيدوا له وذلك بتأويل القرآن الكريم على وجوه غير صحيحة، من أجل تفتيت وحدة الصف الإسلامي، وبث بذور الفرقة فيه، وكان من نتائج ذلك هذا الفكر الغريب الذي دُسَّ على المسلمين، والذي عرف فيما بعد «بالإسرائيليات» نسبة إلى السلالات الفاسدة من بني إسرائيل (أي اليهود) الذين كثر النقل

عنهم، وكثر دَسُّهم على دين الله، وعلى أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين ـ، وكان من نتائجه كذلك بروز الشيع والفرق والطرائق المختلفة، ومحاولة كل فرقة منها الانتصار لرأيها بالقرآن، وهذا هو الهوى الذي عُبِّر عنه «بالرأي» فيما نُسب من أقوالٍ إلى رسول الله ﷺ وإلى عدد من صحابته الكرام وتابعيهم ـ عليهم رضوان الله أجمعين ـ.

كذلك فقد فات هؤلاء، وهم ينادون بعدم الاجتهاد بالرأي في فهم كتاب الله، والوقوف عند حدود المأثور؛ وهو ما نقل عن رسول الله ﷺ مباشرة، أو عن صحابته الكرام، أو عمن عاصر الصحابة من التابعين، موكلين ما لم يفسره التراث المنقول إلى الله وهو ما عرف «بمنهج التفسير بالمأثور أو التفسير بالمنقول»، وكلنا يعلم أن «التفسير بالمأثور» لم يشمل القرآن كله، فلحكمة يعلمها الله ـ وقد ندرك طرفاً منها اليوم ـ لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد في كل آية من آيات القرآن الكريم، وأن صحابته الكرام كانوا يجتهدون في فهم ما لم ينص عليه، وكانوا يختلفون في ذلك ويتفقون، وأن الثابت أنه ﷺ قد صوب رأي جماعة من أصحابه حين فسروا آيات من كتاب الله، وأنه قد دعا لابن عباس بقوله: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[1]، وأن ذلك وغيره من الأقوال المأثورة قد اتخذ دليلاً على جواز الاجتهاد في التفسير في غير ما حدده رسول الله ﷺ، فمما يروى عن علي ﷺ حين سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ أنه قال: «ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة، وفهم يؤتاه الرجل في كتابه». وهذا يؤكد على أن فهم المسلمين لدلالة آيات القرآن الحكيم وتدبر معانيها هي ضرورة تكليفية لكل قادر عليها مؤهل للقيام بها، وذلك يقرره الحق ﷻ في قوله وهو أحكم القائلين:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾. **(صٓ: 29).**

وهذه الآية الكريمة ـ وكثير غيرها من الآيات القريبة في المعنى ـ أمر صريح من الله ﷻ بتدبر آيات القرآن الكريم وفهم معانيها، فالقرآن ينعي على أولئك الذين لا يتدبرونه، ويستنبطون معانيه، وهذه آياته تقول:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾.... **(النساء: 82، 83).**

وتقول: ...﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤﴾.. **(محمد: 24).**

(1) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة (الحديث: 6318).

وقد ساق الإمام الغزالي رحمه الله الأدلة على جواز فهم القرآن بالرأي (أي بالاجتهاد) ثم أضاف: «فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً. والمنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه».

وبناء على ذلك فقد أجاز الغزالي لكل إنسان أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله، ولو أن المبالغة في استخدام تلك الرخصة قد أفرزت نتاجاً لم يكن كله مستساغاً مقبولاً لدى العلماء، مطابقاً لمقاصد القرآن الكريم في الهداية، فقد خرج قوم من المفسرين بالآيات القرآنية (إما عن عمد واضح أو جهل فاضح) إلى ما لا يقبله العقل القويم، والصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه والتابعين لهم، وعن المنطق اللغوي، وأساليب العرب في الأداء، حقيقة ومجازاً؛ وذلك لانطلاق الفرق المختلفة والمذاهب المتنوعة من غير أهل السنة والجماعة (من فقهية، وكلامية، وصوفية، وباطنية) من منطلق التعصب لمذاهبهم ومحاولاتهم إخضاع التفاسير لخدمة مللهم ونحلهم؛ مما أدى إلى الموقف المتشدد من القول في القرآن بالرأي، ومن ثم رفض تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات المعارف الإنسانية المكتسبة في حقل العلوم البحتة والتطبيقية.

وهناك أعداد كبيرة من علماء المسلمين الذين اقتنعوا بضرورة الاجتهاد في تفسير كتاب الله، ولكنهم حصروا ذلك في مناهج محددة منها «**المنهج اللغوي**» الذي يهتم بدلالة الألفاظ، وطرائق التعبير وأساليبه، والدراسات النحوية المختلفة، و«**المنهج البياني**» الذي يحرص على بيان مواطن الجمال في أسلوب القرآن، ودراسة الحس اللغوي في كلماته، و«**المنهج الفقهي**» الذي يركز على استنباط الأحكام الشرعية والاجتهادات الفقهية، كما أن من هؤلاء المفسرين من نادى بالجمع بين تلك المناهج في منهج واحد عرف باسم «**المنهج الموسوعي**» **(أو المنهج الجمعي)**، ومنهم من نادى بتفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات التي اشتمل عليها، وذلك بجمع الآيات الواردة في الموضوع الواحد في كل سور القرآن، واستنباط دلالاتها استناداً إلى قاعدة أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وقد عرف ذلك باسم «**المنهج الموضوعي في التفسير**».

ثانياً: الرد على الرافضين للتفسير العلمي:

أما «**المنهج العلمي في التفسير**» والذي يعتمد على تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله تعالى حسب اتساع دائرة المعرفة الإنسانية من عصر إلى عصر؛ وتبعاً للطبيعة التراكمية لتلك المعرفة فقد ظل مرفوضاً من غالبية المجتهدين في التفسير وذلك لأسباب كثيرة منها:

1 ـ أن «**الإسرائيليات**» كانت قد نفذت أول ما نفذت إلى التراث الإسلامي عن طريق محاولة السابقين تفسير تلك الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله، على أساس مما جاء في «سفر التكوين» وهو أحد أسفار خمسة توجد في مقدمة «العهد القديم» ويقال بأنها تمثل التوراة، علماً بأن هذه الفصول الخمس قد كتبت بعد وفاة موسى عليه السلام بأكثر من ثمانمائة سنة، وأنها قد تعرضت للعديد من التحريف والتزوير الذي أخرجها عن إطارها الرباني وملأها بالخرافات والأساطير التي يرفضها كل منطق سوي. وقد شاء الله تعالى أن يكل الناس في أمور الكشف عن حقائق هذا الكون إلى جهودهم المتتالية جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر...؛ ومن هنا جاءت الإشارات الكونية في القرآن الكريم بصيغة مجملة، يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني، وتظل تلك المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية، في تكامل لا يعرف التضاد؛ ومن هنا أيضاً لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد من جميع الإشارات القرآنية إلى الكون ومكوناته وظواهره في أحاديثه الشريفة، التي تناول بها شرح القرآن الكريم، ولكن لما كانت النفس البشرية تواقة دوماً إلى التعرف على أسرار هذا الوجود، ولما كان الإنسان قد شغل منذ القدم بتساؤلات كثيرة عن نشأة الكون، وبداية الحياة، وخلق الإنسان ومتى حدث كل ذلك؟ وكيف تم؟ وما هي مبرراته وحكمته؟ وغير ذلك من أسرار الوجود، فقد تجمع لدى البشر في ذلك تراث ضخم عبر التاريخ اختلط فيه الحق بالباطل، والواقع بالخيال، والعلم بالدجل والخرافة، وكان أكثر الناس حرصاً على هذا النوع من المعرفة المكتسبة هم رجال الدين في مختلف العصور، وقد كانت الدولة الإسلامية في أول نشأتها محاطة بحضارات عديدة تباينت فيها تلك المعارف وأمثالها، ثم بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية واحتوائها لتلك الحضارات المجاورة، ودخول أمم من مختلف المعتقدات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ إلى دين الله.. ووصول هذا التراث إلى اللغة العربية بعد قيامهم على ترجمته ونقده والإضافة إليه، حاول بعض المفسرين الاستفادة به في شرح الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم فضلوا سواء السبيل؛ لأن العصر لم يكن بعصر تطور علمي كالذي نعيشه اليوم؛ ولأن هذا التراث كان أغلبه في أيدي اليهود، وهم الذين تآمروا على الكيد للإسلام منذ بزوغ فجره، وإن النقل قد تم عمن أسلم ومن لم يسلم منهم، على الرغم من تحذير رسول الله ﷺ بقوله: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه**»[1].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير (الحديث: 4485) وفي كتاب: الشهادات باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها..

ويفسر ابن خلدون أسباب نقل هذه الإسرائيليات بقوله:

«والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمِّية، وإذا تشوفوا إلى معرفة شيء مما تتشوف إليه النفوس البشرية: في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذٍ هم أهل بادية مثلهم ولايعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لاتعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها...».

2 ـ أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية ـ كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات ـ بمعنى أنه كتاب دين الله الذي أوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد الله تعالى بحفظه فَحُفِظ؛ وعلى ذلك لا بد من التأكيد على أن القرآن الكريم ليس كتاب علم تجريبي، وأن الإشارات العلمية التي وردت به جاءت في مقام الإرشاد والموعظة لا في مقام البيان العلمي بمفهومه المحدد، وأن تلك الإشارات ـ على كثرتها ـ جاءت في أغلب الأحيان مجملة، وذلك بهدف توجيه الإنسان إلى التفكر والتدبر وإمعان النظر في خلق الله، لا بهدف الإخبار العلمي المباشر.

3 ـ أن القرآن الكريم ثابت لا يتغير، بينما يعتقد المضيقون أن معطيات العلوم التجريبية دائمة التغير والتطور، ويعتقدون كذلك أن ما تسمى بحقائق العلم ليست سوى نظريات وفروض يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما يبطل في الغد ما هو سائد اليوم، فلا يجوز الرجوع إليها عند تفسير كتاب الله العزيز لأنه لا يجوز تأويل الثابت بالمتغير.

4 ـ أن القرآن الكريم هو بيان من الله ﷻ، بينما معطيات العلوم التجريبية لا تعدو أن تكون مجرد محاولات بشرية للوصول إلى الحقيقة، ولا يجوز ـ في ظنهم ـ رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر، كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله تعالى بمعطيات العلوم المكتسبة؛ لأن القرآن الكريم بصفته كلام الله هو حجة على البشر كافة، وعلى العلم وأهله.

5 ـ أن العلوم التجريبية تصاغ في أغلب دول العالم اليوم صياغة تنطلق من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية ـ البحتة والتطبيقية ـ مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله ﷻ وبملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبحياة البرزخ وبالبعث والنشور

والحساب، وبالحياة الخالدة في الدار الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

6 ـ أن بعض معطيات العلوم التجريبية ـ بصياغاتها الحالية ـ قد يتباين مع عدد من الأصول الثابتة في الكتاب والسنة نظراً لصياغتها من منطلقات مادية بحتة، منكرة لكل حقائق الغيب أو متجاهلة لها.

7 ـ أن عدداً من المفسرين الذين تعرضوا لتأويل بعض الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحمله في تعسف واضح، وتكلف مفتعل بِلَيِّ أعناق الكلمات والآيات، وتحميلها من المعاني ما لا تحمله.

وهذه الحجج هي كلها حجج مردودة حجة بحجة كما يلي:

1 ـ أنه لا حاجة بنا اليوم إلى «**الإسرائيليات**» في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله؛ لأن الرصيد العلمي في مختلف تلك المعارف قد بلغ شأواً لم يبلغه من قبل، وإذا كان من استخدم «الإسرائيليات» من الأوائل قد ضل سواء السبيل، فإن من يستخدم حقائق العلم الثابتة اليوم في شرح تلك الآيات لا بد وأن يصل إلى فهم لها لم يكن من السهل الوصول إليه من قبل، وأن يجد في ذلك من صور الإعجاز ما لم يجده السابقون، تأكيداً لوصف رسول الله ﷺ للقرآن الكريم بأنه: «**لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد**»[1].

2 ـ أنه لا تعارض البتة بين كون القرآن الكريم كتاب هداية ربانية، وإرشاد إلٰهي، ودستور عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وكتاب تشريع سماوي يشمل نظاماً كاملاً للحياة، وبين احتوائه على عدد من الإشارات الكونية الدقيقة التي وردت في مقام الاستدلال على عظمة الخالق المتجلية في إبداعه للخلق، والمثبتة لقدرته على إفناء ما قد خلق، وإعادة كل ذلك من جديد؛ وذلك لأن هذه الإشارات القرآنية تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، فلا بد وأن تكون حقاً مطلقاً، فمن أدرى بالخليقة من الخالق ﷻ؟ ولو أن المسلمين وعوا هذه الحقيقة في القرنين الماضيين لكان لهم في مجال الدراسات الكونية سبق ملحوظ، وتفوق غير ملحوق، فنحن ندرك اليوم ـ وفي ضوء ما تجمع لنا من معارف في مجال دراسات العلوم البحتة والتطبيقية ـ أن آيات الكونيات في كتاب الله تتسم جميعها بالدقة المتناهية في التعبير، والإحاطة والشمول في المعنى، والاطراد والثبات في الدلالة، والسبق لكثير من الكشوف العلمية بعشرات المئات من السنين، وفي ذلك شهادة قاطعة ـ لا يستطيع

---

(1) سبق تخريجه.

أن ينكرها جاحد ـ بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى قيام الساعة.

أما القول بأن تلك الإشارات قد تم سردها بصورة مجملة، فإنها بحق إحدى صور الإعجاز العلمي والبياني في القرآن الكريم؛ وذلك لأن كل إشارة علمية وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز، والدقة في التعبير، والإحكام في الدلالة، والشمول في المعنى ما يعجز الإنس والجن مجتمعين عن الإتيان بشيء من مثله، لأنه يُمَكِّنُ الناسَ ـ على اختلاف ثقافاتهم، وتباين مستويات إدراكهم وتتابع أجيالهم وأزمانهم ـ أن يدركوا لها من المعاني ما يتناسب والخلفيات العلمية لكل منهم، بحيث تبقى المعاني المستخلصة من الآية الواحدة يكمل بعضها بعضاً في تناسق عجيب، وتكامل أعجب لأنه تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندي من أروع صور الإعجاز في كتاب الله، فالإجمال في تلك الإشارات مع وضوح الحقيقة العلمية للأجيال المتلاحقة ـ كلٌّ على قدر حظه من المعرفة بالكون وعلومه ـ هو بالقطع أمر فوق طاقة البشر، وصورة من صور الإعجاز لم تتوفّر ـ ولا يمكن أن تتوفر ـ لغير كلام الله الخالق، ومن هنا كان فهم الناس للإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء ما يتجمع لديهم من معارف، فهماً يزداد اتساعاً وعمقاً جيلاً بعد جيل، وهذا في ذاته شهادة للقرآن الكريم بأنه لا تنتهي عجائبه، ولا يبلى على كثرة الرد كما وصفه المصطفى ﷺ.

وقد أدرك نفر من السابقين ذلك وفي مقدمتهم «الإمام الزركشي» الذي كتب في كتابه: «البرهان في علوم القرآن» ما نصه: «وما من برهان ودلالة وتقسيم، وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين: **أحدهما** بسبب ما قاله ﷻ: . . . ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾. **(إبراهيم: 4)**. **والثاني**: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، وكذلك أخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم الحجة، وتفهم الخواص من أبنائها ما يوفي على ما أدركه الخطباء». . . ثم يضيف: «ومن ثم كان على كل من أصاب حظاً في العلم أوفر أن يكون نصيبه من علم القرآن أكثر، لأن عقله حينئذ يكون قد استنار بأضواء العلم، وهؤلاء الذين

اهتم القرآن بمناداتهم كلما ذكر حجة على الربوبية والوحدانية، أو أضاف إليهم أولو الألباب والسامعون والمفكرون والمتذكرون تنبيهاً إلى أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها».

من هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في كل عصر وفي كل جيل أن ينفر منهم من يستطيع أن يجمع إلى حقل تخصصه إلماماً بحد أدنى من علوم اللغة العربية وقواعدها وآدابها، ودلالات ألفاظها، وأساليب التعبير فيها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وجدله، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور في التفسير، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، ثم يعود هؤلاء إلى دراسة الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله ـ كل فيما يخصه ـ محاولين فهمها في ضوء معطيات العلم وكشوفه، وقواعد المنطق وأصوله حتى يدركوا ما يستطيعون من فهم لدلالة تلك الإشارات الكونية في القرآن الكريم حتى تتحقق نبوءة المصطفى ﷺ في وصفه لكتاب الله «**أنه لا تنتهي عجائبه..**».

3 ـ إن القول بعدم جواز تأويل الثابت بالمتغير قول ساذج؛ لأن معناه الجمود على فهم واحد لكتاب الله، ينأى بالناس عن واقعهم في كل عصر، حتى لايستسيغوه فيملوه ويهملوه، وثبات القرآن الكريم هو ثبات في أصول الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات ـ وهو من السمات البارزة له ـ ولكن هذا الثبات في أصول الدين لا يمنع من فهم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من حقائق العلوم الكونية، حتى لو كان ذلك يتسع من عصر إلى آخر بطريقة مطردة، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعة تراكمية، لا يتوافر للإنسان منها في عصر من العصور إلا أقدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة، وتباين العصور تقدماً واضمحلالاً، وهذه الطبيعة التراكمية للمعرفة الإنسانية المكتسبة تجعل الأمم اللاحقة أكثر علماً ـ بصفة عامة ـ من الأمم السابقة؛ إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بأكملها للانتكاس والتدهور.

من هنا كانت معطيات العلوم الكونية ـ بصفة خاصة، والمعارف المكتسبة كلها بصفة عامة ـ دائمة التغير والتطور، إلا فيما ثبت منها، ووصل إلى مرتبة الحقيقة أو القانون، بينما كلمات وحروف وآيات وسور القرآن الكريم ثابتة لا تتغير، حتى في الإشارات العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره؛ لأنها صيغت بطريقة تمكنها من استيعاب المعرفة الإنسانية والهيمنة عليها مهما اتسعت دوائرها مع الزمن؛ وهذا وحده من أعظم شواهد الإعجاز في كتاب الله. فعلى الرغم من ثبات اللفظ القرآني، وتطور الفهم البشري لدلالاته ـ مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل ـ فإن تلك الدلالات يتكامل بعضها مع بعض في

اتساق لا يعرف التضاد، ولا يتوافر ذلك لغير كلام الله، ويظل اللفظ القرآني ـ في إشاراته إلى الكون ومكوناته وظواهره ـ ثابتاً، وتتوسع دائرة فهم الناس له عصراً بعد عصر.. وفي ذلك شهادة للقرآن الكريم بأنه يغاير كلام البشر، وأنه بالقطع بيان من الله، ولذلك فإننا نجد القرآن الكريم يحض الناس حضاً على تدبر آياته، وفهم دلالاتها، ويتحدى أهل الكفر والشرك والإلحاد أن يجدوا فيه صورة واحدة من صور الاختلاف أو التناقض على توالي العصور، وكثرة النظر فيه، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

(النساء: 82).

وإذ يكرر هذا التساؤل التقريعي في سورة الرحمٰن إحدى وثلاثين مرة فيقول:

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ويؤكد ضرورة تدبر القرآن وأنه ـ تعالى ـ قد جعله في متناول عقل الإنسان فيذكر ذلك أربع مرات في سورة القمر حيث يصدع التنزيل بقول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **(القمر: الآيات 17 و22 و32 و40).**

والذكر هنا ـ كما يجمع المفسرون ـ يشمل التلاوة والتدبر معاً، ويشير إلى استمرار تلك العملية مع تبادل العصور وتجدد الأزمان، ومن هنا يبقى النص القرآني في أصول الدين ثابتاً لصياغته صياغة محكمة لا تقبل معنيين، وهي في نفس الوقت صياغة واضحة الدلالة يفهمها الإنسان قلّت ثقافته أم زادت، فالأمر بتوحيد الله وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله لا يحتمل إلا معنى واحداً، والأمر بالصلاة أو بالزكاة، أو بالصيام أو بالحج لمن استطاع إليه سبيلاً لا يحتمل معنيين أبداً؛ كذلك يبقى النص القرآني الكوني ثابتاً، ويتجدد فهم الناس له كلما اتسعت دائرة معارفهم ونمت حصيلتهم العلمية، وذلك بالقطع ـ فيما لم يرد في شرحه شيء من المأثور الموثق، وليس في ذلك مقابلة بين كلام الله وكلام الناس ـ كما يدعي البعض ـ ولكنه المحاولة الجادة لفهم كلام الله وهو الذي أنزله للبشر لكي يفهموه ويتعظوا بدروسه، وفهم كلام الله على مستوى معارف العصر فيه معايشة للعصر، وفيه ـ في نفس الوقت ـ إدراك لجانب من جوانب الإعجاز في كتاب الله، لا ينكره إلا جاحد.

أما القول بأن ما يسمى بحقائق العلم ليست إلا نظريات وفروضاً، يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما يبطل في الغد ما هو سائد اليوم فهو أيضاً قول ساذج، لأن هناك فروقاً واضحة بين الفروض والنظريات من جهة والحقائق والقوانين من جهة أخرى،

وهي مراحل متتابعة في منهج العلوم التجريبية الذي يبدأ بالفروض ثم النظريات وينتهي بالحقائق والقوانين، والفروض هي تفسيرات أولية للظواهر الكونية، والنظريات هي صياغة عامة لتفسير كيفية حدوث تلك الظواهر ومسبباتها، أما الحقائق الكونية فهي كل ما ثبت أو يثبت ثبوتاً قاطعاً في علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة، وهي جزء من الحكمة التي نحن أولى الناس بها، وكذلك القوانين العلمية فهي تعبيرات بشرية عن السنن الإلٰهية في الكون، تصف علاقات محددة تربط بين عناصر الظاهرة الواحدة، أو بين عدد من الظواهر الكونية المختلفة، وهي كذلك جزء من الحكمة التي أُمرنا بأن نجعلها «**ضالة المؤمن**»[1]، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ.

لذا حرص كثير من علماء المسلمين على ألا يتم تأويل الإشارات العلمية، الواردة في القرآن الكريم إلا في ضوء الحقائق العلمية المؤكدة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تخديمها في فهم ذلك، وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظاً مبالغاً فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم في فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية ولا يجدون حرجاً في ذلك في غيبة نص ثابت مأثور، فإننا لا نرى حرجاً على الإطلاق في فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة؛ وذلك لأن العلوم المكتسبة لم تصل بعد إلى الحقيقة القاطعة في كل أمر من أمور الكون، وأن من أمور الكون ما لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيه مرحلة التنظير من مثل قضايا الخلق بأبعادها الثلاث: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، وهنا تكثر الفروض والنظريات، ويبقى للمسلم نور من الله الخالق في آية قرآنية صريحة، أو في حديث صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يمكن أن يعين العالم المسلم على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة؛ ويبقى التفسير جهداً بشرياً خالصاً، بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص، وعدم الكمال بسبب محدودية القدرة، ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون على نظرية ما؛ لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة الحقيقة، وقد لا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوى أبداً، فمن أمور الكون العديدة ما لا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبداً، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين على بلورة نظرية من النظريات، ويبقى العلم التجريبي مسلماً بأنه لا يستطيع أن

(1) الحديث بنصِّه أخرجه الترمذي في كتاب: العلم (الحديث: 2687)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد (الحديث: 4169).

يتعدى تلك المرحلة في ذلك المجال بعينه أبداً، والأمثلة على ذلك كثيرة منها النظريات المفسرة لأصل الكون وأصل الحياة وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد من النظريات، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون في يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية على أُخرى، أو تطوير لنظرية عن أُخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادعاء بالوصول إلى قانون قطعي، أو قاعدة ثابتة لذلك، فهذه مجالات فوق طاقة القدرة الإنسانية لأنها لا تخضع مباشرة لإدراك الإنسان. ولذلك فإن الإنسان إذا دخل إلى تلك القضايا الغيبية بغير هداية ربانية فإنه يضل ضلالاً بعيداً، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ **(الكهف: 51)**.

وذلك لأنه على الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرئون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج، في عمليات قابلة للتكرار والإعادة، إلا أن من أمور الكون ما لا يمكن إخضاعه لذلك أبداً مثل قضايا الخلق خلق الكون، وخلق الحياة وخلق الإنسان وهي قضايا لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبداً بغير هداية ربانية، ولولا الثبات في سنن الله التي تحكم الكون وما فيه ما تمكن الإنسان من اكتشاف أي من تلك السنن. ولا يظن عاقل أن البشر مطالبون بما هو فوق طاقاتهم، خاصة في فهم كتاب الله الذي أنزل إليهم، ويسّر لهم لقول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **(القمر: الآيات 17، 22، 32، 40)**

ففي الوقت الذي يقرر القرآن الكريم أن الله لم يُشهد أياً من الجن أو الناسِ خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم، نجده في آيات أُخر يأمرهم بالنظر في كيفية بداية الخلق، وهي من أصعب قضايا العلوم الكونية قاطبة إذ يقول ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ **(العنكبوت: 19، 20)**

مما يشير إلى أن بالأرض سجلاً حافلاً بالحقائق التي يمكن أن يستدل منها على كيفية الخلق الأول، وعلى إمكانية النشأة الآخرة، والأمر في الآية من الله تعالى إلى رسوله الكريم لِيَدْعُوَ الناس كافة إلى السير في الأرض، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول، وهي قضية تقع من العلوم الكونية في الصميم، إن لم تكن تشكل أصعب قضية

عالجها الإنسان. وهذه القضايا: قضايا الخلق وإفنائه وإعادة خلقه لها في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ من الإشارات اللطيفة ما يُمَكِّن الإنسان المسلم من تفضيل نظرية من النظريات والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود ذكر لها في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم وليس العكس.

وعلى ذلك فإني أرى جواز فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولاً، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة، فإن لم تتوافر فبالفرض العلمي المنطقي المقبول، حتى لو أدى التطور العلمي في المستقبل إلى تغيير تلك النظرية، أو ذلك الفرض أو تطويرهما أو تعديلهما؛ لأن التفسير ـ كما سبق وأن أشرت ـ يبقى اجتهاداً بشرياً خالصاً من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيه المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، ويبقى هذا الاجتهاد، قابلاً للزيادة والنقصان، وللنقد والتعديل والتبديل، علماً بأن الخطأ في التفسير لا ينسحب على جلال القرآن الكريم.

ثالثاً: الرد على القائلين بعدم جواز رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر:

إن في كون القرآن الكريم بياناً من الله ﷻ إلى الناس كافة، يفرض عليهم ـ بصفة عامة ـ وعلى المسلمين منهم ـ بصفة خاصة ـ أن يفهموا كل ما جاء فيه متعلقاً بأصول الدين ـ من العقيدة، والعبادة، والأخلاق والمعاملات ـ؛ وهذه كلها جاءت بصياغة محكمة لا تحتمل معنيين، يفهمها البدوي في قلب الصحراء كما يفهمها أساتذة التفسير؛ أما غير ذلك من القضايا التخصصية من مثل آيات الأنفس والآفاق فعلى المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموها ـ كلٌّ في حقل تخصصه ـ على ضوء ماتجمع له من معارف، وذلك بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة، فالقرآن نزل للناس ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم إن تفسير آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم التجريبية لا يشكل احتجاجاً على القرآن بالمعارف المكتسبة، ولا انتصاراً له بها، فالقرآن ـ بالقطع ـ فوق ذلك كله، والتفسير على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم في إطار لم يكن متوفراً للناس من قبل، ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله، سواء أصابت تلك المحاولات أم أخطأت، وإلا لما حفل القرآن الكريم بهذا الحشد الهائل من الآيات التي تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر في مختلف جنبات الكون بمنهج علمي استقرائي دقيق؟. وذلك لأن الله تعالى قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد يمكّن حواس الإنسان المتأمل لها، المتفكر فيها، المتدبر لتفاصيلها من

إدراك أسرارها ـ على الرغم من حدود قدرات تلك الحواس ـ، ويعين عقله على فهمها ـ على الرغم من حدود قدرات ذلك العقل ـ وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التي يزخر بها القرآن الكريم، ويمن علينا ربنا ﷻ ـ وهو صاحب الفضل والمنة ـ بهذا التسخير الذي هو من أعظم نعمه علينا نحن معشر العباد.

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل في الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حدث وقع في الكون صغر أم كبر، أدلة مدونة في صفحة السماء، وفي صخور الأرض، بصورة يُمَكِّنُ لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمي الاستقرائي الصحيح؛ فما من انفجار حدث في صفحة الكون إلا وهو مدون، وما من نجم انفجر أو خمد إلا وله أثر، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهي مسجلة في صخور القشرة الأرضية، وما من تغير في تركيب الغلاف الغازي أو المائي للأرض إلا وهو مدون في صخورها، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها، ولا تغير في المناخ إلا وهو مدون في صخور الأرض كذلك، وما من هبوط نيازك أو أشعة كونية على الأرض إلا وهو مسجل في صخورها. ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل في الكون واستخلاص سنن الله فيه وتوظيف تلك السنن في عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف فيها هي دعوة للناس في كل زمان ومكان، وهي دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل انطلاقاً من الحقيقة الواقعة أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقى ـ دوماً ـ مهيمناً عليها، ومحيطاً بها، لأنه كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره، وإثبات جوانب الإعجاز فيه لا تنتقص من جلال الربوبية الذي يتلألأ بين كلمات هذا البيان الرباني الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتاً على إيمانهم، وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين؛ وحتى لو أخطأ المفسر في فهم دلالة آية من آيات القرآن الكريم فإن هذا الخطأ يعود على المفسر نفسه ولا ينسحب على جلال كلام الله أبداً. والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ، فليحاول العلماء التجريبيون تفسير الآيات الكونية بما تجمع لديهم من معارف لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهماً كاملاً، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها في حدود الدلالات اللغوية وحدها، وعليهم أن يلتزموا بالضوابط الموضوعة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله، حتى لا يخرجوا عن المنهج الصحيح للتعامل مع تلك القضية التخصصية، فيضروا من حيث أرادوا أن ينفعوا.

رابعاً: الرد على المدعين بكفر الكتابات العلمية المعاصرة:

إن الاحتجاج بأن العلوم الكونية ـ في ظل الحضارة المادية المعاصرة ـ انطلقت ولا تزال تنطلق ـ في معظمها ـ من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بعملية الخلق ولا بالخالق ﷻ، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فمرده بعيد عن طبيعة العلوم الكونية ومعطياتها، وإنما يرجع ذلك إلى العقائد الفاسدة التي أفرزتها الحضارة المادية المعاصرة، والتي تحاول فرضها على كل استنتاج علمي كلي، وعلى كل رؤية شاملة للكون والحياة، والإنسان. وقد حققت الحضارة المادية المعاصرة قفزات هائلة في مجال العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، بينما تخلف المسلمون في العديد من أمور الحياة ـ بصفة عامة ـ وفي مجال العلوم والتقنية ـ بصفة خاصة ـ مما أدى إلى انتقال القيادة الفكرية في هذه المجالات إلى أمم سبق للعلماء فيها أن عانوا معاناة شديدة من تسلط الكنيسة، واضطهادها، ورفضها للمنهج العلمي بكل معطياته، كما حدث في أوروبا في أوائل عصر النهضة. وانتهى هذا الصراع بانتصار العلم وأهله، وانكسار الكنيسة وانحسارها فانطلق العلماء الغربيون من منطلق العداوة للكنيسة إلى إنكار الغيب ورفض الدين كلية، فداروا بالعلوم الكونية ومعطياتها في إطارها المادي فقط، وبرعوا في ذلك براعة ملحوظة، ولكنهم ضلوا السبيل وتنكبوه حينما حبسوا أنفسهم في إطار المادة، ولم يتمكنوا من إدراك ما فوقها، أو منعوا أنفسهم من التفكير فيه، فأصبحت الغالبية العظمى من العلوم والمعارف تكتب من مفهوم مادي صرف. ثم انتقلت عدوى ذلك إلى عالمنا المسلم أثناء مرحلة اللهث وراء اللحاق بالركب التي نعيشها، وما صاحب ذلك من مركبات الشعور بالنقص، أو نتيجة لدس الأعداء، وانبهار البلهاء بما حققته الحضارة المادية المعاصرة من انتصارات في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، وما وصلت إليه من أسباب القوة والغلبة، وما حملته معها حركة الترجمة من غث وسمين، فأصبحت العلوم تكتب اليوم في عالمنا المعاصر من نفس المنطلق المادي لأنها عادة ما تدرس وتكتب وتنشر بلغات أجنبية على نفس النمط الذي أرست قواعده الحضارة المادية، وحتى ما ينشر منها باللغة العربية، وبغيرها من اللغات المحلية، لا يكاد يخرج في مجموعه عن كونه ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للفكر الغريب الوافد، بكل ما فيه من تعارض واضح أحياناً مع نصوص الدين. وتقتضي الأمانة إثبات أن ذلك الموقف غريب على العلم وحقائقه، ومن هنا أيضاً كان من واجب المسلمين إعادة التأصيل الإسلامي للمعارف الإنسانية المكتسبة؛ أي إعادة كتابة العلوم بل والمعارف كلها

من منطلق إسلامي صحيح، خاصة وأن المعطيات الكلية للعلوم ـ بعد وصولها إلى قدر من التكامل في هذا العصر ـ أصبحت من أقوى الأدلة على وجود الله، وعلى تفرده بالألوهية، والربوبية والوحدانية، ومن أنصع الشواهد على حقيقة الخلق، وحتمية البعث، وضرورة الحساب، والعلوم الكونية كانت ولا تزال النافذة الرئيسة التي ينظر منها الإنسان السويّ إلى بديع صنع الله فيشهد بوجوده ﷻ، ويدرك شيئاً من صفاته العليا؛ وهي أيضاً النافذة المباشرة التي تتصل منها الحضارة المعاصرة بالفطرة الربانية. والمنهج العلمي ونجاحه في الكشف عن عدد من حقائق هذا الكون متوقف على اتساق تلك الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبات، وهما اطراد وثبات لا يمكن أن يكونا إلا نتاج تدبير وتقدير من إلٰه عليم خبير قدير...!!

خامساً: الرد على الادعاء بالتعارض بين معطيات العلم والدين:

إن القول بأن عدداً من المعطيات الكلية للعلوم الكونية ـ كما تصاغ في الحضارة المادية المعاصرة ـ قد تتباين مع الأصول الإسلامية الثابتة هو قول على إطلاقه غير صحيح؛ لأنه إذا جاز ذلك في بعض الاستنتاجات الجزئية الخاطئة، أو في بعض الأوقات المعينة كما كان الحال في مطلع هذا القرن ـ والمعرفة بالكون جزئية متناثرة، ساذجة بسيطة ـ أو في الجزء المتأخر منه ـ عندما أدت المبالغة في التخصص إلى حصر العلماء في دوائر ضيقة للغاية حجبت عنهم الرؤية الكلية لمعطيات العلوم ـ فإنه لا يجوز اليوم ترديد هذا الادعاء الباطل، وقد بلغت المعارف بأشياء هذا الكون حدًّا لم تبلغه البشرية من قبل، وقد أصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد على ضرورة الإيمان بالخلق، وبالخالق البارىء المصور، والتسليم بالغيب وبالوحي وبالبعث وبالحساب.

وإنه لمن المعطيات الكلية للعلوم الكونية المعاصرة ما يمكن إيجازه فيما يلي:

- إن هذا الكون الذي نحيا فيه متناهٍ في أبعاده مذهل في دقة بنائه، مذهل في إحكام ترابطه وانتظام حركاته.
- إن هذا الكون مبني على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته.
- إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا يستطيع العلم المكتسب إدراكها.
- إن هذا الكون ـ على قدمه ـ مستحدث مخلوق، كانت له في الماضي السحيق بداية حاول العلم التجريبي معرفتها، ووصل فيها إلى دلالات تكاد تكون ثابتة ـ لو استبعدنا الأخطاء التجريبية.

• إن هذا الكون عارض مستحدث كانت له بداية، وكل ما له بداية فلا بد وأنه ستكون له في يوم من الأيام نهاية؛ ونهاية كوننا تشير إليها كل الظواهر من حولنا.

• إن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته.

• إن هذا الكون المتناهي الأبعاد، الدائم الاتساع، المحكم البناء، الدقيق الحركة والنظام إلى درجة أن كل ما فيه يدور في مدارات محددة وبسرعات مذهلة متفاوتة وثابتة، وكون هذا شأنه لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة.

• هذه المعطيات تفضي إلى حقيقة منطقية واحدة مؤداها أنه إذا كان هذا الكون الحادث لا يمكن أن يكون قد أوجد ذاته بنفسه، ولا يمكن أن يكون قد أوجد بمحض المصادفة، فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والحكمة والقدرة وغير ذلك من صفات الكمال والتنزيه ما لا يتوافر لأحد من خلقه، بل ما يغاير صفات المخلوقات جميعاً، فلا تحده حدود المكان والزمان ولا قوالب المادة والطاقة، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا ينسحب عليه ما يحكم خلقه من سنن وقوانين، لأنه ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ **(الشّورى: 11)**

• هذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة على إزالته وإفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ **(الأنبياء: 104)**

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ **(النّحل: 40).**

• إن الوحدة في هذا الكون تشير إلى وحدانية هذا الخالق العظيم: وحدة بناء كل من الذرة والخلية الحية والمجموعة الشمسية والمجرة وغيرها، ووحدة تآصل العناصر كلها وردّها إلى أبسطها وهو غاز الإيدروجين، وتواصل كل صور الطاقة، وتواصل المادة والطاقة، وتواصل المخلوقات، هذا التواصل وتلك الوحدة التي يميزها التنوع في أزواج، وتلك الزوجية التي تنتظم كل صور المخلوقات من الأحياء والجمادات تشهد بتفرد الخالق البارىء المصور بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، كما تشهد بكبرياء واستعلاء هذا الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد فوق خلقه بمقام الألوهية والربوبية الذي لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه على سلطانه منازع، ولا يشبهه من خلقه شيء.

• إن العلوم التجريبية في تعاملها مع المدرك المحسوس فقط، قد استطاعت أن تتوصل إلى أن بالكون غيباً قد لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه، ولولا ذلك الغيب ما استمرت تلك العلوم في التطور والنماء، لأن أكبر الاكتشافات العلمية قد نمت نتيجة للبحث الدؤوب عن هذا الغيب.

• تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء سراً لا نعرف كنهه، لأننا نعلم مكونات الخلية الحية، والتركيب المادي لجسد الإنسان، ومع ذلك لم يستطع هذا العلم أن يصنع لنا خلية حية واحدة، أو أن يوجد لنا إنساناً عن غير الطريق الفطري لإيجاده.

• إن النظر في أي من زوايا هذا الكون ليؤكد حاجته ـ بمن فيه وما فيه ـ إلى رعاية خالقه العظيم في كل لحظة من لحظات وجوده، وذلك لأن الكون مليء بالمخاطر، والأرض محاطة بها من كل جانب.

• إن العلوم الكونية إذ تقدر أن الكون والإنسان في شكليهما الحاليين ليسا أبديين، فإنها ـ وعلى غير قصد منها ـ لتؤكد حقيقة الآخرة، بل وعلى حتميتها، والموت يتراءى في مختلف جنبات هذا الكون في كل لحظة من لحظات وجوده، شاملاً الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأجرام السماء على تباين هيئاتها، وتكفي في ذلك الإشارة إلى ما أثبتته المشاهدة من أن الشمس تفقد من كتلتها بالإشعاع ما يقدر بحوالي 4,6 مليون طن في كل ثانية وأنها إذ تستمر في ذلك فلا بد من أن يأتي الوقت الذي تخبو فيه جذوتها، وينطفىء أوراها، وتنتهي الحياة على الأرض قبل ذلك، لاعتمادها في ممارسة أنشطتها الحيوية على أشعة الشمس، وأن الطاقة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل حرارة بطريقة مستمرة في محاولة لتساوي درجات حرارة الأجرام المختلفة في الكون، ولا بد أن تنتهي بذلك أو قبله كل صور الحياة المعروفة لنا، وليس معنى ذلك أنه يمكن معرفة متى تكون نهاية هذا الوجود، لأن الآخرة قرار إلهي لا يرتبط بسنن الدنيا، وإن أبقى الله تعالى لنا في الدنيا من الظواهر والسنن ما يؤكد إمكانية وقوع الآخرة، بل حتميتها انصياعاً للأمر الإلهي «كن» فيكون.

وإن الإنسان الذي يحوي جسده في المتوسط ألف مليون مليون خلية يفقد منها في كل ثانية ما يقدر بحوالي 125 مليون خلية تموت ويتخلق غيرها بحيث تتبدل جميع خلايا جسد الفرد من بني البشر مرة كل عشر سنوات تقريباً، فيما عدا الخلايا العصبية التي إذا ماتت لا تتجدد، وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن انتقال «الالكترون» من مدار إلى آخر حول نواة الذرة يتم بسرعة مذهلة دفعت بعدد من العلماء إلى الاعتقاد بأنه فناء في مدار وخلق جديد في مدار آخر، كما تكفي الإشارة إلى ظاهرة اتساع الكون عن طريق تباعد

المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة تقترب من سرعة الضوء ـ أي حوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية ـ وتخلق المادة في المسافات البينية الجديدة الناتجة عن هذا التباعد المستمر بطريقة لا يعلمها إلا الله، وتباطؤ هذا التباعد الناتج عن ظاهرة الانفجار العظيم مع الزمن، مما يشير إلى حتمية تغلب الجاذبية في وقت ما لا يعلمه إلا الله على عملية الدفع إلى الخارج مما يؤدي إلى إعادة جمع كل الأمكنة والأزمنة، وكل مادة الكون، ومختلف صور الطاقة فيه في جرم واحد ذي كثافة بالغة، مما يجعله في حالة من عدم الاستقرار تؤدي إلى انفجاره على هيئة شبيهة بالانفجار الأول الذي تم به خلق الكون، فيتحول هذا الجرم إلى غلالة من دخان كما تحول الجرم الأول، وتتخلق من هذا الدخان أرض غير الأرض، وسمٰوات غير السمٰوات كما وعد ربنا ﷻ بقوله ﷻ:

﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ **(الأنبياء: 104).**

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ **(إبراهيم: 48).**

وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن الذرات في جميع الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية تترتب ترتيباً يسارياً في أجساد كافة الكائنات الحية على اختلاف مراتبها، فإذا ما مات الكائن الحي أعادت تلك الذرات ترتيب نفسها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة محددة يمكن باستخدامها تحديد لحظة وفاة الكائن الحي إذا بقيت من جسده بقية بعد مماته، ويتعجب العلماء من القدرة التي مكنت الذرات من تلك الحركات المنضبطة بعد وفاة صاحبها وتحلل جسده!! فهل يمكن لعاقل بعد ذلك أن يتصور أن العلوم الكونية ومعطياتها ـ في أزهى عصور ازدهارها ـ تتصادم مع قضية الإيمان بالله؟ وهذه هي معطياتها الكلية، وهي في جملتها تكاد تتطابق مع تعاليم السماء، وفي ذلك كتب المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي رحمه الله في خاتمة كتابه «المستقبل للإسلام» ما نصه:

«إن كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمي، هي تقرب إلى ديننا الفطري، حتى ينتهي الأمر إلى الإقرار الإجماعي بأنه الدين الحق».

ثم يضيف: «نعم إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد وإمعانه في النقد والتمحيص، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام، بخطوات متزنة ثابتة، لاتوجد قوة في الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية».

وقد بدأت بوادر هذا التحول الفكري تظهر جلية اليوم، وفي مختلف جنبات الأرض، بإقبال أعداد كبيرة من العلماء والمتخصصين وكبار المثقفين والمفكرين على الإسلام، إقبالاً لم تعرف له الإنسانية مثيلاً من قبل، وأعداد هؤلاء العلماء الذين توصلوا إلى الإيمان بالله عن طريق النظر المباشر في الكون، واستدلوا على صدق خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بالوقوف على عدد من الإشارات العلمية البارقة الصادقة في كتاب الله، هم في تزايد مستمر، وهذا واحد منهم: «**موريس بوكاي**» الطبيب والباحث الفرنسي يسجل في كتابه «الإنجيل والقرآن والعلم» مانصه:..

«لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير ـ إلى هذا الحد ـ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص دوِّن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً».

وعلى ذلك فإن فهم الإشارات الكونية في كتاب الله، على ضوء ما تجمع للبشرية اليوم من معارف، وتقديمها للعالم كواحد من الأدلة العديدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله بعلمه والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي حفظ بحفظ الله، بنفس اللغة التي أوحي بها، بدقائق حروفه وكلماته وآياته وسوره، يعتبر فتحاً جديداً للإسلام، وإنقاذاً للبشرية من الهاوية التي تتردى فيها اليوم بسبب تقدمها العلمي والتقني المذهل، وتضاؤل روح الإيمان بالله، وانعدام الخشية من عذابه في نفوس القطاع الأكبر من الناس خاصة في أكثر المجتمعات البشرية المعاصرة أخذاً بأسباب التقدم العلمي والتقني، فأغلب المجتمعات البشرية في الدول غير المسلمة تعاني اليوم من انفراط عقد الأسرة، وإباحية للممارسات الجنسية بدون أدنى رباط، فكثر حمل المراهقات، وأبناء الزنا، والأسر ذات العائل الواحد، وتفشت الأمراض والأوباء والعلل مما لم يكن معروفاً من قبل، وقننت الحكومات التشريعات للعلاقات الشاذة، وصرحت بتبني الأطفال وتنشئتهم في وسط الشواذ، وهي عمليات مدمرة للفطرة الإنسانية، كثرت بأسبابها الأزمات النفسية وأمراضها، وتضاعفت معدلات كلٍّ من الإدمان والجريمة والانتحار، وملئت أكثر المجتمعات البشرية ثراء وتطوراً مادياً بأخطر مشاكل المجتمعات الإنسانية تعقيداً على الإطلاق...!!!

ومن هؤلاء الذين لايعرفون لهم أباً، والذين خرجوا إلى الحياة بطرق غير مشروعة، ونشؤوا في بيئات فاسدة، وبين سلوكيات منحطة وضيعة، من يمكن أن يصل إلى مقام

السلطة في دول تملك من تقنيات ووسائل الغلبة المادية، من مختلف أسلحة الدمار الشامل ما يمكن أن يعينه على البطش بالخلق، وإفشاء الظلم، وتدمير الحياة على سطح الأرض، وإفساد بيئاتها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها...!!! ولا يجد من دين، أو خلق، أو منطق، أو أسرة، أو مجتمع أي رادع يمكن أن يرده عن ذلك. . . !!!

وأغلب وسائل الإعلام في العالم قد وقعت اليوم في أيدي اليهود، في مؤامرة خسيسة على الإنسانية ـ واليهود هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا بصفة خاصة وللإنسان غير اليهودي بصفة عامة ـ فوظفوا كافة تلك الوسائل الإعلامية في تدمير البقية الباقية من عقائد وأخلاقيات وسلوكيات المجتمعات الإنسانية، وفي تشويه صورة الإسلام في أذهان الناس، في محاولات يائسة للصد عنه، وذلك لأن مما يسوءهم أن يروا الإسلام ينتشر في مجتمعاتهم في الوقت الذي يتصورون فيه أنهم قد أحاطوا بالإسلام والمسلمين إحاطة كاملة، وأحكموا قبضتهم عليهم. . . !!

واليوم يقبل على الإسلام في الغرب والشرق قمم الفكر والعلم والرأي، لأنهم يرون فيه المخرج الوحيد من الوحل النتن الذي غاصت فيه مجتمعاتهم، والذي يغوصون فيه إلى أذقانهم في غالبيتهم الساحقة.

ووسيلتنا في تحسين صورة الإسلام في العالم هي حسن الدعوة إليه بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي. وخير ما نقدمه في ذلك المضمار مما يتناسب مع طبيعة العصر ولغته هو **الإعجاز العلمي للقرآن الكريم،** لأننا نعيش في زمن أدار غالبية الناس ظهورهم فيه للدين، ولم تعد قضايا الغيب المطلق من بعث بعد الموت، وعرض أكبر أمام الله الخالق، وخلود في حياة قادمة: إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً، وغيرها من قضايا الدين لم تعد تحرك فيهم ساكناً، ولكنهم في نفس الوقت قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، فإذا أشرنا إلى سبق للقرآن الكريم في الإشارة إلى عدد من حقائق الكون قبل أن يصل الإنسان إلى شيء منها بعشرات المئات من السنين، وهو الكتاب الذي أنزل على نبي أميّ ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، فإن ذلك سوف يحرك عقولهم وقلوبهم، وسوف يحضهم على قراءة كتاب الله الذي ما اطلع عليه عاقل إلا وشهد أنه لا يمكن أن يكون إلا كلام الله الخالق ﷻ، وفي ذلك تحييد لحجم الكراهية الشديدة التي غرستها وسائل الإعلام الدولية للإسلام والمسلمين في قلوب الملايين، ودعوة مستنيرة إلى دين الله ما أحوجنا إليها في زمن التحدي بالعولمة الذي نعيشه، والذي يتهدد كافة شعوب الأرض بالذوبان في بوتقة الحضارة المادية الجارفة...!!!

ولا يمكن أن يصدنا عن ذلك دعوى أن عدداً من المفسرين السابقين الذين تعرضوا لتأويل بعض الآيات الكونية في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل تلك الآيات من المعاني ما لا تحتمله، وذلك بسبب نقص في وفرة المعلومات العلمية أو جهل بها.

وكما سبق وأن أوضحنا بأن التفسير لآي القرآن الكريم هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة تلك الآيات إن أصاب فيها المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، والمعول في ذلك النية، وأن الخطأ في التفسير لا ينال من جلال القرآن الكريم، ولكنه ينعكس على المفسر، خاصة وأنّ الذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، والذين فسروا بالتاريخ أصابوا وأخطأوا ـ ولم ينل ذلك من قدسية القرآن الكريم ومكانته في قلوب وعقول المؤمنين شيئاً، أما اليوم وقد توافر للإنسان من المعرفة بحقائق الكون وسننه ما لم يتوفر لجيل من البشر من قبل، فإن توظيف ذلك الكم من المعلومات من أجل حسن فهم دلالة الآيات الكونية في القرآن الكريم، وإثبات سبقها التاريخي لكافة المعارف البشرية يعتبر ضرورة إسلامية لتثبيت إيمان المؤمنين، ولدعوة الضالين من الكفار والمشركين؛ لأن ربنا ﷻ سوف يسألنا عن تبليغهم بهذا الدين، ودعوتهم إليه بالأسلوب الذي يفهمون وبالحكمة والموعظة الحسنة.

والأخطاء التي وقع فيها عدد من المفسرين الذين تعرضوا للآيات الكونية في كتاب الله، وتكلف بعضهم في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحمله ـ في تعسف واضح، وتكلف جليّ ـ يحملونه هم، ولا تتحمله آيات الكتاب المبين، لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً منسوباً لصاحبه، وموسوماً بكل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال، وإذا كان عدد من المفسرين قد جاوز الصواب في تأويله، فإن أعداداً أوفر قد وفقت في ذلك أيّما توفيق.

ولم تكن أخطاء المفسرين محصورة في محاولات تأويل الإشارات الكونية فقط، فهنالك أعداد من كتب التفسير التي تمتلىء «بالإسرائيليات» الموضوعة، والعصبيات المذهبية الضيقة، وغير ذلك مما لا يقبله العقل القويم، ولا الصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه المكرمين والتابعين، ولا يرتضيه المنطق اللغوي السليم.

فالمعتزلة على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ قد حاولوا في تفاسيرهم إخضاع الآيات لمبادئهم (في العدل والتوحيد وحرية الإرادة والوعد والوعيد وإنكار الرؤية وغيرها)، وتعسفوا في ذلك أيما تعسف.

وبعض الفرق الإسلامية يتأول عدداً من الآيات القرآنية تأويلاً لا يحتمله ظاهر الآيات. ولا السياق القرآني، ولا القرائن المنطقية المختلفة. وكذلك بعض المتصوفة

والإشاريين فهم ـ على الرغم من تسليمهم بالمأثور من التفسير، وقبولهم للمعنى الذي يدل عليه اللفظ العربي القويم ـ يسمحون لأنفسهم باستنباط معان للآيات تخطر في أذهانهم عند التلاوة وإن لم تدل عليها الآيات القرآنية الكريمة بطريق من طرق الدلالات المعروفة في الاستعمال العربي للغة وطرائق التعبير فيها.

كذلك فإن عدداً من أتباع الفرق الباطنية وإفرازاتها القديمة والحديثة قد ملأوا تفاسيرهم بالتعسف والافتعال، ومحاولات تطويع القرآن لمبادئهم في تكلف ملحوظ.

فهل معنى ذلك أن يتوقف علم التفسير عند حدود جهود السابقين من المفسرين؟ ويتوقف فهم الناس لكتاب الله الذي أنزل إليهم ليتدبروا آياته، ويعيشوا في معانيه، ويتخذوا منها دستوراً كاملاً لحياتهم عند جهود قدامى المفسرين ـ على فضلهم ـ وفضل ما قدموه لخدمة فهم القرآن الكريم في حدود المعرفة المتاحة في أزمنتهم؟ بالقطع لا، على الرغم من التسليم بأن هذه الانحرافات وأمثالها كانت من وراء الدعوة إلى الوقوف بالتفسير عند حدود المأثور، فكتب التفسير على تباينها تحوي تراثاً فكرياً وتاريخياً لهذه الأمة لا يمكن التضحية به، حتى ولو كانت به بعض الأخطاء أو التجاوزات، إلا إذا كان القصد الواضح هو التحريف، وهو أمر لا يصعب على عاقل إدراكه.

من كل ما سبق يتضح لنا أن حجج المضيقين في رفض تفسير الإشارات الكونية في كتاب الله على ضوء ما تجمع اليوم لدى الإنسان من معارف بالكون وعلومه هي كلها حجج مردودة، فالكون صنعة الله، والقرآن هو كلام خالق الكون وواضع نواميسه، ولا يمكن أن يتعارض كلام الله الخالق مع الحقائق التي قد أودعها في خلقه، إذا اتبع الناظر في كليهما المنهج السليم، والمسلك الموضوعي الأمين؛ فمن صفات الآيات الكونية في كتاب الله أنها صيغت صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني في كل آية من تلك الآيات الدالة على شيء من أشياء الكون أو ظواهره أو نشأته أو إفنائه وإعادة خلقه، وتظل تلك المعاني تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندي من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله؛ ومن هنا كانت ضرورة استمرارية النظر في تفسير تلك الآيات الكونية، وضرورة مراجعة تراجمها إلى اللغات الأخرى بطريقة دورية.

أما آيات العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات فقد صيغت صياغة محكمة يفهم دلالتها كل مستمع إليها مهما قلت ثقافته، لأن تلك الآيات تمثل ركائز الدين الذي هو صلب رسالة القرآن الكريم.

وكذلك الآيات المتعلقة بصفات الله، وبالروح، وبالآخرة، وبالملائكة، والجن،

وغير ذلك من الأمور الغيبية غيبة مطلقة، فلا يملك المسلم حيالها إلا الإيمان بها، والتسليم في فهمها لنص القرآن الكريم أو للمأثور من تفسير المصطفى ﷺ، لأن الإنسان لا يمكن له أن يصل إلى عالم الغيب المطلق إلا ببيان من الله الخالق، وذلك لأن قدرات عقل الإنسان المحدودة، وحواسه المحدودة لا يمكن لهما اجتياز حدود عوالم الغيوب المطلقة مهما أوتي الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة، ومن هنا كان امتداح القرآن الكريم للذين يؤمنون بالغيب...!!

موقف الموسعين في التفسير العلمي للقرآن الكريم:

ويرى أصحاب هذا الموقف أن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد قصدت لذاتها أي لدلالاتها العلمية المحددة، مع التسليم بوجوب استخلاص الحكمة والعبرة منها، والوصول إلى الهداية عن طريقها، وانطلاقاً من ذلك فقد قام أصحاب هذا الموقف بتبويب الآيات الكونية في كتاب الله، وتصنيفها حسب مختلف التصانيف المعروفة في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية، ثم اندفعوا في حماسهم لهذا الاتجاه إلى المناداة بأن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف. ولحسن فهم تلك الإشارات الكونية في كتاب الله لا بد من تفسيرها على ضوء اصطلاحات تلك العلوم والمعارف، ثم زاد البعض بمحاولة إثبات أن جميع حقائق العلوم البحتة والتطبيقية التي استخلصها الإنسان بالنظر في جنبات هذا الكون هي موجودة في القرآن الكريم استناداً إلى قوله ﷻ:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ **(الأنعام: 38).**

وقوله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ **(النّحل: 89).**

وهذا في رأينا موقف مبالغ فيه لأن السياق القرآني في الآيتين السابقتين لا يتمشى مع ما وصلوا إليه من استنتاج، لأنهما يركزان على رسالة القرآن الأساسية وهي الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وهي القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يضع فيها لنفسه ضوابط صحيحة. وهي التي استوفاها القرآن استيفاء لا يقبل إضافة، أما قصص الأمم السابقة والإشارات إلى الكون ومكوناته فقد جاء القرآن الكريم بنماذج منها تشهد للّه الخالق بطلاقة القدرة على الخلق وإفنائه وإعادته من جديد. وربما كان هذا الموقف وأمثاله من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تحفظ المتحفظين من الخوض في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، أو التعرض لإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها.

موقف المعتدلين في قضيتي التفسير والإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

يرى أصحاب هذا الموقف أنه مع التسليم بأن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية، أساسها الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والأمر بالعبادات المفروضة، والحث على الالتزام بمكارم الأخلاق، وعلى التعامل بالعدل، أي أنه دستور كامل للحياة، في طاعة خالق الكون والحياة.

ومع التسليم كذلك بأن الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله قد جاءت في معرض التذكير بوحدانيته وبقدرته المطلقة، وببديع صنعه في خلقه، وشمول علمه، وكمال صفاته وأفعاله، إلا أنها تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن أعلم بالكون من خالقه؟

• من هنا كانت تلك الإشارات الكونية كلها حق، وكانت كلها منسجمة مع قوانين الله وسننه في الكون، وثابتة في دلالاتها ـ مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية ـ فلا تعارض ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله العظيم القائل:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ **(النِّساء: 82).**

• ومن هنا أيضاً كان من الواجبات الملحة على علماء المسلمين اليوم هي مدارسة تلك الآيات الكونية، مستفيدين بكل أنواع المعارف المتاحة في تفسيرها وإظهار جوانب الإعجاز فيها، وتوظيف ذلك في الدعوة إلى دين الله بالحجة الواضحة والمنطق السوي، تأكيداً لإيمان المؤمنين، ودحضاً لافتراءات المفترين، وتثبيتاً للحقيقة الراسخة أن القرآن هو كلام الله العزيز الرحمٰن الرحيم.

ومن هنا كذلك كان التسليم بأن تلك الإشارات الكونية لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ المباشر بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلٰهية قد تركت الكسب العلمي مجالاً مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين، يتنافس فيه المتنافسون، ويتبارى المتبارون، أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، فلو أن الإرادة الإلٰهية قد ارتضت بسط الكون بكل حقائقه كاملة أمام الإنسان، لانتفت الغاية من الحياة الدنيا، وهي دار ابتلاء واختبار، ولاختفى ذلك الغيب الذي يشد الإنسان إليه، ويشحذ جميع حواسه، وكل قواه العقلية والفكرية، ولتبلدت تلك الحواس والقدرات، ولمضت حياة الإنسان على الأرض رتيبة كئيبة بائسة، جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، بغير تجديد أو تنويع أو إبداع، وسط عالم يتميز بالتغير في كل أمر من أموره، وفي كل لحظة من لحظات وجوده،

هذا فضلاً عن أن العقل البشري عاجز عن تقبل الحقائق الكونية الكلية دفعة واحدة، وأنه يحتاج في فهمها إلى شيء من التدرج في الكشف، وفي استخراج الأدلة، وفي إثباتها وتكامل معطياتها على مدى أجيال متعاقبة.

• ويستدل أصحاب هذا الموقف بالحشد الهائل من الإشارات الكونية في كتاب الله، وبمطالبة القرآن الكريم للإنسان دوماً بتحصيل المعرفة النافعة على إطلاقها، وهذه أولى آيات القرآن العظيم تأمر بذلك وتحدد وسائله، وتحض على التأمل في الخلق، بل وتشير إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا بعد ذلك بقرون طويلة ألا وهي: ...﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العَلق: 2)، وهي حقيقة لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد اكتشاف المجاهر المكبرة، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. **(العلق: 1 ـ 5)**

• ويستدل أصحاب هذا الموقف المعتدل على ذلك أيضاً بما يقرره القرآن من مسؤولية الإنسان عن حواسه وعقله، وما يفرضه من حسن استخداماتها في التعرف على الكون، واكتساب المعارف النافعة منه، وتوظيفها في حسن فهم كتاب الله، حيث يقرر الحق ﷻ ذلك كله بقوله في محكم كتابه:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ **(الإسراء: 36).**

• كما يستدلون برفض القرآن للتقليد والجمود على الآراء الموروثة الخاطئة، والحكم بالظن والهوى، وبمطالبته الإنسان دوماً بتأسيس الأحكام على الدليل العقلي الذي لا يقبل النقض، وهذه كلها من أخص خصائص المنهج التجريبي في دراسة الكون وما فيه، كذلك يستشهدون بتكريم القرآن الكريم للعلم والعلماء ـ بمن فيهم من علماء الكونيات ـ في العديد من آي الذكر الحكيم نختار منها قول الحق ﷻ:

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . . .﴾ **(الزُّمَر: 9).**

وقوله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾

(المجَادلة: 11)

وقوله ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ **(آل عِمرَان: 18).**

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ **(فَاطِر: 28).**

والآية الأخيرة قد وردت بعد استعراض لكثير من المشاهد الكونية، مما يؤكد أن

الآية تشمل علماء الكونيات، إن لم يكونوا هم المقصودين بها مباشرة، فالآية تنطق:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ **(فاطِر: 27، 28).**

• كذلك يستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل بمطالبة القرآن الكريم للإنسان ـ في تشديد واضح ـ بالنظر في كل ما خلق الله، وهذه أوامره صريحة جلية نختار منها قول الحق ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾. **(يونس: 101)**

وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾. **(الأعراف: 185)**

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾. **(العَنكبوت: 20)**

وقوله ـ تبارك اسمه ـ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. **(الذاريات: 20، 21)**

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ **(الغاشية: 17 ـ 20).**

• وينتصر أصحاب هذا الموقف المعتدل لموقفهم كذلك بما ينعاه القرآن الكريم على الغافلين عن التفكير في آيات السمٰوات والأرض في كثير من آياته التي منها قول الحق ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ **(يوسف: 105).**

ووصفه لهؤلاء الغافلين بأنهم كالأنعام بل هم أضل، وتقديره بأن جزاءهم جهنم عقاباً لهم على إهمالهم نعم الله التي أنعم بها عليهم، وذلك في مثل قول الله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ **(الأعراف: 179).**

• ويستشهدون على ضرورة توظيف المعارف العلمية المتاحة لفهم دلالة الآيات الكونية في كتاب الله بربط القرآن دوماً بين الإيمان بالله والنظر فيما خلق الله، من مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. **(البقرة: 164)**

وقولـه ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. **(آل عمران: 190، 191)**

وقولـه ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ **(الأنعام: 75).**

وقولـه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(غافر: 57).**

• ويستشهد المنادون بضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية في كتاب الله بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ـ في استعراضه لأمور الكون ـ يتناول كليات الأشياء، تاركاً التفاصيل لاجتهاد الإنسان، ولكنه في نفس الوقت ينبه باستمرار إلى جوانب مهمة في أشياء الكون مثل الكم والكيف وهما من أسس العلوم التجريبية، الكم الذي يتعلق بالحجم والكتلة وبالزمان والمكان، وبدرجات النمو والاندثار، وغيرها، يتمثل في كثير من الآيات القرآنية التي نختار منها قول الحق ﷻ:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ **(الرعد: 8).**

وقوله ﷻ: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ **(الطلاق: 3).**

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ **(القمر: 49).**

وقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ **(الفرقان: 2).**

وقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **(المؤمنون: 18).**

• وبخصوص الكيف بمعنى هيئة الأشياء وتركيبها ومسبباتها، ومجرى الظواهر الكونية وحدوثها والسنن الإلهية وجريانها، فإن القرآن يشدد التنبيه عليها في مواضع كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ **(الروم: 50).**

وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (الفرقان: 45، 46).

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق: 6).

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: 17 ـ 20).

• ويستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل كذلك على ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية بتأكيد القرآن الكريم على أن لكل شيء في هذا الكون فطرته السوية التي فطره الله عليها، والتي تخصه وتميزه، وهي قاعدة أساسية من قواعد المنهج العلمي التجريبي في الكشف عن حقائق هذا الكون ومكوناته وسنن الله فيه، ونقرأ في ذلك قول الحق ﷻ:

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: 50).

وقوله ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: 2 ـ 3).

• وأن هذه الفطرة ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل لقول الحق ﷻ:

﴿... لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الرُّوم: 30).

• وأن الفطرة التي فطر الله الخلق عليها خاضعة لقوانين مطردة، لا تتخلف ولا تتوقف إلا بإذن الله، وأنه لولا ثبات تلك الفطرة واطراد القوانين التي تحكمها ما تمكن الإنسان من اكتشاف أي أمر من أمور هذا الكون، وأن القرآن يصر على تسمية تلك القوانين بالحق، ويصر على أن الكون وما فيه خلق بالحق، ويطالب الإنسان بالتعرف على ذلك الحق والتزامه، فالتنزيل ينطق بقول الله ﷻ:

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الأحقاف: 3).

وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (الروم: 8).

وقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر: 5).

وقوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا

﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يُونس: 5).

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: 38 ـ 39).

• كذلك فإن الذين يرون ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، وفي الاستشهاد على الإعجاز العلمي لتلك الآيات ينتصرون لذلك بأن أكثر من أربعين سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها 114 سورة تحمل أسماء لبعض أشياء الكون وظواهره، ويستشهدون بعرض القرآن للعديد من القضايا التي هي في صميم العلوم الكونية من مثل خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واتساع الكون، وبدء خلق السماء بدخان، وخلق الحياة من الماء وفي الماء، واستعراض مراحل الجنين في الإنسان ووصفها بدقة بالغة وغير ذلك كثير مما لا يوفيه في هذا المقام حصر، ولكن تكفي الإشارة إلى آيات قليلة منها من مثل قول الحق ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: 30).

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فُصِّلَت: 11).

وآيات الكتاب الحكيم في كل ما عرضت له من أمور الكون تتميز بمنتهى الدقة في التعبير، والشمول في المعنى، والإحاطة في الدلالة، وبالسبق الإخباري بحقائق لم يتيسر للإنسان الإلمام بها إلا في القرن العشرين أو في العقود المتأخرة منه. وهذا بالقطع يشكل صورة من صور الإعجاز لم تتوافر لجيل من الأجيال من قبل.

وخلاصة القول أن القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التي تشير إلى الكون وما به من كائنات ـ أحياء وجمادات ـ، وإلى صور من نشأتها، ومراحل تكوينها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التي تصاحبها، وقد أحصى الدارسون من مثل هذه الآيات حوالي ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أُخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، مما يبلغ بالآيات الكونية إلى سدس آيات القرآن الكريم تقريباً.

ويقف المفسرون من هذه الآيات الكونية في كتاب الله مواقف متعددة، فمنهم المضيقون والموسعون والمعتدلون، **فالمضيقون** يرون أن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم لذاتها، وإنما وردت من قبيل الاستدلال على قدرة الله تعالى، وإبداعه في خلقه،

وقدرته على إفناء الخلق وإعادته من جديد؛ ومن ثم فلا يجوز تفسيرها في ضوء من معطيات العلوم الحديثة، وذلك بدعوى انطلاق الكتابات العلمية من منطلقات مادية، منكرة لكل ما هو فوق المدرك المحسوس.

أما **الموسعون** فيرون أن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف، ولا بد لحسن فهم ذلك من تفسيره على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من رصيد علمي خاصة في مجال العلوم الكونية، ومن ثمّ فقد قاموا بتبويب آيات الكونيات في كتاب الله وتصنيفها حسب التصانيف المعروفة في مختلف مجالات تلك العلوم، و تميز ذلك بشيء من التكلف الذي أدى إلى رفض المنهج والوقوف في وجهه.

أما **المعتدلون** فيرون أنه مع التسليم بأن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد وردت في معرض التذكير بقدرة الله، وبديع صنعه، فإنها تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي كلها حق مطلق. ولا غرابة إذن من انسجامها مع قوانين الله وسننه في الكون، ومع معطيات العلوم الثابتة عن حقائق هذا الكون، كذلك فإنهم يرون أنه مع التسليم بأن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلهية قد اقتضت ترك ذلك لاجتهاد الإنسان على مر الزمن، إلا أنها تتميز بالدقة المتناهية في التعبير، والثبات في الدلالة، والشمول في المعنى بحيث يدرك فيها علماء كل جيل ما يتناسب ومستوياتهم الفكرية، وما وصلوا إليه من علوم عن الكون وما فيه، ثم إن تلك الدلالات تتميز كلها بالسبق إلى الحقيقة الكونية قبل أن تدرك الكشوف العلمية شيئاً منها بقرون طويلة.

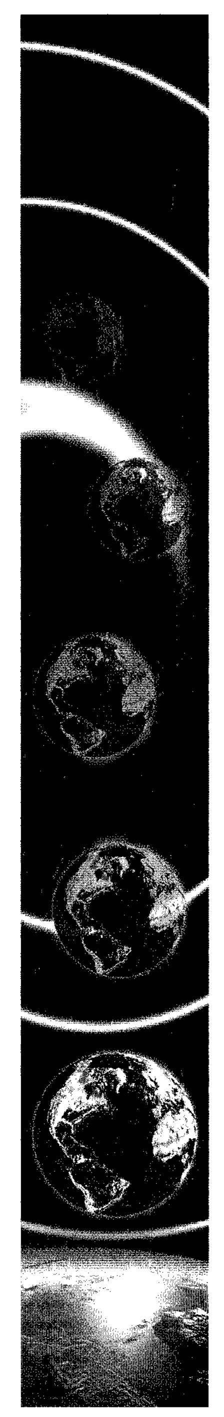
وهذا في حد ذاته يمثل الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي هو أحد أوجه الإعجاز العديدة في كتاب الله، ولكنه يبقى من أنسبها لعصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه في تثبيت إيمان المؤمنين، ودعوة الجاحدين من مختلف صور المشركين والكافرين والضالين، في زمن تحول فيه العالم إلى قرية كبيرة، ما يحدث في أحد أركانها يتردد صداه في بقية أرجائها، ولا يأمن أهل الحق أن يصيبهم ما أصاب الأمم الضالة من عقاب، أو أن يجرفهم تيار الحضارة المادية فيذيبهم في بوتقتها فيخسرون بذلك الدنيا والآخرة، وطوق النجاة في الحالتين يتمثل في الاعتزاز بالإسلام العظيم، والتمسك بالقرآن الكريم الذي بدأ إعجازه العلمي يتجلى يوماً بعد يوم في عصر العلم الذي نعيشه، ليقيم الحجة على أهل هذا العصر بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ؛ وأن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي،

ومعلماً من قِبَلِ خالق السمٰوات والأرض؛ وأنه ﷺ قد ختمت ببعثته النبوات، واكتملت الرسالات التي أنزلها الله ﷻ على فترة من الرسل، والتي بعث بها نفراً غفيراً من أنبياء الله، ولما كانت تلك هي الرسالة الخاتمة فقد تعهد ربنا ﷻ بحفظها فحفظت بنفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ: حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، بنفس الترتيب الموجود في بلايين النسخ من المصاحف، وآلات التسجيل الأخرى، وفي بلايين القلوب المؤمنة التي حفظته متواتراً عبر أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ﷻ على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾. **(الحجر: 9).**

ولذلك بقي القرآن الكريم محتفظاً بصدقه الرباني، وإشراقاته النورانية في كل أمر من أموره، وهذا هو مناط إعجازه، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ **(هود: 1).**



الباب الثالث

قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها

تعريف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

(الإعجاز) لفظة مشتقة من إثبات (العَجْز) وهو الضعف وعدم القدرة؛ يقال: (عَجَزَ) عن كذا أي لم يقدر عليه، فهو (عاجز) عن الإتيان به؛ وجمعه (عواجز)؛ يقال: (عَجَزَ) (عَجْزاً) و(عُجُوزاً)، و(عَجَزَاناً) و(مَعْجَزاً) بفتح الجيم وكسرها، و(مَعْجَزَةً) أيضاً بفتح الجيم وكسرها؛ ولذا يقال رجل (عَجُزٌ) بضم الجيم وكسرها أي (عاجز)؛ وامرأة (عاجزة) و(عاجز)؛ كما يقال: (عجزه) الشيء أو الأمر بمعنى فاته ولم يقدر عليه، ويقال: (عَجَّزَهُ) و(أعجزه) و(استعجزه) أي صَيَّره (عاجزاً) نسبة إلى (العجز)، وتستعار لمعنى التثبيط بمعنى ثبطه. كما يقال: (عاجزه) (مُعَاجَزَةً) أي سابقه مسابقة؛ و(تَعَجَّزَ) أي ادعى (العجز)؛ و(الأعجز) هو العظيم العجز؛ ومؤنثه (العجزاء)؛ و(المِعْجَاز) هو الدائم العجز؛ و(المعجوز) الذي (أُعْجِزَ). ويقال: (عَجَزَ) (عُجُوزاً) أي صار (عجوزاً)، و(العجوز) وجمعه (عُجُزٌ) و(عجائز) المرأة المسنة. و(العَجِزُ) وجمعه (أعجاز) مؤخر الشيء أو الجسم (وتكتب بفتح العين وكسرها وضمها مع تسكين الجيم، أو بفتح العين وضم الجيم أو كسرها)؛ و(عَجُزُ) بيت الشعر هو الشطر الثاني منه؛ و(أعجاز) النخل هي أصولها.

ويقال: (أعجز) في الكلام أي أدى لمعانيه بأبلغ الأساليب.

و(الإعجاز) بمعنى السبق والفوت مصدر من (أعجز).

وعلى ذلك تعرف (المعجزة) وجمعها (المعجزات) بأنها الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي لعجز البشر عن الإتيان بمثله.

«و(إعجاز) القرآن الكريم» معناه (عجز) الخلق أجمعين ـ إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين ـ عن أن يأتوا بشيء من مثله، ولذلك أنزل ربنا ﷻ في محكم كتابه هذا التحدي الأزلي الذي يقول فيه:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: 88).

ويقول ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (البقرة: 23، 24).

ويقول ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس: 37، 38).

ويقول ربنا ﷻ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود: 13).

ويؤكد الله ﷻ على كمال القرآن الكريم فيقول ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: 82).

ويقول ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الواقعة: 77 ـ 80).

ويقول ﷻ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾ (البروج: 21، 22).

ويقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ (البقرة: 2).

ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء: 105).

وإعجاز القرآن الكريم معناه عجز الخلق قاطبة عن الإتيان بشيء من مثله، فهو كتاب معجز في بيانه ونظمه، معجز في فصاحته وبلاغة أسلوبه؛ معجز في كمال رسالته ومضمونه، معجز في مجموع العقائد التي يدعو الناس إلى الالتزام بها، وفي مجموع العبادات التي يدعو الناس إلى ممارستها، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، وفي كل تشريع من تشريعاته المبهرة بدقتها، وعدلها، وشموليتها وتفاصيلها. . .!!

والقرآن الكريم معجز كذلك في استعراضه التاريخي لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافأتها أو عقابها؛ معجز في أسلوبه التربوي، وخطابه النفسي، وفي إنبائه بالغيب، وفي إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره. وهذا الجانب الأخير من جوانب الإعجاز في كتاب الله هو المقصود بتعبير «الإعجاز العلمي للقرآن الكريم»، ويقصد به سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره، التي لم يتمكن العلم المكتسب من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم تزيد عن عشرة القرون الكاملة في أقل تقدير لها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذه الحقائق العلمية مصدراً غير الله الخالق ﷻ؛ وفي إثبات ذلك تأكيد أن القرآن الكريم هو كلام هذا الإله الخالق، وتصديق للنبي والرسول الخاتم ﷺ في نبوته ورسالته وفي التبليغ عن ربه.

والإعجاز العلمي للقرآن الكريم أسلوب في الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفجر المعرفة العلمية وتطور الوسائل التقنية الذي نعيشه، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الأنعام: 44).

وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ (سبأ: 5، 6).

وقوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: 53).

وقوله ﷻ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ (النساء: 166).

وقوله ـ تبارك اسمه ـ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ **(الأنعام: 19).**

وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ **(الأنعام: 66، 67).**

وقوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ **(هود: 13، 14).**

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ **(الفرقان: 6).**

وقوله ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ **(النمل: 93).**

وقوله ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ **(صٓ: 87، 88).**

وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ **(الشورى: 29).**

الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

من الاستعراض السابق يتضح لنا بجلاء أن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه هو من مواقف التحدي للناس كافة ـ مسلمين وغير مسلمين ـ بأن كتاباً أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين ـ وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب يحوي من حقائق الكون وسننه ما لم يتوصل إليه الإنسان إلا بعد مجاهدات طويلة قام بها عشرات الآلاف من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل، وتركز في القرون القليلة المتأخرة بصفة خاصة. والمتحدي لا بد وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة، وعلى ذلك فلا يجوز توظيف شيء في هذا المجال غير الحقائق القطعية الثابتة حتى يبلغ التحدي مداه في مجال إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

وهذا الالتزام واجب حتمي في التعرض للآيات الكونية في كتاب الله باستثناء آيات الخلق بأبعادها الثلاث: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان.

وذلك بسبب أن عملية الخلق لا تخضع للإدراك المباشر من المخلوقين وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ **(الكهف: 51).**

ولكن القرآن الكريم الذي جاء بهذه الآية الكريمة يأمرنا ربنا ﷻ فيه بضرورة التأمل في قضية الخلق ـ وهي قضية غير مشاهدة من قبل الإنسان ـ وذلك في عدد غير قليل من الآيات القرآنية الكريمة التي منها قوله ﷻ:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ **(العنكبوت: 19، 20).**

وقوله ﷻ:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ **(آل عمران: 190، 191).**

والجمع بين هذه الآيات الكريمة ـ وأمثالها كثير في كتاب الله ـ يؤكد على أن خلق كل من السمٰوات والأرض، وخلق الحياة، وخلق الإنسان قد تم في غيبة كاملة من الإنسان، ولكن الله من رحمته قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان ـ بإمكاناته المحدودة ـ على الوصول إلى تصور ما لعملية الخلق، إلا أن هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى مقام الحقيقة أبداً؛ لأن الحقيقة العلمية لا بد وأن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه ـ على الرغم من محدودية ذلك ـ ومن هنا فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق ـ بأبعادها الثلاث ـ مرحلة التنظير أبداً؛ ولذلك تتعدد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها: هل هم من المؤمنين الموحدين، أم من الكفار، أم المشركين، أم المتشككين؟ وهل هم من السعداء في حياتهم أم من التعساء والأشقياء والمهمومين؟ وهل هم من الأسوياء أم من المنحرفين؟... وفي هذا الخضم يبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد أثبتت ذلك، ولكن لمجرد وجود

إشارة إلى تلك الحقيقة في كتاب الله الخالق أو في سنة رسوله ﷺ، ونحن في هذه الحالة نكون قد انتصرنا للعلم بالقرآن الكريم أو بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، ولم ننتصر بالعلم لأي منهما.

أما باقي الآيات الكريمة التي تعرض لها القرآن الكريم فلا يجوز أن يوظف في الاستشهاد على سبقها العلمي إلا بالحقائق القطعية الثابتة التي لا رجعة فيها وبالضوابط المنهجية التالية:

1 ـ حسن فهم النص في القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد تلك اللغة، وأساليب التعبير فيها؛ وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزل بلسان عربي مبين.

2 ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ ـ إن وجدا ـ، وفهم الفرق بين العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصل من آيات هذا الكتاب الحكيم.

3 ـ فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين، وتابعيهم إلى الزمن الحاضر.

4 ـ جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية الكريمة إن وجدت.

5 ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، ورد بعضها إلى بعض بمعنى فهم دلالة كل منها في ضوء الآخر؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما يفسره الصحيح من أقوال رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان من الواجب توظيف الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توفر ذلك، وذلك لحسن فهم النص القرآني الكريم.

6 ـ مراعاة السياق القرآني للآية أو الآيات المتعلقة بإحدى القضايا الكونية، دون اجتزاء للنص القرآني عما قبله وعما بعده.

7 ـ مراعاة قاعدة أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

8 ـ عدم التكلف، أو محاولة لَيِّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ وذلك لأن القرآن الكريم أعز علينا وأكرم عندنا من ذلك لأنه كلام الله الخالق، وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق، الكامل، الشامل، المحيط بكل شيء والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

9 ـ عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة: كالذات الإلٰهية والروح، والملائكة، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وقيام الساعة، والبعث، والحساب،

والميزان، والصراط، والجنة والنار وغيرها من قضايا الغيب المطلق التي جاءت في كتاب الله تعالى أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وضرورة التسليم بالنصوص الواردة فيها تسليماً إيمانياً كاملاً انطلاقاً من الإيمان بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ، وبعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيوب المطلقة.

10 ـ التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا، وأنها لا تحتاج لهذه السنن الدنيوية الرتيبة، فهي كما وصفها ربنا ﷻ أمر فجائي منه ﷻ بـ «كن فيكون» أي بين الكاف والنون، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ **(الأعراف: 187).**

وعلى الرغم من ذلك فإن الله ﷻ ـ من رحمته بنا ـ قد أبقى لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء أعداداً كثيرة من الشواهد الحسية التي تقطع بفناء الكون، وبحتمية الآخرة، وإن الإشارة إلى تلك الشواهد الكونية لا يمكن أن يفسر بمحاولة التعرف على موعد الآخرة لأنها غيب من الغيوب المطلقة التي لا يعلمها إلا الله؛ ولأنها لن تتم بالسنن الكونية المشاهدة في هذه الحياة.

11 ـ توظيف الحقائق العلمية القاطعة ـ التي لا رجعة فيها ـ في الاستشهاد على الإعجاز العلمي للآية أو الآيات القرآنية في الموضوع الواحد أو في عدد من الموضوعات المتكاملة، وذلك في جميع الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق، والإفناء، والبعث، التي يمكن فيها توظيف الآية القرآنية الكريمة للارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة.

12 ـ مراعاة التخصص الدقيق في مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية الكريمة؛ لأن هذا مجال تخصصي على أعلى مستويات التخصص، ولا يجوز أن يخوض فيه كل خائض، كما لا يمكن لفرد واحد أن يغطي كل جوانب الإعجاز العلمي تحقيقاً في أكثر من ألف آية قرآنية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتتخطى هذه الآيات مساحة هائلة من العلوم المكتسبة من علم الأجنة إلى علم الفلك، وما بينهما من مختلف مجالات العلوم والمعارف الإنسانية.

13 ـ يجب التفريق بين دور كل من الناقل والمحقق في قضيتي الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن الكريم، حيث أنه من أبسط ضوابط الأمانة ما يوجب على الناقل

الإشارة إلى من نقل عنه حتى يأخذ كل ذي حق حقه، وحتى يكون النقل مدعماً بالسند المقبول. وتجاهل هذا الخلق الإسلامي، وهذه القاعدة الأصولية فيه من الإجحاف بحقوق الآخرين ما لا يتناسب مع موقف المدافع عن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فضلاً عن إضعافه للقضية ككل.

14 ـ الأخذ في الاعتبار إمكانية الانطلاق من الآية القرآنية الكريمة للوصول إلى حقيقة كونية لم يتوصل العلم المكتسب إلى شيء منها بعد، انطلاقاً من الإيمان الكامل بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وأنه كله حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

15 ـ عدم التقليل من جهود العلماء السابقين في محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة تلك الآيات الكونية في حدود المعلومات المتاحة في زمانهم؛ وذلك لأن الآية الكونية الواردة في كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يظل القرآن الكريم مهيمناً على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها. وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

16 ـ التفريق بين قضيتي الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن الكريم، فالإعجاز العلمي يقصد به هنا «**إثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاول من القرون**».

أمَّا التفسير فهو «**محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيها المفسر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد**»، والمُعَوَّل عليه في ذلك هو نيته؛ وهنا يجب التأكيد على أن الخطأ في التفسير ينسحب على المفسر، ولا يمس جلال القرآن الكريم.

17 ـ يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية في ذلك، والتجرد له من كل غاية، وتذكر قول المصطفى ﷺ: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

من مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

لهذه القضية الملحة عديد من المبررات التي منها ما يلي:

أولاً: إن القرآن الكريم أنزل إلينا لنفهمه، والآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهماً

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 2950).

صحيحاً في إطار اللغة وحده؛ وذلك لشمول الدلالة القرآنية، ولكلية المعرفة التي لا تتجزأ.

ثانياً: إن الدعوة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة هو الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية ـ الذي فتن الناس فيه بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، ونبذوا الدين وراء ظهورهم ونسوه، وأنكروا الخلق والخالق، كما أنكروا البعث والحساب والجنة والنار، وغير ذلك من الغيبيات؛ لأن هذه الأصول قد شوهت في معتقداتهم تشويهاً كبيراً، ولم تعد مقنعة لهم؛ وعلى ذلك فلم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين قدر الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

ثالثاً: الأصل في الحضارات أنها تتكامل فيما بينها ولا تتصارع، ولكن في زمن العولمة الذي نعيشه، تحاول الحضارة المادية الغالبة ـ بما فيها من كفر بواح، أو شرك صراح ـ أن تمدّ هيمنتها بقيمها الهابطة، وأخلاقياتها الساقطة، وماديتها الجارفة على غيرها من الحضارات، وتوظف في ذلك كل ما توافر لها من وسائل الغلبة المادية وأسبابها.

وقد أسقط الأعداء من أيدي المسلمين في هذه الأيام كل الوسائل المادية التي تمكنهم من الدفاع عن دمائهم، وأعراضهم، ومقدساتهم، وأراضيهم. وقد تم ذلك عبر سلاسل من المؤامرات الطويلة، التي بدأت باحتلال غالبية الدول المسلمة والعمل على تغريبها، ثم السعي الدؤوب من أجل إسقاط دولة الخلافة الإسلامية بعد إنهاكها وإضعافها حتى تم إسقاطها في سنة 1924 م، ثم العمل على تمزيق الأمة إلى أكثر من خمسة وخمسين دولة ودويلة، ونهب كل خيراتها وثرواتها، وتنصيب أنماط من الحكم المتعارضة عليها للحيلولة دون إمكانية توحدها، في زمن التكتلات البشرية الكبيرة الذي نعيشه، ثم غرس كيان صهيوني غريب في قلب الأمة لإفسادها، وإثارة الحروب والقلاقل والفتن بين أبنائها، ولترسيخ العداوات بين الأشقاء للحيلولة دون توحدهم، وإشاعة الأفكار الهدامة، والسلوكيات المنحطة، والأخلاقيات المنهارة لترسيخ تفتت الأمة؛ والعمل على المزيد من تغريبها لتيسير الهيمنة عليها. ولم يبق بأيدي أمة الإسلام في زمن الغربة الذي نعيشه إلا دينها، هذا الدين الخاتم الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه، وهو وسيلة الدفاع الوحيدة التي بقيت بين أيدي مسلمي اليوم، وأوضح وسائله لإقامة الحجة على العباد في زمن العلم الذي نعيشه هو الإعجاز العلمي في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ.

رابعاً: إن كلًّا من الإسلام والمسلمين يتعرض اليوم لهجوم شرس في كافة وسائل الإعلام بغير حق، وهم في هجومهم هذا ينكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن، ونبوة

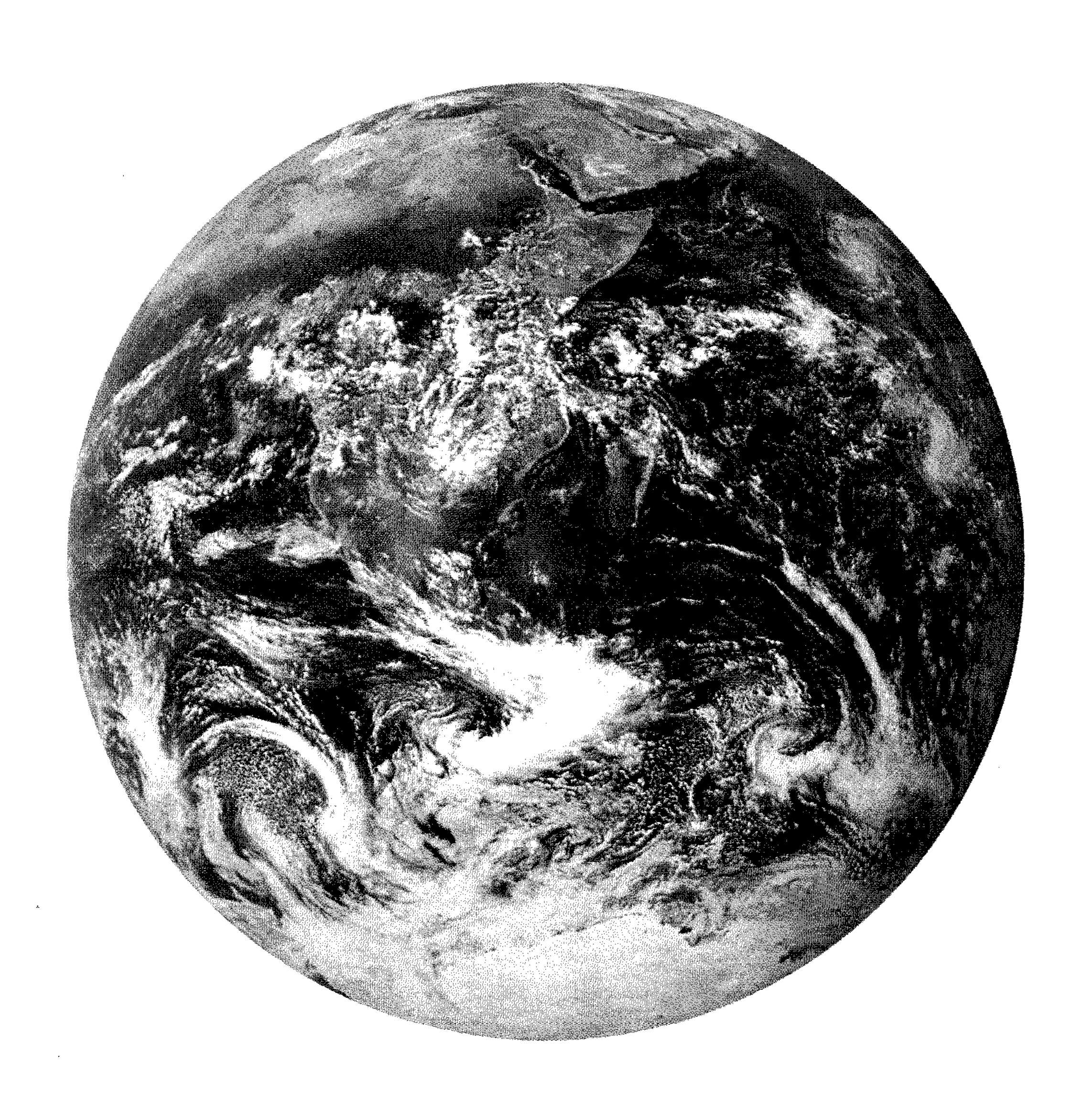
خاتم المرسلين ﷺ، في وقاحة سافرة، وأهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا الهجوم هو إثبات الإعجاز العلمي لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة البالغة، والمنطق السوي.

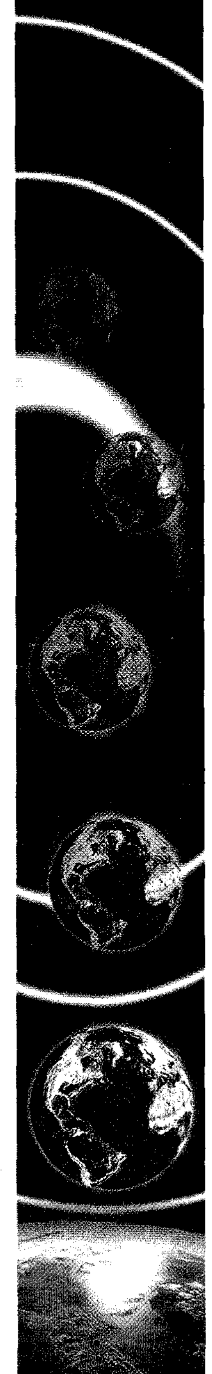
خامساً: إن العالم اليوم يتحرك في اتجاه كارثة كبرى، وقودها تطور علمي وتقني مذهل، يطغي أصحابه ويغريهم بإفناء وإبادة غيرهم، في غيبة الوعي الديني الصحيح، والالتزام الأخلاقي والسلوكي الذي يرعى حقوق الأخوة الإنسانية حق رعايتها، والمخرج من ذلك هو الدعوة للدين الحق، ومن أوضح وسائل الدعوة إليه هو ما في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ من إعجاز علمي واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

سادساً: إننا معشر المسلمين قصرنا كثيراً في التبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ، وقد كُلِّفنا بالتبليغ عنهما، ونحن نجني ثمار ذلك التقصير اليوم: حروباً طاحنة على كل أرض إسلامية من فلسطين والعراق إلى البلقان، ومنها إلى أرض الشيشان، وكشمير، وأفغانستان، وأراكان، وجنوب الفلبين، والسودان والصومال وغيرها؛ ونجني حصاراً لأكثر من دولة مسلمة، ومصادرة لبلايين الدولارات من أموال المسلمين، واحتلالاً عسكرياً لكل من أرض فلسطين ودول الخليج العربي، والعراق، وأفغانستان، وسبته ومليلية وجزيرة ليلى، من الأراضي المغربية، وللعديد من الجزر الآسيوية، وجزر بحر إيجه التركية، وتجني تضييقاً على الملايين من الأقليات الإسلامية، ومطاردة للمسلمين في كل مكان من أماكن العالم وإحكام التآمر عليهم، ومحاولة إذلالهم، وتكفي في ذلك الإشارة إلى الجرائم والفظائع الأنجلو/أمريكية في سجون كل من العراق وأفغانستان، وفي جوانتانامو، والسجون الطائرة وسجون الجزر النائية مثل جزيرة دييجوجارسيا المحتلة في المحيط الهندي. وجرائم هذه الجيوش المحتلة يندى منها جبين كل حر، ويغضي من وحشيتها كل إنسان. وقد أثبت ما عرف من هذه الجرائم أن ما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة هي انتكاسة بالإنسانية إلى أحط مستوياتها، وانتكاسة جردتها من كل دين، وأخلاق، وقيم، في الوقت الذي تدعي بأنها حامية الحريات والديموقراطيات وحقوق الإنسان وهي في الحقيقة أبشع خطر على إنسان هذا العصر لأنها ـ مع وحشيتها البالغة ـ قد تزودت بكل وسائل الغلبة المادية من الأسلحة التقليدية وغير التقليدية بعد أن جردت العالمين العربي والإسلامي والمحايد منها جميعاً.

سابعاً: إن في إثارة قضية الإعجاز العلمي في كل من القرآن الكريم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ استنهاضاً لعقول المسلمين، واستثارة للتفكير الإبداعي فيها،

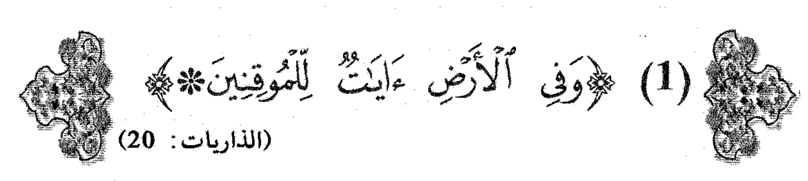
وتشجيعاً على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلفت فيها الأمة مؤخراً تخلفاً كبيراً، في الوقت الذي تقدمت فيها دول الكفر والشرك والضلال تقدماً مذهلاً، حتى أصبح كم المعارف المتاحة يتضاعف كل خمس سنوات تقريباً، وتقنياتها تتجدد مرة كل ثلاث سنوات تقريباً، وبذلك أخذت الهوة الفاصلة بيننا وبينهم في مجال العلوم والتقنية تزداد اتساعاً وعمقاً يوماً بعد يوم، وأصبحت مخاطر ذلك علينا تتضاعف مع تزايد تلك الهوة عمقاً واتساعاً.





الباب الرابع

من آيات الأرض في القرآن الكريم



(1) ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ (الذاريات: 20)

هذه الآية الكريمة جاءت في ختام الثلث الأول من «سورة الذاريات»، وهي سورة مكية، وآياتها ستون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بقسم من الله تعالى بأحد جنده في الأرض وهي «الرياح» وسماها «الذاريات» لأنها تذرو تراب الأرض ذرواً فتقوم بدور هام من الأدوار اللازمة لجعل الأرض صالحة للعمران.

وبعد هذا الاستهلال بقسم من الله ـ تعالى ـ بالذاريات ذرواً وهو سبحانه الغني عن القسم ـ جاء القسم بعدد من آياته الكونية الأخرى على أن وعده لعباده وعد صادق، وأن الدين عنده حق واقع لا شك فيه وهو الإسلام الذي أنزله على فترة من الرسل، والذي أتمه وأكمله وحفظه في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، والذي لا يرتضي ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده ديناً سواه.

ثم عاود ربنا ﷻ القسم مرة أُخرى بالسماء ذات الحبك، على أن الناس مختلفون في يوم الدين بين مكذب ومصدق، وأن المكذبين الذين شغلتهم الحياة الدنيا عن التفكير في مصيرهم بعد الموت يصرفون عن حقيقة هذا اليوم الرهيب.

وتعرض الآيات لمصير كل من المكذبين والمصدقين بالآخرة، كما تعرض لعدد من صفات كل من الفريقين. وتعاود السورة الكريمة في سياقها الاستدلال بعدد من الآيات الكونية الأُخرى في الأرض وفي الأنفس وفي الآفاق، على أن وحي الله ـ تعالى ـ إلى عباده تكامل، وتم، وحفظ في القرآن الكريم الذي هو الصورة الوحيدة من وحي السماء المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس اللغة التي أوحي بها ـ اللغة العربية ـ محفوظاً بحفظ الله كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى قيام الساعة. في زمن ضاعت فيه كل صور الوحي السابقة، وما بقي من ذكريات نقلت شفاهاً عن بعضها قد تعرض للتحريف تلو التحريف، وللتزوير والتبديل والتغيير مما أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها، ومن هنا يبقى القرآن الكريم هو الحق المطلق الذي يجب على الناس تصديقه كما يصدقون ما ينطقون هم أنفسهم به. ومن هذه الآيات الكونية التي استشهد بها الحق ﷻ على صدق وحيه في آخر رسالاته وكتبه قوله وهو أصدق القائلين:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ **(الذاريات: 20)**

فما هي آيات الله في الأرض الدالة على طلاقة قدرته، وعظيم حكمته، وإحاطة سلطانه وعلمه؟ ما هذه الآيات التي استشهد بها ﷻ ـ وهو الغني عن كل شهادة ـ على صدق وحيه الذي أنزله على خاتم أنبيائه ورسله؟ هذا الوحي الذي تعهد ـ سبحانه ـ بحفظه فحُفِظ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد بنفس اللغة التي أوحي بها ـ اللغة العربية ـ، وحفظ حفظاً كاملاً: سورة سورة، وآية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، دون أدنى زيادة أو نقصان، وهذا وحده من أعظم الشهادات على صدق القرآن الكريم وإعجازه، وعلى أنه كلام الله الخالق، وعلى صدق الصادق الأمين الذي تلقاه عن ربه، وعلى صدق نبوته وعلى ربانية ورسالته ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة:

(الأرض) في اللغة العربية اسم جنس للكوكب الذي نحيا عليه، تمييزاً له عن بقية الكون الذي يجمع تحت اسم السماء أو السمٰوات. ولفظة (الأرض) مؤنثة، والأصل أن يقال لها: (أرضة) والجمع: (أرضات) و (أرضون) بفتح الراء أو بتسكينها، وقد تجمع على (أروض) و (آراض)، ولفظة (الأراضي) تستخدم على غير قياس.

ويعبر (بالأرض) عن أسفل الشيء، كما يعبر بالسماء عن أعلاه، فكل ما سفل فهو (أرض)، وكل ما علا فهو سماء، ويقال: (أرض أريضة) أي: حسنة النبت، زكية بينة

الزكاء أو (الأراضة)، كما يقال: (تأرض) النبت بمعنى: تمكن على الأرض فكثر، و (تأرض) الحيوان إذا تناول نبت (الأرض)، ويقال أيضاً: (الأرض النَّفِضَةُ) و (الأرض الرَّعِدَةُ) أي: التي تنتفض وترتعد أثناء حدوث الهزات الأرضية والثورانات البركانية.

و (الأَرَضَةُ) بفتحتين دودة (دويبة) تأكل الخشب، يقال: (أرضت) الأخشاب (تؤرض) (أرضاً) فهي (مأروضة) إذا أكلتها (الأرضة)، ولم تسم العرب فاعلاً لهذا الفعل.

الأرض في القرآن الكريم:

جاء ذكر الأرض في أربعمائة وواحد وستين (461) موضعاً من كتاب الله، منها ما يشير إلى الأرض ككل في مقابلة السماء، ومنها ما يشير إلى اليابسة التي نحيا عليها، أو إلى جزء منها. ومنها ما يشير إلى التربة التي تغطي صخور الغلاف الصخري للأرض. واليابسة هي جزء من الغلاف الصخري للأرض وهي كتل القارات السبع المعروفة والجزر المحيطية العديدة.

وفي هذه الآيات إشارات إلى العديد من الحقائق العلمية عن الأرض والتي يمكن سردها بإيجاز في النقاط التالية:

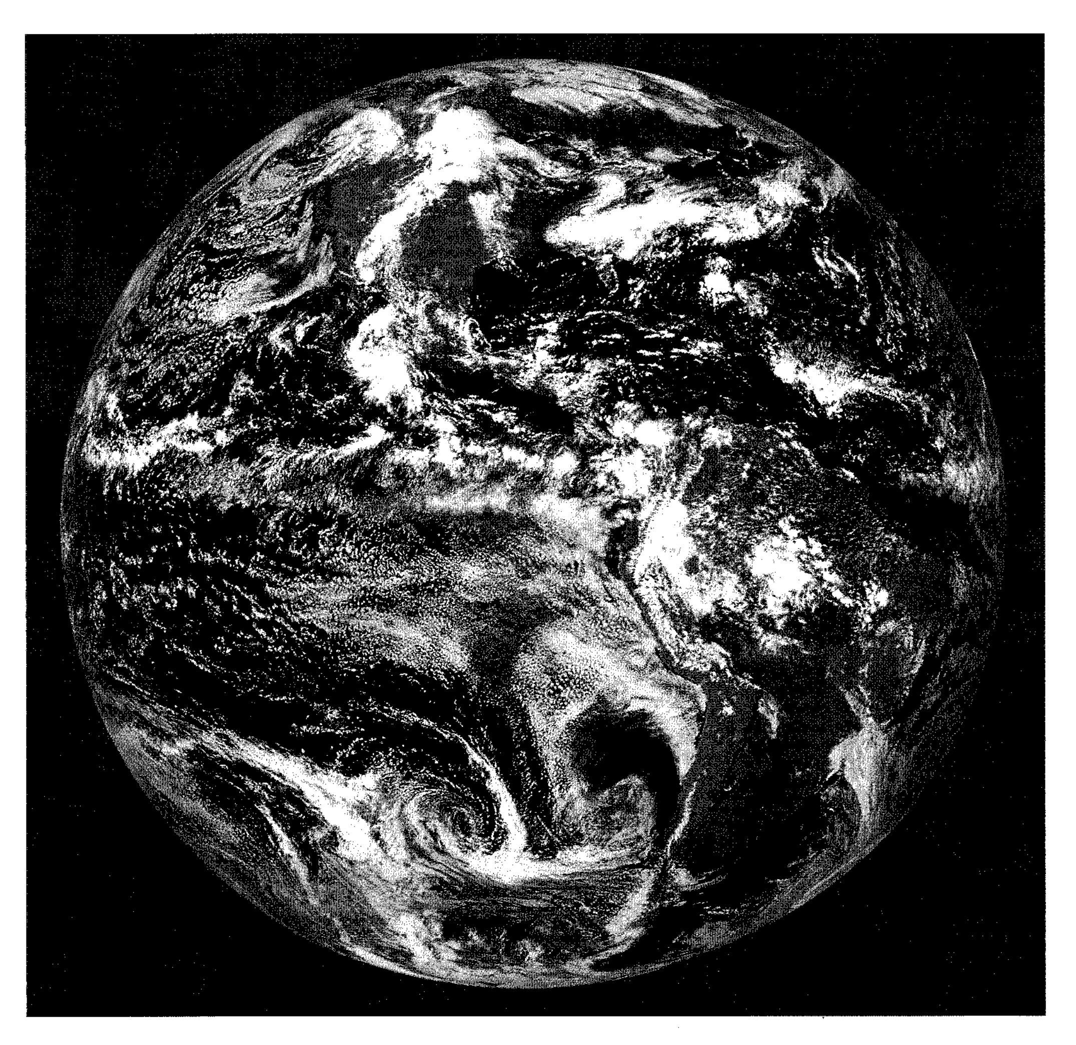
(1) ـ **آيات تأمر الإنسان بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدء الخلق**، وهي أساس المنهجية العلمية في دراسة علوم الأرض.

(2) ـ **آيات تشير إلى شكل وحركات وأصل الأرض**: منها ما يصف كروية الأرض، ومنها ما يشير إلى دورانها، ومنها ما يؤكد على عظم مواقع النجوم منها، أو على حقيقة اتساع الكون من حولها، أو على بدء الكون بجرم واحد (مرحلة الرتق)، ثم انفجار ذلك الجرم الأوَّلي (مرحلة الفتق)، أو على بدء خلق كل من الأرض والسماء من دخان، أو على انتشار المادة بين السماء والأرض (المادة بين الكواكب وبين النجوم وبين المجرات)، أو على تطابق كل من السمٰوات والأرض (أي: تطابق الكون حول مركز واحد).

(3) ـ آية قرآنية واحدة تؤكد **أن كل الحديد في كوكبنا الأرض قد أنزل إليها من السماء إنزالاً حقيقياً**، وهو ما أثبتته الدراسات العلمية في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

(4) ـ آية قرآنية واحدة تؤكد حقيقة **أن الأرض ذات صدع**، وهي من الصفات الأساسية لكوكبنا، وقد أثبتت له في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

(5) ـ آيات قرآنية تتحدث **عن عدد من الظواهر البحرية** المهمة من مثل ظلمات قيعان البحار العميقة والمحيطات، ودور كلٍّ من السحب والأمواج الداخلية والسطحية في تكوين



صورة للكرة الأرضية وتبدو القارتين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية

تلك الظلمة التامة، وتسجير بعض هذه القيعان بحرارة عالية على الرغم من امتلائها بالماء، وتمايز المياه فيها إلى كتل متجاورة لا تختلط اختلاطاً كاملاً؛ نظراً لوجود حواجز أفقية ورأسية غير مرئية تفصل بينها، ويتأكد هذا الفصل بين الكتل المائية بصورة أوضح في حالة التقاء كلٍّ من المياه العذبة والمالحة عند مصاب الأنهار، مع وجوده بين مياه البحر الواحد، أو بين مياه البحار المتصلة ببعضها البعض، كالتقاء مياه البحار شبه المغلقة من مثل كلٍّ من البحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط بمياه المحيطات المجاورة (كل من المحيط الهندي، والمحيط الأطلسي على التوالي).

(6) ـ آيات قرآنية **تتحدث عن الجبال**، منها ما يصفها بأنها أوتاد، وبذلك يصف كلًّا من الشكل الخارجي؛ الذي على ضخامته يمثل الجزء الأصغر من الجبل، والامتداد الداخلي: الذي يشكل غالبية جسم الجبل. كما يصف وظيفته الأساسية في تثبيت الغلاف الصخري للأرض، وفي اتزان دورانها حول محورها. وتتأكد هذه الوظيفة في اثنتين وعشرين آية قرآنية أخرى، وردت بها كذلك إشارات إلى عدد من الوظائف والصفات الإضافية للجبال من مثل انتصابها فوق سطح الأرض، ودورانها معها أو تكوينها من صخور متباينة في الألوان والأشكال والهيئات، أو دورها في إنزال المطر، وتغذية الأنهار، وشق الأودية والفجاج، أو في جريان السيول، وغير ذلك من العمليات الأرضية.

(7) ـ آيات قرآنية تشير إلى **نشأة كلٍّ من الغلافين المائي والهوائي للأرض**، وذلك بإخراج مكوناتهما من باطن الأرض، أو تصف الطبيعة الرجعية لغلافها الغازي، أو تؤكد حقيقة ظلام الكون، أو تناقص الضغط الجوي مع الارتفاع عن سطح الأرض، أو انتظام تبادل الليل والنهار، ورقة طبقة النهار حول نصف الأرض المواجه للشمس، أو تشير إلى أن ليل الأرض كان في بدء خلقها مضاءً كنهارها، ثم مَحَا الله ﷻ ضوء الليل.

(8) ـ آيات تشير إلى **رقة الغلاف الصخري للأرض**، وإلى تسوية سطحه وتمهيده وشق الفجاج والسبل فيه، وإلى تناقص الأرض من أطرافها.

(9) ـ آيات تؤكد **إسكان ماء المطر في كلٍّ من صخور الأرض وتربتها**، مما يشير إلى دورة الماء حول الأرض وفي داخل غلافها الصخري، أو تؤكد علاقة الحياة بالماء، أو تلمح إلى إمكانية تصنيف الكائنات الحية التي تحيا على كوكب الأرض.

(10) ـ آيات تؤكد **أن عملية الخلق قد تمت على مراحل متعاقبة عبر فترات زمنية طويلة.**

(11) ـ آيات قرآنية **تصف نهاية كل من الأرض والسمٰوات وما فيهما من كائنات؛** أي: الكون كله بعملية معاكسة لعملية الخلق الأول، كما تصف إعادة خلقهما من جديد، أرضاً غير الأرض الحالية وسمٰوات غير السمٰوات القائمة.

هذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة للإنسان قبل القرن العشرين، بل إن الكثير منها لم يتوصل الإنسان إلى معرفته إلا في العقود القليلة الماضية من نهايات ذلك القرن عبر جهود مضنية، وتحليل دقيق لكمٍّ هائل من الملاحظات والتجارب العلمية في مختلف جنبات الأرض، وفي الجزء المدرك من الكون، وجاء السبق القرآني بالإشارة إلى مثل هذه الحقائق بأسلوب يبلغ منتهى الدقة العلمية واللغوية في التعبير، والإحاطة والشمول في الدلالة؛ ليؤكد

جانباً مهماً من جوانب الإعجاز في كتاب الله، وهو جانب الإعجاز العلمي.

ومع تسليمنا بأن القرآن الكريم معجز في كل أمر من أموره، إلا أن الإعجاز العلمي يبقى من أنجح أساليب الدعوة إلى الله في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه.

ومن هنا تتضح أهمية القرآن الكريم في هداية البشرية، خاصة في زمن كالذي نعيشه اليوم، والذي فتح الله ـ تعالى ـ فيه على الإنسان من أبواب العلم بالكون ومكوناته ما لم يفتح به من قبل، وفتن الإنسان فيه بالعلوم الكونية وتطبيقاتها، ونسي الهدف الرئيسي من وجوده في هذه الحياة: عبداً لله مستخلفاً في الأرض لعبادة خالقه بما أمر، ولعمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها استعداداً للقاء الله. وفي نسيان أغلب الناس لرسالة الإنسان في هذه الحياة، أصبحت البشرية أحوج ما تكون إلى الهداية الربانية. كما تتضح أهمية دراسات الإعجاز العلمي في كتاب الله مهما تعددت تلك المجالات العلمية، وذلك لأن ثبات صدق الإشارات القرآنية في القضايا الكونية من مثل إشاراته إلى عدد من حقائق الأرض، (وهي من الأمور المادية الملموسة التي يمكن للعلماء التجريبيين قياسها وإثباتها)، لأدعى إلى التسليم بحقائق القرآن الأُخرى، خاصة ما يرد منها في مجال القضايا الغيبية والسلوكية: من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، والتي تمثل ركائز الدين، ولا سبيل للإنسان في الوصول إلى قواعد سليمة لها، وإلى ضوابط صحيحة فيها، إلا عن طريق بيان رباني خالص لا يداخله أدنى قدر من التصور البشري، والقرآن الكريم هو النص الوحيد الذي يمثل ذلك منذ أربعة عشر قرناً مضت وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

من آيات الله في خلق الأرض وجعلها صالحة للعمران:

الأرض هي أحد أفراد المجموعة الشمسية التي تتكون من تسعة كواكب أساسية، يدور كل منها حول نفسه، ويجري في مدار محدد له حول الشمس، وهناك مدار للكويكبات بين كل من كوكبي المريخ والمشتري يعتقد أنها بقايا لكوكب عاشر قد انفجر، وهناك احتمال بوجود كوكب حادي عشر تم التوقع بوجوده بواسطة الحسابات الفلكية. وكواكب المجموعة الشمسية المعروفة لنا هي من الداخل إلى الخارج على النحو التالي: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، الكويكبات، المشتري، زحل، يورانوس، نبتيون، بلوتو، بروسوبينا (أوبريينا). وهناك بعد ذلك نطق المذنبات التي تدور حول الشمس في مدارات مغلقة أو مفتوحة على مسافات بعيدة جداً، وتعتبر المذنبات جزءاً من المجموعة الشمسية.

ويقدر متوسط المسافة بين الشمس وأقرب كواكبها (عطارد) بحوالي58 مليون كيلومتر

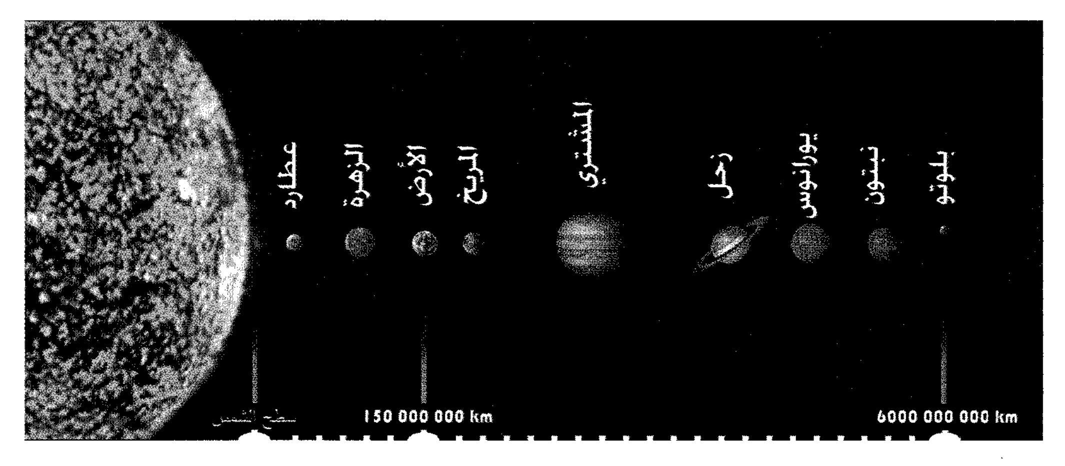
(بين 46 مليون، 69 مليون كيلومتر)، ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بحوالي150 مليون كيلومتر، ويبعد (بلوتو) عن الشمس بمسافة تقدر في المتوسط بحوالي6000 مليون كيلومتر، ويقدر متوسط بعد الكوكب المقترح (بروسوبينا) بحوالي ضعف هذه المسافة ـ أي: 12 بليون كيلومتر ـ، ويبعد نطاق (المذنبات) عن الشمس عشرات أضعاف المسافة الأخيرة.

وعلى ذلك فالأرض هي ثالثة الكواكب بعداً عن الشمس، وهي تجري حول الشمس في فلك بيضاني (إهليلجي) قليل الاستطالة بسرعة تقدر بحوالي30 كيلومتراً في الثانية (29.6 كيلومتراً في الثانية) لتتم دورتها هذه في سنة شمسية مقدارها = 365.25 يوماً تقريباً، وتدور حول نفسها بسرعة مقدارها حوالي30 كيلومتراً في الدقيقة (27.8 كيلومتراً في الدقيقة) عند خط الاستواء، فتتم دورتها هذه في يوم مقداره ـ 24 ساعة ـ تقريباً، يتقاسمه ليل ونهار، بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول، التي تنتج بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها ست وستون درجة ونصف درجة تقريباً، ويعزى للسبب نفسه تتابع الدورات الزراعية، وهبوب الرياح، وهطول الأمطار، وفيضان الأنهار بإذن الله ـ تعالى ـ.

والأرض كوكب فريد في كل صفة من صفاته، مما أهَّله بجدارة أن يكون مهداً للحياة الأرضية بكل مواصفاتها. ولعل هذا التأهيل هو أحد مقاصد الآية القرآنية الكريمة التي يقول فيها الحق ﷻ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾، ولعل من أوضح هذه الآيات البينات التي أشارت إليها هذه الآية القرآنية الكريمة ما يلي:

أولاً: بُعد الأرض عن الشمس:

يقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بحوالي مائة وخمسين مليوناً من الكيلومترات، وقد استخدمت هذه المسافة كوحدة فلكية للقياس في فسحة الكون، ولما كانت كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب في مجموعتها تتناسب تناسباً عكسياً مع بعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جريه في مداره حولها، بينما يتناسب طول سنة الكوكب تناسباً طردياً مع بعده عنها (وسنة الكوكب هي المدة التي يستغرقها في إتمام دورة كاملة حول الشمس)، اتضحت لنا الحكمة البالغة من تحديد بعد الأرض عن الشمس، فقد قدرت الطاقة التي تشعها الشمس من كل سنتيمتر مربع على سطحها بحوالي عشرة أحصنة ميكانيكية، ولا يصل الأرض سوى جزء واحد من بليوني جزء من هذه الطاقة الهائلة، وهو القدر المناسب لنوعية الحياة الأرضية، ولتنشيط القوى



رسم لمجموعة الكواكب الشمسيّة ويظهر فيها موقع الأرض وحجمها بالنسبة للكواكب الأُخرى

الخارجية التي تعمل على تسوية سطح الأرض، وتكوين التربة، وتحريك دورة الماء حول الأرض، وغير ذلك من الأنشطة الأرضية. ولطاقة الشمس الإشعاعية صور عديدة أهمها: الضوء الأبيض، والحرارة ـ الأشعة تحت الحمراء ـ، والأشعة السينية، والأشعة فوق البنفسجية، ونسب هذه المكونات للطاقة الشمسية ثابتة فيما بينها، وإن اختلفت كمية الإشعاع الساقط على أجزاء الأرض المختلفة باختلاف كلٍّ من الزمان والمكان.

وحزمة الضوء الأبيض تتكون من الأطياف السبعة المعروفة لنا وهي: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي، وتقدر نسبتها في الأشعة الشمسية التي تصل إلى الأرض بحوالي 38%، ولها أهمية بالغة في حياة كلٍّ من النبات والحيوان والإنسان، وتبلغ أقصى مدى لها عند منتصف النهار بصفة عامة، وعند منتصف نهار الصيف بصفة خاصة؛ لأن قوة إنارة أشعة الشمس لسطح الأرض تبلغ في الصيف ضعفي ما تبلغه في الشتاء.

أما الأشعة تحت الحمراء فتقدر نسبتها في أشعة الشمس التي تصل إلى الأرض بحوالي 53%، ولها دورها المهم في تدفئة الأرض وفي تدفئة ما عليها من صور الحياة، وفي تنشيط كافة العمليات الكيميائية التي تتم على سطح الأرض وفي غلافها الجوي، الذي يَرُدُّ عنَّا قدراً هائلاً من حرارة الشمس؛ فكثافة الإشعاع الشمسي والتي تقدر بحوالي2 سعر حراري على كل سنتيمتر مربع من جو الأرض في المتوسط، يتشتت جزء منها بواسطة جزيئات الهواء، وقطرات الماء، وهباءات الغبار السابحة في جو الأرض، ويمتص جزء آخر بواسطة كل من غاز الأوزون وبخار الماء، ومتوسط درجة الحرارة على سطح الأرض

يقدر بحوالي عشرين درجة مئوية، وإن تراوحت بين حوالي74 درجة مئوية تحت الصفر في المناطق القطبية المتجمدة و55 درجة مئوية في الظل في أشد المناطق قيظاً.

أما الأشعة فوق البنفسجية فتقدر نسبتها بحوالي 9% من مجموع أشعة الشمس التي تصل إلى الأرض؛ وذلك لأن غالبيتها تمتص أو ترد بفعل كل من النطاق المتأيّن ونطاق الأوزون الذي جعلهما ربنا ﷻ من نطق الحماية للحياة على الأرض. ويقدر ما يصل إلى الأرض من طاقة الشمس بحوالي ثلاثة عشر مليونَ حصانٍ ميكانيكي على كل كيلومتر مربع من سطح الأرض في كل ثانية، وتقدر قيمته ببلايين الدولارات مما لا قبل للبشرية كلها بتحمله أو وفاء شكر الله عليه...!!!

ولو كانت الأرض أقرب قليلاً إلى الشمس، لكانت كمية الطاقة التي تصلها كافية لإحراق جميع صور الحياة على سطحها، ولتبخير مياهها، ولخلخلة غلافها الغازي.

فكوكب (عطارد) الذي

ألوان قوس قزح تظهر الأطياف السبعة التي تتألف منها حزمة الضوء الأبيض

يقع على مسافة تقدر بحوالي 0.39 من بعد الأرض عن الشمس تتراوح درجة حرارة سطحه بين220 درجة مئوية في وجهه المنير و27 درجة مئوية في وجهه المظلم، وكوكب (الزهرة) الذي يقع على مسافة تقدر بحوالي 0.72 من بعد الأرض عن الشمس تصل درجة الحرارة على سطحه المنير إلى 457 درجة مئوية (730 درجة مطلقة).

وعلى النقيض من ذلك، فإن الكواكب الخارجة عن الأرض (المريخ، المشتري، زحل، يورانوس، نبتيون، بلوتو) لا يصلها إلا نسب أقل من حرارة الشمس فتعيش في برودة لا تقوى الحياة الأرضية على تحملها.

ولذلك فإنه من الواضح أن بعد الأرض عن الشمس قد قدَّره ربنا ﷻ بدقة بالغة تسمح للأرض بتلقي قدر من طاقة الشمس يتناسب تماماً مع حاجات جميع الكائنات الحية على سطحها، وفي كلٍّ من مياهها، وهوائها بغير زيادة ولا نقصان، إلا في الحدود الموائمة لطبيعة الحياة الأرضية في مختلف فصول السنة.

فلو كانت الأرض على مسافة من الشمس تقدر بنصف بعدها الحالي؛ لزادت كمية الطاقة التي تتلقاها إلى أربعة أمثال كميتها الحالية؛ ولأدى ذلك إلى تبخير الماء وخلخلة الهواء واحتراق جميع صور الحياة على سطحها.

ولو كانت الأرض على ضعف بعدها الحالي من الشمس لنقصت كمية الطاقة التي تتلقاها إلى ربع كميتها الحالية، وبالتالي لتجمدت جميع صور الحياة واندثرت بالكامل.

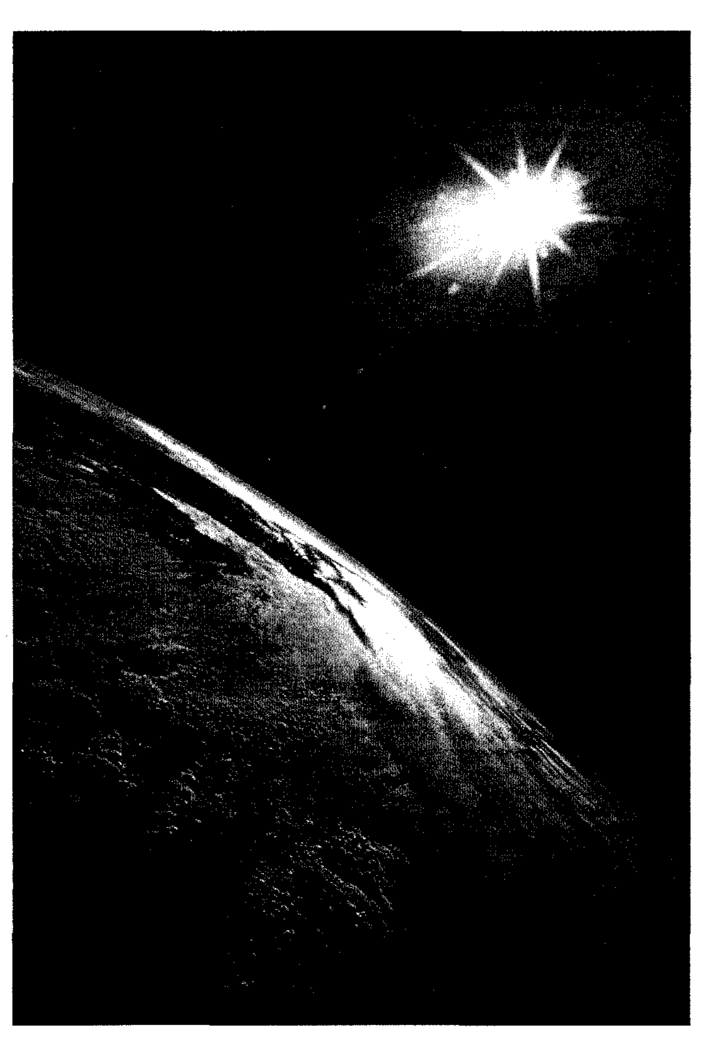
وباختلاف بعد الأرض عن الشمس قرباً أو بعداً يختلف طول السنة، وطول كل فصل من الفصول نقصاً أو زيادة، مما يؤدي إلى ميزان الحياة على سطحها، فسبحان من حدَّد للأرض بعدها عن الشمس وحفظها في مدارها المحدد، وحفظ الحياة على سطحها من كل سوء.

ثانياً: أبعاد الأرض:

يقدر حجم الأرض بحوالي مليون كيلومتر مكعب، ويقدر متوسط كثافتها بحوالي 5.52 جرام للسنتيمتر المكعب، وعلى ذلك فإن كتلتها تقدر بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن، ومن الواضح أن هذه الأبعاد قد حددها ربنا ﷻ بدقة وحكمة بالغتين، فلو كانت الأرض أصغر قليلاً لما كان في مقدورها الاحتفاظ بأغلفتها الغازية، والمائية، وبالتالي لاستحالت الحياة الأرضية، ولبلغت درجة الحرارة على سطحها مبلغاً يحول دون وجود أي شكل من أشكال الحياة الأرضية؛ وذلك لأن الغلاف الغازي للأرض به من نطق الحماية ما لا يمكن للحياة أن تتواجد في غيبتها، فهو يرد عنا جزءاً كبيراً من حرارة الشمس وأشعتها المهلكة، كما يرد عنا قدراً هائلاً من الأشعة الكونية القاتلة، وتحترق بالاحتكاك بمادته أجرام

الشهب وأغلب مادة (النيازك)، وهي تمطر الأرض بالعديد من الأطنان في كل يوم.

ولو كانت أبعاد الأرض أكبر قليلاً من أبعادها الحالية؛ لزادت قدرتها على جذب الأشياء زيادة ملحوظة مما يعوق الحركة، ويحول دون النمو الكامل لأي كائن حي على سطحها إن وجد؛ وذلك لأن الزيادة في جاذبية الأرض تمكنها من جذب المزيد من صور المادة والطاقة في غلافها الغازي، فيزداد ضغطه على سطح الأرض، كما تزداد كثافته فتعوق الحركة، كما تعوق العديد من العمليات الحيوية من مثل التنفس والنتح، وتمنع وصول القدر الكافي من أشعة الشمس إلى الأرض، كما قد تؤدي إلى احتفاظ الأرض بتلك الطاقة كما تحتفظ بها الصوب النباتية على مر الزمن فتزداد باستمرار وترتفع حرارتها ارتفاعاً يحول دون وجود أي صورة من صور الحياة الأرضية على سطحها.



طول الليل والنهار على الأرض مرتبط بثبات سرعة دوران الأرض حول محورها وحول الشمس

ويتعلق طول كلٍّ من نهار وليل الأرض وطول سنتها، بكلٍّ من بعد الأرض عن الشمس، وبأبعادها ككوكب يدور حول محوره، ويجري في مدار ثابت حول الشمس. فلو كانت سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس أعلى من سرعتها الحالية لقصر طول اليوم الأرضي - بنهاره وليله -

قصراً مخلاً، ولو كانت أبطأ من سرعتها الحالية لطال يوم الأرض طولاً مخلاً، وفي كلتا الحالتين يختل نظام الحياة الأرضية اختلالاً قد يؤدي إلى إفناء الحياة على سطح الأرض بالكامل، إن لم يكن قد أدى إلى إفناء الأرض ككوكب إفناءً تاماً؛ وذلك لأن قصر اليوم الأرضي أو استطالته ـ بنهاره وليله ـ يخل إخلالاً كبيراً بتوزيع طاقة الشمس على المساحة المحددة من الأرض، وبالتالي يخل بجميع العمليات الحياتية من مثل: النوم واليقظة، والتنفس والنتح، وغيرها، كما يخل بجميع الأنشطة المناخية من مثل: معدلات الدفء والبرودة، والجفاف والرطوبة، وحركة كل من الرياح والأعاصير والأمواج، ومعدلات تسارع أو تباطؤ عمليات التعرية المختلفة، ودورة الماء حول الأرض وغيرها من أنشطة.

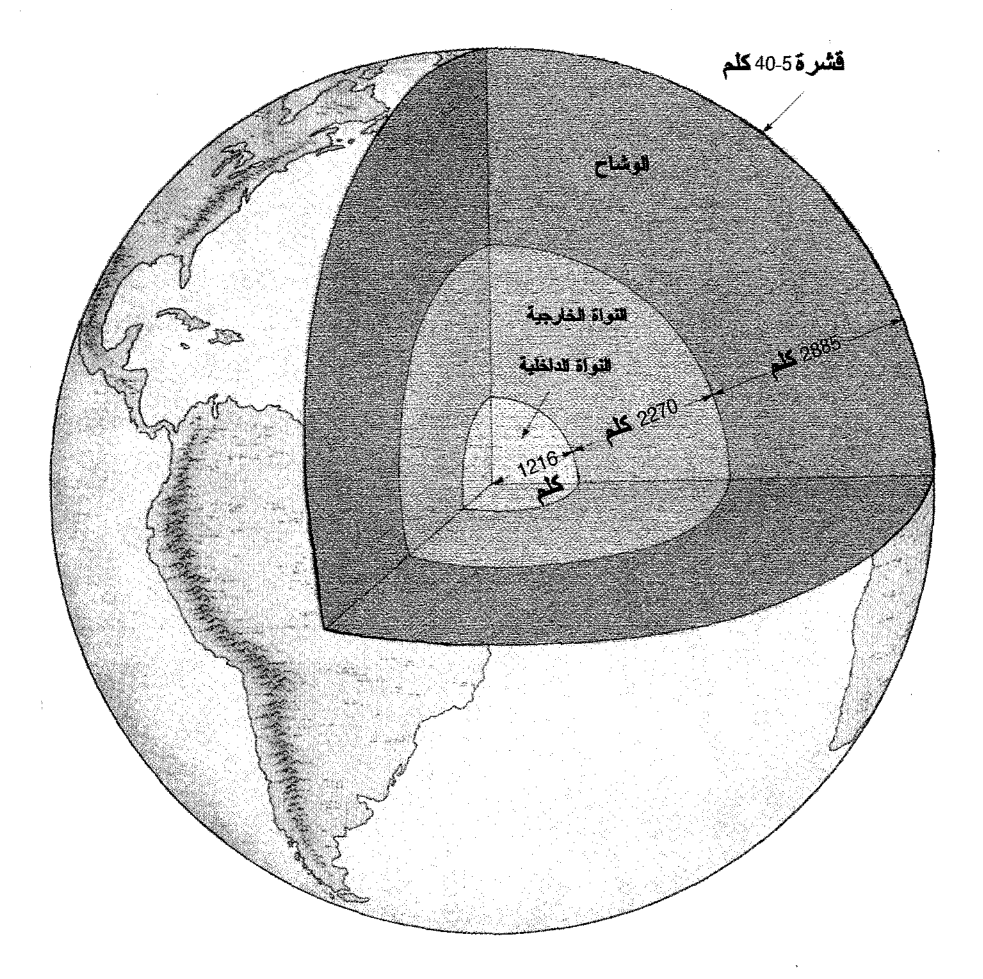
كذلك لو لم تكن الأرض مائلة بمحورها على مستوى مدار الشمس ما تبادلت الفصول، وإذا لم تتبادل الفصول اختل نظام الحياة على الأرض.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن تحديد مدار الأرض حول الشمس بشكله البيضاني (الإهليلجي)، وتحديد وضع الأرض فيه قرباً وبعداً على مسافات منضبطة من الشمس، يلعب دوراً مهماً في ضبط كمية الطاقة الشمسية الواصلة إلى كل جزء من أجزاء الأرض، وهو من أهم العوامل لجعلها صالحة لنمط الحياة المزدهرة على سطحها، وهذا كله ناتج عن الاتزان الدقيق بين كل من القوة الطاردة (النابذة) المركزية التي دفعت بالأرض إلى خارج نطاق الشمس، وشدة جاذبية الشمس لها، ولو اختل هذا الاتزان بأقل قدر ممكن، فإنه كان لا بد وأن يعرِّض الأرض إما للابتلاع بواسطة الشمس حيث درجة حرارة قلبها تزيد عن خمسة عشر مليوناً من الدرجات المطلقة، أو أن يعرضها للانفلات من عقال جاذبية الشمس لتضيع في فسحة الكون المترامية فتتجمد بمن عليها وما عليها، أو تحرق بواسطة الأشعة الكونية، أو تصطدم بجرم آخر، أو تبتلع بواسطة نجم من النجوم، والكون من حولنا مليء بالمخاطر التي لا يعلم مداها إلا الله تعالى، والتي لا يحفظنا منها إلا رحمته ﷻ. ويتمثل جانب من جوانب رحمة الله بنا في عدد من السنن المحددة التي تحكم الأرض، كما تحكم جميع أجرام السماء في حركة دقيقة دائبة لا تتوقف ولا تتخلف حتى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

ثالثاً: بنية الأرض:

أثبتت دراسات الأرض أنها تنبني من عدة نطق محددة حول كرة مصمتة من الحديد والنيكل تعرف باسم: **لب الأرض الصلب (الداخلي)** ولهذا اللب الصلب كما لكل نطاق من نطق الأرض دوره في جعل هذا الكوكب صالحاً للعمران بالحياة الأرضية في جميع صورها.

وتقسم النطق الداخلية للأرض على أساس من تركيبها الكيميائي أو على أساس من



رسم توضيحي لبنية الأرض الداخلية

صفاتها الميكانيكية باختلافات بسيطة بين العلماء، وتترتب بنية الأرض من الداخل إلى الخارج على النحو التالي:

(1) لب الأرض الصلب (الداخلي) أو الأرض السابعة:

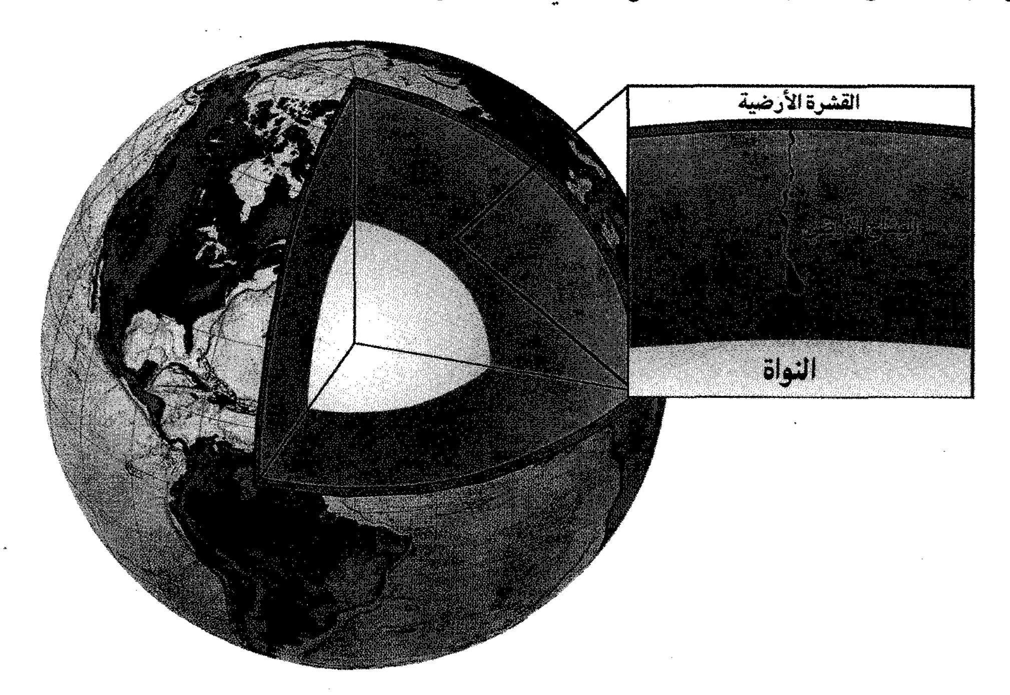
وهو عبارة عن نواة صلبة من الحديد (90%) وبعض النيكل (9%) مع قليل من العناصر الخفيفة من مثل: الفوسفور، الكربون، السيليكون (1%)،)وهو نفس تركيب النيازك الحديدية تقريباً). ويبلغ قطر هذه النواة حوالي 2402 كيلومتر، ويمتد نصف قطرها من مركزها على عمق 6371 كيلومتراً إلى عمق 5170 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر.

ولما كانت كثافة الأرض في مجموعها تقدر بحوالي 5.52 جرام للسنتيمتر المكعب،

بينما تختلف كثافة قشرة الأرض بين 2.7 جرام للسنتيمتر المكعب لمادة القارات، وحوالي 3 جرامات للسنتيمتر المكعب لمادة قيعان البحار والمحيطات، فإن الاستنتاج المنطقي يؤدي إلى أن كثافة لب الأرض لا بد وأن تتراوح بين 10 و13.5 جرام للسنتيمتر المكعب.

(2) نطاق لب الأرض السائل (الخارجي) أو الأرض السادسة:

وهو نطاق سائل يحيط باللب الصلب، وله نفس تركيبه الكيميائي تقريباً وإن كانت مادته منصهرة، ويبلغ سمكه 2285 كيلومتراً، من عمق 5170 كيلومتراً إلى عمق 2885 كيلومتراً تحت سطح الأرض، ويفصل هذا النطاق عن اللب الصلب منطقة انتقالية يبلغ سمكها 450 كيلومتراً تمثل بدايات عملية الانصهار، وعلى ذلك فهي شبه منصهرة، وتمتد من عمق 5170 كيلومتراً إلى عمق 4720 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر، ويُكَوِّن كل من لب الأرض الصلب ولبها السائل حوالي 31% من كتلتها.



(3)، (4)، (5) نطق وشاح الأرض أو الأرضين الخامسة إلى الثالثة:

يحيط وشاح الأرض بلبها السائل، ويبلغ سمكه حوالي 2765 كيلومتراً من عمق 2885 كيلومتراً إلى عمق 120 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر، ويفصله إلى ثلاثة نطق مميزة مستويان من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل، يقع أحدهما على

عمق670 كيلومتراً، ويقع الآخر على عمق400 كيلومتراً من مستوى سطح البحر، وبذلك ينقسم وشاح الأرض إلى وشاح سفلي، يمتد من عمق2885 كيلومتراً إلى عمق670 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر، ووشاح متوسط يمتد من عمق670 كيلومتراً إلى عمق400 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر، ووشاح علوي يمتد من عمق400 كيلومتراً إلى عمق يتراوح بين65 كيلومتراً تحت قيعان المحيطات، وعمق120 كيلومتراً تحت سطح القارات.

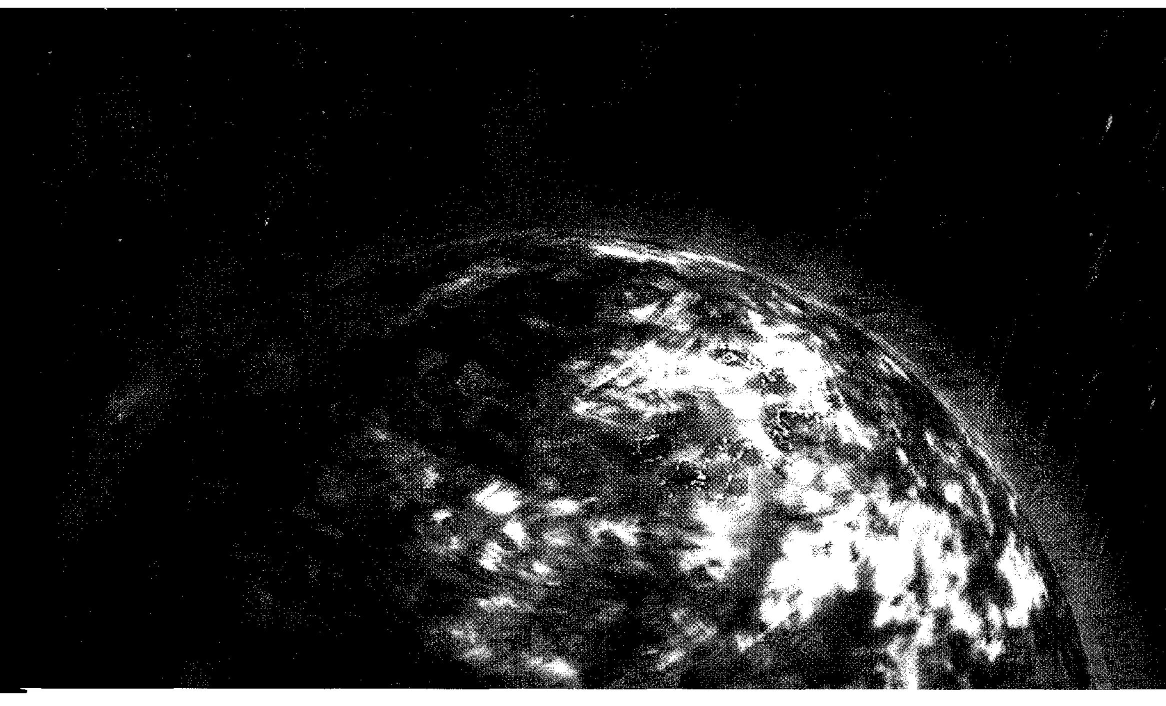
وقمة الوشاح العلوي، من عمق65 ـ 120 كيلومتراً إلى عمق200 كيلومتر تحت مستوى سطح البحر يعرف باسم: **نطاق الضعف الأرضي**، لوجوده في حالة لزجة، شبه منصهرة، أي: منصهرة انصهاراً جزئياً في حدود نسبة 1%.

(6)، (7) الغلاف الصخري للأرض أو الأرضين الثانية والأولى:

ويتراوح سمكه بين65 كيلومتراً تحت قيعان البحار والمحيطات و120 كيلومتراً تحت القارات، ويقسمه خط انقطاع الموجات الاهتزازية المسمى باسم: الموهو إلى **قشرة الأرض** وإلى **ما تحت قشرة الأرض**. وتمتد قشرة الأرض إلى عمق يتراوح بين5 و8 كيلومترات تحت قيعان البحار والمحيطات، وبين60 و80 كيلومتراً تحت القارات، ويمتد ما تحت القشرة إلى عمق120 كيلومتراً تحت مستوى سطح البحر.

وللأرض مجال جاذبية يزداد مع العمق حتى يصل إلى قمته عند الحد الفاصل بين وشاح الأرض ولبها (على عمق 2885 كيلومتراً) ثم يبدأ في التناقص بسبب الجذب الذي يحدثه عمود الصخور فوق هذا العمق حتى يصل إلى الصفر في مركز الأرض. ولولا جاذبية الأرض لهرب منها كل من غلافها الغازي والمائي، وذلك لأن هناك حداً أدنى لسرعة الهروب من جاذبية الأرض يقدر بحوالي 11.2 كيلومتراً في الثانية، بمعنى: أن الجسم لكي يستطيع الإفلات من جاذبية الأرض فعليه أن يتحرك في عكس اتجاه الجاذبية بسرعة لا تقل عن هذه السرعة. ولما كانت حركة جسيمات المادة في الغلاف الغازي للأرض أقل من تلك السرعة بكثير، فقد أمكن للأرض ـ بتدبير من الله تعالى ـ أن تحتفظ بغلافيها الغازي والمائي، ولو فقدتهما ولو جزئياً لاستحالت الحياة على الأرض، ولأمطرت بوابل من الأشعات الكونية والشمسية، ولرُجِمت بملايين الأطنان من (النيازك) التي كانت كفيلة بتدميرها بالكامل.

كذلك فإن للأرض مجالاً مغناطيسياً ثنائي القطبية، يعتقد أن له صلة وثيقة بلب الأرض الصلب وحركة لبها السائل من حوله. ويتولد المجال المغناطيسي للأرض كما يتولد لأي جسم آخر من حركة المكونات فيها؛ وذلك لأن الجسيمات الأولية للمادة ـ وهي في غالبيتها



المجال المغنطيسي المحيط بالأرض يحميها من الأشعة الكونية المتساقطة باتجاهها وبدونها تتعرض صور الحياة على الأرض للهلاك

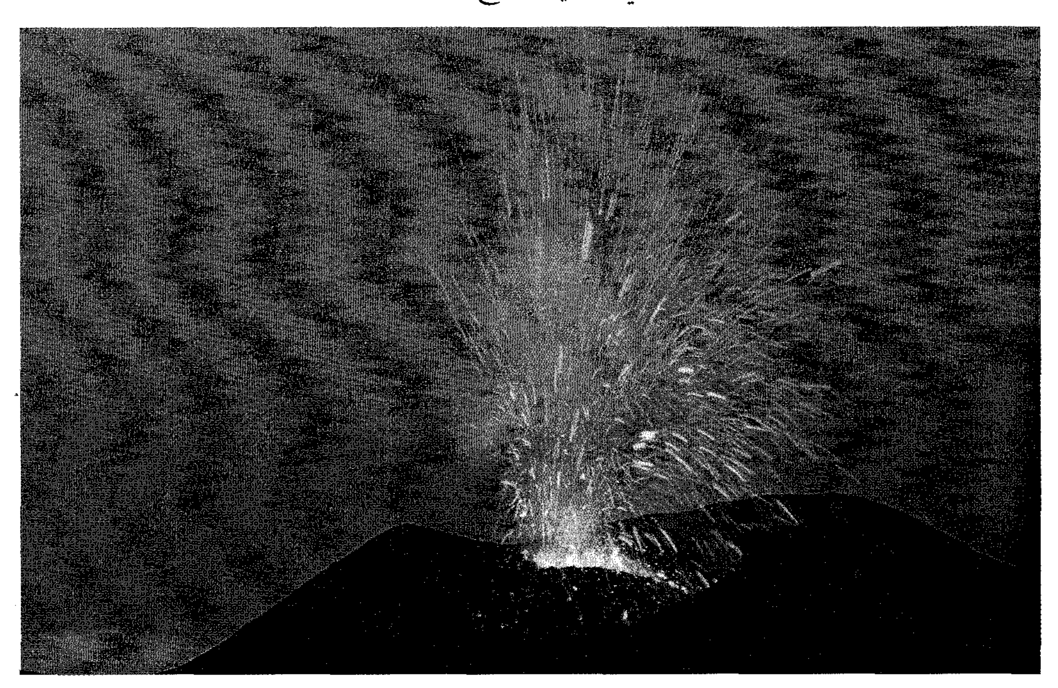
مشحونة بالكهرباء ـ تتحرك سواء كانت طليقة أو مرتبطة في داخل ذرات المادة، وهي حينما تتحرك تولد مجالاً مغناطيسياً، والمجال المغناطيسي لأية نقطة في فسحة الكون يمثل بمحصلة اتجاه تمتد من القطب المغناطيسي الجنوبي للمادة إلى قطبها الشمالي في حركة معاكسة لاتجاه عقرب الساعة، ومماثلة لحركة الطواف حول الكعبة المشرفة.

والمجال المغناطيسي للأرض كَوَّن لها ـ بإرادة الله تعالى ـ غلافاً مغناطيسياً يعرف باسم: **النطاق المغناطيسي للأرض**، وهذا الغلاف المغناطيسي يلعب دوراً مهماً في حماية الأرض من الأشعة الكونية بتحكمه في حركة الجسيمات المشحونة القادمة إلينا من فسحة الكون، فيجعلها تدور من أحد قطبي الأرض المغناطيسيين إلى الآخر، دون الدخول إلى المستويات المنخفضة من غلافها الغازي.

ويمتد **المجال المغناطيسي للأرض** إلى مسافة تقدر بخمسين ألف كيلومتر فوق سطحها، والجسيمات المشحونة القادمة من السماء والتي يأسرها المجال المغناطيسي للأرض كونت نطاقين من أحزمة الإشعاع على ارتفاع ألفي كيلومتر، وخمسين ألف كيلومتر على التوالي، يحيط كل نطاق منهما بالأرض إحاطة كاملة وإن رق كل منهما رقة شديدة فوق

قطبي الأرض وزاد سُمْكُهُ تجاه خط الاستواء حتى يصل إلى أقصاه. وهذه الحلقات من أحزمة الإشعاع تحاصر الأرض مع مستوى مركزي منطبق على المستوى الاستوائي المغناطيسي لها، وتحميها من وابل الأشعة الكونية المتساقط باتجاهها في كل لحظة، ولولا هذه الحماية الربانية لهلكنا وهلكت جميع صور الحياة من حولنا. والجرعة الإشعاعية في نطق الإشعاع تلك عالية الشدة لا تطيقها أية صورة من صور الحياة الأرضية، وتبلغ الشدة الإشعاعية مداها في المنطقة الاستوائية للحزام الإشعاعي للأرض.

وللأرض كذلك **نشاط ديناميكي** يتمثل في حركة ألواح الغلاف الصخري لها، الممزق بشبكة هائلة من الصدوع، وتتحرك تيارات الحمل العنيفة المندفعة من نطاق الضعف الأرضي لتحرك تلك الألواح إما متباعدة عن بعضها البعض وإما مصطدمة مع بعضها البعض. وفي الحالة الأولى تكوّن قيعان البحار والمحيطات، وتساعد على عملية اتساعها وتجديد مادة تلك القيعان باستمرار، وتكوّن السلاسل الجبلية في أواسط المحيطات، وفي الحالة الثانية تكوّن السلاسل الجبلية الأرضية، وتصاحب العمليتان بالعديد من الهزات الأرضية، والثورانات البركانية التي تثري سطح الأرض بالخيرات المعدنية والصخرية



الحمم المتصاعدة من البراكين تُغني التربة بالخيرات المعدنية والصخرية

المختلفة، خاصة عبر خطوط التصادم، كما قد تكون عقاباً إلٰهياً للعاصين، وابتلاءً للصالحين وعبرة للناجين.

والجبال لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً رئيساً في تثبيت كل من الأرض وغلافها الصخري، ولولا هذا التثبيت لألواح الغلاف الصخري للأرض ما تكونت التربة، ولا خزِّنت المياه تحت السطحية، ولا نبتت نبتة، ولا أمكن لمشروع بناء أن يقام، ولا رصف طريق أن يتم، ولا لكائن حي أن يستقر على سطح الأرض.

كذلك لعبت الجبال ـ ولاتزال تلعب ـ دوراً مهماً في تثبيت الأرض ككوكب يدور حول محوره، وتقلل من درجة ترنحه كما تقلل قطع الرصاص التي توضع في إطارات السيارات من معدل ترنحها. ولولا نطاق الضعف الأرضي ما أمكن لهذه العمليات الداخلية للأرض أن تتم، وهي من ضرورات جعلها صالحة للعمران.

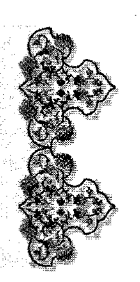
هذه بعض آيات الله في الأرض وهي أكثر من أن تحصى، أشارت إليها هذه الآية القرآنية الكريمة التي يقول فيها ربنا ﷻ:

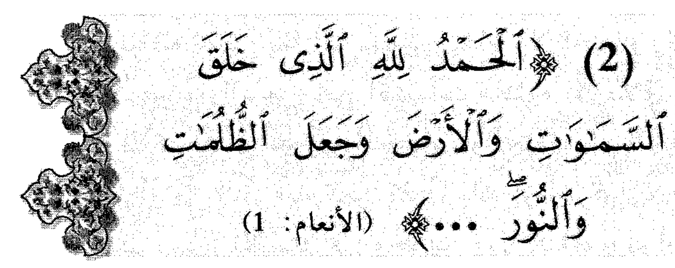
﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ **(الذاريات: 20)**

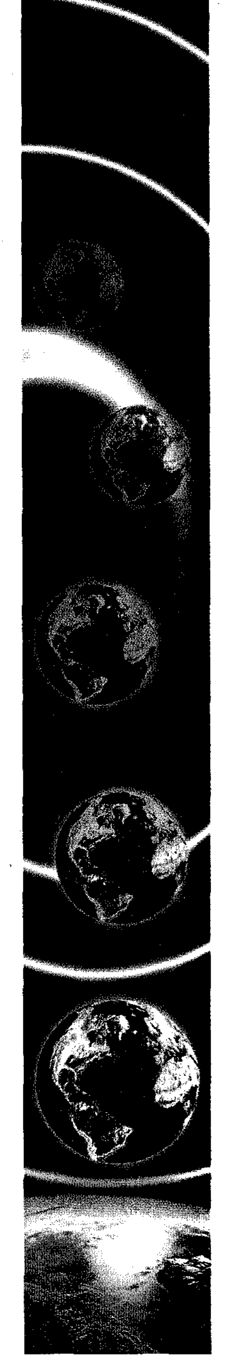
فسبحان من خلق الأرض بهذا القدر من الإحكام والإتقان، وترك فيها من الآيات ما يشهد لخالقها بطلاقة القدرة، وإحكام الصنعة، وشمول العلم، كما يشهد له ـ تعالى ـ بجلال الربوبية وعظمة الألوهية، والتفرد بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالقدرة على إفناء هذا الخلق، ثم إعادة بعثه، وحساب كل بعمله، وجزائه عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وكانت قضية البعث عبر التاريخ هي حجة الكافرين والمتشككين والفاسقين الذين أنكروا الغيب وكفروا به.

فسبحان الذي أنزل هذه الآية الكريمة من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، ولم يكن لأحد من الخلق إلمام بتلك الآيات الأرضية والتي لم تتكشَّف أسرارها للإنسان إلا منذ عقود قليلة من الزمان، وفي ذلك من الشهادات ما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن نبينا محمداً ﷺ هو خاتم أنبياء الله ورسله، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلَّماً من قِبل خالق السمٰوات والأرض، وصدق الله العظيم إذ يصفه بقوله الحق:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ **(النجم: 3 ـ 10).**







هذا النص القرآني الكريم جاء في مطلع سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم، إذ يبلغ عدد آياتها (165) بعد البسملة، وهي السورة الخامسة بعد فاتحة الكتاب في ترتيب سور المصحف الشريف، والخامسة في عدد الآيات بعد كل من «البقرة»، و «الأعراف»، و «آل عمران»، و «النساء»؛ وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها.

ومن خصائص هذه السورة المباركة أنها نزلت دفعة واحدة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت سورة «الأنعام» بمكة ليلاً جملة واحدة، وحولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح[1]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة تسد ما بين الخافقين، ولهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج**»[2] وأضاف هذا الصحابي الجليل أنس قوله: ورسول الله ﷺ يقول: «**سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم**».

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول القواعد الأساسية للعقيدة الإسلامية من مثل قضايا الألوهية، والربوبية، والوحدانية، وعبودية المخلوقين لخالقهم، وإنزاله الوحي رحمة بهم على سلسلة من الأنبياء والمرسلين، الذين كان آخرهم النبي والرسول الخاتم،

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.
(2) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (الحديث: 10992).

سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أنبياء الله ورسله أجمعين ـ، وكانت مهمتهم جميعاً إبلاغ الناس بحقيقة الدين الإسلامي الحنيف، وإرشادهم إلى عبادة الله وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وعبادته تعالى بما أمر ـ بغير ابتداع ولا اختراع ولا إحداث بشري ـ، وإقامة عدل الله في الأرض، والسعي إلى اكتساب مكارم الأخلاق، والاستعداد للبعث والنشور والعرض الأكبر أمام الله ﷻ للحساب والجزاء، ثم الخلود في الجنة أبداً لمن أطاعوا داعي الله، أو في النار أبداً لمن كفروا بالله أو أشركوا به وكذبوا برسالاته. وهذه القضايا تمثل صلب رسالة الإنسان في وجوده، ومن هنا وجب أخذها مأخذ الجد، والنظر فيها بعين العقل، لا بالميراث والتقليد، وكلاهما لا ينفع صاحبه، ولا يصلح عذراً أمام الله ـ تعالى ـ في ساحة الحساب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء: 88، 89).

وتستهل سورة الأنعام بحمد الله ـ تعالى ـ الذي تشهد له بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبأنه خلق السمٰوات والأرض، وأوجد الظلمات والنور، وخلق الإنسان من طين، وحدد آجال الناس، وحدد يوم البعث والحساب، ويعلم بالسر والجهر، وبما تكسب كل نفس لأنه إلٰه السمٰوات والأرض ومن فيهن، وقيّومهما، ومليكهما، وعلى الرغم من ذلك يكفر به وبنعمه الكافرون، ويشرك به المشركون، ويزيغ عن هديه الضالون. . . !!

وانطلاقاً من ذلك كلة تبدأ السورة الكريمة بمواجهة الكافرين والمشركين والضالين في كل عصر، وفي كل حين بشكر الله والثناء عليه فتقول: **(الحمد لله)**؛ وهو شكر استهلت به خمس من سور القرآن الكريم هي: «الفاتحة»، «الأنعام»، «الكهف»، «سبأ»، و «فاطر».

وتتبع سورة «الأنعام» الحمد بعدد من الآيات الكونية الدالة على الخالق ﷻ، وعلى شمول علمه وكمال حكمته، وطلاقة قدرته، ثم تثني بعرض صور من مواقف المكذبين، ومصارع الغابرين، وتنصح بالسير في الأرض لإدراك كيف كان عاقبة المكذبين.

وتنتقل سورة «الأنعام» إلى استعراض عدد من الشواهد الحسية الدالة على ألوهية الخالق ﷻ وربوبيته ووحدانيته، ومنها خلق السمٰوات والأرض وخلق ما فيهن ومن فيهن، ورعاية كل ذلك وصونه من الهلاك، فالله ـ تعالى ـ هو رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وهو رب ما سكن في الليل والنهار، وهو ﷻ الرزاق الذي يطعم ولا يطعم، وهو ـ تعالى ـ الذي يملك أن يعذب من يشاء في الدنيا والآخرة، ويملك الضر والخير، وهو

على كل شيء قدير، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.

ثم تستعرض السورة الكريمة تأكيد الله الخالق ﷻ على صدق نبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي تطالبه السورة بإعلان المفاصلة التامة بينه وبين المشركين، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ **(الأنعام: 19).**

وتؤكد سورة «الأنعام» معرفة أهل الكتاب بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، تماماً كما يعرفون أبناءهم، وعلى الرغم من ذلك فهم لا يؤمنون به، انطلاقاً من ظلمهم لأنفسهم وخسرانهم لها، وتصف السورة الكريمة، افتراءهم الكذب على الله، وتكذيبهم بآياتة بأنه من أبشع صور الظلم للنفس، وتشير إلى مواقف الحسرة والذلة والمهانة التي سوف يقفها هؤلاء المشركون يوم القيامة، وهم يسألون:

﴿... أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ **(الأنعام: 22، 23).**

وتذكر السورة الكريمة أن من الكفار والمشركين من يستمع إلى القرآن الكريم بآذان صمّ، وقلوب عمي فلا يكادون يفقهون شيئاً منه، ولا يدركون شيئاً من إعجاز آياته، ويصفونه زوراً بأنه من أساطير الأولين، وهم إذ ينهون غيرهم عنه، وينأون بأنفسهم هروباً منه يهلكون أنفسهم في الدنيا والآخرة وهم لايشعرون.

وتصور الآيات حال هؤلاء الكافرين والمشركين وهم موقوفون على النار نادمين على ما سبق منهم من تكذيب بآيات الله، طالبين من الله ـ تعالى ـ أن يردهم إلى الدنيا لكي لا يكذبوا بآيات الله ويكونوا من المؤمنين، وترد عليهم السورة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ وهو أعلم بهم:

﴿... وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ **(الأنعام: 28).**

وهؤلاء الذين كذبوا بالبعث سوف يفاجأون بموقفهم أمام ربهم وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، وقد خسروا كل شيء لتفاهة الحياة الدنيا الفانية بالنسبة إلى الآخرة الباقية.

ثم تنتقل سورة الأنعام إلى مخاطبة رسول الله ﷺ بألا يحزن لتكذيب الكافرين والمشركين لبعثته الشريفة، فقد كُذِّب الرسل من قبله، وفي ذلك يقول له ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: 33، 34).

وتستمر الآيات في استعراض شيء من طبائع النفس البشرية في حالات الرخاء والشدة؛ فحين يتجلى لهم سلطان الله محيطاً بالعباد فإنهم يتجهون إلى الله ـ تعالى ـ وحده يرجون رحمته، فإذا كشف الضر عنهم رأيتهم يعودون إلى معصية الله، وإنكار الحق، والجور على الخلق، وقد قست قلوبهم وتحجرت مشاعرهم. . .!!

وتصف الآيات حال الكافرين والمشركين اليوم، وقد فتح الله عليهم أبواب كل شيء ليأخذهم بغتة وهم مبلسون، ويقطع دابر الظالمين. وعلى الرغم من ذلك كله فإن آيات سورة «الأنعام» تبشر التائبين بصدق بأن الله غفور رحيم وتؤكد إحاطة علم الله بالغيوب والأسرار، وبالأنفاس والأعمار، مع الهيمنة الكاملة على كل شيء في هذا الوجود، والسيطرة التامة في البر والبحر، وبالنهار والليل، وفي كل لحظة من لحظات الحياة والممات، وفي كل ذرة من لبنات بناء كل من الدنيا والآخرة.

وتروي السورة المباركة جانباً من سيرة نبي الله إبراهيم ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ مع الكفار والمشركين من قومه، وتعرض لاهتدائه إلى معرفة خالقه ﷻ بالتأمل في بديع صنع الله ـ تعالى ـ في الكون، ثم باصطفاء الله له، ووهبه النبوة والرسالة، ووهبه كذلك ذرية صالحة على الكبر.

كذلك ألمحت السورة إلى عدد من أنبياء الله ورسله من أمثال ساداتنا: نوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط ـ صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين ـ، مؤكدة وحدة رسالات السماء، وتكاملها في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وبصفتها الرسالة الخاتمة فقد تعهد الله ﷻ بحفظها حفظاً كاملاً إلى يوم الدين بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ.

وتصف الآيات في هذه السورة المباركة حال كلٍّ من الكافرين والمشركين في لحظات الاحتضار، وما يتعرضون له من مهانة وإذلال وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿. . . وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: 93).

ثم تعاود سورة «الأنعام» إلى الاستدلال بعدد من الآيات الكونية على أولوهية الخالق ﷻ، وربوبيته، ووحدانيته، وتأمر بعبادته وحده وفي ذلك تقول: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾

(الأنعام: 101 - 103).

وتذكر الآيات أن المشركين طالبوا رسول الله ﷺ ببعض المعجزات الحسية للتدليل على صدق نبوته، وترد عليهم بأن من عميت بصائرهم لا تفيدهم المعجزات الحسية ولو أنزلت عليهم وذلك لتأصل الضلال فيهم. وتؤكد الآيات في سورة الأنعام مرة أُخرى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن الكريم هو كلام الله، ولكنهم على الرغم من ذلك يصرون على الضلال، وتأتي الآيات للرد عليهم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فتقول:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ **(الأنعام: 114، 115).**

وتفصل سورة الأنعام ما حرم الله - تعالى - على عباده المؤمنين من الطعام، وتأمر بترك ظاهر الإثم وباطنه، وتمايز بين أهل الهداية وأهل الضلال والغواية فتقول:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾. **(الأنعام: 125).**

وتذكر الآيات في سورة الأنعام أن من البشر من شرح الله - تعالى - صدورهم للإيمان، وأنار قلوبهم بنور اليقين فآمنوا واهتدوا، وأن منهم من أتبع نفسه هواها، وأطاع شياطين الجن والإنس فضلّ وغوى، وأن الله سوف يحشر الخلائق جميعاً إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدم كل واحد منهم في حياته الدنيا. كذلك تذكر الآيات أن المشركين من أهل الكتاب قد حرموا على أنفسهم أشياء لم يحرمها الله - تعالى - عليهم، تطاولاً وتجاوزاً وإجراماً، فكانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وصغارها تارة أُخرى، افتراء منهم واختلافاً على الله، وتقرر الآيات ظلم من كذب على الله - تعالى - فنسب إليه ما لم يشرع، وتأمر رسول الله ﷺ أن يبين للناس ما حرم الله - تعالى - عليهم.

وتـؤكـد الآيـات أن الله ـ تـعـالـى ـ هـو... ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ **(الأنعام: 141)**.

وتأمر الآيات بالأكل من تلك الثمار، وبإعطاء حقها يوم حصادها دون إسراف، لأن الله ـ تعالى ـ لا يحب المسرفين، وتؤكد أنه أنزل ثمانية أزواج من الأنعام (ذكراً وأنثى من كل من الضأن، والمعز، والإبل، والبقر).

وتختم سورة الأنعام بعددٍ من الوصايا السلوكية الرفيعة، تحرم ما حرم الله، وتحل ما أحله بغير تقصير أو تجاوز أو مخالفة، وتدعو إلى الالتزام بمكارم الأخلاق، وبسنة سيدنا محمد ﷺ، وتؤكد أن من أبلغ صور الظلم التكذيب بآيات الله، والإعراض عنها، وأن الله ـ تعالى ـ سيجزي الذين يصدفون عن آياته سوء العذاب بما كانوا يصدفون.

وتندد الآيات في ختام السورة بالذين حرفوا دينهم من أهل الكتاب وصاروا شيعاً، ويكذبون بعثة سيدنا محمد ﷺ فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِى شَىۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ **(الأنعام: 159)**.

وتنتهي السورة الكريمة إلى حديث على لسان الرسول الخاتم ـ ﷺ ـ فتقول: ﴿قُلۡ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحۡيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىۡءٍۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمُۢ﴾. **(الأنعام: 161 ـ 165)**.

هذا وقد احتوت سورة «الأنعام» على عدد من ركائز العقيدة الإسلامية، والتشريعات الإلهية، ومن قصص عدد من الأمم البائدة، وعلى عدد من الآيات الكونية التي تم استعراضها في أماكن أخرى من هذا المجلد.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على الآية الأولى من سورة «الأنعام»، وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: 1).

• ذكر الطبري رحمه الله ما مختصره: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله وحده دون غيره ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظلمات الليل، وجعل بمعنى: وأظلم ليلها، وأنار نهارها، ﴿وَٱلنُّورَ﴾ نور النهار ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يشركون، يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته به.

• وذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السمٰوات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ الظلمات، ووحد لفظ النور لكونه أشرف... ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا له شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً....».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿ٱلْحَمْدُ﴾ وهو الوصف بالجميل ثابت ﴿لِلَّهِ﴾ وهل المراد الإعلام بذلك للإيمان به، أو الثناء به، أو هما احتمالات أفيدها الثالث [أي للإيمان والثناء معاً] قاله الشيخ الجلال المحلي في تفسير أول سورة الكهف ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين ﴿وَجَعَلَ﴾ خلق ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي: كل ظلمة ونور، وجمعها دونه لكثرة أسبابها، وهذا من دلائل وحدانيته ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مع قيام هذا الدليل ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يسوّون به غيره في العبادة».

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «إنها اللمسات الأولى.. تبدأ بالحمد لله، ثناءً عليه، وتسبيحاً له، واعترافاً بأحقيته للحمد والثناء، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء،... بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى ـ الخلق ـ وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود ـ السمٰوات والأرض ـ ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السمٰوات والأرض وفق تدبير مقصود... الظلمات والنور... فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك... لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون، بل يجعلون

لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾...».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - رحم الله كاتبه - ما نصه: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إعلام بأنه تعالى حقيق بالحمد والثناء، مستوجب لهما، لخلقه السمٰوات والأرض، على ما هما عليه من بديع الصنع والإحكام، وخلقه الظلمات والنور، أو ظلمات الليل ونور النهار، منفعة للعباد، وآيات للمتفكرين، ودلائل على وحدانيته وقدرته وتدبيره، ﴿وَجَعَلَ﴾ أي أحدث وخلق ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ثم الذين كفروا مع قيام هذه الدلائل الظاهرة يسوون بربهم غيره مما لا يقدر على شيء من ذلك، فيكفرون به، أو يجحدون نعمته، فأي شيء أعجب من ذلك وأبعد عن الحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من العدل بمعنى التسوية، وقوله ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بقوله ﴿يَعْدِلُونَ﴾، أو ثم الذين كفروا بربهم يميلون عنه، وينصرفون إلى غيره من خلقه، فيعبدون ما لا يستحق العبادة، من العدول...».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «الثناء والذكر الجميل لله، الذي خلق السمٰوات والأرض، وأوجد الظلمات والنور لمنفعة العباد بقدرته وعلى وفق حكمته، ثم مع هذه النعم الجليلة يشرك به الكافرون، ويجعلون له شريكاً في العبادة!».

• وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: بدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذة الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد فلا ندّ له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل ومعنى الآية: احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الأنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السمٰوات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة، ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمٰن منوّر الأكوان، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم....».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

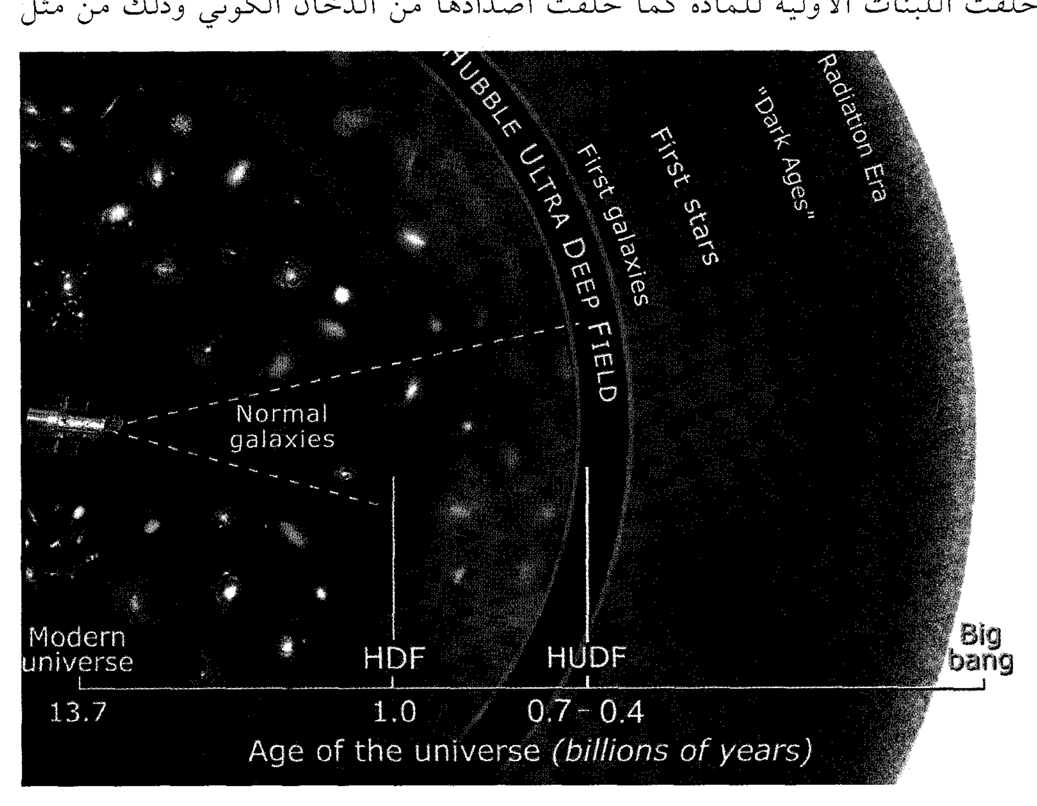
أولاً: خلق السمٰوات والأرض من أعظم الأدلة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة:

فقد أدرك العلماء حقيقة توسع الكون في مطلع القرن العشرين، وأدى إدراك تلك الحقيقة إلى الاستنتاج الصحيح بأن كوننا بدأ خلقه من نقطة متناهية الضآلة في الحجم، ومتناهية الضخامة في كم المادة والطاقة، وأن هذه النقطة انفجرت فتحولت إلى سحابة من الدخان الذي خلقت منه الأرض والسمٰوات.

ومع توسع الكون تم تبرده من مئات البلايين من الدرجات المطلقة، إلى حوالي ثلاث درجات مطلقة (تقاس اليوم على جميع أطراف الجزء المدرك لنا من السماء الدنيا) وخلال هذا التبرد تخلقت المادة ونقائضها، كما تخلق مختلف صور الطاقة وأضدادها على مراحل متتالية يحددها العلماء في النقاط التالية:

(1) عصر الكواركات والجليونات:

وقد استمر لجزء من مائة ألف مليون جزء من الثانية بعد عملية الانفجار العظيم وفيه خلقت اللبنات الأولية للمادة كما خلقت أضدادها من الدخان الكوني وذلك من مثل



رسم لعملية الانفجار العظيم للكون والذي يُقدر عمره ببلايين السنين، وتحديد للجزء المدرك من الكون بواسطة تلسكوب هابل

الكواركات وأضدادها والنيوترينوات ونقائضها.

وكان الدخان الكوني كثيفاً مظلماً معتماً، وكانت الجاذبية قوة منفصلة رابطة أجزاء هذا الدخان الكوني، بينما انفصلت القوة النووية الشديدة عن القوة الكهربية الضعيفة، ويعتقد علماء الفيزياء الفلكية أن أعداد هذه الجسيمات الأولية كان يفوق أعداد نقائضها وإلا ما وجد الكون، أو أن إرادة عليا فصلت بين تلك الجسيمات ونقائضها حتى تقوم السمٰوات والأرض بأمر الله. وكانت هذه الفترة فترة تمدد ملحوظ وتوسع مذهل للكون.

(2) عصر اللبتونات:

وقد استمر ـ كما تشير الحسابات في علم الفلك الفيزيائي ـ إلى جزء من مليون جزء من الثانية بعد عملية الانفجار العظيم، وفيه تمايزت اللبتونات (وهي أخف اللبنات الأولية المعروفة للمادة مثل الإليكترونات والنيوترينوات وأضدادها) عن الكواركات، كما تمايزت البوزونات، وانفصلت القوة الضعيفة عن اتحاد القوى المعروف باسم القوة الكهربية الضعيفة.

(3) عصر النيوكليونات وأضدادها:

وقد استمر إلى 225 ثانية بعد عملية الانفجار العظيم ـ كما تشير حسابات علماء الفلك الفيزيائي ـ، وفيه اتحدت الكواركات مع بعضها البعض لتكون النيوكليونات وأضدادها من مثل البروتونات ونقائضها، والنيوترونات ونقائضها، ويعتقد علماء الفيزياء الفلكية أن الطاقة كانت على قدر من الضعف لايسمح بتكون النيوكليونات وأضدادها على نطاق واسع وإلا ما وجد الكون.

(4) عصر تخلق نوى ذرات العناصر:

وقد استمر ـ حسب حسابات الفلكيين الفيزيائيين ـ في الفترة من 225 ثانية إلى ألف ثانية بعد عملية الانفجار العظيم، وفيه تكونت الديوترونات الثابتة وهي تنتج عن ترابط بروتون مع نيوترون، ومع تكوينها بدأت عملية الاندماج النووي في تكوين نوى ذرات الإيدروجين. وباتحادها تكونت نوى ذرات الهيليوم وبعض نوى الذرات الأثقل حتى وصلت نسبة الأيدروجين إلى74%، والهيليوم إلى25%، ونوى بعض العناصر الأثقل وزناً إلى1%.

(5) عصر تخلق الأيونات:

وقد استمر في الفترة من ألف ثانية إلى عشرة تريليونات ثانية بعد الانفجار العظيم ـ حسب الحسابات في علم الفلك الفيزيائي ـ، وفيه تكونت أيونات كل من غازي الإيدروجين والهيليوم، واستمر الكون في الاتساع والتبرد.

(6) عصر تخلق الذرات:

ويمتد في الفترة من عشرة تريليونات ثانية إلى ألف تريليون ثانية بعد عملية الانفجار العظيم ـ حسب حسابات الفلكيين الفيزيائيين ـ، وفية تكونت ذرات العناصر، وترابطت بقوى الجاذبية وأصبح الكون شفافاً.

(7) عصر تخلق النجوم والمجرات:

وقد امتد في الفترة من ألف تريليون ثانية (أي من نحو32 مليون سنة من سنيننا الراهنة) بعد عملية الانفجار العظيم إلى اليوم، أي: أنه استمد نحو عشرة بلايين من السنين، وفيه تخلقت أغلب العناصر المعروفة لنا (وهي أكثر من مائة عنصر) بعملية الاندماج النووي في داخل النجوم حتى تكون عنصر الحديد في داخل نجوم خاصة وفي لحظة من لحظات انفجارها تعرف باسم المستعرات والمستعرات العظمى. وأما العناصر الأعلى وزناً ذرياً من نوى ذرات الحديد فقد تكونت باصطيادها للبنات الأولية للمادة المنتشرة في صفحة السماء.

ولقد سبق القرآن الكريم هذه المعارف العلمية بأربعة عشر قرناً وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ **(الأنبياء: 30)**.

وقوله ـ عز من قائل ـ:

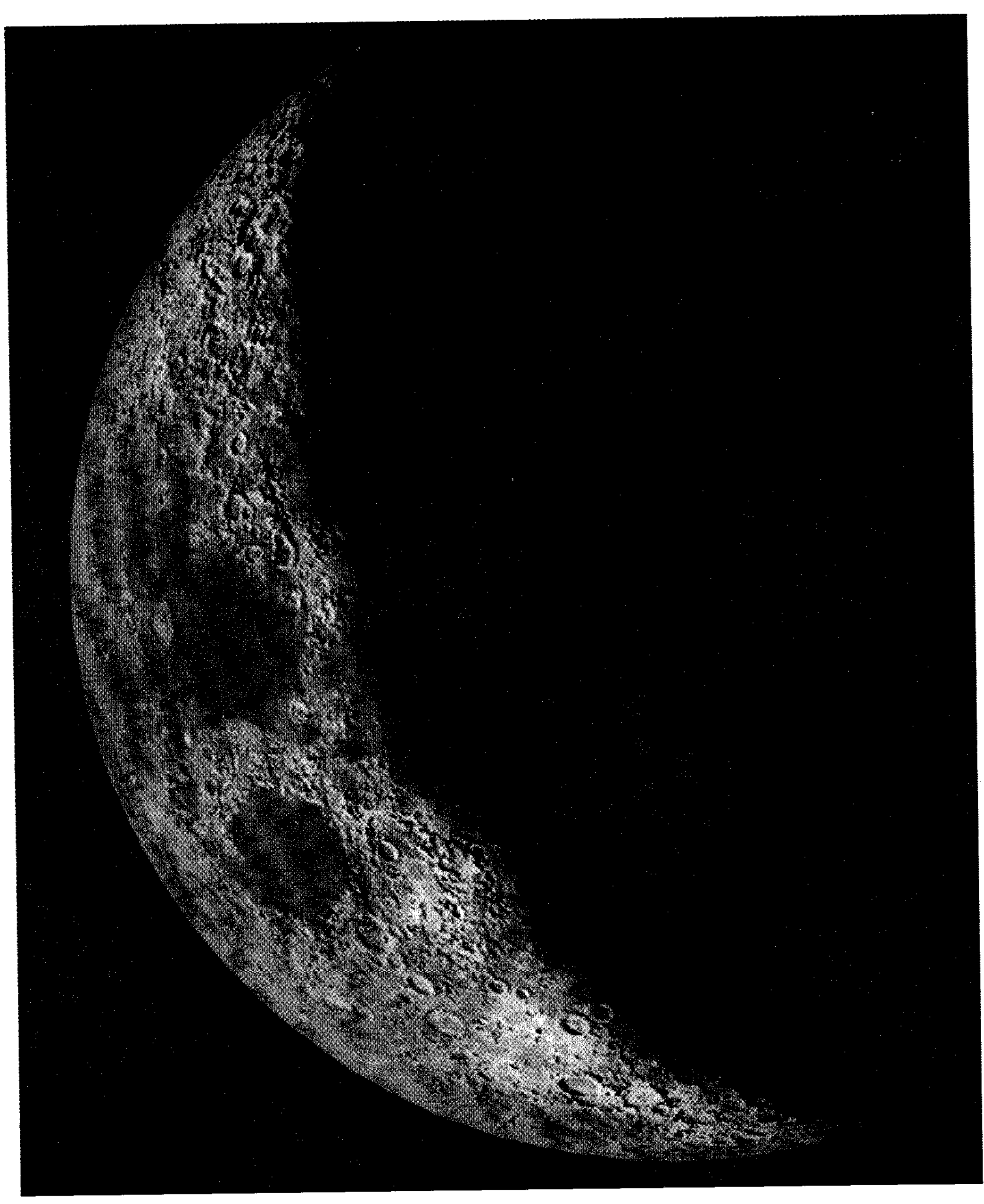
﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ **(فصلت: 11)**.

وقوله ﷻ:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ **(الذاريات: 47)**.

وهذة المراحل تؤكد الحكمة والتدبير الفائقين في خلق السمٰوات والأرض لأن أدنى مفارقة في الحساب كان من الممكن أن تبطل بناء الكون، وذلك يشمل حسابات الكم والكيف، ودرجات الحرارة، ومعدلات التوسع، وانضباط التفاعلات، خاصة أن العملية كلها ناتجة عن انفجار الجرم الأولي، وأن من طبيعة الانفجار أن يؤدي إلى الدمار وإلى بعثرة كل شيء وتناثره، لكن انفجاراً يؤدي إلى بناء كون بهذه السعة، والفخامة والدقة والإحكام في البناء وتجاوز أعداد الأجرام لكل حصر، وانضباط كل من حركاتها، وسرعات دورانها، وعلاقاتها ببعضها البعض، لابد وأن يكون قد سبقه وزامنه وتبعه من دقة

التقدير، وإبداع التكوين، وحسن الرعاية ما أوصله إلى ما نراه في الأنفس والآفاق من حولنا، وهو ما يشهد للخالق العظيم بطلاقة القدرة، وكمال الصنعة، ودقة التقدير...!!.



صورة حقيقية للقمر يسبح في ظلمة الكون وهو على شكل هلال ويظهر عليه انعكاس ضوء الشمس

ثانياً: خلق الظلمات والنور من الأدلة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة والمستوجبة الحمد لله ـ تعالى ـ:

من الراجح علميًّا أن كوننا بدأ بحالة من الدخان الداكن الكثيف التي استمرت على مدى ثلاثين مليون سنة من سنيننا الحالية على أقل تقدير، ثم بدأ الكون من بعدها في التحول من الشفافية القادرة على استقبال الضوء الناتج عن عملية الاندماج النووي في داخل نجوم استمرت على مدى فترة تقدر بعشرة مليارات من السنين على أقل تقدير ثم إلى زماننا الحالي، وإلى أن يشاء الله ـ تعالى ـ. ولما كان ضوء النجوم في غالبيته غير مرئي تعددت الظلمات في كوننا على النحو التالي:

(1) الظلمة الأولية للكون:

وقد استغرقت الفترة من بعد عملية الانفجار العظيم وحتى بدايات عملية الاندماج النووي، وتقدر بنحو الثلاثين مليون سنة من سنيننا الحالية. وقد تميزت هذه الفترة بالكثافة العالية لمادة الكون في صورها الأولية، وبالعتمة الكاملة، والإظلام التام.

(2) الظلمة الحالية للكون:

بعد عملية الانفجار العظيم بنحو ثلاثين مليون سنة تخلقت النجوم وبدأت عملية الاندماج النووي الحراري بداخلها، ولاتزال مستمرة إلى يومنا الحالي بعد أكثر من عشرة مليارات من السنين وإلى أن يشاء الله ﷻ، وبذلك بدأت النجوم في إرسال أضوائها إلى فسحة السماء وإن كانت أغلب تلك الأضواء غير مرئية لتكونها من سلسلة متصلة من الأمواج الكهرومغناطيسية التي تشمل موجات الراديو بمختلف أطوالها، والأشعة تحت الحمراء، وأطياف الضوء المرئي، والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية، وأشعة جاما، وهذه الموجات الكهرومغناطيسية لا تختلف فيما بينها إلا في تردداتها وأطوال موجاتها، ويمتد الطول الموجي للطيف الكهرومغناطيسي بين عدة كيلومترات لموجات الراديو (الموجات اللاسلكية) وبين جزء من بليون جزء من المليمتر لأشعة جاما، أما الأشعة البصرية فتتراوح أطوال موجاتها بين 0.01 ميكرون ومائة ميكرون (والميكرون = 0.001 مليمتر) وتضم موجات الضوء المرئي والأشعة تحت الحمراء، والأشعة فوق البنفسجية. وتميز عين الإنسان من أطياف الضوء المرئي: الأحمر (وهو أطولها وأقلها تردداً) ثم البرتقالي، فالأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي والبنفسجي (وهو أقصر موجات الطيف المرئي وأعلاها تردداً)، وهذه الموجات لا تُرى بوضوح إلا في طبقة النهار وهي جزء يسير من الغلاف الغازي للأرض المحيط بنصفها المواجه للشمس لا يتعدى سمكه مائتي

كيلومتر، وفية يتم انعكاس هذه الأطياف بواسطة هباءات الغبار وجزئيات الهواء والبخار وقطيرات الماء، واختلاطها مع بعضها البعض لتعطينا نور النهار الأبيض الذي يتمتع به أهل الأرض وأهل كل كوكب له غلاف غازي مماثل. وعلى ذلك فإننا إذا تجاوزنا طبقة النهار فإننا نرى الشمس قرصاً أزرق في صفحة سوداء شديدة الإظلام، وهذه هي ظلمة الكون الحالي التي وصفها الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ **(الحجر: 14، 15)**.

وقوله ﷻ في وصف السماء: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ **(النازعات: 29)**.

هذه ظلمة ليل السماء، وهي ظلمة تزداد حلوكة عندما تلتقي مع ظلمة ليل الأرض، ويحدثها دوران الأرض حول محورها أمام الشمس فيتقاسم سطح الأرض الليل والنهار؛ الليل في نصف الكرة الأرضية غير المواجه للشمس، والنهار في نصفها المواجه للشمس.

(3) ظلمة أعماق البحار والمحيطات:

من الثابت علميًّا أن قيعان البحار العميقة والمحيطات تغرق في ظلام دامس، وذلك لأن أعماقها تتراوح بين مئات الأمتار، (11034 متراً)، بمتوسط يقدر بحوالي أربعة كيلومترات (3795 متراً)، وأشعة الشمس لايمكنها الوصول إلى تلك الأعماق أبداً؛ فمن الثابت أن نطاق الأوزون في الغلاف الغازي للأرض يرد أغلب الموجات فوق البنفسجية إلى خارج نطاق الأرض، بينما تعكس السحب نحو30% وتمتص نحو19% من باقي أشعة الشمس، وبذلك لا يصل إلى سطح الماء في البحار والمحيطات أكثر من51% من أشعة الشمس الساقطة عليها، وبمجرد سقوط هذه النسبة تعكس الأمواج السطحية5% منها، وتستهلك35% من الأشعة تحت الحمراء في تبخير الماء وفي عمليات التمثيل الضوئي التي تقوم بها بعض النباتات البحرية.

وعند نفاذ الجزء المتبقي من أشعة الشمس إلى داخل كتلة الماء فإنه يتعرض للعديد من عمليات الانكسار، والتحلل إلى أطيافه المختلفة التي تمتص بالتدريج حسب أطوال موجاتها بدءاً بالأحمر وانتهاء بالبنفسجي. وبذلك فإن معظم موجات الضوء المرئي من أشعة الشمس يمتص على عمق يصل إلى 100م تقريباً من مستوى سطح الماء في البحار والمحيطات، ويعرف هذا النطاق باسم النطاق المضيء، ويستمر 1% فقط من أشعة الشمس إلى عمق 150م، 0,01%، إلى عمق 200م، في الماء الصافي الخالي من العوالق، ويظل هذا القدر الضئيل من الضوء المرئي يتعرض للانكسار والتشتت

والامتصاص حتى يتلاشى تماماً على عمق لا يكاد يصل إلى ألف متر تحت مستوى سطح البحر حيث لا يبقى من ضوء الشمس شيء يذكر (جزء واحد من عشرة تريليونات جزء).

هذا إذا لم تحل الأمواج العميقة حيلولة كاملة دون وصول الضوء إلى تلك الأعماق، ويبدأ تكون تلك الأمواج على عمق 40م تقريباً من مستوى سطح البحر، وقد تتكرر على أعماق دون ذلك.. ويصف القرآن الكريم ظلمة قيعان البحار العميقة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ **(النور: 40)**.

(4) ظلمات الأرحام:

ويصفها الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله:

...﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ **(الزمر: 6)**.

وقد فسرت هذه الظلمات الثلاث بظلمة البطن، يليها إلى الداخل ظلمة الرحم، يليها إلى الداخل ظلمة المشيمة بأغشيتها السلوية وما بها من سائل مخاطي.

(5) ظلمة القبر كنموذج لظلمة كل مكان مغلق في باطن الأرض أو على سطحها:

من السنة النبوية الشريفة أن يعمق القبر قدر قامة وبسطة، وأن يشق اللحد في جانب القبر جهة القبلة ويوضع فيه جسد الميت على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة، ثم على اللحد ينصب الطوب اللبن (الطوب النيء) ثم يملأ القبر بالرمال أو التراب، ويرفع قدر شبر عن الأرض. وقد يكتفي بشق حفرة في وسط القبر تبنى جوانبها باللبن، ثم يوضع فيها الميت ويسقف عليه بشيء مما لم يدخل النار من مثل الخشب ثم تهال عليه الرمال أو التراب إلى ارتفاع شبر فوق الأرض، إلا أن اللحد أولى. وبعد إغلاق القبر تكون الظلمة فيه كاملة، ومنها استعاذ رسول الله ﷺ.

وتشبه ظلمة القبر ظلمة الكهوف، والمغائر (المغارات) والمناجم، والحفر الأرضية العميقة، وكذلك ظلمة المخابىء، والأماكن المغلقة إغلاقاً محكماً.

أما نور النهار الأبيض الجميل فلا يرى إلا في الجزء السفلي من الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس إلى سمك مائتي كيلومتر فقط، حيث يتوافر القدر الكافي من هباءات الغبار وقطيرات الماء وجزيئات الغازات الهوائية التي تعكس وتشتت

وتخلط موجات الطيف المرئي، حتى تعطي لنا ذلك النور الأبيض المبهر الذي يميز النهار، الذي يصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾(الشمس: 1 ـ 3).

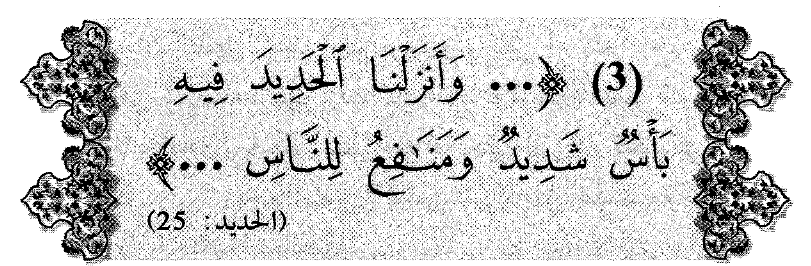
وأشار إلى رقة طبقة النهار بقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧﴾ (يٓس: 37).

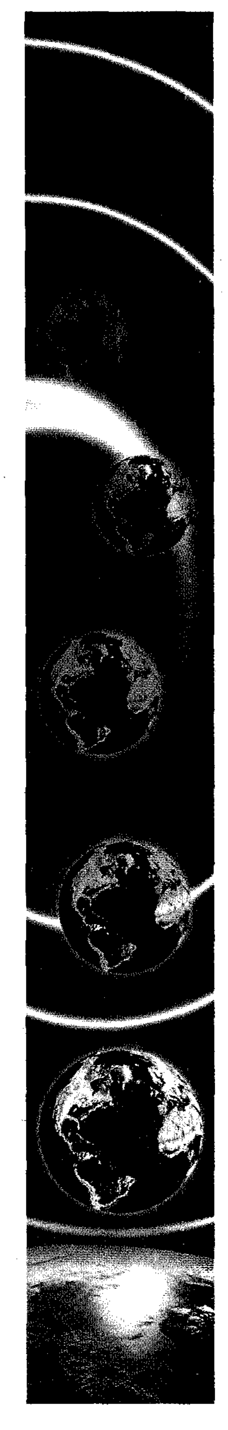
وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ (غافر: 61).

فسبحان الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ (الأنعام: 1).

فجمع الظلمات لتعددها وسيادتها في الكون، وأفرد النور لخصوصيته ومحدوديته في الوجود، وعدم تعدده، وهي حقائق لم تدرك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أُمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لممّا يجزم بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، وبأن الرسول الخاتم الذي تلقاه كان حتماً موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.





هذا النص القرآني المعجز جاء في خواتيم سورة «الحديد»، وهي سورة مدنية وآياتها تسع وعشرون (29) بعد البسملة؛ وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي تحمل اسم عنصر من العناصر المعروفة لنا، والتي يبلغ عددها فوق المائة. ويعجب القارئ للقرآن الكريم من اختيار هذا العنصر بالذات اسماً لهذه السورة المباركة التي تؤكد على إنزال الحديد من السماء، وبأسه الشديد، ومنافعه للناس.

وتبدأ هذه السورة الكريمة بتأكيد أن كل ما في السمٰوات والأرض خاضع بالعبودية لله، مسبح بحمده، منزه له عن كل وصف لا يليق بجلاله؛ لأنه ـ تعالى ـ هو العزيز الحكيم، الذي له ملك السمٰوات والأرض، والذي يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. وتواصل الآيات مزيداً من صفات هذا الخالق العظيم الذي هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء، وهو العليم بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ وأنه ـ تعالى ـ خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله، وأنه ـ سبحانه ـ يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وأنه مع جميع خلقه أينما كانوا، وفي أي زمان كانوا، فلا الزمان ولا المكان يقف عائقاً أمام قدرة الله، لأنه تعالى خالق كل من الزمان والمكان؛ وهو ـ تعالى ـ مطَّلع على جميع خلقه، بصير بما يعملون، وهو الذي له ملك السمٰوات والأرض، والذي إليه ترجع الأمور.

ومن الدلائل على طلاقة قدرته أنه - تعالى - يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وهو - سبحانه - عليم بذات الصدور، الكون كله خاضع لإرادته - تعالى - فهو خالقه ومبدعه، والمتصرف فيه بما يشاء، وهذه الصفات العليا من خصائص الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فلا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، فهو رب كل شيء ومليكه، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد؛ المسيطر سيطرة مطلقة على الوجود كله بكل ما فيه، ومن فيه، فكل شيء بيديه، وكل شيء راجع إليه، لايخفى شيء عن علمه، ولا يخرج شيء عن أمره، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وفي ذلك تقول الآيات في مطلع سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾. **(الحديد: 1 - 6)**

ثم تتحرك الآيات بعد ذلك في إيقاع رقيق يخاطب جماعة المؤمنين، وتدعوهم إلى تجسيد إيمانهم بالله ورسوله في بذل الأموال والمهج والأرواح دفاعاً عن هذا الدين، وإلى الإنفاق مما جُعِلُوا مستخلفين فيه حتى ينالوا الأجر الكبير من رب العالمين، فالذي يفعل ذلك كأنما يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة وله أجر كريم. وبالإضافة إلى عمومية الدعوة إلى تلك الحقيقة، فهي تذكرة دائمة لجماعة المؤمنين بما بذله السابقون من المهاجرين والأنصار في سبيل الله، حتى يتأسَّوا بهم في التجرد الكامل، والإخلاص الصادق لدين الله، والبذل والتضحية بالأموال والأنفس من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض، فلا تشدهم الحياة الدنيا عن الجهاد في سبيل الله مهما تكن المغريات، ومهما تكن العوائق والتضحيات وفي ذلك تقول الآيات:

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾. **(الحديد: 7 - 11)**

وبعد ذلك تعرض الآيات لحال كل من المؤمنين والمؤمنات في جانب، والمنافقين والمنافقات في جانب آخر يوم العرض الأكبر، وشتان ما بين الحالين. وتتساءل الآيات عن إمكانية أن يكون الوقت قد حان لكي تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله، ولما أنزل من الحق على خاتم أنبيائه ورسله حتى لايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون. وتؤكد مرحلية الحياة الدنيا، وأنها ليست إلا متاع الغرور، فلا يجوز لعاقل أن ينخدع بها، ويفني عمره في خدمتها، لاهياً عن الآخرة وهي دار القرار، ولذلك تنادي الآيات بالمسارعة إلى طلب المغفرة من الله، وإلى العمل المخلص الدؤوب من أجل الفوز بالجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله.

وفي ذلك تقول:

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾. **(الذاريات: 12 - 21)**

وتضيف الآيات أن كل خطب جلل نزل بالأرض أو بالأنفس مدون في كتاب الله من قبل وقوعه، وأن ذلك على الله يسير، كي ترضى كل نفسٍ مؤمنة بقدر الله ـ خيره وشره ـ وتؤمن أن فيه الخير كل الخير، فلا تبطر عند مسرة؛ لأن الله تعالى لا يحب كل مختال فخور، ولا تجزع عند مضرة لإيمانها بأن ذلك قدر مقسوم، وأجل محتوم، وأنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.

وفي ذلك تقول:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾. **(الذاريات: 22، 23)**

وتنعي الآيات على الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل؛ لأن الله ـ تعالى ـ كريم يحب كل كريم، ومن يتولَّ عن منهج الله فإن الله هو الغني الحميد وفي ذلك تقول:

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ .

(الحديد: 24)

وبعد هذه المقدمة الطويلة يأتي قلب السورة وسر تسميتها في الآية التي يقول فيها ربنا ﷻ:

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾﴾ **(الحديد: 25)**

ثم تأتي الآيات الأربع الأخيرة في السورة لتعرض خط سير رسالة الهداية الربانية، وتاريخ هذا الدين ـ دين الإسلام العظيم ـ الذي علمه ربنا ﷻ لأبينا آدم عليه السلام، وأنزله على فترة من الرسل من لدن نبي الله نوح عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ، والذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه بعد أن أكمله، وأتمه، وحفظه في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ـ.

وأشارت الآيات إلى حال بعض من أهل الكتاب ومنهم أتباع نبي الله عيسى عليه السلام.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ **(الحديد: 26 ، 27)**.

واختتمت السورة بالدعوة إلى الإيمان بالنبي الخاتم والرسول الخاتم، ففي ذلك دخول في رحمة الله، وفي نوره ومغفرته، وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم، والمنن العديدة التي يمن بها على من يشاء من عباده، وفي ذلك تقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ **(الحديد: 28 ، 29)**.

والآية الكريمة التي نحن بصددها تؤكد أن الحديد قد أنزل إنزالاً كما أنزلت جميع صور الوحي السماوي، وأنه يمتاز ببأسه الشديد، وبمنافعه العديدة للناس، وهذه كلها من الأمور التي لم يصل العلم الإنساني إلى إدراكها إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها بهذا الوضوح والتأكيد لمما يقطع بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق، ويجزم بنبوة النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه لأنه لم يكن لأحد من الخلق إدراك لتلك الحقيقة في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده.

وهنا يبرز التساؤل: كيف أُنزِل الحديد؟ وما هو وجه المقارنة بين إنزال وحي السماء وإنزال الحديد؟ ما هو بأسه الشديد؟ وما هي منافعه للناس؟ وقبل الإجابة على تلك الأسئلة لا بد من استعراض سريع للدلالات اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة، وكذلك للمواضع التي ورد فيها ذكر (الحديد) في كتاب الله ـ تعالى ـ.

الدلالات اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة:

(النزول) في الأصل هو هبوط من علو، يقال في اللغة: (نزل)، (ينزل) (نزولاً)، و(منزلاً) بمعنى حل، يحل، حلولاً؛ والمنزل بفتح الميم والزاي هو (النزول) وهو الحلول، و(نزل) عن دابته بمعنى هبط من عليها، و(نزل) في مكان كذا أي: حط رحله فيه، و(النزيل) هو الضيف.

ويقال: (أنزله) غيره بمعنى: أضافه أو هبط به؛ و(استنزله) بمعنى: (نزله تنزيلاً)، و(التنزيل) أيضاً هو القرآن الكريم، وهو (الإنزال المفرق)، وهو الترتيب؛ و(التنزل) هو (النزول في مهلة)، و(النَّزَل) هو ما يهيأ (للنزيل) أي: ما يعد (للنازل) من المكان، والفراش، والزاد، والجمع (أنزال)؛ وهو أيضاً الحظ والريع،و (النزل) بفتحتين، و(المنزل) الدار والمنهل؛ أي: المورد الذي ينتهل منه؛ لأن به (ماء) أو هو عين ماء ترده الإبل في المراعي، وتسمى عيون الماء التي في المفاوز على طرق السفار باسم (المنازل)؛ و(المنزلة) مثله، أو هي الرتبة أو المرتبة؛ و(المنزلة) لا تجمع.

ويقال: استُنْزِلَ فلان (بضم التاء وكسر الزاي) أي: حط عن مرتبته أو قدره، و(المُنْزَلُ) بضم الميم وفتح الزاي هو(الإنزال)، تقول: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ **(المؤمنون: 29)**؛ و(إنزال) الله ـ تعالى ـ نعمه ونقمه على الخلق هو إعطاؤهم إياها، وقال المفسرون في قول الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ **(النجم: 13)** إن (نزلة) هنا تعني: مرة أخرى.

وفي قوله ـ تعالى ـ ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ **(الكهف: 107)** قال الأخفش: هو من (نزول) الناس بعضهم على بعض، يقال: ما وجدنا عندك نُزُلاً؛ و(النازلة): الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس، وجمعها (نوازل)؛ و(النزال) في الحرب: (المنازلة)؛ و(النزلة) هي الزكمة من الزكام، يقال: به (نزلة)، وقد نُزِلَ بضم النون أي أصابته الزكمة.

الحديد في القرآن الكريم

ورد ذكر الحديد في كتاب الله ـ تعالى ـ في ست آيات متفرقات على النحو التالي:

(1) ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ **(الإسراء: 50).**

(2) ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ . . .﴾ **(الكهف: 96).**

(3) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ **(الحج: 21).**

(4) ﴿. . . وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ **(سبإ: 10).**

(5) ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ **(قٓ: 22).**

(6) ﴿. . . وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ . . .﴾ **(الحديد: 25).**

وهذه الآيات تشير كلها إلى عنصرالحديد ما عدا آية «سورة قٓ» والتي جاءت لفظة (حديد) فيها في مقام التشبيه للبصر بمعنى أنه نافذ قوي يبصر به ما كان خفيًّا عنه في الدنيا.

من أقوال المفسرين

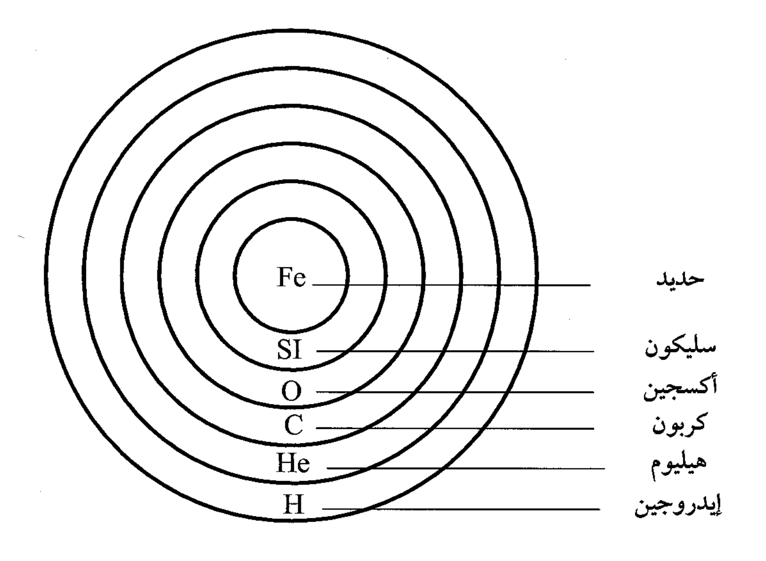
• في تفسير قول الحق ﷻ: ﴿. . . وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ . . .﴾.

ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره «أي: وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وبيناته ودلالاته، فلما قامت الحجة على من خالف، شرَّع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، وقد روى الإمام أحمد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»، ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: السلاح كالسيوف والحراب والسنان ونحوها ﴿وَمَنَٰفِعُ

﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: في معايشهم كالسكة والفأس والمنشار والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ وغير ذلك.. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: من نيته في حمل السلاح نصرة لله ورسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض».

● وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مختصره: «لقد أرسلنا رسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج القواطع ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: الكتب ـ و﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ العدل، ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: أنشأناه، وخلقناه، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ **(الزمر: 6)** أي: خلق، وقيل: أخرجناه من المعادن، ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: السلاح، يقاتل به من أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في معايشهم كالفأس والمنشار وسائر الأدوات والآلات، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ علم مشاهدة، معطوف على ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ بأن ينصر دينه بآلات الحرب من الحديد وغيره ﴿وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من هاء ﴿يَنصُرُهُۥ﴾ أي: غائباً عنهم في الدنيا، قال ابن عباس: ينصرونه ولا يبصرونه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ لا حاجة له إلى النصرة لكنها تنفع من يأتي بها».

● وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «وفي النهاية يجيء المقطع الأخير في السورة، يعرض باختصار خط سير الرسالة، وتاريخ هذه العقيدة من لدن نوح وإبراهيم، مقرراً حقيقتها وغايتها في دنيا الناس، مُلِمًّا بحال أهل الكتاب، وأتباع عيسى عليه السلام بصفة خاصة.. فالرسالة واحدة في جوهرها، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها، ومعظمهم جاء بالبينات الخوارق.. والنص يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بوصفهم وحدة، وبوصف الكتاب وحدة كذلك، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾.. مع الكتاب، فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض، وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية.. ميزاناً لايحابي أحداً؛ لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولايحيف على أحد لأن الله رب الجميع. فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ..﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾!. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ والتعبير بـ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ كالتعبير في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ كلاهما يشير إلى إرادة الله وتقديره في خلق الأشياء والأحداث... أنزل الله الحديد ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو قوة الحرب والسلم ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ وهي إشارة إلى الجهاد بالسلاح، تجيء في موضعها من السورة التي تتحدث عن بذل النفس والمال. ولما تحدث عن الذين ينصرون



مراحل تحول قلب النجم إلى حديد

الله ورسله بالغيب، عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم لله ورسله، فهو نصر لمنهجه ودعوته، أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر: إن الله قوي عزيز..».

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ﷺ ما نصه: «.. و﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: خلقناه لكم، كقوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: هيأناه لكم، وأنعمنا به عليكم، وعلمناكم استخراجه من الأرض وصنعته بإلهامنا، ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: فيه قوة وشدة، فمنه جنة وسلاح، وآلات للحرب وغيرها، وفي الآية إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف، ليحصل القيام بالقسط، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في معاشهم ومصالحهم، وما من صنعة إلا والحديد آلتها، كما هو مشاهد، فالمنة به عظمى...».

وقال صاحب صفوة التفاسير جزاه الله خيراً ما نصه: «﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس شديد؛ لأن آلات الحرب تتخذ منه، كالدروع والرماح والتروس والدبابات وغير ذلك، ومنافع للناس أي: وفيه منافع كثيرة للناس كسكك الحراثة والسكين والفأس وغير ذلك، وما من صناعة إلا والحديد آلة فيها، قال أبوحيان: وعبر تعالى عن إيجاده بالإنزال كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؛ لأن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تلقَّى من السماء جعل الكل نزولاً منها، وأراد بالحديد جنسه من المعادن، قاله الجمهور».

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «لقد

أرسلنا رسلنا الذين اصطفيناهم بالمعجزات القاطعة، وأنزلنا معهم الكتب المتضمنة للأحكام وشرائع الدين والميزان الذي يحقق الإنصاف في التعامل، ليتعامل الناس فيما بينهم بالعدل، وخلقنا الحديد فيه عذاب شديد في الحرب، ومنافع للناس في السلم، يستغلونه في التصنيع، لينتفعوا به في مصالحهم ومعايشهم، وليعلم الله من ينصر دينه، وينصر رسله غائباً عنهم، إن الله قادر بذاته، لا يفتقر إلى عون أحد». وفي الهامش جاء الخبراء ببعض من صفات الحديد وفوائده.

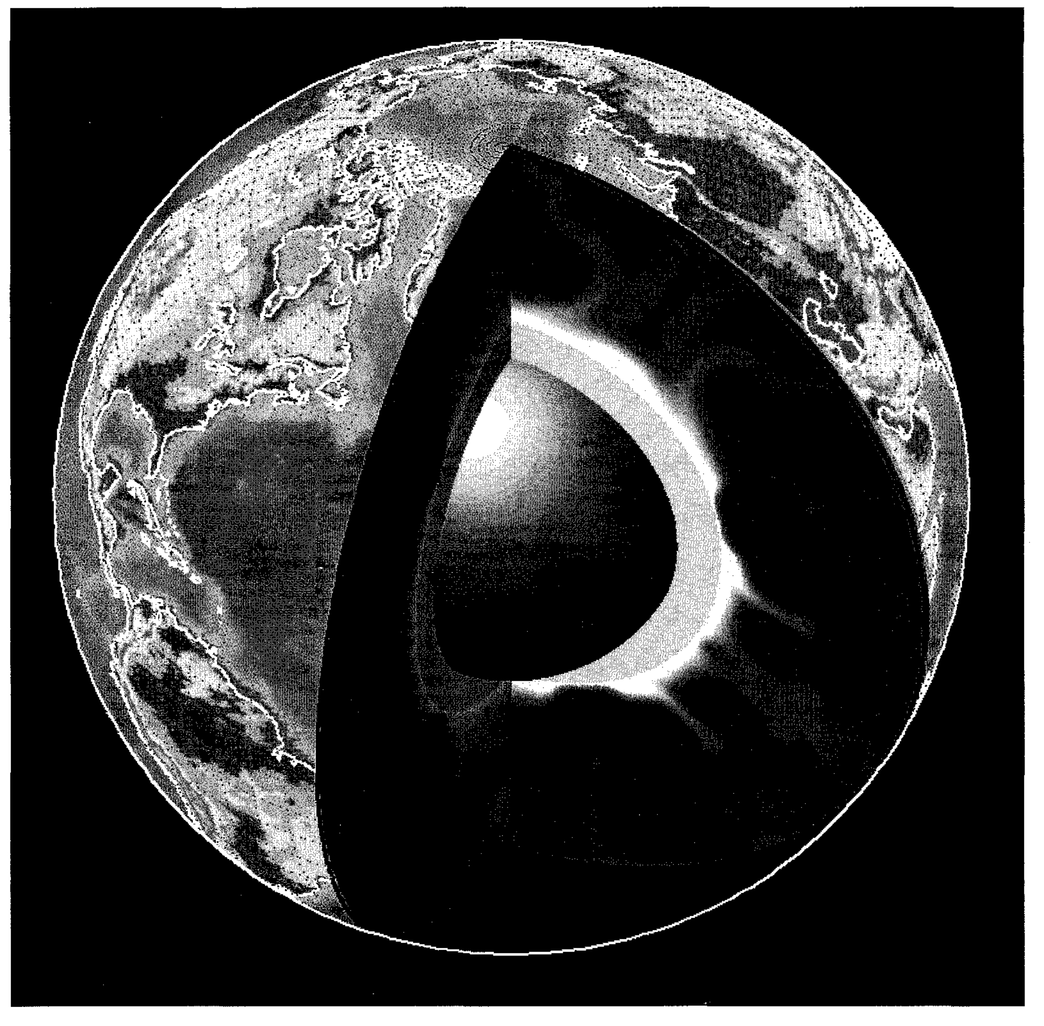
حديد الأرض في العلوم الكونية:

بينما لا تتعدى نسبة الحديد في شمسنا 0.0037% فإن نسبته في التركيب الكيميائي لأرضنا تصل إلى 35.9% من مجموع كتلة الأرض المقدرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن، وعلى ذلك فإن كمية الحديد في الأرض تقدر بأكثر من ألفي مليون مليون مليون طن، ويتركز الحديد في قلب الأرض، أو ما يعرف باسم: لب الأرض، وتصل نسبة الحديد فيه إلى 90% ونسبة النيكل (وهو من مجموعة الحديد) إلى 9% وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض إلى الخارج باستمرار حتى تصل إلى 5.6% في قشرة الأرض.

وإلى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين لم يكن لأحد من العلماء إمكانية تصور (ولو من قبيل التخيل) أن هذا القدر الهائل من الحديد قد أنزل إلى الأرض من السماء إنزالاً حقيقياً. كيف أنزل؟ وكيف تسنى له اختراق الغلاف الصخري للأرض بهذه الكميات المذهلة؟ وكيف أمكنه الاستمرار في التحرك بداخل الأرض حتى وصل إلى لبِّها؟ وكيف شكل كلاً من لب الأرض الصلب ولبها السائل على هيئة كرة ضخمة من الحديد والنيكل يحيط بها نطاق منصهر من نفس التركيب؟ ثم كيف أخذت نسبته في التناقص باستمرار في اتجاه قشرة الأرض الصلبة؟

لذلك لجأ كل المفسرين للآية الكريمة التي نحن بصددها إلى تفسير قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ بمعنى الخلق والإيجاد والتقدير والتسخير؛ لأنه لما كانت أوامر الله تعالى وأحكامه تلقى من السماء إلى الأرض جعل الكل نزولاً منها، وهو صحيح.

ولكن في أواخر القرن العشرين ثبت لعلماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الحديد لايتكون في الجزء المدرك من الكون إلا في مراحل محددة من حياة النجوم العملاقة التي تسمى: بالعماليق العظام، والتي بعد أن يتحول لبها بالكامل إلى حديد تنفجر على هيئة المستعرات العظام، وبانفجارها تتناثر مكوناتها بما فيها الحديد في صفحة الكون فيدخل



يتكون لب الأرض من 90٪ من الحديد

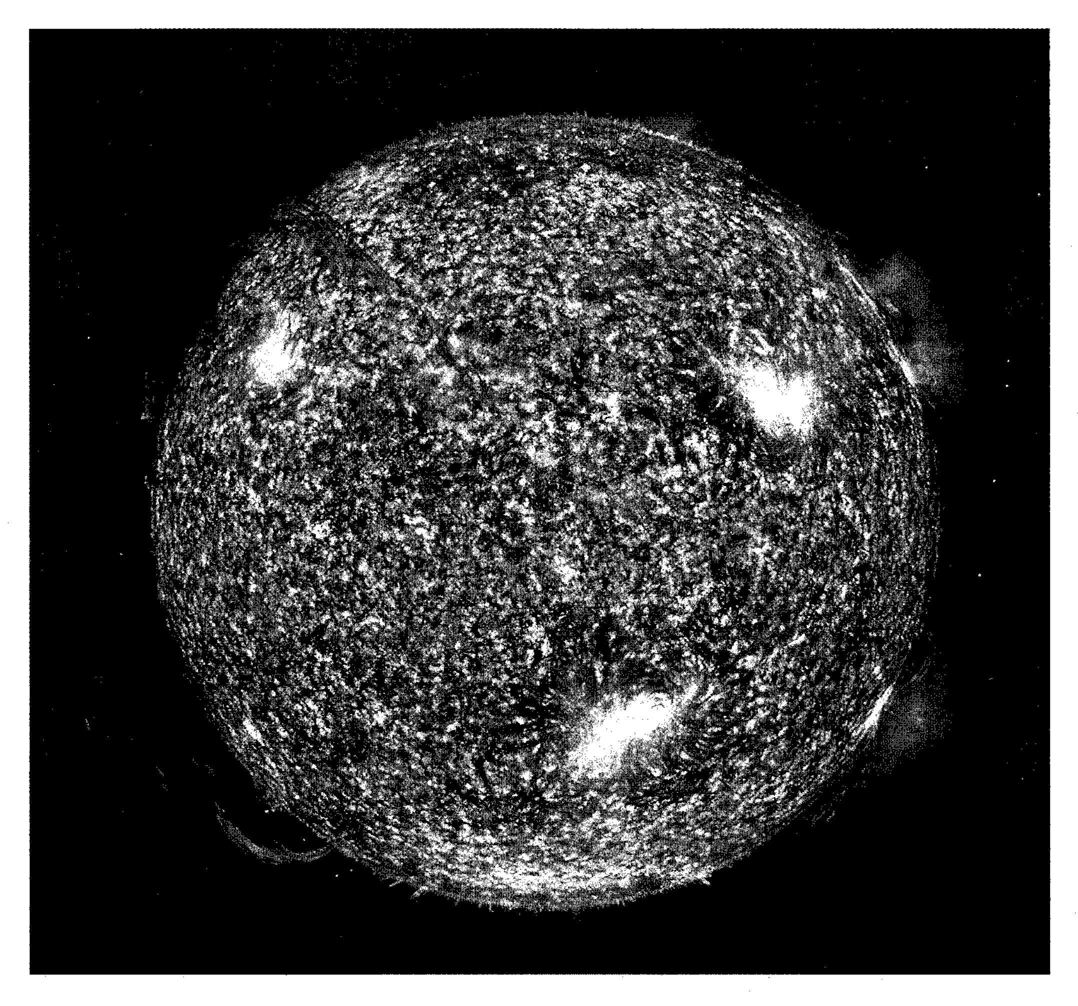
هذا الحديد بتقدير من الله ـ تعالى ـ في مجال جاذبية أجرام سماوية تحتاج إليه مثل أرضنا البدائية التي وصلها الحديد الكوني، وهي كومة من الرماد فاندفع إلى قلب تلك الكومة بحكم كثافته العالية وسرعته الكونية المندفع بها، فانصهر بحرارة الاستقرار في قلب الأرض البدائية وصهرها، ومايزها إلى سبع أرضين: لب صلب، يليه إلى الخارج لب سائل،ثم ثلاثة أوشحة متمايزة (وشاح أسفل، وأوسط، وأعلى)، ثم الغلاف الصخري للأرض وهو مكون من نطاقين: (قشرة الأرض وما دون القشرة)؛ وبهذا ثبت أن الحديد في أرضنا، بل في بعض أجرام مجموعتنا الشمسية قد أنزل إليها إنزالاً حقيقياً.

إنزال الحديد من السماء:

في دراسة لتوزيع العناصر المختلفة في الجزء المدرك من الكون لوحظ أن غاز «الإيدروجين» هو أكثر العناصر شيوعاً إذ يكون أكثر من 74% من مادة الكون المنظور، ويليه في الكثرة غاز «الهيليوم» الذي يكون حوالي 24% من مادة الكون المنظور، وأن هذين الغازين ـ وهما يمثلان أخف العناصر وأبسطها بناء ـ يكونان معاً أكثر من 98% من مادة الجزء المدرك من الكون، بينما باقي العناصر المعروفة لنا وهي أكثر من مائة عنصر مجتمعة تكوّن أقل من 2% من مادة الكون المنظور، وقد أدت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج المنطقي أن أنوية غاز «الإيدروجين» هي لبنات بناء جميع العناصر المعروفة لنا، والتي تخلقت باندماج أنوية هذا الغاز البسيط مع بعضها البعض في داخل النجوم بعملية تعرف باسم: **عملية الاندماج النووي**، تنطلق منها كميات هائلة من الطاقة التي تعرف باسم: طاقة النجوم، وتتم عملية الاندماج النووي في داخل نجوم السماء الدنيا بتسلسل من أخف العناصر إلى أعلاها وزناً ذرياً وتعقيداً في البناء حتى يتحول قلب النجم إلى الحديد فينفجر النجم وتتناثر أشلاؤه في صفحة السماء لتصطاد عدداً من اللبنات الأولية للمادة مكونة عناصر أعلى في وزنها الذري أو تهبط إلى أحد الكواكب أو النجوم التي تحتاج في تواجدها إلى الحديد.

فشمسنا تتكون أساساً من غاز «الإيدروجين» الذي تندمج أنويته مع بعضها البعض لتكون غاز «الهيليوم»، وتنطلق طاقة هائلة تبلغ عشرة ملايين درجة مئوية، ويتحكم في هذا التفاعل (بقدرة الخالق العظيم) عاملان هما زيادة نسبة غاز «الهيليوم» المتخلق بالتدريج، وتمدد الشمس بالارتفاع المطرد في درجة حرارة لبِّها، وباستمرار هذه العملية تزداد درجة الحرارة في داخل الشمس تدريجياً، وبازديادها ينتقل التفاعل إلى المرحلة التالية التي تندمج فيها نوى ذرات «الهيليوم» مع بعضها البعض في سلسلة من الاندماجات المتسلسلة حتى تصل إلى إنتاج نوي ذرات «الكربون» (12)، ثم «الأوكسجين (16)» ثم «النيون (20)»، وهكذا.

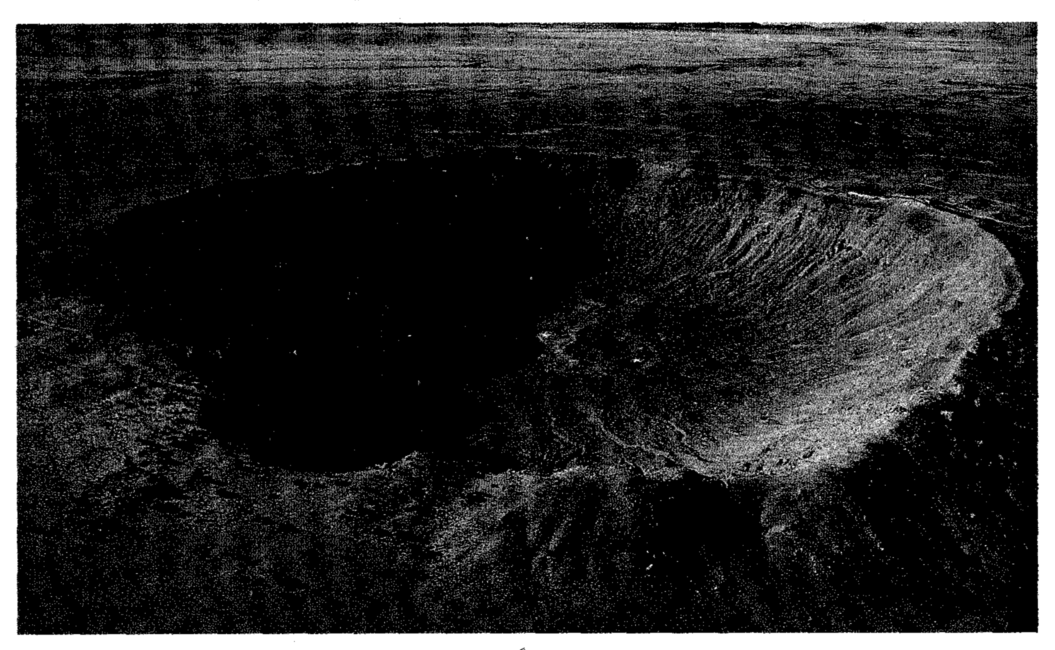
وفي نجم عادي مثل شمسنا التي تقدر درجة حرارة سطحها بحوالي ستة آلاف درجة مئوية، وتزداد هذه الحرارة تدريجياً في اتجاه مركز الشمس حتى تصل إلى حوالي15 مليون درجة مئوية، يقدر علماء الفيزياء الفلكية أنه بتحول نصف كمية «الإيدروجين» الشمسي تقريباً إلى «الهيليوم»، فإن درجة الحرارة في لب الشمس ستصل إلى مائة مليون درجة مئوية، مما يدفع بنوى ذرات «الهيليوم» المتخلقة إلى الاندماج في المراحل التالية من عملية الاندماج النووي، مكونة عناصر أعلى في وزنها الذري مثل الكربون ومطلقة كمًّا أعلى من الطاقة،



الشمس في أوج توهجها

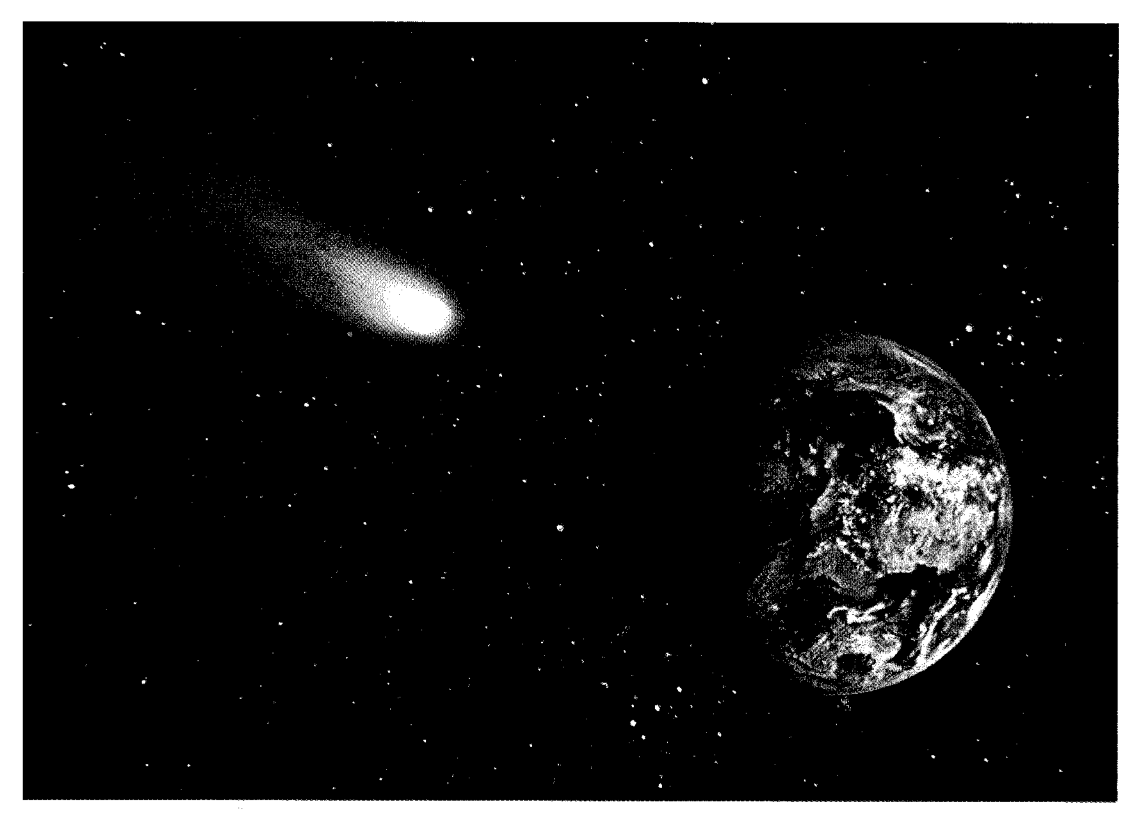
ويقدر العلماء أنه عندما تصل درجة حرارة لب الشمس إلى ستمائة مليون درجة مئوية يتحول الكربون إلى صوديوم ثم إلى مغنيسيوم ثم إلى نيون، ثم تنتج عمليات الاندماج النووي التالية عناصر الألومنيوم، والسيليكون، والكبريت والفوسفور، والكلور، والأرجون، والبوتاسيوم، والكالسيوم على التوالي، مع ارتفاع مطرد في درجة الحرارة، حتى تصل إلى ألفي مليون درجة مئوية حين يتحول لب النجم إلى مجموعات التيتانيوم، والقاناديوم، والكروم، والمنجنيز، ومجموعة عناصر الحديد (الحديد والكوبالت والنيكل). ولما كان تخليق هذه العناصر يحتاج إلى درجات حرارة مرتفعة جداً لا تتوافر إلا في مراحل خاصة في حياة النجوم العملاقة تعرف باسم: العماليق العظام، وهي مراحل توهج شديد جداً؛ فإنها لا تتم

في كل نجم من نجوم السماء ولكن في مراحل خاصة من مراحل حياة النجوم العملاقة عند انفجارها تعرف باسم مرحلة المستعرات أو المستعرات العظمى، وحين يتحول لب النجم إلى الحديد، فإنه يستهلك طاقة النجم بدلاً من إضافة مزيد من الطاقة إليه؛ وذلك لأن نواة ذرة الحديد هي أشد نوى العناصر تماسكاً، وهنا ينفجر النجم على هيئة ما يسمى باسم: المستعر الأعظم من النمط الأول أو الثاني حسب الكتلة الابتدائية للنجم، وتتناثر أشلاء النجم المنفجر في صفحة السماء لتدخل في نطاق جاذبية أجرام سماوية تحتاج إلى هذا الحديد، تماماً كما تصل النيازك الحديدية إلى أرضنا بملايين الأطنان في كل عام.



فجوة ضخمة (يبلغ طول قطرها 32 كلم تقريباً) تكونت من جراء ارتطام نيزك بأرض ولاية أريزونا

ولما كانت نسبة الحديد في شمسنا لا تتعدى 0.0037%، وهي أقل بكثير من نسبة الحديد في كل من الأرض وعطارد والزهرة والمريخ، وفي النيازك الحديدية التي تصل إلينا من فسحة الكون، ولما كانت درجة حرارة لب الشمس لم تصل بعد إلى الحد الذي يمكنها من إنتاج السيليكون، أو المغنيسيوم، فضلاً عن الحديد، كان من البديهي استنتاج أن كلاً من الأرض والشمس وكواكب المجموعة الشمسية المشتملة على نسب مختلفة من الحديد قد استمد ما به من حديد من مصدر خارجي عن مجموعتنا الشمية في فسحة الكون. وعلى ذلك فإن أرضنا حينما انفصلت عن الشمس لم تكن سوى كومة من الرماد المكون من العناصر الخفيفة، ثم



صورة حقيقية لأحد النيازك التي تصل إلى الأرض سنوياً بمعدل مليون إلى 20 مليون طن ومنها النيازك الحديدية، والحديدية الصخرية، والصخرية

رجمت هذه الكومة بوابل من النيازك الحديدية التي انطلقت إليها من خارج المجموعة الشمسية، فاستقرت في لبها بفضل كثافتها العالية وسرعاتها الكونية الفائقة، فانصهرت بحرارة الاستقرار، وصهرت كومة الرماد ومايزتها إلى سبع أرضين: لب صلب على هيئة كرة ضخمة من الحديد والنيكل تصل فيها نسبة الحديد إلى (90%) والنيكل إلى (9%) وبعض العناصر الخفيفة من مثل: الكبريت، والفوسفور، والكربون إلى (1%)، يليه إلى الخارج لب سائل له نفس التركيب الكيميائي تقريباً، ويكون لبا الأرض الصلب والسائل معاً حوالي 31% من مجموع كتلة الأرض. ويلي لب الأرض إلى الخارج وشاح الأرض **(Mante)**، المكون من ثلاثة نطق (أسفل، وأوسط، وأعلى)، ثم الغلاف الصخري للأرض **(Lithosphere)**، وهو مكون من نطاقين (قشرة الأرض **(Crust)** وما دون القشرة **(Subcrust)**. وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض إلى الخارج باستمرار حتى تصل إلى 5,6% في قشرة الأرض.

من هنا ساد الاعتقاد بأن الحديد الموجود في الأرض والذي يشكل 35.9% من

كتلتها، لابد وأنه قد تكوّن في داخل عدد من النجوم المستعرة من مثل العماليق العظام، والتي انفجرت على هيئة المستعرات العظام فتناثرت أشلاؤها في صفحة الكون، ونزلت إلى الأرض على هيئة وابل من النيازك الحديدية، وبذلك أصبح من الثابت علمياً أن كل حديد الأرض قد أنزل إليها إنزالاً من السماء، وليس هذا فقط؛ بل إن الحديد في مجموعتنا الشمسية كلها قد أنزل كذلك إليها من السماء، وهي حقيقة لم يتوصل العلماء إلى فهمها إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وقد جاء ذكرها في سورة الحديد، وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي سميت باسم عنصر من العناصر المعروفة لنا، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذه الحقيقة الكونية في القرآن الكريم غير الله الخالق الذي أنزل هذا القرآن العظيم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظه حفظاً كاملاً: آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وأورد فيه مثل هذه الحقائق الكونية لتكون شاهدة على جميع الخلق إلى قيام الساعة بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمداً ﷺ ما كان ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

البأس الشديد للحديد:

الحديد عنصر فلزي عرفه القدماء، فيما عرفوا من الفلزات من مثل: الذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص، والقصدير والزئبق، وهو أكثر العناصر انتشاراً في الأرض (9، 35%) ويوجد أساساً في الغلاف الصخري للأرض على هيئة مركبات الحديد من مثل: أكاسيد، وكربونات، وكبريتيدات، وكبريتات، وسيليكات ذلك العنصر، ولايوجد على هيئة الحديد النقي إلا في النيازك الحديدية التي تنزل إلى الأرض من السماء، وفي جوف الأرض.

والحديد عنصر فلزي شديد البأس، وهو أكثر العناصر ثباتاً وذلك لشدة تماسك مكونات النواة في ذرته التي تتكون من ستة وعشرين بروتوناً، وثلاثين نيوتروناً، ويدور حول نواة ذرة الحديد ستة وعشرون إليكتروناً، ولذلك تمتلك نواة ذرة الحديد أعلى قدر من طاقة التماسك بين جميع نوى العناصر الأخرى، بما في ذلك ما هو أعلى من الحديد في وزنه الذري، ولذا فإن نواة ذرة الحديد تحتاج إلى كميات هائلة من الطاقة لتفتيتها أو للإضافة إليها.

ويتميز الحديد وسبائكه المختلفة بين جميع العناصر والسبائك المعروفة بأعلى قدر من الخصائص المغناطيسية، والمرونة (القابلية للطرق والسحب وللتشكل)، والمقاومة للحرارة، ولعوامل التعرية الجوية. وتبلغ كثافة الحديد 7.874 جرام للسنتيمتر المكعب عند درجة

حرارة الصفر المطلق، وهو لا ينصهر قبل درجة1536 مئوية، ويغلي عند درجة3023 درجة مئوية تحت الضغط الجوي العادي عند سطح البحر. ومن هنا كان وصف الحديد في القرآن الكريم بالبأس الشديد سبقاً علمياً حقيقياً يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه وحي السماء.

منافع الحديد للناس:

للحديد منافع جمة وفوائد أساسية من أبرزها جعل الأرض صالحة للعمران بتقدير من الله ﷻ، فكمية الحديد الهائلة في كل من لب الأرض الصلب، ولبِّها السائل تلعب دوراً مهماً في جعلها قراراً أي كوكباً مستقراً، وفي توليد كل من جاذبية الأرض ومجالها المغناطيسي، وهذا المجال هو الذي يمسك بكل من الغلاف الغازي والمائي والحيوي للأرض بتقدير من الله سبحانه. وغلاف الأرض الغازي يحميها من الأشعة والجسيمات الكونية ومن العديد من أشعات الشمس الضارة، ومن ملايين الأطنان من النيازك التي تحترق كلها على هيئة الشهب أو يحترق أغلبها وتبقى منها فضلات على هيئة كل من النيازك الحديدية، والحديدية/ الصخرية، والصخرية، ويساعد الغلاف الغازي للأرض على ضبط العديد من العمليات المهمة من مثل: دورة كل من الماء، والأوكسجين، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون وغيرها من العمليات اللازمة لجعل الأرض كوكباً صالحاً للعمران.

وعنصر الحديد من اللبنات الأساسية في بناء الخلية الحية، إذ تدخل مركبات الحديد في تكوين المادة الخضراء في النباتات (الكلوروفيل) وهو المكون الأساسي للبلاستيدات الخضراء التي تقوم بعملية التمثيل الضوئي اللازمة لنمو النباتات، ولإنتاج الأنسجة النباتية المختلفة من مثل: الأوراق والأزهار، والبذور والثمار والتي عن طريقها يدخل الحديد إلى أنسجة ودماء كل من الإنسان والحيوان، وعملية التمثيل الضوئي هي الوسيلة الرئيسية لتكوين سلسلة الطعام على الأرض، ولتحويل طاقة الشمس إلى روابط كيميائية تختزن في أجساد جميع الكائنات الحية، وتكون مصدراً لنشاطها أثناء حياتها. وبعد تحلل أجساد تلك الكائنات بمعزل عن الهواء تتحول إلى مختلف صور الطاقة المعروفة كالقش، والحطب، والفحم النباتي، والفحم الحجري، والغاز الفحمي، والنفط، والغاز الطبيعي وغيرها.

والحديد يدخل في تركيب بروتينات نواة الخلية الحية الموجودة في المادة الحاملة للشيفرة الوراثية للخلية (الصبغيات) كما يوجد في سوائل الجسم المختلفة، وهو أحد مكونات الهيموجلوبين وهي المادة الأساسية في كرات الدم الحمراء المسؤولة عن نقل الأوكسجين إلى جميع أجزاء الجسم.

ويقوم الحديد بدور مهم في عملية الاحتراق الداخلي للأنسجة والتمثيل الحيوي بها.

ويوجد في كل من: الكبد، والطحال، والكلى، والعضلات والنخاع الأحمر. ويحتاج الكائن الحي إلى قدر محدد من الحديد إذا نقص تعرض للكثير من الأمراض التي من أوضحها فقر الدم.

والحديد عصب جميع الصناعات المدنية والعسكرية فلا تكاد صناعة معدنية أن تقوم في غيبة الحديد.

الوزن الذري والعدد الذري للحديد:

للحديد ثلاثة نظائر تقدر أوزانها الذرية بحوالي54، 56، 57 ولكن أكثرها انتشاراً (91.66%) هو النظير الذي يحمل الوزن الذري (55.847) أي حوالي 56.

Comparison of Estimated Abundances of Principal Elements in the Solid Earth and in Meteorites

Major Elements	Earth's Crust %	Total Earth %	Meteorites, Average %
1. Oxygen (())	45.00	28.00	32.00
2. Silicon (Si)	28.00	13.00	16.00
3. Aluminium (Al)	8.20	0.44	1.40
4. Iron (Fe)	5.60	35.00	29.00
5. Calcium (Ca)	4.20	0.61	1.50
6. Sodium (Na)	2.40	0.14	0.60
7. Potassium (K)	2.10	0.07	0.15
8. Magnesium (Mg)	2.00	17.00	12.00
9. Titanium (Ti)	0.57	0.04	
10. Phosphorus (P)	0.10	0.03	0.11
11. Manganese (Mn)	0.09	0.09	0.21
12. Sulphur (S)	0.03	2.70	2.10
13. Cromium (Cr)	0.01	0.01	0.34
14. Nickel (Ni)	0.007	2.70	1.60
15. Cobalt (Co)	0.002	0.20	0.12

جدول توزيع العناصر الرئيسة في كل من قشرة الأرض الصلبة والنيازك وكوكب الأرض ككل يبين أن عنصر الحديد يمثل أعلى نسبة لعنصر من عناصر تكوين الأرض

ومن الغريب أن رقم سورة الحديد في المصحف الشريف هو (57)، وهو يتفق مع الوزن الذري لأحد نظائر الحديد، ولكن هذا النظير ليس هو أكثر نظائر الحديد انتشاراً، فأكثرها وجوداً في كل من الأرض والنيازك القادمة إلينا من السماء هو النظير الذي وزنه الذري يقدر بحوالي (56). وبالرجوع إلى حقيقة أن القرآن الكريم يخاطب المصطفى ﷺ في سورة الحجر بقول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ **(الحجر: 87).**

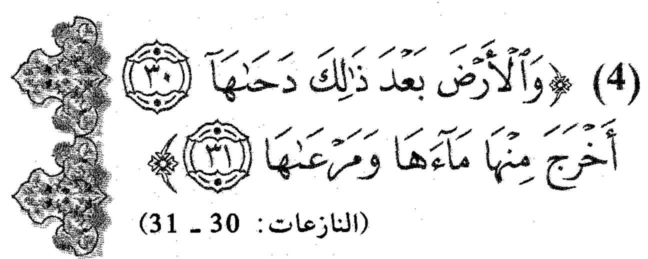
والسبع المثاني هي سورة الفاتحة بإجماع المفسرين، وعلى ذلك فإن هذه الآية الكريمة تفصل فاتحة الكتاب عن بقية القرآن الكريم، وتجعلها مقدمة له، وبذلك يصبح رقم سورة الحديد (56) وهو الوزن الذري لأكثر نظائر الحديد شيوعاً في الأرض، كذلك فإن وصف سورة الفاتحة بالسبع المثاني وآياتها ست يؤكد أن البسملة آية منها ومن كل سورة من سور القرآن الكريم ذكرت البسملة في مقدمتها، وقد ذكرت في مقدمة كل سور القرآن الكريم ما عدا سورة التوبة؛ وعلى ذلك فإذا أضفنا البسملة في مطلع سورة الحديد إلى رقم آية الحديد وهو (25) أصبح رقم الآية (26) وهو نفس قيمة العدد الذري للحديد، ولايمكن أن يكون هذا التوافق الدقيق قد جاء بمحض المصادفة؛ وصدق الله العظيم الذي قال في وصفه للقرآن الكريم:

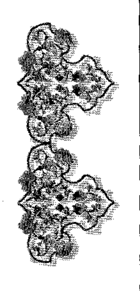
﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ **(النساء: 166).**

وقوله ـ تعالى ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ **(النساء: 82).**

فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

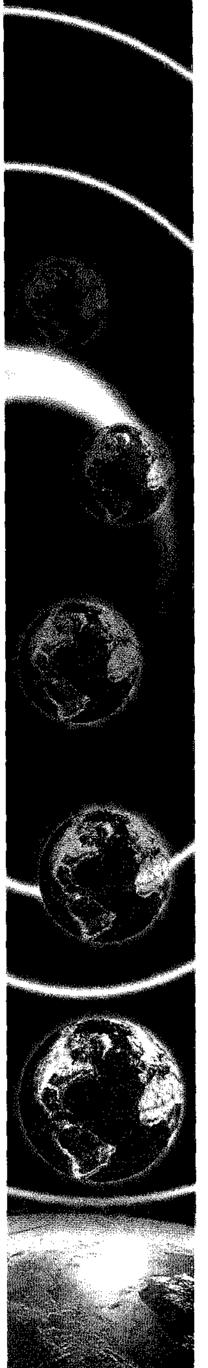






(4) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١﴾

(النازعات: 30 ـ 31)



هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الربع الأخير من سورة «النازعات»، وهي سورة مكية، تعني كغيرها من سور القرآن المكي بقضية العقيدة، ومن أسسها: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وغالبية الناس منشغلون عن الآخرة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وعن قضايا البعث، والحساب، والجنة، والنار، وهذه القضايا هي محور هذه السورة ـ على قِصَرها ـ فآياتها ستة وأربعون بعد البسملة.

وتبدأ السورة الكريمة بقسم من الله ـ تعالى ـ بعدد من طوائف ملائكته الكرام، وبالمهام المكلفين بها، على أن الآخرة حق واقع، وأن البعث والحساب أمر جازم فتقول:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ (النازعات: 1 ـ 5).

ثم تعرض الآيات في «سورة النازعات» لشيء من أهوال الآخرة مثل: (الراجفة والرادفة) وهما: إما وصفان لكل من الأرض والسماء وكل منهما يدمَّر في الآخرة الواحد تلو الآخر، أو يقصد بهما النفختان الأولى التي تميت كل حي، والثانية التي تحيي كل ميت بإذن الله. وتنتقل الآيات بعد ذلك إلى وصف حال الكفار، والمشركين، والملاحدة المتشككين، العاصين لأوامر رب العالمين في ذلك اليوم الرهيب، وقلوبهم خائفة وجلة، وأبصارهم خاشعة ذليلة، بعد أن كانوا ينكرون البعث في الدنيا، ويتساءلون عنه استبعاداً له، واستهزاءً به

سؤالاً أَبْلَهَ مضمونه: هل في الإمكان أن نبعث من جديد بعد أن تبلى الأجساد، وتنخر العظام؟ وترد الآيات عليهم حاسمة قاطعة بقرار الله الخالق أن الأمر بالبعث صيحة واحدة، فإذا بكافة الخلائق قيام يبعثون من قبورهم ليواجهوا الحساب، أو كأنهم حين يبعثون يظنون أنهم عائدون إلى الدنيا مرة ثانية فيفاجأون بالآخرة...!!

وفي ذلك تقول الآيات:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾ **(النازعات: 6 ـ 14)**.

وبعد ذلك تلمِّح الآيات إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَئِهِ، من قبيل مواساة رسولنا ﷺ في الشدائد التي كان يلقاها من الكفار والمشركين، وتحذيرهم مما حل بفرعون وبالمكذبين من قومه من عذاب، وجعل ذلك عبرة لكل عاقل يخشى الله ـ تعالى ـ ويخاف حسابه إلى يوم الدين.

وفي ذلك تقول الآيات:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦)﴾ **(النازعات: 15 ـ 26)**.

ثم تتوجه الآيات بالخطاب إلى منكري البعث من كفار قريش ومن الناس عامة بسؤال تقريعي توبيخي تقول فيه: هل خلق الناس ـ على ضآلة أحجامهم، ومحدودية قدراتهم، وأعمارهم، وأماكنهم من الكون ـ أشد خلقاً من السماء وبنائها، ورفعها بلا عمد مرئية إلى هذا العلو الشاهق ـ مع ضخامة أبعادها، وتعدد أجرامها، ودقة المسافات بينها، وإحكام حركاتها، وتعاظم القِوى الممسكة بها وإظلام ليلها، وإنارة نهارها؟ وأشد من دحو الأرض، وإخراج مائها ومرعاها منها بعد ذلك، وإرساء الجبال عليها، وإرساء الأرض بها، تحقيقاً لسلامتهم وأمنهم على سطح الأرض، ولسلامة أنعامهم ومواشيهم...؟؟، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ **(النازعات: 27 ـ 33)**.

وبعد الإشارة إلى بديع صنع الله في خلق السمٰوات والأرض كدليل قاطع على إمكانية البعث عاودت الآيات الحديث عن القيامة وسمتها بالطامة الكبرى، لأنها داهية عظمى تعم بأهوالها كل شيء، وتغطي على كل مصيبة مهما عظمت. وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسان أعماله من الخير والشر، ويراها مدونة في صحيفة أعماله، وبرزت جهنم للناظرين، فرآها كل إنسان عياناً بياناً، وحينئذٍ ينقسم الناس إلى شقي وسعيد، فالشقي هو الذي جاوز الحد في الكفر والعصيان، وفَضَّل الدنيا على الآخرة، وهذا مأواه جهنم وبئس المصير، والسعيد هو الذي نهى نفسه عن اتباع هواها انطلاقاً من مخافة مقامه بين يدي ربه يوم الحساب، وهذا مأواه ومصيره إلى جنات النعيم بإذن الله تعالى، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ **(النازعات: 34 ـ 41).**

وتُختَتَم السورة الكريمة بخطاب إلى رسول الله ﷺ متعلق بسؤال كفار قريش له عن الساعة متى قيامها؟. وترد الآيات بأن علمها عند الله الذي استأثر به دون كافة خلقه؛ فمردها ومرجعها إلى الله ـ تعالى ـ وحده، وأما دور النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ فهو إنذار من يخشاها. وهؤلاء الكفار والمشركون يوم يشاهدون قيامها فإن هول المفاجأة سوف يمحو من الذاكرة معيشتهم على الأرض، فيرونها كأنها كانت ساعة من ليل أو نهار، بمقدار عشية أو ضحاها؛ احتقاراً للحياة الدنيا، واستهانة بشأنها أمام الآخرة، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ **(النازعات: 42 ـ 46).**

ويأتي ختام السورة متوافقاً مع مطلعها الذي أقسم فيه ربنا ﷻ على حقيقة البعث وحتميته، وأهواله وخطورته، لزيادة التأكيد على أنه أخطر حقائق الكون وأهم أحداثه، لكي يتم تناسق البدء مع الختام، وهذا من صفات العديد من سور القرآن الكريم.

وهنا يبرز التساؤل عن معنى دحو الأرض، وعلاقته بإخراج مائها ومرعاها، ووضعه في مقابلة مع إرسال الجبال ـ من جهة ـ ومع بناء السماء ورفعها ـ من جهة أخرى ـ على عظم هذا البناء وذلك الرفع كصورة واقعة لطلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق.

و(الدحو) في اللغة العربية: هو المد والبسط والإلقاء، يقال: (دحا) الشيء (يدحوه)

(دحواً) أي بسطه ومده، أو ألقاه ودحرجه، ويقال: (دحا) المطر الحصى عن وجه الأرض أي دحرجه وجرفه، ويقال: مر الفرس (يدحو) (دحواً) إذا جَرَّده على وجه الأرض فيدحو ترابها؛ و(مدحى) النعامة هو موضع بيضها، و(أدحيها) موضعها الذي تفرخ فيه.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ .

• ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «فسره بقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾، وقد تقدم في سورة «فصلت» أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن دحيت بعد خلق السماء، بمعنى: أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل. عن ابن عباس: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال، والسبل والآكام، فذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾....».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مُخْتصره: «﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ أي: بسطها ومهدها لتكون صالحة للحياة، وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو .﴿أَخْرَجَ﴾ حال بإضمار (قد) أي: دحاها مخرجاً ﴿مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ بتفجير عيونها، ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ ما ترعاه النعم من الشجر والعشب، وما يأكله الناس من الأقوات والثمار. وإطلاق المرعى عليه استعارة».

• وذكر صاحب الظلال ـ يرحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «ودحو الأرض: تمهيدها وبسط قشرتها، بحيث تصبح صالحةً للسير عليها، وتكوين تربة تصلح للإنبات...، والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع، أو ما ينزل من السماء فهو أصلاً من مائها الذي تبخر ثم نزل في صورة مطر؛ وأخرج من الأرض مرعاها، وهو النبات الذي يأكله الناس والأنعام، وتعيش عليه الأحياء مباشرة أو بالواسطة. . .».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «ودحا الأرض؛ بمعنى: بسطها، وأوسعها، بعد ذكر ذلك الذي ذكره من بناء السماء، ورفع سمكها، وتسويتها، وإغطاش ليلها، وإظهار نهارها. وقد بين الله الدحو بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون، وإجراء الأنهار والبحار العظام .﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: جميع ما يقتات به الناس والدواب بقرينة قوله بعد: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ وأخبرنا بعد ذلك بأنه هو الذي بسط الأرض، ومهدها لسكنى أهلها ومعيشتهم فيها: وقدم الخبر الأول: لأنه أدل على القدرة الباهرة لعظم السماء، وانطوائها على الأعاجيب التي تحار فيها العقول. فبعدية

الدحو إنما هي في الذكر لا في الإيجاد، وبجعل المشار إليه هو ذكر المذكورات من البناء وما عطف عليها لا أنفسها، كي لا يكون في الآية دليل على تأخر الدحو عن خلق السمٰوات وما فيها».

• وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ بأي: والأرض بعد خلق السماء بسطها ومهدها لسكنى أهلها ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ بأي: أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ والمرعى مما يأكله الناس والأنعام».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «والأرض بعد ذلك بسطها ومهدها لسكنى أهلها، وأخرج منها ماءها بتفجير عيونها، وإجراء أنهارها، وإنبات نباتها ليقتات به الناس والدواب...».

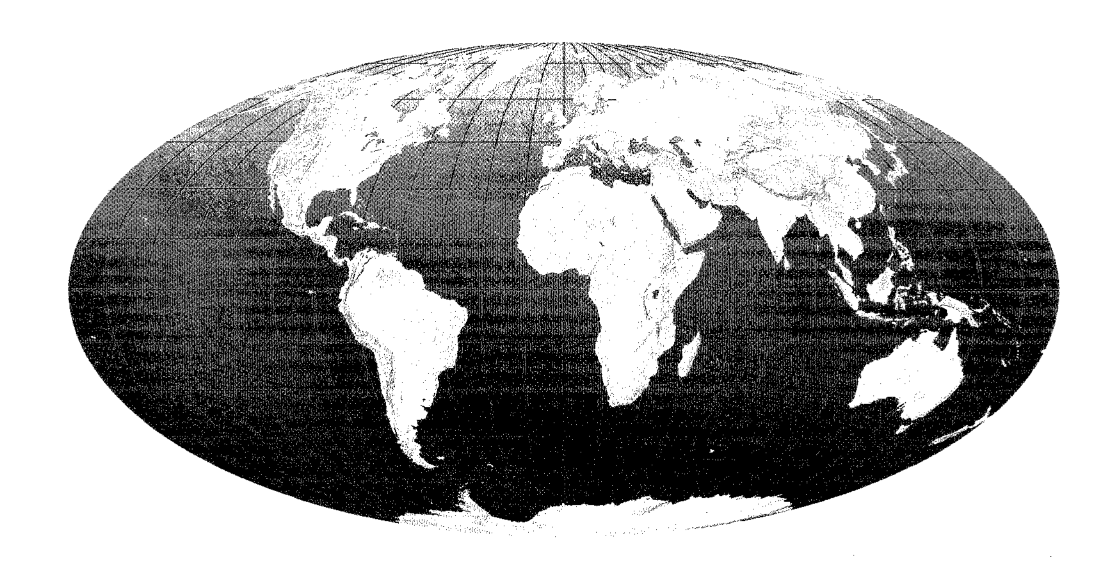
وهذا الاستعراض يدل على أن المفسرين السابقين يجمعون على أن من معاني دحو الأرض: إخراج الماء والمرعى من داخلها، على هيئة العيون وإنبات النبات.

دحو الأرض في العلوم الكونية

أولاً: دحو الأرض بمعنى إخراج كل من ماء الأرض وغلافها الغازي من داخلها:

كوكب الأرض هو أغنى كواكب مجموعتنا الشمسية في الماء، ولذلك يطلق عليه اسم: (الكوكب المائي) أو (الكوكب الأزرق). وتغطي المياه نحو 71% من مساحة سطح الأرض، بينما تشغل اليابسة نحو 29% من مساحة سطحها فقط، وتقدر كمية الماء على سطح الأرض بنحو1360 مليون كيلومتر مكعب (1.36×10^9)؛ وقد حار العلماء منذ القدم في تفسير كيفية تجمع هذا الكم الهائل من الماء على سطح الأرض، من أين أتى؟ وكيف نشأ؟

وقد وضعت نظريات عديدة لتفسير نشأة الغلاف المائي للأرض، تقترح إحداها أن ذلك قد تم بتفاعل كل من غازي الإيدروجين والأوكسيجين في حالتهما الذرية في الغلاف الغازي الأولى المحيط بالأرض في مراحل خلقها الأولى. وتقترح نظرية ثانية أن ماء الأرض أصله من جليد المذنبات، وترى ثالثة أن كل ماء الأرض قد أخرج أصلاً من داخل الأرض. والشواهد العديدة التي تجمعت لدى العلماء تؤكد أن كل ماء الأرض قد أخرج

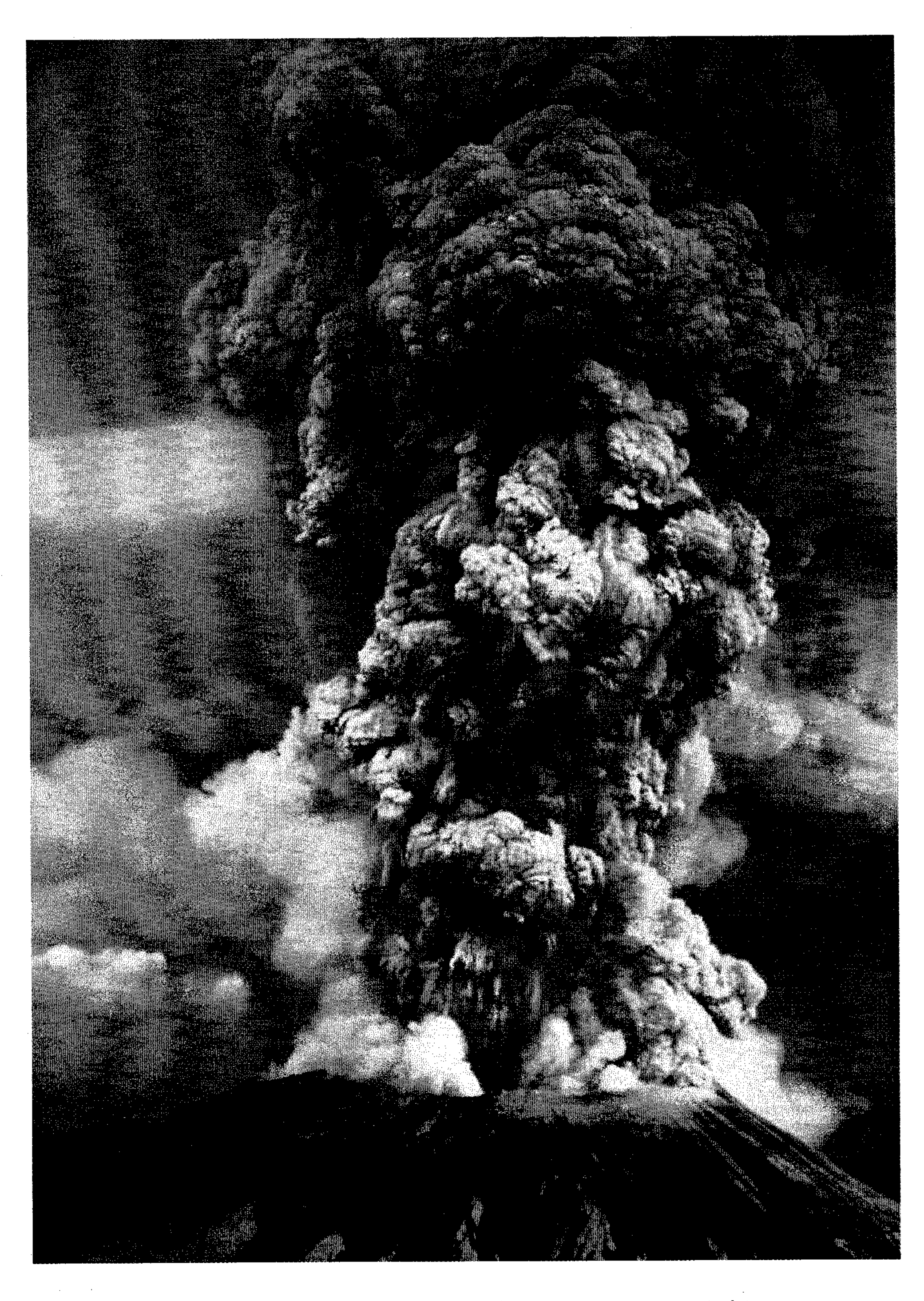


المياه تغطي نسبة 71٪ من مساحة سطح الأرض

أصلاً من داخلها، ولا يزال خروجه مستمراً من داخل الأرض عبر الثورات البركانية المتعاقبة.

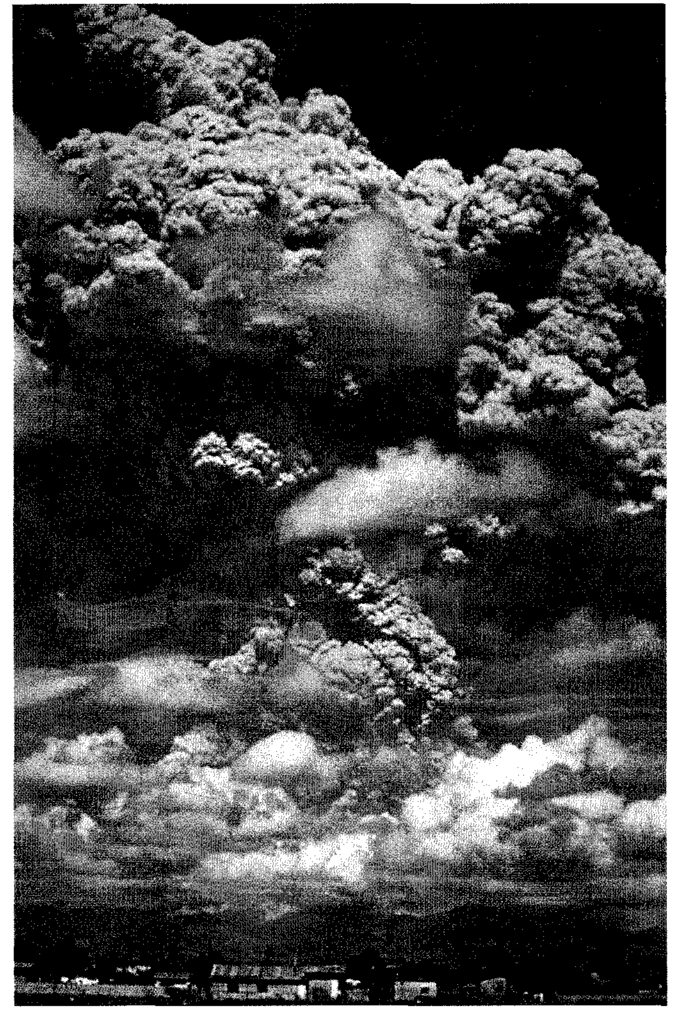
وبتحليل الأبخرة المتصاعدة من فوهات البراكين في أماكن مختلفة من الأرض اتضح أن بخار الماء تصل نسبته إلى أكثر من 70% من مجموع تلك الغازات والأبخرة البركانية، بينما يتكون الباقي من أخلاط مختلفة من الغازات التي ترتب حسب نسبة كل منها على النحو التالي: ثاني أكسيد الكربون، الإيدروجين، أبخرة حمض الأيدروكلوريك (حمض الكلور)، النيتروجين، فلوريد الإيدروجين، ثاني أكسيد الكبريت، كبريتيد الإيدروجين، غازات الميثان والأمونيا وغيرها.

ويصعب تقدير كمية المياه المندفعة على هيئة بخار الماء إلى الغلاف الغازي للأرض من فوهات البراكين الثائرة، علماً بأن هناك نحو عشرين ثورة بركانية عارمة في المتوسط تحدث في خلال حياة كل فرد منا، ولكن مع التسليم بأن الثورات البركانية في بدء خلق الأرض كانت أكثر تكراراً وأشد عنفاً من معدلاتها الراهنة، فإن الحسابات التي أجريت بضرب متوسط ما تنتجه الثورة البركانية الواحدة من بخار الماء من فوهة واحدة في متوسط مرات ثورانها في عمر البركان في عدد الفوهات والشقوق البركانية النشيطة والخامدة الموجودة اليوم على سطح الأرض، أعطت رقماً قريباً جداً من الرقم المحسوب لكمية الماء على سطح الأرض.



الأبخرة البركانية تساهم في تكوين الغلاف الغازي للأرض

الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي هي مصدر مياه وغازات الأرض:



بخار يتصاعد من فوهة بركان

ثبت أخيراً أن المياه تحت سطح الأرض توجد على أعماق تفوق كثيراً جميع التقديرات السابقة، كما ثبت أن بعض مياه البحار والمحيطات تتحرك مع رسوبيات قيعانها الزاحفة إلى داخل الغلاف الصخري للأرض بتحرك تلك القيعان تحت كتل القارات، ويتسرب الماء إلى داخل الغلاف الصخري للأرض كذلك، عبر شبكة هائلة من الصدوع والشقوق التي تنتشر أساساً في قيعان كل محيطات الأرض وفي قيعان أعداد من بحارها.

وشبكة الصدوع هذه تمزق الغلاف الصخري للأرض في مختلف الاتجاهات، وتحيط بالأرض إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين (65) كيلومتراً تحت قيعان البحار والمحيطات، ومائة وخمسين كيلومتراً على اليابسة.

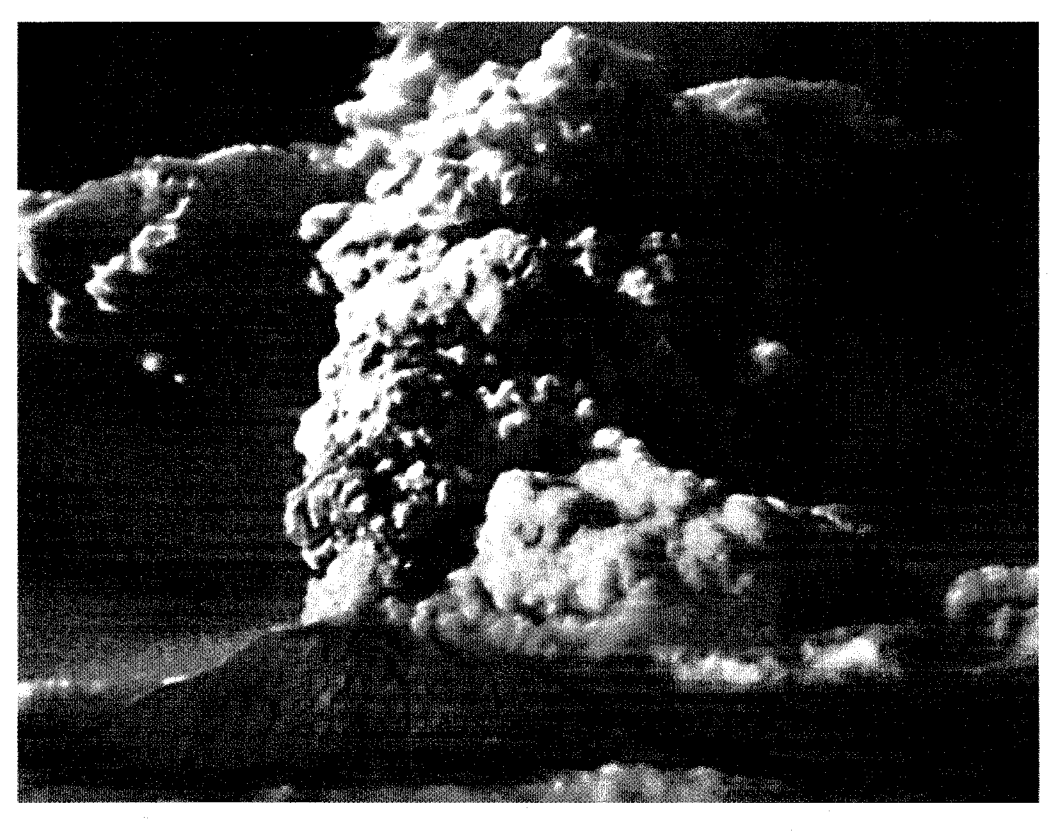
وقد ثبت أن الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي هي مصدر المياه الأرضية، وتلعب دوراً مهماً في حركة تلك المياه من داخل الأرض إلى السطح وبالعكس؛ وذلك لأنه لولا امتصاصها للمياه ما انخفضت درجة حرارة انصهار الصخور، وهي لو لم تنصهر لتوقفت ديناميكية الأرض بما في ذلك الثورات البركانية. وقد ثبت أنها المصدر الرئيسي

لكل من الغلاف المائي والغازي للأرض.

وعلى ذلك فقد أصبح من المقبول عند علماء الأرض أن النشاط البركاني الذي صاحب تكوين الغلاف الصخري للأرض في بدء خلقها هو المسؤول عن تكوُّن كل من غلافيها المائي والغازي، ولا تزال ثورات البراكين تلعب دوراً مهماً في إثراء سطح الأرض بالمياه، وفي تغيير التركيب الكيميائي لغلافها الغازي وهو المقصود بدحو الأرض، وذلك نابع من حقيقة أن الماء هو السائل الغالب في الصهارات الصخرية على الرغم من أن نسبته المئوية إلى كتلة الصهارة قليلة بصفة عامة، ولكن نسبة عدد جزيئات الماء إلى عدد جزيئات مادة الصهارة تصل إلى نحو 15%، وعندما تتبرد الصهارة الصخرية تبدأ مركباتها في التبلور بالتدريج، وتتضاغط الغازات الموجودة فيها إلى حجم أقل، وتتزايد ضغوطها حتى تفجِّر الغلاف الصخري للأرض بقوة تصل إلى مائة مليون طن على السنتيمتر المربع، فتشق ذلك الغلاف وتبدأ الغازات في التمدد والانفلات من الذوبان في الصهارة الصخرية، ويندفع كل من بخار الماء والغازات المصاحبة له والصهارة الصخرية إلى خارج فوهة البركان أو عبر الشقوق والفواصل والصدوع الأرضية المتصاعدة منها مرتفعة إلى عدة كيلومترات لتصل إلى كل أجزاء نطاق التغيرات المناخية (8 ـ 18 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر)، وقد تصل هذه النواتج البركانية في بعض الثورات البركانية العنيفة إلى نطاق التطبق (30 ـ 80 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر) وغالب مادة هذا السحاب الحار الذي تتراوح درجة حرارته بين (250)، (500) درجة مئوية يعاود الهبوط إلى الأرض بسرعات تصل إلى مائتي (200) كيلومتر في الساعة؛ لأن متوسط كثافته أعلى بكثير من متوسط كثافة الغلاف الغازي للأرض.

والماء المتكثف من هذا السحاب البركاني الحار يقطر مطراً من بين ذرات الرماد التي تبقى عالقةً بالغلاف الغازي للأرض لفترات طويلة فيجرف معه هذا الماء الهاطل كميات هائلة من الرماد والحصى البركاني المتجمع على سطح الأرض حول فوهة البركان مكوناً تدفقاً للطين البركاني على سطح الأرض في صورة من صور الدحو الذي قد يشكل خطراً داهماً على القرى والمزارع المجاورة. ومنذ فترة قصيرة ثار بركان في إحدى جزر الفلبين، فغمرت المياه المتكونة أثناء ثورته قريةً مجاورةً آهلةً بالسكان غمراً كاملاً.

وقد يصاحب الثورات البركانية خروج عدد من الينابيع والنافورات الحارة في ثورات دورية للمياه المتفاوتة في درجات حرارتها والأبخرة شديدة الحرارة، التي تندفع إلى خارج الأرض بفعل الطاقة الحرارية العالية المخزونة في أعماق القشرة الأرضية.

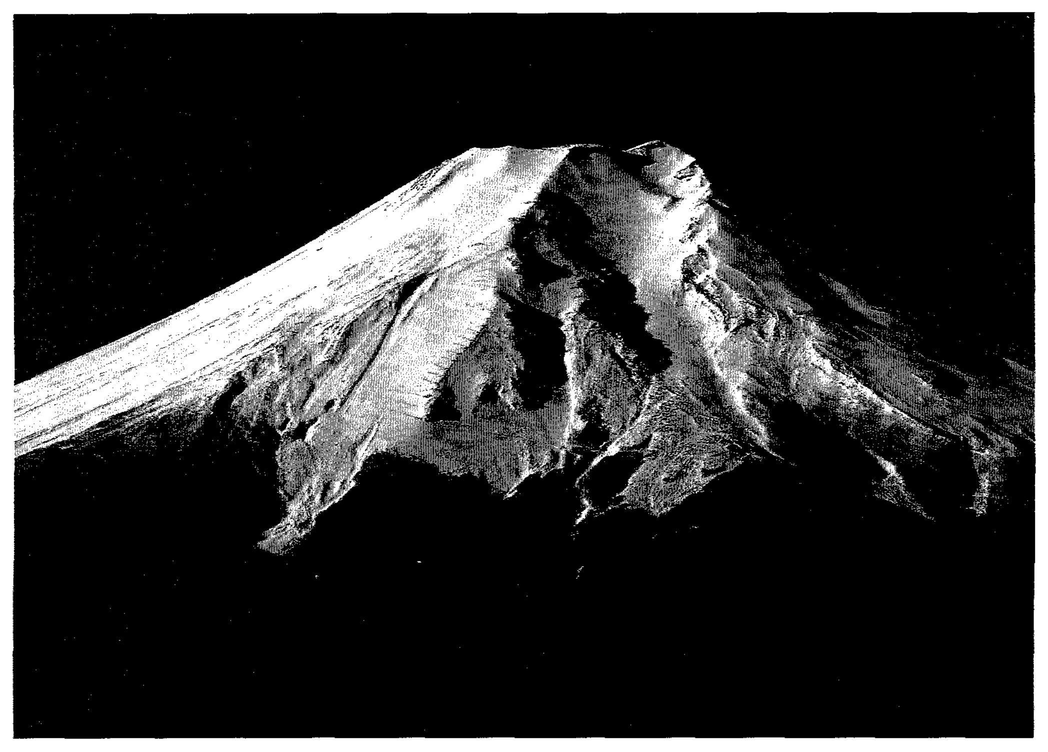


سحب بركانية ضخمة تتصاعد من بركان سانت هيلين بولاية واشنطن سياتل

ويعتقد علماء الأرض أن وشاح كوكبنا «الأرض» كان في بدء خلقه منصهراً انصهاراً كاملاً أو جزئياً، ولا يزال جزؤه الأعلى في حالة لدنة، شبه منصهرة، عالية اللزوجة والكثافة ـ نطاق الضعف الأرضي ـ، ويعتقد أن هذه الصهارة كانت هي المصدر الرئيسي لبخار الماء ولعدد من الغازات التي اندفعت من داخل الأرض. وقد لعبت هذه الأبخرة والغازات التي تصاعدت عبر كل من فوهات البراكين وشقوق الأرض ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً مهماً في تكوين وإثراء كل من الغلافين المائي والغازي للأرض ولعل هذا هو المقصود بالدحو.

دورة الماء حول الأرض:

شاءت إرادة الخالق العظيم أن يُسْكِنَ في الأرض هذا القدر الهائل من الماء، الذي يكفي جميع متطلبات الحياة على هذا الكوكب، ويحفظ التوازن الحراري على سطحه، كما يقلل من فروق درجات الحرارة بين كل من الصيف والشتاء صوناً للحياة بمختلف أشكالها.

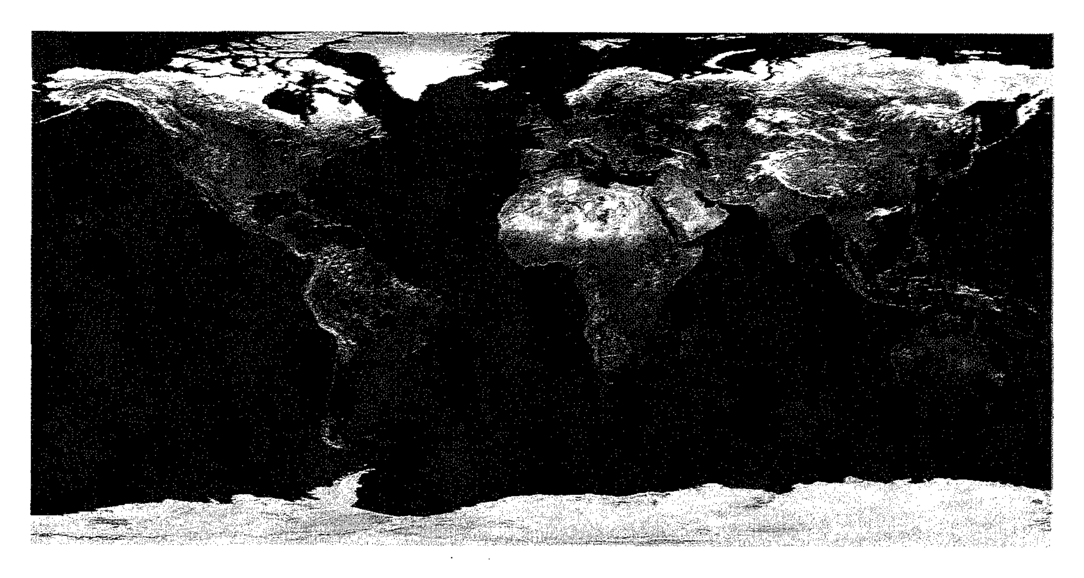


الثلوج على قمم الجبال تؤمن الرطوبة المطلوبة لنطاق المناخ من الغلاف الغازي للأرض

وهذا القدر الذي يكون الغلاف المائي للأرض أخرجه الله ـ تعالى ـ من داخل الأرض بكميات محسوبة بدقةٍ بالغة، فلو زاد قليلاً لغطى كل سطحها، ولو قل قليلاً لقصر دون الوفاء بمتطلبات الحياة عليها. وللتوفيق بين هذين الأمرين حبس ربنا ﷻ كماً من هذا الماء على هيئة سمك هائل من الجليد فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال كي يوفر للأرض مصدراً للرطوبة المطلوبة ويكشف من اليابسة ما يسمح للحياة بالانتشار عليها.

ولكي يحفظ ربنا ﷻ هذا الماء من التعفن والفساد، حَرَّكه في دورة معجزة تعرف باسم: دورة المياه الأرضية، وتحمل هذه الدورة في كل سنة 380,000 كيلومتراً مكعباً من الماء بين الأرض وغلافها الغازي. ولما كانت نسبة بخار الماء في الغلاف الغازي للأرض ثابتة، فإن كم سقوط الأمطار سنوياً على الأرض يبقى مساوياً لكم التبخُّر من على سطحها وإن تباينت أماكن وكميات السقوط في كل منطقة حسب الإرادة الإلٰهية، ولذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله: «**ما من عام بأقل مطراً من عام**»[1] (أخرجه البيهقي عن ابن مسعود)

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (الحديث: 6275).



خارطة توضح تجمع الجليد فوق كل من جرينلاند والقارة القطبية الجنوبية

وقوله ﷺ: «**ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه**»[1] (أخرجه الحاكم عن ابن عباس).

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب؛ وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[2] (رواه البخاري عن زيد بن خالد الجهني).

ويبلغ متوسط سقوط الأمطار على الأرض اليوم بحوالي 85.7 سنتيمتراً مكعباً في السنة، ويتراوح بين 11.45 متراً مكعباً في جزر «هاواي» وصفر في كثير من صحاري الأرض.

وتبخر أشعة الشمس من أسطح البحار والمحيطات320,000 كيلومتراً مكعباً من الماء في كل عام، وأغلب هذا البخر يتم من المناطق الاستوائية حيث تصل درجة الحرارة في المتوسط إلى 25 درجة مئوية، بينما تسقط على البحار والمحيطات سنوياً من مياه المطر284,000 كيلومتراً مكعباً، ولكي يبقى منسوب المياه في البحار والمحيطات ثابتاً في زماننا فإن الفرق بين كمية التبخر من أسطح البحار والمحيطات وكمية ما يسقط عليها من مطر لابد وأن يفيض إليها من القارات.

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (الحديث: 2/ 437).
(2) أخرجه البخاري في الصحيح (الحديث: 991).

وبالفعل فإن التبخر السنوي من أسطح القارات يقدَّر بستين ألف (60,000) كيلومتراً مكعباً، بينما يسقط عليها سنوياً ستة وتسعون ألفاً (96,000) من الكيلومترات المكعبة من ماء المطر، والفارق بين الرقمين بالإيجاب هنا هو نفس الفارق بالسلب بين كمية المطر وكمية التبخر في البحار والمحيطات (36,000 كيلومتر مكعب) فسبحان الذي ضبط دورة الماء حول الأرض بهذه الدقة الفائقة.

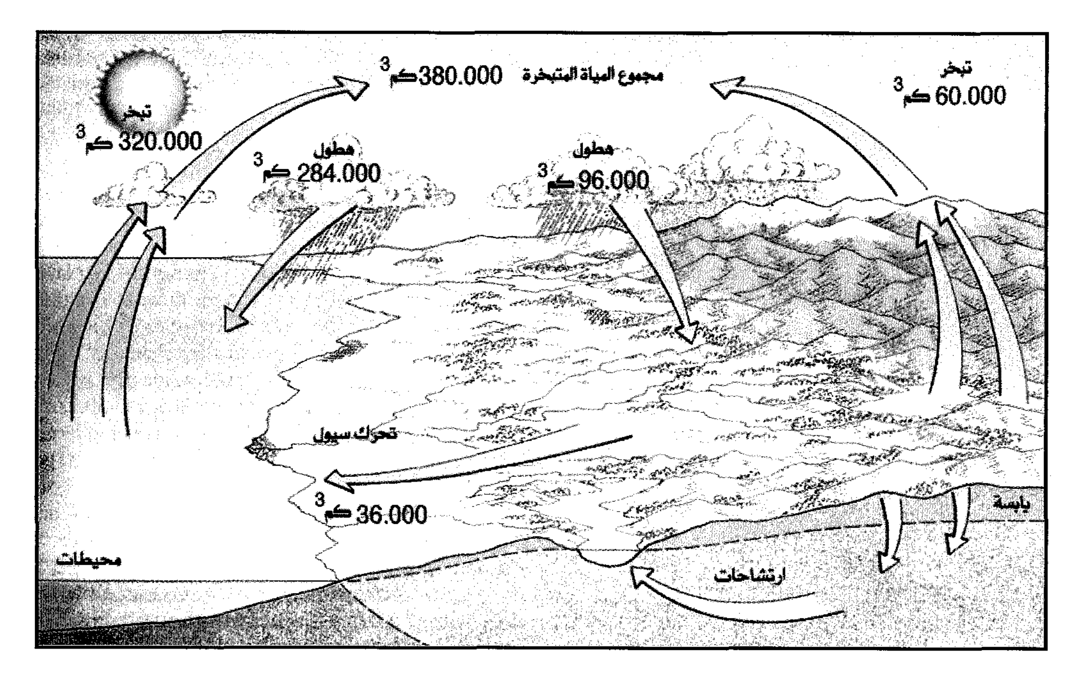
ويتم التبخر على اليابسة من أسطح البحيرات والمستنقعات، والبرك، والأنهار، وغيرها من المجاري المائية، ومن أسطح تجمعات الجليد، وبطريقة غير مباشرة من أسطح المياه تحت سطح الأرض، ومن عمليات تنفس وعرق وإفرازات الحيوانات، ونتح النباتات، ومن فوهات البراكين.

ولما كان متوسط ارتفاع اليابسة هو823 متراً فوق مستوى سطح البحر، ومتوسط عمق المحيطات3800 متراً تحت مستوى سطح البحر؛ فإن ماء المطر الذي يفيض سنوياً من اليابسة إلى البحار والمحيطات؛ ويقدر بستة وثلاثين ألفاً من الكيلومترات المكعبة ينحدر مولداً طاقةً ميكانيكيةً هائلةً تشق الفجاج والسبل في تضاريس الأرض المعقدة، وتفتت الصخور، وتكون الرسوبيات والصخور الرسوبية بما يتركز فيهما من ثروات أرضية، وتكون التربة الزراعية على اليابسة وهي لازمة لإنبات الأرض، ولو أنفقت البشرية كل ما تملك من ثروات مادية ما استطاعت أن تدفع قيمة هذه الطاقة التي سخرها لنا ربنا ﷻ من أجل تهيئة الأرض لكي تكون صالحةً للعمران...!!!.

توزيع الماء على سطح الأرض:

تقدر كمية الماء على سطح الأرض بنحو1360 مليون كيلومتراً مكعباً، أغلبها على هيئة ماء مالح في البحار والمحيطات تقدر نسبته بحوالي (97.20%) من مجموع ماء الأرض، بينما يتجمع الباقي (2.8%) على هيئة الماء العذب بأشكاله الثلاثة الصلبة، والسائلة، والغازية؛ منها (2.15% من مجموع ماء الأرض) على هيئة تجمعات من الجليد تغطي المنطقتين القطبيتين الجنوبية والشمالية بسمك يقترب من الأربعة كيلومترات، كما يغطي القمم الجبلية العالية، والباقي ويقدر بنحو 0.65% فقط من مجموع ماء الأرض يختزن أغلبه في صخور القشرة الأرضية على هيئة مياه تحت سطح الأرض، تليها في الكثرة النسبية مياه البحيرات العذبة، ثم رطوبة التربة الأرضية، ثم رطوبة الغلاف الغازي للأرض، ثم المياه الجارية في الأنهار وتفرعاتها.

وحينما يرتفع بخار الماء من الأرض إلى غلافها الغازي فإن أغلبه يتكثف في «نطاق

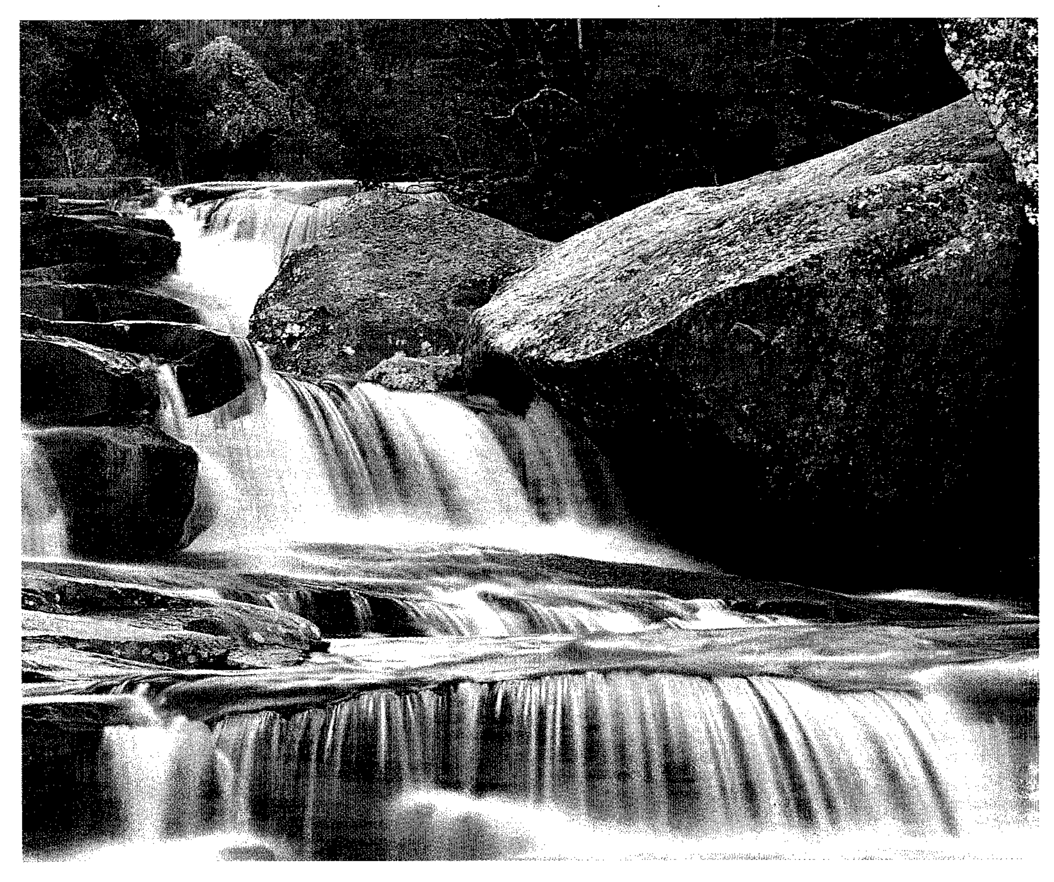


رسم تخطيطي يوضح دورة الماء حول الأرض

الرجع» ـ المعروف باسم نطاق الطقس أو نطاق التغيرات المناخية ـ والذي يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع يتراوح بين (16) و(17) كيلومتراً فوق خط الاستواء، وبين (6) و(8) كيلومترات فوق القطبين، ويختلف سمكه فوق خطوط العرض الوسطى باختلاف ظروفها الجوية، فينكمش إلى ما هو دون السبعة (7) كيلومترات في مناطق الضغط المنخفض، ويمتد إلى نحو الثلاثة عشر كيلومتراً (13) في مناطق الضغط المرتفع. وعندما تتحرك كتل الهواء الحار في نطاق الرجع من المناطق الاستوائية في اتجاه القطبين، فإنها تضطرب فوق خطوط العرض الوسطى فتزداد سرعة الهواء في اتجاه الشرق متأثراً باتجاه دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق.

ويضم «نطاق الرجع» حوالي 66% من كتلة الغلاف الغازي للأرض، ويتناقص كل من درجة الحرارة والضغط فيه باستمرار مع الارتفاع حتى تصل في قمته المعروفة باسم: «مستوى الركود الجوي» إلى نحو60 درجة مئوية تحت الصفر وإلى عشر الضغط الجوي العادي عند سطح البحر وذلك فوق خط الاستواء.

ونظراً لهذا الانخفاض الملحوظ في كل من درجة الحرارة والضغط الجوي، وإلى الوفرة النسبية لنوى التكثف في هذا النطاق، فإن بخار الماء الصاعد من الأرض يتمدد فيه تمدداً ملحوظاً مما يزيد من فقدانه لطاقته، ومن تبرده تبرداً شديداً، ويساعد على تكثفه



جريان الماء على سطح الأرض يشق الفجاج والسبل ويفتت الصخور مكوناً الرسوبيات ومهيئاً الأرض للإنبات

وعودته إلى الأرض مطراً أو برداً أو ثلجاً، وعودته بدرجة أقل على هيئة ضباب وندى في المناطق القريبة من سطح الأرض.

ثانياً: دحو الأرض بمعنى إخراج ثاني أكسيد الكربون من داخلها:

ثبت أن أكثر الغازات اندفاعاً من فوهات البراكين بعد بخار الماء هو ثاني أكسيد الكربون الذي يعتبر أساس عملية التمثيل الضوئي التي تقوم بتنفيذها النباتات الخضراء، مستخدمةً هذا الغاز مع الماء وعدد من عناصر الأرض لبناء العديد من الكربوهيدرات التي تنبني منها خلايا النبات وأنسجته، وزهوره، وثماره، ومن هنا عبَّر القرآن الكريم عن إخراج هذا الغاز المهم وغيره من الغازات اللازمة لإنبات النبات من الأرض تعبيراً مجازياً بإخراج المرعى؛ لأنه لولا ثاني أكسيد الكربون ما أنبتت الأرض، ولا كستها الخضرة.

وقد عبَّر القرآن الكريم عن تلك الحقائق الكونية المتضمنة إخراج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض من داخل الأرض بأسلوبٍ لا يفزع العقلية البدوية في صحراء الجزيرة العربية وقت تنزله، فقال:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١﴾ **(النازعات: 30، 31)**

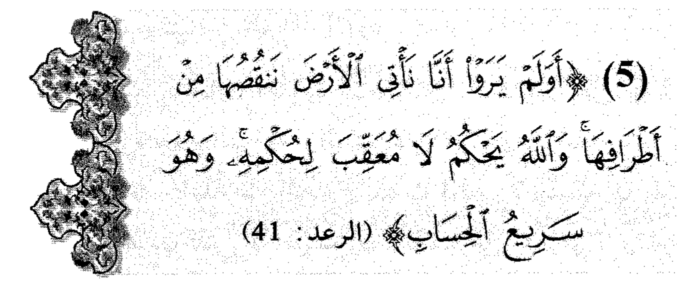
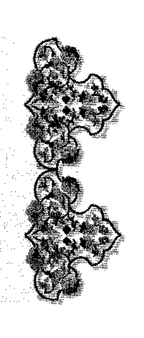
والعرب في قلب الجزيرة العربية كانوا يرون الأرض تتفجر منها عيون الماء، فقالوا: هذا هو إخراج مائها منها، ويرون الأرض تُكسى بالعشب الأخضر بمجرد سقوط المطر عليها، فقالوا: هذا هو إخراج مرعاها منها ففهموا هذا المعنى الصحيح الجميل من هاتين الآيتين الكريمتين، ثم نأتي نحن اليوم فنرى في نفس الآيتين رؤية جديدة مفادها أن الله ـ تعالى ـ يمن على الأرض وعلى جميع من يحيا على سطحها بأن هيأها لهذا العمران بإخراج كلٍّ من أغلفتها الصخرية والمائية والغازية من داخلها حيث تصل درجات الحرارة إلى آلاف الدرجات المئوية، مما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وبكمال العلم، وتمام الحكمة، كما يشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقَّى هذا الوحي الخاتم بأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قِبَل خالق السمٰوات والأرض، فلم يكن لأحدٍ من الخلق وقت تنزل القرآن الكريم ولا لقرونٍ متطاولةٍ من بعده إلمام بحقيقة أن كل ماء الأرض، وكل هواء الأرض قد أخرجه ربنا ﷻ من داخل الأرض، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلّا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في القرآن الكريم بهذه الدقة والشمول والإحاطة لمِمَّا يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بذلك إلى قيام الساعة ليبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين بأنه كلام رب العالمين. فسبحان منزل القرآن من قبل أربعة عشر قرناً واصفاً إياه بقوله الكريم:

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ **(الفرقان: 6)**.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأمين الذي تلقَّى هذا الوحي الرباني فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، والذي وصفه ربنا ﷻ بقوله الكريم:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ **(النساء: 166)**.

الثلوج والبحار صورة من صور توزيع الماء على سطح الأرض


(5) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (الرعد: 41)

هذه الآية الكريمة جاءت في خواتيم سورة «الرعد»، وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي تحمل اسم ظاهرة من الظواهر الجوية. وسورة «الرعد» توصف بأنها سورة مدنية. وإن كان الخطاب فيها خطاباً مكياً، يدور حول أسس العقيدة الإسلامية ومن أولها قضية الإيمان بالوحي المنزل من رب العالمين إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، والإيمان بما اشتمل عليه هذا الوحي الرباني من الحق، ومن ركائزه: الإيمان بالله، وبوحدانيته المطلقة فوق كافة خلقه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وما يستتبعه من بعث ونشور، وعرض أكبر أمام الله، وحساب وجزاء، وما يستوجبه هذا الإيمان من خشية لله وتقواه، وحرص على طلب رضاه بالعمل الصالح؛ لأن ذلك كله نابع من الإيمان بالوحي، وبأن الله ـ تعالى ـ هو منزل القرآن الداعي إلى عبادة الله بما أمر ﷻ، وبالقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بحسن عمارتها، وإقامة عدل الله فيها. وتعجب الآيات من منكري البعث والحساب والجزاء؛ الذين كفروا بربهم، وكذَّبوا رسله، وجحدوا آياته، وتعرض لشيء من عذابهم في الآخرة، وخلودهم في النار.

وتستشهد السورة في مواضع كثيرة منها بالعديد من الآيات والظواهر الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق والإفناء، وفي الإماتة والإحياء، وفي النفع والضر، والشاهدة على أن كل ما جاء به القرآن الكريم هو حق مطلق وإن كان أكثر الناس لا يؤمنون.

ثم تقارن الآيات بين كل من أهل النار وأهل الجنة، وبين أوصاف كل فريق منهم وخصاله وأعماله، وضربت لهما مثلاً بالأعمى والبصير، وبينت مصير كل من الفريقين، مع تصوير رائع لكل من الجنة والنار.

وتستطرد آيات «سورة الرعد» في الحديث عن عدد من الظواهر الكونية من مثل: حدوث الرعد، والبرق، والصواعق، وتكوين السحاب الثقال، وإنزال المطر، وتدفق الأودية بمائه حاملةً من الزبد والخبث الذي لا يلبث أن يذهب جفاء، ومما ينفع الناس من نفائس المعادن التي لا تلبث أن تمكث في الأرض، وتشبه الآيات الكريمة ذلك بكل من الباطل والحق، ولله المثل الأعلى.

ثم تعرض السورة لحقيقة غيبية تتمثل في تسبيح الرعد بحمد الله، وتسبيح الملائكة خشية لجلالهِ، وخيفة من سلطانه، وجميع من في السمٰوات والأرض يسجد لله طوعاً وكرهاً، حتى ظلالهم فإنها تسجد لله بالغدو والآصال؛ أي: مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، فيمد الظل ويقبض في حركة كأنها الركوع والسجود.

وتنعي الآيات على الكفار استهزاءهم بالرسل السابقين على بعثة المصطفى ﷺ، وفي الإشارة إلى ذلك ضرْبٌ من التثبيت لرسول الله ﷺ، ومن التأكيد له على أن الابتلاء هو طريق النبوات، وطريق أصحاب الرسالات من بدء الخلق إلى قيام الدعوة المحمدية وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها...!!!.

وتشير السورة الكريمة بالقرب من نهايتها إلى فرح الصالحين من أهل الكتاب بمقدم الرسول الخاتم ﷺ، في الوقت الذي حاول فيه الكفار والمشركون التشكيك في حقيقة بعثته، وفي صدق رسالته. وتؤكد الآيات إنزال القرآن حكماً عربياً مبيناً، وتدعو المصطفى ﷺ إلى الحذر من ضغوط الكافرين من أجل اتباع أهوائهم، وتؤكد أنه ما كان لرسول من الرسل أن يأتي بآية إلا بإذن الله، لأنه مبلغ عن رب العالمين بما يتلقاه من علم.

ثم تأتي الآية الكريمة التي نحن بصددها ناطقةً بحقيقةٍ كونيةٍ يقول عنها ربنا ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ **(الرعد: 41).**

ويتكرر معنى هذه الآية الكريمة مرة أُخرى في سورةِ الأنبياء التي يقول فيها ربنا ﷻ:
﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ **(الأنبياء: 44).**

وتتحدث سورة «الرعد» عن مكر الأمم السابقة الذي لم يضر المؤمنين شيئاً؛ لأن لله ـ تعالى ـ المكر جميعاً، وأن له ﷻ عقبى الدار، وتختتم بالإشارة إلى إنكار الكافرين لبعثة المصطفى ﷺ، وتأتي الآيات مؤكدةً أن الله تعالى يشهد له بالنبوة والرسالة، وكذلك كل من عنده علم من رسالات الله السابقة لوجود ذكره ﷺ في الآيات التي لم تحرَّف من بقايا كتبهم.

الإشارات الكونية في سورة «الرعد»

من الآيات الكونية التي استعرضتها سورة الرعد ما يلي:

(1) رفع السمٰوات بغير عمد مرئية.

(2) تسخير كل من الشمس والقمر إلى أجل مسمى.

(3) مد الأرض، وخلق كل من الرواسي والأنهار فيها.

(4) خلق الثمار ـ كما خلق كل شيء ـ في زوجية واضحة.

(5) إغشاء الليل بالنهار، والنهار بالليل.

(6) توزيع البركات في الأرض على قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع ونخيل، صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ويفضل الله بعضها على بعض في الأكل.

(7) علم الله تعالى بما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار.

(8) تقسيم الكون إلى عالم الغيب وعالم الشهادة، وكله أمام علم الله واحد؛ لأن الغيب المكنون الذي لا تدركه عيون البشر وحواسهم مكشوف لعلم الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء..

(9) وصف عدد من الظواهر الكونية المبهرة كالرعد.، والبرق، والصواعق بدقة علمية بالغة.

(10) الإشارة إلى إنشاء السحاب الثقال وإنزال المطر منها.

(11) التأكيد على سجود كل من في السمٰوات والأرض لله ـ تعالى ـ طوعاً وكرهاً، وظلالهم بالغدو والآصال.

(12) الإقرار بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء.

(13) الإشارة إلى إنقاص الأرض من أطرافها، وهي حقيقة جامعة لم يدركها الإنسان إلا مؤخراً.

(14) تشبيه الباطل بزبد السيل أو زبد الفلزات المصهورة، وتشبيه الحق بما يمكث في الأرض مترسباً من ماء السيل من مثل: الجواهر والمعادن النفيسة والنافعة، أو بما يبقى بعد صهر الفلزات الثمينة والمفيدة مع عدد من المواد لتخليصها مما قد يكون فيها من شوائب على هيئة الخبث أو الزبد. وهنا يبرز التساؤل المنطقي: ما هو معنى إنقاص الأرض من أطرافها؟ وما هو مغزى دلالتها العلمية؟ وقبل الخوض في ذلك لابد من استعراض سريع لشروح المفسرين لهذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قول الحق ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض»، ثم قال في مقام آخر: إنقاصها من أطرافها هو خرابها بموت علمائها، وفقهائها، وأهل الخير منها، وأضاف: والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ **(الأحقاف: 27)** الآية، وأشار إلى أن هذا هو اختيار ابن جرير. كذلك ذكر ابن كثير قول كل من مجاهد وعكرمة: «إنقاص الأرض من أطرافها معناه: خرابها، أو هو موت علمائها، وقول كل من الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، كما قالا: هو نقصان الأنفس والثمرات، وخراب الأرض، وقول الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك (أي: بستانك)، ولكن تنقص الأنفس والثمرات».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مختصره: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: أهل مكة وغيرها ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ نقصد أرضهم، ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بالفتح على النبي ﷺ».

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «أن يد الله القوية تأتي الأمم الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتنقص من قوتها وقدرها وثرائها وتحصرها في رقعةٍ ضيقةٍ من الأرض بعد أن كانت ذات امتداد وسلطان».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أأنكروا نزول ما وعدناهم؛ أو شكوا ولم يروا أننا نفتح أرضهم من جوانبها ونلحقها بدار الإسلام؟! أولم يروا هلاك من قبلهم وخراب ديارهم كقوم عاد وثمود؟ فكيف يأمنون حلول ذلك بهم؟!».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: «أي: أو لم ير هؤلاء المشركون أنا نمكن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام؟ وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجز وعده لرسوله ﷺ».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «وأن أمارات العذاب والهزيمة قائمة! ألم ينظروا إلى أنا نأتي الأرض التي قد استولوا عليها، يأخذها منهم المؤمنون جزءاً بعد جزء؟ وبذلك ننقص عليهم الأرض من حولهم، والله وحده هو الذي يحكم بالنصر أو الهزيمة، والثواب أو العقاب، ولا رادَّ لحكمه، وحسابه سريع في وقته، فلا يحتاج الفصل إلى وقت طويل؛ لأن عنده علم كل شيء، فالبينات قائمة». وفي الهامش ذكر الخبراء ما يلي: «تتضمن هذه الآية حقائق وصلت إليها البحوث العلمية الأخيرة، إذ ثبت أن سرعة دوران الأرض حول محورها، وقوة طردها المركزي يؤديان إلى تفلطح في القطبين وهو نقص في طرفي الأرض، وكذلك عرف أن سرعة انطلاق جزيئات الغازات المغلفة للكرة الأرضية، إذا ما جاوزت قوة جاذبية الأرض لها، فإنها تنطلق إلى خارج الكرة الأرضية، وهذا يحدث بصفة مستمرة فتكون الأرض في نقص مستمر لأطرافها، لا أرض أعداء المؤمنين، وهذا احتمال في التفسير تقبله الآية الكريمة».

من الدلالات العلمية لإنقاص الأرض من أطرافها

ترد لفظة (الأرض) في القرآن الكريم بمعنى الكوكب ككل، كما ترد بمعنى اليابسة التي نحيا عليها من كتل القارات والجزر البحرية والمحيطية، وإن كانت ترد أيضاً بمعنى التربة التي تغطي صخور اليابسة. ولإنقاص الأرض من أطرافها في إطار كل معنى من تلك المعاني عدد من الدلالات العلمية التي نحصي منها ما يلي:

أولاً: في إطار دلالة لفظة (الأرض) على (الكوكب) ككل:

في هذا الإطار نجد ثلاثة معان علمية بارزة يمكن إيجازها فيما يلي:

(أ) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى انكماشها على ذاتها وتناقص حجمها باستمرار:

يقدر متوسط قطر الأرض الحالية بحوالي12742 كم، ونصف ذلك أي نصف قطر الأرض يساوي (6371 كم)، ويقدر متوسط محيطها بنحو (40,042) كم، ويقدر حجمها بأكثر من مليون مليون كم^3. وتفيد الدراسات أن أرضنا مرت بمراحل متعددة من التشكيل منذ انفصال مادتها عن سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن عملية الانفجار العظيم، إما

مباشرةً أو بطريقةٍ غير مباشرة عبر سديم الدخان الذي تولدت عنه مجموعتنا الشمسية، وبذلك خلقت الأرض الأولية التي لم تكن سوى كومة ضخمة من الرماد ذات حجم هائل يقدر بمائة ضعف حجمها الحالي على الأقل، ومكونةً من عدد من العناصر الخفيفة. ثم ما لبثت تلك الكومة أن رجمتْ بِوابلٍ من النيازك الحديدية، والحديدية الصخرية، والصخرية، كتلك التي تصل الأرض في زماننا بكميات تتراوح بين الألف والعشرة آلاف طن سنوياً من مادة الشهب والنيازك على أقل تقدير.

وبحكم كثافتها العالية نسبياً اندفعت النيازك الحديدية إلى مركز تلك الكومة من الرماد حيث استقرت، مولدةً حرارةً عالية تعرف باسم حرارة الاستقرار أدت إلى صهر كومة الرماد وإلى تمايزها إلى سبع أرضين على النحو التالي:

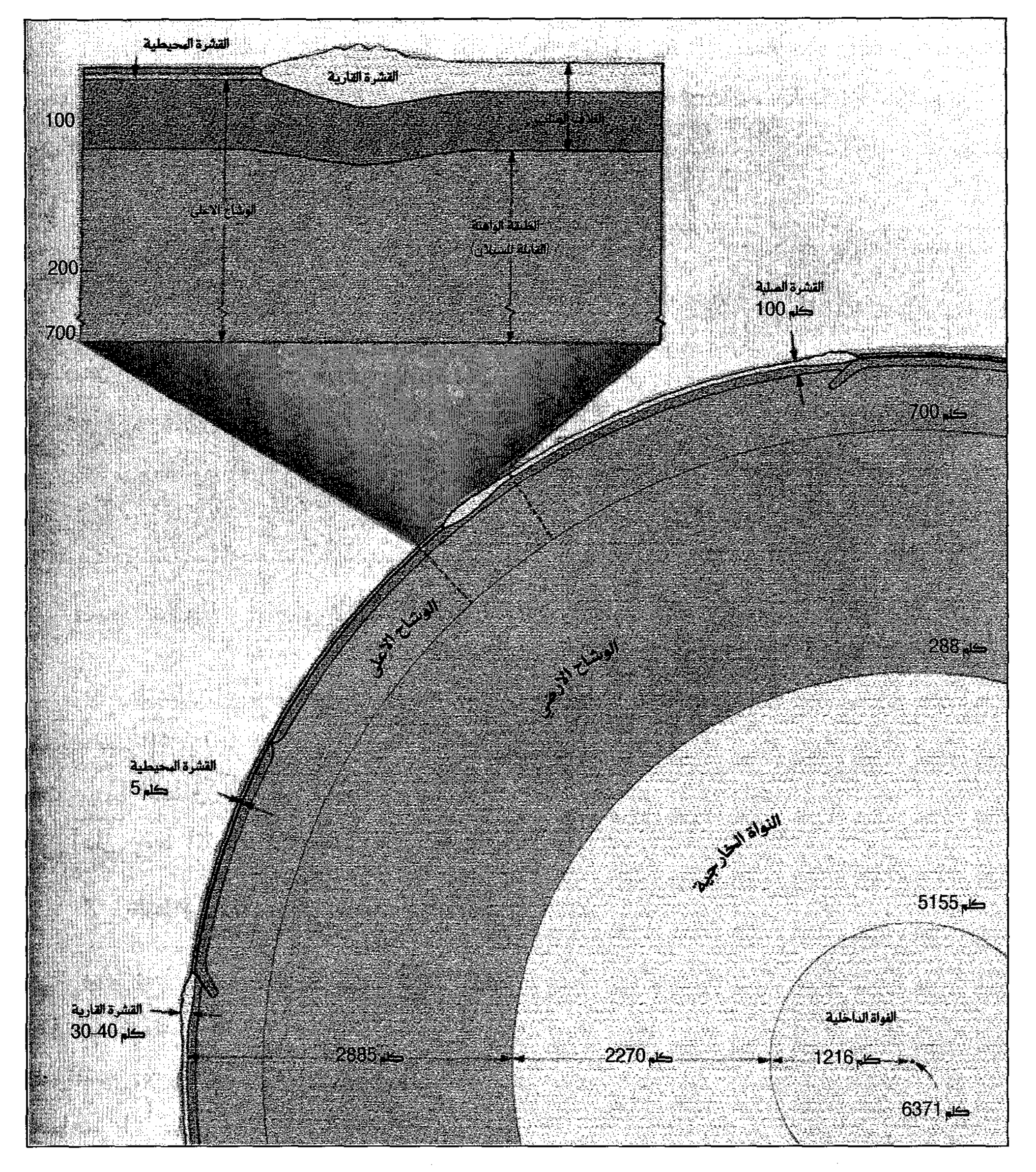
1 ـ لب صلب داخلي: عبارة عن نواة صلبة من الحديد (90%) وبعض النيكل (9%) مع قليل من العناصر الخفيفة مثل: الكربون والفوسفور، والكبريت والسيليكون والأوكسجين (1%) وهو قريب من تركيب النيازك الحديدية مع زيادةٍ واضحة في نسبة الحديد، ويبلغ قطر هذه النواة حالياً ما يقدر بحوالي2432 كم، وتقدر كثافتها بحوالي 10 إلى 13.5 جرام/ سم^3 (الأرض السابعة).

2 ـ نطاق لب الأرض السائل (الخارجي): وهو نطاق سائل يحيط باللب الصلب، وله نفس تركيبه الكيميائي تقريباً ولكنه في حالة انصهار، ويقدر سمكه بحوالي2270 كم، ويفصله عن اللب الصلب منطقة انتقالية شبه منصهرة يبلغ سمكها450 كم تعتبر الجزء الأسفل من هذا النطاق. ويكون كل من لب الأرض الصلب والسائل حوالي 31% من كتلتها. ويعتبر لب الأرض السائل ما يعرف باسم الأرض السادسة.

3 ـ النطاق الأسفل من وشاح الأرض (الوشاح السفلي): وهو نطاق صلب يحيط بلب الأرض السائل، ويبلغ سمكه نحو2215 كم (من عمق670 كم إلى عمق2885 كم) ويفصله عن الوشاح الأوسط الذي يعلوه مستوى انقطاع للموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل (الأرض الخامسة).

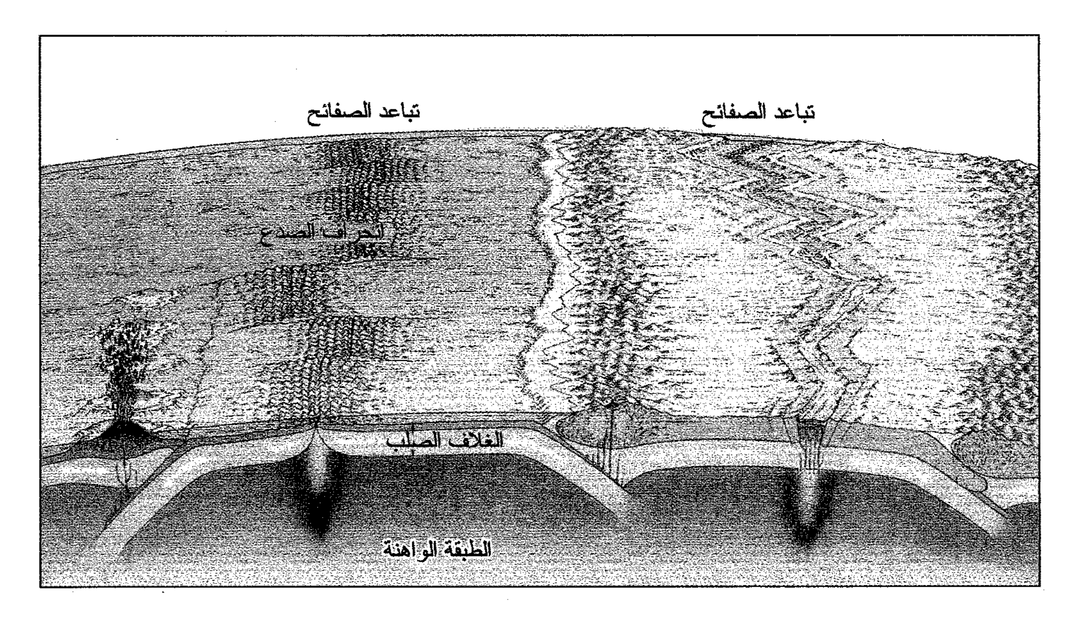
4 ـ النطاق الأوسط من وشاح الأرض (الوشاح الأوسط): وهو نطاق صلب يبلغ سمكه نحو270 كم، ويحده مستويان من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية يقع أحدهما على عمق670 كم ويفصله عن الوشاح الأسفل، ويقع الآخر على عمق400 كم ويفصله عن الوشاح الأعلى (ويعتبر الوشاح الأوسط هو الأرض الرابعة).

5 ـ النطاق الأعلى من وشاح الأرض (الوشاح العلوي): وهو نطاق لدن، شبه منصهر،



قطاع في الأرض يوضح بنيتها الداخلية

عالي الكثافة واللزوجة (نسبة الانصهار فيه في حدود 1%) يعرف باسم: «نطاق الضعف الأرضي» ويمتد بين عمق 65 كم وعمق400 كم تحت قيعان البحار والمحيطات، حيث يصل متوسط سمكه إلى 335 كم، وبين عمق 120 كم، 400 كم تحت القارات حيث يصل سمكه إلى 280 كم في المتوسط. ويعتقد بأن وشاح الأرض كان كله منصهراً في بدء خلق الأرض ثم أخذ في التصلب بالتدريج نتيجة لفقد جزء هائل من حرارة الأرض (الأرض الثالثة).



صورة لتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض

6 ـ النطاق السفلي من الغلاف الصخري للأرض (ما دون قشرة الأرض): ويتراوح سمكه بين40، 60 كم (بين أعماق60 و120 كم، أو بين 80 كم إلى عمق 120 كم) ويعتبر هذا النطاق الأرض الثانية، ويحده من أسفل الحد العلوي لنطاق الضعف الأرضي، ومن أعلى خط انقطاع الموجات الاهتزازية المعروف باسم: «الموهو».

7 ـ النطاق العلوي من الغلاف الصخري للأرض (قشرة الأرض):

ويتراوح متوسط سمكه بين (30، 40) كم تحت قيعان البحار والمحيطات وبين (60، 80) كم تحت القارات، ويتكون أساساً من العناصر الخفيفة مثل: السيليكون، والصوديوم، والبوتاسيوم، والكالسيوم، والألومنيوم، والأوكسجين مع قليل من الحديد (5.6%) وبعض العناصر الأُخرى وهو التركيب الغالب للقشرة القارية المكونة أساساً من الجرانيت والصخور الجرانيتية، أما قشرة قيعان البحار والمحيطات فتميل إلى تركيب الصخور البازلتية. وتعتبر قشرة الأرض الأرض الأولى لقول رسول الله ﷺ: «**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»[1].

وأدى هذا التمايز في التركيب الداخلي للأرض إلى نشوء دورات من تيارات الحمل،

(1) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة، 355.

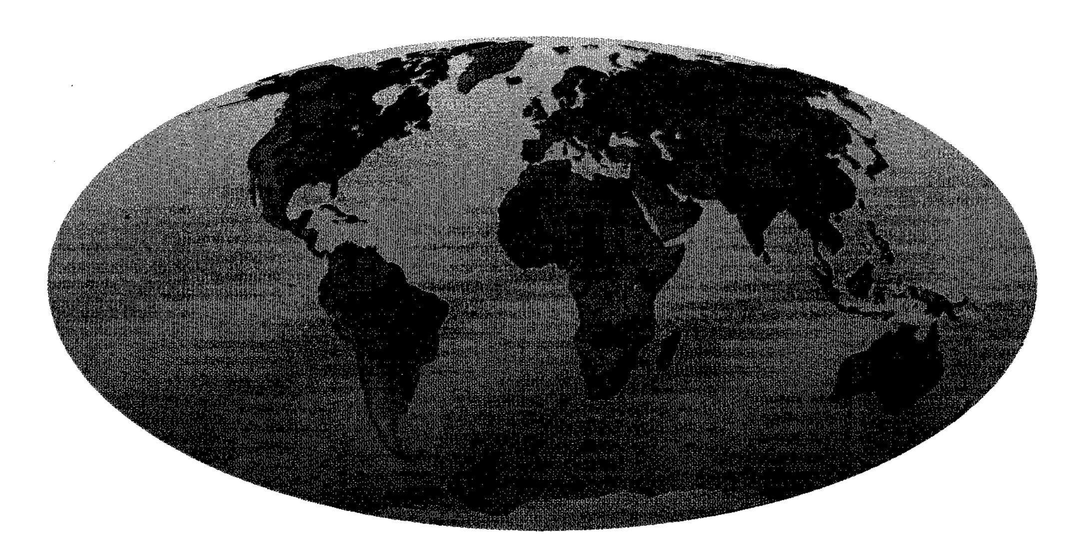
تندفع من نطاق الضعف الأرضي (الوشاح الأعلى) غالباً، ومن وشاح الأرض الأوسط أحياناً، لتمزق الغلاف الصخري للأرض إلى عددٍ من الألواح التي شرعت في التحرك حركة دائبة حول نطاق الضعف الأرضي، وتنشأ عن حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض دورات من الثورات البركانية، والهزات الأرضية، والحركات البانية للجبال، كما نشأ ولا يزال ينشأ عنها دحو الأرض بمعنى: إخراج كل من غلافيها المائي والغازي من جوفها وإخراج الصهارة الصخرية التي تكون كتل القارات.

وتشير حسابات ذلك الدحو إلى أن حجم الأرض البدائية كان على الأقل يصل إلى مائة ضعف حجم الأرض الحالية (والمقدر بأكثر قليلاً من مليون مليون كيلومتراً مكعباً)، وأن هذا الكوكب قد أخذ منذ اللحظة الأولى لخلقه في الانكماش على ذاته من كافة أطرافه. وانكماش الأرض على ذاتها سنة كونية لازمة للمحافظة على العلاقة النسبية بين كتلتي الأرض والشمس، هذه العلاقة التي تضبط بُعد الأرض عن الشمس؛ ذلك البعد الذي يحكم كمية الطاقة الواصلة إلينا. ويقدر متوسط بعد الأرض عن الشمس بنحو مائة وخمسين مليوناً من الكيلومترات، وإذا علمنا أن كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب من كواكب مجموعتها تتناسب تناسباً عكسياً مع بُعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جريه في مداره حولها، بينما يتناسب طول سنة الكوكب تناسباً طردياً مع بُعده عنها ـ وسنة الكوكب هي المدة التي يستغرقها في إتمام دورة كاملة حول الشمس ـ، اتضحت لنا الحكمة من استمرارية تناقص الأرض وانكماشها على ذاتها أي: تناقصها من أطرافها.

ولو زادت الطاقة التي تصلنا من الشمس عن القدر الذي يصلنا اليوم قليلاً لأحرقتنا، وأحرقت كل حي على الأرض، ولبخرت الماء، وخلخلت الهواء، ولو قلت قليلاً لتجمدنا وتجمد كل حي غيرنا على الأرض ولقضي على الحياة الأرضية بالكامل.

ومن الثابت علمياً أن الشمس تفقد من كتلتها في كل ثانية نحو خمسة ملايين من الأطنان على هيئة طاقة ناتجة من تحول غاز «الإيدروجين» بالاندماج النووي إلى غاز الهيليوم. وللمحافظة على المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس لابد وأن تفقد الأرض من كتلتها قدراً متناسباً تماماً مع ما تفقده الشمس من كتلتها، ويخرج ذلك عن طريق كل من فوهات البراكين وصدوع الأرض على هيئة الغازات والأبخرة وهباءات متناهية الضآلة من المواد الصلبة التي يعود بعضها إلى الأرض، ويتمكن البعض الآخر من الإفلات من جاذبية الأرض والانطلاق إلى صفحة السماء الدنيا، وبذلك الفقدان المستمر من كتلة الأرض فإنها

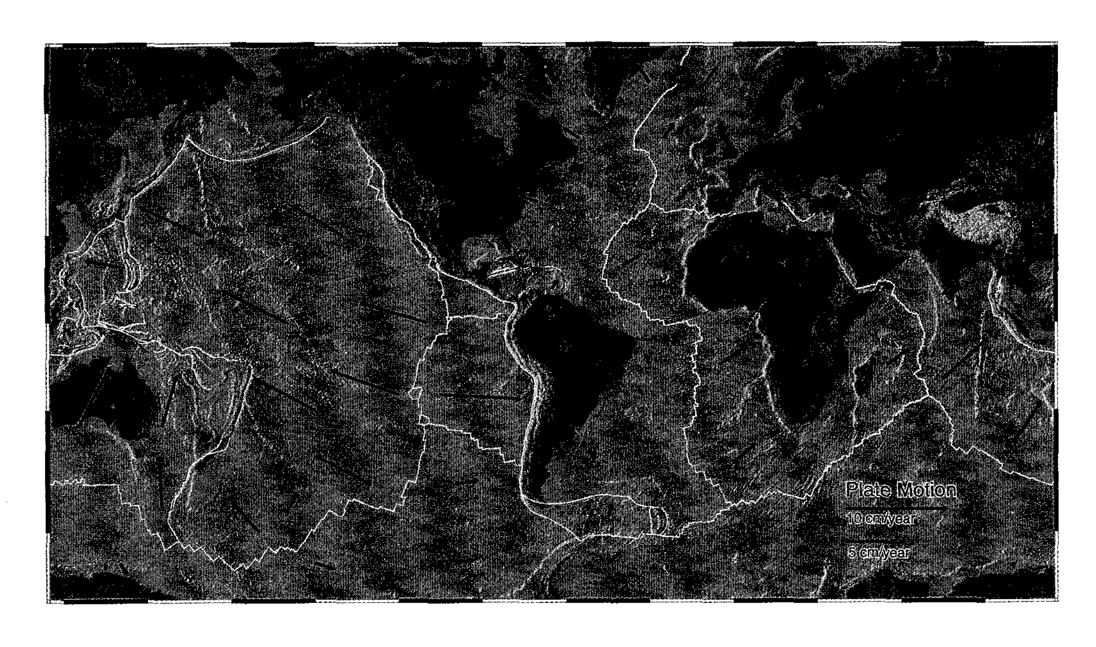
تنكمش على ذاتها، وتنقص من كافة أطرافها، وتحتفظ بالمسافة الفاصلة بينها وبين الشمس. ولولا ذلك لانطلقت الأرض من عقال جاذبية الشمس لتضيع في صفحة الكون وتهلك ويهلك كل من عليها، أو ٱنجذبت إلى قلب الشمس حيث الحرارة في حدود15 مليون درجة مئوية فتنصهر وينصهر كل ما بها ومن عليها.



ومن حكمة الله البالغة أن كمية الشهب والنيازك التي تصل الأرض يومياً، تلعب دوراً هاماً في ضبط العلاقة بين كتلتي الأرض والشمس إذا زادت كمية المادة المنفلتة من عقال جاذبية الأرض عن القدر المقنن لها.

(ب) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى: تفلطحها قليلاً عند القطبين، وانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء:

في زمن الخليفة المأمون قيست المسافة المقابلة لكل درجة من درجات خطوط الطول في كل من تهامة والعراق، واستنتج من ذلك حقيقة أن الأرض ليست كاملة الاستدارة، وقد سبق العلماء المسلمون الغرب في ذلك بثمانية قرون على الأقل؛ لأن الغربيين لم يشرعوا في قياس أبعاد الأرض إلا في القرن السابع عشر الميلادي، حين أثبت «نيوتن» نقص تكور الأرض؛ وعلله بأن مادة الأرض لاتتأثر بالجاذبية نحو مركزها فحسب، ولكنها تتأثر كذلك بالقوة الطاردة المركزية (النابذة) الناشئة عن دوران الأرض حول محورها. وقد نتج عن ذلك انبعاج بطيء في الأرض ولكنه مستمر عند خط الاستواء، حيث تزداد القوة الطاردة المركزية حتى تصل إلى ذروتها، وتقل قوة الجاذبية إلى المركز إلى أدنى قدر



خارطة العالم توضح الصدوع في قيعان المحيطات

لها. ويقابل ذلك الانبعاج الاستوائي تفلطح - انبساط - غير متكافئ عند قطبي الأرض حيث تزداد قوتها الجاذبة، وتتناقص قيمة القوة الطاردة المركزية. والمنطقة القطبية الشمالية أكثر تفلطحاً من المنطقة القطبية الجنوبية. ويقدر متوسط قطر الأرض الاستوائي بنحو 12756.3 كم، ونصف قطرها القطبي بنحو 12713.6 كم وبذلك يصبح الفارق بين القطرين نحو 42.7 كم، ويمثل هذا التفلطح نحو 0.33% من نصف قطر الأرض، مما يدل على أنها عملية بطيئة جداً تقدر بنحو1 سم تقريباً كل ألف سنة، ولكنها عملية مستمرة منذ بدء خلق الأرض، وهي إحدى عمليات إنقاص الأرض من أطرافها.

(ج) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى: اندفاع قيعان المحيطات تحت القارات وانصهارها وذلك بفعل تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض:

يمزق الغلاف الصخري للأرض بواسطة شبكة هائلة من الصدوع العميقة التي تحيط بالأرض إحاطةً كاملةً، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات في الطول، وتتراوح أعماقها بين65 كم تحت قيعان البحار والمحيطات، و120كم، على اليابسة، وتقسم هذه الشبكة من الصدوع الغلاف الصخري للأرض إلى 12 لوحاً رئيسياً، وإلى عددٍ من الألواح الصغيرة نسبياً، ومع دوران الأرض حول محورها تنزلق ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق الضعف الأرضي متباعدة عن بعضها البعض، أو مصطدمة مع بعضها البعض،

ويعين على هذه الحركة اندفاع الصهارة الصخرية عبر مستويات الصدوع خاصةً خلال تلك المستويات التصدعية التي تمزق قيعان البحار والمحيطات والتي تشكل محاور حواف أواسط المحيطات، فتؤدي إلى اتساع قيعان البحار والمحيطات وإلى تجدد صخورها باستمرار؛ وذلك لأن الصهارة الصخرية المتدفقة بملايين الأطنان عبر مستويات صدوع أواسط المحيطات تؤدي إلى دفع جانبي قاع المحيط يمنة ويسرة لعدة سنتيمترات في السنة الواحدة، وينتج عن ذلك ملء المسافات الناتجة عن هذا التوسع بالطفوحات البركانية المتدفقة والتي تبرد وتتصلب على هيئة أشرطة متوازية تتقادم في العمر، في اتجاه حركة التوسع، وينتج عن هذا التوسع اندفاع صخور قاع المحيط يمنةً ويسرةً، في اتجاهي التوسع ليهبط تحت كتل القارات المحيطة في الجانبين بنفس معدل التوسع في الجانبين، أي: بنصفه في كل اتجاه. وتستهلك صخور قاع المحيط الهابطة تحت القارتين المحيطتين وذلك بالانصهار في نطاق الضعف الأرضي.

وكما يصطدم قاع المحيط بكتل القارتين أو القارات المحيطة بحوض المحيط أو البحر، فإن العملية التصادمية قد تتكرر بين كتل قاع المحيط الواحد فتتكون الجزر البركانية، وينقص قاع المحيط. كذلك يمكن أن تحدث عملية التصدع والتباعد في أواسط القارة فتؤدي إلى فصلها إلى كتلتين قاريتين ببحر طولي مثل: البحر الأحمر، ويظل هذا البحر الطولي في الاتساع حتى يتحول إلى محيط في المستقبل البعيد. وفي كل الحالات تستهلك صخور الغلاف الصخري للأرض عند خطوط التصادم، وتتجدد عند خطوط التباعد، وهي صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها.

وتتخذ ألواح الغلاف الصخري للأرض في العادة أشكالاً رباعيةً يحدها من جهة خطوط انفصام وتباعد، يقابلها في الجهة الأُخرى خطوط التحام وتصادم، وفي الجانبين الآخرين حدود انزلاق، تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري منزلقة بِحُرية عن بعضها البعض. وتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض يؤدي باستمرار إلى استهلاك صخور قيعان كل محيطات الأرض، وإحلالها بصخور جديدة، وعلى ذلك فإن محاور المحيطات تشغلها صخور بركانية ورسوبية جديدة قد لا يتجاوز عمرها اللحظة الواحدة، بينما تندفع الصخور القديمة ـ التي قد يتجاوز عمرها المائتي مليون سنة ـ عند حدود تصادم قاع المحيط مع القارات المحيطة به، والصخور الأقدم عمراً من ذلك تكون قد هبطت تحت كتل القارات وهضمت في نطاق الضعف الأرضي وتحولت إلى صهارة، وهي صورة رائعة من صور إنقاص الأرض من أطرافها.

ويبدو أن هذه العمليات الأرضية المتعددة كانت في بدء خلق الأرض تتم بمعدلات أشد عنفاً من معدلاتها الحالية وذلك لتمتع جوف الأرض عند بدء الخلق بدرجات حرارة تفوق درجاتها الحالية، وذلك بسبب الكم الهائل من الحرارة المتبقية عن الأصل الذي انفصلت منه الأرض، والكم الهائل من العناصر المشعة وهي الآخذة في التناقص باستمرارٍ. بتحللها الذاتي منذ بدء تجمد مادة الأرض.

ثانياً: في إطار دلالة لفظ الأرض على اليابسة التي نحيا عليها:

في هذا الإطار نجد معنيين علميين واضحين نوجزهما فيما يلي:

(أ) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى أخذ عوامل التعرية المختلفة من المرتفعات السامقة وإلقاء نواتج التعرية في المنخفضات من سطح الأرض حتى تتم تسوية سطحها: فسطح الأرض ليس تام الاستواء وذلك بسبب اختلاف كثافة الصخور المكونة للغلاف الصخري للأرض، وكما حدث انبعاج في سطح الأرض عند خط الاستواء، فإن هناك نتوءاتٍ عديدة في سطح الأرض حيث تتكون قشرة الأرض من صخور خفيفة، وذلك من مثل: كتل القارات والمرتفعات البارزة على سطحها، وهناك أيضاً انخفاضات مقابلة لتلك النتوءات حيث تتكون قشرة الأرض من صخور عالية الكثافة نسبياً وذلك من مثل: قيعان المحيطات والأحواض المنخفضة على سطح الأرض.

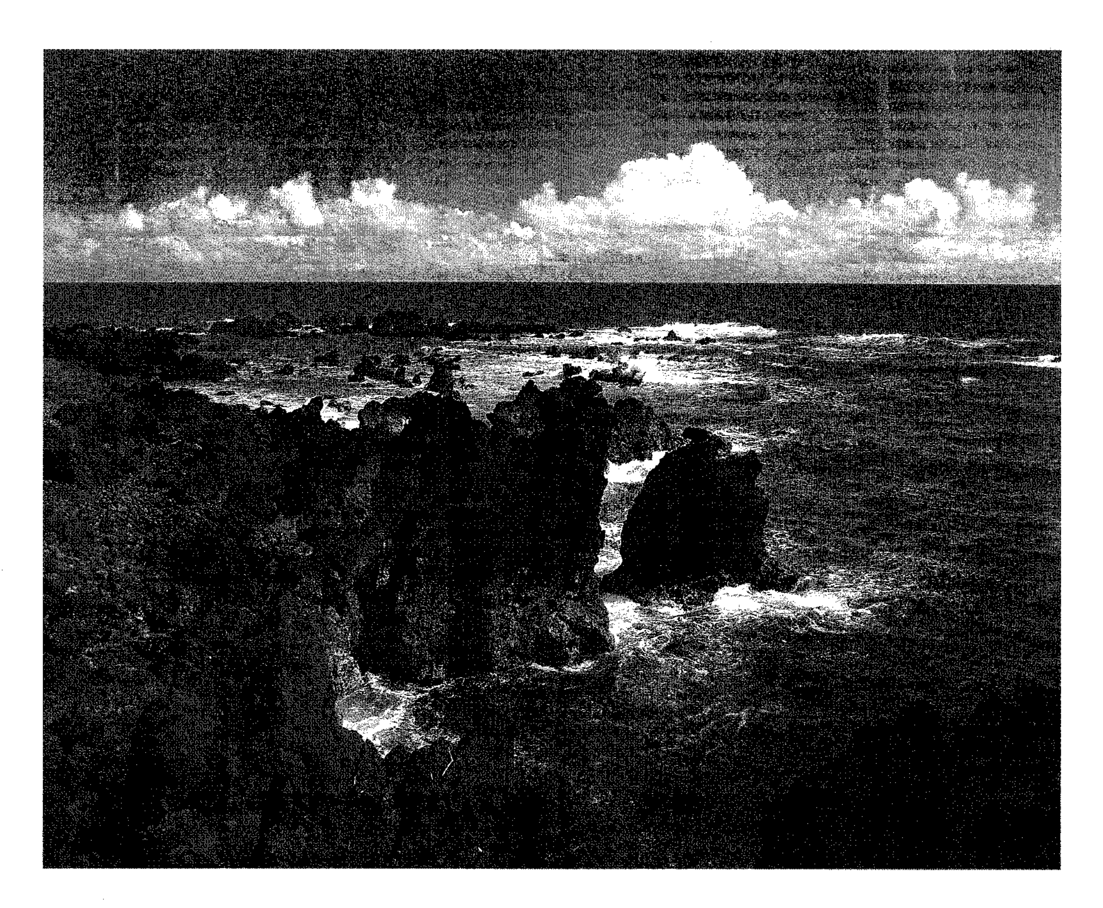
ويبلغ ارتفاع أعلى قمة على سطح الأرض وهي قمة جبل «إفريست» في سلسلة جبال «الهيمالايا» حوالي 8840 متراً فوق مستوى سطح البحر، ويقدر منسوب أخفض نقطة على اليابسة وهي حوض البحر الميت بحوالي 395 متراً تحت مستوى سطح البحر، ويبلغ منسوب أكثر أغوار الأرض عمقاً حوالي 11,020.0 متراً وهو غور «ماريانا» في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفليبين، والمسافة بين أعلى نقطة على سطح الأرض وأخفض نقطة عليها هو أقل من عشرين كيلومتراً (19860 متراً)، وهو فارق ضئيل إذا قورن بنصف قطر الأرض المقدر بحوالي 12742 كم في المتوسط.

ويبلغ متوسط ارتفاع سطح الأرض حوالي840 متراً فوق مستوى سطح البحر، بينما يبلغ متوسط أعماق المحيطات حوالي أربعة كيلومترات تحت مستوى سطح البحر (3729 متراً إلى 4500 متراً تحت مستوى سطح البحر) وهذا الفارق البسيط هو الذي أعان عوامل التعرية المختلفة على بري صخور المرتفعات وإلقائها في منخفضات الأرض في عمليات متكررة لتسوية سطحها، وهي سنَّة دائبة من سنن الله في الأرض، فإذا بدأنا بمنطقة مرتفعة ولكنها مستوية يغشاها مناخ رطب، فإن مياه الأمطار سوف تتجمع في منخفضات المنطقة

على هيئة عدد من البحيرات والبرك حتى يتكون للمنطقة نظام صرف مائي جيد، وعندما تجري الأنهار فإنها تنحر مجاريها في صخور المنطقة حتى تقترب من المستوى الأدنى للتحات فتسحب كل مياه البحيرات والبرك التي تمر بها، وكلما زاد النحر إلى أسفل تزايدت التضاريس تشكلاً وبروزاً، وعندما تصل بعض المجاري المائية إلى المستوى الأدنى للتحات فإنها تبدأ في النحر الجانبي لمجاريها بدلاً من النحر الرأسي، فيتم بذلك التسوية الكاملة لتضاريس المنطقة على هيئة سهول مستوية (أو سهوب) تتعرج فيها الأنهار، وتتسع مجاريها، وتضعف سرعات جريها وقدراتها على النحر، وبعد الوصول إلى هذا المستوى أو الاقتراب منه يتكرر رفع المنطقة وتعود الدورة إلى صورتها الأولى، وتعتبر هذه الدورة ـ التي تعرف باسم: دورة التسهب **(Peneplanation Cycle)** ـ صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها. وينخفض منسوب قارة أمريكا الشمالية بهذه العملية بمعدل يصل إلى 0.03 من المليمتر في السنة حتى يغمرها البحر إن شاء الله ـ تعالى ـ في القريب العاجل.

(ب) إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى طغيان مياه البحار والمحيطات على اليابسة:

من الثابت علمياً أن الأرض قد بدأت منذ القدم بمحيط غامر، ثم بتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض والثورات البركانية المصاحبة له بدأت جزر بركانية عديدة في التكون في قلب هذا المحيط الغامر، وبتكرار تصادم تلك الجزر تكونت القارة الأم التي تَفَتَّتَتْ بعد ذلك إلى القارات السبع الحالية. وتبادل الأدوار بين اليابسة والماء هو سنة أرضية تعرف باسم: «**دورة التبادل بين المحيطات والقارات**»، وبواسطتها تحولت أجزاء من اليابسة إلى بحار أو العكس، ومن نماذجها المعاصرة كل من البحر الأحمر، وخليج كاليفورنيا، وهي صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها. ليس هذا فقط بل إن من الثابت علمياً أن غالبية الماء العذب على اليابسة محجوز على هيئة تتابعات هائلة من الجليد فوق كل من قطبي الأرض وقمم الجبال، يصل سمكها في القطب الجنوبي إلى أربعة كيلومترات، ويقترب من هذا السمك قليلاً في القطب الشمالي (3800 متر)، وانصهار هذا السمك الهائل من الجليد يؤدي إلى رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات لأكثر من مائة متر، وقد بدأت بوادر هذا الانصهار في الظهور، وإذا تم ذلك فإنه سوف يغرق أغلب مساحات اليابسة ذات التضاريس المنبسطة حول البحار والمحيطات، وهي صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها، وفي ظل التلوث البيئي الذي يعم الأرض اليوم، والذي يؤدي باستمرار إلى رفع درجة حرارة نطاق المناخ المحيط بالأرض مباشرة، بات انصهار هذا السمك الهائل من الجليد أمراً محتملاً. وقد حدث ذلك مراتٍ عديدة في تاريخ الأرض

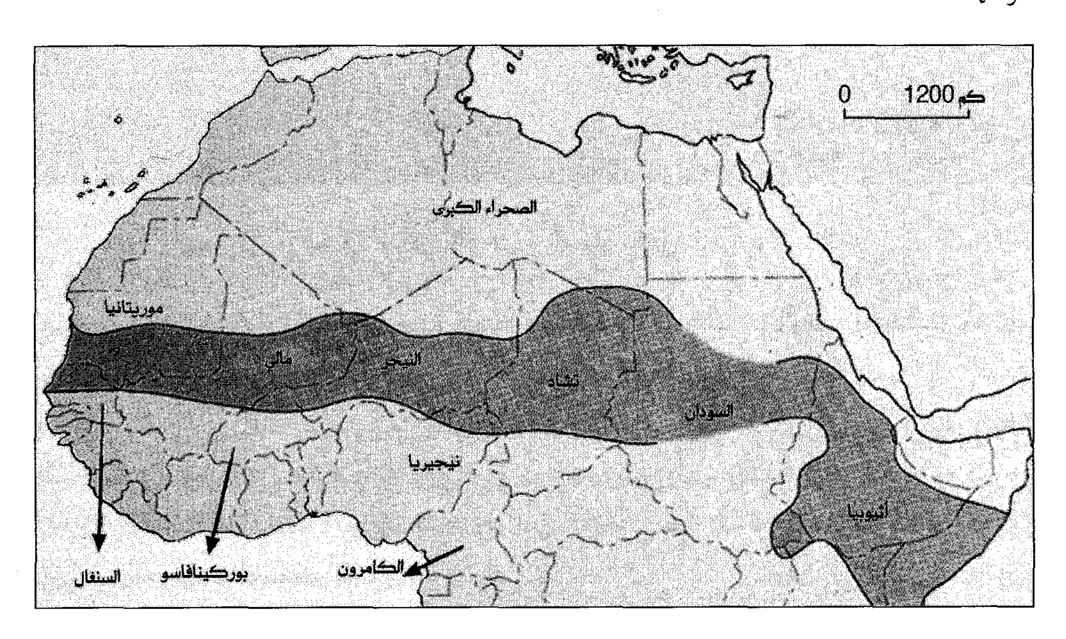


صورة لتآكل شواطىء البحار بفعل الأمواج

الطويل الذي تردد بين دورات يزحف فيها الجليد من أحد قطبي الأرض أو منهما معاً في اتجاه خط الاستواء، وفترات ينصهر فيها الجليد فيؤدي إلى رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات، وفي كلتا الحالتين تتعرض حواف القارات للغمر وللتعرية بواسطة مياه البحار والمحيطات فتؤدي إلى إنقاص الأرض؛ أي: اليابسة من أطرافها؛ وذلك لأن مياه كل من البحار والمحيطات دائمة الحركة بفعل دوران الأرض حول محورها، وباختلاف كل من درجات الحرارة والضغط الجوي، وتباين نسب الملوحة من منطقة إلى أخرى، وتؤدي حركة المياه في البحار والمحيطات من مثل: التيارات المائية، وعمليات المد والجزر، والأمواج السطحية والعميقة إلى ظاهرة التآكل (التحات) البحري وهو الفعل الهدمي لصخور الشواطىء وهو من عوامل إنقاص الأرض (اليابسة) من أطرافها.

ثالثاً: في إطار دلالة لفظ الأرض على التربة التي تغطي صخور اليابسة:

إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى التصحر: أي: زحف الصحراء على المناطق الخضراء، وانحسار التربة الصالحة للزراعة في ظل إفساد الإنسان لبيئة الأرض. وقد بدأ زحف الصحاري على مساحاتٍ كبيرة من الأرض الخضراء بسبب ندرة المياه، ونتيجة لموجات الجفاف وللجور على مخزون المياه تحت سطح الأرض، وبسبب الرعي الجائر، واقتلاع الأشجار، وتحويل الأراضي الزراعية إلى أرض للبناء، مما أدى إلى تملح التربة، وتعريتها بمعدلاتٍ سريعة تفوق بكثير محاولات استصلاح بعض الأراضي الصحراوية. أضف إلى ذلك التلوث البيئي، والخلل الاقتصادي في الأسواق المحلية والعالمية، وتذبذب أسعار كل من الطاقة والآلات والمحاصيل الزراعية، مما يجعل العالم يواجه أزمة حقيقية تتمثل في انكماش المساحات المزروعة سنوياً بمعدلاتٍ كبيرة خاصة في المناطق القارية وشبه القارية نتيجة لزحف الصحاري عليها، ويمثل ذلك صورة من صور خراب الأرض بإنقاصها من أطرافها.



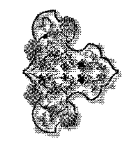
رسم يوضح حزام التصحر في قارة أفريقيا

هذه المعاني الستة ـ منفردةً أو مجتمعةً ـ تعطي بعداً علمياً رائعاً لمعنى إنقاص الأرض من أطرافها، ولا يتعارض ذلك أبداً مع الدلالة المعنوية للتعبير؛ بمعنى خراب

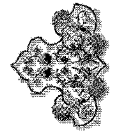
الأرض الذي استنتجه المفسرون، بل يكمله ويجليه. وعلى عادة القرآن الكريم تأتي الإشارة الكونية بمضمون معنوي محدد، ولكن بصياغةٍ علميةٍ معجزة، تبلغ من الشمول والكمال والدقة ما لم يبلغه علم الإنسان، فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة هذه الإشارة العلمية الدقيقة إلى حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها، وهي حقيقة لم يدرك الإنسان شيئاً من دلالاتها العلمية إلا منذ عقود قليلة، وقد يرى فيها القادمون من بعدنا فوق ما نراه نحن اليوم؛ ليظل القرآن الكريم مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وتظل آياته الكونية شاهدة باستمرار على أنه كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ﷻ بذلك الحفظ إلى أن يرث الأرض ومن عليها. وتبقى هذه الآيات الكونية في كتاب الله شاهدة له بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية و شاهدة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.



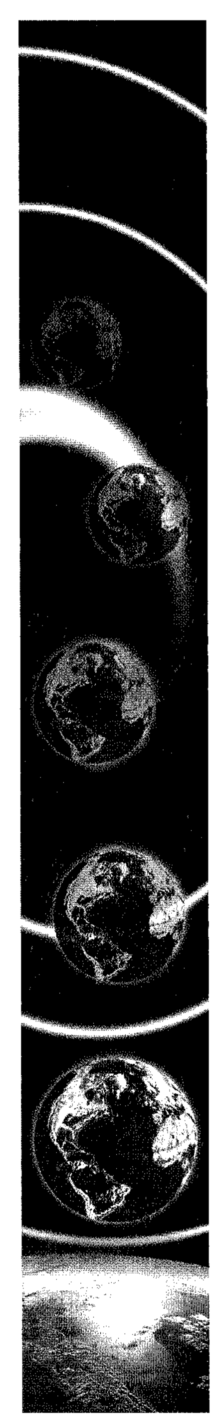
بسم الله الرحمن الرحيم



(6) ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾



(الطارق: 12)



هذه الآية الكريمة جاءت في الخمس الأخير من سورة الطارق، وهي سورة مكية، آياتها (17) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود القسم في مطلعها بالسماء والطارق، وهو النجم الثاقب الذي فسر بالنجوم الراديوية التي ترسل بموجاتها إلى الأرض فتطرق سماءها كما يطرق الطارق على الباب.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول أمور العقيدة، ومنها قضية البعث، وقضية صدق الوحي بالقرآن الكريم، وهما قضيتان استحال فهمهما على كثير من الناس، واستحال التصديق بهما على المنافقين من الكفار والمشركين والمتشككين عبر التاريخ..!!!.

وتبدأ سورة الطارق بقسم من الله ـ تعالى ـ وهو الغني عن القسم ـ بالسماء وبالطارق. وفي القسم بهما تفخيم لشأنهما، وذلك لدلالة كل منهما على عظيم قدرة الخالق الذي أبدعهما ـ سبحانه وتعالى ـ، ومن صور ذلك التفخيم السؤال الموجه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ماهية الطارق، ثم يأتي الجواب بأنه النجم الثاقب، وهو نجم يمثل مرحلة مهمة في نهاية حياة النجوم العملاقة يعرف باسم النجم النيوتروني، والنجوم النيوترونية هي نجوم قليلة الحجم، عالية الكثافة تدور حول محاورها بسرعات فائقة مصدرة سيولًا من الموجات الراديوية، تتتابع كالطرقات المتلاحقة التي تثقب صمت السماء، وتصل إلينا وهي تدق سماء الأرض بطرقاتها المتلاحقة. ومن النجوم الراديوية أشباه النجوم وهي حالة من حالات المادة في أرق صورها، ترسل إلينا سيولاً من تلك الموجات الراديوية التي تثقب صمت السماء كذلك

وتصل إلى سماء الأرض بصوت الطرقات المتلاحقة ومن هنا كانت أيضاً من النجوم النوابض الطارقة.

ويأتي جواب القسم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ **(الطارق: 4)**، أي أن الله ـ تعالى ـ قد جعل على كل نفس رقيباً حافظاً من الملائكة يحفظها، ويحفظ عنها، ويحصي عليها كل ما تعمل من خير أو شر، في مراقبة دائمة دائبة، لا تتخلف، ولا تتوقف أبداً، حتى يتأكد الإنسان من أنه محاسب لا محالة، وأن أعماله محصية عليه بدقة، وأنه سوف يجزى عليها الجزاء الأوفى.

ثم تستمر الآيات بتذكير الإنسان بضرورة النظر في أول نشأته حتى يعرف فضل الله ـ تعالى ـ عليه فلا يكفر، ويعرف قدر نفسه فلا يتكبر ولا يتجبر، ويؤمن بأن الذي أنشأه من ماء مهين قادر على إفنائه، وقادر كذلك على بعثه بعد موته، وعلى محاسبته وجزائه الجزاء الأوفى، وفي ذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ **(الطارق: 5)** ويأتي جواب الاستفهام ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ **(الطارق: 6، 7)** ويأتي بعد ذلك القرار الإلهي القاطع: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ **(الطارق: 8)**.

أي أن الله ـ تعالى ـ الذي أبدع خلق الإنسان من ماء مهين، يتدفق أصلاً من بين الصلب والترائب قادر على إماتته، وعلى إعادة بعثه، أي إرجاعه إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت؛ ليقف بين يدي خالقه ومبدعه يوم القيامة فرداً، بغير أدنى قوة ذاتية فيه يمكنه أن يمتنع بها، ولا ناصر يمكنه أن ينتصر به، يقف مقراً بكل فعل فعله، وكل مال اكتسبه أو أنفقه، وكل كلمة تفوه بها، ثم يلقى جزاءه العادل في هذا العرض الأكبر أمام الله، في يوم تكشف فيه كل مكنونات الصدور، ويعلن عن جميع ما يكون قد أخفى فيها من العقائد والنيات، ويصف الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذا اليوم بقوله:

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ **(الطارق: 9، 10)**

ثم تستطرد الآيات بقسم آخر يقول فيه ربنا ـ عز من قائل ـ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، ويأتي جواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ **(الطارق: 13، 14)**، أي أن هذا القول بالقرآن، الناطق بالبعث بعد الموت وبغير ذلك من أمور الغيب هو قول فاصل بين الحق والباطل، وهو قول جاد، حاسم لا هزل فيه، وفي ضوء هذا القول القاطع الحاسم الجازم يتجه الخطاب في ختام هذه السورة الكريمة إلى رسول الله ﷺ مباشرة، وإلى من معه من صحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، مثبتاً ومطمئناً إياهم وهم يعانون مكابدة الكافرين والمشركين من أهل مكة (كما نكابد اليوم

من غطرسة أهل الكفر واستكبارهم) منذراً ومعلناً بأن الله تعالى قادر على أن يقابل كيدهم البشري الهزيل بكيد رباني متين، لا يستطيعون له دفعاً ولا منعاً، والله على كل شيء قدير، يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وما ذلك على الله بعزيز، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾؛ أي لا تستعجل عقابهم، وانتظر أمر الله فيهم، فسوف يريكم فيهم عجباً، كما نطمع أن يرينا في أهل الكفر والشرك والضلال في زماننا عجبا إن شاء.. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 21).

وهنا يبرز السؤال المهم: لماذا أقسم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالسماء ذات الرجع وبالأرض ذات الصدع؟ وما هي الأهمية التي جعلت من كل منهما مادة لهذا القسم الإلهي، والله ـ تعالى ـ غني عن القسم؟

وقد سبقت الإجابة عن الشطر الأول من القسم في كتابنا الأول عن السماء، ونركز هنا على الشطر الثاني من القسم: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ وقبل الخوض في ذلك لابد لنا من استعراض شروح المفسرين السابقين لهذا القسم القرآني الجليل.

من أقوال المفسرين في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾

• أشار ابن كثير ـ يرحمه الله ـ إلى قول ابن عباس رضي الله عنهما بأنه: هو انصداعها عن النبات، وذكر أن كلاً من ابن جرير وعكرمة والضحاك والحسن، وقتادة، والسدي ـ عليهم جميعاً رحمة الله ورضوانه ـ قالوا به، كما قال به غيرهم؛ ومنهم صاحبا تفسير الجلالين ـ يرحمهما الله ـ اللذان قالا: هو الشق عن النبات، ولكن صاحب الظلال ـ يرحمه الله ـ قال: والصدع: النبت يشق الأرض وينبثق، ووافقه في ذلك صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ يرحمه الله ـ، إذ ذكر ما نصه: «ذات الصدع»؛ أي ذات النبات، لتصدعها وانشقاقها عنه، وأصل الصدع: الشق، وأطلق على النبات مجازاً، والنبات في الأرض إنما يكون بسبب المطر النازل من السماء. أقسم الله بهما على أحقية القرآن الناطق بالبعث...».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ورحم من مات منهم ـ: «أقسم بالسماء ذات المطر الذي يعود ويتكرر، وبالأرض ذات الانشقاق عن النبات الذي يخرج منها».

• وكذلك أشار صاحب صفوة التفاسير ـ بارك الله فيه ـ إلى قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ ما نصه: «أي وأقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار...».

ومن هذا العرض يتضح إجماع المفسرين قدامى ومعاصرين على أن القسم بالأرض ذات الصدع يشمل انصداعها عن النبات، أو يعني نبات الأرض ذاته؛ بمعنى: أن الصدع هو النبت يشق الأرض، وينبثق منها.

الأرض ذات الصدع في منظور العلوم الكونية

(الصدع) لغة هو الشق في الأجسام الصلبة، يقال: (صدعه) (فانصدع) وبابه قطع. و (صَدَّعته) (فتصدَّع)، وعنه استعير (صَدَع) الأمر أي فصله، و (صَدَع) بالحق تكلم به جهاراً. و (تصدَّع) القوم أي تفرقوا. و (الصدع) علمياً هو كسر في الأرض تتحرك الأرض على جانبي مستواه حركة أفقية، أو رأسية أو مائلة.

ومن المعاني الصحيحة التي فهمها الأولون من القسم القرآني بالأرض ذات الصدع معنى انصداعها عن النبات، أي انشقاقها عنه وهو صحيح، ولكن لما كانت لفظة (الأرض) قد جاءت في القرآن الكريم بمعنى التربة التي تغطي صخور اليابسة، وبمعنى كتل اليابسة التي نحيا عليها، وبمعنى كوكب الأرض كوحدة فلكية محددة، فإن القسم القرآني بالأرض ذات الصدع لا بد وأن يكون له دلالة في كل معنى من معاني كلمة الأرض كما نجده في الشرح التالي:

أولاً: انصداع التربة عن النبات:

تربة الأرض تتكون عادة من معادن الصلصال المختلطة أو غير المختلطة بالرمل، وهي معادن دقيقة الحبيبات (أقطارها أقل من 0,004 من المليمتر) وتتركب أساساً من سيليكات الألومنيوم على هيئة راقات متبادلة من كل من السيليكا (ثاني أكسيد السيليكون) والألومينا (ثالث أكسيد الألومنيوم) مع عناصر أخرى كثيرة، ويحمل كل راقٍ على سطحه شحنة كهربائية موجبة أو سالبة على حسب نوع الصلصال المركب منه.

والصلصال من المعادن الغروية. والمواد الغروية لها قدرة على الانتشار في غيرها من المواد نظراً لدقة حبيباتها، كما أن لها القدرة على تشرب الماء والالتصاق بأيونات العناصر؛ ولذلك فإنه عند نزول الماء على التربة أو عند ريها بكميات مناسبة من الماء فإن ذلك يؤدي إلى انتفاشها وزيادة حجمها، فتهتز حبيباتها، وتربو إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق لتفسح طريقاً سهلاً لكل من الجذير المندفع إلى أسفل، والسويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة إلى أعلى حتى تتمكن من اختراق التربة بسلام وتظهر على سطح الأرض مستمرة في النمو لتعطي باقي أجزاء النبات.

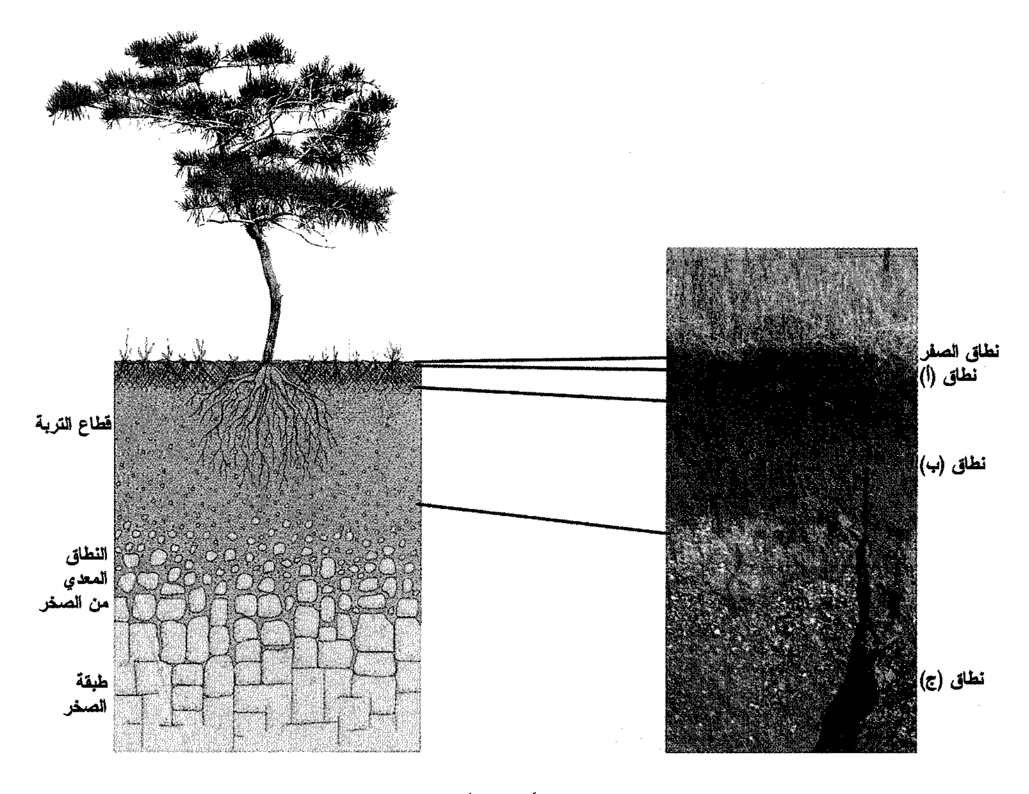
واهتزاز التربة بنزول الماء عليها له أسباب أخرى غير زيادة حجم حبيباتها بالتميؤ، ومن ذلك القطبية المزدوجة لجزيء الماء، ووجود الشحنات الكهربائية المتشابهة على أسطح الحبيبات، مما يؤدي إلى تنافرها، وتباعد الحبيبات عن بعضها البعض وعن جزيئات الماء المتسربة بينها، في حركة اهتزازية لا يمكن إيقافها إلا بتعادل تلك الشحنات بواسطة شحنات مخالفة ناتجة عن تأين أملاح التربة في ماء الري، ومنها دفع جزيئات الماء لحبيبات التربة في كل الاتجاهات لتفسح مكاناً لخزن المياه بين تلك الحبيبات، ومنها دفع جزيئات الهواء المختزن بين حبيبات التربة بواسطة الماء الذي يحل محله باستمرار حتى يطرده بالكامل، وكلما زادت كمية المياه المختزنة في التربة حجماً زاد انتفاشها، وأدى ذلك إلى زيادة حجمها، فكل حبة من حبات التربة لها القدرة على التشرب بالماء، وحمله على سطحها، واختزانه في المسافات بينها وبين ما حولها من حبيبات؛ وبذلك يتم التبادل بين الأيونات المختلفة على أسطح حبيبات التربة والأيونات المذابة في الماء المحفوظ بينها ليستفيد النبات من أيونات العناصر المغذية له في التربة بعد تحللها بواسطة الأنزيمات الخاصة التي تفرزها الجذيرات المندفعة إلى أسفل من البذرة النابتة. ولولا خاصية انصداع التربة عند نزول الماء عليها أو ريها ما أنبتت الأرض على الإطلاق، ومن هنا كان ذلك وجهاً من أوجه القسم بالأرض ذات الصدع لأهميته البالغة في إعمار الأرض بالنبات وجعلها صالحة للحياة.

ثانياً: تصدع صخور اليابسة:

نتيجة لتعرض صخور قشرة الأرض للإجهاد بالشد أو بالتضاغط، فإنها تتكسر بواسطة مجموعات من الفواصل المتوازية والمتقاطعة على هيئة شقوق في قشرة الأرض، تمزق صخورها إلى كتل متجاورة دون حدوث قدر ملحوظ من الحركة على جوانب مستويات تلك الشقوق. كذلك تحدث الفواصل نتيجة لعمليات التعرية التي تقوم بإزاحة كميات كبيرة من الصخور الظاهرة على سطح الأرض، بما يعين على تخفيف الضغط عن الصخور الموجودة أسفل منها وبالتالي تخفيف شدة الإجهاد الذي كانت تعاني منه تلك الصخور فتستجيب بالتمدد وتتشقق على هيئة كسور تفصل أجزاء الصخور إلى كتل متجاورة دون حدوث حركة ملحوظة عبر تلك الفواصل.

وغالبية فواصل الأرض تقع في مجموعات متوازية ومتقاطعة في اتجاهين أو أكثر وإن كان بعضها قد لا يكون له اتجاه محدد، وأغلبها قليل العمق.

وتحدث فواصل قشرة الأرض كذلك نتيجة لتبرد الصهارة الصخرية المندفعة من باطن

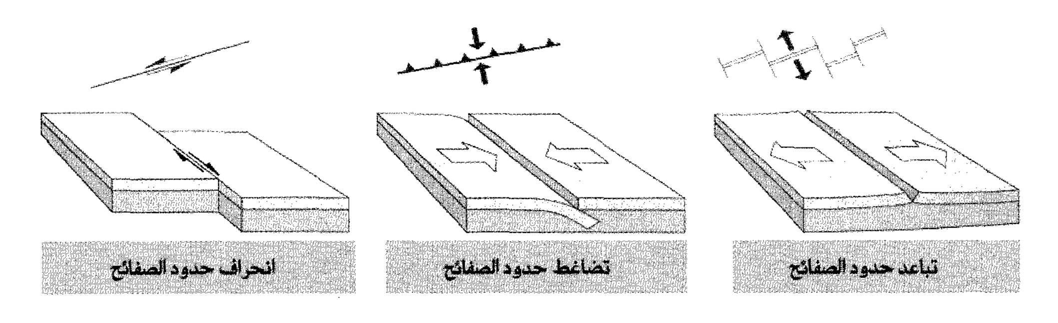


انصداع التربة بإنزال الماء عليها يفسح طريقاً سهلاً للنبتة المنبثقة من داخل البذرة النابتة كي تظهر سويقتها إلى ما فوق الأرض ويندفع مجموعها الجذري إلى أعماق التربة

الأرض قريباً من سطحها أو إلى سطحها على هيئة متداخلات نارية أو طفوح بركانية.

ولتكوّن فواصل قشرة الأرض حكمة بالغة، فهي خطوة مهمة لتجوية الصخور وتعريتها حيث أن تلك الفواصل والشقوق والصدوع تعمل كممرات لعوامل التعرية المختلفة إلى داخل الصخور. وبالتالي فإنها تعمل على تكوين كل من تربة الأرض وغيرها من الرسوبيات، والصخور الرسوبيّة، وبغير التربة لم تكن زراعة الأرض ممكنة، وبغير الصخور الرسوبية لم يتكون النفط ولا الغاز الطبيعي، ولا العديد من الثروات الترسيبية مثل الفحم، الفوسفات، المتبخرات وغيرها. كذلك فإن توزيع فواصل الغلاف الصخري للأرض قد يحدد مواقع لعدد من الركازات المعدنية المهمة مثل الذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص، والقصدير وغيرها، كما قد يعين في تحديد مجاري بعض الأنهار، أو تكوين بعض الكهوف وحفر الإذابة في الصخور، وفي شق الفجاج والسبل وسط الجبال والهضاب وغيرها من مرتفعات الأرض.

أما صدوع الأرض فهي كسور في قشرتها، يتم عبرها تحرك صخورها على جانبي مستوى الصدع حركة أفقية، أو رأسية، أو مائلة بدرجة ملحوظة، وتتباين أبعاد تلك الصدوع تبايناً كبيراً، فمنها ما لا يرى بالعين المجردة، ولا تكاد الحركة عبر مستواه أن تدرك، ومنها ما يمتد لعشرات الكيلومترات، وتبلغ الحركة عبر مستواه إلى آلاف الأمتار.



بعض نماذج صدوع الأرض التي تقسم غلافها الصخري إلى عدد من الألواح أو الصفائح المتباعدة عن بعضها البعض أو المصطدمة مع بعضها البعض

ومن هذه الصدوع ما يتكون نتيجة لشد صخور الأرض في اتجاهين متعاكسين، ومنها ما يتكون نتيجة للتضاغط في اتجاهين متقابلين، كما أن منها ما يتكون نتيجة انزلاق كتل الصخور عبر بعضها البعض. وتحرك صدوع الأرض النشطة يحدث عدداً من الهزات الأرضية، أما الصدوع القديمة فقد أصبح أغلبها خاملاً بلا حراك.

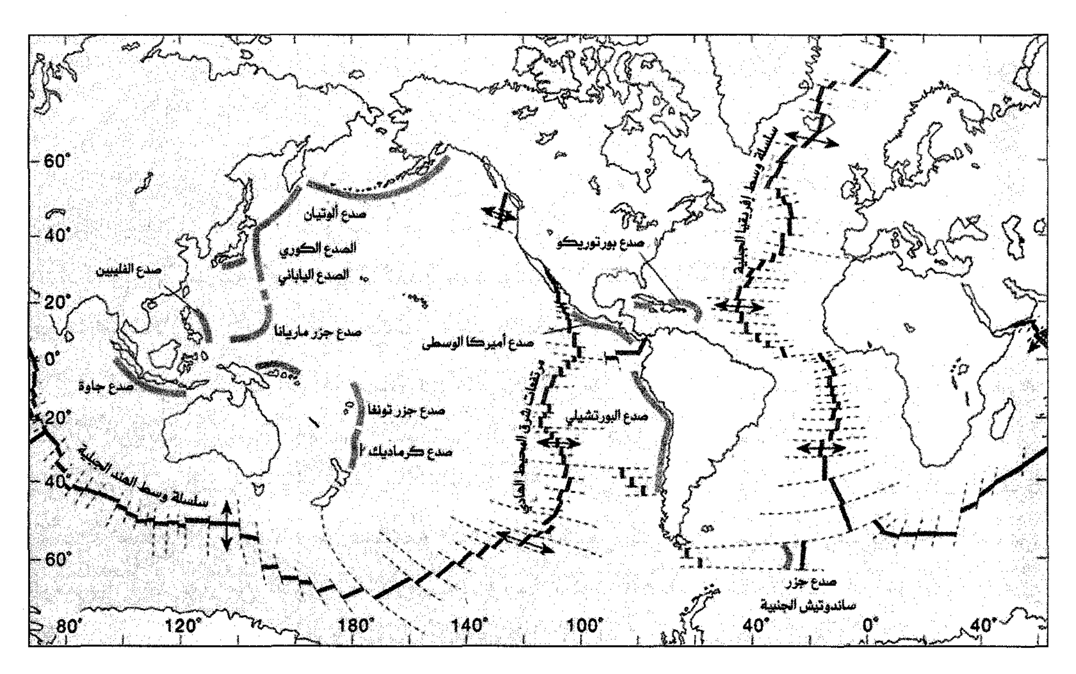
ولصدوع الأرض أهمية بالغة لأنها تمثل ممرات طبيعية بين باطن الأرض وسطحها، تتحرك عبرها الأبخرة والغازات المحملة بالثروات المعدنية، كما تتحرك المتداخلات النارية والطفوح البركانية المحملة كذلك بمختلف الصخور والمعادن الاقتصادية المهمة وبالعناصراللازمة لتجديد ثراء صخور وتربة سطح الأرض.

والصدوع تلعب أدواراً مهمة في تكوين كل من النتوءات والخسوف الأرضية، وعبرها تتكون الينابيع المائية، وبعض المكامن البترولية، كما تعين عمليات التعرية المختلفة في شق الفجاج والسبل، وفي تكوين الأودية والمجاري المائية، وفي جميع عمليات التعرية وتسوية سطح الأرض. وما يستتبعه ذلك من تكوين كل من التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من الثروات الأرضية. وكما تكون الصدوع عاملاً من عوامل الهدم على سطح الأرض فإنها قد تكون عاملاً من عوامل البناء تبني الجبال والتلال والهضاب، كما تبنى الأحواض، والأغوار، وتكون الخسوف الأرضية.

ثالثاً : تصدع الغلاف الصخري للأرض:

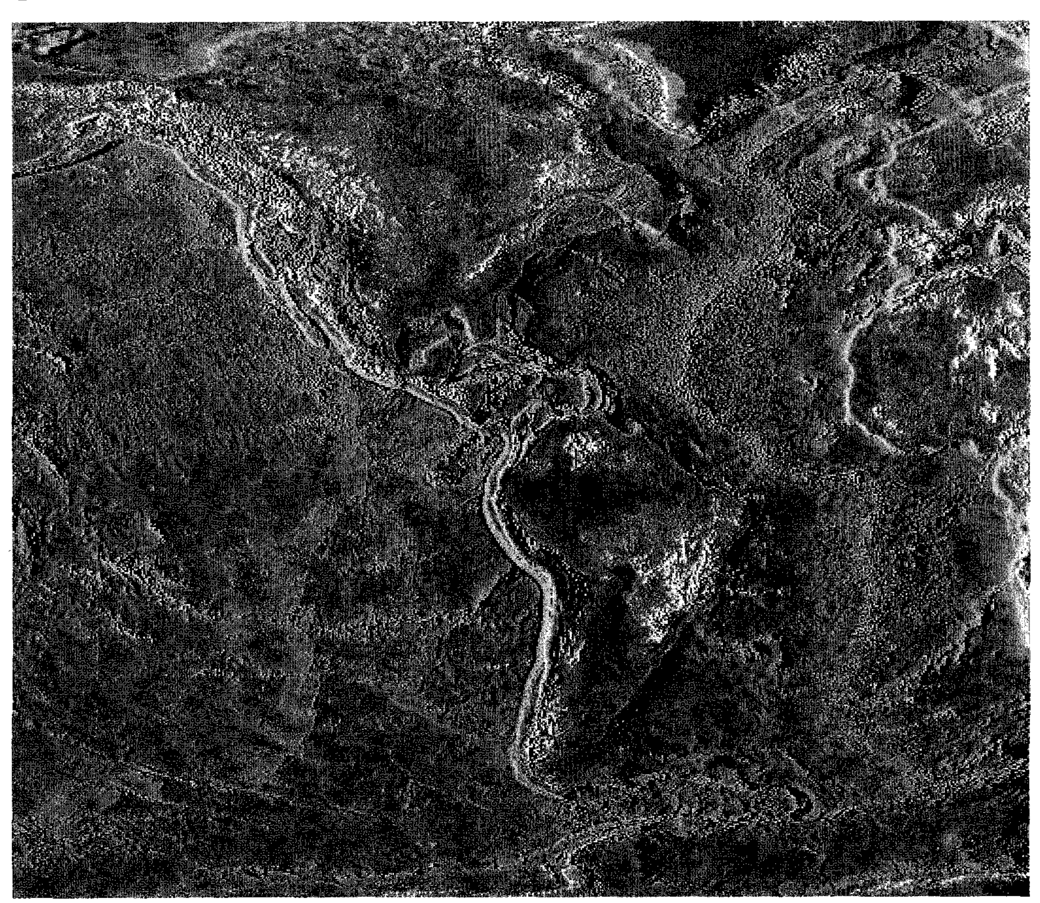
على الرغم من التعرف على عدد من أودية الخسف والصدوع العملاقة على سطح الأرض منذ زمن بعيد، إلا أن العلماء قد اكتشفوا في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الأودية الخسيفة والصدوع العملاقة التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة يشبهها العلماء باللحام على كرة التنس، وتمتد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات في جميع الاتجاهات بأعماق تتراوح بين 65 و70 كيلومتراً تحت قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها، وبين 100، 150 كيلومتراً تحت القارات، ممزقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم «ألواح الغلاف الصخري للأرض». وتطفو هذه الألواح الصخرية فوق نطاق الضعف الأرضي؛ وهو نطاق لدن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة وتنطلق فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى حيث تتبرد وتعاود النزول إلى أسفل فتدفع معها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة عن بعضها البعض في إحدى حوافها، ومصطدمة مع بعضها البعض عند الحواف المقابلة، ومنزلقة عبر بعضها البعض عند بقية الحواف.

وينتج عن هذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرض عدد من الظواهر الأرضية



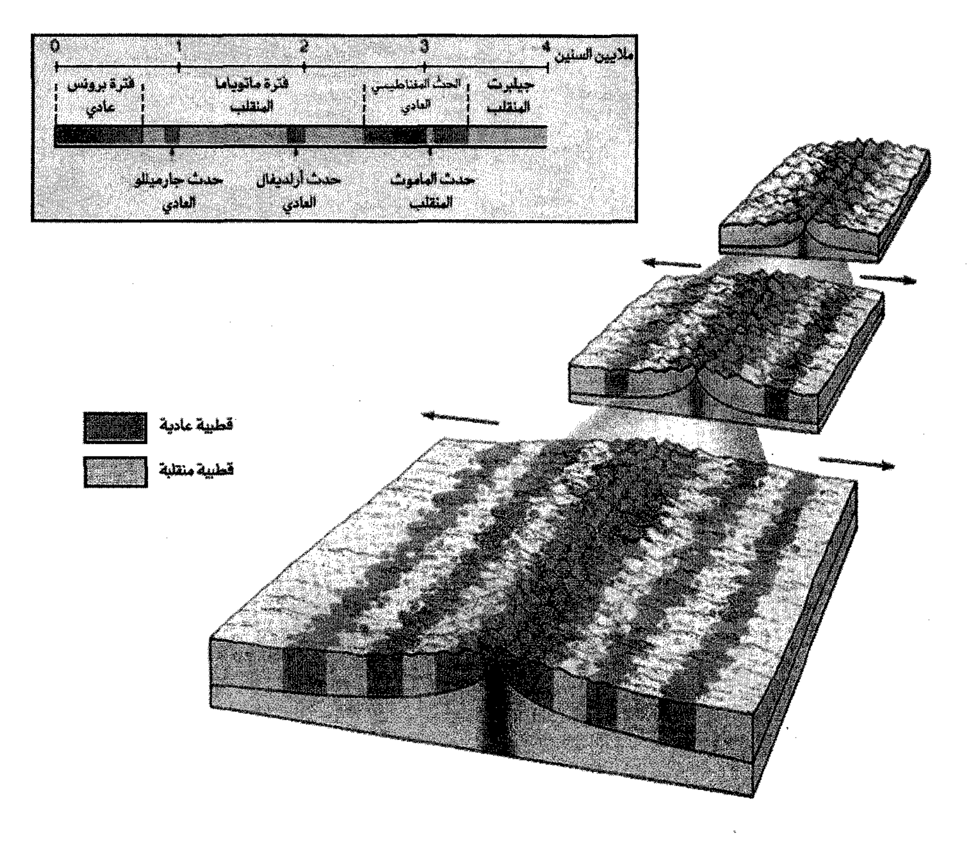
خارطة للعالم توضح صدوع الأرض

المهمة التي منها: اتساع قيعان البحار والمحيطات، وتجدد صخورها باستمرار عند حواف التباعد، وتكون سلاسل من جبال أواسط المحيطات ومن الجزر البركانية، ومنها تتكون السلاسل الجبلية عند حواف التصادم حيث يستهلك قاع المحيط تحت كتلتي القارتين المتصادمتين واللتين كانتا على حدود المحيط الذي كان يفصلهما. وتصاحب العمليتان بالهزات الأرضية وبكم هائل من الطفوح البركانية، وبتكون أعلى السلاسل الجبلية مثل جبال الهيمالايا وبها قمة إفرست أعلى قمم الأرض. ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من 64000 كيلومتراً، وهي تتكون أساساً من الصخور البركانية المختلطة بقليل من الرواسب البحرية، وتحيط بالصدوع العملاقة. ومع تجدد صعود الطفوح البركانية عبر هذه الصدوع العملاقة المكونة للوادي الخسيف في وسط سلسلة الجبال البحرية، يتجدد قاع



رسم يوضح تصدع قيعان المحيطات بشبكة متصلة من الصدوع وتكوّن سلاسل جبال أواسط تلك المحيطات (حيود أواسط المحيطات)

المحيط بأحزمة حديثة من الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الوادي الخسيف، ويهبط كل نصف من نصفي قاع المحيط تحت القارة المقابلة له بنصف معدل اتساع قاعه عند وسطه، وبذلك تكون أحدث صخور قاع المحيط حول محوره الوسطي، وأقدمها عند هبوط قاع المحيط تحت كتل القارتين المحيطتين به.



مراحل اتساع قيعان المحيطات عبر ملايين السنين

وهذه الحركة لألواح الغلاف الصخري للأرض كانت سبباً في زحف القارات، وتجمعها، وتفتتها بصورة دورية، فيما يعرف باسم «دورة القارات والمحيطات»، وفيها قد تنقسم قارة ببحر طولي ـ مثل البحر الأحمر ـ إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان عن بعضهما البعض باتساع قاع البحر الفاصل بينهما حتى يتحول إلى محيط، كما قد يستهلك قاع محيط بالكامل تحت إحدى القارات بدفع كتلة أرضية له تحت تلك القارة حتى يصطدما مكونين أعلى سلاسل جبلية على سطح الأرض، كما حدث في اصطدام الهند بالقارة الآسيوية،

وتكون سلسلة جبال الهمالايا، وبها قمة إفرست أعلى قمة جبلية على سطح الأرض.

وهذه الصدوع العملاقة ـ المكونة للأودية الخسيفة ـ التي تحيط بالكرة الأرضية إحاطة

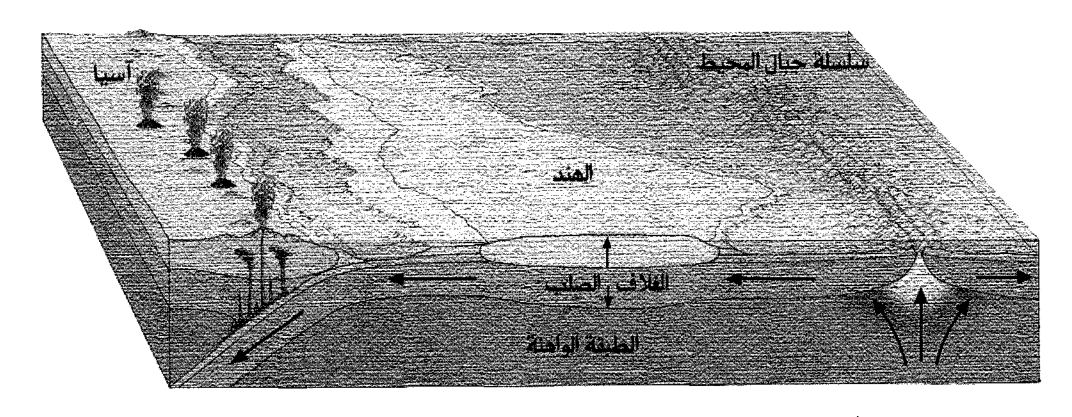


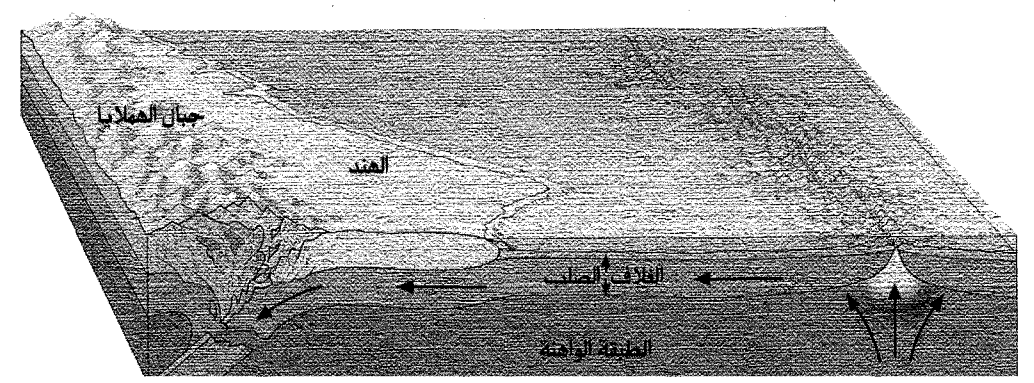
صورة للبحر الأحمر الذي يقسم القارة إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان بفعل اتساعه

كاملة بعمق يتراوح بين65 كيلومتراً، و150 كيلومتراً، وبطول يقدر بعشرات الآلاف من الكيلومترات في كل الاتجاهات، هي مراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة أو مصطدمة أو منزلقة عبر بعضها البعض. وهذه الصدوع تعمل كممرات طبيعية للحرارة المختزنة في داخل الأرض، والناتجة عن تحلل العناصر المشعة فيها، ولولا هذه الشبكة من الصدوع لانفجرت الأرض.

وعبر هذه الشبكة المتصلة من الصدوع العملاقة تندفع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية على هيئة طفوح بركانية تثري سطح الأرض بالعديد من الصخور والمعادن النافعة، وتجدد شباب التربة الزراعية، وتكون مراكز مهمة لاستغلال الحرارة الأرضية.

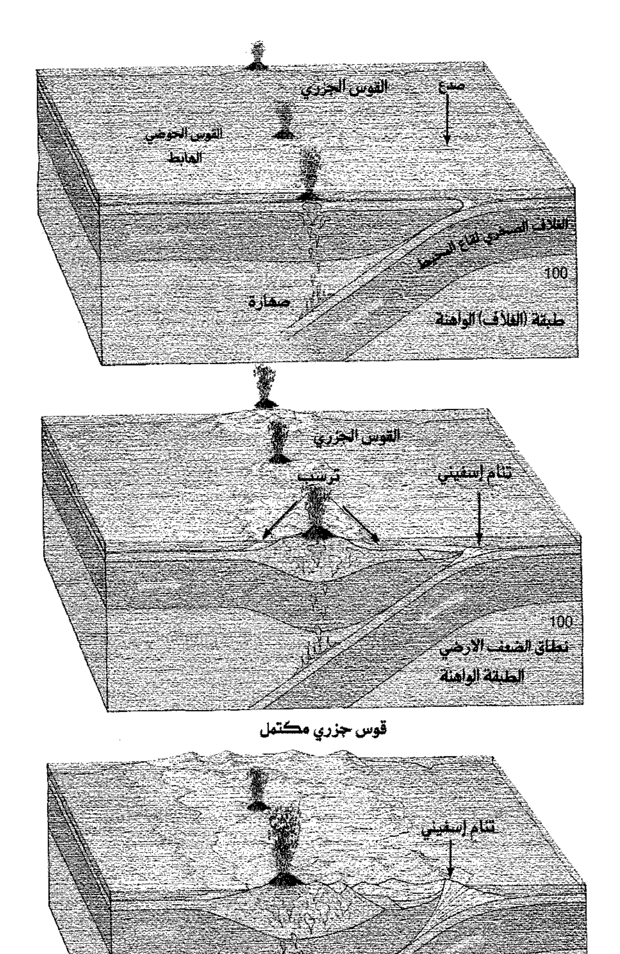
وعبر هذه الصدوع العملاقة وما صاحبها من فوهات البراكين، انطلقت الغازات والأبخرة التي كونت غلافي الأرض المائي والغازي، ولا تزال تنطلق لتجددهما، وخلال





رسم تخطيطي يوضح تكوّن جبال هيمالايا بتصادم الهند بالقارة الآسيوية عبر ملايين السنين

تلك العملية تفقد الأرض من كتلتها إلى فسحة السماء بعضاً من مادتها وطاقتها تتناسب مع ما تفقده الشمس من كتلتها على هيئة طاقة حتى تظل المسافة بين الأرض والشمس ثابتة، لا تنقص فتحرقنا أشعة الشمس، أو تبتلعنا (ودرجة حرارة لبها 15 مليون درجة مطلقة)، ولا تزيد من بعدنا عن الشمس فتجمد وتتجمد الحياة من حولنا، أو تنفلت الأرض من عقال جاذبية الشمس فتضيع في فسحة الكون الشاسع. ليس هذا فقط؛ بل إن الغلاف الصخري للأرض قد تكوّن أيضاً عبر تلك الصدوع العملاقة؛ وذلك لأن الكثير من الشواهد الأرضية تشير إلى أن الغلاف الصخري الأول للأرض كان مكوناً من صخور البازلت الشبيهة بصخور قيعان البحار والمحيطات الحالية، وبالصخور المندفعة عبر الصدوع التي تمزقها، وأن الأرض كانت مغطاة بالمياه على هيئة محيط غامر واحد،



الصهارة البركانية تجدد شباب صخور الغلاف الصخري للأرض

وبواسطة النشاط البركاني فوق قاع هذا المحيط الغامر تكونت أولى المرتفعات فوق قاعه على هيئة عدد من السلاسل الجبلية في وسط هذا المحيط الغامر، وارتفعت قمم بعض تلك الحيود المحيطية لتكون عدداً من الجزر البركانية، ومع تحرك تلك الجزر البركانية في اتجاه بعضها البعض تصادمت لتكون نوى عدد من القارات التي نمت بتصادمها مع بعضها لتكون قارة واحدة عرفت باسم القارة الأم **(Mother Continent)** أو أم القارات

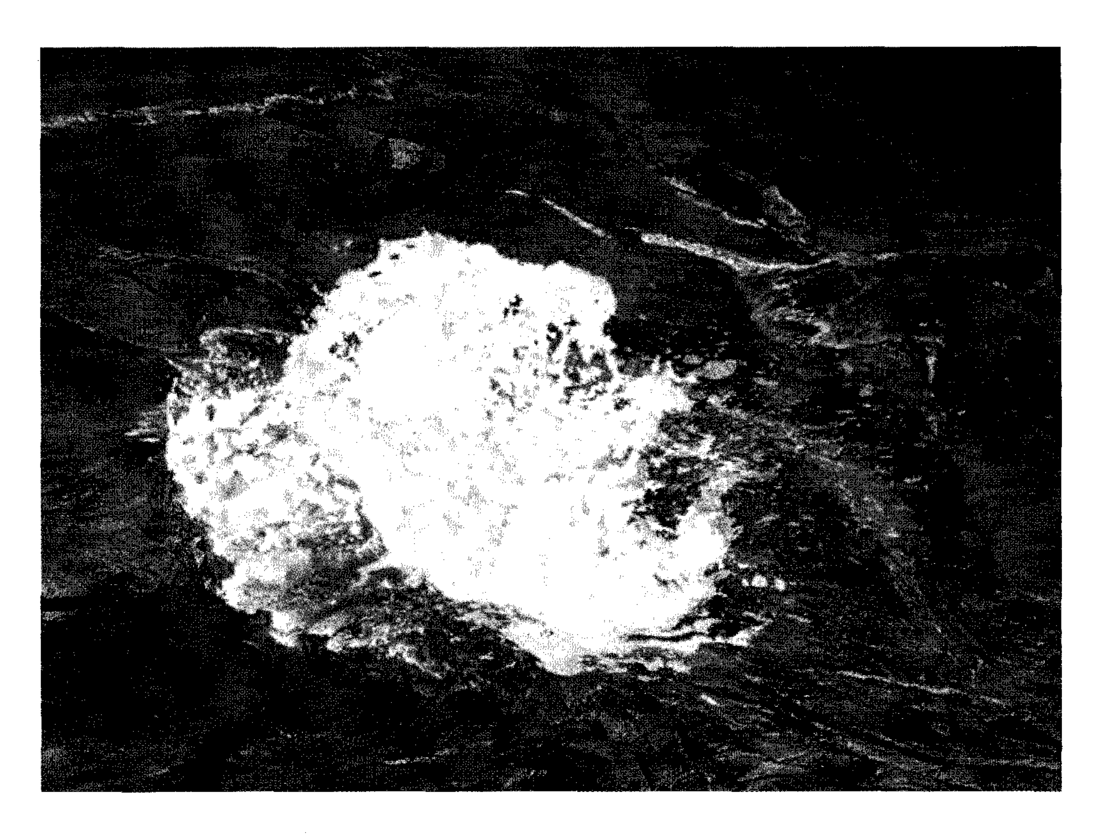
(Pangaea) التي ما لبثت أن تفتتت بفعل ديناميكية الأرض وصدوعها العملاقة إلى القارات السبع الحالية التي ظلت تتباعد عن بعضها حتى وصلت إلى مواقعها الحالية، وهي لا تزال تتحرك بالتباعد.

وعبر صدوع الأرض العملاقة تكونت القشرة القارية بتركيبها الذي تغلب عليه الصخور الجرانيتية، وأثريت تلك القشرة ـ ولا تزال تثرى ـ بمختلف العناصر والمركبات على هيئة العديد من المعادن والركازات ذات القيمة الاقتصادية، وتكونت السلاسل الجبلية التي تثبت بأوتادها كتل القارات في قيعان البحار والمحيطات، أو تثبت قارتين ببعضهما البعض بعد استهلاك قاع المحيط الفاصل بينهما تحت إحداهما. ومع تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض ثارت البراكين ورجفت الأرض بالزلازل، وتحركت دورات الماء والهواء، والصخور، وعوامل التعرية، وتكونت التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما تختزنه من الثروات الأرضية، وأصبحت الأرض صالحة لعمرانها بالحياة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها توجد أيضاً على اليابسة، وتعمل على تكوين بحار طولية شبيهة بالبحر الأحمر لتفتيت اليابسة إلى عدد أكبر من القارات وأشباه القارات. وتحاط تلك الصدوع القارية بعدد من الجبال البركانية العالية من مثل جبل أرارات في شرق تركيا (5100 م فوق مستوى سطح البحر) ومخروط بركان إتنا في شمال شرقي صقلية (3300 م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان فيزوف في خليج نابلي بإيطاليا (1300 م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كيليمنجارو في تنجانيقا (5900 م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كينيا في جمهورية كينيا (5100 م فوق مستوى سطح البحر).

فسبحان الذي وصف الأرض من قبل ألف وأربعمائة سنة بأنها ذات صدع؛ لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين (65)، (150) كيلومتراً، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل ببعضها البعض وكأنها صدع واحد.

وسبحان الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة تفخيماً لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهاراً للعلماء، وأشدها لزوماً لجعل الأرض كوكباً صالحاً للعمران بالحياة، فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض، ولا يزالان يتجددان. وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولي للأرض فتكونت الجزر البركانية، والقارات والسلاسل الجبلية، وتجددت قيعان



النشاط البركاني في قاع المحيطات هو السبب الرئيسي في تكوين القارة الأم

المحيطات ولا تزال تتجدد، وتزحزحت القارات ولا تزال تتحرك، وتبادلت اليابسة والمحيطات، وثارت البراكين لتخرج قدراً من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تتواجد تلك الصدوع العملاقة، وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مع هذه الثورات البركانية، ونشطت ديناميكية الأرض، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبال، ولا تزال ديناميكية الأرض تحرك ذلك كله بأمر الله الخالق ﷻ.

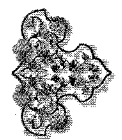
وهنا نرى في صدوع الأرض أبعاداً ثلاثة: بعداً لا يتعدى بضعة ملليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعداً آخر في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعداً ثالثاً في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساساً في قيعان المحيطات، كما توجد في بعض أجزاء اليابسة على هيئة أغوار سحيقة تتراوح أعماقها بين 100 كيلومتراً، و 150 كيلومتراً، وتقل هذه الأعماق تحت قيعان البحار والمحيطات إلى ما يتراوح بين (65) كيلومتراً، (70) كيلومتراً، وتمتد

لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة على هيئة صدع واحد، ونرى أهمية كل بعد من هذه الأبعاد في تهيئة الأرض للعمران، ومن هنا كانت روعة الإشارة القرآنية إلى حقيقة ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾.

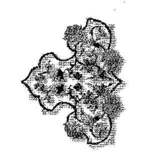
ومن هنا أيضاً كانت ومضة الإعجاز العلمي في القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة، والعلم الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحقيقة إلا في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين. ولم يكن لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام بتلك الحقيقة الأرضية، أو إدراك لشيء من جوانبها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لها قبل ألف وأربعمائة من السنين غير الله الخالق ﷻ.

وهذا السبق القرآني بالإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية وإلى غيرها من الحقائق الكونية هو ما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ، الذي أوحى إليه القرآن، كان دوماً موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى كل من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، اللهم آمين آمين آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

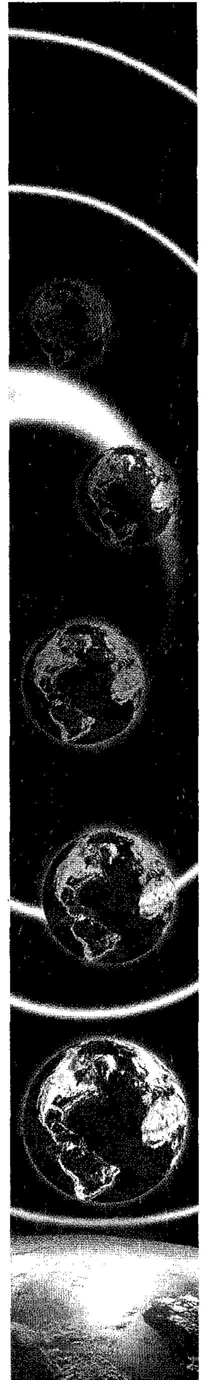
بسم الله الرحمن الرحيم



(7) ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾



(الطور: 6)



ضمن قسم بخمس من آيات الله في الخلق على حتمية وقوع العذاب بالمكذبين بالدين الخاتم، وعلى أنه لا دافع أبداً لهذا العذاب عنهم، جاء هذا القسم القرآني العجيب في مطلع سورة الطور، وسورة الطور مكية، وعدد آياتها (49) بعد البسملة. ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة بأبعادها المختلفة من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وبالبعث والجزاء، وبالخلود في الآخرة، إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً. شأنها في ذلك شأن كل السور التي أنزلت بمكة المكرمة.

وتبدأ السورة بعد هذا القسم، بمشهد من مشاهد الآخرة فيه استعراض لحال المكذبين برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهم يدفعون من ظهورهم إلى نار جهنم دفعاً، وقد كانوا من المكذبين بها...!!

ثم تنتقل الآيات إلى استعراض حال المتقين وهم يرفلون في جنات النعيم ثواباً لهم على الإيمان بالله وتقواه.

وتنتهي السورة بخطاب إلى النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ يحثه على المضي في دعوته إلى عبادة الله الخالق وحده، ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ مهما صادفه في ذلك من مصاعب في مواجهة الكم الهائل من مؤامرات المتآمرين، وكيد المكذبين وعنتهم، الذين يتهددهم الله ـ تعالى ـ بما سوف يلقونه من صنوف العذاب يوم القيامة، بل وبعذاب قبل ذلك في الحياة الدنيا.

ويأتي مسك الختام بمواساة وتعضيد لرسول الله ﷺ في صورة تكريم لم يسبق لنبي من الأنبياء، ولا لرسولٍ من الرسل أن نال

من الله ـ تعالى ـ تكريماً مثله، وذلك بقول الحق ﷻ موجهاً الخطاب إليه ﷺ:

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ **(الطور: 48، 49).**

والآيات الست التي سبق بها القسم في مطلع سورة الطور هي على التوالي: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ وهو الجبل المكسو بالأشجار، والجبل غير المكسو بالخضرة لا يقال له: طور، إنما يقال له: جبل إذا كان شاهق الارتفاع بالنسبة للتضاريس حوله، ويسمى: تلّاً إذا كان دون ذلك، وتليه الأكمة أو الربوة أو النتوء الأرضي، ويليه النجد أو الهضبة، ويلي ذلك السهل، من تضاريس الأرض.

والمقصود بالقسم القرآني بالطور هنا هو ـ على الأرجح ـ طور سيناء، الذي كلم الله ـ تعالى ـ عنده موسى عليه السلام والذي نزلت عليه الألواح. وأقسم الله سبحانه وتعالى بطور سيناء هذا تكريماً له، وتذكيراً للناس بما فيه من الآيات، والأنوار، والتجليات، والفيوضات الإلٰهية، مما جعله بقعة مشرفة من بقاع الأرض لاختيار الله ـ تعالى ـ له وتجليه عليه.

والآية الثانية التي جاء بها القسم هي ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾، وقيل فيه: إنه اللوح المحفوظ، وقيل: إنه القرآن الكريم الذي ختم الله (سبحانه) به وحي السماء، وقيل: هو التوراة التي تلقاها نبي الله موسى عليه السلام في الألواح التي أنزلت على جبل الطور، وقيل: هو إشارة إلى جميع الكتب التي أنزلها ربنا ﷻ على فترة من الرسل بلغ عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر كما أخبرنا المصطفى ﷺ؛ لأن أصلها واحد، ورسالتها واحدة. كذلك قيل: في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: (وكتاب مسطور) إنه: صحائف أعمال العباد.

والقسم الثالث جاء بالصيغة ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾، والرق هو: جلد رقيق يكتب فيه، وقد يشير إلى الورق الذي يكتب عليه وإلى الألواح التي ينقش فيها؛ لأن الرق هو كل ما يكتب فيه، والمنشور أي: المبسوط غير المطوي، وغير المختوم عليه، بمعنى أنه مفتوح أمام الجميع، يستطيعون قراءته أو الاستماع إليه بغير حجر أو منع مما يؤكد أن المقصود بقول ربنا تبارك وتعالى، (وكتاب مسطور) هو القرآن الكريم لأن القرآن الكريم يقرأه الخلق جميعهم، ويستمعون إليه بغير قيودٍ أو حدودٍ من أي نوع، وهكذا كانت الكتب السماوية التي سبقته بالنزول قبل ضياعها وتعرض ما بقي منها من ذكريات إلى التحريف والتبديل والتغيير، وفي النشر إشارة إلى سلامة القرآن الكريم من كل نقص وعيب.

وجاء القسم الرابع بصياغة ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾، وهو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة ـ أي: في مقابلتها إلى أعلى وعلى استقامتها تماماً، وهو ـ أيضاً ـ حيال

العرش إلى أسفل منه وعلى استقامته، تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً منهم ثم لا يعودون إليه كما روى ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، وهو لأهل السماء كالكعبة المشرفة لأهل الأرض، ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «**فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملكٍ إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم**».

ويروى عنه ﷺ وصفاً مشابهاً للبيت المعمور في حديث الإسراء والمعراج، كما جاء في الصحيحين[1].

وجاء القسم الخامس بصياغة ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ وفيه قيل: هو السماء القائمة بغير عمد مرئية، كما جاء على لسان الإمام علي ـ كرم الله تعالى وجهه ـ، ووافقه على ذلك كثير من المفسرين، وإن قال الربيع بن أنس: إنه العرش الذي هو سقف لجميع المخلوقات.

أما القسم السادس والذي جاء بصياغة ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ فقد تعددت آراء المفسرين فيه، كما سنرى في الأسطر القليلة التالية، ولكن قبل التعرض لذلك لا بد لنا من استعراض الدلالة اللغوية للفظي البحر والمسجور.

المدلول اللغوي للبحر المسجور

(**البحر**) في اللغة ضد البر، وقيل: إنه سمي بهذا الاسم لعمقه واتساعه، والجمع (**أبحر**) و(**بحار**) و(**بحور**)، وكل نهر عظيم يسمى بحراً؛ لأن أصل البحر هو كل مكان واسع جامع للماء الكثير، وإن كانت لفظة (البحر) تطلق في الأصل على الماء المالح دون العذب، كذلك سمَّت العرب كل متوسع في شيء (بحراً) حتى قالوا: للمتوسع في علمه (بحراً)، وللتوسع في العلم (تبحر)، وقالوا: فرس (بحر) أي: واسع الخطى، سريع الجري، وقيل: ماء بحر، أي: ملح (مالح)، و(أبحر) الماء أي: ملح، و(أبحر) الرجل أي: ركب البحر، و(بَحَرَ) أذن الناقة أي: شقها شقاً واسعاً فشبهها بسعة البحر على وجه المجاز والمبالغة، ومنها سميت البَحِيرَة؛ وهي: الناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها، وتطلق فلا تركب ولا يحمل عليها، والبحيرة ابنة السائبة وحكمها حكم أمها عند العرب في الجاهلية.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3207) و(الحديث: 3887) ومسلم في (الحديث: 415).

أما وصف البحر بصفة (**المسجور**) فالصفة مستمدة من الفعل (**سجر**) و(**السجر**) تهييج النار، يقال: (سجر) التنور أي: أوقد عليه حتى أحماه، و(**السجور**) هو ما يسجر به التنور من أنواع الوقود، كذلك يقال: (**سجر**) الماء النهر أي: ملأه، ومنه (**البحر المسجور**) أي: المملوء بالماء، المكفوف عن اليابسة، و(**الساجور**) خشبة تجعل في عنق الكلب فيقال له: كلب (مُسَوْجَر) أي: محكوم، و**المسوجر**: المغلق المحكم الإغلاق من كل شيء.

من شروح المفسرين

• في تفسير القسم القرآني بالبحر المسجور أشار ابن كثير ـ يرحمه الله ـ إلى قول الربيع بن أنس أنه: «هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها، أي: أنه بحر من ماء خاص محبوس عند رب العالمين، ينزله ﷻ يوم البعث فينبت كل مخلوق بواسطة هذا الماء من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من حبتها على ما روي عن رسول الله ﷺ من قول». وأضاف ابن كثير: «وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى المسجور فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ (**التكوير: 6**) أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف كما روي عن علي وابن عباس، وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور؛ لأنه لا يشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ يعني: المرسل، وقال قتادة: المسجور: المملوء، واختاره ابن جرير، وقيل: المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لِئلا يغمرها فيغرق أهلها، قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «**ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مراتٍ يستأذن الله أن ينفضح عليهم فيكفه الله عز وجل**».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ في شرح دلالة القسم القرآني ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ «. . . أي: المملوء، وذكرا أنه قول قتادة. وقالا: قال مجاهد: الموقد أي: الذي سيسجر يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾».

• وقال صاحب الظلال ـ يرحمه الله رحمة واسعة ـ كلاماً مشابهاً يشير إلى أن البحر المسجور هو المملوء بالماء في الدنيا، أو المتقد بالنار في الآخرة، أو أن هذا التعبير يشير إلى خلق آخر كالبيت المعمور يعلمه الله.

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ غفر الله له ـ في تفسير قول الحق ﷻ

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ ما نصه: «أي: المملوء ماء، يقال: سجر النهر: ملأه، وهو البحر المحيط، والمراد: الجنس، وقيل الموقد ناراً عند قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾؛ أي: أوقدت ناراً، من سجر التنور يسجره سجراً، أحماه، وصف البحر بذلك إعلاماً بأن البحار عند فناء الدنيا تحمى بنار من تحتها فتتبخر مياهها، وتندلع النار في تجاويفها وتصير كلها حمماً».

- وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ: «إن البحر المسجور هو المملوء».

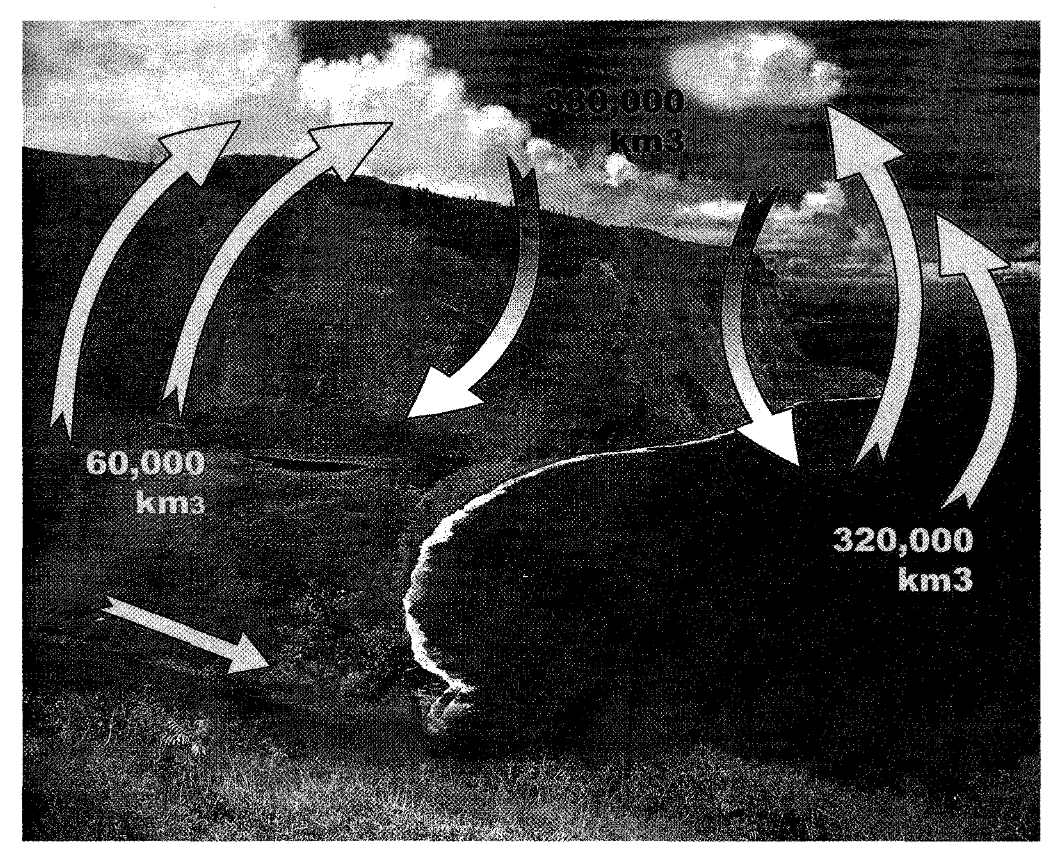
- وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ بارك الله في عمره ـ: «أنه الموقد ناراً يوم القيامة لقوله ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾؛ أي: أضرمت حتى تصير ناراً ملتهبة تتأجج وتحيط بأهل الموقف».

البحر المسجور في منظور العلوم الحديثة:

من المعاني اللغوية للبحر المسجور هو المملوء بالماء، والمكفوف عن اليابسة، وهو معنى صحيح من الناحية العلمية صحةً كاملةً كما أثبتته الدراسات العلمية في القرن العشرين، ومن المعاني اللغوية لهذا القسم القرآني المبهر أيضاً أن البحر قد أوقد عليه حتى حمي قاعه فأصبح مسجوراً، وهو كذلك من الحقائق العلمية التي اكتشفها الإنسان في العقود المتأخرة من القرن العشرين، والتي لم يكن لبشر إلمام بها قبل ذلك أبداً، وهذا ما نفصله في الأسطر التالية:

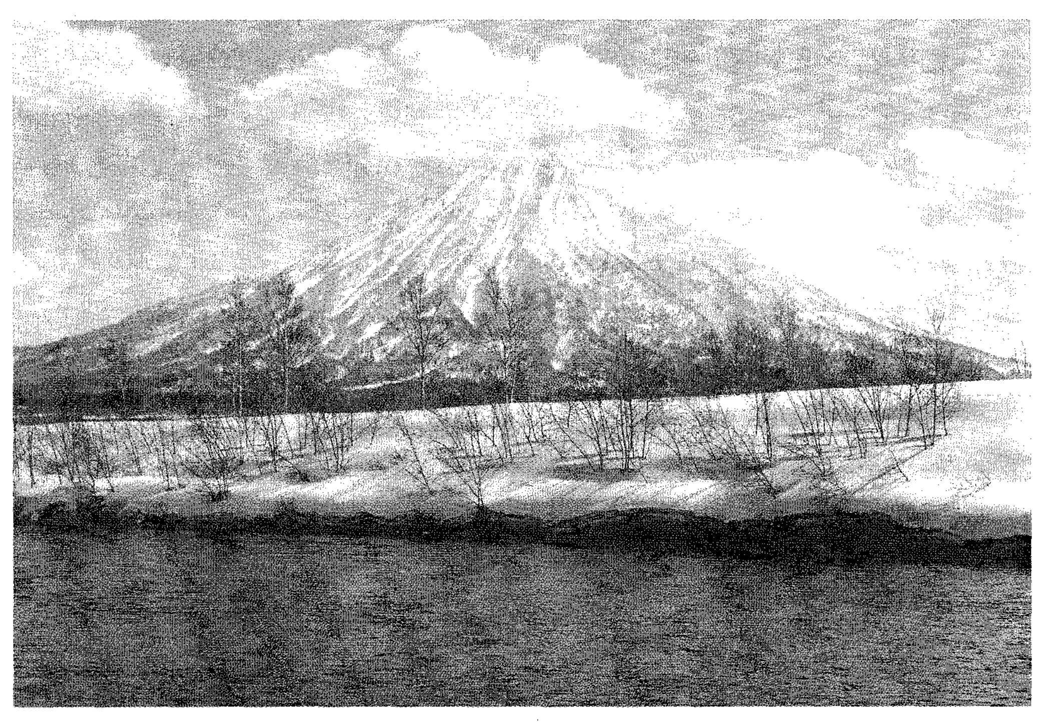
أولاً: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ بمعنى المملوء بالماء والمكفوف عن اليابسة:

الأرض هي أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته بحوالي1360 إلى 1385 مليون كيلومتراً مكعباً، وهذا الماء قد أخرجه ربنا ﷻ كله من داخل الأرض على هيئة بخار ماء اندفع من فوهات البراكين، وعبر صدوع الأرض العميقة ليصادف الطبقات العليا الباردة من نطاق التغيرات الجوية والذي يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع حوالي ستة عشر كيلومتراً فوق خط الاستواء، وحوالي العشرة كيلومترات فوق قطبي الأرض، وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته فوق خط الاستواء. وهذا النطاق يحوي حوالي ثلثي كتلة الغلاف الغازي للأرض (66%) والمقدرة بأكثر قليلاً من خمسة آلاف مليون مليون طن، وهو النطاق الذي يتكثف فيه بخار الماء الصاعد من الأرض، والذي تتكون فيه السحب،



رسم بياني يوضح دورة الماء حول الأرض لحالتي التبخر والأمطار

وينزل منه كل من: المطر، والبرَد، والثلج، وتتم فيه ظواهر الرعد والبرق، وتتكون العواصف والدوامات الهوائية وغير ذلك من الظواهر الجوية، ولولا تبرد هذا النطاق مع الارتفاع ما عاد إلينا بخار الماء الصاعد من الأرض أبداً. وحينما عاد إلينا بخار الماء مطراً، وثلجاً، وبرداً انحدر على سطح الأرض؛ ليشق له عدداً من المجاري المائية، ثم فاض إلى منخفضات الأرض الواسعة ليكوّن البحار والمحيطات، وبتكرار عملية التبخر من أسطح تلك البحار والمحيطات، ومن أسطح اليابسة بما عليها من مختلف صور التجمعات المائية والكائنات الحية بدأت دورة الماء حول الأرض من أجل التنقية المستمرة لهذا الماء، وتلطيف الجو، وتفتيت الصخور، وتسوية سطح الأرض، وتكوين التربة، وتركيز عدد من الثروات المعدنية، وغير ذلك من المهام التي أوكلها الخالق لتلك الدورة المعجزة التي تحمل 380,000 كيلومتراً مكعباً من ماء الأرض إلى غلافها الجوي سنوياً، لتردها إلى الأرض ماءً طهوراً، منها 320,000 كيلومتراً مكعباً تتبخر من أسطح البحار والمحيطات،



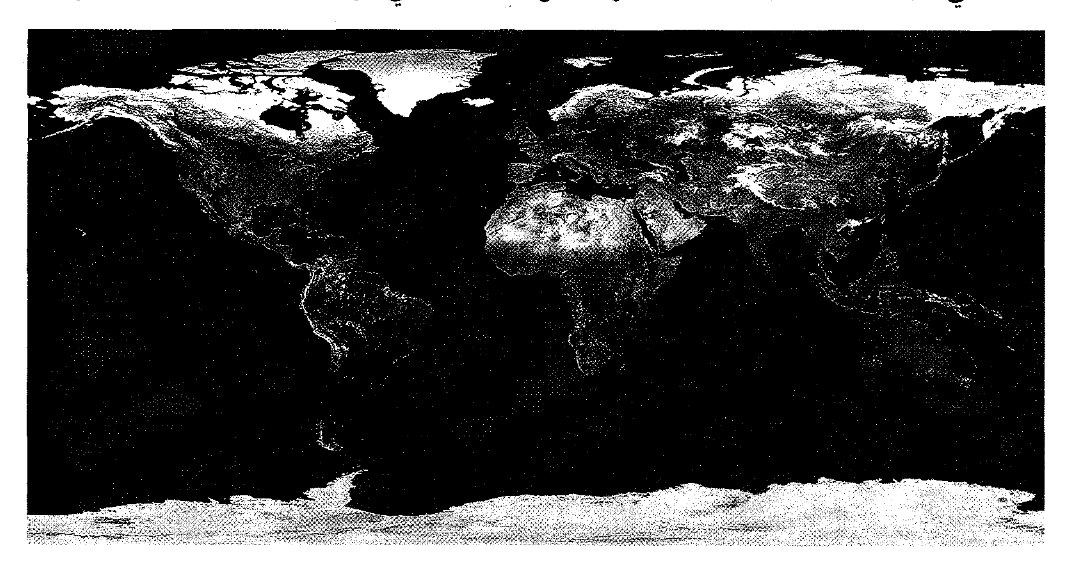
الثلوج على قمم الجبال صورة من صور تخزين الماء على سطح الأرض

60,000 كيلومتراً مكعب من أسطح اليابسة، يعود منها 284,000 كيلومتر مكعب إلى البحار والمحيطات، و96,000 كيلومتراً مكعباً إلى اليابسة التي يفيض منها 36,000 كيلومتر مكعب من الماء إلى البحار والمحيطات، وهو نفس مقدار الفارق بين التبخر من البحار والمحيطات والمطر.

هذه الدورة المحكمة للماء حول الأرض أدت إلى خزن أغلب ماء الأرض في بحارها ومحيطاتها (حوالي 97.2%)، وإبقاء أقله على اليابسة (حوالي 2.8%)، وبهذه الدورة للماء حول الأرض تملح ماء البحار والمحيطات، وبقيت نسبةً ضئيلةً من مجموع ماء الأرض على هيئة ماء عذب على اليابسة (2.8% من مجموع كمِّ الماء على الأرض)، وحتى هذه النسبة الضئيلة من ماء الأرض العذب قد حبس أغلبها (2.14%) على هيئة سُمكٍ هائلٍ من الجليد فوق قطبي الأرض، وفي قمم الجبال، والباقي مختزن في الطبقات المسامية والمنفذة من صخور القشرة الأرضية على هيئة ماء تحت سطحي (حوالي 0.61%)، وفي بحيرات الماء العذب والأنهار والجداول (حوالي 0.01%)، وعلى هيئة رطوبة في تربة الأرض (حوالي 0.005%)، والباقي يتوزع بين بحيرات الماء العذب ورطوبة الغلاف الغازي للأرض (حوالي 0.0349%).

وتوزيع ماء الأرض بهذه النسب التي اقتضتها حكمة الله الخالق قد تم بدقةٍ بالغةٍ بين البيئات المختلفة بالقدر الكافي لمتطلبات الحياة في كل بيئة من تلك البيئات، وبالأقدار الموزونة التي لو اختلت قليلاً بزيادة أو نقص لغمرت الأرض وغطت سطحها بالكامل، أو انحسرت تاركةً مساحاتٍ هائلةٍ من اليابسة، ولقصرت دون متطلبات الحياة عليها.

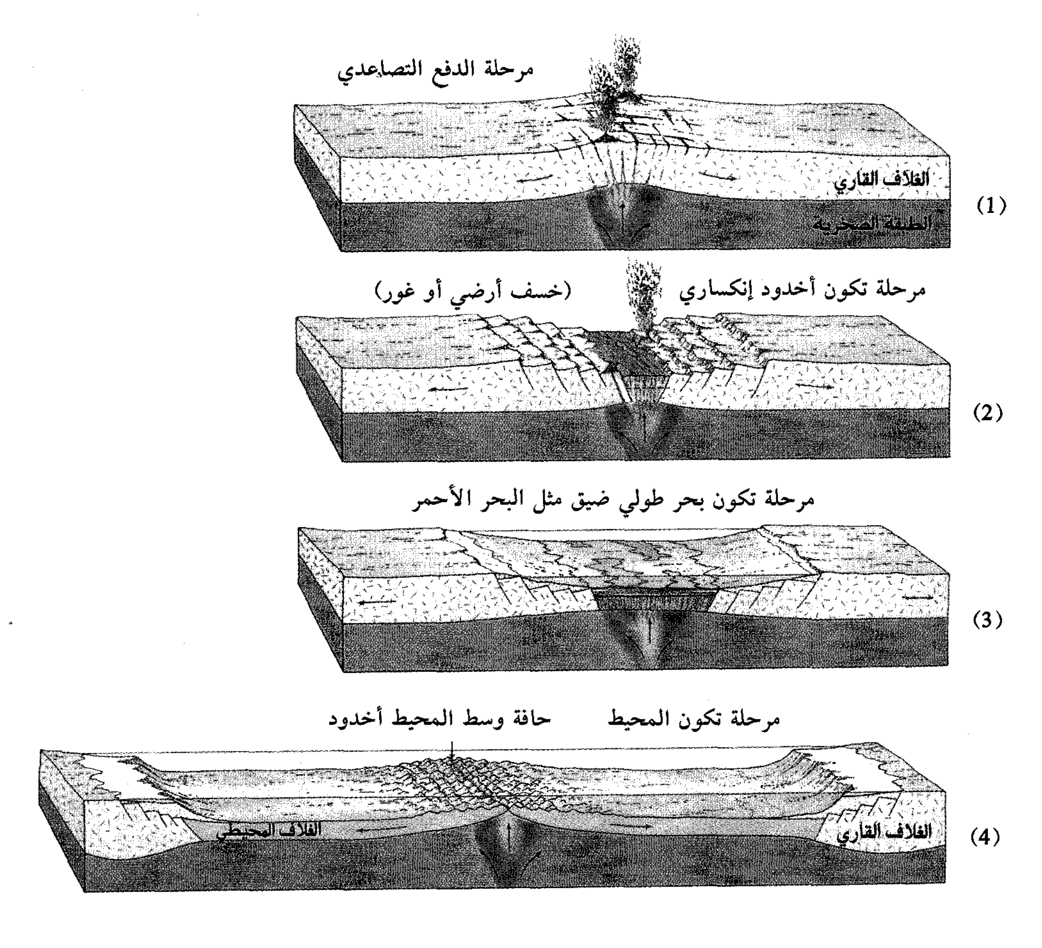
ومن هذا القبيل يحسب العلماء أن الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال المرتفعة فوق سطحها إذا انصهر، ـ وهذا لا يحتاج إلا إلى مجرد الارتفاع في درجة حرارة صيف تلك المناطق بحوالي خمس درجات مئوية ـ، وإذا حدث ذلك فإن كم الماء الناتج سوف يؤدي إلى رفع منسوب الماء في البحار والمحيطات إلى أكثر من مائة متر، فيغرق أغلب المناطق الآهلة بالسكان والممتدة حول شواطىء تلك البحار والمحيطات إلى عمق لا يكاد يتجاوز الخمسمائة كيلومتراً في أغلب الأحيان. وليس هذا من قبيل الخيال العلمي، فقد مرت بالأرض فترات كانت مياه البحار فيها أكثر غمراً لليابسة من حدود شواطئها الحالية، كما مرت فترات أُخرى كان منسوب الماء في البحار والمحيطات أكثر انخفاضاً من منسوبها الحالي مما أدى إلى انحسار مساحة البحار والمحيطات وزيادة مساحة اليابسة، والضابط في الحالين كان كم الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال وفوق بعض الأجزاء الأخرى من اليابسة. فكلما زاد كم الجليد انخفض منسوب الماء في البحار والمحيطات فانحسرت عن اليابسة التي تزيد مساحتها زيادة ملحوظة،



خارطة للعالم توضح المساحات التي يغطيها الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض الشمالي والجنوبي، وفوق قمم المرتفعات وفي بعض الأجزاء الأخرى من اليابسة

وكلما قل كم الجليد ارتفع منسوب المياه في البحار والمحيطات وطغت على اليابسة التي تتضاءل مساحتها تضاؤلاً ملحوظاً.

من هنا كان تفسير القسم القرآني بـ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ بأن الله تعالى يمنّ علينا ـ وهو صاحب الفضل والمنة ـ بأنه ملأ منخفضات الأرض بماء البحار والمحيطات، وحجز هذا الماء عن مزيد من الطغيان على اليابسة، وذلك بحبس كمياتٍ من هذا الماء في هيئات متعددة، أهمها ذلك السُّمك الهائل من الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وعلى قمم الجبال، والذي يصل إلى أربعة كيلومترات في قطب الأرض الجنوبي وإلى ثلاثة آلاف وثمانمائة من الأمتار في القطب الشمالي، ولولا ذلك لغطى ماء الأرض أغلب سطحها ولما بقيت مساحة كافية من اليابسة للحياة بمختلف أشكالها الإنسانية، والحيوانية، والنباتية، وهي



شكل يوضح مراحل تكون المحيطات عن طريق تكون الخسوف الأرضية

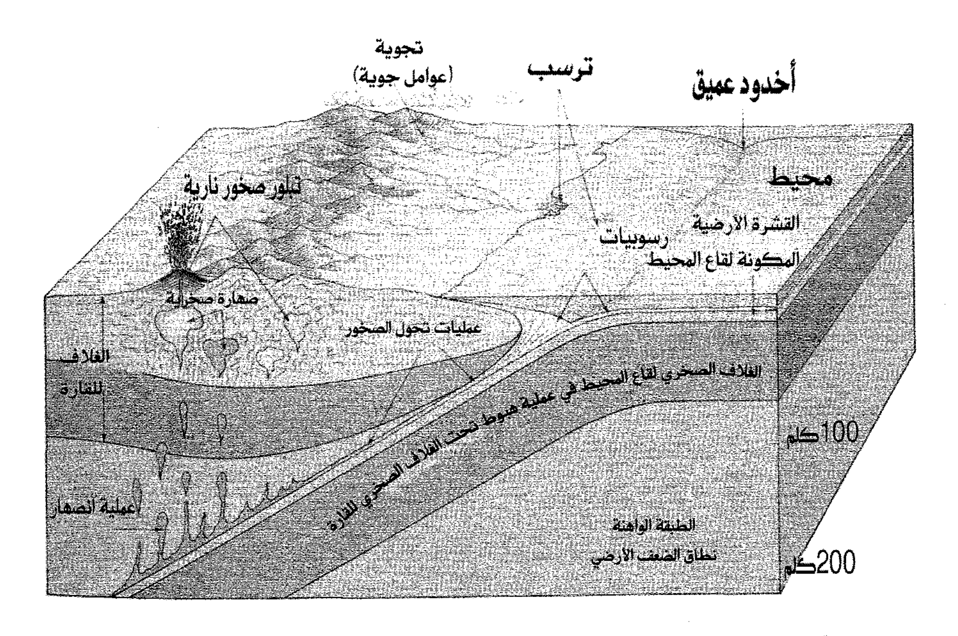
إحدى آيات الله البالغة في الأرض، من أجل إعدادها لكي تكون صالحةً للعمران.

من هنا كان تفسير القسم بِـ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ بمعنى: المملوء بالماء المكفوف عن اليابسة ينطبق مع عدد من الحقائق العلمية الثابتة التي تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، وتشهد لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ بالنبوة وبالرسالة.

ثانياً: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ بمعنى: القائم على قاع أحمته الصهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض فجعلته شديد الحرارة:

في العقود المتأخرة من القرن العشرين تم اكتشاف حقيقة تمزق الغلاف الصخري للأرض بشبكةٍ هائلةٍ من الصدوع العملاقة المزدوجة والتي تكوِّن فيما بينها ما يعرف باسم: أودية الخسف أو الأغوار، وأن هذه الأغوار العميقة تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة، ويشبهها العلماء باللحام على كرة التنس ـ مع فارق التشبيه ـ، وتمتد هذه الأغوار في كافة الاتجاهات لعشرات الآلاف من الكيلومترات، ولكنها تنتشر أكثر ما تنتشر في قيعان محيطات الأرض، وفي قيعان عدد من بحارها، ويتراوح عمق الصدوع المشكلة لتلك الأغوار بين65 و70 كيلومتراً تحت قيعان البحار والمحيطات، وبين100 و150 كيلومتراً على اليابسة، (أي: في صخور القارات)، وتعمل هذه الصدوع على تمزيق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتقطيعه إلى عدد من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يسميه العلماء باسم: **نطاق الضعف الأرضي**، وهو نطاق لدن عالي الكثافة واللزوجة تتحرك بداخله تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، حيث تتبرد وتعاود النزول إلى أسفل، وهي بتلك الحركة الدائبة تدفع بكل لوح من ألواح الغلاف الصخري للأرض إلى التباعد عن اللوح المجاور في أحد جوانبه في ظاهرة تسمى: «**ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات**»، ومصطدماً في الجانب المقابل باللوح الصخري المجاور ليكون سلسلة من السلاسل الجبلية، ومنزلقاً عن الألواح المجاورة في الجانبين الآخرين.

وباستمرار تحركِ ألواح الغلاف الصخري للأرض تتسع قيعان البحار والمحيطات باستمرار عند خطوط التباعد بينها، وتندفع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية لتساعد على دفع جانبي المحيط يمنةً ويسرةً، وتُملأ المسافات الناتجة عن عملية توسع قيعان البحار والمحيطات بهذه الملايين من أطنان الصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض على هيئة ثوراتٍ بركانيةٍ عارمة، تحت الماء، تسجر قيعان جميع محيطات الأرض، وقيعان أعدادٍ من بحارها ـ مثل البحر الأحمر ـ، وتجدد مادتها الصخرية باستمرار.



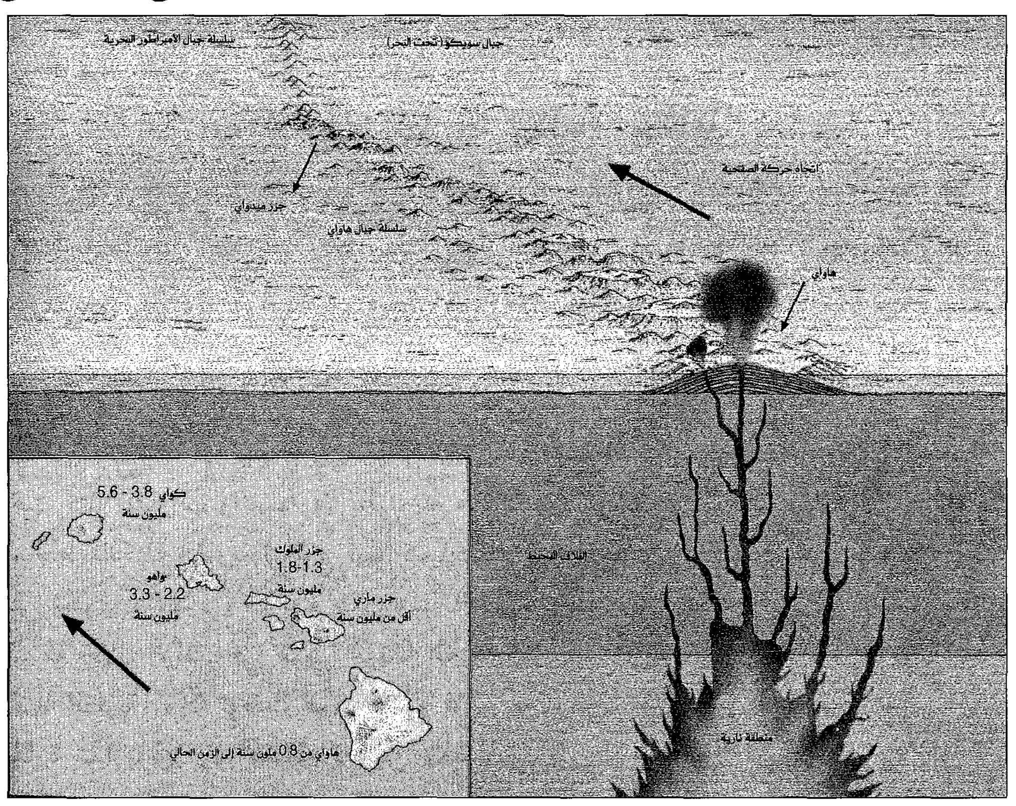
رسم تخطيطي لحركة الألواح الصخرية في قيعان المحيطات

وقد أدى هذا النشاط البركاني فوق قيعان كل المحيطات، وفوق قيعان عدد من البحار النشطة إلى تكون سلاسل من الحيود المرتفعة في أواسط تلك المحيطات والبحار تتكون في غالبيتها من الصخور البركانية، وقد ترتفع قممها في بعض الأماكن على هيئة أعداد من الجزر البركانية من مثل: جزر كل من إندونيسيا، ماليزيا، الفلبين، اليابان، هاواي، وغيرها. وفي المقابل تصطدم ألواح الغلاف الصخري عند حدودها المقابلة لمناطق اتساع قيعان البحار والمحيطات، ويؤدي هذا التصادم إلى اندفاع قيعان المحيطات تحت كتل القارات وانصهارها بالتدريج مما يؤدي إلى تكون جيوب عميقة عند التقاء قاع المحيط بالكتلة القارية تتجمع فيها كميات هائلة من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة التي تطوى وتتكسر، لترتفع على هيئة السلاسل الجبلية على حواف القارات من مثل: سلسلة جبال الإنديز في غربي أمريكا الجنوبية، وهنا يستهلك قاع المحيط بالتدريج تحت الكتلة القارية، وإذا توقفت عملية توسع قاع المحيط فإن هذا القاع قد يستهلك بأكمله تحت القارة مما يؤدي إلى تصادم قارتين ببعضهما، وينشأ عن هذا التصادم أعلى السلاسل الجبلية من مثل: جبال الهيمالايا التي نتجت عن اصطدام الهند بالقارة الآسيوية بعد استهلاك قاع المحيط الذي كان يفصل بينهما بالكامل في أزمنة أرضية سحيقة.

ويُصَاحبْ كل من عمليتي توسع قاع المحيط في محوره الوسطي واصطدامه عند أطرافه

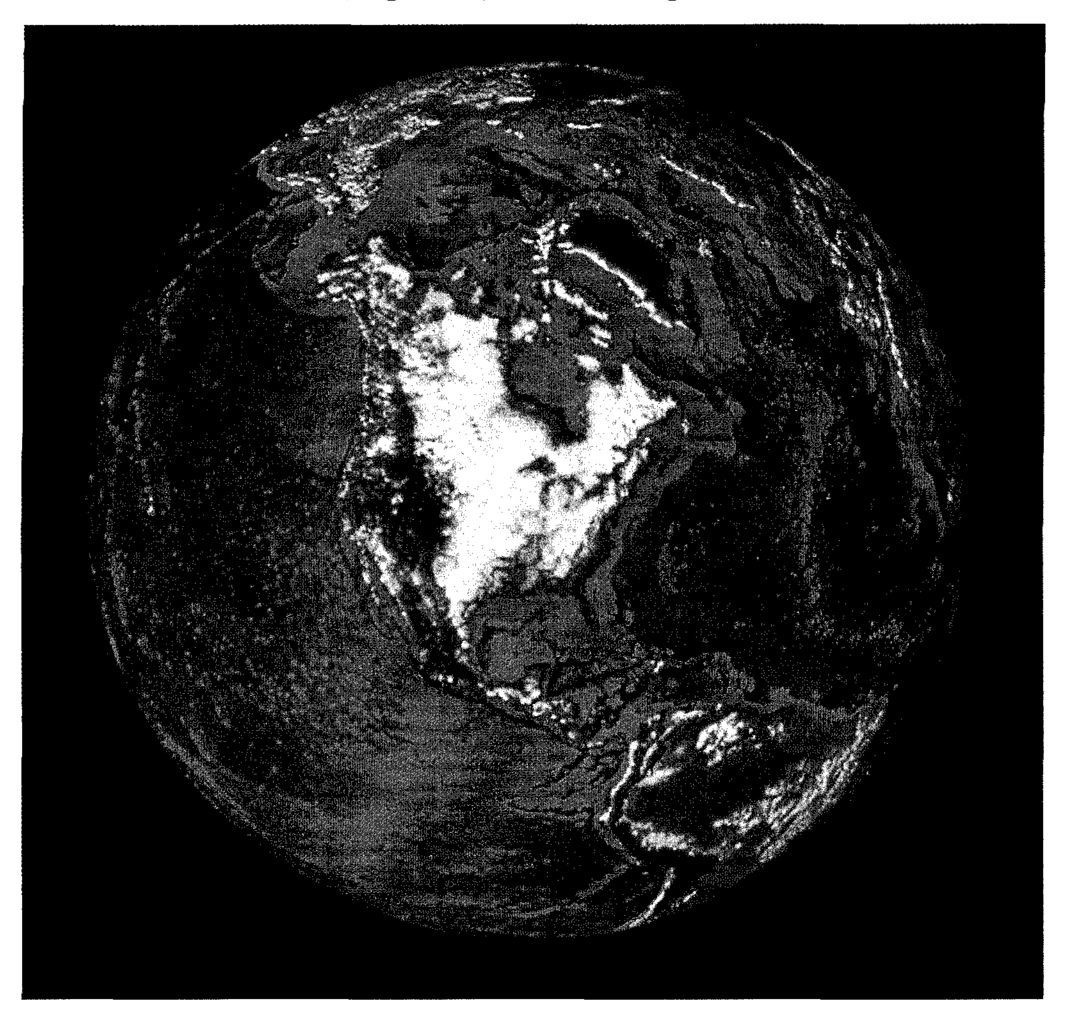
بعدد من الهزات الأرضية والثورات والطفوح البركانية التي تبلغ أشدها عند خطوط التصادم.

وتبلغ جبال أواسط المحيطات أكثر من أربعة وستين ألفاً من الكيلومترات في الطول، بينما يبلغ طول الصدوع العميقة التي اندفعت منها الطفوح البركانية لتكون تلك السلاسل الجبلية في أواسط المحيطات أضعاف هذا الرقم. وتتكون هذه السلاسل أساساً من الصخور البركانية المختلطة بالقليل من الرسوبيات البحرية وتحيط كل سلسلة من هذه السلاسل المندفعة من قاع المحيط بوادٍ خسيف ـ غور ـ مكون بفعل الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين خمسة وستين كيلومتراً وسبعين كيلومتراً ليخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل ويصل إلى نطاق الضعف الأرضي الذي تندفع منه الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجة حرارة تزيد عن الألف درجة مئوية لتسجر قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها النشطة باستمرار. ومع تجدد اندفاع

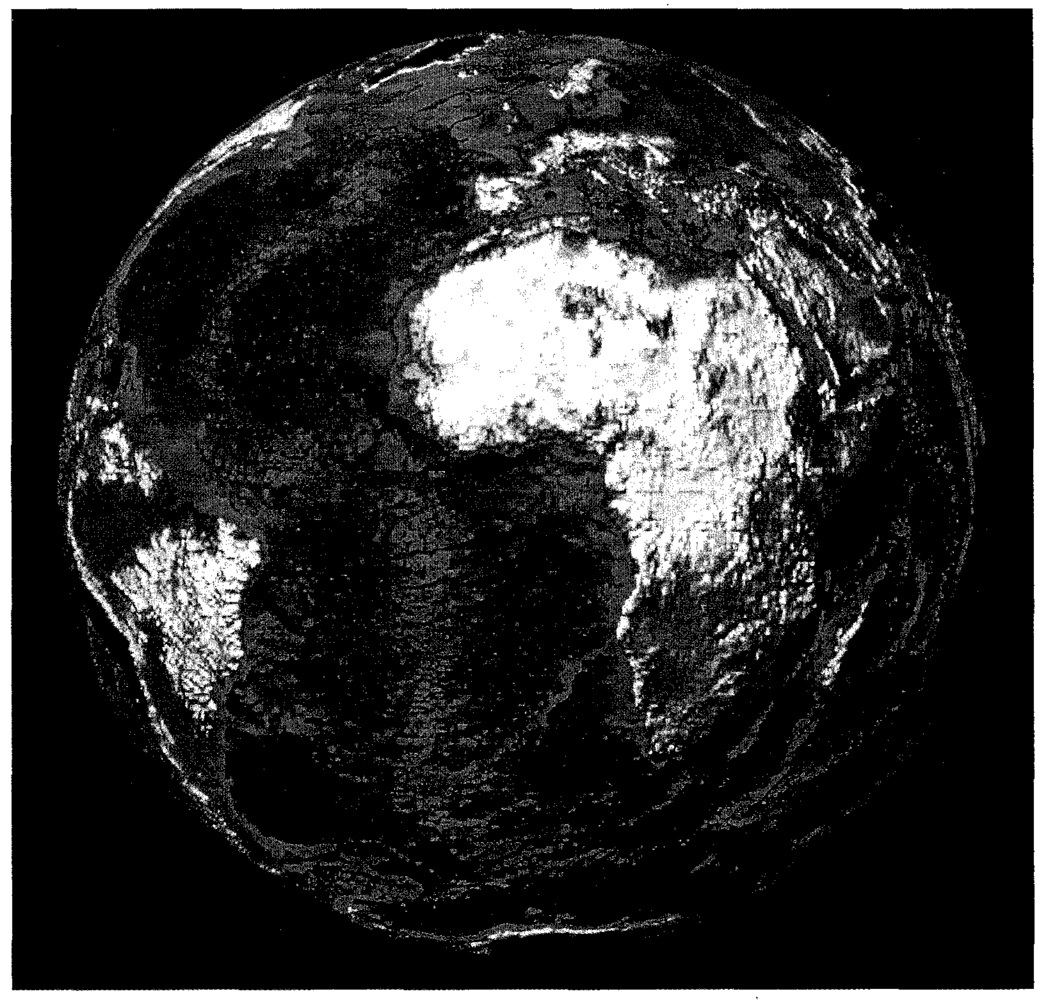


رسم تخطيطي لتكون الجزر البركانية ـ من مثل جزر هاواي ـ من جراء اندفاع الصهارة من نطاق الضعف الأرضي عبر صدوع قيعان المحيطات

الصهارة الصخرية عبر مستويات هذه الصدوع العملاقة يتسع قاع المحيط باستمرار، وتتجدد مادته بدفع الصخور القديمة في اتجاه شاطىء المحيط يمنة ويسرة ليحل محلها أحزمة أحدث عمراً تتكون من تجمد تلك الصهارة الجديدة وتترتب بصورة متوازية على جانبي أغوار المحيطات والبحار. ويهبط كل جانب من جانبي قاع المحيط المتسع بنصف معدل اتساعه الكلي في وسطه، وذلك تحت كل قارة من القارتين أو القارات المحيطة بشاطئيه، وبذلك يمتلىء محور المحيط بالصهارة الصخرية الحديثة المندفعة عبر مستويات الصدوع الممزقة لقاعه فتسجره، بينما تندفع الصخور الأقدم بالتدريج في اتجاه الشاطئين حيث توجد



نموذج (1) للأرض يُبيِّن صدوع قاع المحيطات الناتج عنها توسع قيعان البحار وتباعد اليابسة



نموذج (2) للأرض يُبيِّن صدوع قاع المحيطات الناتج عنها توسع قيعان البحار وتباعد اليابسة

أقدم صخور ذلك القاع، والتي تستهلك باستمرار تحت القارات المحيطة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان عددٍ من بحارها (مثل: البحر الأحمر) توجد أيضاً على اليابسة، ولكن بنسب أقل منها فوق قيعان البحار والمحيطات، وتعمل على تكوين عددٍ من الأغوار (الأودية الخسيفة) والبحار الطولية (من مثل: أغوار شرقي إفريقيا والبحر الأحمر) التي تعمل على تفتيت الكتل القارية باتساعها التدريجي لتتحول تلك البحار الطولية إلى بحارٍ أكبر ثم إلى محيطاتٍ تفصل بين الكتل القارية التي كانت متصلةً على هيئة قارةٍ واحدةٍ. وتحاط تلك الخسوف القارية العملاقة بعدد من القمم البركانية السامقة.



الصهارة البركانية المندفعة إلى قيعان البحار والمحيطات من نطاق الضعف الأرضي لا يطفئها الماء، ولا تستطيع هي بدورها أن تبخر الماء بالكامل

بذلك ثبت لكل من علماء الأرض والبحار ـ بالأدلة المادية الملموسة ـ أن كل محيطات الأرض بما في ذلك المحيطان المتجمدان الشمالي والجنوبي، وأن أعداداً من بحارها من مثل: البحر الأحمر، قيعانها مسجرة بالصهارة الصخرية المندفعة بملايين الأطنان من داخل النطاق الضعيف في الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بالكامل وتصل إلى نطاق الضعف الأرضي. وتتركز هذه الشبكة من الصدوع العملاقة أساساً في قيعان البحار والمحيطات، وأن كم المياه في تلك الأحواض العملاقة ـ على ضخامته ـ لا يستطيع أن يطفىء جذوة تلك الطفوح من الصهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض إطفاءً كاملاً، وأن هذه الجذوة على شدة حرارتها ـ أكثر من ألف درجة مئوية ـ لا تستطيع أن تبخر هذا الماء بالكامل؛ وذلك لأنه عندما يتبخر

الماء باندفاع الصهارة فيه فإنه يرتفع إلى أعلى ليلامس ماءً أبرد فيتكثف ويعود إلى قاع البحر مرة أخرى ليعاود الكرة من جديد، وهكذا ليبقى هذا الاتزان الدقيق بين الأضداد من الماء والحرارة العالية هو من أكثر ظواهر الأرض إبهاراً للعلماء في زماننا، وهي حقيقة لم يتمكن الإنسان من اكتشافها إلا في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين.

ومن الغريب أن رسول الله ﷺ ـ هذا النبي الأمي الذي لم يركب البحر في حياته الشريفة مرةً واحدةً، فضلاً عن الغوص إلى أعماق البحار ـ قال في حديث شريف أخرجه كل من الأئمة: أبو داود في سننه، والبيهقي في سننه، وابن شيبة في مصنفه، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ما نصه: «**لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً**»[1].

وجاء الحديث في مصنف ابن شيبة بالنص التالي: «**إن تحت البحر ناراً، ثم ماءً ثم ناراً**»، ويعجب الإنسان المتبصر لهذا السبق في كل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الأرض التي لم يتوصل الإنسان إلى إدراكها إلا في نهايات القرن العشرين، هذا السبق الذي لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً غير الله الخالق، الذي أنزل هذا القرآن الكريم بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وعلم هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ من حقائق هذا الكون ما لم يكن لأحدٍ من الخلق إلمام به قبل العقود الثلاثة المتأخرة من القرن العشرين، لكي تبقى هذه الومضات النورانية في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ شهادات مادية ملموسة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي حفظه ـ تعالى ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بذلك إلى قيام الساعة وحفظه بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ كلمةً كلمةً، وحرفاً حرفاً، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، دون أدنى تغيير أو تبديل أو تحريف، وأن هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض. فسبحان الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين هذا القسم القرآني «بالبحر المسجور»، وسبحان الذي علَّم خاتم أنبيائه ورسله بهذه الحقيقة فقال قولته الصادقة: «**إن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً**»، وسبحان الذي أكد على صدق القرآن الكريم، وعلى صدق هذا النبي الخاتم في كل ما رواه عن ربه. فأنزل في محكم كتابه قوله الحق:

(1) أخرجه أبو داود في سننه (الحديث: 2489).

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ (النساء: 166).

وقوله ـ سبحانه ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ (الفرقان: 6).

وقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النمل: 93).

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ (سبإ: 6).

وقوله ﷻ:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ (صٓ: 87، 88).

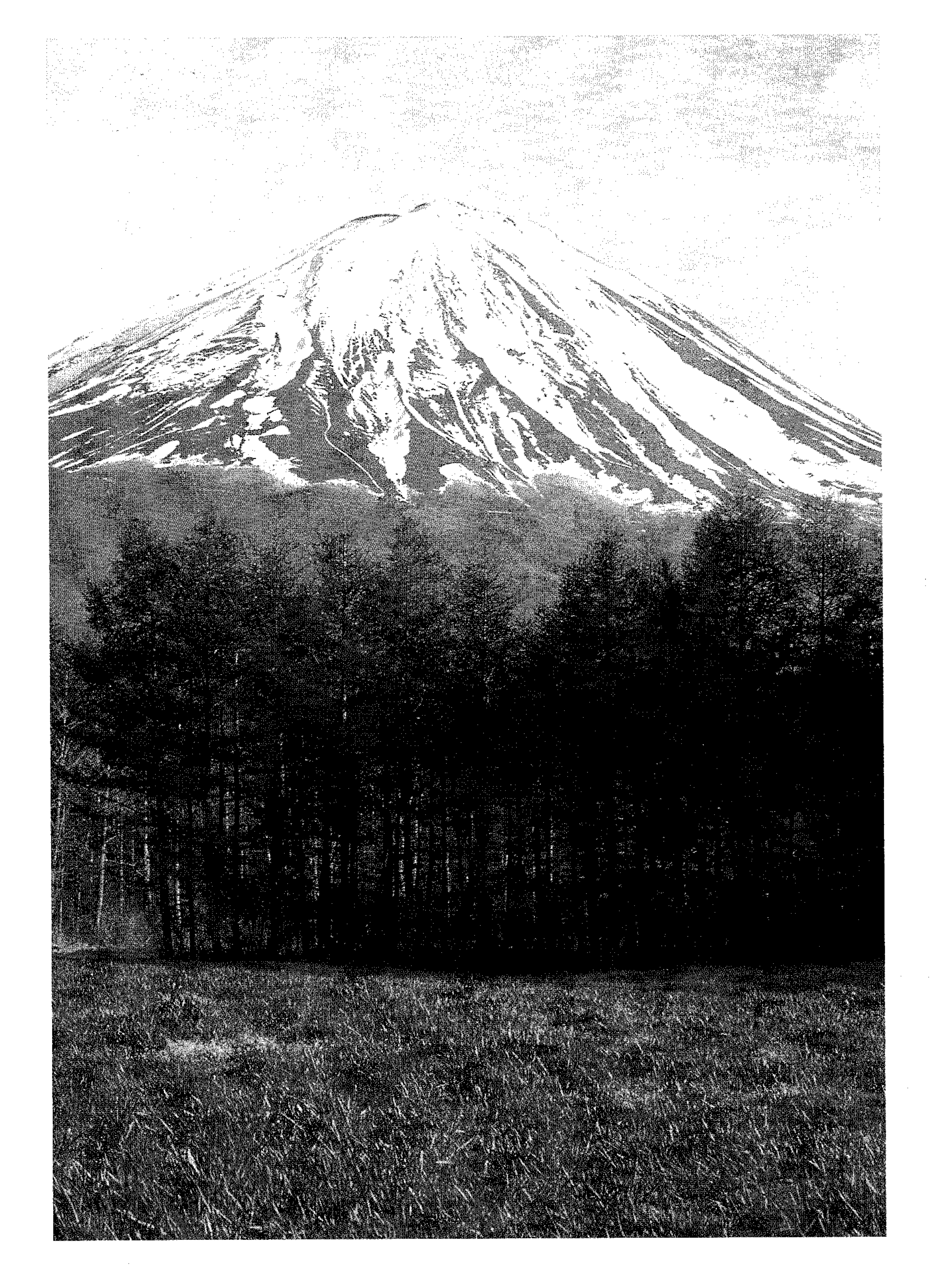
وقوله ﷻ:

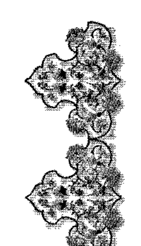
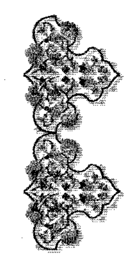
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: 41، 42).

وقوله ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: 53).

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام ـ وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

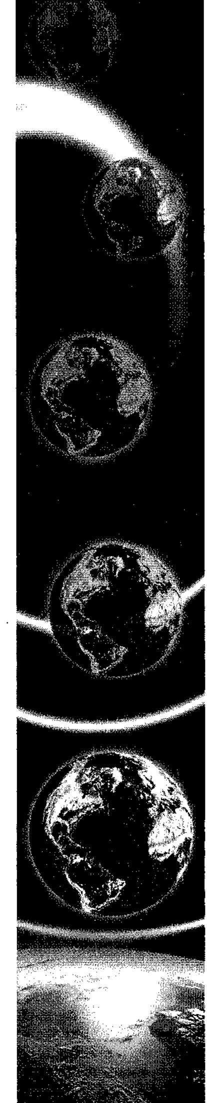


بسم الله الرحمن الرحيم

(8) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾

(النبإ: 6، 7)



هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في مقدمات سورة النَّبَإ، وهي سورة مكية وعدد آياتها أربعون (40) بعد البسملة، ويدور محورها حول قضية العقيدة، والعقيدة هي تلك القضية الغيبية التي لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصورٍ صحيح أبداً بغير هدايةٍ ربانيةٍ؛ ومن هنا كانت من قواعد الدين الذي من لوازم صحته أن يكون وحياً ربانياً خالصاً لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية.

ومن أصول العقيدة الإسلامية: الإيمان بالبعث وبالحساب والجزاء، وبالخلود في حياةٍ قادمةٍ إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً. والإيمان بالبعث هو موضوع سورة النبإ ومحورها الأساسي؛ وذلك لأن إنكار البعث كان حجة كفار قريش، كما كان حجة الكفار والمتشككين عبر التاريخ في نبذهم للدين، كفراً برب العالمين، وجهلاً بطلاقة قدرته التي لا تحدها حدود، أو قياساً للقدرة الإلهٰية بقدرات البشر المحدودة ظلماً وعدواناً وجهلاً بمدلول الألوهية الحقة؛ ومن ثم عجز الكافرون عن تصور إمكانية البعث، أو تعاجزوا عنه انصياعاً لشهواتهم التي يرون ممارستها دون أدنى مسؤوليةٍ أو مساءلةٍ، فانطلقوا في إنكار البعث، وما يستتبعه من الحساب والجزاء، وفي التشكيك في كل ذلك وهو من صلب الدين الذي جاء به آلاف من الأنبياء، ومئات من المرسلين، وتكامل في بعثة النبي والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

ومن أجل التأكيد على حقيقة البعث بعد الموت وما يستتبعه من

حسابٍ وجزاءٍ ابتدأت سورة النبإ باستنكار تساؤل الكافرين عنه؛ تساؤل المنكر له أو المتشكك في إمكانية وقوعه، وألمحت بالتهديد القاطع لكل منكر أو متشكك في تلك الحقيقة الربانية الحاسمة، ثم أوردت عدداً من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية في إبداع الخلق لكي تكون شاهدة على أن الخالق المبدع قادر على إفناء خلقه وعلى إعادة بعثه؛ ولذلك أكدت السورة على حقيقة يوم البعث وأهواله، وسمَّته باسم: يوم الفصل؛ لأنه يومٌ قد وقته ربنا ﷻ للفصل بين العباد، حيث سيجمع له كافة الخلق من الأولين والآخرين بعد فنائهم أجمعين وفناء الكون كله من حولهم، وذلك لحسابهم على ما قد قدموا في حياتهم الدنيا، ولجزائهم الجزاء الأوفى على ذلك.

ثم تعرج بنا السورة على بعض صور العقاب الذي أعده ربنا ﷻ للطاغين من الكفار والمشركين والمتجبرين في الأرض من المنكرين لدين الله، والمكذبين بآياته، والغافلين عن حسابه، وذلك بإدخالهم إلى جهنم ـ وبئس المصير ـ التي تترصد بهم، وتستعد لاستقبالهم وفيها من صور العذاب المهين ما نسأل الله تعالى أن يجيرنا منه.

وللمقارنة بين مصير هؤلاء الطاغين المكذبين ومصير عباد الله الصالحين، تحدثت السورة عن شيء من جزاء المتقين الذي تضمن جنات ونعيم مقيم فضلاً ورحمةً من رب العالمين.

وختمت السورة الكريمة بتصوير شيءٍ من أهوال يوم القيامة، وبدعوة الناس كافة إلى الاستعداد لهذا اليوم الذي سوف يعود الخلق فيه إلى الله، ليقفوا جميعاً بين يديه للحساب، وأن يأخذوا حذرهم حتى تحسن عودتهم، ويهون حسابهم فينجوا من العذاب المهين، ويرفلوا في جنات النعيم المقيم.

وتضمَّن ختام سورة النبإ، التحذير من عذاب يوم القيامة؛ حيث ينظر كل إنسانٍ صحيفة أعماله في هذه الحياة، وفيها كل ما قد قدمت يداه، فيحمد المتقون الله على حسن هدايته وتوفيقه، ويتمنَّى كل كافر لو يستحيل تراباً أملاً في تحاشي هول هذا اليوم وهول المصير الأسود من بعده، ولكن هيهات هيهات أن يفر أحد من حساب الله وجزائه العادل...!!!

ومن الآيات الكونية التي قدمها ربنا ﷻ بين يدي سورة النبإ شاهدةً له ـ سبحانه ـ بطلاقة القدرة في إبداعه لخلقه، ومؤكدةً إمكانية البعث بل حتميته وحقيقته، قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾

وهاتان الآيتان يمر عليهما الإنسان دون إدراك حقيقي لفضل الله تعالى في الإنعام بهما

ولا بعمق الدلالة العلمية في كل منهما ؛ لأن حقيقة ذلك لم يدركها العلماء المتخصصون إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. وهذا السبق القرآني صورة من صور الإعجاز العلمي في كتاب الله سنعرض لها إن شاء الله ـ تعالى ـ في الأسطر التالية بعد شرح الدلالة اللغوية لألفاظ الآيتين الكريمتين واستعراض سريع لأقوال المفسرين فيهما.

الدلالة اللغوية:

أولاً: (المهاد):

(المهاد) والمهد في اللغة العربية: الممهد الموطأ من كل شيء، ويطلق على الفراش لبسطه وسهولة وطئه، يقال: (مهد) الفراش أي: بسطه ووطأه، و(المهد) ما يهيأ للصبي من فراش وثير و(تمهيد) الأمور إصلاحها وتسويتها، يقال: «مهدت» لك كذا، أي: هيأته وسويته، و (تمهيد) العذر هو بسطه وقبوله. وقد جاء ذكر لفظة (المهد) بتصريفاتها في القرآن الكريم خمس مرات على النحو التالي:

(1) ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ **(آل عمران: 46).**

(2) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ **(طه: 53).**

(3) ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ **(الروم: 44).**

(4) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ **(المدثر: 14).**

(5) ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ **(الذاريات: 48).**

ثانياً: الجبال: (الجبال) والأجبال: جمع (جبل) وهو المرتفع عمَّا حوله من الأرض ارتفاعاً ملحوظاً يجعله يعظم ويطول، ودونه (التل) ودون التل (الربوة) أو (الأكمة)، ودون الأكمة (النجد) أو (الهضبة)، ودون الهضبة (السهل).

ويقال: (أجبل) القوم أي: صاروا إلى (الجبال) بمعنى وصلوا إليها، أو دخلوها وسكنوا فيها، ويقال للحية: (ابنة الجبل)؛ لأن الجبل مأواها، كما يقال لصدى الصوت: (ابن الجبل)؛ لأن (الجبل) يردده، ويقال للداهية: (ابنة الجبل)؛ لأنها تثقل على النفس كأنها (الجبل).

و (الجُبْلة) و(الجَبْلَة) و(الجِبْلَة) و(الجِبِلَّة) القوة البدنية أو صلابة الأرض؛ و(الجبال): البدن، يقال: فلان (مجبول) أو (خطير الجبال) أي: عظيم البدن تشبيهاً بالجبل، و(تجبل) ما عنده أي: استنظفه، و(الجبل) أيضاً ساحة البيت، أو الكثير من كل

شيء، يقال: (مال جبل) و(حي جبل) أي: كثير، و(الجبل) و(الجبلة) الجماعة من الناس، وفيها قراءات قرىء بها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ **(يس: 62)** ـ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ـ كما قرىء بضم أو فتح الجيم أو تسكين الباء، وبضم كل من الجيم والباء وتشديد اللام أو تخفيفها.

و(الجِبِلَّةُ): الخلقة أو الفطرة، وأصله: الوجه وما استقبلك منه، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ **(الشعراء: 184)** بكسر الجيم أو ضمِّها وكسر الباء أو تسكينها، والجمع (الجبلات)، ومنها أخذت تسمية السائل الذي يملأ جدار الخلية الحية باسم الجبلة: (البروتوبلازم أو السيتوبلازم).

يقال: (جَبَلَهُ) الله (جَبْلاً) أي: خلقه وفطره، إشارة إلى ما ركب فيه من طباع، و(الجِبِليِّ) الفطري، و(الجِبِلَّةُ) الأصل، و(الجبل) الغليظ، يقال: فلان ذو (جَبَلة) أي: غليظ الجسم، و(جبل) أي: صار كالجبل في الغلظ، ويقال: (جَبَلَ) التراب (جَبْلاً) أي: صب عليه الماء ودعكه حتى صار طيناً، ويقال: (جبله) أي: قطعه قطعاً شتى، كما يقال: فلان (جبل) لا يتزحزح تصوراً لمعنى الثبات فيه.

ثالثاً: (أوتاداً)

و **(الأوتاد)** جمع **(وتد)** بكسر التاء وبفتحها، والكسر أولى، وفعله (وتد)، والأمر منه (تِدَّ) بالكسر، و(الأوتاد) قطع من خشب أو حديد غليظة الرأس، مدببة النهاية، تثبت بها أركان الخيمة في الأرض بدكها حتى يدفن أغلبها في الأرض، ويبقى أقلها ظاهراً فوق السطح، فتشد بذلك العمق أركان الخيمة إلى الأرض فتثبتها وتجعلها قادرة على مقاومة فعل الرياح، والعواصف الهوجاء.

ويأتي التعبير بـ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ **(الفجر: 10)** في استعارة مجازية؛ بمعنى: كثير الجنود والعساكر الذين يشدون الملك ويثبتونه كما تشد الأوتاد أركان الخيام إلى الأرض فتثبتها نظراً لكثرة خيامهم التي يضربون أوتادها في أرض معسكراتهم، كما قد تأتي في معنى صاحب الأبنية العظيمة الشاهقة التي تشبه في عمق أساساتها أوتاد الجبال، وفي ارتفاعها علو الجبال وذلك من مثل قول الحق ﷻ: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ .**(الفجر: 10)**.

من شروح المفسرين

- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ في تفسير قول الحق ﷻ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾؛ أي: ممهدة للخلائق، ذلولاً لهم، قارة، ساكنة، ثابتة، وفي قوله تعالى ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾

أي: جعل لها أوتاداً، أرساها بها، وثبتها، وقررها حتى سكنت، ولم تضطرب بمن عليها.

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ غفر الله لهما ـ كلاماً مشابهاً؛ إذ قالا: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ أي: فراشاً كالمهد صالحةً للحياة عليها ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ أي: تثبت بها الأرض كما تثبت الخيام بالأوتاد لئلا تميد بكم. والاستفهام للتقرير.

• وقال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ رحمة واسعة: والمهاد: الممهد للسير، والمهاد اللين كالمهد.. وكلاهما متقارب، وهي حقيقة محسوسة للإنسان في أي طور من أطوار حضارته ومعرفته، فلا تحتاج إلى علم غزير لإدراكها في صورتها الواقعية، وكون الجبال أوتاداً ظاهرةً تراها العين كذلك حتى من الإنسان البدائي، وهذه وتلك ذات وقع في الحس حين توجه إليها النفس، غير أن هذه الحقيقة أكبر وأوسع مدى مما يحسه الإنسان البدائي لأول وهلةٍ بالحس المجرد، وكلما ارتقت معارف الإنسان، وازدادت معرفته بطبيعة هذا الكون وأطواره، كبرت هذه الحقيقة في نفسه، وأدرك من ورائها التقدير الإلهي العظيم والتدبير الدقيق الحكيم، والتنسيق بين أفراد هذا الوجود وحاجاتهم، وإعداد هذه الأرض لتلقي الحياة الإنسانية وحضانتها، وإعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئة والتفاهم معها.

وجعل الأرض مهاداً للحياة ـ وللحياة الإنسانية بوجه خاص ـ شاهد لا يماري في شهادته بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر، فاختلال نسبةٍ واحدةٍ من النسب الملحوظة في خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها، أو اختلال نسبةٍ واحدةٍ من النسب الملحوظة في خلق الحياة لتعيش في الأرض.. الاختلال هنا أو هناك لا يجعل الأرض مهاداً، ولا يبقي هذه الحقيقة التي يشير إليها القرآن الكريم هذه الإشارة المجملة، ليدركها كل إنسان وفق درجة معرفته ومداركه.

وجعل الجبال أوتاداً.. يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد، فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها. أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن، وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها.

وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال.. وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية، وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقطٍ معينةٍ فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية.. وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد.. وكم من قوانين وحقائق أشار إليها القرآن الكريم، ثم عرف البشر طرفاً منها بعد مئات السنين!

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحمه الله ـ ما نصه: ﴿مِهَٰدًا﴾ فراشاً موطأ

كالمهد، لتمكينكم من الاستقرار عليها والتقلب في أنحائها، والانتفاع بما أودعناه لكم فيها.

والمهاد: مصدر بمعنى ما يمهد، وجعلت به الأرض مهاداً مبالغةً في جعلها موطئاً للناس والدواب يقيمون عليها. أو بتقدير مضاف، أي: ذات مهاد، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ كالأوتاد للأرض، أي: أرسيناها بالجبال لئلا تميد وتضطرب، كما يرسى البيت بالأوتاد لئلا تعصف به الرياح. (والأوتاد) جمع (وتد) بفتح التاء وكسرها ـ وفعله كوعد.

● وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: ألم يروا من آيات قدرتنا أنا جعلنا الأرض ممهدة للاستقرار عليها والتقلب في أنحائها؟!! وجعلنا الجبال أوتاداً للأرض تثبتها؟ وفي تعليق هامشي أضافوا ما نصه: «يبلغ سُمك الجزء الصلب من القشرة الأرضية نحو60 كيلومتراً، وتكثر فيه التجاعيد فيرتفع حيث الجبال وينخفض ليكوِّن بطون البحار وقيعان المحيطات، وهو في حالة من التوازن بسبب الضغوط الناتجة من الجبال، ولا يختل هذا التوازن إلا بعوامل التعرية، فقشرة الأرض اليابسة ترسيها الجبال كما ترسي الأوتاد الخيمة».

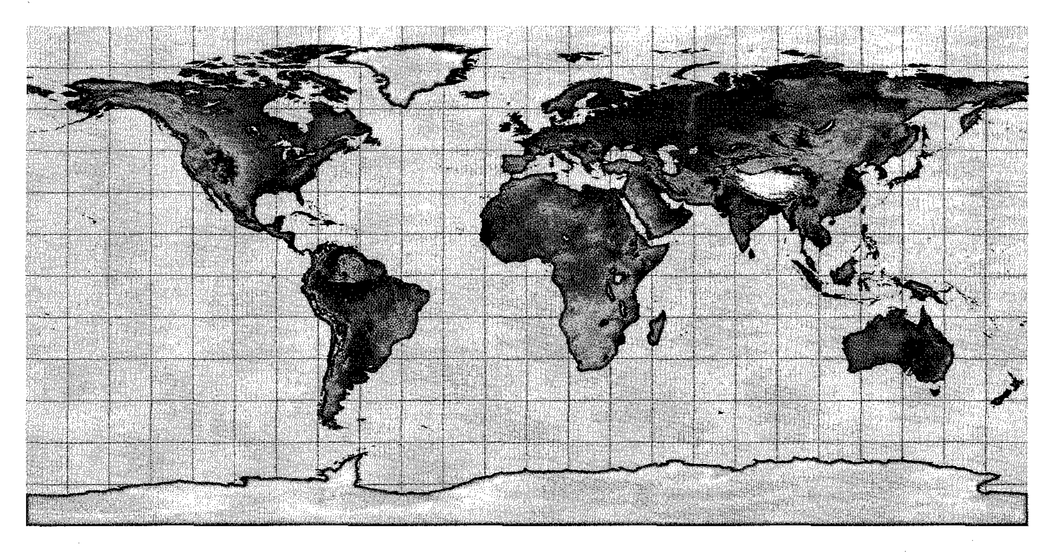
● وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ بارك الله فيه ـ ما نصه:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ أي: ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ أي: وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد، قال في التسهيل، شبهها بالأوتاد؛ لأنها تمسك الأرض أن تميد.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

أولاً: في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾. (النبإ: 6).

استضاءة بمفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض وصلت الدراسات الحديثة في هذا المجال إلى أن الأرض بدأت بمحيط غامر، ثم بتصدع قاع ذلك المحيط واندفاع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية (الصهير) عبر تلك الصدوع بدأ تحرك الألواح الصخرية المكونة لذلك القاع متباعدةً عن بعضها البعض في أحد أطرافها، ومصطدمةً في الأطراف المقابلة، ومنزلقةً عبر بقية الأطراف. ونتج عن ذلك تكون أعداد من أقواس الجزر البركانية عند الأطراف المتصادمة، ثم نمت تلك الجزر البركانية بالتدريج إلى القارة الأم أو أم القارات **(Pangaea)** التي تفتتت بشبكة هائلة من الصدوع إلى القارات السبع



خريطة العالم تبين توزيع السلاسل الجبلية

التي تعرفها اليوم. وظلت هذه القارات في الاندفاع متباعدة عن بعضها البعض حتى وصلت إلى أوضاعها الحالية التي لا تزال تتزحزح عنها إلى اليوم. وباستمرار هذه العملية تمايزت ألواح الغلاف الصخري للأرض إلى الألواح المحيطية، وتلك القارية، وبتصادم ألواح قيعان المحيطات بكتل القارات تكونت سلاسل الجبال الشبيهة بجبال الأنديز (على الحافة الغربية لأمريكا الجنوبية)، وبتصادم ألواح القارات مع بعضها تكونت أعلى السلاسل الجبلية على سطح الأرض من مثل: سلاسل جبال الهيمالايا التي نتجت عن اصطدام كتلة الهند بكتلة قارتي آسيا وأوروبا (أوراسيا).

ومع تكوُّن الأطواف، والمنظومات، والسلاسل، والأحزمة الجبلية ومجموعاتها المعقدة، أصبح سطح الأرض على درجة من وعورة التضاريس لا تسمح بعمرانها، ثم بدأت عمليات التجوية والتحات والتعرية في بري تلك المجموعات الجبلية والأخذ من ارتفاعاتها باستمرار، وبنقل الفتات الصخري الناتج عن تلك العمليات إلى أحواض المحيطات والبحار. وبتحرك هذه العمليات بدأت دورة الصخور التي لا تزال تتكرر إلى يومنا الراهن لتكسو منخفضات الأرض بالتربة اللازمة للإنبات والزراعة، ولتركز العديد من الثروات المعدنية، ولتزيد من ملوحة البحار والمحيطات بالتدريج حتى تجعلها صالحة لحياة البلايين من الكائنات الحية، ولتحفظ هذا الماء من الفساد، ولتركز معادن المتبخرات في صخور الأرض.

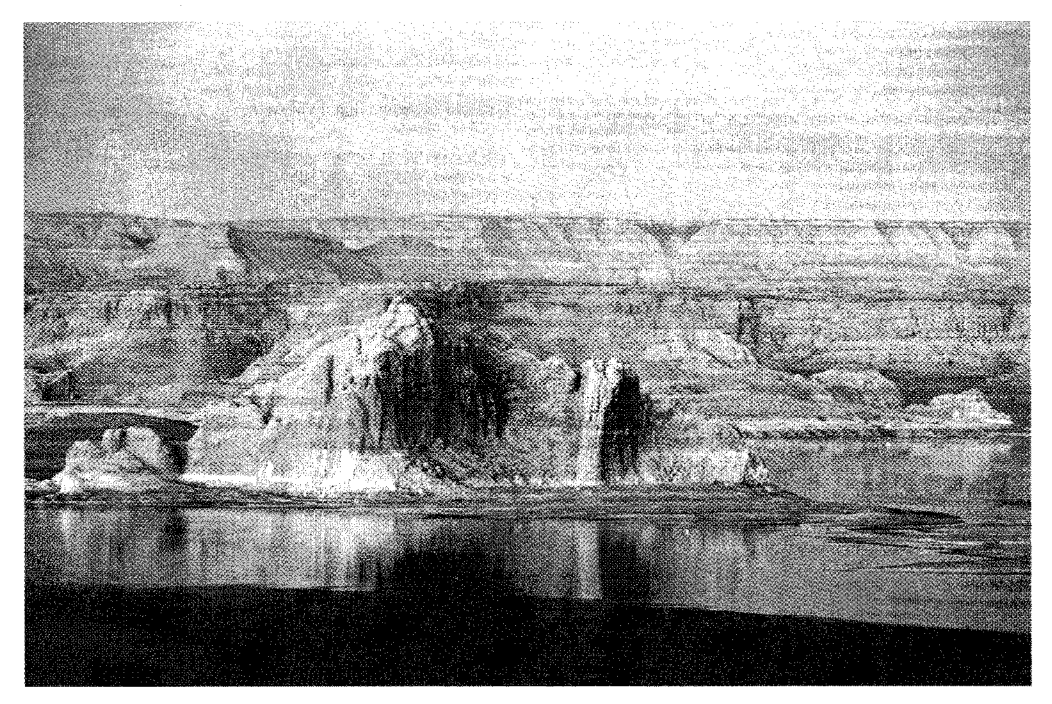
ولما كانت عمليات التجوية والتحات والتعرية تزيل كمياتٍ كبيرةٍ من الصخور المكونة

لمرتفعات سطح الأرض كان من ضرورات الاتزان الأرضي أن تتحرك الصهارة الصخرية تحت الغلاف الصخري للأرض لتعوض فقدان الكتل التي تمت تعريتها، ولتحقق الاتزان الأرضي بتعديل الضغوط في داخل الأرض، ويؤدي ذلك إلى رفع الجبال بطريقة تدريجية.

وباستمرار تفاعل تلك القوى المتصارعة من عمليات التجوية والتعرية المقترنة بعمليات تحرك الصهارة الصخرية تحت الغلاف الصخري للأرض وفي داخله، وعمليات رفع الجبال لتحقيق التوازن الأرضي لفترات زمنية طويلة، فإنها تنتهي بإنقاص سُمك سلسلة الجبال إلى متوسط سمك لوح الغلاف الصخري الذي تتواجد عليه، وذلك بسحب جذور الجبال ـ الامتدادات الداخلية للجبال ـ من نطاق الضعف الأرضي ورفعها حتى تظهر على سطح الأرض. وبخروج جذور الجبال من نطاق الضعف الأرضي الذي كانت طافيةً فيه كما تطفو جبال الجليد في مياه المحيطات؛ فإن الجبال تفقد القدرة على الارتفاع إلى أعلى، وتظل عوامل التعرية في بريها حتى تسويها بسطح الأرض تقريباً وحينئذ تنكشف جذور الجبال، وبها من الثروات المعدنية ما لا يمكن أن يوجد، إلا تحت مثل ظروف أوتاد الجبال التي تتميز بقدر هائل من الضغط والحرارة.

وعلى هذا النحو فإن الجبال قد لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً مهماً في بناء قارات الأرض وفي الزيادة المستمرة لمساحة تلك القارات بإضافة الكتل الجبلية إلى حواف تلك القارات بطريقةٍ مستمرة.

ومعنى ذلك أن كل قارات الأرض بدأت بسلاسل من أقواس الجزر البركانية في وسط المحيط الغامر، وأنه باصطدام تلك الجزر تكونت القارة الأم التي تفتتت بشبكة هائلة من الصدوع إلى القارات السبع التي نعرفها اليوم والتي ظلت تنزاح متباعدة عن بعضها البعض حتى وصلت إلى أماكنها الحالية والتي لا تزال تتزحزح عنها. وبقيت القارات على هيئة أطوافٍ ومنظوماتٍ وسلاسلَ وأحزمةٍ جبليةٍ معقدة، وأن تلك المرتفعات جعلت سطح الأرض على درجة من وعورة التضاريس لا تسمح بعمرانها، ثم بدأت سلسلة من الصراع بين العمليات الأرضية الداخلية البانية للجبال والرافعة لها، والعمليات الهدمية الخارجية التي تبريها وتعريها، وفي نهاية هذا الصراع تنتصر العوامل الهدمية الخارجية فتسوَّى الجبال، وتخفض من ارتفاعاتها بالتدريج في محاولة للوصول بها إلى مستوى سطح البحر؛ ولذلك فإن كل سهول ومنخفضات اليابسة الحالية كانت في يوم من الأيام جبالاً شاهقةً، ثم برتها عوامل التجوية والتحات والتعرية حتى أوصلتها إلى مستوياتها الحالية، وأن الكتل الصخرية القديمة التي تعرف باسم: الرواسخ أو المجن **(Shields or Cratons)** وهي كتل



العوامل الطبيعية تلعب دوراً مهماً في تعرية الصخور المكونة للمرتفعات

مستقرة نسبياً، موجودة في أواسط القارات ما هي في الحقيقة إلا جذور السلاسل الجبلية القديمة التي تم بريُها.

هذه العمليات المعقدة من الصراع بين القوى البانية في داخل الأرض والقوى الهدمية من خارجها هي التي أدت بأمر من الخالق ﷻ إلى بناء القارات، ورفعها فوق مستوى البحار والمحيطات على هيئة مجموعاتٍ من أطوافٍ ومنظوماتٍ وسلاسلَ وأحزمةٍ جبليةٍ شاهقةٍ ظلت تضاف إلى بعضها البعض بانتظام وبطء لتزيد من مساحة القارات، التي كانت في بادئ الأمر جبليةً وعرةً، لا تسمح وعورتها بعمرانها، ثم بدأت عوامل التعرية في الأخذ من تلك الجبال الشاهقة بالتدريج حتى حولتها إلى السهول الواسعة، والهضاب والنجود المنخفضة والأودية المحفورة والرواسخ الثابتة التي تشكل أواسط القارات اليوم حتى وصلت الأرض إلى صورتها المناسبة للعمران، ولذلك يمن علينا ربنا ﷻ بتمهيد الأرض، ويلوم المنكرين للبعث بتوجيه هذا اللون من الاستفهام التقريري، التوبيخي، التقريعي الذي يقول فيه الحق ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ أي: ألم نجعل لكم الأرض فراشاً موطأً كالمهد لتمكينكم من الاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها، والانتفاع بما أودعناه لكم فيها؛ لأن الأرض لو بقيت جبالاً شاهقة الارتفاع، متشابكة التضاريس، معدومة

الممرات والمسالك، لما أمكن العيش على سطحها، فسبحان الذي أنزل هذه اللفتة القرآنية المبهرة في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ثانياً: في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾:

من الأمور المشاهدة أن سطح الأرض ليس تام الاستواء، وذلك بسبب اختلاف التركيب الكيميائي والمعدني للصخور المكونة له، وبالتالي اختلاف كثافة الصخور المكونة لمختلف أجزاء الغلاف الصخري للأرض، فهناك قمم عالية للسلاسل الجبلية، وتنخفض تلك القمم السامقة إلى التلال، ثم الروابي أو الربى (جمع ربوة أو رابية) أو الآكام (جمع أكمة) أو النتوءات الأرضية، ثم الهضاب أو النجود (جمع نجد) ثم السهول، ثم المنخفضات الأرضية والبحرية، ويختلف مع ذلك متوسط كثافة الصخور المكونة لكل شكل من هذه الأشكال الأرضية.

ويبلغ ارتفاع أعلى قمة على سطح الأرض ـ وهي قمة جبل إفرست ـ في سلسلة جبال الهيمالايا 8840 متراً تقريباً فوق مستوى سطح البحر، بينما يقدر منسوب أخفض نقطة على سطح اليابسة ـ وهي حوض البحر الميت ـ بحوالي395 متراً لمستوى مائة تحت مستوى سطح البحر بينما يصل منسوب قاعه إلى 800م تحت المستوى العادي لسطح البحر. ويقدر متوسط منسوب سطح اليابسة بنحو840 متراً فوق مستوى سطح البحر، ويبلغ منسوب أكثر أغوار المحيطات عمقاً 11020 متراً (وهو غور ماريانا في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين) بينما يبلغ متوسط أعماق المحيطات نحو أربعة كيلومترات (4500 ـ 3729 متر) تحت مستوى سطح البحر.

ويبلغ الفارق بين أعلى قمة على اليابسة وأخفض نقطة في قيعان المحيطات (8840+11020 = 19860 متراً) أي: أقل قليلاً من عشرين كيلومتراً، وهذا الفارق بين أعلى قمة على سطح اليابسة وأخفض نقطة في أغوار قيعان البحار العميقة والمحيطات، إذا قورن بمتوسط نصف قطر الأرض والمقدر بنحو6371 كيلومتراً فإن النسبة لا تكاد تتعدى 0.30% وهذه النسبة الضئيلة تلعب دوراً مهماً في معاونة عوامل التعرية المختلفة على بري صخور مرتفعات الأرض، وإلقاء الفتات الناتج عنها في المنخفضات في دوراتٍ متعاقبةٍ تعمل على تسوية سطح الأرض، وتكوين التربة، وتركيز الخامات المعدنية، وجعل الأرض صالحةً للعمران كما سبق وأسلفنا.

كذلك فإن الأدلة العلمية التي تراكمت على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين،

تشير إلى أن الغلاف الصخري للأرض في حالة توازنٍ تام، وإذا تعرض هذا التوازن إلى الاختلال في أية نقطة على سطح الأرض فإن تعديله يتم مباشرة بتحرك القدر المناسب من الصهارة في نطاق الضعف الأرضي تحت نقطة الاختلال مباشرة منها أو إليها.

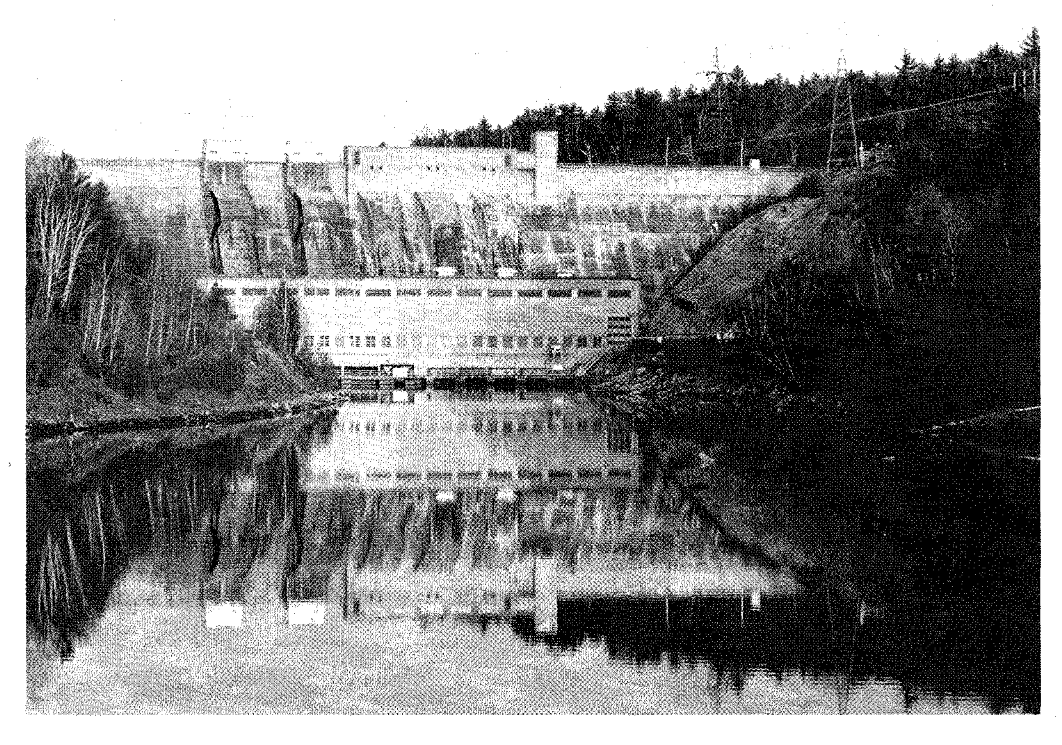
ومن هذه الأدلة أن القشرة الأرضية تنخفض إلى أسفل على هيئة منخفضات أرضية عند تعرضها لأحمالٍ زائدة، وترتفع إلى أعلى على هيئة نتوءاتٍ أرضية عند إزالة تلك الأحمال عنها، ويتم ذلك بما يسمى باسم «التضاغط والارتداد التضاغطي المرتد» الذي يتم من أجل المحافظة على الاتزان الأرضي، ومن أمثلة ذلك: ما ينتج عن تجمع الجليد بسمك كبير على اليابسة ثم انصهاره، أو عند تخزين الماء بملايين الأمتار المكعبة أمام السدود ثم تصريفه، أو بتراكم ملايين الأطنان من الترسبات أمام السدود، ثم إزالتها، أو بتساقط نواتج الثورات البركانية العنيفة حول عدد من فوهات البراكين ثم تعريتها.

ففي العهد الحديث من عمر الأرض **(Holocene)** بدأت في الانصهار تراكمات الجليد السميكة التي كانت قد تجمعت على بعض أجزاء اليابسة من نصف الكرة الشمالي منذ نحو مليوني سنة (خلال واحد من أكبر العصور الجليدية التي مرت بها الأرض)، ونتيجةً لذلك بدأت الأرض بالارتفاع التدريجي في مناطق الانصهار التدريجي للجليد لتحقيق التوازن التضاغطي المرن للأرض، وهو من سنن الله فيها، وقد بلغ ارتفاع الأرض بذلك330 متراً في منطقة خليج هدسون في شمال أمريكا الشمالية، ونحو مائة من الأمتار حول بحر البلطيق حيث لايزال ارتفاع الأرض مستمراً.

وأمام كثيرٍ من السدود التي أقيمت على مجاري الأنهار تسببت بلايين الأمتار المكعبة من المياه وملايين الأطنان من الرسوبيات التي تجمعت أمام تلك السدود في حدوث انخفاضاتٍ عامة في مناسيب المنطقة، وزيادةٍ ملحوظة في نشاطها الزلزالي، ويؤيد ذلك بأن ألواح الغلاف الصخري المكونة للقارات والتي يتراوح سمك كل منها بين المائة والمائة وخمسين كيلومتراً يغلب على تركيبها صخور ذات كثافة منخفضةً نسبياً، بينما يغلب على تركيب ألواح الغلاف الصخري المكونة لقيعان البحار والمحيطات صخور ذات كثافةٍ عاليةٍ نسبياً ولذلك لا يتجاوز سمك الواحد منها سبعين كيلومتراً فقط.

وكل من ألواح الغلاف الصخري القارية والمحيطية يطفو فوق نطاق الضعف الأرضي الأعلى كثافة وهو نطاق لدن (مرن)، شبه منصهر، عالي اللزوجة، ولذلك فهو يتأثر بالضغوط فوقه ويتحرك استجابة لها.

وفي المقابل فإن قشرة الأرض المكونة لكتل القارات يتراوح سمكها بين30 و40



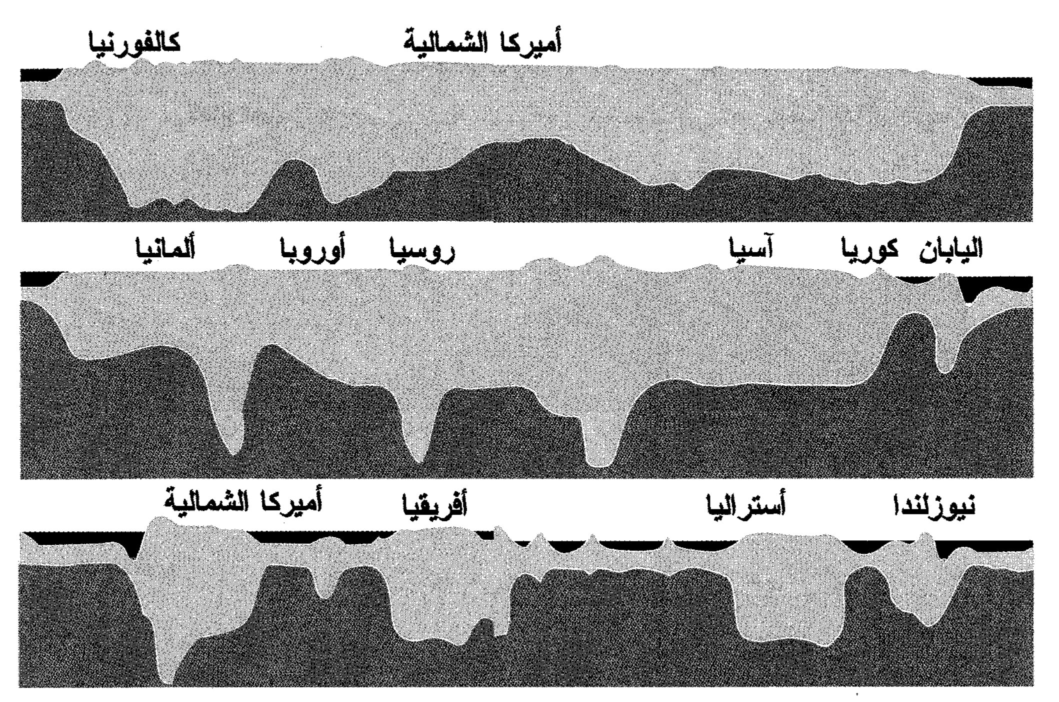
الرسوبيات المتجمعة أمام السدود المقامة على الأنهار لها تأثير على النشاط الزلزالي للمنطقة المقامة فيها تلك السدود

كيلومتراً تقريباً، ويغلب على تركيبها الصخور الجرانيتية والتي تغطي أحياناً بتتابعات رقيقة ومتفاوتة السمك من الصخور الرسوبية، ومتوسط كثافة الصخور الجرانيتية يبلغ 2.7 جرام للسنتيمتر المكعب، بينما يتراوح سمك قشرة الأرض المكونة لقيعان البحار والمحيطات بين5 و8 كيلومترات فقط، ويغلب على تركيبها الصخور البازلتية التي قد تتبادل مع الصخور الرسوبية أو تتغطى بطبقاتٍ رقيقةٍ منها، ويبلغ متوسط كثافة الصخور البازلتية 2.9 جرام للسنتيمتر المكعب، ولذلك تطفو كتل القارات فوق قيعان البحار والمحيطات.

وبنفس هذا التصور يمكن تفسير الاختلاف في تضاريس سطح الأرض على أساسٍ من التباين في كثافة الصخور المكوِّنة لكل شكل من أشكال تلك التضاريس، فالمرتفعات على سطح اليابسة لابد وأن يغلب على تكوينها صخور أقل كثافة من الصخور المحيطة بها؛ ومن ثم فلا بد وأن يكون لها امتداداتٌ من صخورها الخفيفة نسبياً في داخل الصخور

الأعلى كثافةً المحيطة بها، ومن هنا كان الاستنتاج **بأن الجبال لابد وأن لها جذوراً عميقة** تخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل لتطفو في نطاق الضعف الأرضي؛ وهنا تحكمها قوانين الطفو كما تحكم جبال الجليد الطافية في مياه المحيطات.

وقد أيدت قياسات عجلة الجاذبية الأرضية هذا الاستنتاج بإشارتها إلى قيم أقل من المفروض نظرياً في المناطق الجبلية، وإلى قيم أعلى من المفروض في المنخفضات

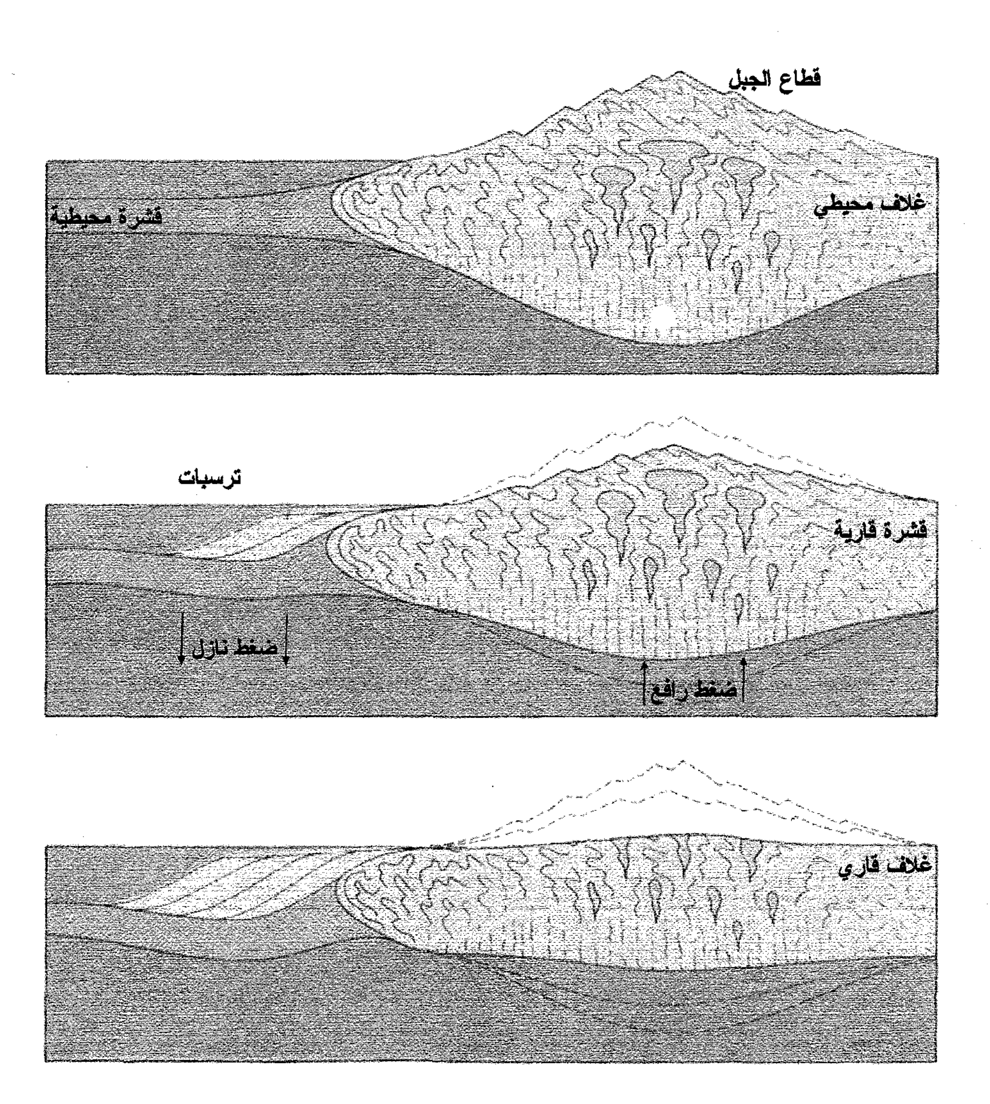


رسم يوضح قطاعات تخطيطية للغلاف الصخري للأرض وفيها امتداد كل من القارات والجبال داخل نطاق الضعف الأرضي

الأرضية وفوق قيعان البحار والمحيطات. وانكشاف جذور الجبال القديمة في أواسط القارات يعتبر من الشواهد المادية التي تثبت حدوث عمليات إعادة التعديل التضاغطي في الغلاف الصخري للأرض، وذلك لأنه مع بري عوامل التعرية لقمم تلك الجبال ظلت ترتفع إلى أعلى حتى ظهرت جذورها على سطح الأرض.

وبفهم دورة حياة الجبال ثبت أن كل نتوء أرضي فوق مستوى سطح البحر له امتداد في داخل الغلاف الصخري للأرض يتراوح طوله بين10 و15 ضعف ارتفاعه الخارجي، وكلما كان الارتفاع فوق مستوى سطح البحر كبيراً تضاعف طول الجزء الغائر في الأرض

امتداداً إلى الداخل؛ وعلى ذلك فإن قمةً مثل: إفرست لا يكاد ارتفاعها فوق مستوى سطح البحر يصل إلى تسعة كيلومترات (8848 متراً) لها امتداد في داخل الغلاف الصخري للأرض يزيد عن المائة والثلاثين كيلومتراً، ويخترق هذا الامتداد الداخلي لتلك السلسلة الجبلية الغلاف الصخري للأرض بالكامل ليطفو في نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق شبه منصهر، لدن أي: مرن، عالي الكثافة واللزوجة تحكمه في ذلك قوانين الطفو تماماً كما تحكم جبال الجليد الطافية في مياه المحيطات، فكلما برت عوامل التعرية قمم



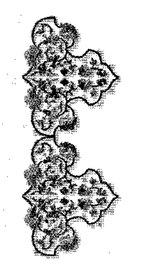
رسم يوضح حركة بروز الجذور كلما برت عوامل التعرية قمم الجبال

الجبال، ارتفعت تلك الجبال إلى أعلى، وتظل عملية الارتفاع تلك حتى يخرج جذر الجبل من نطاق الضعف الأرضي بالكامل، وحينئذ يتوقف الجبل عن الحركة، ويتم بريه حتى يصل سمكه إلى سمك اللوح الأرضي الذي يحمله، وبذلك يظهر جذر الجبل على سطح الأرض، وبه من الثروات الأرضية ما لا يمكن أن يتكون إلا تحت ظروف استثنائية من الضغط والحرارة لا تتوفر إلّا تحت ظروف مشابهة للبيئة في جذور الجبال.

فسبحان الذي وصف الجبال من قبل ألف وأربعمائة سنة بالأوتاد، وهي لفظةً واحدةً تصف كلًّا من الشكل الخارجي للجبل، وامتداده الداخلي ووظيفته؛ لأن الوتد أغلبه يدفن في الأرض، وأقله يظهر على السطح، ووظيفته التثبيت، وقد جاءت علوم الأرض في العقود المتأخرة من القرن العشرين بالأدلة المادية التي تثبت أن هكذا الجبال، بعد أن ظل وصف الجبال إلى مشارف التسعينيات من القرن العشرين، قاصراً على أنها مجرد نتوءات فوق سطح الأرض، واختلفوا في تحديد حد أدنى لارتفاع تلك النتوءات الأرضية اختلافاً كبيراً بين 310 متراً، 620 متراً، وبين اعتباره تعبيراً محدداً أو نسبياً يعتمد على تضاريس المنطقة.

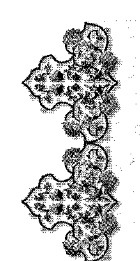
وفي السبق القرآني بوصف الجبال بأنها (أوتاد) تأكيد قاطع على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقَّاه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، حيث لم يكن لأحدٍ من البشر أدنى إلمام بإمكانية وجود امتدادات داخلية للجبال، أو حتى مجرد التفكير في ذلك الأمر، ولا بدور الجبال في تثبيت الأرض إلا بعد نزول القرآن الكريم بأكثر من اثني عشر قرناً، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا العلم غير الله الخالق ﷻ الذي أنزله على نبي أمي ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين من قبل ألف وأربعمائة سنة، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين على نعمة الإسلام، والحمد والشكر له على نعمة القرآن، وعلى حفظه هذا الحفظ الدقيق في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مر الدهور والأعوام وإلى قيام الساعة، والحمد لله على الدوام.

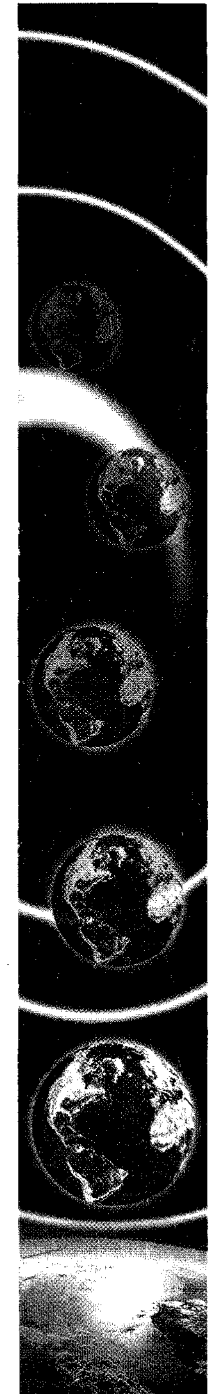
بسم الله الرحمن الرحيم



(9) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

(النازعات: 32، 33)





هاتان الآيتان الكريمتان وردتا في مطلع الثلث الأخير من سورة «النازعات»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (46) بعد البسملة، وسورة «النازعات» تُعنى ـ كغيرها من سور القرآن المكي ـ بقضية العقيدة، والعقيدة هي أساس الدين، وهي من القضايا الغيبية غيبة مطلقة؛ ولذلك فالإنسان محتاج فيها دوماً إلى بيان من الله، بياناً ربانياً خالصاً لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية. ومن ركائز العقيدة بعد الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، الإيمان باليوم الآخر، وما سوف يحويه من بعث بعد الموت، ومن حساب وجزاء، ثم خلود في حياةٍ أبديةٍ قادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وتبدأ سورة النازعات بقَسم من الله تعالى ـ وهو الغني عن القسم ـ بعددٍ من طوائف ملائكته الكرام، وبالمهام المكلف بها كل منهم، على أن الآخرة حق، وأنها واقعة لا محالة، وأن كلاً من البعث والحساب والجنة والنار حق، وأن الخلود في أيٍّ منهما حتمي الحدوث، لا مفر منه، ولا انفكاك عنه. وتأتي هذه الآيات بصياغة القسم من أجل تنبيه الناس إلى أهمية الأمر المقسم به وجديته، وخطورته، وإلا فالله ـ تعالى ـ غني عن القسم لعباده.

ثم تعرض الآيات بعد ذلك لشيء من أهوال الآخرة من مثل: رجف الأرض (**الراجفة**)، ومور السماء (**الرادفة**)، وكل من الأرض والسماء سوف يدمر في الآخرة، وقد يكون المقصود بالراجفة والرادفة: النفختين، اللتين يموت كل حي بعد الأولى منهما، وترجف بها الأرض

ويبعث كل ميْتٍ بعد الثانية، وتمور السماء موراً.

وبعد ذلك تنتقل الآيات إلى وصف شيء من أحوال الكافرين في هذا اليوم العصيب الرهيب، حين يبعث الخلق فجأة بعد موتهم، فتخفق قلوب المبعثين وجلاً وخاصةً الكافرين والعصاة المجرمين منهم، وتخشع أبصارهم ذلاً، ويتساءلون في لهفة وذهول: هل نحن عائدون من حيث جئنا إلى الحياة الدنيا مرةً ثانيةً بعد أن كانت الأجساد قد بليت، والعظام قد نخرت؟ أم أن هذا هو البعث الذي سبق وأن أُخبِرنا به في حياتنا الدنيا فأنكرناه؟ وإن كان ذلك كذلك فقد رجعنا رجعة خاسرة، وقد يكون ذلك تذكيراً لهم بإنكارهم للبعث في الدنيا، وهنا يقول الله ـ تعالى ـ:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ **(النازعات: 13، 14).**

والزجرة هي الصيحة، والساهرة هي سطح الأرض بصفةٍ عامةٍ وأرض المحشر بصفة خاصة؛ ويفهم من ذلك أن الأمر بالبعث يأتي بصيحةٍ واحدةٍ، فإذا بكافة الخلائق قيام يبعثون، ثم يساقون إلى أرض المحشر ليواجهوا حسابهم العادل، ويلقوا جزاءهم الأوفى...!!!

وفي إيجاز معجز تلمح الآيات بعد ذلك إلى جانب من قصة كليم الله موسى ﷺ مع فرعون وملئه، مبتدئة باستفهام رقيق موجه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ثم عرض للقصة في كلمات محدودة تثبيتاً له في مواجهة كفار قريش، وتثبيتاً لكل داعية إلى دين الله من بعده في مواجهة أهل الكفر والشرك والضلال والطغيان في كل عصر وفي كل مكان، كما يأتي سرد تلك القصة تحذيراً للناس جميعاً من مغبة سوء المصير الذي لقيه هذا الطاغية الملقب بفرعون مصر، والعذاب الذي حاق به وبالمكذبين الضالين من قومه في الدنيا، وما توعدهم الله ـ تعالى ـ به في الآخرة من عذاب أشد وأنكى...!! وتبقى هذه الآيات المباركات درساً يتلقاه كل كيِّس عاقل فيخشى الله ـ تعالى ـ حباً له ـ سبحانه ـ، وشكراً على نعمائه، وخوفاً من عذابه، ورجاءً لثوابه في الدنيا والآخرة.

ثم تتوجه الآيات في سورة «النازعات» ـ بعد سرد قصة موسى ﷺ ـ بالخطاب مباشرة إلى منكري البعث من كفار قريش، وإلى الكفار في كل زمان ومكان بسؤال تقريعي توبيخي يقول: هل خلق الناس ـ على ضآلة أحجامهم، ونسبية زمانهم ومكانهم، ومحدودية قدراتهم ـ أشدُّ من خلق السماء؟ وبنائها المذهل في عظمة اتساعه، وإحكام ترابطه والتحامه، وتعدد أجرامه، وتكامل هيئاته، وإحكام أبعاده، وحركاته، وأحجامه، وكتله، والمسافات الفاصلة بين مختلف مكوناته، والارتفاعات السامقة الشاهقة التي رفعت إليها

السماء بغير عمدٍ مرئيةٍ، ولا دعاماتٍ مشاهدة، وتعاظم القوى الممسكة بمختلف أجزائها، وإتقان تسويتها مع تحرك كل جزئية فيها، وإظلام ليلها إظلاماً تاماً: بمعنى: أن الأصل في الكون الإظلام، وإخراج ضحاها بهذا النور الأبيض المبهج من بعد الظلام وكلها نعم كبرى من نعم الخالق ﷻ فهل يمكن أن يقارن ذلك بضآلة أحجام الناس، ونسبية زمان كل منهم ومكانه، ومحدودية قدراته؟

وهل خلق الإنسان ـ على روعة ذلك الخلق ـ أكبر إنجازاً من دحو الأرض، وإخراج كل من مائها ومرعاها من داخلها؟

وهل هذا المخلوق الضعيف أشد خلقاً من إرساء الجبال على سطح الأرض، وإرساء الأرض بالجبال كي لا تميد ولا تضطرب بسكانها تحقيقاً لسلامة العيش عليها؟

وهذه التساؤلات يوردها ربنا ﷻ في محكم كتابه، لعل منكري البعث من الطغاة والمتجبرين في الأرض أن يجدوا فيها ما يمكن أن يعينهم على إدراك شيء من مظاهر القدرة الإلهية المبدعة في الكون، والتي تؤكد حقيقة الخلق كما تؤكد إمكانية البعث، بل ضرورته وحتميته.

ثم عاودت السورة الكريمة الحديث عن القيامة، وسمتها باسم: «الطامة الكبرى» تعبيراً عن كونها داهية عظمى؛ تعم بأهوالها كل شيء، وتغطي على كل مصيبة مهما عظمت؛ حيث يعرض الناس لا تخفى منهم خافية، ويتذكر الإنسان أعماله في الحياة الدنيا خيرها وشرها، وتبرز جهنم حتى يراها الخلق جميعاً عياناً بياناً، ويقع الحساب العادل، وبعد الحساب ينقسم الناس إلى شقيٍّ وسعيدٍ، فالشقي هو كل ما قد جاوز الحد في الكفر والعصيان، والتجبر والطغيان، والجري وراء الشهوات، مفضلاً الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، وهذا مأواه جهنم وبئس المصير، والسعيد هو الذي خاف عظمة الله وجلاله فآمن به، وخضع لأوامره، ونهى نفسه عن اتباع هواها، وحسب حساب مقامه بين يدي الله يوم العرض الأكبر، وهذا مأواه جنات النعيم بإذن الله رب العالمين.

وتختتم سورة النازعات بخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ ردًّا على سؤال الكفار له عن الساعة متى قيامها؟ ويأتي جواب الحق ﷻ بأن علمها، ومردها، ومرجعها إلى الله ـ تعالى ـ وحده الذي استأثر به دون كافة خلقه، وعلى ذلك فإن دور النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ هو إنذار من يخشاها، وهي لهولها سوف تجعل الكفار والمشركين يرون حياتهم على الأرض ـ مهما طالت ـ كأنها بضع ساعات من يومٍ واحدٍ تقدر بمقدار عشيةٍ أو ضحاها، وذلك احتقاراً لها، واستهانةً بشأنها.

وهكذا يأتي ختام السورة متوافقاً مع مطلعها في التأكيد على حقيقة البعث وحتميته، والإنذار بأهواله وخطورته، حتى يستعد الناس للقاء ربهم بالإيمان الخالص به، والخضوع بالطاعة له، وحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وهي من الركائز الأساسية للدين الذي علَّمه ربنا ـ ﷻ ـ لأبينا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبعث به عددا كبيراً من الأنبياء والمرسلين من بعد آدم، وأكمله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وأتمه في رسالته الخاتمة التي وجهها للناس كافة في القرآن الكريم، وفي أحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وتعهد بحفظ هذه الرسالة الخاتمة حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيها إلى يوم الدين.

وهنا يبرز التساؤل عن مدلول كل من إرساء الجبال على سطح الأرض، وإرساء الأرض بالجبال، وهي من الآيات الكونية الناطقة بكمال القدرة الإلهية المبدعة في خلق الأرض، والمؤكِّدة أن الذي يملك تلك القدرة الخلَّاقة المبدعة قادر على إفناء خلقه وعلى إعادة بعث كل شيء من جديد. وقبل الإجابة على هذا السؤال، لابد من استعراض موجز لكل من الدلالة اللغوية للفظي الجبل والإرساء، ولأقوال المفسرين في هاتين الآيتين الكريمتين.

من الدلالة اللغوية:

(الجبل) في اللغة: هو المرتفع من الأرض ارتفاعاً ملحوظاً يجعله يعظم ويطول على ما حوله من الأرض، وجمعه **(جبال)** و**(أجبال)**، ودونه في الارتفاع: (التل)، ودون التل: (الربوة) أو (الرابية) أو (الأكمة) وجمعها: (آكام)، ودون الأكمة باتساع: (النجد) أو (الهضبة)، ودون الهضبة: (السهل) ودونه: (المنخفض).

وللفظة (الجبل) بمشتقاتها واستعاراتها وتشبيهاتها معانٍ أُخرى كثيرة، لا أرى داعياً إلى ذكرها هنا.

أما الفعل **(رسا)**، **(يرسو)**، **(رسواً)** و**(رسواً)** فمعناه: ثبت وقر، من مثل قولهم: (رست) السفينة، أي: وقفت عن الحركة في الماء على الأنجر (وهو مرساة السفينة)، وفي هذا المعنى يقول ربنا ـ ﷻ ـ في محكم كتابه:

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ **(هود: 41)**.

واللفظان: **(مجراها)** و**(مرساها)** مصدران من جرى وأرسى ـ على التوالي ـ؛ بمعنى: باسم الله جريها وإرساؤها، ويستخدم الفعل (أرسى) مجازاً بمعنى: تهدئة الأمور، فيقال: رسوت بين القوم أي: أثبت بينهم إيقاع الصلح، ويقال: (أرساه) غيره أي: ثبته وأقره، من



مثل قول الحق ﷻ: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾

و(المرسى) هو مكان الرسو أو زمانه، كما يقال للمصدر وللمفعول به، وفي معنى الزمان جاء قول الحق (سبحانه): ﴿**يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا**﴾**(الأعراف: 187)**، أي: قيامها وزمان ثبوتها.

(والمرساة): الآلة التي تُرسى بها السفينة، و**(الرواسي)**: هي الجبال الثوابت الراسخة، واحدتها **(راسية)**، وجاءت لفظة **(رواسي)** بهذا المعنى في القرآن الكريم تسع مرات من مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ٢٧﴾. **(المرسلات: 27)**.

وجاءت لفظة **(راسياتٍ)** مرةً واحدةً في كتاب الله وذلك في قوله ـ سبحانه ـ:

﴿**يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ**﴾ **(سبإ: 13)**.

أي: قدور ثابتات على الأثافي؛ وهي الأحجار يوضع عليها القدر كي يوقد عليه ما تحته.

من أقوال المفسرين

في تفسير قول الحق ﷻ:

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾ .

• ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «أي: قرها وأثبتها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم... وثبت جبالها لتستقر بأهلها، ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «أثبتها على وجه الأرض لتسكن، ﴿مَتَٰعٗا﴾ مفعول له لمقدر أي: فعل ذلك متعةً، أو مصدر، أي: تمتيعاً ﴿لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ جمع (نعم) وهي (الإبل والبقر والغنم)».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم ـ ما مختصره: «... وإرساء جبالها متاعاً للإنسان وأنعامه، وهي إشارة توحي بحقيقة التدبير والتقدير في بعض مظاهرها المكشوفة للجميع..».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢﴾ أي: وأرسى الجبال، أي: أثبتها في الأرض كي لا تميد وتضطرب، وقوله: ﴿أَرۡسَىٰهَا﴾ تفسير للفعل المضمر قبله .﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾ أي: تمتيعاً لكم ولأنعامكم، والآية تقريع لكفار مكة المنكرين للبعث، زاعمين صعوبته، بعد أن بيَّن الله كمال سهولته بالنسبة إلى قدرته...» .

• وجاء في المنتخب: «والجبال ثبتها متاعاً لكم ولأنعامكم».

• وجاء في صفوة التفاسير (جزى الله كاتبها خيراً) ما نصه: «﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢﴾ أي: والجبال أثبتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها، ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾ أي: فعل ذلك كله... منفعة للعباد وتحقيقاً لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم...».

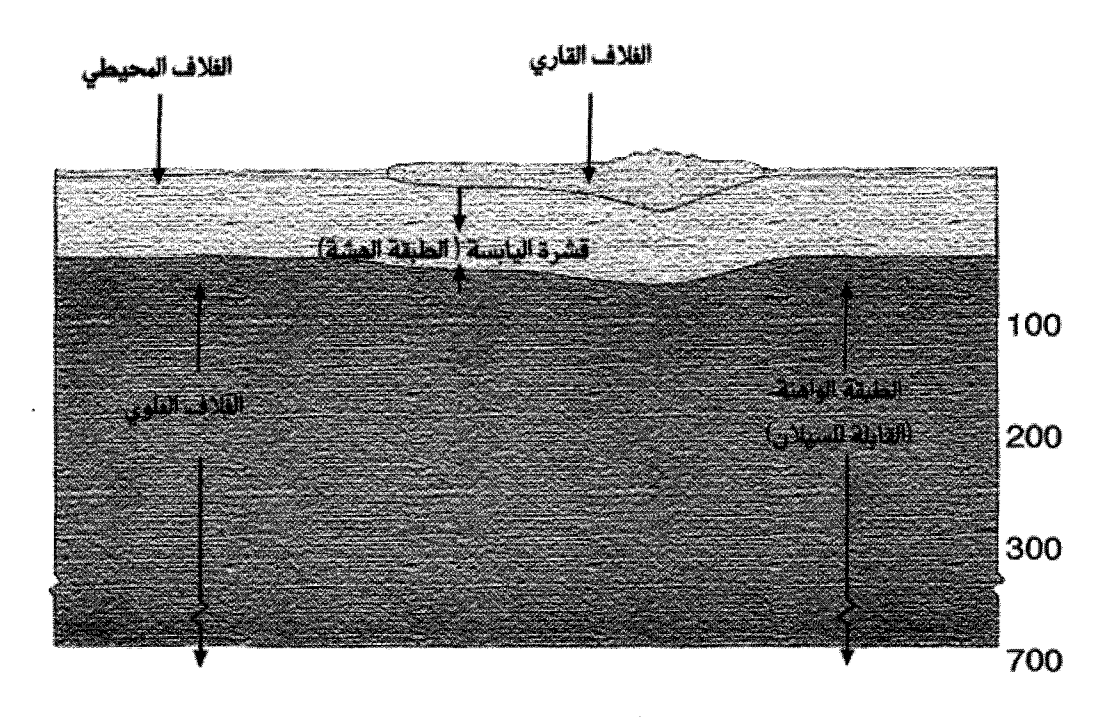
من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

فهم المفسرون السابقون من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢﴾ أن الضمير في ﴿أَرۡسَىٰهَا﴾ يعود على الجبال، ومن هنا قالوا: إن عملية الإرساء تتعلق بالجبال،

على أساس من أن الضمير في العربية يعود على أقرب اسم إليه، وانطلاقاً من ذلك فقد فهموا من الآية الكريمة معنى تثبيت الجبال في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بمن عليها، فلا تميد ولا تضطرب، وهذا الكلام يحمل في طيَّاته أيضاً تثبيت الأرض، لأن ضمير الغائب في الآيتين السابقتين ـ والذي جاء أربع مرات ـ يعود على الأرض، ولا يستبعد أن يكون كذلك في آية الجبال حيث يقول ربنا ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

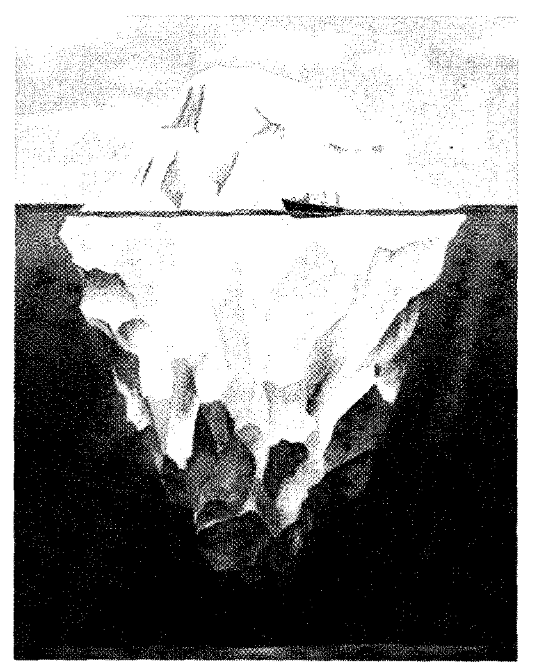
والصياغة هنا تحتمل معنى: وبالجبال أرساها، فيكون المعنى: إرساء الأرض بواسطة الجبال؛ بينما المعنى الأول يتعلق بإرساء الجبال على سطح الأرض، والمعنيان صحيحان صحةً كاملةً حسب معطيات علوم الأرض الحديثة، فالجبال مُثبَّتة في الغلاف الصخري للأرض، وهي أيضاً مُثبِّتة لهذا الغلاف الصخرى.

أولاً: في فهم معنى ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ **بمفهوم إرساء الجبال على سطح الأرض**:



نطق الغلاف الصخري للأرض

في خلال القرنين الماضيين تراكمت الأدلة العلمية التي تشير إلى أن الغلاف الصخري للأرض في حالة توازنٍ تام على الرغم من التباين الواضح في تضاريس سطحه، ومعنى ذلك أن كتلة المادة متساوية عبر كل أنصاف أقطار الأرض الممتدة من مركزها إلى مختلف النقاط على سطحها مهما تباينت تضاريس السطح، سواء كانت النقطة التي انتهى إليها نصف القطر أعلى قمة جبلية أو أخفض نقطة في أغوار المحيطات ولا يمكن تفسير ذلك إلا بتباين كثافة الصخور المكونة للأجزاء المختلفة من الغلاف الصخري للأرض، فالسلاسل الجبلية العالية تتكون من صخور أقل كثافة من الصخور المحيطة بها، والمناطق المنخفضة تتكون من صخور أعلى كثافة من صخور المناطق المرتفعة، وقد أكد ذلك أن الجزء العلوي من الغلاف الصخري للأرض المعروف باسم: **قشرة الأرض** يتباين كلٌّ من سمكه وكثافته في القارات عنهما في قيعان البحار والمحيطات، فيتراوح سمك القشرة القارية بين30 و40 كيلومتراً، ويغلب على تركيبها الصخور الجرانيتية (بمتوسط كثافة 2.7 جم/ سم^3) بينما يتراوح سمك قشرة قاع المحيط بين5 و8 كيلومتراً، ويغلب على تركيبها الصخور البازلتية (بمتوسط كثافة 2.9 جم/ سم^3) وبذلك تطفو كتل القارات فوق قيعان البحار والمحيطات. وبالمثل فإن ألواح الغلاف الصخري الحاملة للقارات يتراوح سمكها بين100 و150 كيلومتراً، ويغلب على تكوينها صخور ذات كثافة أقل نسبياً من الصخور المكونة لألواح قيعان البحار والمحيطات والتي لا يتعدى سمكها سبعين كيلومتراً؛ وكلا الصنفين من الألواح المكونة لغلاف الأرض الصخري ـ القارية والمحيطية ـ يطفو فوق نطاق أعلى كثافة، وهو نطاق شبه منصهر، لدن ـ مرن ـ يعرف باسم: «**نطاق الضعف الأرضي**»، وهذا النطاق يتأثر بالضغوط فوقه نظراً لمرونته، فيتحرك إلى أسفل كلما زادت عليه الضغوط، وإلى أعلى كلما قلت، ويتم ذلك بعمليتين متعاكستين تسمى الأولى منهما باسم: **التضاغط المرتد**،



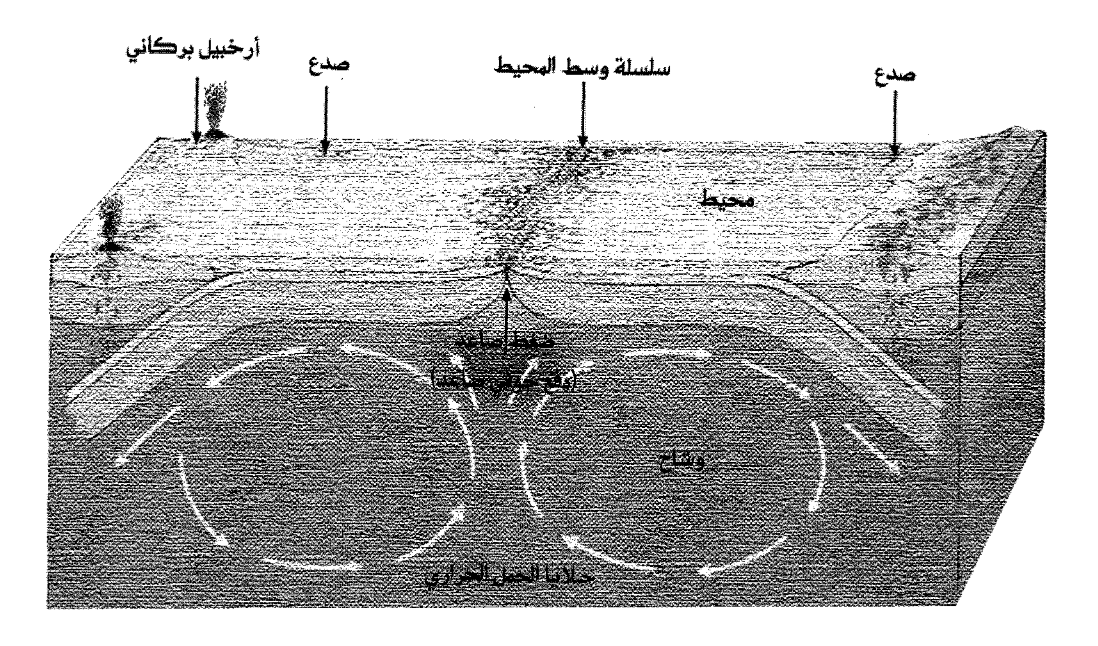
الجبال الجليدية لها امتداد في داخل المحيطات تبلغ أضعاف الجزء البارز فوق الماء. كما هي الحال بالنسبة للجبال فوق اليابسة

وتسمى الثانية باسم: «**الارتداد التضاغطي المرتد**»، وتتمان للمحافظة على الاتزان الأرضي، فإذا ارتفع الجبل بصخوره الخفيفة نسبياً إلى قمم سامقة، فلابد من إزاحة كمٍّ مساوٍ لكتلته من المادة شبه المنصهرة في نطاق الضعف الأرضي الموجود أسفل الجبل مباشرة، مما يساعد الصخور المكونة للجبل على الاندفاع إلى أسفل بامتدادات عميقة تسمى تجاوزاً باسم: «**جذور الجبال**»، وهذه الجذور الجبلية تخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل لتطفو في نطاق الضعف الأرضي، كما تطفو جبال الجليد في مياه المحيطات، يحكمهما في الحالين قوانين الطفو. وبناء على كثافة الصخور المكونة للجبال بالنسبة إلى كثافة صخور نطاق الضعف الأرضي، وكتلة الجبل نفسه يكون عمق الامتدادات الداخلية لصخور الجبل؛ أي: جذوره. وقد ثبت أن كل نتوء على سطح الأرض له امتداد في داخلها يتراوح بين10 و15 ضعف ارتفاع هذا النتوء فوق مستوى سطح البحر، وكلما زاد هذا الارتفاع الخارجي لتضاريس سطح الأرض، زادت امتداداته الداخلية أضعافاً كثيرةً؛ وهكذا تثبت الجبال على سطح الأرض بانغراسها في غلافها الصخري، وطفوها في نطاق الضعف الأرضي. كما تعين هي على تثبيت الأرض، فتقلل من ترنحها في دورانها حول محورها، وتثبت ألواح الغلاف الصخري للأرض مع بعضها البعض بأوتاد الجبال، فتربط القارة بقاع المحيط، فإذا استهلك قاع محيط فاصل بين قارتين ارتطمت القارتان ببعضهما، ونتج عن ذلك أعلى السلاسل الجبلية التي تربط بأوتادها القارتين المصطدمتين فتقلل من حركة الألواح الصخرية الحاملة لهما، وبذلك تصبح الحياة على سطحي القارتين المرتطمتين أكثر استقراراً.

وكلما برت عوامل التجوية والتحات والتعرية قمة الجبل دفعته قوانين الطفو إلى أعلى، حتى يتم خروج جذور ـ أوتاد ـ الجبل من نطاق الضعف الأرضي بالكامل؛ وحينئذ يتوقف الجبل عن الارتفاع، وتستمر العوامل الخارجية في بريه حتى يصل سمكه إلى سمك لوح الغلاف الصخري الذي يحمله، فيضم إلى باقي صخور القارة الموجود فيها على هيئة راسخ **(Carton)** من رواسخ الأرض.

ثانياً: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ بمفهوم إرساء ألواح الغلاف الصخري للأرض بواسطة الجبال:

اختلف العلماء في فهم دور الجبال في إرساء الأرض اختلافاً كبيراً؛ وذلك لأن كتل الجبال على سطح الأرض ـ على الرغم من ضخامتها ـ تتضاءل أمام كتلة الأرض المقدَّرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن ($10^{18} \times 5876$ طناً)؛ وكذلك فإن ارتفاع أعلى



شكل يوضح ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات وتكوّن حواف أواسط المحيطات

قمم الأرض ـ وهو أقل قليلاً من تسعة كيلومترات ـ لايكاد يذكر بجوار متوسط نصف قطر الأرض (6371 كيلومتراً)، فإذا جمع ارتفاع أعلى قمم الأرض إلى أعمق أغوار المحيطات ـ أكثر قليلاً من أحد عشر كيلومتراً ـ، فإنه لايكاد يصل إلى عشرين كيلومتراً ونسبته إلى متوسط قطر الأرض لاتتعدى 0.3%.

من هنا يبرز التساؤل: كيف يمكن للجبال أن تثبت الأرض بكتلتها الهائلة وأبعادها الشاسعة، في الوقت الذي لا تكاد كتلة وأبعاد الجبال أن تبلغ من ذلك شيئاً؟

(أ) تثبيت الجبال لألواح الغلاف الصخري للأرض:

في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين، تمت بلورة مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض؛ فقد اتضح أن هذا الغلاف ممزق بشبكةٍ هائلةٍ من الصدوع تمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات، لتحيط بالكرة الأرضية إحاطةً كاملةً بعمق يتراوح بين65 و150 كيلومتراً، فتقسمه إلى عددٍ من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق الضعف الأرضي. وتتحرك في هذا النطاق من نطق الأرض التيارات الحرارية على هيئة دواماتٍ عاتيةٍ من تيارات الحمل تدفع بألواح الغلاف الصخري للأرض لتباعد بينها عند أحد أطرافها، وتصدمها ببعض عند حوافها المقابلة لحواف التباعد، وتجعلها تنزلق عبر بعضها البعض عند الحافتين الأخرتين، كما سبق وأن أوضحنا.

ويعين على تسارع حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، كما يعين على ذلك اندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر الصدوع الفاصلة بين حدود الألواح المتباعدة عن بعضها البعض، فيتكون باستمرار أحزمة متوازية من الصخور البركانية التي تتوزع بانتظام حول مستويات الصدوع الفاصلة بين الألواح المتباعدة في ظاهرة تعرف باسم «**ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات**». وتتكون الصخور الأحدث عمراً حول مستويات التصدع المتباعدة باستمرار، وتدفع الصخور الأقدم عمراً في اتجاه اللوح المقابل عند خط الاصطدام، وهنا يهبط قاع المحيط تحت القارة إذا كان اللوح المقابل يحمل قارة، ويتم ذلك بنفس معدل اتساع قاع المحيط في كل جهة من جهتي الاتساع حول مستوى تصدع وسط المحيط، الذي تتكون حوله سلاسل من الجروف البركانية تمتد فوق قاع المحيط لعشرات الآلاف من الكيلومترات وتعرف باسم «**حواف أواسط المحيطات**».

وينتج عن هبوط قاع المحيط تحت اللوح الصخري الحامل للقارة تكوُّن أعمق أجزاء هذا المحيط على هيئة جب عميق يعرف باسم «**الجب البحري**»، ونظراً لعمقه يتجمع في هذا الجب كمٌّ هائل من الرسوبيات البحرية التي تتضاغط وتتلاحم، مكونةً تتابعات سميكةٍ جداً من الصخور الرسوبية، ويتبادل مع هذه الصخور الرسوبية ويتداخل فيها كمٌّ هائل من الصخور النارية التي تعمل على تحول أجزاء منها إلى صخور متحولة.

وتنتج الصخور البركانية عن الانصهار الجزئي لقاع المحيط المندفع هابطاً تحت القارة، وتنتج الصخور المتداخلة عن كل من الصهارة الناتجة عن هذا الهبوط، وعن الإزاحة من نطاق الضعف الأرضي بدخول اللوح الهابط فيه.

هذا الخليط من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة، يكشط باستمرار من فوق قاع المحيط الهابط بحركته المستمرة تحت اللوح الصخري الحامل للقارة، فيُطوى ويتكسر هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة، ويضاف إلى حافة القارة مكوناً سلسلةً أو عدداً من السلاسل الجبلية ذات الجذور العميقة التي تربط كتلة القارة بقاع المحيط، فتهدِّىء من حركة اللوحين وتعين على استقرار اللوح الصخري الحامل للقارة استقراراً ولو جزئيًّا يسمح بإعمارها.

وتتوقف حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض بالكامل عندما تصل دورة بناء الجبال إلى نهايتها، حين تتحرك قارتان مفصولتان بمحيط كبير في اتجاه بعضهما البعض حتى يستهلك قاع المحيط كاملاً بدخوله تحت إحدى القارتين حتى تصطدما، فيتكون بذلك أعلى

السلاسل الجبلية ارتفاعاً، كما حدث عند ارتطام اللوح القاري الحامل للهند باللوح القاري الحامل لقارتي آسيا وأوروبا ونتج عن ذلك الارتطام تكوُّن سلسلة جبال الهيمالايا.

من هنا اتضح دور الجبال في إرساء ألواح الغلاف الصخري للأرض وتثبيتها، ولولا ذلك ما استقامت الحياة على سطح الأرض أبداً؛ لأن حركة هذه الألواح كانت في بدء خلق الأرض على درجة من السرعة والعنف لا تسمح لتربة أن تتجمع، ولا لنبتة أن تنبت، ولا لحيوان أو إنسان أن يعيش، خاصةً وأن سرعة دوران الأرض حول محورها كانت في القديم أعلى من معدلاتها الحالية بكثير؛ لدرجة أن طول الليل والنهار معاً عند بدء خلق الأرض كان يقدر بأربع ساعاتٍ فقط، وأن عدد الأيام في السنة كان أكثر من 2200 يوم، وهذه السرعة الفائقة لدوران الأرض حول محورها كانت بلاشك تزيد من سرعة انزلاق ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق الضعف الأرضي، وهي تدفع أساساً بظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات، وبملايين الأطنان من الصهارة الصخرية والحمم البركانية المندفعة عبر صدوع تلك القيعان.

وبتسارع حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض تسارعت الحركات البانية للجبال، وبتسارع بنائها هدأت حركة هذه الألواح، وهُيِّئت الأرض لاستقبال الحياة. وقبل مقدم الإنسان كانت غالبية ألواح الغلاف الصخري للأرض قد استقرت، بكثرة تكوُّن السلاسل والمنظومات الجبلية، وأخذت الأرض هيأتها لاستقبال هذا المخلوق المكرَّم الذي حمله الله تعالى أمانة ومسؤولية الاستخلاف في الأرض.

(ب) تثبيت الجبال لكوكب الأرض:

تساءل العلماء عن إمكانية وجود دور للجبال في اتزان حركة الأرض ككوكب وجعلها قراراً صالحاً للحياة وجاء الرد بالإيجاب؛ لأنه نتيجة لدوران الأرض حول محورها، فإن القوة الطاردة المركزية الناشئة عن هذا الدوران تبلغ ذروتها عند خط استواء الأرض، ممَا يؤدي إلى التقليل من دور الجاذبية والعكس تماماً يتم عند القطبين، ولذلك فإن الأرض انبعجت قليلاً عند خط الاستواء حيث تقل قوة الجاذبية، وتطغى القوة الطاردة المركزية، وتفلطحت قليلاً عند القطبين حيث تطغى قوة الجاذبية، وتتضاءل القوة الطاردة المركزية، ونتيجة لاستمرار هذه العمليات فإن طول قطر الأرض الاستوائي يزداد باستمرار بينما يقل طول قطرها القطبي، وإن كان ذلك يتم بمعدلاتٍ بطيئةٍ جداً، إلا أنه قد أخرج الأرض عن شكلها الكروي إلى شكل شبه كروي، وشبه الكرة لا يمكن لها أن تكون منتظمة في دورانها حول محورها؛ لأن الانبعاج الاستوائي للأرض يجعل محور دورانها يغير اتجاهه رويداً

رويداً في حركةٍ معقدةٍ مردها إلى تأثير جاذبية أجرام المجموعة الشمسية وبخاصة الشمس والقمر على الأرض، وتعرف هذه الحركة باسم: «**الحركة البدارية أو حركة الترنح والبدارية**».

وتنشأ هذه الحركة عن ترنح الأرض في حركةٍ بطيئةٍ تتمايل فيها من اليمين إلى اليسار بالنسبة إلى محورها العمودي الذي يدور لولبياً دون أن يشير طرفاه الشمالي والجنوبي إلى نقطة ثابتة في الشمال أو في الجنوب، ونتيجة للتقدم أو التقهقر، فإن محور دوران الأرض يرسم بنهايته دائرة حول قطب البروج تتم في فترة زمنية قدرها نحو (26,040) سنةً من سنيننا.

ويتبع ترنح الأرض حول مدارها مساراً متعرجاً بسبب جذب كل من الشمس والقمر للأرض، وتبعاً للمتغيرات المستمرة في مقدار واتجاه القوة البدارية لكل منهما، ويؤدي ذلك إلى ابتعاد الدائرة الوهمية التي يرسمها محور الأرض أثناء دورانها وترنحها فتتحول إلى دائرةٍ مؤلفةٍ من أعدادٍ من الأقواس المتساوية، التي يبلغ عددها في الدورة الكاملة 1400 ذبذبةٍ (أو قوسٍ) ويستغرق رسم القوس الواحد 18.6 سنةً أي أن هذه الدائرة تتم في (26,040) سنة، وتسمى باسم: **حركة الميسان (النودان أو التذبذب)**، وقد أثبتت الدراسات الفلكية أن لمحور دوران الأرض عدداً من الحركات الترنحية التي تستغرق أوقاتاً مختلفةً يبلغ أقصرها عشرة أيام، ويبلغ أطولها 18.6 سنةً من سنيننا.

ووجود الجبال ذات الجذور الغائرة في الغلاف الصخري للأرض، يقلل من شدة ترنح الأرض في دورانها حول محورها، ويجعل حركتها أكثر انتظاماً وسلاسةً، تماماً كما تفعل قطع الرصاص التي توضع حول إطار السيارة لانتظام حركتها، وقلة رجرجتها، وبذلك أصبحت الأرض مؤهلة للعمران.

وهنا يتضح وجه من أوجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وذلك في قول ربنا ﷻ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾، وقد تكرر هذا المعنى في تسعة مواضع أُخرى من كتاب الله وصفت فيها الجبال بأنها رواسي، وهذه الآيات الكريمة بقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ (الرعد: 3).
- ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ (الحجر: 19).

• ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ (النحل: 15).

• ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الأنبياء: 31).

• ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النمل: 61).

• ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ (لقمان: 10).

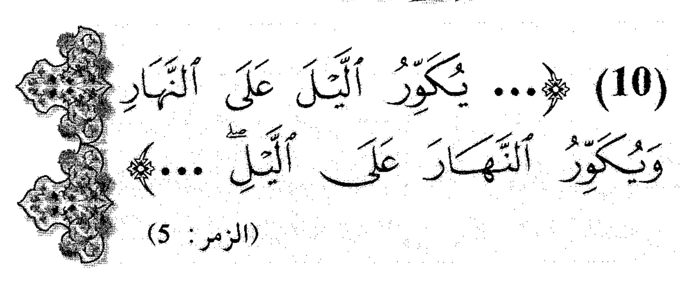
• ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (فصلت: 10).

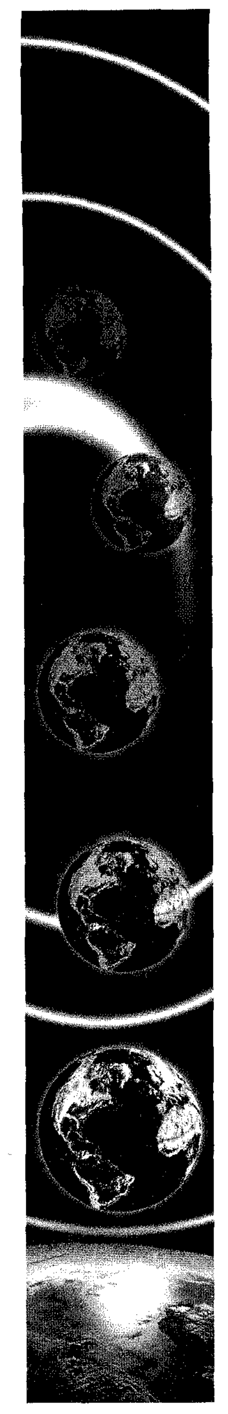
• ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ (ق: 7).

• ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ (المرسلات: 25 ـ 27).

وهذه حقائق لم يتوصل الإنسان إلى إدراك شي منها إلا في القرنين الماضيين بصفةٍ عامةٍ، وفي أواخر القرن العشرين بصفةٍ خاصةٍ، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا السبق العلمي غير الخالق ﷻ وفي هذا من التأكيد القاطع، والحسم الجازم ما فيه بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وأن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ تلقى هذا القرآن عن ربه بواسطة الوحي الذي بقي موصولاً به حتى أتاه اليقين، وأنه ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ كان كما يصف القرآن الكريم: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ**﴾ (**النجم**: 3)، فَصَلِّ اللّهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم





هذا النص القرآني الكريم جاء في مقدمة سورة «الزمر»، والتي سميت بهذا الاسم لحديثها عن زمر المتقين، السعداء، المكرمين من أهل الجنة، وزمر العصاة، الأشقياء المهانين من أهل النار، وحال كل منهم في يوم الحساب.

و سورة «الزمر» مكية، وعدد آياتها (75) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة ـ شأنها في ذلك شأن كل السور المكية ـ ولذلك فهي تركز على عقيدة التوحيد الخالص لله، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد.

واستهلت السورة بالحديث عن القرآن الكريم الذي أنزله ربنا ﷻ بالحق على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هدايةً للناس كافةً، وإنذاراً من رب العالمين، وجعله معجزة خالدة إلى يوم الدين، وملأه بالأنوار الإلهية، والإشراقات النورانية، التي منها الأمر إلى الناس كافة، بالتبعية لهذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ وبإخلاص الدين لله، وتنزيهه ـ جل في علاه ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله.

وذكرت السورة عدداً كبيراً من الأدلة المادية الملموسة، التي تشهد للخالق ﷻ بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وبإحكام الخلق، وبالتالي تشهد له ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ومن هذه الأدلة المادية: خلق السمٰوات والأرض بالحق، وخلق كل شيء حسب مايشاء ـ سبحانه ـ، تكوير الأرض، وتبادل الليل والنهار عليها، وتسخير كل من الشمس والقمر، وخلق

البشر كلهم من نفسٍ واحدةٍ، وخلق زوجها منها (وكذلك الزوجية في كل خلق)، إنزال ثمانية أزواج من الأنعام، وصف مراحل الجنين التي يمر بها الإنسان وخلقه في ظلماتٍ ثلاث، إنزال الماء من السماء وخزن بعضه في صخور الأرض، إخراج الزرع ودورة حياته، حتمية الموت على كل مخلوق، تكافؤ النوم مع الوفاة، واليقظة من النوم مع البعث بعد الموت، وقبض الأرض، وطي السمٰوات يوم القيامة.

وتحدثت السورة الكريمة كذلك عن الإيمان الذي يرتضيه ربنا ﷻ من عباده، والكفر الذي لا يرضاه، وعن علم الله ـ تعالى ـ بكل ما في الصدور، وعن قدرته ﷻ على محاسبة كل مخلوق بعمله، وعن طبائع النفس البشرية في السراء والضراء، وعن الفروق بين كل من الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر في مواقفهما في الدنيا والآخرة، وبين الإخلاص في العبادة وبين الإغراق في المعاصي، وبين كل من التوحيد والشرك، وبين الذين يعلمون والذين لا يعلمون. وتحدثت السورة الكريمة كذلك عن العديد من مشاهد القيامة وأهوالها؛ كما تحدثت عن نفختي الصعق والبعث، ومايعقبهما من أحداثٍ مروعة، وعن يوم الحشر حين يساق المتقون إلى الجنة زمراً، ويساق المجرمون إلى جهنم زمراً، ولكن شتان بين سوق التكريم، وسوق الإهانة والإذلال والتجريم، ويتم ذلك كله في حضرة الأنبياء والشهداء، والملائكة حافِّين من حول العرش، والوجود كله خاضع لربه، متجه إليه بالحمد والثناء، راجٍ رحمته، مشفق من عذابه، راضٍ بحكمه، حامد لقضائه.

ومن الأدلة المادية المطروحة في «سورة الزمر» للاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية على الخلق، وبالتالي على الشهادة للخالق ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه قوله ـ تعالى ـ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾

(الزمر: 5).

وهذه الآية آية جامعة، تحتاج في شرحها إلى مجلدات، ولذا فسوف أقتصر هنا على الإشارة القرآنية الكريمة إلى كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، في زمن ساد الاعتقاد بالاستواء التام للأرض بلا أدنى انحناء، وبثباتها التام دون أدنى حركة، وتمت الإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية في كتاب الله بأسلوب لا يفزع العقلية البدوية في زمن تنزّل الوحي، فجاء التكوير صفة لكل من الليل والنهار، وكلاهما من الفترات الزمنية التي تعتري الأرض، فإذا تكوَّرا كان في ذلك إشارة

ضمنية رقيقة إلى كروية الأرض، وإذا تكور أحدهما على الآخر كان في ذلك إشارة إلى تبادلهما، وهي إشارة ضمنية رائعة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، دون أن تثير بلبلة في زمن لم تكن للمجتمعات الإنسانية بصفةٍ عامةٍ والمجتمعات في جزيرة العرب بصفةٍ خاصةٍ أي حظ من الثقافة العلمية.

الإشارات الكونية في سورة «الزمر»

في سياق الاستشهاد على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، والاستدلال من ذلك على وحدانية الخالق ﷻ، وعلى حتمية البعث وضرورته جاء في سورة «الزمر» عدد من الإشارات إلى الكون وبعض مكوناته وظواهره يمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ وصف عملية خلق السمٰوات والأرض بأنها تمت بالحق أي حسب قوانين وسنن منضبطة تشهد لخالقها بأنه الحق ﷻ.

2 ـ الإشارة الضمنية الرقيقة إلى كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى جريها في مدارها، وجري كلٍّ من الشمس والقمر وبالتالي كل أجرام السماء إلى أجل مسمى.

3 ـ التأكيد على خلق البشر كلهم من نفس واحدة.

4 ـ ذكر عملية إنزال ثمانية أزواج من الأنعام، والإنزال هنا قد يشير إلى إنزال الشيفرة الوراثية الخاصة بكل منها.

5 ـ الإشارة إلى خلق جنين الإنسان في ظلمات ثلاث، وهو ما أثبته علم الأجنة مؤخراً.

6 ـ التأكيد على عدم المساواة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأن الذين يتدبرون ويفهمون ويتذكرون هم أولو الألباب والنهى.

7 ـ الإشارة إلى أن أصل الماء تحت سطح الأرض هو ماء المطر الذي يسلكه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ينابيع في الأرض، ثم يخرج به زروعاً مختلفة الأنواع والألوان والثمار، ثم بعد النضج ييبس الزرع ويجف بعد نضارته، ويصفر لونه، ثم يتحطم ويصبح فتاتاً متكسراً.

8 ـ المقارنة بين النوم والموت، وبين اليقظة من النوم والبعث في الآخرة، مما يشير إلى مفارقة الروح للجسد في حالتي النوم والممات، ثم يعاد إرسالها للنائم لحظة يقظته،

وإمساكها عن جسد الميت لحظة وفاته، ثم إعادتها إليه في لحظة البعث.

9 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل.

10 ـ الإشارة إلى أن الأرض سوف تكون في قبضة الخالق ﷻ في يوم القيامة، وأن السمٰوات سوف تكون مطويات بيمينه، وهذا من أمور الغيب المطلق، ولكنه حديث الخالق الباعث الشهيد.

11 ـ الإشارة إلى أن الأرض في الآخرة سوف تشرق بنور ربها كما أشرقت أرض الدنيا بنوره ﷻ؛ والعلوم المكتسبة تؤكد أن الأصل في الكون الحالي هو الظلام، وأن نور النهار هو نعمة يمن بها الله ـ تعالى ـ على عباده.

وهنا سوف نعالج قضية واحدة من القضايا التي تطرّقت إليها الإشارات الكونية لسورة الزمر والتي جاءت في الآية رقم (21) منها، وقبل الشروع في ذلك لا بد من استعراض سريع للدلالة اللغوية لألفاظ النص، ثم لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية المباركة.

الدلالة اللغوية:

يقال في اللغة العربية: (كار) الشيء (يكوره) (كوراً) و(كروراً)، و(يكوره) (تكويراً) أي: أداره، وضم بعضه إلى بعض، (ككور) العمامة، أي: جعلها كالكرة، ويقال: (طمنه فكوره) إذا ألقاه مجتمعاً، كما يقال: (اكتار) الفرس إذا أدار ذنبه في عدوه، وقيل للإبل الكثيرة: (كور)، و(كوارة) النحل معروفة، و(الكور) الرحل، وقيل لكل مصر: (كورة) وهي البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال عديدة، و(الكرة) التي تضرب بالصولجان، وتجمع على (كرين) بضم الكاف وكسرها، تجمع كذلك على كرات. وجاء الفعل (كور)، (يكور)، (تكويراً) في القرآن الكريم كله مرتين فقط إحداهما بصيغة الفعل المضارع (يكور) في الآية الكريمة التي نحن بصددها، وثانيتهما جاءت في سورة التكوير بصيغة المبني للمجهول وذلك في قول الحق ﷻ:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ **(التكوير: 1)**.

أي: جعلت كالكرة بانسحاب ألسنة اللهب المندفعة منها إلى آلاف الكيلومترات فوق سطحها إلى داخلها، كناية عن بدء انطفاء جذوتها. كما أن الشمس كجرم سماوي يدور حول محوره ويجري في مداره قد فقد شيئاً من تكوره ومع تباطؤ حركة الشمس قد تستعيد شيئاً من ذلك التكور.

من شروح المفسرين

في تفسير قوله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ **(الزمر: 5)**

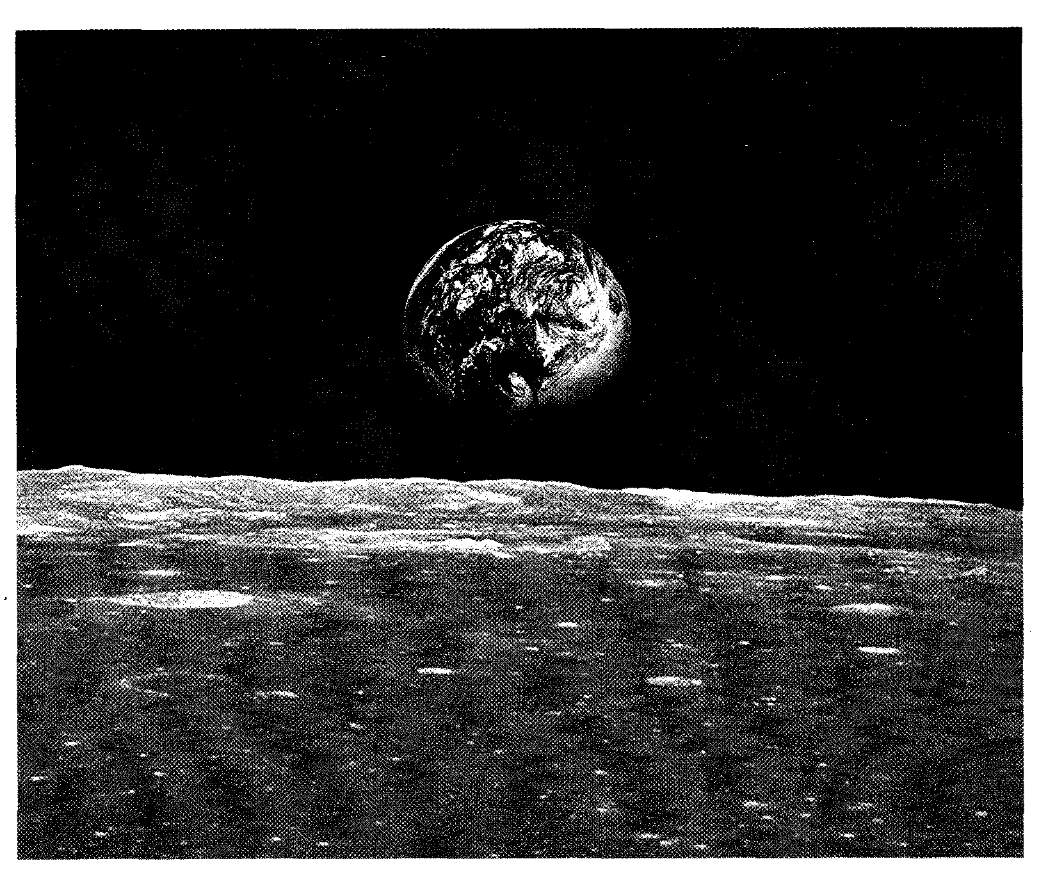
• ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: «يخبر - تعالى - أنه الخالق لما في السمٰوات والأرض، ومابين ذلك من الأشياء، وبأنه مالك الملك، المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: سخرهما يجريان متعاقبين، ولا يفترقان، كل منهما يطلب الآخر طلباً...». ويضيف: وقوله عز وجل: «وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة، ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه، هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين - رحمهما الله - ما نصه: ولحكمة، لا عبثاً باطلاً، متعلق بِ خلق. (يكور) أي: «يدخل - الليل على النهار - فيزيد (ويكور النهار) يدخله - على الليل - فيزيد». وجاء في الهامش التعليق التالي من أحد المحققين: «قوله تعالى ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ ما ذكره المؤلف الجلال المحلي في معنى التكوير: هو معنى الإيلاج الوارد في مثل قوله تعالى ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ **(الحجّ: 61)**، وهذا تفسير غير موافق لمعنى اللغة؛ لأن التكوير والإيلاج ليسا بمعنى واحد، وإلا فما معنى قوله تعالى ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾؟ قال في القاموس: التكوير في اللغة طرح الشيء بعضه على بعض، ومنه كور العمامة، فيكون معنى الآية: إن الله تعالى سخر الليل والنهار يتعاقبان، يذهب أحدهما فيعقبه الآخر إلى يوم القيامة، وفي الآية إشارة واضحة إلى أن الأرض لاتخلو من ليلٍ في مكان ونهارٍ في آخر، على مدار الساعة».

• وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه:

«﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.. ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ **(البقرة: 213)**.. فهو الحق الواحد في ذلك الكون وفي هذا الكتاب.. وكلاهما صادر من مصدر واحد، وكلاهما آية على وحدة المبدع العزيز الحكيم، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ

﴿ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾.. وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض، فهو يصور حقيقةً ماديةً ملحوظةً على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً، ولكن هذا الجزء لايثبت؛ لأن الأرض تدور، وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار، وهذا السطح مكور، فالنهار كان عليه مكوراً، والليل يتبعه مكوراً كذلك، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأُخرى يتكور على الليل، وهكذا في حركة دائبة ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾.. واللفظ يرسم الشكل، ويحدد الوضع، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر...».



صورة حقيقية للأرض من على سطح القمر تظهر كروية الأرض وطبقة النهار المواجهة للشمس على كل من الأرض والقمر

• وذكر صاحب صفوة البيان ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ تكوير الشيء: إدارته، وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، أي: أن هذا يكر على هذا، وهذا يكر على هذا كروراً متتابعاً كتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض، إلا أن أكوار العمامة مجتمعة، وفيما نحن فيه متعاورة.. وقيل المعنى: يزيد الليل على النهار ويضمه إليه، بأن يجعل بعض أجزاء الليل نهاراً، فيطول النهار عن الليل، ويزيد النهار عن الليل ويضمه إليه بأن يجعل بعض أجزاء النهار ليلاً فيطول الليل عن النهار، وهو كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «خلق السمٰوات والأرض متلبساً بالحق والصواب على ناموس ثابت، يلف الليل على النهار ويلف النهار على الليل على صورة الكرة، وذلل الشمس والقمر لإرادته ومصلحة عباده، كل منهما يسير في فلكه إلى وقت محدد عنده.. وهو يوم القيامة، ألا هو ـ دون غيره ـ الغالب على كل شيء، فلا يخرج شيء عن إرادته، الذي بلغ الغاية في الصفح عن المذنبين من عباده». وجاء في الهامش هذا التعليق: «تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الأرض كروية تدور حول نفسها؛ لأن مادة التكوير معناها: لف الشيء على الشيء على سبيل التتابع، ولو كانت الأرض غير كروية (مسطحة مثلاً) لخيَّم الليل أو طلع النهار على جميع أجزائها دفعة واحدة ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾.

• وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ بارك الله في جهده ـ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: «خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق الواضح والبرهان الساطع ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ أي: يغشي الليل على النهار ويغشي النهار على الليل، وكأنه يلف عليه لف اللباس على اللابس، قال القرطبي: و«تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته وهذا منقول عن قتادة...».

كروية الأرض في المعارف المكتسبة

كان أول من قال بكروية الأرض فلاسفة الحضارة العراقية القديمة المعروفة باسم: حضارة ما بين النهرين في حدود سنة2000 ق.م. وعنهم أخذ فلاسفة اليونان ومنهم: «فيثاغورس» الذي نادى بها في منتصف القرن السادس ق.م. مؤكداً أن الشكل الكروي هو أكثر الأشكال الهندسية انتظاماً لكمال انتظام جميع أجزاء الكرة، بالنسبة إلى مركزها،

وعلى ذلك فإن الأرض وجميع أجرام السماء لابد أن تكون كروية الشكل، وبقي هذا الرأي شائعاً في الحضارة اليونانية القديمة حتى القرن الرابع ق.م. إلى أن عارضه «أرسطو» فشاع بين الناس الاعتقاد باستواء الأرض بلا أدنى انحناء.

وفي عهد الخليفتين العباسيين «الرشيد» و «المأمون» (في القرن الهجري الثاني وأوائل الثالث) نادى عدد من علماء المسلمين ومنهم: «البيروني» و «ابن سينا» و «الكندي» و«الرازي» وغيرهم بكروية الأرض التي استدلوا عليها بعدد من الظواهر الطبيعية التي منها ما يلي:

(1) استدارة حد ظل الأرض حين يقع على سطح القمر في أوقات خسوفه.

(2) اختلاف ارتفاع النجم القطبي بتغير مكان الراصد له قرباً من خط الاستواء أو بعداً عنه.

(3) تغير شكل قبة السماء من حيث مواقع النجوم وتوزيعها فيها باقتراب الراصد لها من أحد القطبين.

(4) رؤية الأفق دوماً على هيئة دائرة تامة الاستدارة واتساع دائرته بارتفاع الرائي فوق سطح الأرض.

(5) ظهور قمم الجبال البعيدة قبل سفوحها بتحرك الرائي إليها، واختفاء أسافل السفن قبل أعاليها في تحركها بعيداً عن الناظر إليها.

وقام علماء المسلمين في هذا العصر الذهبي بقياس محيط الأرض بدقةٍ فائقةٍ، وبتقدير مسافة درجة الطول في صحراء العراق وعلى طول ساحل البحر الأحمر، وكانوا في ذلك سابقين للحضارة الغربية بتسعة قرون على الأقل، فقد أعلن الخليفة المأمون لأول مرةٍ في تاريخ العلم بمنهجيّة استقرائية دقيقة أن الأرض كروية ولكنها ليست كاملة الاستدارة.

ثم جاء نيوتن في القرن السابع عشر الميلادي ليتحدث عن نقص تكور الأرض من منطلق آخر، إذ ذكر أن مادة الأرض خاضعة لقوتين متعارضتين: قوة الجاذبية التي تشد مادة الأرض إلى مركزها، والقوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها والتي تدفعها إلى الخارج، والقوة الأخيرة تبلغ ذروتها عند خط استواء الأرض فتؤدي إلى انبعاجها قليلاً بينما تنقص إلى أقل قدر لها عند القطبين فيتفلطحان قليلاً، ثم جاء تصوير الأرض من الفضاء في أواخر القرن العشرين ليؤكد كلًّا من كروية الأرض وانبعاجها قليلاً عند خط استوائها.

كروية الأرض في القرآن الكريم

من الحقائق الثابتة عن الأرض أنها مكورة ـ كرة أو شبه كرة ـ، ولكن نظراً لضخامة أبعادها فإن الإنسان يراها مسطحةً بغير أدنى انحناء، وهكذا ساد الاعتقاد بين الناس بهذا التصور للأرض إلى زمن الوحي بالقرآن الكريم، وإلى قرون متطاولة من بعد ذلك، بل بين العوام إلى يومنا هذا، على الرغم من وجود عددٍ من الملاحظات القديمة التي تشير إلى كرويتها.

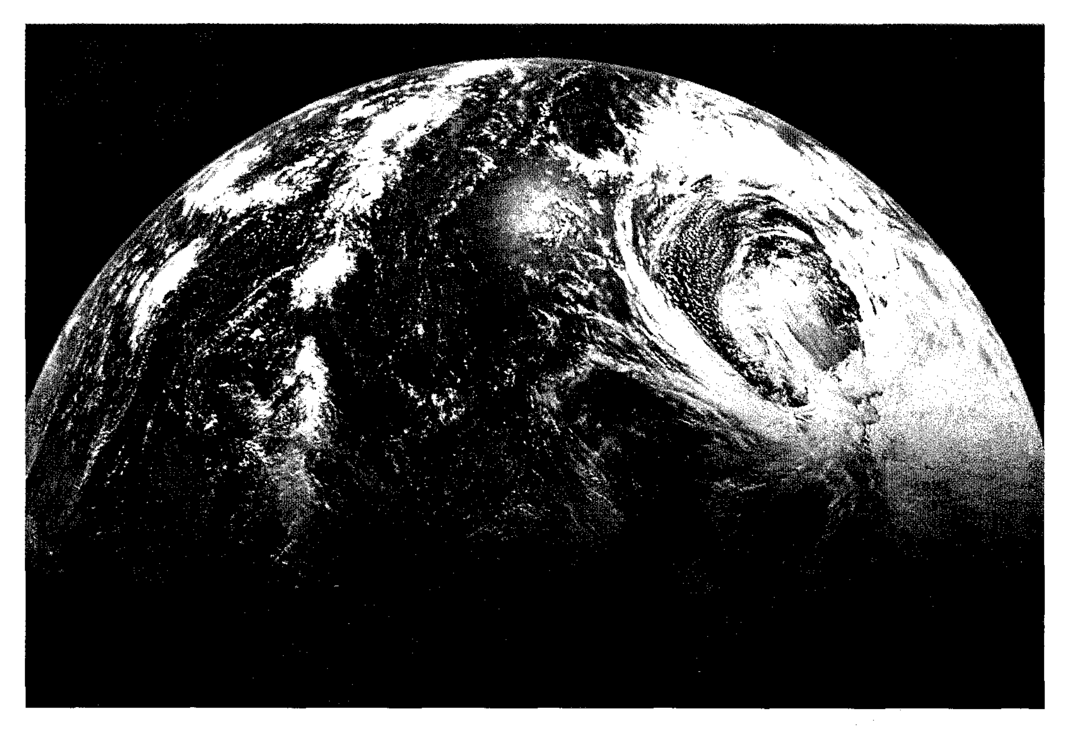
ولذلك فإن القرآن الكريم يتحدث عن هذه الحقيقة بطريقة غير مباشرة، وبصياغة ضمنية لطيفة، ولكنها في نفس الوقت بالغة الدقة والشمول والإحكام، وجاء ذلك في عدد من آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن تكور كل من الليل والنهار على الآخر، وولوجه فيه، وانسلاخه منه، وعن مد الأرض وبسطها، ودحوها وطحوها، وعن كثرة المشارق والمغارب فيها مع بقاء قمة عظمى ونهايتين لكل منهما، ومن تلك الآيات قوله ـ تعالى ـ:

(ا) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥﴾

(الزمر: 5).

ومعنى **(يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل)** أي: يغشي كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه، وهو وصف واضح الدلالة على كروية الأرض، وعلى دورانها حول محورها أمام الشمس؛ وذلك لأن كلًّا من الليل والنهار عبارة عن فترة زمنية تعتري نصف الأرض في تبادل مستمر، ولو لم تكن الأرض مكورة لما تكور أي منهما، ولو لم تكن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار، وكلاهما ظرف زمان وليس جسماً مادياً يمكن أن يكور، بل يتشكل بشكل نصف الأرض الذي يعتريه، ولما كان القرآن الكريم يثبت أن الله تعالى يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، وهما فترتان زمنيتان تعتريان الأرض، فلا بد للأرض من أن تكون مكورةً، ولابد لها من الدوران حول محورها أمام الشمس.

ومن هنا كان التعبير القرآني بتكوير كل من الليل والنهار فيه إعلام صادق عن كروية الأرض، وعن دورانها حول محورها أمام الشمس، بأسلوب رقيق لا يفزع العقلية السائدة في ذلك الزمان التي لم تكن مستعدةً لقبول تلك الحقيقة، فضلاً عن استيعابها. تلك الحقيقة التي أصبحت من البدهيات في زماننا، وإن بقي بعض الجهال على إنكارها إلى



صورة حقيقية للأرض من الفضاء تظهر نصفها المنير وجزءًا من نصفها المظلم وكرويتها الواضحة

يومنا هذا وسوف يبقون على ذلك إلى قيام الساعة، والتكوير يعني: جعل الشيء على هيئة مكورة ـ هيئة الكرة أو شبه الكرة ـ، إما مباشرة أو عن طريق لف شيء على شيء آخر في اتجاه دائري شامل: أي: في اتجاه كروي؛ وعلى ذلك فإن من معاني ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أن الله ـ تعالى ـ ينشر بالتدريج ظلمة الليل على مكان النهار من سطح الأرض المكور فيحوله إلى ليل مكور، كما ينشر نور النهار على مكان ظلمة الليل من سطح الأرض المكور فيحوله نهاراً مكوراً، وبذلك يتتابع كل من الليل والنهار على سطح الأرض الكروي بطريقةٍ دوريةٍ، مما يؤكد حقيقتي كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس بأسلوب لا يفزع الأفراد ولا يصدم المجتمعات التي بدأ القرآن الكريم يتنزل في زمانها والتي لم يكن لها حظ من المعرفة بالكون وحقائقه.

والإشارات القرآنية الضمنية إلى حقيقة كروية الأرض ليست مقصورةً على الآية الخامسة من سورة «الزمر» وحدها؛ وذلك لأن الله ـ تعالى ـ يؤكد في عددٍ من آيات القرآن الكريم على مد الأرض؛ أي: على بسطها بغير حافة تنتهي إليها؛ وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية الشكل؛ لأن الشكل الوحيد الذي لا نهاية لبسطه هو الشكل

الكروي، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

(1) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ **(الرعد: 3)**.

(2) ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ **(الحجر: 19)**.

(3) ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ **(قٓ: 7)**.

كذلك يؤكد القرآن الكريم كروية الأرض في آيات التطابق؛ أي: تطابق كل من السمٰوات والأرضين؛ ولا يكون التطابق بغير انحناءٍ وتكويرٍ، وفي ذلك يقول ربنا ﷻ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾... **(الملك: 3)**؛ أي متطابقة، يغلف الخارج منها الداخل فيها. ويشير القرآن الكريم إلى اتفاق الأرض في ذلك بقول الحق ﷻ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.. **(الطلاق: 12)**؛

أي سبع أرضين متطابقة حول مركز واحد يغلف الخارج منها الداخل فيها.

كذلك تشير آيات المشرق والمغرب التي ذكرت بالإفراد، والتثنية، والجمع إلى حقيقة كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى اتجاه هذا الدوران، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

(1) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ **(الشعراء: 28)**.

(2) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ **(الرحمٰن: 17)**.

(3) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ **(المعارج: 40، 41)**.

فالمشرق هو جهة طلوع الشمس، والمغرب جهة غيابها، ووجود كل من المشرق والمغرب يؤكد كروية الأرض، وتبادلهما يؤكد دورانها حول محورها أمام الشمس من الغرب إلى الشرق، والأرض لها مشرق حقيقي واحد، ومغرب حقيقي واحد عموديان على اتجاه الشمال الحقيقي الذي حدده لنا الخالق سبحانه وتعالى بالنجم القطبي. وفي الوقت الذي تشرق فيه الشمس على جهة ما من الأرض، تكون قد غربت في نفس اللحظة عن جهة أخرى، ولما كانت الأرض منبعجة قليلاً عند خط الاستواء كانت هناك قمة عظمى للشروق وأخرى للغروب ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، ولما كانت الشمس تشرق على الأرض في الفصول المختلفة من نقاطٍ مختلفةٍ؛ كما تغرب عنها من نقاط مختلفة؛ وذلك

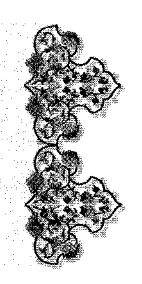
بسبب ميل محور دوران الأرض بزاوية مقدارها 23.5 درجة على مستوى فلك دورانها حول الشمس كانت هناك مشارق عديدة، ومغارب عديدة ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، وكانت هناك نهايتان عُظميان لكل من الشروق والغروب تتبادلان فيصبح المشرق مغرباً، ثم يصبح المغرب مشرقاً: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾، وينتشر بين هاتين النهايتين العُظميين نقاط متعددة لكل من الشروق والغروب على كل من خطوط الطول وخطوط العرض، وعلى مدار السنة؛ لأن دوران الأرض حول محورها أمام الشمس يجعل النور المنبثق عن ضوء هذا النجم ينتقل على سطح الأرض الكروي باستمرار من خط عرض إلى آخر ومن خط طول إلى آخر، محدثاً عدداً غير نهائيّ من المشارق والمغارب المتعاقبة في كل يوم ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾.

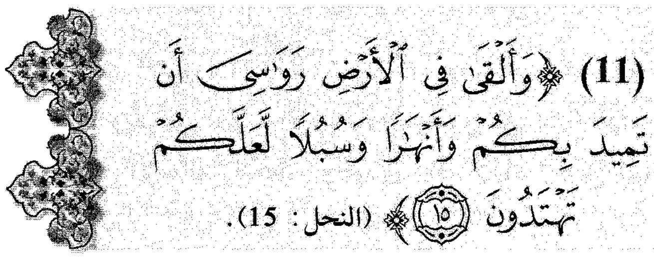
ووجود كل من جهتي المشرق والمغرب، والنهايات العظمى لكل منهما، وتبادلهما فيصبح المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً، وما بينهما من مشارق ومغارب عديدة، وتتابع تلك المشارق والمغارب على سطح الأرض يؤكد كلاً من كرويتها، ودورانها حول محورها أمام الشمس، وميل محور دورانها على مستوى فلك دورانها، وكل ما ينتج عن ذلك من تعاقب الليل والنهار، وتبادل الفصول المناخية، واختلاف مطالع الشمس ومغاربها على مدار السنة. وكل ذلك من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت تنزُّل القرآن الكريم، ولا لقرونٍ متطاولةٍ من بعده إلا بصورة بدائية، ولنفر محدودين جداً من أبناء الحضارات السابقة التي لم تصل كتاباتهم إلى شبه الجزيرة العربية، إلا بعد حركة الترجمة التي بدأت في منتصف القرن الهجري الثاني؛ أي: منتصف القرن الثامن الميلادي في عهد الدولة العباسية.

وورود مثل هذه الحقائق الكونية في ثنايا الآيات القرآنية الكريمة بهذه الإشارات اللطيفة والدقيقة في نفس الوقت لَمِمَّا يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وهذه من الحقائق الاعتقادية التي يحتاجها إنسان اليوم الذي توفر له من أسباب التقدم العلمي والتقني ما لم يتوفر لجيلٍ من البشر من قبل، ولكنه في ظل هذا التقدم فقدَ الصلةَ بخالقه، ففقد الكثير من القيم الأخلاقية النبيلة والضوابط السلوكية الصحيحة التي تدعو إلى الارتقاء بالإنسان إلى مراتب التكريم التي رفعه إليها رب العالمين، وتعينه على إقامة عدل الله في الأرض، بدلاً من المظالم العديدة التي تجتاحها في كثير من أجزائها اليوم، وبدلاً من الخراب والدمار الذي يصيبها، والدماء التي تغرقها،

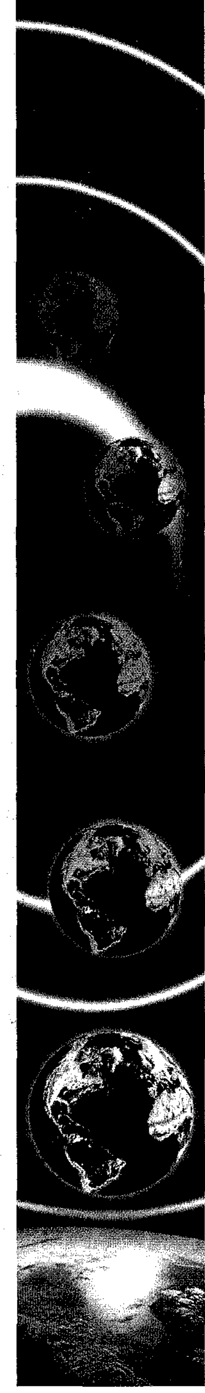
في ظل غلبة أهل الباطل على أهل الحق، وفقدان هؤلاء الكفار والمشركين لأدنى علم بالدين الذي يرتضيه رب العالمين من عباده؛ ولعل في الإشارة إلى مثل هذا السبق القرآني بالعديد من حقائق الكون ومظاهره ما يمكن أن يمهد الطريق إلى الدعوة لهذا الدين، وإلى تصحيح فهم الآخرين لحقيقته من أجل تحييد هذا الكم الهائل من الكراهية للإسلام والمسلمين، والتي غرسها ـ ولا يزال يغرسها ـ شياطين الإنس والجن في قلوب الأبرياء والمساكين من بني البشر، فبدأوا بالصراخ بصراع الحضارات، وبنهاية العالم، وبضرورة إشعال حربٍ عالميةٍ ثالثةٍ بين الغرب والإسلام ـ والغرب في قمة من التوحد على الباطل، والتقدم العلمي، والتقني، والتفوق الاقتصادي والعسكري مع غيبة كاملة للدين، وانحسار للأخلاق الكريمة وللقيم النبيلة، وغَيبة كاملة لخشية الله، وللإيمان بوحي السماء، وبالبعث والحساب، ولمعنى الأخوة الإنسانية ـ، والعالم الإسلامي اليوم يمر بأكثر فترات تاريخه فرقةً، وتمزقاً، وانحساراً مادياً وعلمياً وتقنياً، وتخلفاً عسكرياً ـ، والمعركة التي يتوهمونها تدعى معركة «أرمجدون» وهي معركة وهمية جاء ذكرها في سفر رؤيا يوحنّا اللاهوتي ـ وهو رجل مجهول الهوية ـ في آخر العهد الجديد من كتاب نصارى اليوم، يشعلونها من أجل القضاء على دين الله الحق ..﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

(يوسف: 21).





(11) ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ (النحل: 15).



هذه الآية الكريمة جاءت في منتصف الربع الأول من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وآياتها 128 بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى النحل، وما وهبه الله ـ تعالى ـ من فطرة عجيبة مكَّنته من بناء خلاياه، وتنظيم حياته، وسلوك مختلف السبل بسهولة ويسر، وإخراج هذا الشراب الذي فيه شفاء للناس من بطون إناثه. وقد سميت حشرة النحل بهذا الاسم لأن الله ـ تعالى ـ قد نحلها هذه القدرة على إخراج العسل، وميّزها بها عن كثير من الحشرات.

وتعرض سورة «النحل» للركائز الأساسية التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية، ومنها حقيقة الألوهية، وأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وهو رب كل شيء ومليكه، وحقيقة الوحدانية المطلقة للإله الخالق فوق جميع خلقه، وحقيقة طلاقة القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود، وطلاقة الإرادة الإلهية التي لا يعوقها عائق، وحقيقة الوحي، والنبوة والرسالة، وقد أنزلها الله ﷻ على فترة من الرسل، وأتمها وأكملها وختمها في بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، ولذلك تعهد بحفظ رسالته الخاتمة حفظاً كاملاً بنفس لغة وحيها، بينما أوكل حفظ الرسالات السابقة لأصحابها فضيعوها، وما بقي منها من ذكريات نقلت شفاهاً لمئات من السنين قبل تدوينها في لغات غير لغة الوحي تعرض ـ ولا يزال يتعرض ـ للتحريف بعد التحريف، وللتحرير بعد التحرير، وللحذف والتغيير حتى تم إخراجها عن إطارها الرباني إخراجاً كلياً فأصبحت عاجزة كل العجز عن هداية أصحابها.

وتعرض سورة «النحل» لحتمية البعث، وهي حقيقة لازمة، أنكرها الكافرون واستبعدوا إمكانية وقوعها في القديم، كما ينكرونها اليوم ويستبعدون وقوعها، لعجزهم عن فهم مدلول الألوهية الحقة. ومن هنا أنكروا وقوع عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة.

وتؤكد السورة أن الحاكمية لله، ومن هنا كان له وحده ﷻ الحق في التحليل والتحريم، وتعرض لمهام الأنبياء والمرسلين في تبليغ أوامر الله لعباده الذين أعطاهم حرية الاختيار بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وجعل لهم على ذلك من الثواب والعقاب ما يستحقون.

وتدعو سورة «النحل» إلى إقامة عدل الله في الأرض، والإحسان إلى الخلق، والوفاء بالعهد، كما تدعو إلى الإنفاق في سبيل الله، وإلى الهجرة من أجل إعلاء دينه، والتعريف به، وتحذر السورة من الوقوع في الفتن، ومن أشدها الكفر بعد الإيمان، وتؤكد العديد من مكارم الأخلاق وضوابط السلوك، وقواعد المعاملات انطلاقاً من مخافة الله ـ تعالى ـ وخشية حسابه؛ وتذكر بأحوال الناس في حالات الضعف والقوة انتقالاً من مراحل الأجنة في بطون الأمهات إلى الشباب والفتوة، ثم الهرم والشيخوخة، وانتقالاً من أحوال النعمة والرخاء إلى أحوال الشدة والبلاء كما تذكر بلحظات الاحتضار وبمصارع الغابرين.

وتبدأ السورة الكريمة بالتحذير من فجائية الآخرة، في تحد واضح للذين يستعجلونها، وهي واقعة لا محالة، وللذين يستعجلون العذاب وهو طائلهم، لا فكاك منه ولا مهرب، ثم تثني بتسبيح الله وتنزيهه ـ تعالى ـ عن الشريك، وتؤكد حقيقة إنزاله الوحي على من يشاء من عباده الذين اصطفاهم من الأنبياء والمرسلين؛ لينذروا الناس بأنه لا إله إلا الله، وينصحوهم بتقواه ـ ﷻ ـ، وتعتب على الذين كفروا انطلاقاً من صلفهم وعنتهم أنهم طالبوا رسلهم بأن يأتوهم بالملائكة، أو بتهديد الله لهم، وتشير إلى عاقبة الذين طلبوا ذلك من قبل؛ وتنعي على الذين أشركوا ادعاءهم الكاذب بأن ذلك هو قدر الله عليهم. وتؤكد السورة الكريمة أنه ما على الرسل إلا البلاغ المبين، وأن الله ـ تعالى ـ قد بعث رسولاً في كل أُمة من الأمم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وإلى اجتناب الطاغوت، فكان منهم مصدقون ومكذبون، وتذكر بعواقب المكذبين.

وتخاطب سورة «النحل» خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وهو الحريص على هداية الخلق أجمعين بأن الله ـ تعالى ـ لا يهدي من يضل، وأن الضالين لا نصير لهم.

وتشير السورة الكريمة في أكثر من موضع منها إلى إنكار الكافرين للبعث، وتؤكد أنه وعد الله الذي لا يخلف وعده، حتى يجازي كلاً بعمله، وأن أمر الله سريع النفاذ، وأنه بين الكاف والنون، كما تشير إلى الرسل السابقين وإلى رسالاتهم التي تكاملت كلها في القرآن الكريم الذي أنزله الله ـ تعالى ـ تبياناً لما اختلف فيه أهل الكتاب، وتحذر من عقاب الله للذين يمكرون السيئات، وتؤكد حتمية الحساب، وحتمية الثواب والعقاب.

وتلمح سورة «النحل» إلى حقيقة أن كل ما في السمٰوات والأرض من دواب وملائكة خاضعون لله بالطاعة والعبادة، يسجدون له ـ تعالى ـ في غير استكبار، وتعاود التحذير من الشرك بالله رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وصاحب النعم على جميع الخلق، وكاشف الضر عنهم.

وتنكر السورة الكريمة على أهل الجاهلية القديمة كراهيتهم لخلفة البنات، تلك الكراهية التي كانت تدفع بالبعض منهم إلى وأد بناتهم أحياء. وتضرب عدداً من الأمثال لتقارن بين غير الفاعلين من البشر، والفاعلين منهم الذين يأمرون بالعدل وهم على صراط مستقيم.

وتؤكد سورة «النحل» أن الغيب المطلق في السمٰوات والأرض لا يعلمه إلا الله ـ سبحانه ـ، ومنه أمر الساعة الذي لا يأتي إلا بغتة، وأنه ـ تعالى ـ على كل شيء قدير.

وتستعرض السورة المباركة مواقف الظالمين من الكفار والمشركين في يوم القيامة، وما سوف يتعرضون له من المهانة والعذاب، وتؤكد أن الأنبياء سوف يشهدون على أممهم، وأن الرسول الخاتم ـ ﷺ ـ سوف يشهد على أمته وعلى الذين كذبوا نبوته وجحدوا رسالته منهم ومن الأمم من بعدهم، وأن الله ـ تعالى ـ قد أنزل عليه القرآن العظيم ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. **(النحل: 89).**

وتؤكد سورة «النحل» أن الله ﷻ يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وتطالب المسلمين بالوفاء بعهد الله إذا عاهدوا، وبعدم نقض الأيمان بعد توكيدها، وتشير إلى أن الله ـ تعالى ـ لو شاء لجعل الناس أُمة واحدة، ولكن منهم الضالّ والمهتدي، والطالح والصالح، وتقرر الآيات أن ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾. **(النحل: 97)**

وتأمر الآيات في هذه السورة المباركة بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل البدء في تلاوة القرآن الكريم، ومؤكدة أن ليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا، والذين على

ربهم يتوكلون، وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

وتشير سورة «النحل» إلى أن القرآن الكريم نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ بالحق من لدن رب العالمين ليثبِّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين، كما تشير إلى الادعاء الكاذب من الكافرين بأن الرسول ـ صلوات الله وسلامة عليه ـ يتلقى ما أفاء الله ـ تعالى ـ عليه به من علم على يد بشر، وتستنكر افتراء الكذب على الله، والكفر به إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، وتقرر أن على الكافرين غضباً من الله، وأن لهم عذاباً عظيماً.

وتعرض السورة الكريمة لشيء من **المحرمات في الطعام** من مثل **الميتة والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به،** إلا من اضطر غير باغ ولا عاد، فإن الله غفور رحيم، مؤكدة أن التحليل والتحريم من سلطة الله وحده، ولا يجرؤ عليه إلا كاذب على الله، وتلمح إلى اليهود ومخالفتهم لأوامر الله بالاعتداء في السبت، وتذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام بأنه كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين، وأن الله ـ تعالى ـ قد اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم، وآتاه في الدنيا حسنة، وجعله في الآخرة من الصالحين، وتأمر الآيات رسول الله الخاتم ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً.

وتختتم سورة «النحل» بدعوة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ ومن بعده دعوة كل المؤمنين برسالته إلى أن يحملوا هذا الدين الخاتم المحفوظ بحفظ الله القادر إلى غيرهم من الأمم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن وبالصبر عليهم، والعفو عما يلقونه منهم من أذى في سبيل تبليغ دعوة الله إليهم، وإن عاقبوا فلا يجوز للعقاب أن يتعدى المثل، وأن الصبر خير للصابرين. وتختتم السورة بالوصية إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بأن يصبر وبألا يكون في ضيق مما يمكر الكافرون لأن الله ـ تعالى ـ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ **(النحل: 128)** والوصية من بعد رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هي لكل مسلم يحمل راية الإسلام إلى يوم الدين.

الآيات الكونية في سورة النحل

استشهدت سورة النحل بالعديد من الآيات الكونية الدالة على حقيقة الألوهية التي تتجلى فيها عظمة الخلق، وشمول النعم على العباد، وتمام العلم، وعظيم الحكمة، ودقة التدبير ومن تلك الآيات ما يلي:

(1) خلق السمٰوات والأرض بالحق.

(2) خلق الإنسان من نطفة فإذا به يقابل خالقه بالجحود والنكران في أغلب الأحيان.

(3) خلق الأنعام وهي مصدر للعديد من المنافع للإنسان.

(4) خلق الخيل والبغال والحمير وغير ذلك من وسائل الركوب التي لم تكن معروفة في زمن الوحي، والتي ستظل في تطور مستمر مع تزايد علم الإنسان وقدراته التقنية، والله يخلق ما لا يعلمه الإنسان.

(5) تعدد معتقدات الناس بين الضلال والهداية، والتاريخ خير شاهد على ذلك.

(6) إنزال الماء من السماء للشراب وإنبات الشجر والزرع ومن أهمها الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من الثمرات المباركات.

(7) تسخير الأرض بتبادل ليلها ونهارها ـ نتيجة لكرويتها ولدورانها حول محورها أمام الشمس ـ، وكذلك تسخير كلٍّ من الشمس والقمر والنجوم بأمر الله لاستقامة الحياة في هذا الكون.

(8) نشر مختلف صور الحياة في الأرض، وتعدد أشكال سطحها وصخورها وعناصرها ومركباتها ومختلف الدورات فيها (دورة الماء، ودورة الحياة، ودورة الصخور.. إلخ).

(9) تسخير البحر للإنسان بما فيه من أحياء ذات لحم طري، وهياكل تصلح لصناعة الحلي، وقدرته على حمل الفلك ذات الأحجام المختلفة جرياً بمصالح العباد تشق عباب مائه وما فوق الماء من هواء.

(10) إلقاء الجبال على الأرض رواسي لها كي لا تميد ولا تضطرب وإلا ما كانت صالحة للعمران، وارتباط تكونها بنبع الأنهار من قممها، ودور حركة الأنهار من منابعها إلى مصابها في تفتيت الصخور، وتكوين التربة، وتركيز العديد من المعادن والصخور النافعة والثروات الأرضية المتعددة، وفي تسوية سطح الأرض وشق الفجاج والسبل فيها.

(11) جعل تضاريس الأرض المختلفة علامات للاهتداء بها على اليابسة في وضح النهار، وجعل النجوم علامات للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.

(12) أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، والمخلوقون لا قدرة لهم على الخلق.

(13) وصف عقاب بعض الأمم السابقة وصفاً ينطبق على ما تحدثه الزلازل في زماننا من قبل أن يدرك أحد من الخلق ميكانيكية حدوث تلك الهزات الأرضية.

(14) تأكيد أن الله ـ تعالى ـ خسف الأرض بالذين مكروا السيئات في الماضي وهو ﷻ قادر على أن يخسفها بهم في الحاضر والمستقبل، وفي ذلك تأكيد على أن فهمنا لميكانيكية حدوث الكوارث الأرضية لا يخرجها عن كونها من جند الله يسلطها على من يشاء من عباده عقاباً للعاصين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين.

(15) أن مد الظل وقبضه صورة من صور السجود التسخيري لله ـ تعالى ـ في خضوع وطاعة تامّين.

(16) خلق اللبن في ضروع الأنعام من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

(17) جعل ثمرات النخيل والأعناب مصدراً للرزق الحسن، كما قد يسيء الإنسان استخدامها فتصبح مصدراً للسُّكْر وفقدان الوعي.

(18) خلق النحل ومنح إناثه القدرة على بناء بيوتها في الجبال، وفي الأشجار، وفيما يعرش لها الناس، وعلى جمع الرحيق وحبوب اللقاح من مختلف الزهور والثمار، وذلك عبر مسافات شاسعة الاتساع دون أن تضل عن بيوتها.. وتحويل ذلك في بطونها إلى هذا الشراب المختلف الألوان والذي فيه شفاء للناس..

(19) الإشارة إلى أن دورة الحياة ـ بين الخلق والوفاة ـ حتمية على كل حي، ومن الأحياء الإنسان الذي منه من يتوفى صغيراً أو شاباً، ومنه من يرد إلى أرذل العمر، ومن مظاهره فقدان الذاكرة جزئياً أو كلياً.

(20) تقديم السمع على البصر في هذه السورة الكريمة، وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم.

(21) إن الله ـ تعالى ـ هو الذي يمسك الطيور مسخرات في جو السماء.

(22) الإشارة إلى نعمة الله على عباده بخلق الظلال، وبتكوين الكهوف في الجبال، وبستر الإنسان باللباس ليقيه من حرارة الشمس ومن مخاطر الأشعة المصاحبة لها، وبستره في حالات القتال بما يقيه بأس الآخرين من الدروع والزرود وغيرها، والتلميح بلفظة الحر إلى كل من الحر والبرد على أن كلًّا منهما يمثل بدرجات حرارة إيجاباً أو سلباً.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة علمية خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة العاشرة من القائمة السابقة والتي جاءت في الآية الخامسة عشرة من هذه السورة المباركة، وأرى ـ قبل ذلك ـ ضرورة الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾.

(النحل: 15)

ذكر ابن كثيرـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ما مختصره: . . . «ثم ذكر الله تعالى الأرض وما أُلقي فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ **(النازعات: 32)**... وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام.. بحسب ما أراد الله وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه؛ وكذلك جعل فيها ﴿سُبُلًا﴾ أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى أنه ـ تعالى ـ ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ **(الأنبياء: 31)**.

- وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ كلام مشابه في اختصار غير مخل.

- كذلك جاء كلام مشابه في ـ الظلال ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعه جزاء ما قدم: وإن كان قد نعى على العلم الحديث أنه يعلل وجود الجبال والرواسي ولكنه لا يذكر وظيفتها. والقرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض....

- وجاء في صفوة البيان لمعاني القران ـ رحم الله كاتبها ـ ما نصه: «﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميد.. أو لئلا تميد، أي تميل بكم وتضطرب، يقال: مادت السفينة تميد ميداً، إذا تحركت ومالت، ومادت الأغصان: تمايلت».

- وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «وجعل الله في الأرض جبالاً ثابتة تحفظها أن تضطرب، وجعل فيها أنهاراً تجري فيها المياه الصالحة للشرب والزرع، وطرقاً ممهَّدة لتهتدوا بها في السير إلى مقاصدكم».

- وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً لا أرى لزوماً لتكراره.

الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الدلالات العلمية في هذه الآية الكريمة: استخدام تعبير الإلقاء لوصف تكوّن الجبال، ووصف الجبال بأنها رواسٍ للأرض خشية أن تميد بما عليها من خلق، وربط تكوّن كلٍّ من الأنهار والسبل بتكون الجبال، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولاً: وصف عملية تكون الجبال بتعبير الإلقاء:

توصف الجبال بأنها أشكال أرضية بارزة فوق سطح الأرض، تتسم بقممها العالية، وسفوحها المنحدرة، وبوجودها على هيئة أطواف، أو منظومات، أو سلاسل، أو أحزمة، أو مجموعات من تلك الأحزمة الجبلية التي تكون عادة متوازية أو قريبة من التوازي مع بعضها البعض، وإن كانت بعض الجبال توجد على هيئة مرتفعات فردية وحيدة بصورة جبل واحد. والمرتفعات الفردية تتكون عادة من الطفوح البركانية.

(1) تكون الجبال البركانية بعمليات إلقاء متتابعة للطفوح:

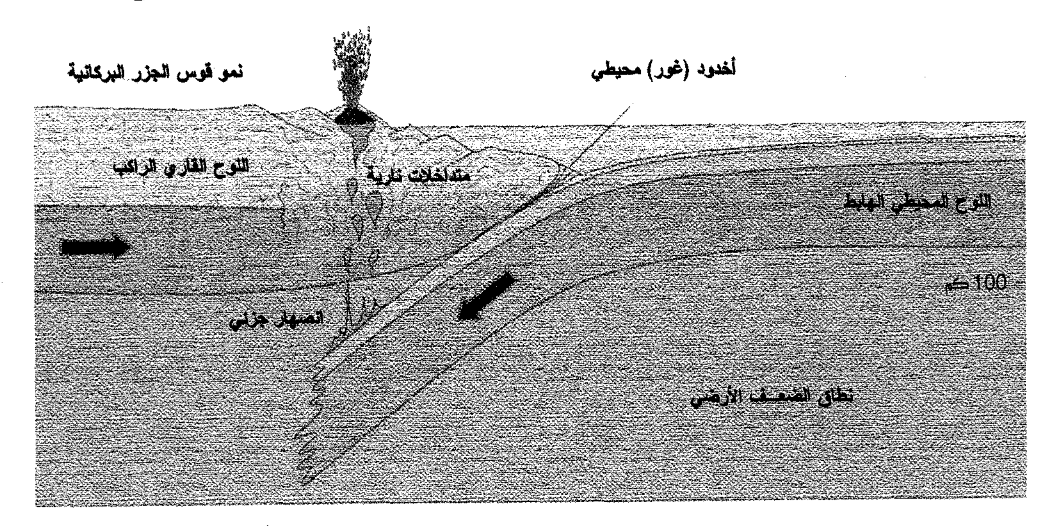
بواسطة عدد من الخسوف الأرضية التي تتراوح أعماقها بين65 كيلومتراً ـ في قيعان المحيطان وقيعان عدد من البحار، و150 كيلومتراً ـ على اليابسة ـ يقسم الغلاف الصخري للأرض إلى حوالي الاثني عشر لوحاً كبيراً بالإضافة إلى عدد أقل من ألواح الغلاف الصخري الصغيرة (اللويحات).

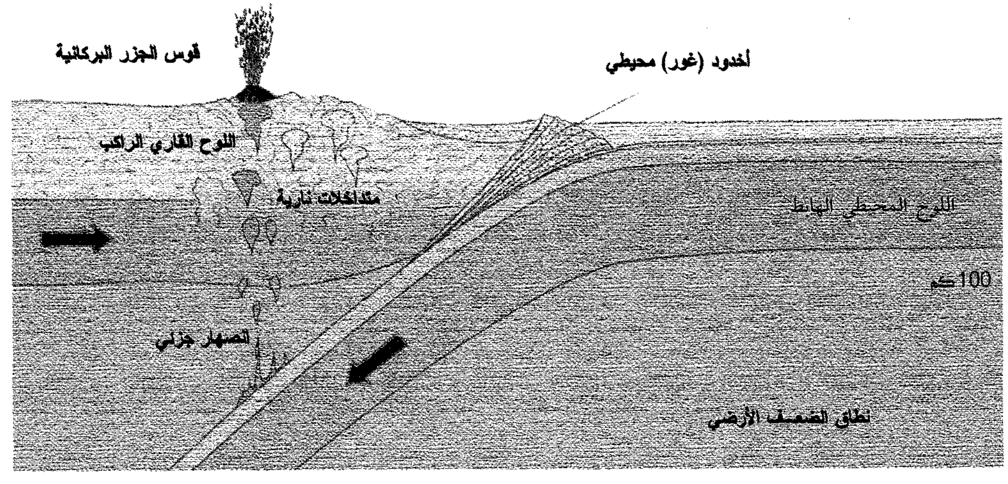
ولما كانت هذه الألواح تطفو فوق نطاق لدن شبه منصهر يعرف باسم «**نطاق الضعف الأرضي**» فإن البراكين تكثر عند الحدود الفاصلة بين تلك الألواح خاصة عند حدود التباعد بينها، ومعظم هذه البراكين تلقي بحممها من أسفل إلى أعلى، وتظل تلك الحمم تتراكم فوق بعضها البعض لتكوّن كتلاً جبلية معزولة من الصخور البركانية تصل ارتفاعاتها إلى آلاف الأمتار فوق مستوى سطح البحر؛ لأن معظم هذه البراكين يستمر في نشاطه لفترات تتراوح بين20 و30 مليون سنة، وإن كان بعضها قد يستمر نشاطه لأكثر من مائة مليون سنة. ومن أمثلة الجبال البركانية جبل أرارات (5100 متر) في تركيا، وجبل أتنا (3300 متر) في صقلية، وجبل فيزوف (1300 متر) في إيطاليا، وجبل كيليمنجارو (5900 متر) في تنزانيا، وجبل كينيا (5100 متر) في كينيا، وهذه الارتفاعات كلها فوق مستوى سطح البحر.

(2) تكون الجبال المطوية بعمليات إلقاء الصخور المتجمعة فوق قيعان المحيطات إلى حواف القارات: تمثل سلاسل الجبال المطوية ذروة التطور في تكوّن النطق الجبلية؛

ولذلك فهي تمثل بالمنظومات الجبلية الكبرى في العالم. وتتكون هذه النظم الجبلية من أنواع مختلفة من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة (وكلها تنتج عن عملية إلقاء)، كما تعتريها أنماط بنيوية عديدة من الطي، والتصدع، والتصدع الراكب، والمتداخلات، والطفوح البركانية، ولعمليات الإلقاء من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل في كل نمط من هذه الأنماط البنيوية دور أساسي لا يمكن إغفاله.

وتدل الملاحظات الميدانية على أن تكون الجبال المطوية يسبقه تكون أحواض أرضية عملاقة تقدر أطوالها بمئات الكيلومترات، ويقدر اتساعها بعشرات الكيلومترات، وأعماقها بعدة مئات من الأمتار، ولكن قيعانها تهبط باستمرار تحت أوزان ما يتجمع فيها من





رسم يوضح اصطدام طبقة قاع المحيط بالقارة

رسوبيات وطفوح، مما يؤدي إلى تراكمات من الصخور الرسوبية المتبادلة مع الطفوح البركانية يزيد سمكها على1500 متر، وكلٌ من الفتات الصخري والرسوبيات التي تتكون بطريقة كيميائية أو بطريقة عضوية لتكون هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية تلقى كلها من أعلى ماء البحار إلى قيعانها بعملية إلقاء حقيقية، والطفوح البركانية المتداخلة فيها والمتبادلة معها تلقى أثناء الثورات البركانية من أسفل إلى أعلى.

كذلك فإن تلك الأحواض الأرضية تكونت بفعل أعداد من الصدوع الخسفية العميقة التي تظل في حركة دائبة للهبوط بتلك الأحواض ببطء؛ مما يعين على تجمع تلك التراكمات السميكة من الصخور الرسوبية والبركانية، وكلتاهما تتكون بعملية إلقاء من أعلى إلى أسفل أو من أسفل إلى أعلى أو بهما معاً، واحداً تلو الآخر.

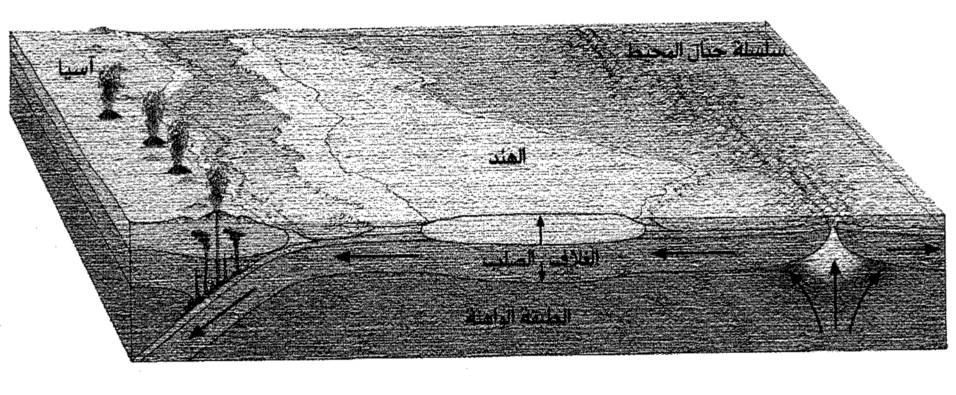
كذلك تشير الدراسات الميدانية إلى أن حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض تلعب دوراً مهماً في عملية بناء هذه السلاسل والمنظومات الجبلية الشديدة الطي والتكسر، فعند اصطدام لوحين من ألواح الغلاف الصخري المكون لقاع المحيط تتكون سلسلة من الجزر البركانية على هيئة أقواس فوق قاع المحيط.

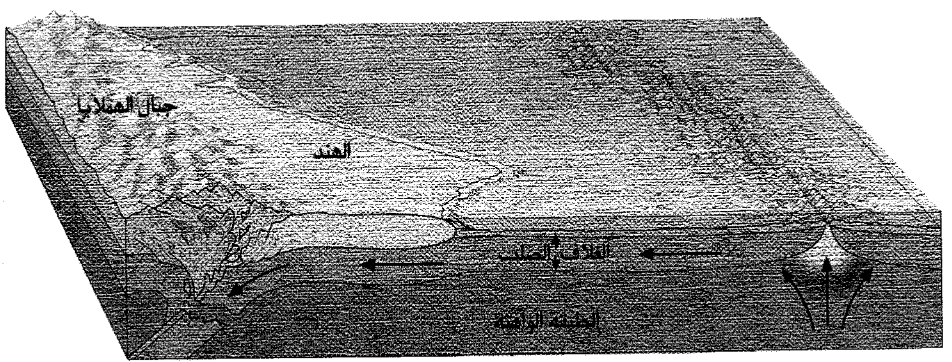
وعندما يصطدم قاع المحيط بإحدي القارتين المحيطتين به ويبدأ في الهبوط تحتها، تتكون أعمق أغوار هذا المحيط ويتجمع في هذا الغور بالإلقاء من أعلى إلى أسفل كم هائل من الرسوبيات التي تضاف بالتدريج إلى الصخور الرسوبية، كما يتبادل مع هذه الصخور الرسوبية كم هائل من الطفوح البركانية التي يلقى بها من أسفل إلى أعلى.

وتتّسم عملية انزلاق قاع المحيط تحت قارة مجاورة بكشط هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية والبركانية (المتجمعة في الغور الأخدودي العميق الناتج عن عملية هبوط قاع المحيط تحت القارة) وبتغضنه وإلقائه فوق حافة القارة الراكبة تتكون سلسلة جبلية من السلاسل المطوية والمتكسرة بمحاذاة الأخدود البحري الهابط بالتدريج تحت القارة، وباستمرار عملية الهبوط يكشط المزيد من الصخور الرسوبية البحرية وما تضمه من طفوح بركانية من فوق قاع المحيط الهابط تحت القارة. وتلقي فوق حافة القارة لتضاف إلى سلسلة الجبال المتكونة فوق طرف القارة، كذلك تنشط كل من الطفوح البركانية والمتداخلات النارية لتكون قلب وقواعد السلسلة الجبلية المتكونة وذلك بالانصهار الجزئي للوح الهابط، وبإزاحته كتلاً من الصهارة من نطاق الضعف الأرضي الذي تغوص فيه.

وفي بعض الأحيان قد تتحرك إحدى القارات في اتجاة قارة مقابلة لها دافعة أمامها قاع المحيط الفاصل بين القارتين، فيهبط تحت القارة المقابلة بالتدريج حتى يتم استهلاكه بالكامل،

فتصطدم القارتان ببعضهما اصطداماً عنيفاً يكون من نتائجه هبوط القارة الدافعة هبوطا جزئياً تحت القارة الراكبة، وينتج عن هذا الاصطدام تَكَوُّن أعلى السلاسل الجبلية على حافة القارة الراكبة وذلك بكشط كل الصخورالرسوبية والبركانية من فوق قاع المحيط الهابط وإلقائها من أسفل إلى أعلى على حافة القارة الراكبة، مع إلقاء كم هائل من المتداخلات والطفوح البركانية والصخور المتحولة في قلب السلسلة الجبلية المتكونة بالعديد من الطي والتكسر.





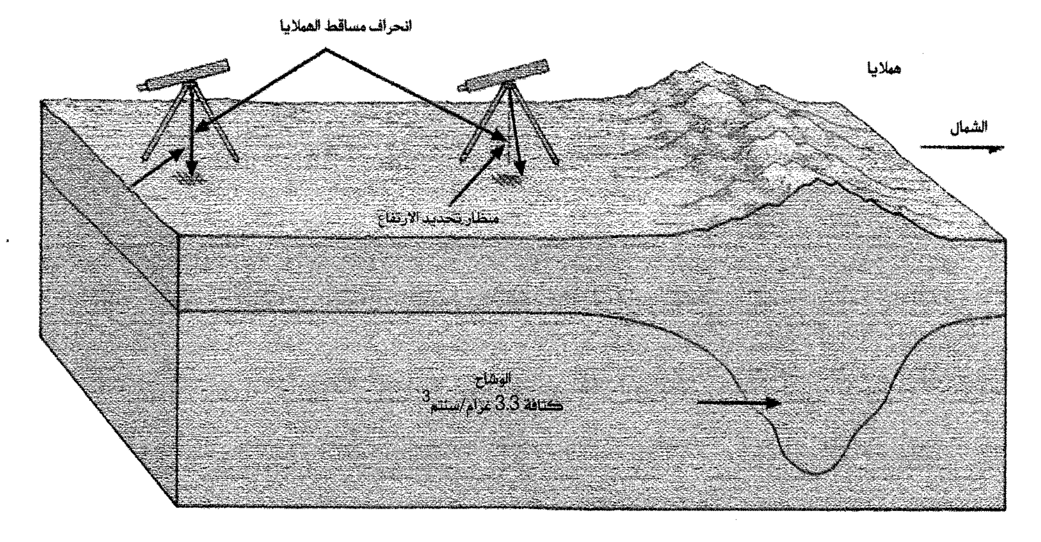
رسم تخطيطي لتحرك قارة الهند عبر ملايين السنين لتصطدم بالقارة الآسيوية/الأوروبية وتكون جبال الهيمالايا الشاهقة في موضع التصادم

وتكثر الصدوع بصفة خاصة على امتداد حواف سلاسل ونظم الجبال المطوية. وبعض هذه الصدوع من النوع العادي، ولكن معظمها من الصدوع التجاوزية (الدسرية) ذات الميول المنخفضة التي تمتد إلى مئات الكيلومترات دافعة أمامها كتلاً هائلة من الصخور المتباينة كتلة فوق الأُخرى لعدة كيلومترات، وهي صورة من أروع صور الإلقاء.

ثانياً: وصف الجبال بأنها رواسي:

كما سبق أن أشرنا، يقسم الغلاف الصخري للأرض إلى نحو اثني عشر لوحاً كبيراً بالإضافة إلى عدد من الألواح الصغيرة، وذلك بواسطة شبكة هائلة من الصدوع الخسفية (الخسوف الأرضية المكونة بواسطة عمليات تصدع الغلاف الصخري للأرض)؛ وهي خسوف تتراوح أعماقها بين 65 كم، و150 كم وتطفو ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يعرف باسم «**نطاق الضعف الأرضي**»؛ ولذلك فإن هذه الألواح الصخرية تنزلق فوق نطاق الضعف الأرضي مع دوران الأرض حول محورها، وباندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر الصدوع والخسوف الفاصلة بينها، خاصة تلك الخسوف الموجودة في ألواح الغلاف الصخري المكونة لقيعان كل محيطات الأرض وأعداد من بحارها، ولذلك تتسع قيعان هذه المحيطات والبحار باستمرار في ظاهرة تعرف باسم «**ظاهرة اتساع قيعان المحيطات**»، وبذلك تنتقل ألواح الغلاف الصخري للأرض على نطاق الضعف الأرضي باستمرار في حركة دائبة، لا يبطئ من عنفها إلا تكوّن السلاسل الجبلية التي تثبت القارات في قيعان البحار والمحيطات بواسطة أوتاد الجبال، كما يمكن بواسطتها تثبيت قارة في قارة أخرى.

فالجزء البارز من الجبال فوق سطح الأرض ليس إلا القمم لكتل هائلة من الصخور التي تطفو في نطاق الضعف الأرضي كما تطفو جبال الجليد في ماء البحر المحيط؛ ومن



رسم تخطيطي يوضح اندفاع جذر الجبل في نطاق الضعف الأرضي بما يزيد على ارتفاعه فوق سطح الأرض بعدة أضعاف

هنا كان وصف القرآن الكريم للجبال بالرواسي وصفاً معجزاً؛ لأن الجبال ترسو بأوتادها في نطاق الضعف الأرضي، كما ترسو السفينة في ماء البحر على مرساتها، و (الرواسي) من الجبال: هي الثوابت الرواسخ، ومفردها(راسية).

ووجود الجبال بكتلها الغائرة في الغلاف الصخري للأرض والطافية في نطاق الضعف الأرضي يقلل من شدة ترنح الأرض في دورانها حول محورها، ويجعل حركتها أكثر انتظاماً وسلاسة، تماماً كما تفعل قطع الرصاص التي توضع حول إطار السيارة للتقليل من رجرجتها والعمل على انتظام حركتها؛ وبذلك أصبحت الأرض مؤهلة للعمران.

ثالثاً: ربط تكون كلٍّ من الأنهار والسبل بتكوّن الجبال:

يعرّف النهر بأنه ماء يتدفق في مجرى محدد، له حواف تعرف باسم الشرف النهرية، ويندفع من منابعه في المناطق المرتفعة إلى مصابه في البحر، أو في بحيرة داخلية، أو في حوض صحراوي، أو في نهر أكبر.

وتغذى الأنهار بماء المطر الذي يسقط فوق مرتفعات الأرض من مثل الجبال، كما يمكن أن تغذى الأنهار من ماء العيون المتفجرة في مناطق مرتفعة، أو من تسربات الماء



إن الأنهار من أعظم وسائل شق الطرق بين الجبال - صورة لنهر كولورادو يشق طريقه بين الجبال الصخرية

المخزون في طبقات تحت سطح الأرض في تلك المناطق المرتفعة فوق مستوى سطح البحر، ومن ذوبان الجليد من أماكن تجمعه في قمم الجبال، ومن أطراف حقول الجليد، ولكن عند تكوّن أعداد من البحيرات في المناطق المرتفعة تكون قدرتها على إمداد الأنهار بالماء المتدفق أكبر.

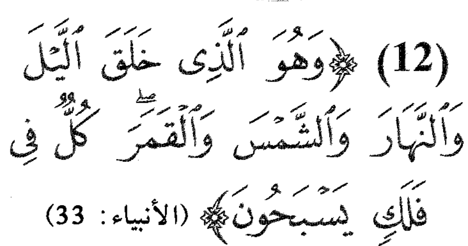
كذلك يمكن أن يُفقد جزء من ماء النهر بالبخر، أو بالتسرب إلى الخزانات المائية تحت سطح الأرض، والفرق بين كم الماء الذي يغذي النهر والفاقد منه هو الذي يتحكم في استمرارية أو انقطاع تدفق الماء في مجرى النهر. ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين تكوّن الجبال وتدفّق الأنهار في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي غيرها من آيات القرآن العظيم من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في هذا الكتاب المجيد.

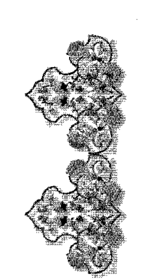
كذلك فإن مجاري الأنهار تتعرض للانتقال البطيء من مجراها مع الزمن، أو للجفاف وذلك مع تغير الظروف المناخية، أو تغير سرعة جريان الماء في مجراه، وهذا كله مرتبط بمعدل انحدار المجرى، وطبيعة الصخور التي شق فيها، وشكل المقطع الرأسي للمجرى. ومع جفاف مجرى النهر أو تغييره يترك المجرى القديم سبيلاً ميسراً لحركة كل من الإنسان والحيوان. ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين ذكر تكون الأنهار وشقّ السبل، حيث أن الأنهار من أعظم وسائل شق الطرق بين الجبال والتلال والهضاب في مناطق التضاريس الأرضية الوعرة.

هذه الحقائق العلمية عن كلٍّ من الجبال والأنهار والسبل بدأ الإنسان في جمع أطرافها في بطء شديد عبر القرون المتعاقبة، ولم يبدأ في بلورة تصور صحيح لها إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يكتمل هذا التصور إلا في منتصف الستينيات من القرن العشرين. وورود هذه الحقائق في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي غيرها من آيات القرآن العظيم لمما يقطع بأن هذا الكتاب العزيز هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويجزم بنبوة النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ وبأنه كان موصولاً بوحي السماء، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق:

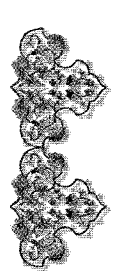
﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (سبإ: 6).

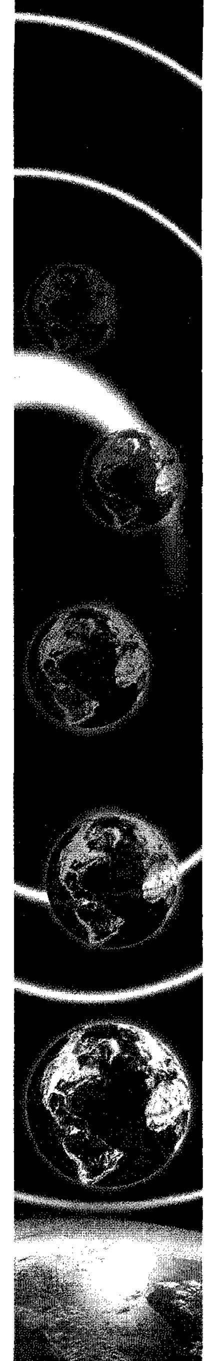
فصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





(12) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: 33)





هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الأول من سورة «الأنبياء»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (112) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة ـ شأنها في ذلك شأن كل السور المكية ـ وسميت باسم: «الأنبياء» لورود ذكر عددٍ كبيرٍ من أنبياء الله فيها، وذكر جانب من قصصهم مع أممهم، وعدد من المعجزات التي أجراها الله ـ تعالى ـ على أيدي كل منهم، وهم حسب تسلسل ورود أسمائهم في السورة الكريمة: إبراهيم، لوط، إسحاق، يعقوب، نوح، داود، سليمان، أيوب، إسماعيل، إدريس، ذو الكفل، ذو النون (يونس)، زكريا، يحيى، وعيسى ابن مريم ـ على نبينا وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ.

وتبدأ سورة الأنبياء بتذكير الناس أن وقت الساعة قد اقترب، وهم في غفلةٍ منشغلون عنها بالدنيا، وهي سوف تأتيهم بغتة، وقلوبهم لاهيةً عما أنزل إليهم ربهم من ذكر في رسالته الخاتمة، لذلك انطلقوا يشككون في بعثة الرسول الخاتم ﷺ، ويتهمونه زوراً ـ شرَّفه الله عن ذلك ـ بالكذب، والسحر، والشعر، استهزاء به والله ﷻ يطمئنه ﷺ بسرعة الانتقام من هؤلاء المستهزئين فيقول ـ عز من قائل ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١﴾ (الأنبياء: 41).

فما من أمة رفضت الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلا وعاقبها الله عقاباً شديداً في الدنيا قبل الآخرة.

ولقد طالب كفار قريش رسول الله ﷺ بالآيات المادية الملموسة الشاهدة على صدق دعوته، وآيات الله وسننه في الكون من المعجزات الدائمة لو تدبروها، فهي ناطقة بالشهادة لخالقها ـ سبحانه ـ بطلاقة القدرة، وعظيم الصنعة، وتمام الحكمة، وبالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالربوبية الحقة والألوهية التي لا ينازعه فيها منازع.

ومن رحمته بنا لم يكلنا ربنا ﷻ للتعرف عليه من خلال التأمل في أنفسنا، وفي الخلق من حولنا، وفي الآفاق البعيدة عنا فقط ـ على كمال دلالة ذلك ـ فأرسل الرسل، وبعث الأنبياء برسالة الهداية لخلقه، واقتضت حكمته ـ تعالى ـ أن يكون الأنبياء والمرسلون كلهم من البشر، وعلى ذلك فليس بمستغرب أن يكون الرسول الخاتم بشراً ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى جميع أنبياء الله ورسله ـ، وليس بمستغرب أيضاً أن تنقطع المعجزات والخوارق بعد تمام الرسالة الخاتمة، وليس بمستغرب كذلك أن يتعهد الله بحفظ تلك الرسالة الخاتمة بنفس لغة الوحي إلى قيام الساعة بعد أن أوكل حفظ الرسالات السابقة كلها إلى أصحابها فضيعوها، وحرفوا ما بقي منها من ذكريات تحريفاً أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها.

ومن سنن الله في الكون غلبة الحق على الباطل، وإن طالت دولة الباطل، ونجاة المؤمنين وهلاك المسرفين، حتى يرث الأرض عباد الله الصالحون، ومن ثم يرث الجميع رَبُّ العالمين.

وتحدثت السورة عن فضل إنزال القرآن الكريم، وعن عقاب الأمم الظالمة من السابقين، واستبدالهم بآخرين، وعن موقف الذل الذي سوف يقفه الظالمون في الآخرة، وبأس الله محيط بهم من كل جانب.

واستعرضت السورة الكريمة بعض مشاهد القيامة، كما استعرضت لقطات سريعة من سير عدد من الأنبياء، وطرفاً من قصصهم مع أممهم، وبعض المعجزات التي أجراها ربنا ﷻ على أيدي كل واحد منهم.

وأكدت سورة «الأنبياء» وحدة الأمة المؤمنة عبر التاريخ، وتوحيدها لله ـ تعالى ـ توحيداً خالصاً، كما أكدت وحدة رسالة السماء مع تعدد الرسل والأنبياء، وتباعد أزمانهم، وربطت بين الإيمان بالله الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر وأحداثه ومشاهده، وبين الآيات الكونية التي استعرضتها، والتي تشهد بوحدانية الخالق ـ سبحانه ـ فوق جميع خلقه؛ فكما أن الكون قائم على الحق الذي قامت به السمٰوات والأرض، فإن الإيمان بالله وتنزيهه عن الشبيه، والشريك، والمنازع،

والصاحبة والولد هو حق كذلك، بل هو أحق الاعتقاد وأصدقه في هذا الوجود.

وتختتم سورة «الأنبياء» ببلاغٍ للناس كافةً أن الرسول الخاتم ﷺ، قد بعثه ربنا ﷻ رحمةً للعالمين بالدين الذي يرتضيه من عباده، فمن أطاعه فقد نجا من فتن الدنيا، وعذاب الآخرة، ومن لم يستجب لندائه فقد نفض رسول الله ﷺ يده منه، وهؤلاء لا يعلم مصيرهم إلا الله الذي يعلم العلانية وما تخفي الصدور، وقد يكون في ذلك فتنة لهم ومتاع إلى حين!!

لذلك يتوجه رسول الله ﷺ إلى ـ ربه ـ بالدعاء طالباً حكمه العادل الحق بينه وبين المستهزئين ببعثته الشريفة والغافلين عن دعوته الحقة، ومستعيناً بالله ـ تعالى ـ على تكذيبهم وكيدهم، والله هو المستعان على كل ما يصف الكفار والمشركون وعلى ما يقولون.

ومن بديع آيات الله في الخلق التي استشهدت بها سورة «الأنبياء»: خلق السمٰوات والأرض بالحق من جرم واحد، فتَقه ربنا ﷻ فتحول إلى سحابة من دخان، خلق منه ـ سبحانه ـ السمٰوات والأرض وما بينهما، وما فيهما من مخلوقات من مثل: الملائكة الذين خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور، والذين يسبحون الله ليلاً ونهاراً لا يفترون، ومن مثل كل الأحياء الذين خلقهم من الماء؛ تأكيداً على وحدة الحياة مصدراً، وفناءً، ومصيراً، ومن ذلك خلق الجبال التي جعلها الله رواسي للأرض، وشق السبل والفجاج فيها ومن بينها، ومنها جعل السماء سقفاً محفوظاً، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون، والعمل على إنقاص الأرض من أطرافها، والوعد بطي السماء يوم القيامة كطي السجل للكتب. وهذه القضايا تحتاج إلى مجلدات لشرحها، ولذا فإني سوف أقتصر هنا على قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ۝٣٣﴾

(الأنبياء: 33).

وقبل الدخول في ذلك لا بد من استعراض الدلالة اللغوية للألفاظ الأساسية الواردة في هذه الآية الكريمة، واستعراض أقوال عدد من المفسرين فيها:

الدلالة اللغوية:

1 ـ يقال في اللغة العربية: (خلق)، (يخلق)، (خلقاً)، بمعنى: قدر، يقدر، تقديراً، و(الخلق): أصله التقدير المستقيم، ويستخدم في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، أي: على غير مثال سابق، ولفظة (الخلق) تستخدم في معنى: (المخلوق)، و(الخليقة)

والفطرة، والجمع (خلائق)، و(الخلائق) أيضاً هم (خليقة) الله، وهم (خلق) الله، ومضغة (مخلّقة) أي: تامة (الخلق)، و(الخُلق) بضم اللام وسكونها: السجية، يقال: فلان (يتخلق) بغير (خلقه) أي: يتكلفه، يقال: فلان (خليق) بكذا، أي: جدير به كأنه مخلوق فيه، و(الخلاق): النصيب، أو ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه. ويقال: ثوب (خَلِقٌ) أي: بالٍ، يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ لأنه في الأصل مصدر (الأخلق) وهو الأملس، والجمع (خلقان)، ويقال: (خلق) أو (أخلق) الثوب أي: بلي، و(أخلقه) صاحبه لأنه يتعدى ويلزم، و(الخَلوق): ضرب من الطيب؛ ويقال: (خلقه) (تخليقاً) أي: طلاه به (فتخلق) ويقال (خلق) الإفك، (اختلقه) و(تخلقه) (اختلاقاً) أي: افتراه افتراء.

2 ـ و(الفلك) هو مجرى أجرام السماء في المدار الذي يجري فيه كل جرم منها، وجمعه (أفلاك) و(فلك).

3 ـ و(السبح) هو المر السريع لجسم ذي كثافة أعلى من كثافة الوسط الذي يمر فيه وذلك من مثل سبح الإنسان في الماء أو في الهواء، يقال: (سبح) (يسبح) (سبحاً) و(سباحةً) أي: عام عوماً، واستعير لحركة النجوم الانتقالية في أفلاكها، ولسرعة الذهاب والمنقلب في العمل، و(السبح) أيضاً هو الفراغ، أو التصرف في المعاش.

من شروح المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ **(الأنبياء: 33).**

• ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه ـ نوره ـ وأنسِه، يطول هذا تارة ثم يقصر أُخرى وعكسه الآخر، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هذه لها نور ـ ضياء ـ يخصها وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وسير آخر وتقدير آخر، ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن...».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ تنوينه عوض عن المضاف إليه

من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم، ﴿فِي فَلَكٍ﴾؛ أي: مستدير كالطاحونة في السماء وهو مدار النجوم، ﴿يَسْبَحُونَ﴾: يسيرون بسرعة كالسابح في الماء، وللتشبيه به أتي بضمير جمع من يعقل؛ أي: يسبحون».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها رحمة واسعة ـ ما نصه: «والليل والنهار ظاهرتان كونيتان، والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض، وبالحياة كلها. . . . . والتأمل في توالي الليل والنهار، وفي حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التي لا تختل مرة، وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة. . . . جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس، ووحدة الإرادة، ووحدة الخالق المدبر القدير».

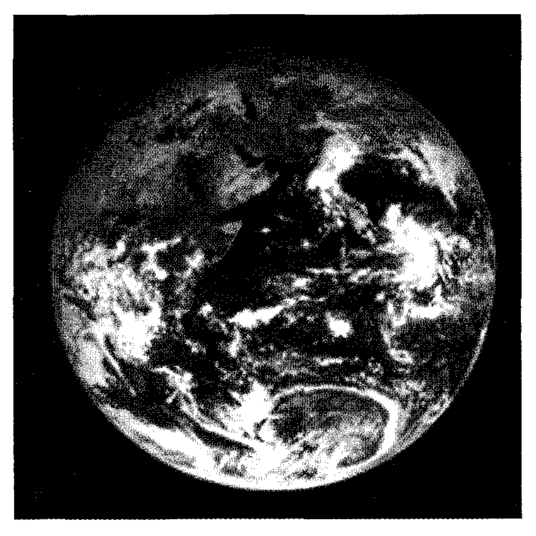
• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبها ـ ما نصه: «﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: كل واحد من الشمس والقمر يسير في فلكه بسرعة كالسابح في الماء، من السبح وهو المر السريع في الماء أو الهواء...».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كاتبيه خيراً ـ ما نصه: «والله هو الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، وكل من هذه يجري في مجاله الذي قدره الله له، ويسبح في فلكه لا يحيد عنه». وجاء في الهامش التعليق التالي: «لكل جرم سماوي مداره الخاص الذي يسبح فيه، وأجرام السماء كلها لا تعرف السكون، كما أنها تتحرك في مساراتٍ خاصةٍ هي الأفلاك، ونحن نرى هذه الحقيقة ممثلةً واضحةً في الشمس والقمر، كما أن دوران الأرض حول محورها يجعل الليل والنهار يتعاقبان عليها كأنهما يسبحان».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه: «... أي: وهو تعالى بقدرته نوَّع الحياة فجعل فيها ليلاً ونهاراً، هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه ـ نوره ـ وأنسِه، يطول هذا تارة ثم يقصر أُخرى وبالعكس، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته، ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء».

حركات الأرض في القرآن الكريم

في الوقت الذي ساد فيه اعتقاد الناس بثبات الأرض وسكونها، تنزَّل القرآن الكريم بالتأكيد على حركتها، وعلى حركة باقي أجرام السماء، ولكن لما كانت تلك الحركات خفية على الإنسان بصفةٍ عامةٍ، وعلى إنسان القرون الماضية بصفة خاصة، جاءت الإشارات القرآنية إليها لطيفة، رقيقة، غير مباشرة، حتى لا تصدم أهل الجزيرة العربية وقت



تنزل القرآن الكريم فيرفضوه؛ لأنهم لم يكونوا أهل معرفة علمية، أو اهتمام بتحصيلها؛ فلو أن الإشارات القرآنية العديدة إلى حركات الأرض جاءت صريحة صادعة بالحقيقة الكونية في زمن ساد فيه الاعتقاد بسكون الأرض وثباتها واستقرارها، لكذَّب أهل الجزيرة العربية القرآن، والرسول، والوحي، ولحيل بينهم وبين الهداية الربانية، ولحُرِمت الإنسانية من نور الرسالة الخاتمة، في وقت كانت قد حرمت أنوار الرسالات السماوية السابقة كلها فشقيت وأشقت.

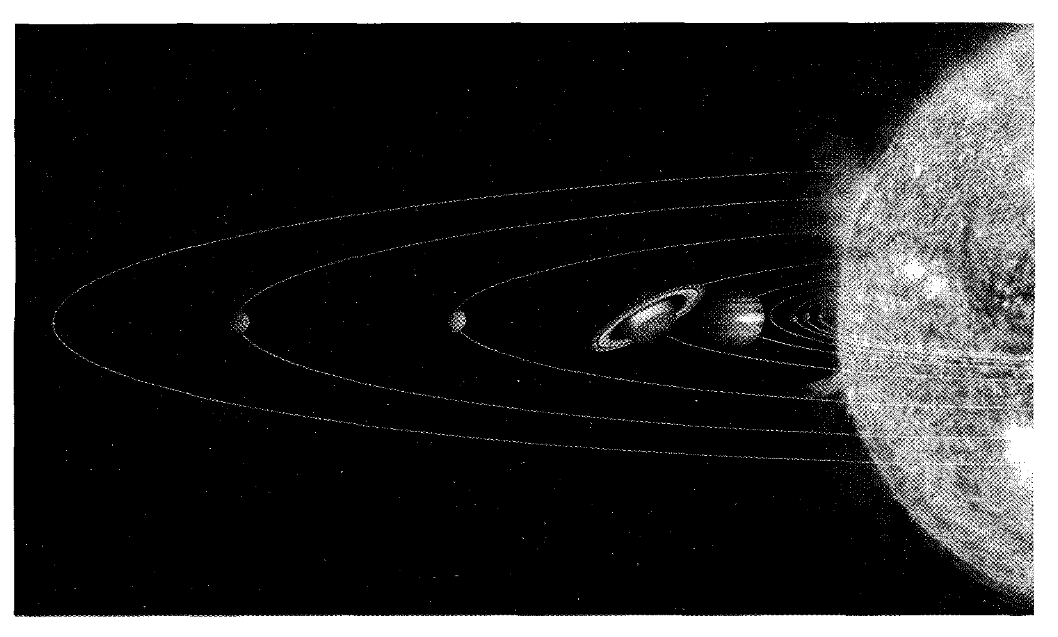
من هنا فإن جميع الإشارات القرآنية إلى حقائق الكون التي كانت غائبةً عن علم الناس كافة في عصر تنزُّل الوحي السماوي ومنها الإشارات المتعددة إلى حركات الأرض وإلى كرويتها ـ جاءت كلها بأسلوب غير مباشر، ولكن بما أنها بيان من الله الخالق فقد صيغت صياغةً محكمةً بالغة الدقة في التعبير، والشمول والإحاطة في الدلالة، حتى تبقى مهيمنةً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وتبقى شاهدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى أن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومن تلك الإشارات القرآنية ما يتحدث عن جري الأرض في مدارها حول الشمس، ومنها ما يتحدث عن دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وقد استعاض القرآن الكريم في الإشارة إلى تلك الحركات الأرضية بالوصف الدقيق لسبح كل من الليل والنهار، واختلافهما وتقلبهما، وإغشاء كل منهما للآخر، وإيلاج كل منهما في الآخر، وسلخ النهار من الليل، ومرور الجبال مر السحاب كما يتضح من الآيات القرآنية التالية:

أولاً: سبح كل من الليل والنهار:

يقول ربنا ﷻ في وصف حركات كل من الأرض والشمس والقمر:

(1) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ **(الأنبياء: 33).**



رسم عام لكواكب المجموعة الشمسية تدور حول الشمس بتقدير من الله تعالى

(2) ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ **(يسٓ: 40).**

فالليل والنهار ظرفا زمان لا بد لهما من مكان، والمكان الذي يظهران فيه هو الأرض، ولولا كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس لما ظهر ليل ولا نهار، ولا تبادل كلٌّ منهما نصفا سطح الأرض؛ والدليل على ذلك أن الآيات في هذا المعنى تأتي دوماً في صيغة الجمع ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ولو كان المقصود سبح كل من الشمس والقمر فحسب، لجاء التعبير بالتثنية «يسبحان»، كما أن السبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسط أقل كثافة منها، والسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم بحركة ذاتية فيه من مثل: حركات كل من الأرض والشمس والقمر في جري كلٍّ منها في مداره المحدد له، فسبح كل من الليل والنهار في هاتين الآيتين الكريمتين إشارة ضمنية رقيقة إلى كل من جري الأرض في مدارها حول الشمس، وإلى تكورها ودورانها حول محورها أمام الشمس.

ثانياً: مرور الجبال مر السحاب:

وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ **(النمل: 88).**

ومرور الجبال مر السحاب هو كناية واضحة على دوران الأرض حول محورها، وعلى جريها حول الشمس ومع الشمس؛ وذلك لأن الجبال جزء من الأرض، ولأن الغلاف الغازي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب مرتبط بالأرض بواسطة الجاذبية، وحركته منضبطة مع حركة الأرض، وكذلك حركة السحاب فيه، فإذا مرت الجبال مر السحاب كان في ذلك إشارةً ضمنيةً إلى حركات الأرض المختلفة التي تمر كما يمر السحاب.

ثالثاً: إغشاء كل من الليل والنهار بالآخر:

يقول الحق ﷻ في محكم كتابه:

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **(الرعد: 3).**

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾. **(الشمس: 1 ـ 4).**

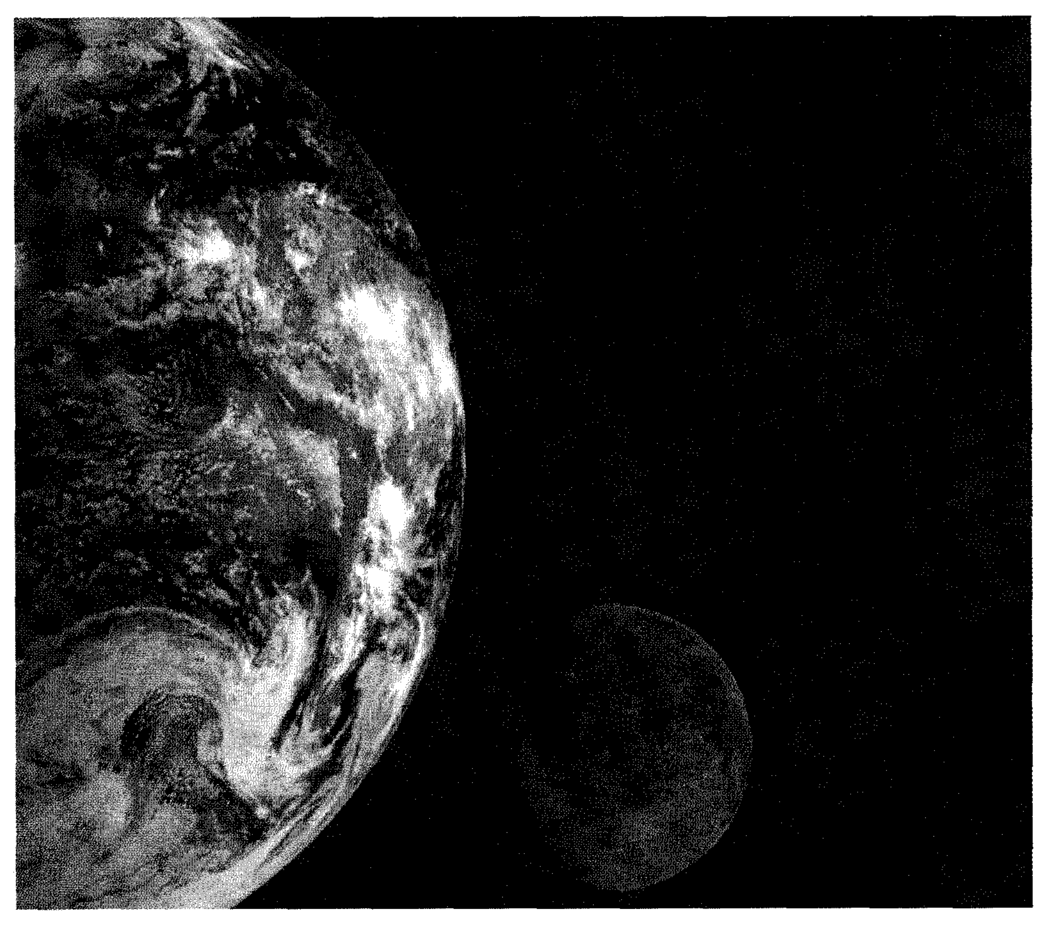
ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ **(الليل: 1، 2).**

و(غشي) في اللغة تأتي بمعنى: غطى وستر، يقال: غشيه غشاوةً وغشاءً بمعنى: أتاه إتيان ما قد غطاه وستره؛ لأن الغشاوة ما يغطى به الشيء.

والمقصود من (يغشي الليل النهار): أن الله تعالى يغطي بظلمة الليل مكان النهار على الأرض فيصير ليلاً، ويغطي مكان الليل على الأرض بنور النهار فيصير نهاراً، وهي إشارة لطيفة لحقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس دورة كاملة كل يوم؛ أي: في كل أربع وعشرين ساعة، حالياً يتعاقب الليل والنهار بصورة تدريجية؛ أي: يحل أحدهما محل الآخر في الزمان والمكان مما يجعل زمن كل منهما يتعاقب على الأرض.

والليل والنهار يشار بهما في مواضع كثيرة من القرآن الكريم إلى زمان ومكان سيادة كل منهما أي: إلى نصفي الأرض الذي يعم أحدهما الليل، ويعم الآخر النهار (وبجمعهما معاً يشار بهما إلى الأرض). ويشار بتبادل كل من الليل والنهار إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، كما يشار بهما إلى الظلمة والنور، وإلى العديد من لوازمهما، ويتضح ذلك من قول الحق ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ أي: يقسم ربنا ﷻ ـ وهو الغني عن القسم ـ بالنهار إذ أظهر الشمس واضحة غير محجوبةٍ؛ وبالليل إذ يغيب فيه ضياء الشمس ويحتجب، وكان الناس إلى يومنا هذا يعتقدون أن



صورة حقيقية لكل من الأرض والقمر في مواجهة الشمس وتظهر طبقة النهار على كل منهما وسط ظلمة الكون

الشمس هي التي تجلي لنا نور النهار، ولكن لما كانت غالبية الأشعة الصادرة عن الشمس لا تراها عين الإنسان فيما عدا حزمة ضئيلة تعرف باسم الأشعة المرئية، وهي مكونة من أطياف عديدة تتشتت وتعكس من أسطح هباءات الغبار وجزيئات كل من بخار الماء والغازات المكونة للهواء حتى تعطي نور النهار الأبيض الجميل؛ وبذلك ثبت أن طبقة النهار حول نصف الأرض المواجه للشمس هي التي تجلي لنا الشمس وهو ما لم يدركه الإنسان إلا مؤخراً جداً وبعد مجاهدة كبيرة من العلماء خاصة بعد رحلات الفضاء.

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ حيث يقسم ربنا ﷻ بالليل الذي يحجب فيه ضوء الشمس فيعم الأرض الظلام، وبالنهار إذ تشرق فيه الشمس فيعم الأرض النور، ومن هنا كانت منة الله ـ تعالى ـ على عباده أن جعل لهم الليل

لباساً وسكناً، وجعل لهم النهار معاشاً وحركةً ونشاطاً حيث يقول ربنا ﷻ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (يونس: 67).

ويقول: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ (النبإ: 10، 11).

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (القصص: 71 ـ 73).

رابعاً: إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل:

يقول ربنا ﷻ في محكم كتابه:

(1) ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِۖ﴾ (آل عمران: 27).

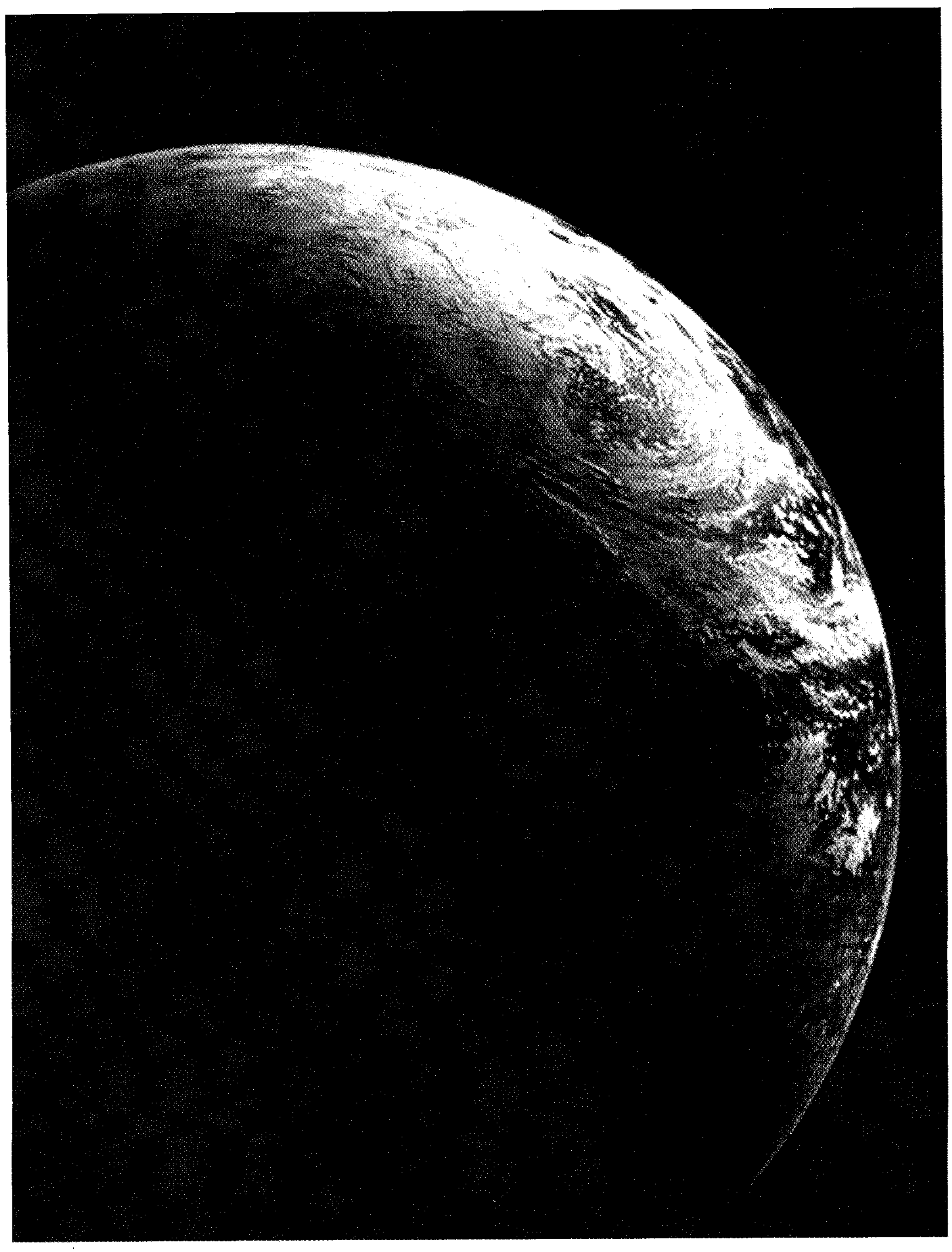
(2) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ (الحج: 61).

(3) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ (لقمان: 29).

(4) ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ (فاطر: 13).

(5) ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ (الحديد: 6).

والولوج لغة هو: الدخول؛ ولما كان من غير المعقول دخول زمن على زمن اتضح أن المقصود بكل من الليل والنهار ليس الزمن ولكن المكان الذي يتغشاه زمن كل من الليل والنهار، وهو الأرض؛ وعلى ذلك؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ



(الصورة لوكالة ناسا)

صورة حقيقية للأرض توضح طبقة نور النهار المحيطة بنصف الأرض المواجه للشمس والجزء الذي يخيم عليه الليل يدخل عليه نور النهار بالتدرج

﴿ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾: أن الله تعالى يدخل الجزء من الأرض الذي يخيم عليه الليل بالتدريج في مكان الجزء الذي يعمه نور النهار، ويدخل الجزء من الأرض الذي يعمه نور النهار بالتدريج في مكان الجزء الذي يخيم عليه الليل وذلك باستمرار، وبطريقة متدرجة، إلى أن يغير الله ـ تعالى ـ هذا النظام بأمر منه أو إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وليس هنالك من إشارة أدق من ذلك في التأكيد على حقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وهذه الإشارة القرآنية تلمح أيضاً إلى كروية الأرض؛ لأنه لو لم تكن الأرض كروية الشكل، ولو لم تكن الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما أمكن لليل والنهار أن يتعاقبا بطريقة تدريجية ومطردة.

خامساً: سلخ النهار من الليل:

يقول ربنا ﷻ:

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ (يسٓ: 37).

والسلخ لغة هو: نزع جلد الحيوان عن لحمه، ولما كان من غير المعقول أن يسلخ زمن النهار من زمن الليل، كان المقصود بكل من الليل والنهار هنا كما أسلفنا هو مكان كل منهما على الأرض، الذي يتبادل فيه كل من النور والظلام وليس زمانهما، وعلى ذلك فمعنى قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾: أن الله تعالى ينزع طبقة النهار من أماكن الأرض التي يتغشاها الليل كما ينزع جلد الحيوان عن لحمه، ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس. وفي تشبيه إزالة نور النهار من غلاف الأرض بنزع جلد الحيوان عن لحمه تأكيد على أن نور النهار إنما ينشأ في طبقةٍ رقيقةٍ من الغلاف الغازي للأرض تحيط بكوكبنا (كما يحيط جلد الحيوان بجسده)، وأن هذا النور مكتسب أصلاً من ضوء الشمس وليس ذاتياً، وأنه ينعكس من سطح الأرض ويتشتت في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي المحيط بها؛ والذي يصبح ظلاماً ببعده عن الأرض، كما أن الظلام سائد في الفضاء الكوني بصفةٍ عامةٍ لعدم وجود جسيماتٍ كافيةٍ فيه لإحداث التشتت لضوء الشمس ولضوء غيرها من النجوم، وهذا الضوء لا يظهر إلا بالانعكاس على أسطح الكواكب وأسطح غيرها من الأجرام المعتمة أو بالتشتت في أغلفتها الجوية إن كانت بها جسيمات كافية للقيام بهذا التشتت.

سادساً: اختلاف الليل والنهار:

وفي إشارة أخرى إلى حركات الأرض وكرويتها يستخدم القرآن الكريم تعبير «اختلاف الليل والنهار» في آيات كثيرة منها قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فيما يلي من الآيات:

(1) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة: 164).

(2) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (آل عمران: 190).

(3) ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ (يونس: 6).

(4) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (المؤمنون: 80).

(5) ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ (الجاثية: 5).

(6) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ (الفرقان: 62).

وفي تلك الآيات يؤكد القرآن الكريم كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس بالوصف الدقيق لتعاقب الليل والنهار، كما سبق أن أكَّد ذلك في آيات سبح كل من الليل والنهار، ، ومرور الجبال مر السحاب، والتكوير، والإغشاء، والولوج، والسلخ، وهي تصف حركة تولد الليل من النهار، والنهار من الليل، وصفاً غاية في البلاغة الوصفية والدقة العلمية.

سابعاً: تقليب الليل والنهار:

كذلك يشير القرآن الكريم إلى كل من كروية الأرض وحركاتها بتقليب الليل والنهار وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ (النور: 44).

حركات الأرض في العلوم الحديثة

الأرض هي أحد كواكب المجموعة الشمسية، وتمثل الكوكب الثالث بعداً عن الشمس، وتبعد عنها بمسافةٍ تقدر بحوالي المائة وخمسين مليون كيلومتراً؛ ولما كانت كل أجرام السماء في حركةٍ دائبةٍ فإن للأرض عدة حركات منتظمة، منها: دورتها حول محورها

أمام الشمس التي يتبادل بواسطتها الليل والنهار، وجريها في مدارها حول الشمس بمحور مائل فيتبادل كل من الفصول والأعوام، وحركتها مع الشمس حول مركز المجرة، ومع المجرة حول عدد من مراكز أكبر إلى نهاية لا يعلمها إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وقد عُرِف من حركات الأرض ما يلي:

أولاً: حركات الأرض حول محور دورانها:

(1) الحركة المحورية (الدورانية أو المغزلية) للأرض:

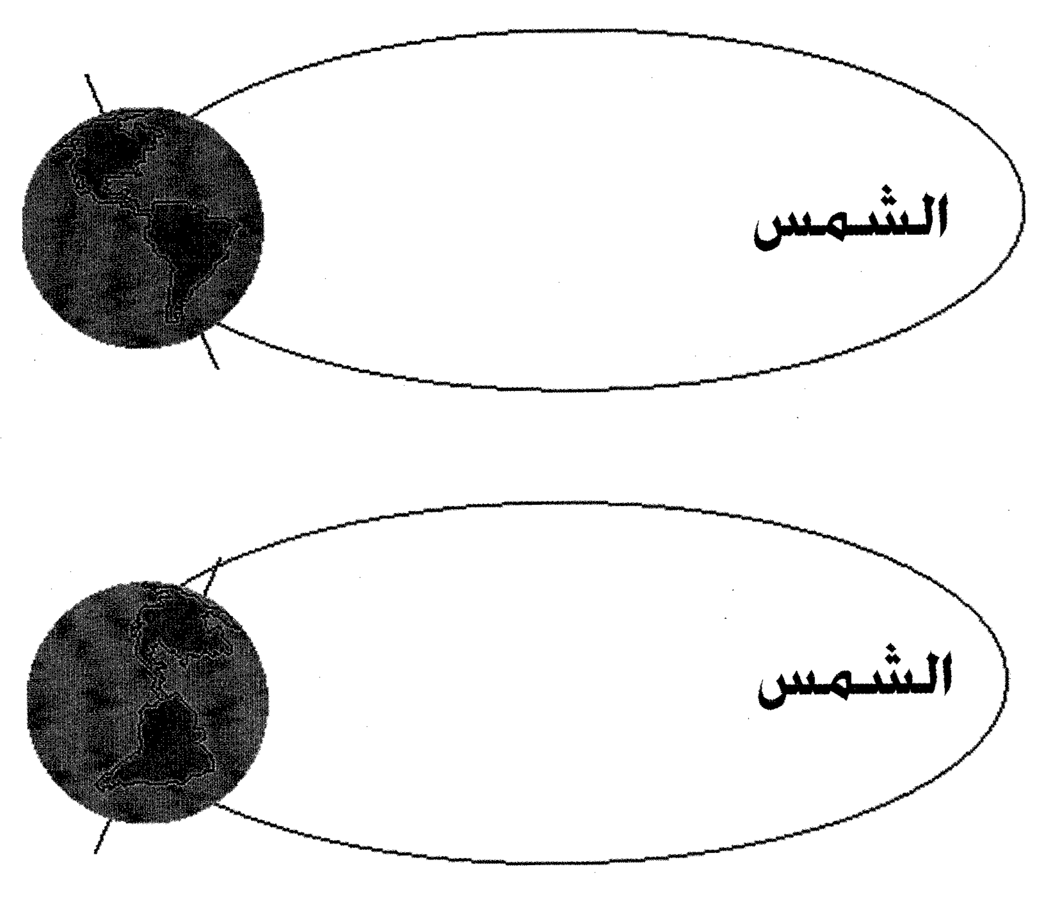
وفيها تدور الأرض حول محورها الوهمي من الغرب إلى الشرق أمام الشمس بسرعة (1674) كيلومتراً في الساعة لتتم دورةً كاملةً في يوم مقداره حالياً حوالي الأربع وعشرين ساعة (23 ساعة، 56 دقيقة، 4 ثوان) يتقاسمه ليل ونهار، بتفاوت في طول كل منهما نظراً لميل محور دوران الأرض بمقدار 23.5 درجة عن العمود النازل على مستوى مدارها، ويعرف هذا اليوم باسم: اليوم النجمي، أما اليوم الشمسي فيبلغ مدى زمنه24 ساعة تماماً.

(2) الحركة الترنحية للأرض (Precession):

وهي حركة بطيئة تتمايل فيها الأرض من اليمين إلى اليسار بالنسبة إلى محورها العمودي، وتؤدي هذه الحركة إلى تأرجح؛ أي: زحزحة محور دوران الأرض حول نفسها تدريجياً مما يؤدي إلى تغير موقع كل من قطبي الأرض الشمالي والجنوبي، وهما يمثلان نقطتي تقاطع المحور الوهمي لدوران الأرض مع السطح الخارجي لذلك الكوكب، ويتأرجح محور الأرض المائل بقدر يكفي لرسم دائرةٍ كاملةٍ مرة كل حوالي 26000 سنة (25.800 سنة)، وبذلك يرسم المحور مخروطين متعاكسين تلتقي قمتاهما في مركز الأرض.

(3) حركة الميسان (النودان أو التذبذب) للأرض (Nutation):

وهي حركة تجعل من ترنح الأرض حول محورها مساراً متعرجاً بسبب جذب كل من القمر والشمس للأرض، ويؤدي ذلك إلى ابتعاد الدائرة الوهمية التي يرسمها محور الأرض في أثناء ترنحها ـ كنهاية للمخروطين المتقابلين برأسيهما في مركز الأرض ـ عن كونها دائرة بسيطة إلى دائرةٍ مؤلفةٍ من أقواس متساوية، ويقدر عدد الذبذبات التي ترسمها الأرض في مدارها بهذه الحركة بدءاً من مغادرة محورها لنقطة القطب السماوي وحتى عودته إليها بـ 1400 ذبذبة (قوس) نصفها إلى يمين الدائرة الوهمية، والنصف الآخر إلى يسارها، ويستغرق رسم القوس الواحد مدة 18.6 سنة، أي: أن هذه الحركة تتم دورةً كاملةً في (26.040 سنة) تقريباً.



الحركة الترنحية للأرض بالنسبة إلى محورها العمودي

(4) حركة التباطؤ في سرعة دوران الأرض حول محورها:

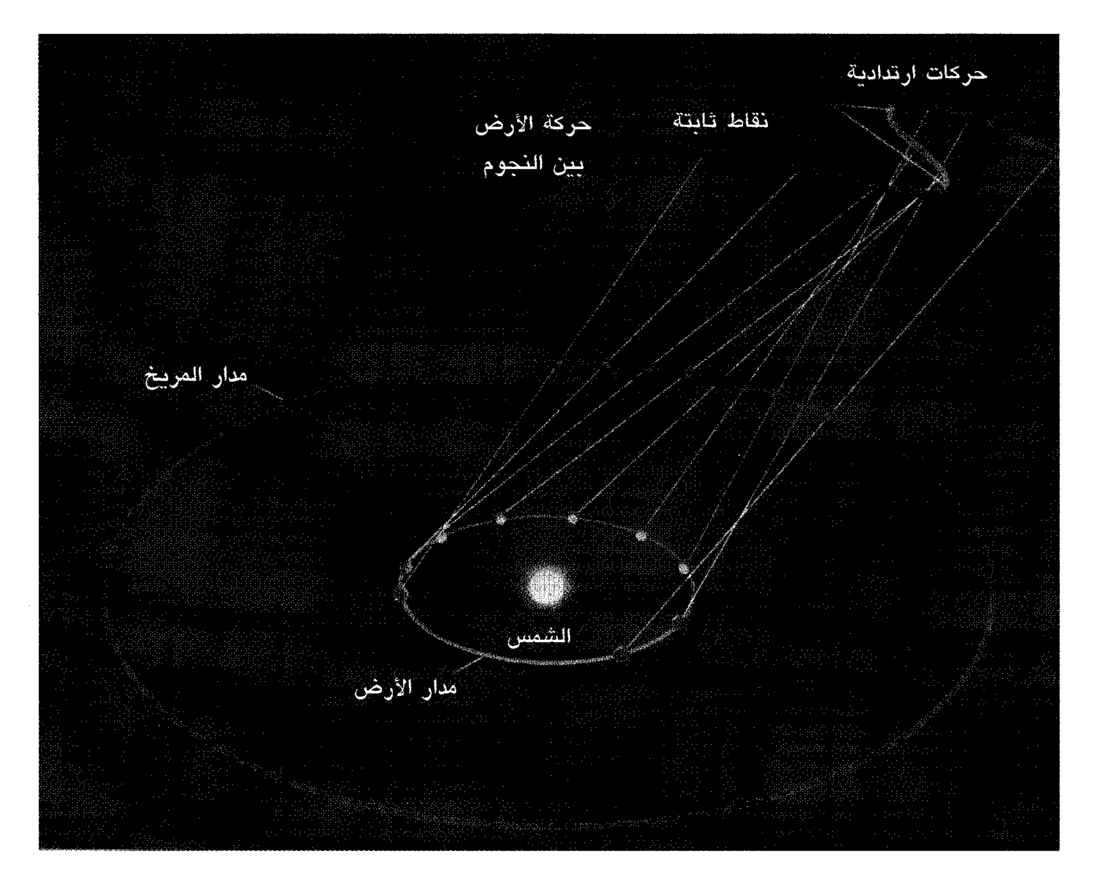
ويتم هذا التباطؤ بمقدار جزء من الثانية في كل قرن من الزمان، بينما يسرع القمر في دورته المحورية بنفس المعدل، ويؤدي ذلك إلى تغير تدريجي في حالة التوازن بين الأرض والقمر مما يؤدي في النهاية إلى انفلات القمر من عقال جاذبية الأرض، وارتمائه في أحضان الشمس، وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ **(القيامة: 9).**

ثانياً: الحركات الانتقالية المدارية للأرض (سبح الأرض):

(1) جري الأرض في مدارها حول الشمس:

وفيها تجري الأرض في مدار بيضاني (إهليلجي) حول الشمس بسرعة تقدر بحوالي



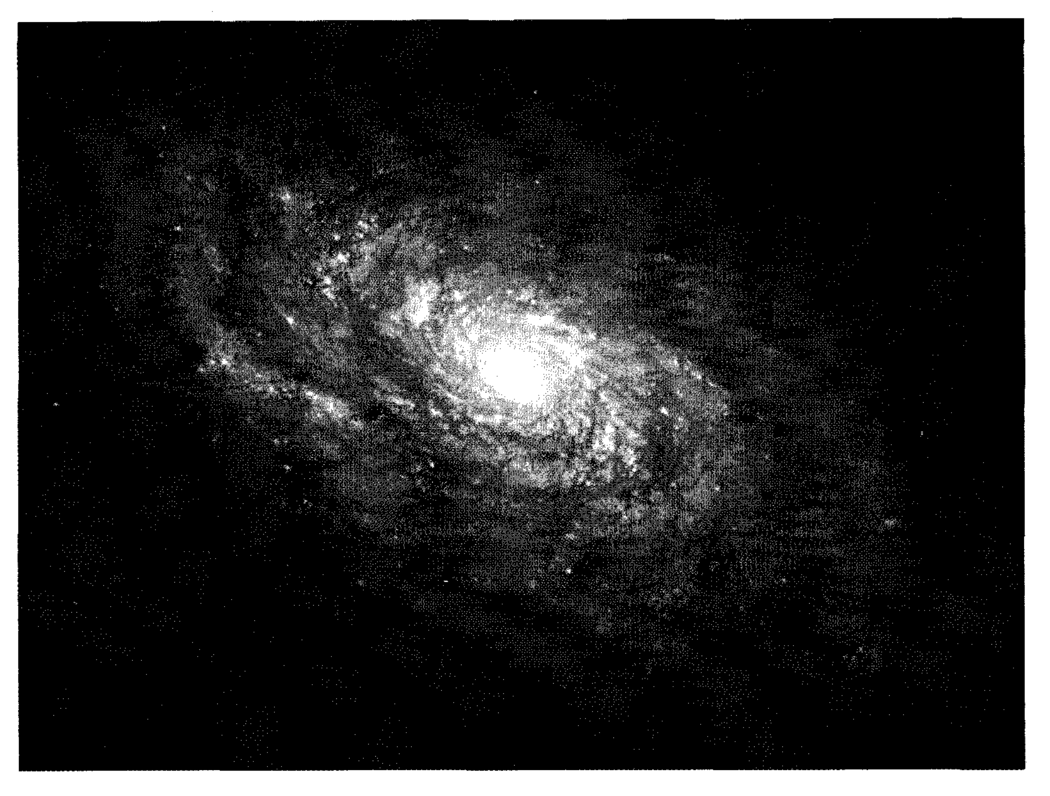
رسم يوضح حركة الأرض حول الشمس بين نجوم السماء

الثلاثين كيلومتراً في الثانية (29,76 كم/ث) لتتم دورةً كاملةً في مدة سنة شمسية مقدارها 365.24 يوم شمسي يتقاسمها اثنا عشر شهراً، وأربعة فصول.

(2) حركة استدارة فلك الأرض: وبها يتم تقريب مدار الأرض الإهليلجي حول الشمس إلى مدار أقرب ما يكون إلى شكل الدائرة، وتستغرق هذه الحركة (92,000) سنة لكي تقترب بؤرتا مدار الأرض من بعضهما البعض حتى تتطابقا، ثم تعاودان التباعد من جديد.

(3) حركة جري الأرض مع المجموعة الشمسية: في مسار باتجاه كوكبة الجاثي بسرعة تقدر بحوالي عشرين كيلومتراً في الثانية.

(4) حركة جري الأرض مع بقية المجموعة الشمسية حول مركز المجرة التي تتبعها (سكة التبانة): في مدار لولبي بسرعة تقدر بحوالي206 كيلومتراً في الثانية (741,600 كيلومتراً



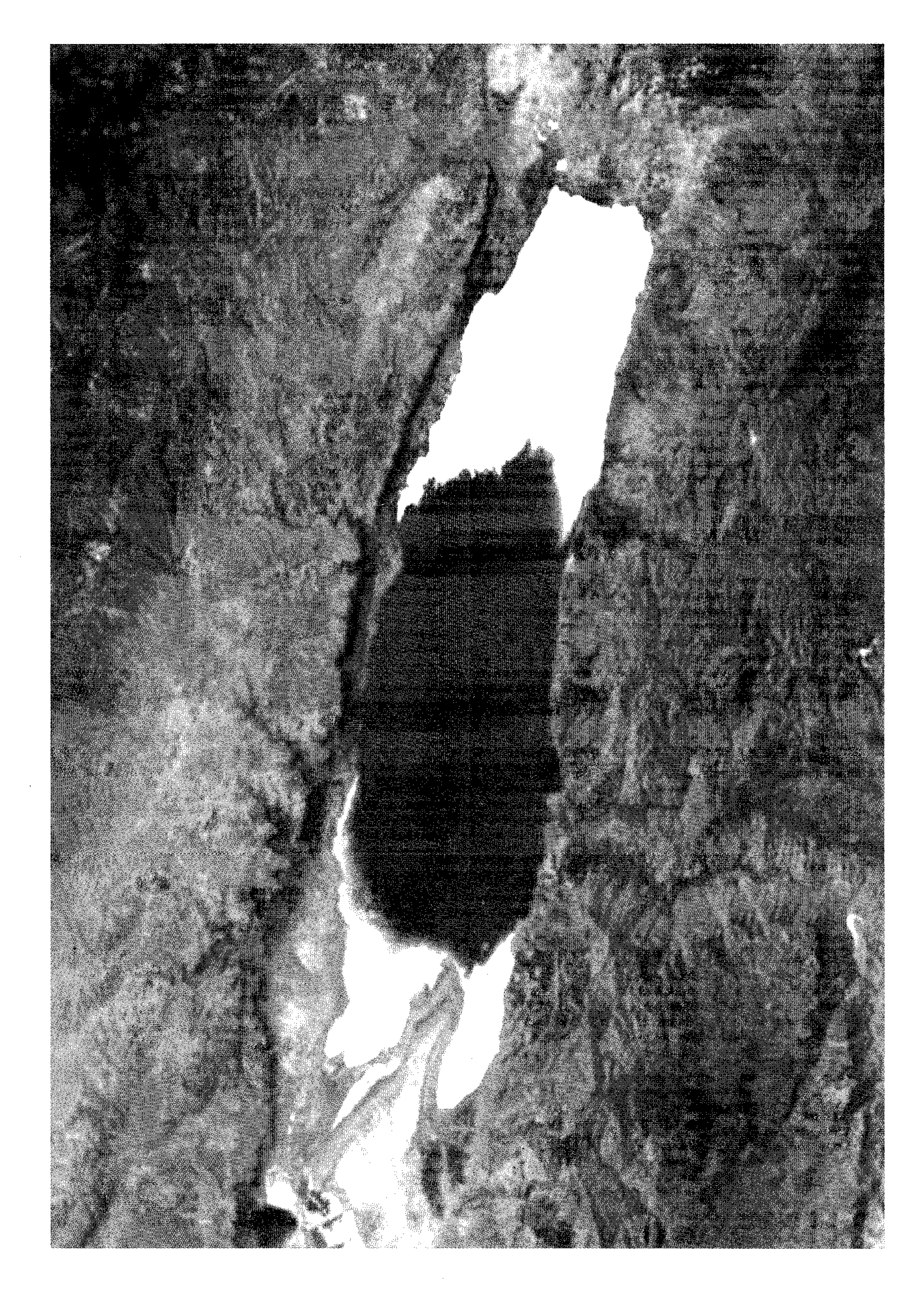
صورة لمجرة حقيقية تشبه مجرتنا تجري في مدار لولبي صورها التلسكوب الفضائي هابل

في الساعة) لتتم دورةً كاملةً في مدة تقدر بحوالي المائتين وخمسين مليوناً من السنين.

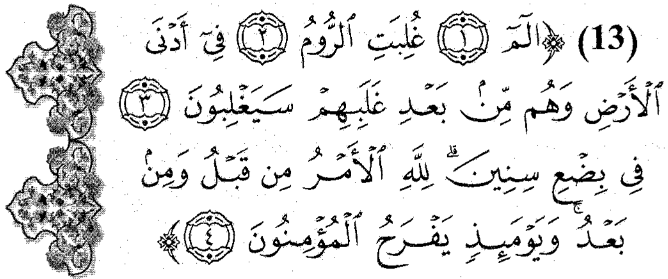
(5) حركة جري كل من الأرض والمجموعة الشمسية والمجرة: بسرعة تقدر بحوالي980 كيلومتراً في الثانية (3,528,000 كيلومتر في الساعة) لتؤدي إلى ظاهرة اتساع السماء بتباعد مجرتنا عن بقية المجرات في السماء الدنيا.

وقد يكون للأرض حركات أُخرى لم تكتشف بعد.

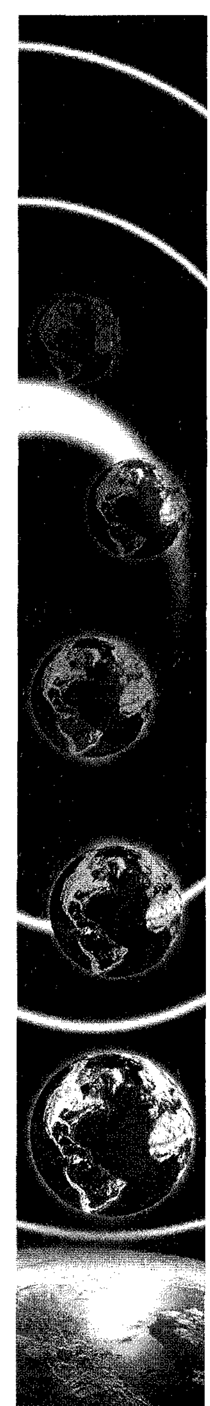
من هذا الاستعراض يتضح أن حركات الأرض حول محورها، وجريها في مدارها حول الشمس، ومع الشمس في مدارات متعددة، هي من حقائق الكون الثابتة، وإشارة القرآن الكريم إليها في أكثر من عشرين آية من آياته في زمن سيادة الاعتقاد بثبات الأرض وسكونها لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويؤكد أن الرسول الخاتم ﷺ الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.






(13) ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾

(الروم: 1 ـ 4)



هذه الآيات القرآنية الكريمة جاءت في مطلع سورة «الروم»، وهي سورة مكية وعدد آياتها ستون (60) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة، شأنها في ذلك شأن كل القرآن المكي.

ومن قضايا العقيدة الأساسية التي جاءت في سورة «الروم»: الإيمان بوحدانية الخالق ﷻ، وبوحدة الرسالة السماوية، وبالأخوة بين الأنبياء وبين بني آدم أجمعين؛ والإيمان بالآخرة وأهوالها، ومنها هول البعث، وهول الحساب، وهول الميزان، وهول الصراط، وحتمية الجزاء، وحتمية الخلود في الحياة القادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً...!!

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ بحدث غيبي قبل وقوعه بعدة سنوات؛ ألا وهو انتصار الروم على الفرس بعد هزيمتهم أمامهم قبل نزول هذه السورة المباركة بعدة سنوات. وتزخر السورة بالأمر بتسبيح الله، وتنزيهه ـ جل شأنه ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله، وحمده على نعمائه، كما تزخر بالاستشهاد بعدد كبير من الآيات الكونية الدالة على طلاقة قدرته وشمول علمه، وعدل قضائه (سبحانه وتعالى).

وتنصح السورة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ بأن يقيم وجهه لدين الإسلام الحنيف، الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً

سواه؛ لأنه دين الفطرة التي فطر الله ـ تعالى ـ الناس عليها، والتي لا تبديل لها، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك. وتأمر الآيات في سورة «الروم» المسلمين بالإنابة إلى الله وتقواه، كما تأمرهم بإقام الصلاة، وبالحذر من الوقوع في دنس الشرك بالله؛ لأن الذين أشركوا قد فرَّقوا دينهم، وكانوا شيعاً عديدةً حسب أهوائهم، وكل حزب منهم فرح بما لديه...!!!

وتحدثت السورة الكريمة عن شيء من التقلب في طبائع النفس البشرية، ذلك التقلب الذي لا تستقيم معه الحياة السوية، مثل: اللجوء إلى الله تعالى في الشدة، والإعراض عنه في الرخاء، والإيمان به ـ تعالى ـ في لحظات الضيق، والشرك أو الكفر به ـ تعالى ـ وبما أنزل من هداية ربانية بعد انفراج الأزمة وفي لحظات السعة والرحمة. وتضرب السورة مثلاً للناس من حياتهم على سخافة فكرة الشرك بالله إذا ناقشها العقل بشيء من الموضوعية والحيدة.

ومن أصول العبادات وضوابط السلوك ومكارم الأخلاق التي تدعو إليها السورة الكريمة: الأمر بإخراج الزكاة، وإيتاء ذي القربى والمساكين وأبناء السبيل، والنهي عن أكل الربا؛ على أن ينطلق ذلك كله من الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الخالق، الرزاق، المحيي، المميت. وتربط السورة الكريمة بين ظهور الفساد في البر والبحر وبين أعمال الناس وما كسبت أيديهم، وتأمر بالسير في الأرض لاستخلاص العبر من سير الأولين، ومصائر الظالمين.

وتؤكد سورة «الروم» مرة ثانية لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ضرورة استقامة العباد على الدين القيم من قبل أن تأتي الآخرة فيصدع بها كل الخلائق ثم يجزَى كلٌّ بعمله.

ومن الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة «الروم» على طلاقة القدرة الإلهية: خلق السمٰوات والأرض، وخلق الأحياء، وخلق الانسان، كل ذلك في زوجية تشهد للخالق وحده ـ سبحانه ـ بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ومنها: اختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وإعطاء الإنسان الاستطاعة على النوم بالليل أو في النهار، وعلى ابتغاء فضل الله، ومن آياته: الرعد والبرق، وإنزال المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، وقيام السمٰوات والأرض بأمره، وخضوع كل من فيها أو عليها بأمره، وبعث الموتى بأمره، وأنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض.

ومن آياته إرسال الرياح برحمة منه وفضل، وجري الفلك بأمره، وإثارة السحاب، وما يستتبعه ذلك من أحداث بأمره، ومرور كل حي بمراحل من الضعف، ثم القوة، ثم

الضعف والوفاة بأمر الله. ومن آياته: أنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير.

وتُذكِّر السورة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بشيء من قصص من سبقه من الأنبياء والمرسلين، وما أصاب أقوامهم الظالمين من انتقام، والمؤمنين من نصر وإعزاز، كما تذكره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأن ما عليه إلا البلاغ المبين.

وتختتم السورة الكريمة بالحديث مرة أُخرى بالحديث عن البعث وأهواله، وعن مصير أهل الكفر والشرك والضلال في هذا اليوم العصيب من هوان وإذلال وعذاب، ومصير أهل الإيمان والتقوى من إعزاز وتكريم وتنعيم، وتكرر الإشارة إلى شيء من طبائع النفس البشرية، وقد ضربت لها آيات القرآن الكريم من كل مثل، ولكن الذين كفروا لايؤمنون ولا يعلمون والله ـ تعالى ـ قد طبع على قلوب الذين لايعلمون.

وتنتهي السورة بتثبيت خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بوصية من الله ـ تعالى ـ له بالصبر على استخفاف الكفار والمشركين بدعوته الحق، وإنكارهم لبعثته الشريفة، وهو ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، وتطمئنه الآيات في ختام سورة «الروم» بأن وعد الله حق، وهو واقع لا محالة. والوصية له ﷺ من الله ـ تعالى ـ هي وصية لجميع المؤمنين به في زمانه ومن بعده، ﷺ حتى لا ييأسوا من رحمة الله في زمن كزمن الفتن الذي نعيشه، والذي تطاول فيه أهل الكفر والشرك والضلال على أهل الإسلام لله ـ تعالى ـ والتوحيد الخالص لجلاله، كما تطاول الرعاع من صغار القوم على علماء الإسلام ورموزه، وتكلم كل «رويبضة» وهو كما وصفه رسول الله ﷺ هو كل تافه يتحدث في عظائم الأمور، ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله العلي العظيم.

والآيات الكونية الواردة في سورة «الروم» تحتاج إلى مجلدات لتفصيل دلالاتها، ولإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها، ولكني سأقتصر هنا على الإشارة القرآنية إلى الموقع الذي هزمت فيه جيوش الروم على أيدي جيوش الفرس بالتعبير القرآني: (أدنى الأرض)، وقبل الدخول في ذلك لا بد من عرض الدلالة اللغوية لهذا التعبير ولأقوال عدد من المفسرين فيه.

(أدنى الأرض) في اللغة العربية

يقال في اللغة: (دنا) (يدنو) (دنواً)؛ بمعنى: قرب بالذات أو بالحكم، ويستعمل في المكان، والزمان، والمنزلة، كما يُعدَّى فيقال (أدنى) (يدني) (إدناءة)، ويقال: (دانيت) أو (أدنيت) بين الأمرين أي: قاربت بينهما، حتى صارت بينهما (دناوةً) أي: قرب أو قرابةً..

و(الدنيّ) القريب، و(الدنيّ) بمعنى الدون، الخسيس، وقد (دنأ) (يدنأ)، وفيهما (دناءة)، ويقال: (دنَؤا) بمعنى انحطوا، و(الدنيئة) هي النقيصة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ **(الأنعام: 99).**

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ **(النجم: 8، 9).**

وفي الحديث الشريف: «**إذا أكلتم فادنوا**» أي: كلوا مما يليكم.

ويعبر بـ(الأدنى) تارة عن الأقرب فيقابل بالأبعد (أو الأقصى) من مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ **(الأنفال: 42).**

وتارةً ثانية يعبر بها عن الأخفض فيقابل بالأعلى وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ **(الأحزاب: 59).**

وتارة ثالثة تأتي بمعنى: الأقل في مقابل الأكثر، من مثل قوله ـ تعالى ـ: ....﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾... **(المجادلة: 7)**

وتارة رابعة يعبر بها عن الأرذل أو الأحقر فيقابل بالذي هو خير أو أعلى وأرفع وأنفع؛ وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ **(البقرة: 61).**

وتارة خامسة يعبر بها عن الأولى أي: ـ الدنيا ـ في مقابلة الآخرة وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ **(آل عمران: 152)**

وسميت (الدنيا) بهذا الاسم لدنوِّها، والجمع (الدُّنا)، وأصله: (الدنو) فحذفت الواو لاجتماع الساكنين، والنسبة إليها (دنياي)، وقيل (دنيوي) و(دني)، ويقال: (تدنى) فلان أي (دنا) قليلاً قليلاً، و(تدنى) المستوى بمعنى هبط، و(تدانوا) أي: (دنا) بعضهم من بعض.

من شروح المفسرين

في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ **(الروم: 1 ـ 5).**

- ذكر «ابن كثير» ـ يرحمه الله ـ قول «ابن عباس» رضي الله عنهما حيث قال: كان المشركون

يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم كانوا من أهل الكتاب، فذُكِرَ ذلك، «لأبي بكر» رضي الله عنه، فذكره «أبو بكر» لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنهم سيغلبون**»، فذكره «أبو بكر» للمشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «**ألا جعلتها إلى دون العشر؟**»[1]، ثم ظهرت الروم بعد ذلك، قال فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾.

وأضاف «ابن كثير» عدة روايات أُخرى للحديث عن كل من «مسروق»، و«ابن مسعود»، و«عكرمة» ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ في المعنى نفسه، وزاد قوله: «... وأما الروم فهم من سلالة العيص ابن إسحاق بن إبراهيم، ويقال لهم: بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان؛ واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة، وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح عليه السلام بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملكَ منهم الشام مع الجزيرة يقال له: «قيصر»؛ فكان أول من دخل في دين النصارى من الروم «قسطنطين»؛ وأمه مريم الهيلانية من أرض حِران وكانت قد تنصرت قبله فدعته إلى دينها... واستمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم «هرقل»... فناوأه «كِسرى» ملك الفرس، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وكانوا مجوساً يعبدون النار، فتقدم عن «عكرمة» رضي الله عنه أنه قال: بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن «كسرى» غزاه بنفسه في بلاده فقهره، وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة «قسطنطينية» فحاصره بها مدةً طويلةً حتى ضاقت عليه، ولم يقدر كسرى على فتح البلدة، ولا أمكنه ذلك لحصانتها؛ لأن نصفها من ناحية البر، ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هناك، ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ـ هي تسع ـ فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع».

● وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ يرحمهما الله ـ كلاماً موجزاً في المعنى نفسه، وأضافا تعليقاً على التعبير القرآني ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أن المقصود به: «أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة، التقى فيها الجيشان، والبادي بالغزو: (هم) الفرس...».

(1) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34701).

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «ثم جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم في بضع سنين....» وأضاف رواية عبد الله بن مسعود ﷺ مؤكداً أن هذا الحادث قد وردت فيه روايات كثيرة، تتفق كلها في المعنى والدلالة، وتختلف في الألفاظ وطرائق التعبير. وجمع الكاتب ـ رحمه الله ـ من هذه الآيات القرآنية الكريمة عدداً من الإيحاءات منها: «الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان؛ ومنها الثقة المطلقة في وعد الله كما تبدو في مقولة أبي بكر ـ ﷺ ـ في غير تلعثم ولا تردد، والمشركون يعجبون من قول صاحبه، فما يزيد على أن يقول: صدق، ويراهنونه فيراهن وهو واثق، ثم يتحقق وعد الله، في الأجل الذي حدده: في بضع سنين».

«والإيحاء الثالث وهو المسارعة برد الأمر كله لله، في هذا الحادث وفي سواه، وتقرير هذه الحقيقة الكلية؛ لتكون ميزان الموقف، وميزان كل موقف، فالنصر والهزيمة، وظهور الدول ودثورها، وقوتها وضعفها، شأنه شأن سائر ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال، مرده كله إلى الله...».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «احتربت الفرس والروم فيما بين أذرعات وبصرى من أرض الروم يومئذٍ، وهما أقرب أراضيها بالنسبة إلى مكة، وكان ذلك قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بست. فظهر الفرس على الروم، فلما بلغ الخبر مكة شق على المؤمنين؛ لأن الفرس مجوس لا يدينون بكتاب، والروم أهل كتاب؛ وفرح المشركون وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن والفرس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فنزلت الآية وفيها: «أن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين». والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع. و(غلبهم) كونهم مغلوبين».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كاتبيه خيراً ـ ما نصه: «غلبت فارس الروم في أقرب الأرض من العرب، وهي أطراف الشام، وهم بعد انهزامهم سيغلبون الفرس قبل أن تمضي تسع سنوات.. وكان المشركون قد فرحوا بانتصار فارس، وقالوا للمسلمين: سنغلبكم كما غلبت فارس الروم التي هي من أهل الكتاب.. وقد حقق الله وعده فانتصر الروم على فارس في الأجل الذي سماه، فكان ذلك آيةً بيِّنةً على صدق محمد ﷺ في دعواه وصحة ما جاء به...».

وجاء في الهامش التعليق التالي: «في هذه الآيات الشريفة إشارة إلى حدثين: كان أولهما قد وقع بالفعل، وأما الثاني فلم يكن قد وقع بعد، وهو إخبار عن الغيب، (وحدد لوقوعه بضع سنين والبضع فيما بين الثلاث والتسع)».

وتفصيل الحدث الأول: أن الفرس والبيزنطيين قد اشتبكوا في معركةٍ في بلاد الشام على أيام خسرو أبرويز، أو خسرو الثاني (عاهل الفرس المعروف عند العرب بكسرى). وهيراكليوس الصغير الإمبراطور الروماني المعروف عند العرب بهرقل؛ ففي عام614 م استولى الفرس على أنطاكية أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية، ثم على دمشق، وحاصروا مدينة بيت المقدس إلى أن سقطت في أيديهم وأحرقوها ونهبوا السكان وأخذوا يذبحونهم...».

وتفصيل الحدث الثاني: أن هرقل قيصر الروم الذي مُنِي جيشه بالهزيمة لم يفقد الأمل في النصر، ولهذا أخذ يُعِدُّ نفسه لمعركة تمحو عار الهزيمة، حتى إذا كان عام622 الميلادي، ـ أي: العام الهجري الأول ـ أرغم الفرس على خوض معركة على أرض أرمينيا وكان النصر حليف الروم، وهذا النصر كان فاتحة انتصارات الروم على الفرس... فتحققت بشرى القرآن...».

وثمة حدث ثالث يفهم من سياق هذه الآيات الشريفة كان مبعث فرح المسلمين، وهو انتصارهم على مشركي قريش في غزوة بدر الكبرى التي وقعت في يوم الجمعة17 رمضان من العام الثاني الهجري (أي: سنة624 م)».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: « ...﴿فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هزم جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ أي: وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس، وينتصرون عليهم.

﴿فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ أي: في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام؛ والبضع ما بين الثلاث والتسع...».

«وأشار صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ إلى أقوال المفسرين السابقين، وعلق على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ ما نصه: «وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب، وغلبت الروم الفرس وهزمتهم، وفرح المسلمون بذلك؛ قال أبو السعود: «وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة، وكون القرآن من عند الله ﷻ، حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله العليم الخبير، ووقع كما أخبر، وقال «البيضاوي»: و«الآية من دلائل النبوة؛ لأنها إخبار عن الغيب...».

وأضاف صاحب صفوة التفاسير في شرح قول الحق ﷻ: ﴿وَيَوۡمَئِذٍ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ ما نصه: «وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر؛ قال ابن

عباس. كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان، وعبدة النيران...».

ويوم بدر وقع في السنة الثانية من الهجرة (الموافق سنة624 م)؛ وعلى ذلك فإن هزيمة الروم على أيدي الفرس لابد أنها كانت قد وقعت في حدود سنة614 م أو 615 م».

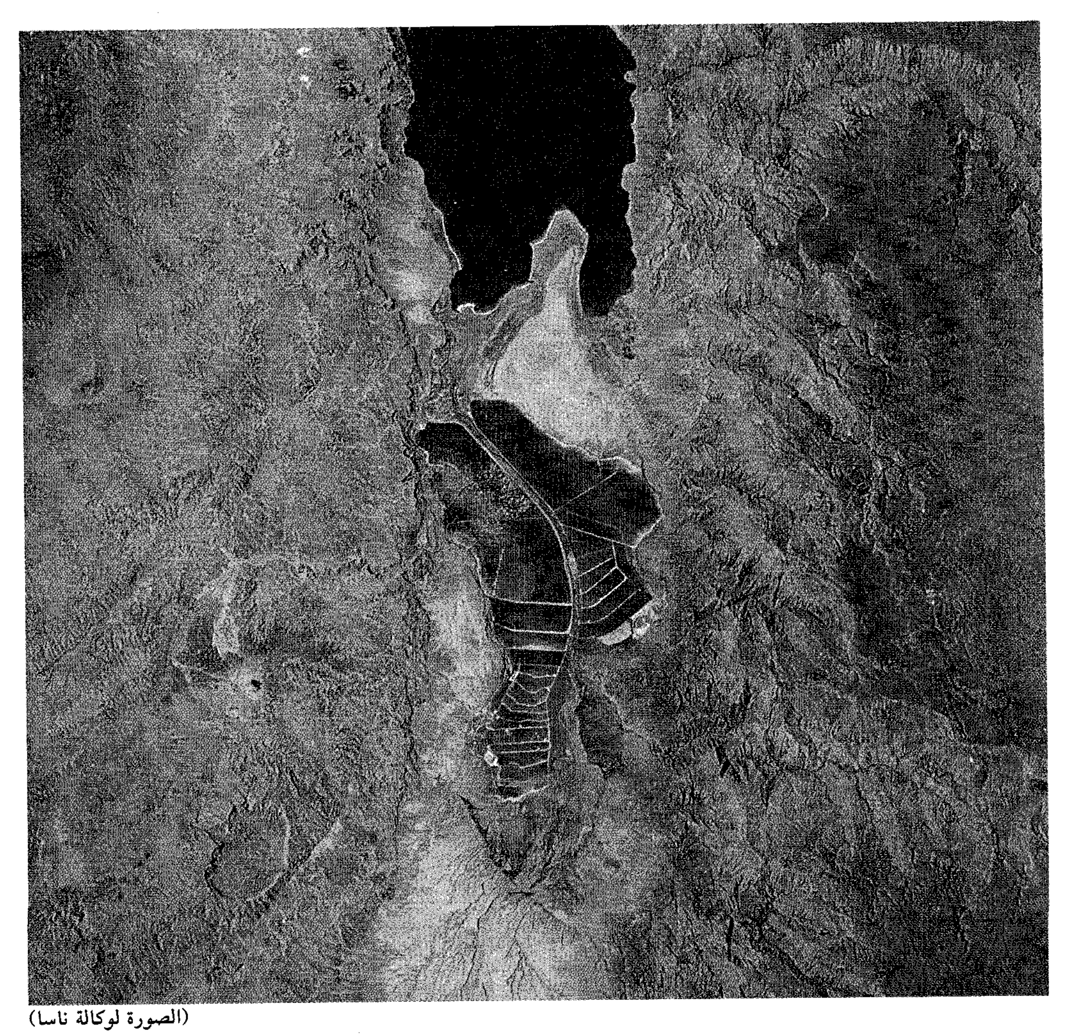
• وجاء في أطلس تاريخ الإسلام ـ على واضعه رحمة الله ـ ما نصه: «... وعندما تولى هرقل عرش الروم سنة 610 م ـ وهي سنة البعثة المحمدية ـ كان الفرس قد اجتاحوا بلاد الشام ومصر وهزموا البيزنطيين سنة613 م عند أنطاكية، واستولوا على فلسطين والقدس سنة614 م، وغزوا مصر ودخلوا الإسكندرية سنة618 م أو619 م، وبعد أن أقام «هرقل» دولته بدأ قتال الفرس سنة 622 م، وفي سنة 627 م أنزل بهم هزيمة قاصمة قرب «نينوى»، واسترد منهم أراضي الدولة البيزنطية في «أرمينيا» و«الشام» و«فلسطين» و«مصر»، وفي سنة 630 م استعاد بيت المقدس».

ومن استقراء كل هذه التواريخ السابقة يتضح أن هزيمة الروم الحقيقية على أيدي جيوش الفرس كانت في حدود سنة 614 م إلى 615 م، وأن استعادتهم النصر على الفرس كانت في حدود سنة 624 م، واستمر تقدم الروم على أرض الفرس حتى تم لهم احتلال بيت المقدس.

وواضح من شروح المفسرين أن المقصود بالتعبير القرآني في أدنى الأرض الذي يصف أرض المعركة التي تمت فيها هزيمة الروم أمام جحافل جيش الفرس هو أقرب الأرض إلى مكة المكرمة أو إلى الجزيرة العربية أو إلى أرض الفرس.. ولكن الدراسات الحديثة تؤكد أن منطقة حوض البحر الميت، بالإضافة إلى كونها أقرب الأراضي التي كان الروم يحتلونها إلى الجزيرة العربية هي أيضاً أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً، حيث يصل منسوب سطح الأرض فيها إلى حوالي أربعمائه متر تحت مستوى سطح البحر، وأن هذه المنطقة كانت من مناطق الصراع بين إمبراطوريتي الفرس والروم، وأن المعركة الحاسمة التي أظهرت جيوش الفرس على جيوش إمبراطورية روما الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) لابد أنها وقعت في حوض البحر الميت، وأن الوصف بـ «أدنى الأرض» هنا كما يعني أقربها للجزيرة العربية؛ يعني ـ أيضاً ـ أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً، وهذه الإشارة القرآنية العابرة تعتبر من السبق العلمي في كتاب الله؛ لأن أحداً لم يكن يعلم هذه الحقيقة في زمن الوحي بالقرآن الكريم، ولا لقرونٍ متطاولةٍ من بعده.

أدنى الأرض في العلوم الحديثة

ثبت علمياً بقياسات عديدة أن أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً هو غور البحر الميت. ويقع البحر الميت في أكثر أجزاء الغور انخفاضاً؛ حيث يصل مستوى منسوب سطح الماء فيه إلى حوالي أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، ويصل منسوب قاعه في أعمق أجزائه إلى قرابة ثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر، وهو بحيرة داخلية بمعنى أن قاعها يعتبر في الحقيقة جزءاً من اليابسة.



(الصورة لوكالة ناسا)

صورة حقيقية من الفضاء لغور البحر الميت ومستوى سطح الماء فيه ينخفض حوالي 400 متر تحت مستوى سطح الماء في كل من البحرين الأبيض المتوسط، والأحمر

وغور البحر الميت هو جزء من خسف أرضي عظيم يمتد من منطقة البحيرات في شرقي إفريقيا إلى بحيرة طبريا فالحدود الجنوبية لتركيا مروراً بالبحرالأحمر، وخليج العقبة، ويرتبط بالخسف العميق في قاع كل من المحيط الهندي، وبحر العرب وخليج عدن.

ويبلغ طول أغوار وادي عربة/ البحرالميت/ الأردن حوالي ستمائة كيلومتر، ممتدة من خليج العقبة في الجنوب إلى بحيرة طبريا في الشمال، ويتراوح عرضها بين العشرة والعشرين كيلومتراً. ويعتبر منسوب سطح الأرض فيها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً حيث يصل منسوب سطح الماء في البحر الميت إلى حوالي 400 متراً تحت المستوى المتوسط لمنسوب المياه في البحرين المجاورين: الأحمر والأبيض المتوسط، وهو أخفض منسوب أرضي على سطح اليابسة كما يتضح من الأرقام التالية:

جدول مناسيب أخفض البقاع على اليابسة

منسوب سطح الأرض في وادي عربة	=	355 ـ 400 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب أعمق نقاط قاع البحرالميت	=	794 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الماء في البحرالميت	=	400 م تحت مستوى سطح البحر.
مستوى سطح الأرض في غور الأردن	=	212 ـ 400 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الماء في بحيرة طبريا	=	209 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب قاع بحيرة طبريا	=	252 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الأرض في قاع منخفض القطارة في شمال صحراء مصر الغربية	=	133 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الأرض في قاع وادي الموت/ كاليفورنيا	=	86 م تحت مستوى سطح البحر.
منسوب سطح الأرض في قاع منخفض الفيوم/ مصر	=	45 م تحت مستوى سطح البحر.

ويتراوح عمق الماء في الحوض الجنوبي من البحر الميت بين الستة والعشرة أمتار، وهو بذلك في طريقه إلى الجفاف، ويعتقد أنه كان جافاً إلى عهد غير بعيد من تاريخه، وكان عامراً بالسكان، وأن منطقة الأغوار كلها من وادي عربة في الجنوب إلى بحيرة طبريا

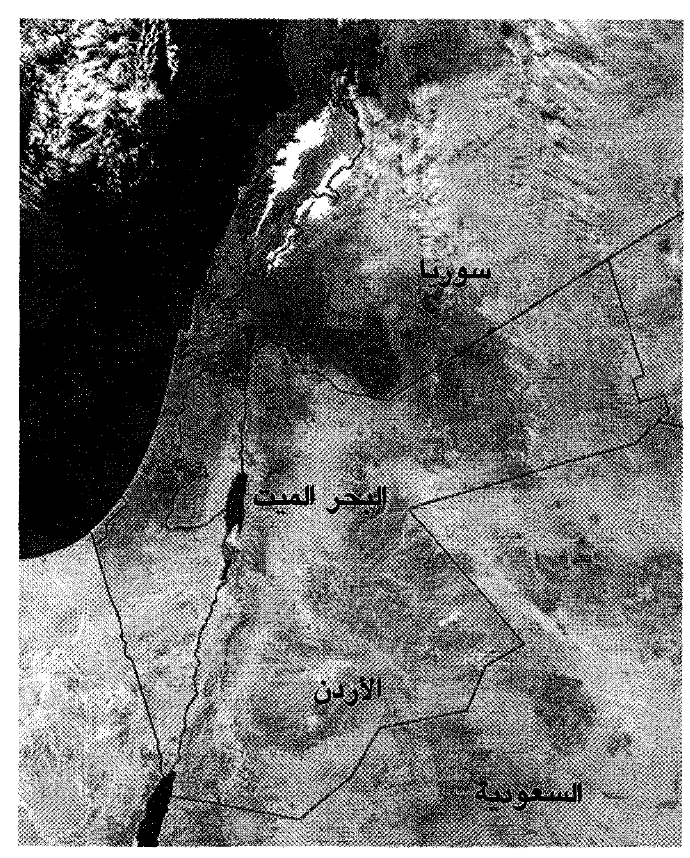


(الصورة لوكالة ناسا)

صورة بالأقمار الصنعية لغور البحر الميت ـ أدنى الأرض

في الشمال كانت كذلك عامرة بالسكان منذ القدم، حيث عرف البحر الميت في الكتابات التاريخية القديمة، ووصف بأسماء عديدة من مثل: «**بحر سدوم**»، «**بحيرة لوط**»، «**بحيرة زغر**»، «**البحر النتن**»، «**بحر عربة**»، «**بحر الأسفلت**» و«**البحر الميت**»؛ وذلك لأن المنطقة اشتهرت بخصوبة تربتها، ووفرة مياهها فعمرتها القبائل العربية منذ القدم، واندفعت إليها من كل من: العراق والجزيرة العربية وبلاد الشام ومنهم: قوم لوط عليه السلام الذين عمروا خمس مدن في أرض الحوض الجنوبي من البحرالميت هي: «سدوم»، و «عمورة»، و «أدمة»، و «صوبييم»، و «زغر»، وقد ازدهرت فيها الحياة إلى أواخر القرن العشرين قبل الميلاد

ودمرت بالكامل في عقاب إلٰهي أنزل بها، وجاء خبر عقابها في القرآن الكريم بقول الحق ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ (هود: 82).



(الصورة لوكالة ناسا)

صورة حقيقية من الفضاء وتظهر موقع البحر الميت في الأردن

والأرض في حوض البحر الميت ـ بصفةٍ عامةٍ ـ وفي الجزء الجنوبي منه بصفةٍ خاصةٍ تعرف باسم: الأرض المقلوبة وقد أثبتت الدراسات الجيولوجية مؤخراً أن تتابعات الصخور هنا مقلوبة فعلاً كما ذكر القرآن الكريم بقول ربنا (تبارك وتعالى): ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: 82، 83).

وقوله ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الحجر: 74).

وتتميز منطقة غور البحر الميت بالحرارة الشديدة، وبتفجر كل من العيون المائية، والأبخرة الكبريتية الحارة فيها، وبتناثر كتل الأسفلت التي كثيراً ما كانت تطفو على سطح مياه البحر الميت إلى عهد غير بعيد.

وقرى قوم لوط التي كانت تشغل أرض الحوض الجنوبي من البحر الميت، والتي دمرت بالكامل بأمر من ربنا ﷻ لا علاقة لها بالحركات الأرضية التي شكلت تلك الأغوار

من قبل حوالي25 مليون سنة مضت، ولكن بعد تدميرها بالعقاب الالٰهي دخلت المنطقة برحمة من الله ـ تعالى ـ في دورةٍ مطيرةٍ غسلت مياهها ذنوب الآثمين من قوم لوط، وغمرت منطقة قراهم لتحولها إلى الحوض الجنوبي من البحر الميت، الذي يتجه اليوم إلى الجفاف مرة أُخرى ليصير أرضاً يابسةً.

وخلاصة القول أن منطقة «أغوار وادي عربة/ البحرالميت/ الأردن» تحوي أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، والمنطقة كانت محتلة من قبل الروم البيزنطيين في عصر البعثة النبوية الخاتمة، وكانت هذه الإمبراطورية الرومانية يقابلها ويحدها من الشرق الإمبراطورية الفارسية الساسانية، وكان الصراع بين هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين في هذا الزمن على أشده، ولابد أن كثيراً من معاركهما الحاسمة قد وقعت في أرض الأغوار، وهي أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، ووصف القرآن الكريم لأرض تلك المعركة الفاصلة التي تغلب فيها الفرس على الروم ـ في أول الأمر بـ «أدنى الأرض» وصف معجز للغاية؛ لأن أحداً من الناس لم يكن يدرك تلك الحقيقة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها بهذا الوضوح في مطلع سورة «الروم» يضيف بعداً آخر إلى الإعجاز الإنبائي في الآيات الأربع التي استهلت بها هذه السورة المباركة ألا وهو الإعجاز العلمي، فبالإضافة إلى ما جاء بتلك الآيات من إعجازٍ شمل الإخبار بالغيب، وحدد لوقوعه بضع سنين، فوقع كما وصفته. وكما حددت له زمنه تلك الآيات فكانت من دلائل النبوة، فإن وصف أرض المعركة بالتعبير القرآني **(أدنى الأرض)** يضيف إعجازاً علمياً جديداً، يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

وكما كانت هذه الآيات الكريمة من دلائل النبوة في زمن الوحي لإخبارها بالغيب فتحقق، فهي لا تزال من دلائل النبوة في زماننا بالتأكيد على أن المعركة الفاصلة قد تمت في أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، وهي أغوار البحر الميت وما حولها من أغوار ويأتي العلم التجريبي ليؤكد هذه الحقيقة.

وعلى كتاب التاريخ الذين تأرجحوا في وضع المعركة الفاصلة في هزيمة الروم على أرض «القسطنطينية»، أو على الأرض بين مدينتي «أذرعات» و «بصرى» من أرض الشام، أو على أرض «أنطاكية»، أو على أرض «دمشق»، أو أرض «بيت المقدس»، أو أرض «مصر» (الإسكندرية)، على هؤلاء جميعاً أن يعيدوا النظر في استنتاجاتهم؛ لأن القرآن الكريم يقرر أن هزيمة الروم على أيدي الفرس كانت على الأرض الواقعة بين شرقي الأردن

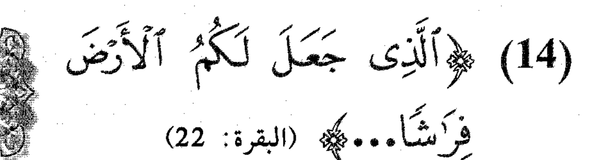
وفلسطين، وهي «أغوار وادي عربة/ البحر الميت/ الأردن» التي أثبت العلم أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً، والتي ينطبق عليها الوصف القرآني بأدنى الأرض انطباقاً تاماً ودقيقاً.

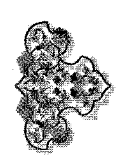
وعلى الذين قالوا أن معنى «أدنى الأرض» هو أقرب الأرض من بلاد فارس، أو من بلاد العرب، أو هي أطراف بلاد الشام، أو بلاد الشام، أو إنطاكية، أو دمشق، أوبيت المقدس أو غيرها أن يعيدوا النظر في ذلك؛ لأن حدود الإمبراطوريتين البائدتين كانت متلاحمةً مع بعضها بعضاً من جهة، ومع بلاد العرب من جهة أخرى، وعليه فلا يعقل أن يكون المقصود بتعبير أدنى الأرض في هذه الآيات الكريمة هو القرب من بلاد فارس أو بلاد العرب، فقط، وإن كانت أرض الأغوار هي أقرب الأرض إلى بلاد العرب، بل هي في الحقيقة جزء من أرض شبه الجزيرة العربية؛. فسبحان الذي أنزل هذا التعبير المعجز «**أدنى الأرض**» ليحدد أرض المعركة ثم ليثبت العلم التجريبي بعد أكثر من اثني عشر قرناً أن الأغوار الفاصلة بين أرض فلسطين المباركة والأردن هي أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً!! ومن هنا كانت جديرة بالوصف القرآني ـ **أدنى الأرض** ـ، وجديرة بأن تكون أرض المعركة التي هزم فيها الروم، وذلك لقول الحق ـ عز من قائل ـ:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ **(الروم: 1 ـ 5)**.

فسبحان الذي أنزل القرآن من فوق سبع سمٰوات وعلى خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، فحفظه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وسوف يبقى محفوظاً بحفظ الله ـ تعالى ـ إلى أن يشاء.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أتم الله ـ تعالى ـ بها النبوات، وختم الرسالات، وأكمل النعمة، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





(14) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا...﴾ (البقرة: 22)

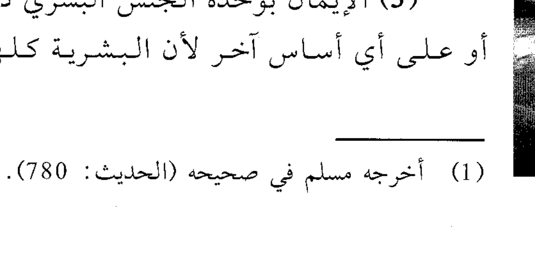
هذا النص القرآني الكريم جاء في مقدمات سورة البقرة، وهي سورة مدنية، وآياتها (286) بعد البسملة، وعلى ذلك فهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وأول سورة بعد فاتحة الكتاب في ترتيب سور المصحف الشريف، وقد عظمها رسول الله ﷺ تعظيماً كبيراً فقال: «**إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»[1].

ويدور المحور الرئيسي لسورة البقرة حول عدد من الأحكام الشرعية، والقضايا التعبدية، والضوابط الأخلاقية والسلوكية، والركائز العقدية التي يمكن إيجازها في النقاط الأساسية التالية:

(1) الإيمان بالله ـ تعالى ـ وحده رباً ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(2) هذا الإيمان يقتضي التسليم بوحدة الرسالة السماوية التي أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترة من الرسل، وختمها وأتمّها، وأكملها في القرآن الكريم، الذي تعهد ربنا ﷻ بحفظه، فحفظ حفظاً كاملاً في لغة وحيه على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، ليبقى مصدراً لهداية الناس كافة حتى يوم الدين.

(3) الإيمان بوحدة الجنس البشري دون تمييز عرقي أو عنصري أو على أي أساس آخر لأن البشرية كلها ينتهي نسبها إلى آدم



---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (الحديث: 780).

وحواء ـ عليهما من الله السلام ـ.

(4) الالتزام بركائز الدين من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

(5) عدم التفرقة بين رسل الله، وترك التفضيل بينهم لله، وتتويج الإيمان بهم جميعاً بالإيمان بالنبي الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ، وبالرسالة الخاتمة التي أُوحيت إليه والتي حفظت في القرآن الكريم وفي سنته الشريفة.

(6) الإيمان بضرورة تلقي الدين عن طريق القناعة العقلية والقلبية الكاملة، والتسليم بأن دين الله مبنيٌّ على اليسر، ورفع الحرج، وأن من أصوله الثابتة أنه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ... ﴾ (البقره: 256).

(7) التسليم بأن القتال مشروع في الإسلام لدفع المظالم، وللدفاع عن الأرض والعرض، وعن النفس والمال والولد والأهل، وعن الدين ومقدساته، ولتأمين سيادة عدل الله في الأرض، ولضمان حرية التدين، وللمحافظة على كرامة الإنسان من أي جور أو طغيان؛ ولذلك تدعو سورة البقرة إلى الجهاد في سبيل الله دون اعتداء، وإلى تعظيم منازل الشهداء، وإلى تقديس الجهاد وتكريم المجاهدين، وإلى تقدير مقامات الصابرين في البأساء والضراء، ومقامات الموفين بعهودهم إذا عاهدوا، وإلى غير ذلك من القيم الرفيعة والأخلاق الكريمة.

(8) الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، والتحذير من فجائية وقوعها وأهوالها، والعمل على الاستعداد لمواجهتها، وفي ذلك جاء قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ (البقرة: 281).

وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم بإجماع غالبية علماء الدين.

(9) الدعوة إلى التأمل بعين البصيرة في آيات الله العديدة المنتشرة في الأنفس والآفاق؛ لأنها هي كتاب الله المنظور كما أن القرآن الكريم هو كتابه المقروء.

(10) فصَّلت سورة البقرة أحكام الأُسرة من الزواج، والطلاق، والعدة، والرضاع وغيرها تفصيلاً ما بعده تفصيل.

(11) تدعو سورة البقرة في مواضع عديدة منها إلى الإنفاق في سبيل الله، وإلى الإحسان إلى الخلق بصفة عامة، وتدعو إلى إيثار الخير ونبذ الشر، كما تدعو إلى العمل الصالح المنطلق من الإيمان الصادق بالله، وإلى الاستعانة على كل جليل من الأمور بالصبر

والصلاة، وإلى ترك العصبيات العرقية والإقليمية الضيقة، وإلى نبذ الموروثات المغلوطة، والتقليد الأعمى، وإلى التمسك بتحكيم العقل من أجل الوصول إلى سلامة الحكم في كل أمر من أُمور الحياة. وتنعي السورة الكريمة على كل من يدعو إلى الحق وفضائل الأعمال ثم ينسى نفسه، وتحذر بشدة من التعامل بالربا، وتهدد الواقعين فيه بحرب من الله ورسوله، كما تحذر من كتم الشهادة، وتؤكد المحافظة على حقوق الآخرين بكل وسيلة مشروعة، وتحذر من ديون العباد، وتضع الشروط الواجبة لحفظ حقوق الآخرين فيها.

(12) مايزت سورة البقرة في مواقع عديدة منها بين صفات كل من المتقين والمنافقين، وضربت نماذج لكل منهم، وألمحت إلى نعيم المتقين في الجنة، وإلى عذاب المنافقين من الكفار والمشركين في النار. وصورت جانباً من ذل الكفار والمشركين وحيرتهم يوم القيامة، وحذرت المؤمنين من موالاتهم أو الركون إليهم في الدنيا، كما حذرت من متابعة الشيطان الرجيم وأعوانه وجنده.

(13) وللتأكيد على هذه المعاني النبيلة والقيم الرفيعة ألمحت سورة البقرة لقصة أبينا آدم عليه السلام وزوجه، وإلى جوانب من قصة نبي الله إبراهيم ـ على نبينا وعليه السلام ـ، وأشارت إلى اختلاف أتباع نبي الله عيسى عليه السلام من بعده وانحرافهم وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ في غالبيتهم عن دعوته: ﴿. . . وَلَكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ. . . ﴾ **(البقره: 253)**.

كما تحدثت سورة البقرة عن واقعة تحويل القبلة، وعن قرار الله ـ تعالى ـ بجعل أُمة الإسلام أُمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليهم شهيداً.

(14) في أكثر من ثلث سورة البقرة جاء ذكر جانب من تاريخ العصاة اليهود من بني إسرائيل ـ لعنهم الله في الدنيا والآخرة ـ وقد حرفوا دين الله، ونقضوا عهوده، وكذبوا عليه سبحانه، وتآمروا على خلقه؛ وعبدوا العجل، وكتموا ما أنزل الله من الحق، واشتروا به ثمناً قليلاً، وبقوا عبر التاريخ ركائز للكفر، والفساد والضلال، ومعاول لهدم وتدمير كل قيمة أخلاقية نبيلة، وكل ضوابط سلوكية صحيحة، فقد قاتلوا أنبياء الله وقتلوهم، واندسوا وسط كل دعوة دينية صحيحة من أجل إفسادها، وتضليل أتباعها؛ وأسسوا العديد من الجماعات السرية والعلنية من أجل تحقيق مخططاتهم الشيطانية التي يهدفون من ورائها إلى إشاعة الفتن، وإثارة القلاقل، وإشعال نيران الحروب، وتحقيق الخراب والدمار في العالم، ونشر الفساد في الأرض، ولذلك حذرت سورة (البقرة) من اليهود وأشياعهم المتهودين، ووصفتهم بما يليق بهم، وبنفسيتهم الحقيرة من نعوت.

وتختتم بدعاء إلى الله ـ تعالى ـ يهز القلوب والعقول، ويحرك الضمائر والمشاعر حيث تقول:

... ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقره: 286).

من الآيات الكونية في سورة البقرة

(1) التأكيد على أن القرآن الكريم كتاب لا ريب فيه (الآية 2) والبحث العلمي يؤكد ذلك في كل كلمة وحرف وإشارة وردت فيه.

(2) الإشارة إلى أمراض القلوب ومنها الخوف والوسوسة والشك في زمن لم يكن معروفاً لأحد شيء من تلك الأمراض (الآية 10).

(3) التمييز بين كل من الضياء والنور والنار، والمقابلة بين الظلمات والنور وهي من الحقائق العلمية التي لم يدركها الإنسان إلا موخراً (الآية 17).

(4) ذكر الصَّيِّب من السماء، وهو المطر الغزير الذي يكثر هطوله بالليل، والمصحوب بالرعد والبرق والصواعق والعواصف (الآية 19) وهو تجمع فريد من الظواهر الكونية التي لم تدرك إلا موخراً.

(5) الإشارة إلى خطف البصر عن طريق البحلقة في ضوء البرق، وتقديم السمع على البصر (الآية 20)، وهي من الحقائق العلمية التي لم تعرف إلا في القرن العشرين.

(6) الإقرار بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق الخلق جميعاً (الآية 21).

(7) الإشارة إلى فرش الأرض وتمهيدها، وبناء السماء وإحكامها وحبكها، وإنزال الماء من السحاب، وإخراج مختلف الثمرات بواسطته، والنهي عن الشرك بالله تعالى (الآية 22).

(8) ضرب المثل بالبعوضة وما فوقها (الآية 26) وهي من الحشرات المميزة في بناء جسدها.

(9) التأكيد على أن الموت سابق للحياة ولاحق بها، وأن الله ـ تعالى ـ خلق ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم (الآية 29).

(10) التأكيد على واقعة فلق البحر لنبي الله موسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ، وفرقه إلى فرقتين، ونجاة موسى ومن معه، وهلاك فرعون وجنده (الآية 50) وهي من حقائق التاريخ.

(11) التأكيد على انفجار اثنتي عشرة عيناً من عيون الماء بضربة من عصا موسى عليه السلام على الضفة الشرقية من خليج السويس في منطقة تعرف اليوم باسم عيون موسى (الآية 60).

(12) الإشارة بالمشرق والمغرب إلى الكون كله (الآيتان 115، 142).

(13) اتخاذ المسجد الحرام قبلة للمسلمين (الآيات 144، 149، 150)، والعلم يؤكد مركزيته بالنسبة لليابسة.

(14) الإشارة إلى خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وإلى إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وبث الدواب من كل نوع فيها، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض وجعل ذلك كله آيات لقوم يعقلون (الآية 164).

(15) التأكيد على حقيقة أن الأهلَّة هي مواقيت للناس والحج (الآية 189).

(16) التأكيد على ما في كلٍّ من: الخمر والميسر من آثام تفوق أي نفع يمكن أن يجتنى من ورائهما (الآية 219).

(17) التأكيد على ما في المحيض من أذى (الآية 222).

(18) التأكيد على حقيقة أن الجنة، أي: الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة على بعضها البعض بالربوة العالية إذا أصابها الوابل. أي: المطر الشديد، آتت أكلها ضعفين، وهو لا يضرها باحتمال إغراقها بالسيول لارتفاعها وسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه، وإن لم يصبها وابل فإن الطل؛ أي: المطر الخفيف أو الرذاذ، يكفيها لري نباتاتها وطيب عطائها؛ والمقصود أن هذه الجنة تزكو وتزدهر وتثمر سواء كثر المطر عليها أو قل، والآية الكريمة تصف بذلك إنفاق الصالحين ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم بأنه يزكو عند الله ويطيب، زاد قدره أم قل كما تزكو الجنة بالربوة زاد المطر عليها أو قل، وهو تشبيه قائم على حقيقة علمية راسخة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على فرش الأرض وتمهيدها. كما جاء في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ

﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ (البقرة: 22).

وقبل الدخول إلى شرح الدلالة العلمية لهذا النص الكريم أرى لزاماً على استعراض أقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في شرحه.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾. (البقره: 21، 22).

• ذكر ابن كثير ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ ما مختصره: «في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة؛ بأن جعل لهم الأرض فراشاً؛ أي: مهداً كالفراش، مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات؛ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وهو السقف، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنبياء: 32)؛ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ والمراد به السحاب هٰهنا في وقته عند احتياجهم إليه؛ فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم. ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم؛ فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وأضاف: «قال ابن عباس: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين؛ أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم. وعنه أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحل الذي لا شك فيه. وأضاف كذلك: قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: عدلاء شركاء؛ وقال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إلٰه واحد في التوراة والإنجيل».

وأضاف ابن كثير عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة والروايات في معنى هذه الآية الكريمة تؤيد ما ذهب إليه في تفسيرها ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ تفسيراً لهاتين الآيتين الكريمتين ما مختصره: «أنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذي خلقهم والذين من

قبلهم. ربهم الذي تفرد بالخلق، فوجب أن ينفرد بالعبادة... وللعبادة هدف لعلهم ينتهون إليه ويحققونه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾... لعلكم تصيرون إلى تلك الصورة المختارة من صور البشرية، صورة العابدين لله، المتقين لله، الذين أدوا حق الربوبية الخالقة، فعبدوا الخالق وحده، رب الحاضرين والغابرين، وخالق الناس أجمعين، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء بلا ندٍّ ولا شريك. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ وهو تعبير يشير باليسر في حياة البشر على هذه الأرض، وفي إعدادها لهم لتكون لهم سكناً مريحاً وملجأً وافياً كالفراش... والناس ينسون هذا الفراش الذي مهده الله لهم لطول ما ألفوه، ينسون هذا التوافق الذي جعله الله في الأرض ليمهد لهم وسائل العيش، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع، ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليسر والطمأنينة. ولو فُقِدَ عنصرٌ واحد من عناصر الحياة في هذا الكوكب ما قام هؤلاء الأناسي في غير البيئة التي تكفل لهم الحياة. ولو نقص عنصر واحد من عناصر الهواء عن قدره المرسوم، لشق على الناس أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾... فيها متانة البناء وتنسيق البناء... ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾... والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء في الأرض جميعاً... وقصة الماء في الأرض، ودوره في حياة الناس، وتوقف الحياة عليه في كل صورها وأشكالها... كل هذا أمر لا يقبل المماحكة، فتكفي الإشارة إليه، والتذكير به، في معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهاب. وفي ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصورالإسلامي: وحدة الخالق لكل الخلائق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الإنسان، وسماؤه مبنية بنظام، معينه بالماء الذي تخرج به الثمرات رزقاً للناس... والفضل في هذا كله للخالق الواحد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾... تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم، وتعلمون أنه جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، وأنه لم يكن له شريك يساعد، ولا ند يعارض، فالشرك به بعد هذا العلم تصرف لا يليق!. والأنداد التي يشدد القرآن في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون (ولا يزالون).. فقد تكون الأنداد في صور أُخرى خفية؛ قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة، وفي الخوف من غير الله في أي صورة، وفي الاعتقاد بنفع أو ضر من غير الله في أي صورة...». وضرب صاحب الظلال ـ عليه

من الله أوسع الرحمات ـ عدداً من النماذج ثم أضاف: «هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفي والأنداد مع الله. . . فلننظر بحق أين نحن من هذه الحساسية المرهفة، وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة!!!.

● وجاء في كل من تفسير الجلالين، وصفوة البيان لمعاني القرآن، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبيها خيراً ـ كلام مشابه لا حاجة بنا لإعادته.

الدلالة العلمية للنص الكريم:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾. . .

سبق أن أشرنا إلى أن مساحة سطح الأرض الحالية تقدر بنحو510 ملايين كيلومتر مربع، منها29% (أي نحو 149 مليون كيلومتر مربع) يابسة، 71%، (أي نحو361 مليون كيلومتر مربع) مسطحات مائية، نصفها تقريباً (أي نحو 173,6 مليون كيلومتر مربع) أرصفة قارية أي أجزاء من حواف القارات مغمورة بالماء. وهذه الضخامة في أبعاد الأرض جعلتها تبدو مستوية بالنسبة إلى نظر الإنسان وإمكانات حسه.

وسبق أن أشرنا كذلك إلى أن كلًّا من سطح اليابسة وقيعان البحار والمحيطات ليس تام الاستواء، بل يتعرج في تضاريس متباينة. ويقدر ارتفاع أعلى قمة على سطح اليابسة وهي قمة «إفرست» بأقل قليلاً من تسعة كيلومترات (8,848م)، ويقدر منسوب أخفض نقطة على سطح اليابسة ـ وهي حوض البحر الميت ـ بنحو أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، وقاع البحر الميت الذي تصل أعمق أجزائه إلى نحو ثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر يعتبر جزءاً من اليابسة لأنه بحر مغلق. ويصل منسوب أعمق أغوار المحيطات ـ وهو «غور ماريانا» ـ في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين ـ إلى أكثر قليلاً من الأحد عشر كيلومتراً (11,033 كم)؛ وبذلك يصل الفرق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية إلى أقل قليلاً من العشرين كيلومتراً (19.881 كم)، وبنسبة ذلك إلى نصف قطر الأرض (المقدر بنحو6371 كيلومتراً في المتوسط) يتضح أن الفارق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية لا يكاد يتعدى 0.30%. من طول نصف قطرها.

وإذا أخذنا مجموع متوسط ارتفاع اليابسة (والمقدر بنحو840م فوق مستوى سطح البحر) ومتوسط أعماق البحار والمحيطات والمقدر بنحو أربعة كيلومترات في المتوسط (3729م إلى 4500م) ونسبنا ذلك إلى نصف قطر الأرض (المقدر بنحو6371 كم) كانت النسبة في حدود0.076% وهذا يمثل قمة التسوية والتمهيد والفرش لسطح الأرض خاصة إذا



نموذج لسطح الكرة الأرضية يظهر عدم استواء كل من قيعان المحيطات وسطح الأرض

علمنا أن اليابسة بدأت بسلاسل من الجبال شديدة الوعورة، ثم سخَّر الله ـ تعالى ـ عوامل التعرية المختلفة من الرياح، والمياه الجارية، والمجالد، والتباين في درجات الحرارة، والجاذبية الأرضية، والكائنات الأرضية المختلفة للقيام بعمليات التجوية والتحات إلى النقل والترسيب في تسوية تلك السلاسل الجبلية إلى تلال قليلة الارتفاع أو متوسطة، وسهول منبسطة تشقها الأودية والمجاري المائية التي تحمل رسوبياتها إلى السهول والمنخفضات كما تحملها إلى البحار والمحيطات مكونة دالات عملاقة ظاهرة ومغمورة تتقدم في البحار التي تصب فيها، وهنا تنتهي عمليات تعرية سطح الأرض بوصوله إلى مستوى سطح البحر على هيئة سهل تحاتي منبسط.

وقد استمر الصراع بين العمليات الداخلية البانية لسطح الأرض، والعمليات الخارجية الهدمية التي تحاول أن تصل بسطح الأرض إلى مستوى سطح البحر في دورات متتالية تعرف باسم «**دورات شكل الأرض**» أو «**دورات التحات**»، ظلت تعمل على مدى 4.6 بليون سنة على الأقل حتى تم تمهيد سطح الأرض وبسطه، وجعله فراشاً للإنسان ولغيره من المخلوقات، وأمكن شق الفجاج والسبل فيه، وتكوين المجاري المائية، والبحيرات الداخلية، والأغوار والمنخفضات الأخرى، وسوف يظل الأمر كذلك حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها في تبادل مستمر بين اليابسة والماء، القارات والمحيطات. وبين

المرتفعات والمنخفضات، وبين دورات الصخور وغير ذلك من عمليات الاتزان الأرضي التي سخرها ربنا - تبارك وتعالى - في تهيئة الأرض لاستقبال الحياة ولا تزال هذه القوى المسخرة تعمل إلى اليوم وحتى قيام الساعة. وفي تلك الدورات المتبادلة بين البناء والهدم تكونت السهول الخصبة، والتربة الغنية، والركازات للمعادن المختلفة، والصخور الرسوبية التي تحوي في أحشائها الكثير من خيرات الأرض التي تجمعت عبر ملايين السنين، من مثل راقات الفحم، وطبقات الفوسفات، والمتبخرات، ومخزون النفط والغاز، ومخزون الماء في قشرة الأرض، وغير ذلك من خيرات الله في كوكبنا.

ومعدلات تجمع الرسوبيات تتراوح بين مائة ومائتين من السنين للسنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة، بينما تتراوح معدلات التعرية بين ثلاث سنوات وثلاثمائة سنة لإزالة سنتيمتر واحد من كتلة الصخور المتكونة، وهذا يعني أن عمليات تسوية سطح الأرض حتى أصبحت صالحة للعمران قد استهلكت من الزمن والطاقة ما لا تستطيع البشرية



الجبال والسهول والشواطىء هي من أشكال تمهيد الارض لجعلها فراشاً صالحة للسكن للإنسان والحيوان

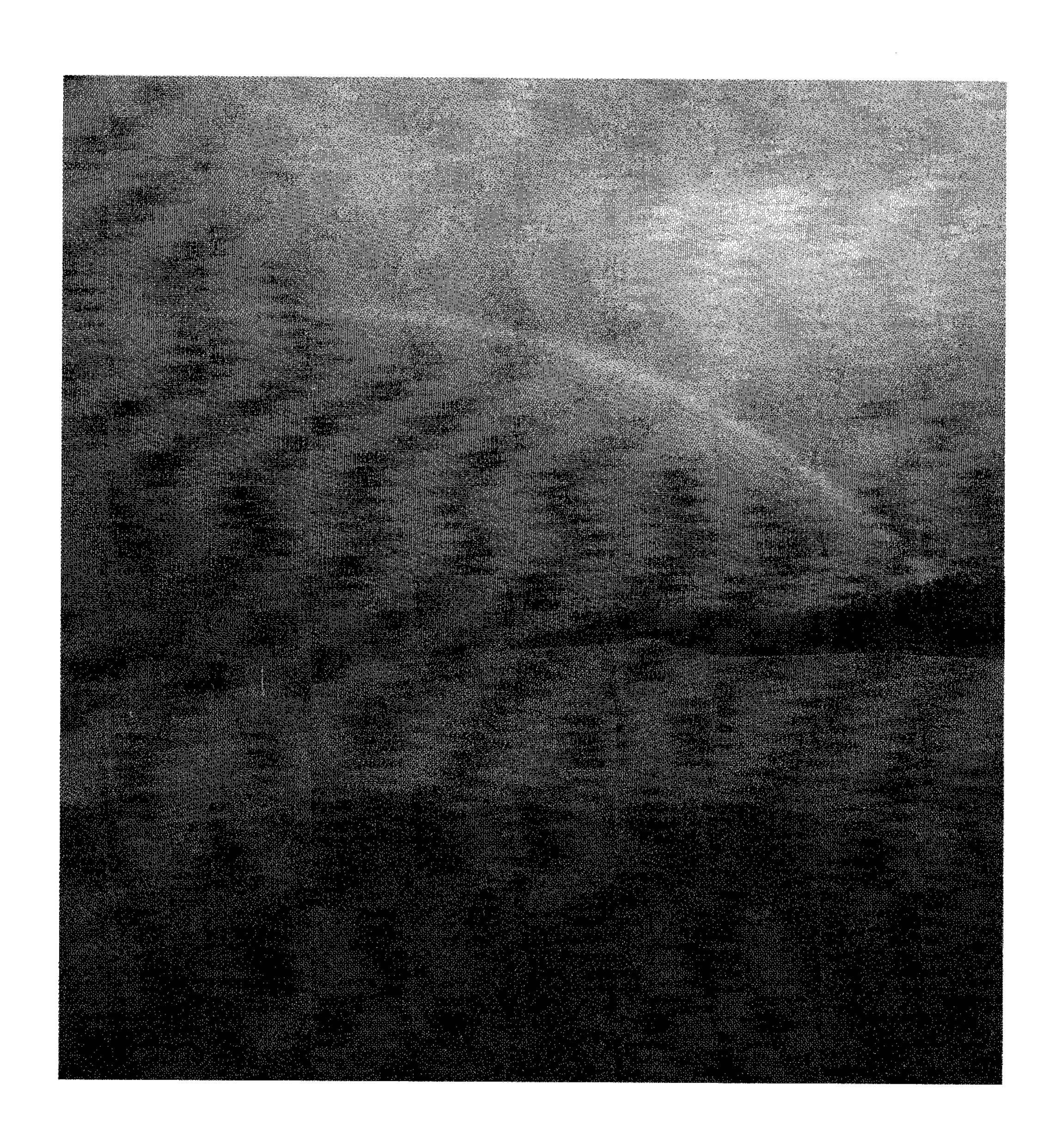
مجتمعة أن تقوم بالوفاء بتكلفته، ومن هنا يمنّ علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ـ عز من قائل ـ:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا . . .﴾.

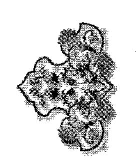
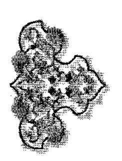
وذلك في مقام الاستدلال على ألوهيته ووحدانيته وطلاقة قدرته في إبداعه لخلقه.

هذه الحقائق التي ساقتها الآية الكريمة التي نحن بصددها لتنتهي إلى الأمر بتوحيد الله الخلاق الرزاق العليم، وإلى النهي عن الشرك به ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ذلك الشرك الذي وصفه ابن عباس ﵄ في تفسير لفظة الأنداد بقوله: «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. . .».

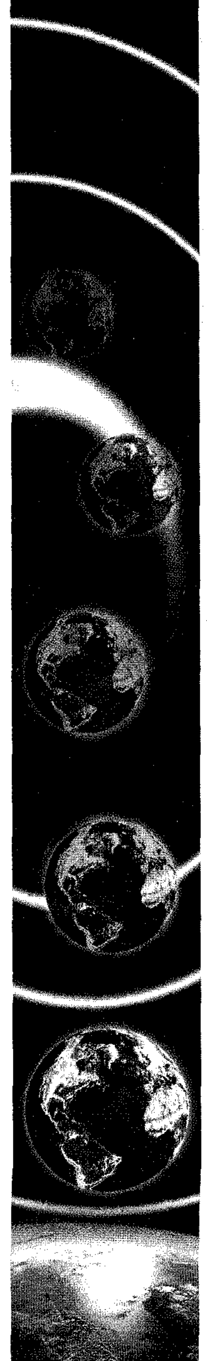
هذه الحقائق الكونية لم يصل إليها علم الإنسان إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين، وورودها في كتاب الله المنزل من قبل أربعة عشر قرناً لمما يقطع بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه، كما يشهد بصدق ما جاء به من الدعوة إلى التوحيد الخالص لله، وعبادته ـ تعالى ـ وحده بما أمر ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ فأشهد أنه لا إلٰه إلا الله وأن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

(15) ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الذاريات: 48)



هذة الآية الكريمة جاءت في الربع الأخير من سورة «الذاريات»، وهي سورة مكية وعدد آياتها ستون (60) بعد البسملة ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية، ومن ركائز العقيدة التي جاءت في سورة «الذاريات»: الإيمان بالبعث والجزاء؛ ولذلك بدأت السورة بالقسم بعدد من آيات الله في الكون على حقيقة البعث، وحتمية وقوع الجزاء، ثم تابعت بقسم آخر: (بالسماء ذات الحبك) على أن الناس في أمر البعث والحساب والجزاء غير مستقرين على رأي واحد؛ فمنهم المؤمن، ومنهم الكافر، وأنه لا يُصْرَفُ عن هذا الحق إلا صاحب هوى. وأكدت السورة الكريمة حتمية هلاك الكذابين المنكرين ليوم الدين، والقائلين فيه بالظن والتخمين، واللاهين عنه والمتشككين في حتمية وقوعه حتى يسألوا عنه سؤال المستهزىء به، المستبعد لإمكانية تحقيقه.

وتعرض سورة «الذاريات» لشيء من سوء مصير الكافرين في الآخرة، وتقابله بفيض التكريم والتنعيم الذي أعده ربنا ـ تبارك وتعالى ـ للمتقين من عباده جزاء إحسانهم في الدنيا.

وتدعو إلى تأمل آيات الله في الأرض، وفي الأنفس، وفي الآفاق، وإلى استخلاص الدروس والعبر من تأملها، وأردفت الآيات بقسم عظيم برب السماء والأرض على صدق ما وعد الله ـ تعالى ـ به الناس من البعث والحساب والجزاء، وعلى حتمية وقوع كل ما جاء به الدين الخاتم الذي بعث به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

وألمحت السورة إلى قصة أبي الأنبياء «إبراهيم عليه السلام» مع

ضيفه من الملائكة، وعرضت لبعض الأمم البائدة، وإلى ما أصابها من هلاك ودمار لانحرافها عن منهج الله، وتكذيبها لأنبيائه ورسله. ومن هذه الأمم التي أشارت إليها سورة الذاريات أقوام «لوط»، و «فرعون»، و «عاد»، و «ثمود» و «نوح».

ثم عاودت السورة استعراض عدد من **الآيات الكونية** الدالة على طلاقة القدرة الإلهية، وأردفت بالدعوة للرجوع إلى الله ـ تعالى ـ، وإلى التحذير من الشرك به، وتأكيد أن الرزق منه وحده ﷻ وذلك في مواضع عديدة من السورة التي كررت وصف الرسول الخاتم ﷺ بأنه نذير مبين من الله ـ تعالى ـ إلى الناس كافة، وأن عبادة الله وحده ـ بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع ولا صاحبة، ولا ولد ـ وتنزيهه، وتعظيمه عن كل وصف لا يليق بجلاله؛ هي الغاية من خلق كل من الإنس والجن.

وأنذرت السورة في ختامها الذين يكذبون ببعثة رسول الله ﷺ أو يحاولون التطاول على شخصه الكريم، وهم الأقزام الضالة، وتوعدتهم بمثل ما أصاب الأمم السابقة عليهم من عذاب...!!

والسورة في مجمل سياقها دعوة إلى الناس كافة لتوجيه القلوب إلى عبادة الله ـ تعالى ـ ولتخليصها من عوائق الحياة، ووصلها بخالقها الذي هو رب هذا الكون ومليكه.

والآيات الكونية المذكورة في سورة «الذاريات» أكثر من أن تحصى؛ ولذلك سأقتصر هنا على آية واحدة منها هي قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ **(الذاريات: 48).**

(1) **الأرض**: سبق لنا عرض الدلالة اللغوية للفظة «**الأرض**» في اللغة العربية، ولا حاجة بنا إلى تكرار ذلك هنا.

(2) **(فرشناها)**: يقال في اللغة: (فرش) الشيء (يفرشه) (فرشاً) و(فراشاً) بمعنى بسطه بسطاً، ويقال (للمفروش): (فرش) و(فراش)، وجمعهما (فُرُشٌ)، و(الفرش) هو (المفروش) أي المبسوط من متاع البيت.

قال ـ عز من قائل ـ: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ **(البقرة: 22).**

وقال ـ تعالى ـ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ **(الرحمٰن: 54).**

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ **(الواقعة: 34).**

و(الفرش) يطلق أيضا على صغار الإبل ومنه قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ **(الأنعام: 142).**

وذلك لأن (الفرش) هو ما يفرش من الأنعام، أي يركب، قال الفراء: «ولم أسمع له بجمع»، وأضاف: و«يحتمل أن يكون مصدراً سمي به من قولهم: (فرشها) الله (فرشاً) أي بثها بثاً.

ويقال: (افترش) الشيء بمعنى انبسط، و(افترشه) أي وطئه، و(افترش) ذراعيه إن بسطهما تحته على الأرض أي اتخذهما كالفراش، و(تفريش) الدار تبليطها.

و(الفراشة) وجمعها (فراش) حشرة من رتبة حرشفيات الأجنحة **(Lepidoptera)** تتميز بزوجين من الأجنحة الحاملة للحراشيف الملونة والمزركشة، والفراش يحبُّ الضوء ويتهافت على مصادره حتى يهبط فيها فيحترق، ولذا قيل في المثل: «أطيش من فراشة»، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ **(القارعة: 4)**.

(3) (الماهدون): و(المهد) في اللغة هو ما يهيأ للغير من فراش، يقال: مهد الفراش (يمهده) (تمهيداً) و(مهداً) أي بسطه يبسطه بسطاً، قال ـ تعالى ـ:

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ **(مريم: 28)**.

(المهد) و (المهاد) أيضا هو المكان (الممهد) الموطأ. قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ **(طه: 53)**.

ويقال: (امتهد) السنام أي تسوى فصار (كالمهد) أو (المهاد)، و(الماهد) هو الذي (يمهد) وجمعه (ماهدون)، قال ـ تعالى ـ:

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۝٤٨﴾ **(الذاريات: 48)**.

ويقال في اللغة: (مهدت) لك كذا أي هيأته وسويته، قال ـ تعالى ـ:

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾ **(المدثر: 14)**.

وقال ـ عز من قائل ـ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۝٤٤﴾ **(الروم: 44)**.

بسط الأرض وتمهيدها في القرآن الكريم

جاء ذكر الأرض في أربعمائة وواحد وستين موضعاً من كتاب الله؛ منها ما يشير إلى كوكب الأرض في مقابلة السماء أو السمٰوات؛ ومنها ما يشير إلى اليابسة التي نحيا عليها أو إلى جزء منها؛ ومنها ما يشير إلى التربة التي تغطي صخور اليابسة، وتفهم الدلالة من سياق الآية الكريمة.

وجاء ذكر (فرش الأرض)، وبسطها، وتمهيدها، وتوطئتها، وتسويتها، وتذليلها في عشر آيات من آي القرآن الكريم على النحو التالي:

(1) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ (البقرة: 22).

(2) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ (طه: 53).

(3) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الزخرف: 10).

(4) ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الذاريات: 48).

(5) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: 15).

(6) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ (نوح: 19، 20).

(7) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ (النبإ: 6، 7).

(8) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ (النازعات: 30، 33).

(9) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: 17، 20).

(10) ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾﴾ (الشمس: 6).

وجاء ذكر خلق الأرض وذكر عدد من صفاتها وظواهرها وأحداثها في أكثر من مائة وسبعين آية أخرى، لا أرى مجالاً لذكرها هنا.

من أقوال المفسرين

في تفسير قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الذاريات: 48).

• ذكر ابن كثير ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ ما مختصره: «والأرض فرشناها؛ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾؛ أي: وجعلناها مهداً لأهلها».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما نصه: «﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ مهدناها، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ نحن».

• وذكر صاحب الظلال ـ عليه من الله الرحمات ـ قوله: «فقد أعد الله هذه الأرض لتكون مهداً للحياة كما أسلفنا، و «الفرش» يوحي باليسر والراحة والعناية، وقد هيئت الأرض لتكون محضناً ميسراً ممهداً، كل شيء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿فَرَشْنَـٰهَا﴾ مهدناها كالفراش للاستقرار عليها .﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ المسوون المصلحون».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كل من شارك في إخراجه خير الجزاء ـ ما نصه: «والأرض بسطناها، فنعم المهيئون لها نحن كالمهاد».

• وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ ما نصه: «﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾ أي: والأرض مهدناها لتستقروا عليها، وبسطناها لكم ومددنا فيها لتنتفعوا بها بالطرقات، وأنواع المزروعات. ولا ينافي ذلك كرويتها؛ فذلك أمر مقطوع به؛ فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة، فيها السهول الفسيحة والبقاع الواسعة، مع الجبال والهضاب ولهذا قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ أي فنعم الباسطون الموسعون لها نحن، وصيغة الجمع للتعظيم...».

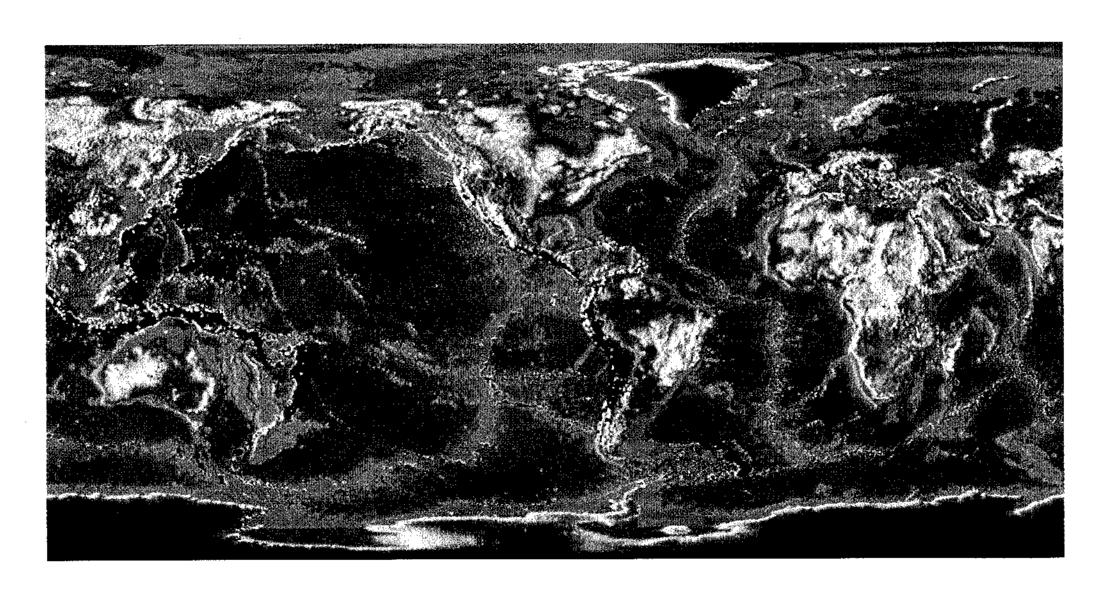
بسط الأرض وتمهيدها في العلوم الحديثة

أولاً: تضاريس الأرض الحالية:

تقدر مساحة سطح الأرض الحالية بحوالي 510 ملايين كيلومتر مربع، منها 149 مليون كيلومتر مربع يابسة تمثل حوالي 29% من مساحة سطح الأرض، و361 مليون كيلومتر مربع مسطحات مائية تمثل الباقي من مساحة سطح الأرض (71%). ومن هذه النسبة الأخيرة أرصفة قارية تعتبر الجزء المغمور بالمياه من حواف القارات وتقدر مساحتها بحوالي 173.6 مليون كيلومتر مربع.

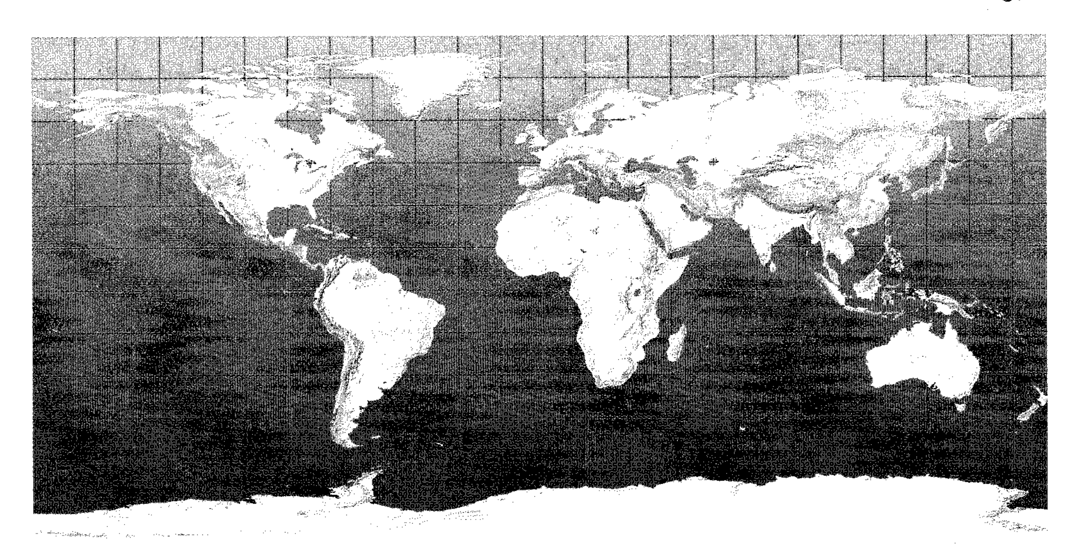
وكل من سطح اليابسة وقيعان البحار والمحيطات ليس تام الاستواء، ولكنها جميعاً متعرجة في تضاريس متباينة للغاية، فعلى اليابسة هناك سلاسل الجبال ذات القمم السامقة، وهناك التلال متوسطة الارتفاع، وهناك الروابي، والهضاب، والسهول، والمنخفضات الأرضية المتباينة.

وفي المسطحات المائية هنالك البحار الضحلة والبحيرات، كما أن هناك البحار العميقة والمحيطات التي تتدرج فيها الأعماق من الأرصفة القارية إلى المنحدرات القارية، ثم إلى أعماق وأغوار قيعان المحيطات.



رسم للكرة الأرضية ويظهر فيها اختلاف التضاريس على اليابسة وفي قيعان المحيطات، اللون الأحمر يدل على الارتفاع

وتضاريس سطح الأرض الحالية هي نتيجة صراع طويل بين العمليات الداخلية البانية والعمليات الخارجية الهدمية والتي استغرقت حوالي الخمسة بلايين من السنين (4600 مليون سنة).

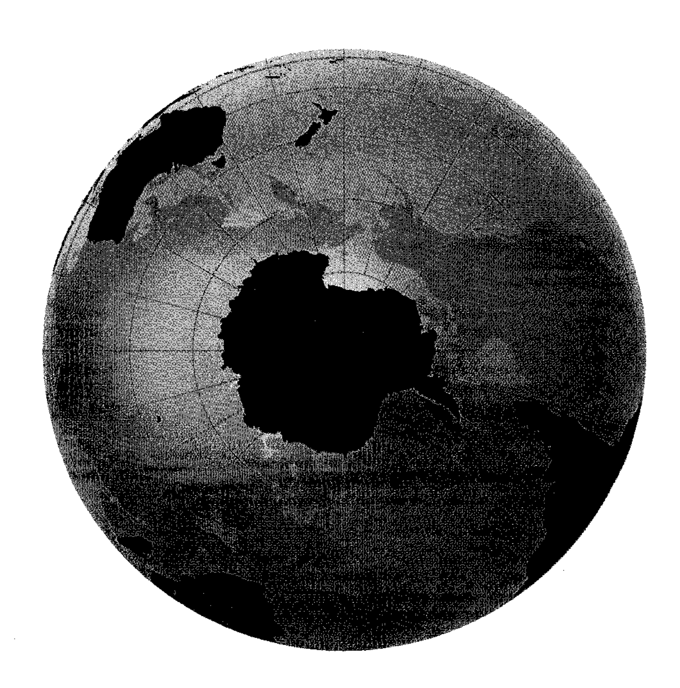


تُشكل اليابسة 29٪ من مساحة سطح الأرض، ويغطى الماء 71٪ من مساحة ذلك السطح

ثانياً: الاتزان الأرضي:

لما كان سطح الأرض في توازن تام مع تباين تضاريسه، فلا بد أن هذا التباين في التضاريس يعوضه تباين في كثافة الصخور المكونة لكل شكل من أشكال هذه التضاريس، فالمرتفعات على اليابسة لا بد وأن يغلب على تكوينها صخور كثافتها أقل من كثافة الصخور المكونة للمنخفضات من حولها، ومن ثم فلا بد وأن يكون لتلك المرتفعات امتدادات من صخورها الخفيفة نسبياً في داخل الصخور الأعلى كثافة المحيطة بها، ومن هنا كان الاستنتاج الصحيح بأن كل مرتفع أرضي فوق مستوى سطح البحر له امتدادات في داخل الغلاف الصخري للأرض يتناسب عمقها مع ارتفاعه، وأن كل جبل من الجبال له جذور عميقة من مكوناته الخفيفة تخترق الغلاف الصخري للأرض لتطفو في نطاق الضعف الأرضي حيث تحكمها قوانين الطفو المعروفة كما تحكم أي جسم طاف في مياه البحار والمحيطات من مثل جبال الجليد والسفن.





رسم تخطيطي للكرة الأرضية يظهر كبر المساحة المائية التي تبلغ أكثر من ضعفي مساحة اليابسة



رسم يوضح الامتداد الداخلي للقارات والجبال داخل القشرة الأرضية

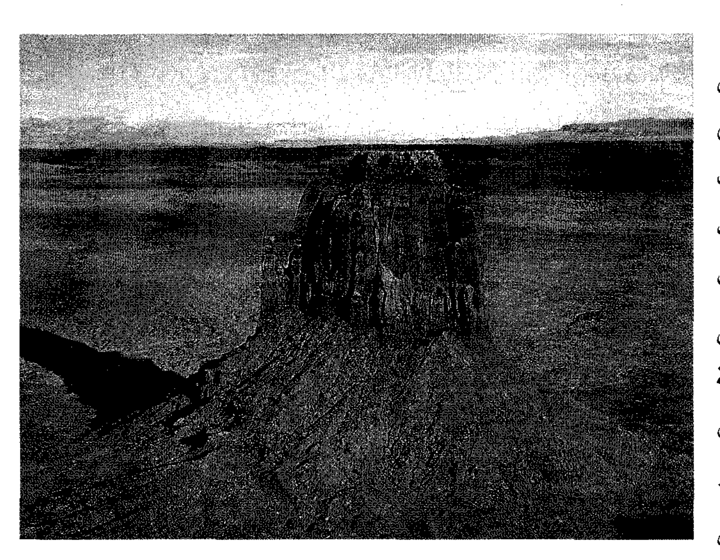
وهذه الامتدادات الداخلية للجبال تتراوح أطوالها من 10 إلى 15 ضعف الارتفاع فوق مستوى سطح البحر وذلك بناءً على كثافة صخورها، وكثافة الوسط الغائرة فيه، ومنسوب ارتفاعها، وكلما برت عوامل التحات والتجوية والتعرية من قمم الجبال فإن هذه الجبال تنسحب بالتدريج من نطاق الضعف الأرضي وترتفع إلى أعلى للمحافظة على ظاهرة الاتزان الأرضي، وتظل عملية الارتفاع إلى أعلى مستمرة حتى تخرج جذور الجبال من نطاق الضعف الأرضي بالكامل، وهنا يتوقف الجبل عن الارتفاع، وتظل عمليات التجوية والتحات والتعرية مستمرة في بريه حتى تكشف تلك الجذور، وبها من خيرات الله في الأرض ما لا يمكن أن يتكون إلا تحت مثل تلك الظروف العالية من الضغط والحرارة التي لا تتوافر إلا في جذور الجبال.

ثالثاً: بدايات تكوّن تضاريس سطح الأرض:

تشير الدراسات الحديثة للأرض إلى أن هذا الكوكب بدأ على هيئة كومة من الرماد الذي ليس فيه من العناصر أثقل من «السيليكون»، ثم رُجِم بوابل من النيازك الحديدية التي تحركت إلى قلبه بحكم كثافتها العالية فانصهرت وساعدت على صهر كومة الرماد تلك، وعلى تمايزها إلى سبع أرضين: لب صلب داخلي أغلبه الحديد والنيكل، يليه إلى الخارج لب سائل يغلب على تركيبه أيضاً الحديد والنيكل، ثم ثلاثة أوشحة متمايزة تقل كثافتها كما تتناقص نسبة الحديد فيها باستمرار من الداخل إلى الخارج، ثم الغلاف الصخري للأرض ويتكون من نطاقين: القشرة وما دون القشرة.

ومع تبرد قشرة الأرض وتيبسها، ومع بدء الأنشطة البركانية العنيفة فيها تصاعدت

الغازات والأبخرة التي كونت غلافيها الغازي والمائي، كما تصاعدت الطفوح والحمم وفتات الصخور البركانية التي بنت الغلاف الصخري للأرض في مرحلة تعرف باسم «**مرحلة دحو الأرض**». وبتكون الغلاف المائي للأرض أحيط كوكبنا بمحيط غامر غطى سطحه بالكامل، وتحت مياه هذا المحيط الغامر بدأت عمليات التصدع في تمزيق قاعه إلى عدد من الألواح التي بدأت في التحرك متباعدة عن بعضها البعض، أو متصادمة مع بعضها البعض، أو منزلقة عبر بعضها البعض في حركية (ديناميكية) ساعدها دوران الأرض حول محورها، وتدفق الصهارة الصخرية والحمم البركانية عبر صدوع القاع، في هذا المحيط الغامر، وتيارات الحمل في نطاق الضعف الأرضي من تحتها؛ وبنمو تلك الجزر البركانية والتحامها مع بعضها تكونت القارة الأم التي طفت بصخورها الخفيفة نسبياً فوق قاع المحيط الغامر المكون أساساً من الصخور البازلتية الأعلى كثافة.



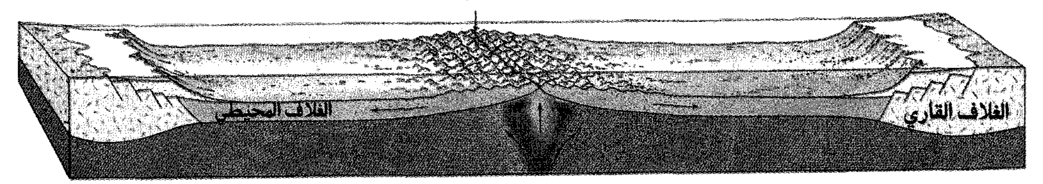
صورة لتربة سطح الأرض بفعل عوامل التعرية مع بقاء الصخور الصلبة بارزة وتآكل الصخور الهشة الضعيفة لتكون السهول المنبسطة

وبتكرار تصادم الألواح الصخرية المختلفة المكونة لقاع المحيط الغامر بكتلة القارة الأم تكونت السلاسل الجبلية التي ألصقت بحواف تلك القارة بالتدريج مضيفة إلى مساحتها مساحات جديدة باستمرار، ومبطئة لحركتها التي بدأت سريعة وعنيفة بشكل ملحوظ.

وبارتفاع درجات الحرارة تحت أحزمة محددة من الكتلة القارية الأولى بفعل التحلل النووي للعناصر المشعة فيها، وتكون ما يسمى بالنقاط الحارة تصدعت القارة الأم بشبكة هائلة من الصدوع التي مزقتها إلى سبع قارات، وبدفع تيارات الحمل في نطاق الضعف الأرضي من تحتها أخذت تلك القارات في التباعد عن بعضها، وبدأت الحركات الداخلية للأرض في دفع الألواح الصخرية المكونة لقيعان المحيطات متباعدة عن بعضها البعض

لتحقق ظاهرة توسع قيعان البحار والمحيطات، وتجدد مادتها باستمرار، وبالتصادم مع ما يقابلها من الألواح الصخرية المكونة لكتل القارات أخذت تضيف إليها مزيداً من السلاسل الجبلية باستمرار، ولا تتوقف هذه الحركات الأرضية العنيفة إلا باصطدام قارتين بعد تلاشي قاع المحيط الذي كان يفصل بينهما تحت إحدي القارتين، وباصطدامهما تتكون أعلى السلاسل الجبلية كما حدث عند اصطدام الهند بالقارة الآسيوية/ الأوروبية.





رسم تخطيطي يوضح عملية اتساع قاع المحيط باندفاع الصهارة الصخرية في وسطه

وكما ينغلق محيط من المحيطات باصطدام قارتين كانتا مفصولتين عن بعضهما البعض بمياهه، قد تنقسم قارة من القارات بواسطة تصدع في أحد أجزائها يتحول إلى انهدام على هيئة وادٍ خسيف أو غور عميق من أغوار الأرض تنشط فيه عملية الهبوط إلى ما دون منسوب الماء في البحار والمحيطات المجاورة فتندفع مياهها إلى هذا الغور محولة إياه إلى بحر طولي شبيه بالبحر الأحمر، ثم تنشط فيه عملية اتساع القاع حتى تحوله إلى محيط.

وهذه الدورة من دورات الحركات الأرضية تسمى «**دورة المحيط والقارة**» يتحول بواسطتها المحيط إلى قارة أو يتلاشى بالكامل تحت إحدى القارات.

كذلك قد تنقسم القارة إلى قارتين بتكون بحر طولي فيها يظل يتسع حتى يصل إلى حجم المحيط.

رابعاً: دورات تغير شكل الأرض

بهذا المفهوم لنشأة محيطات وقارات الأرض والذي يعرف باسم «**مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض**» **(The Plate Tectonics' Concept)** ثبت أن القارات تبدأ بسلاسل من الجبال، شديدة الوعورة، قاسية التضاريس، لا تصلح لزراعة، ولا لانتقال، ولا لعمران، ثم يسخر الله تعالى عمليات التجوية المختلفة، وعمليات الحت والنقل والتعرية والترسيب بواسطة كل من الرياح، والمياه الجارية، والمجالد، والجاذبية الأرضية، في تفتيت وتعرية التضاريس من الأطواف، والمنظومات، والسلاسل، والأحزمة الجبلية

ومجموعاتها المعقدة، وتحويلها إلى تلال متوسطة الارتفاع يتم بريها إلى سهول منبسطة مع الزمن، كما يتم شقها بواسطة أودية عميقة تجري فيها الأنهار، وتحمل رسوبياتها إلى السهول والمنخفضات وفي النهاية إلى قيعان البحار والمحيطات مكونة دالات عملاقة تتقدم على حساب البحار التي تصب فيها، وهنا تنتهي دورة تعرية سطح الأرض وتبدأ دورة الصخور وغيرها من الدورات التي لعبت ـ ولاتزال تلعب ـ أدواراً هامة في تسوية سطح الأرض وتمهيدها، وشق السبل فيها وتكوين التربة اللازمة للزراعة وللإنبات، وتركيز العديد من الثروات المعدنية، وتزويد البحار والمحيطات بالأملاح اللازمة لحفظ مياهها من الفساد، ولتوفير البيئات المتعددة لبلايين الكائنات الحية التي تحيا فيها، والقادرة على ترسيب سمك هائل من أملاح وصخور المتبخرات منها عند تبخرها، وبصفة عامة تبدأ دورات عديدة لجعل الأرض صالحة للعمران.

وقد استمرت عمليات تشكيل سطح الأرض بواسطة العمليات الخارجية الأصل من التجوية والنقل والتآكل (التحات) التي تجمع كلها تحت مسمى «التعرية»؛ أي: تعرية الصخور بنقل حطامها الناتج عن عمليات التجوية والتحات إلى مكان آخر لتبقى الصخور مكشوفة تعاني من تلك العمليات من جديد، حتى تتحول المنطقة شديدة التضاريس إلى سهل تحاتِّي. ويكمل عمليات التعرية عمليات الترسب بمعنى توضع الفتات الصخري الناتج عن عمليات التعرية إما في مكان مؤقت أو في مكان تستقر فيه لتكون مختلف أنواع الرسوبيات؛ ومن ثم الصخور الرسوبية. وعمليات الترسب هذه إما أن تتم بطريقة ميكانيكية أو بطريقة كيميائية، أو بتدخل الكائنات الحية بعد خلقها على سطح الأرض.

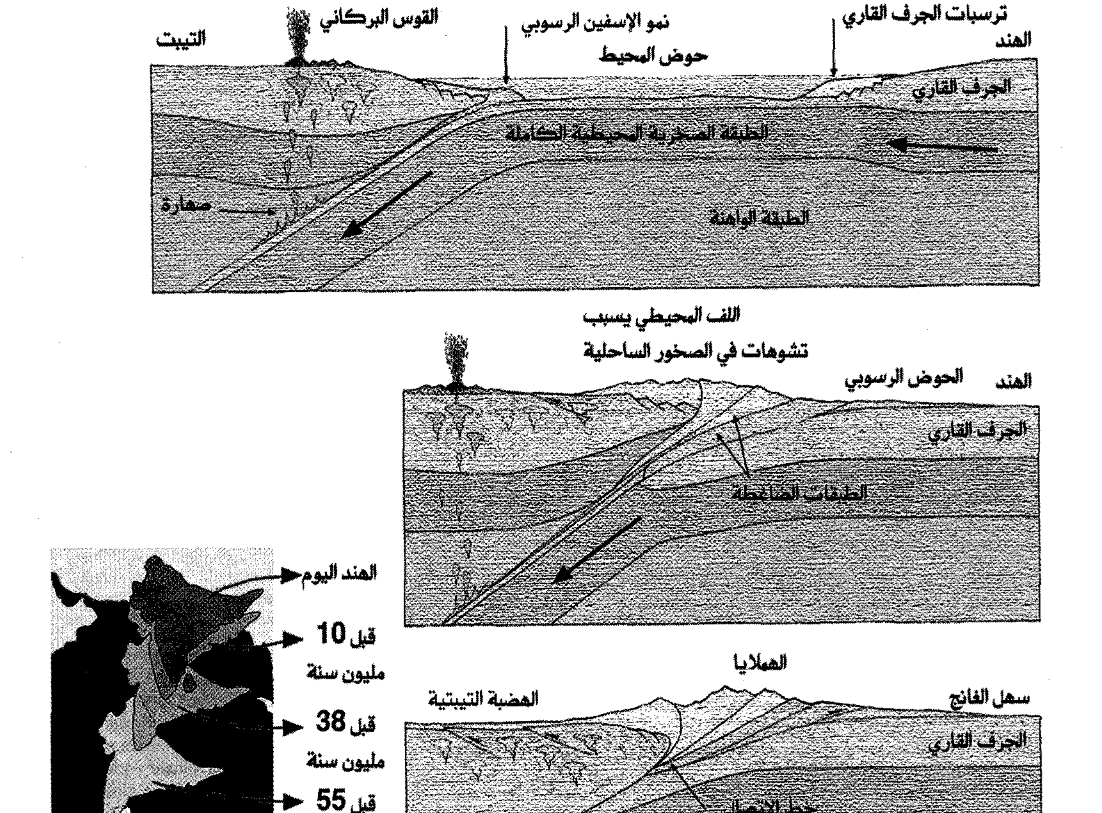
كذلك فإن العمليات الداخلية من مثل الهزات الأرضية، والثورانات البركانية ـ وغيرها من حركات الصهارات الصخرية، والحركات البانية للجبال ـ تلعب دوراً هاماً في إعداد سطح الأرض لدورة تضاريسية جديدة تتعرض لعوامل التعرية المختلفة حتى يتم تمهيد سطح الأرض وبسطه، وشق الفجاج والسبل فيه، وتكون المجاري المائية والبحيرات الداخلية والأغوار والمنخفضات الأخرى فيه، وتظل الأرض يتبادلها البناء والهدم، في دورات متتالية تسمى باسم «**دورات شكل الأرض**» أو «**دورات التحات**».

خامساً: عودة الاتزان الأرضي:

لما كانت ظاهرة الاتزان الأرضي تتأثر بفعل عوامل التعرية، كما تتأثر بترسب كميات كبيرة من الفتات الصخري الناتج عنها فوق مناطق أخرى من سطح الأرض، فإن قوى الجاذبية الأرضية تلعب دورها في إعادة التوازن من جديد، فعندما تنخفض القشرة الأرضية

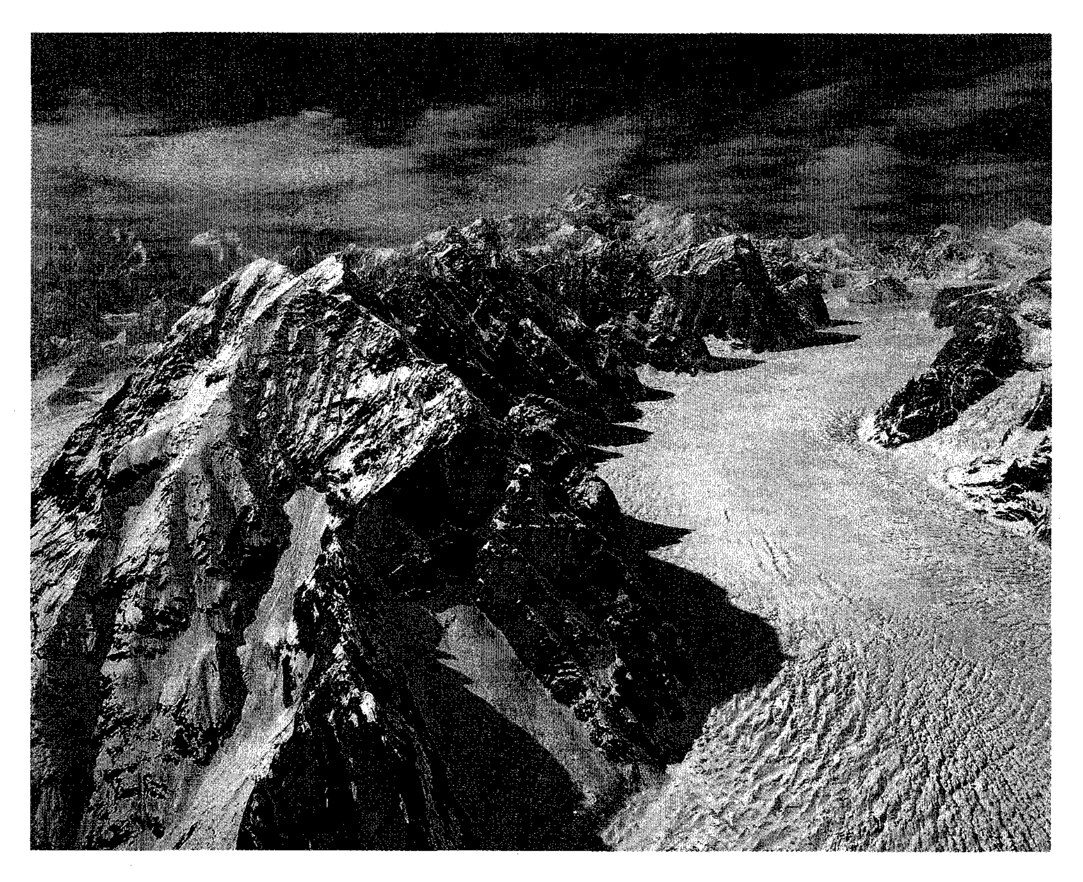
عند تعرضها لأحمال زائدة فإن ذلك ينتج عن تحرك وزن مكافئ من الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي تحت نفس المنطقة إلى المناطق التي بريت صخورها فتؤدي إلى رفعها، وتسمى العملية الأولى «**بالتضاغط الأرضي**»، والثانية «**بالارتداد التضاغطي**»، وبذلك تستمر عمليات الاتزان الأرضي مواكبة لعمليات التعرية باستمرار طوال دورات البناء والتحات؛ وبذلك يغطى الغلاف الصخري للأرض بغلالة مختلفة السمك من التربة الصلصالية أو الغرينية أو الرملية أو غيرها من الرواسب الصخرية المفروطة من مثل الرمال والحصباء والحصى، ويتباين سمك التربة بتباين نوع الصخور وتضاريس الأرض، والظروف المناخية السائدة فيها، وعوامل التعرية المؤثرة عليها من رياح أو مياه جارية، أو مجالد أو بحار ومحيطات وتتوقف عمليات التعرية عندما يصل سطح الأرض إلى مستوى سطح البحر الذي يعرف باسم «مستوى القاعدة» وإذا تغير منسوب هذا المستوى إما بارتفاع اليابسة أو بانخفاض منسوب سطح البحر، فإن عوامل التعرية تنشط من جديد حتى يصل مستوى سطح الأرض إلى مستوى القاعدة الجديد، وعلى العكس من ذلك فإنه إذا ارتفع منسوب الماء في البحار والمحيطات دون اختلاف في منسوب الأرض توقفت عوامل التعرية عند خط القاعدة الجديد، وقد تؤدي عمليات تسوية سطح الأرض إلى طغيان مياه البحار على أجزاء من اليابسة كما تؤدي عمليات بناء سطح الأرض إلى انحساره عنها مما كان له أعظم الأثر في تهيئة الأرض لاستقبال الحياة.

وظلت تضاريس الأرض تتعاورها عمليات البناء والهدم منذ اللحظة الأولى لنشأتها إلى يومنا الراهن، وسوف تستمر كذلك إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها؛ بمعنى تكون الجزر البركانية في أواسط المحيطات ونموها إلى قارات صغيرة أو شبه القارات، ثم اصطدامها والتحامها مع بعضها البعض على هيئة قارة أو عدد من القارات يبدأ كل منها بالنمو بإضافة سلاسل جبلية إلى حوافها حتى تصل إلى أقصى حجم لها، ثم تتقارب تلك القارات من بعضها البعض حتى تلتحم في النهاية لتكون قارة واحدة، ثم تعاود هذه القارة التفتت إلى عدد من القارات التي تبدأ في التباعد عن بعضها البعض تاركة بينها محيطات جديدة، ثم تبدأ قيعان المحيطات الجديدة في التصدع وممارسة عملية اتساع وتجديد في الصخور المكونة لها، فتصطدم قيعان المحيطات بالقارات المقابلة مكونة عددا من السلاسل الجبلية التي تضاف إلى حواف القارات فتنمو وتندفع بالتدريج مع هذا النمو إلى قلب القارة حيث تكون عوامل التعرية قد برتها وحولتها إلى ما يسمى بالدروع القديمة أو الرواسخ، وتكون سلاسل جبلية جديدة قد تكونت عند حافة القارة، وهكذا تتحول المحيطات إلى قارات، وتتفتت القارات لتفصلها بحار طولية تتسع بالتدريج لتتحول إلى



رسم بياني يظهر كيفية تصادم الجزر البركانية ببعضها البعض عبر ملايين السنين والتحامها لتكون قارة واحدة

محيطات جديدة في «**دورة القارة/ المحيط**»، والتي تؤكد لنا أن أرضنا التي بدأت بمحيط غامر تحولت إلى قارة جبلية شديدة التلاحم والوعورة، ثم تعرضت عبر ملايين السنين لعوامل الهدم الخارجية من رياح ومياه جارية ومجالد وعمليات من المد والجزر وأعمال الكائنات الحية منذ خلقها وقد تمكنت هذه العمليات مجتمعة من تسوية التضاريس الأرضية وشقت فيها السبل والمجاري المائية والسهول والوديان وكونت التربة التي تنتشر على هيئة غطاء رقيق للصخور وفي السهول والمنخفضات وفي قيعان البحار والمحيطات. ويظل هذا الصراع بين عوامل الهدم الخارجية لتضاريس الأرض حتى تصل بها إلى منسوب سطح البحر أو إلى

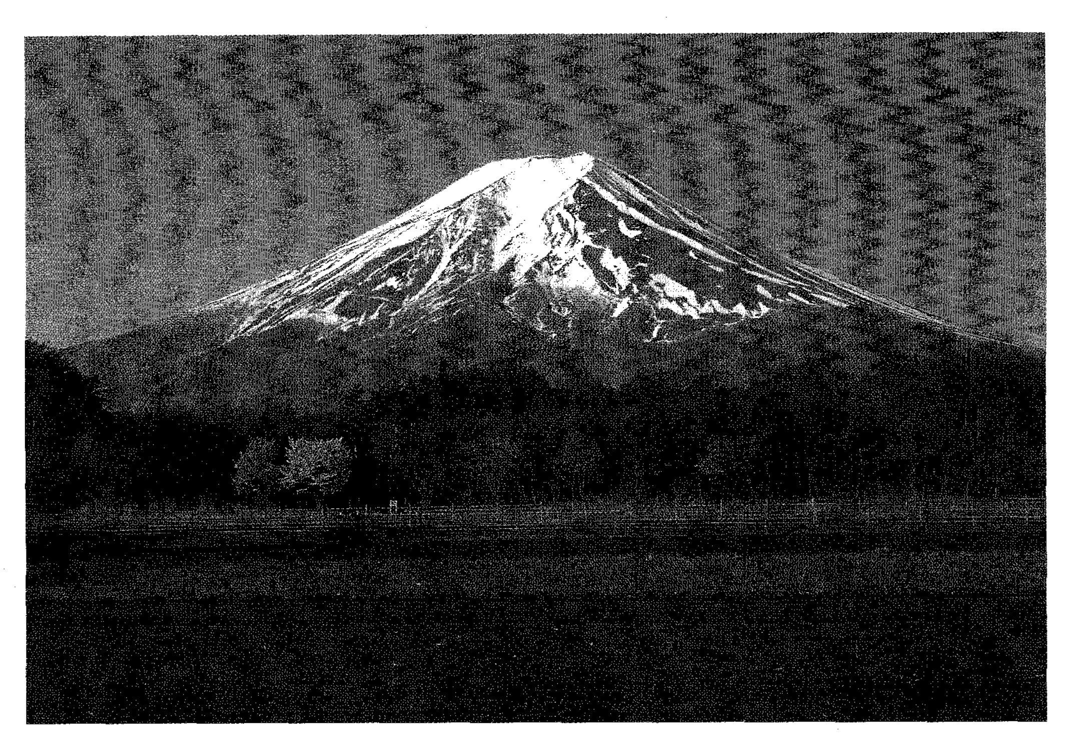


صورة لتشقق الجبال في المرتفعات وتكون السهول بينها

مستوى قريب من ذلك حين يتوقف الصراع، أو تتدخل عوامل البناء الداخلية فتعيد رفع أجزاء من سطح الأرض على هيئة عدد من التضاريس الجديدة فيبدأ الصراع من جديد.

وفي دورات تكون القارات وتبادلها مع المحيطات، ودورات البناء والهدم على سطح القارات تتكون السهول الخصبة، والتربة الغنية، والصخور الرسوبية المختلفة التي تحوي في أحشائها الكثير من الخيرات الأرضية من مثل النفط، والغاز الطبيعي، والفحم، والمياه تحت السطحية، وركازات العديد من المعادن الاقتصادية التي يمكن أن تتكون أثناء عمليات الترسب أو بواسطتها، ولولا ذلك كله ما أنبتت الأرض ولا كانت صالحة للعمران.

ومعدلات تجمع الرسوبيات تتباين تبايناً شديداً بتباين نوع الراسب المتكون، والعوامل المساعدة على ترسبه، وقد وجد أن ذلك يتراوح بين المائة والمائتي سنة لتجمع السنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة، بينما تتراوح معدلات التعرية بين ثلاث

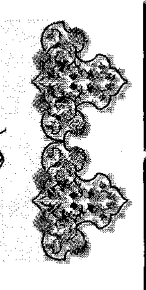


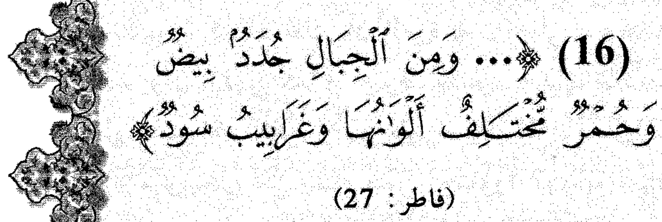
صورة لقمة جبلية صامدة أمام عمليات التعرية المختلفة بينما تآكلت الصخور من حولها مكونة سهولاً فسيحة

سنوات وثلاثمائة سنة لإزالة سنتيمتر واحد من كتلة الصخور، وهذا يعني أن عمليات تسوية سطح الأرض حتى أصبح صالحاً للعمران قد استهلكت من الطاقة والوقت ما لا تستطيع البشرية مجتمعة عبر عصور وجودها على سطح هذا الكوكب، وبكل ما جمعت من ثروات أن تقوم بالوفاء بتكلفته، ومن هنا يمن علينا ربنا بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ **(الذاريات: 48)**.

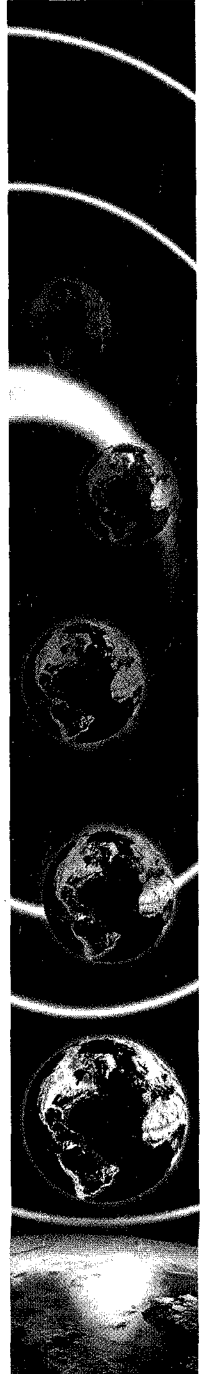
وهذه الحقائق لم تصل إلى علم الانسان إلا في القرنين الأخيرين، وفي العقود المتأخرة منهما، ولم تتبلور أمام أنظار العلماء إلا منذ عقود قليلة، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة من السنين هو شهادة حق على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلَّى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.





(16) ﴿... وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾

(فاطر: 27)



هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الثاني من سورة «فاطر»، وهي سورة مكية وعدد آياتها (45) بعد البسملة، وقد استهلت بحمد الله ـ تعالى ـ فاطر السمٰوات والأرض؛ أي: خالقهما على غير مثال سابق، وجاعل الملائكة رسلاً إلى أنبيائه ورسله خاصة، وإلى بقية عباده بصفة عامة، والملائكة خلق غيبي متعددو الأجنحة. واستعرضت السورة عدداً من صفات الله وأسمائه ومنها: أنه ـ تعالى ـ الخالق، الرازق، القادر، القدير، العزيز، الحكيم، المنعم، الحليم، العليم، الغفور، البصير، الشكور، الخبير، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، صاحب الرحمات الواسعة، الذي يفتح للناس منها ما لا يمكن لأحد أن يغلقه، ويغلق ما لا يمكن لأحدٍ أن يفتحه...!!!

وتُذَكِّر السورة الكريمة الناس بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم، وتستنكر جحودهم لها..، وتثبت رسول الله ﷺ في مواجهة تكذيب الكافرين لنبوته بتقرير أن الرسل من قبل قد كذبوا، على الرغم من أنهم جاءوا أممهم بالمعجزات الواضحات والوحي المنزل بالهداية الربانية، فأخذ الله المكذبين بوحيه أخذاً شديداً عقاباً لهم على كفرهم، وأن الأمور كلها مردها إلى الله ـ تعالى ـ فيجازي كلًّا بما يستحق.

وتؤكد سورة «فاطر» أن وعد الله حق، وعليه فلا يجوز للخلق أن يغتروا بالدنيا فتلهيهم عن الآخرة، ولا أن ينخدعوا بالشيطان وهو عدو لهم فيثنيهم عن اتباع الهداية الربانية، ويمنيهم بالمغفرة مع الإغراق في معاصي الله، ومن ثم فلا بد من مقابلة الشيطان بالعداوة التي يستحقها؛

لأنه من خبثه وعداوته للإنسان يحرص على تزيين سوء عمله له حتى يراه حسناً فيقوده بذلك إلى النار...!!

وتؤكد السورة كذلك على أن العزة لله ـ تعالى ـ وحده، فمن أرادها فسوف يجدها في طاعة الله، وأن الذين كفروا سوف يلقون عذاباً شديداً، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم من الله مغفرة وأجر كبير، وأن الله ـ تعالى ـ يضل من يشاء ممن ارتضوا الضلال سبيلاً، ويهدي من يشاء ممن اختاروا الهداية سبيلاً، وتضرب السورة الأمثال للناس من حياتهم، وتوصي الرسول الخاتم ـ ﷺ ـ ألَّا يحزن على مصير الضالين؛ لأن الله ـ تعالى ـ عليم بما يصنعون.

وتحذر سورة «فاطر» من الشرك بالله، وتؤكد عجز الشركاء المزعومين وحاجتهم، بل وحاجة الخلق جميعا إلى الله ﷻ، وأنه سبحانه غني عن العالمين. ومن قبيل التقريع تذكر سورة «فاطر» المشركين بالله بأن شركاءهم لا يستطيعون خلق شيء في الأرض، وليست لهم أدنى شراكة في السمٰوات، وأنهم لم يتلقوا تفويضاً من الله ـ تعالى ـ بذلك، وعلى الرغم من ادعائهم، وقسمهم كذباً بالله أنهم إذا جاءهم نذير فسوف يكونون أهدى من غيرهم من الأمم، فإنهم لما جاءهم النذير ازدادوا نفوراً من الحق، وأن هؤلاء الظالمين لا يَعِدُ بعضهم بعضاً إلا ظناً كاذباً، وقد استمرأوا الخروج على منهج الله استكباراً في الأرض، ومكراً سيئاً بأهلها، والمكر السيء لا يحيق إلا بأهله، ولم يعتبروا بما حدث للأمم السابقة عليهم، والتي كانت قد سارعت بالكفر، وعاجلهم الله ـ تعالى ـ بالعقاب على كفرهم وقد كانوا أكثر قوةً منهم، وهي سنة من سنن الله التي لا تبديل لها، ولا تغيير فيها.

وتؤكد السورة الكريمة أن الله ـ تعالى ـ قادر على استبدال الخلائق بغيرهم. وما أيسر ذلك عليه ـ سبحانه ـ ، كما تؤكد أن كل نفس مسؤولة عن عملها، وأنها لا تحمل وزر غيرها، وأن الرسول الخاتم ـ ﷺ ـ مطالب بإنذار الذين يخشون ربهم بالغيب فيعبدوه بما أمر، وأن من يسعى إلى تزكية نفسه ففضل ذلك مردود عليه، وأن مصائر الخلق جميعاً إلى الله ـ تعالى ـ فيجازي كلًّا بما هو أهل له، وأن الأضداد لا يستوون أبداً..، وأن هذا النبي ﷺ الخاتم والرسول الخاتم قد أرسل بالحق الذي أرسل به الأنبياء والمرسلون من قبل، وأن الله ﷻ قد تعهد بحفظ رسالته الخاتمة حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ فحفظها كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الأرض ومن عليها وذلك لأن عدل الله ـ تعالى ـ يقتضي ألَّا يحاسب الخلائق بغير إنذار مسبق.

وتمتدح سورة «فاطر» الذين يتلون كتاب الله، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانيةً رجاء رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ الذي يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله. وتؤكد السورة الكريمة في ختامها أن خطايا الناس كثيرة، ولكن الله يؤخرهم إلى أجل مسمى، وهو ـ تعالى ـ البصير بهم.

وبالإضافة إلى التأكيد في أكثر من موضع من سورة «فاطر» أن الله ـ تعالى ـ عليم بكل شيء، ومحيط بكل شيء؛ فإن السورة تستشهد بعدد كبير من الآيات الكونية على صدق القضايا التي أوردتها، ومن ذلك: تصريف الرياح، وإرسال السحاب، وإنزال المطر، وإحياء موات الأرض، وخلق البشر من تراب، ثم من نطفة، وجعل الزوجين منها، واختلاط البحرين دون امتزاج كامل، وإخراج بعض ما يؤكل وما يتزين به منهما، وجري السفن فيهما، وولوج كل من الليل والنهار في الآخر، وتسخير كل من الشمس والقمر، واختلاف ألوان كل من الثمار، والجدد القاطعة لصخور الجبال، والناس، والدواب، والأنعام، والإمساك بالسمٰوات والأرض أن تزولا، والإمساك كذلك بكل ما هو في ملك الله ـ تعالى ـ وكل شيء ملكه لأنّه ـ تعالى ـ هو رب كل شيء ومليكه، وغيره من المخلوقين لا يملك شيئاً إلا ما قسمه له الله ـ سبحانه ـ، وأن الذين يعلمون ذلك من عباد الله هم الذين يخشون ربهم بالغيب.

وهذه الآيات الكونية تحتاج إلى مجلدات في دراستها، وإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها، إلى جانب ما تحمله من الدلالات المنطقية المقنعة على طلاقة القدرة الإلٰهية في إبداع الخلق، ولذلك سوف أقتصر هنا على نص واحد فقط منها وهو جزء من الآية السابعة والعشرين من سورة «فاطر» يصف اختلاف ألوان الجدد القاطعة لصخور الجبال، وقبل الدخول في ذلك لابد من استعراض الدلالات اللغوية لألفاظ الآية الكريمة ولأقوال عدد من المفسرين فيها؛ ألا وهي قول الحق ﷻ: ...﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ **(فاطر: 27).**

الدلالة اللغوية

(1) **(الجبل)** في اللغة العربية: ما ارتفع من الأرض إذا عظم وطال، والجبل: هو الغليظ من كل شيء، جمعه (جبال) و(أجبال) و(أجبل)، وقد سبق لنا شرح الدلالة اللغوية لهذه اللفظة.

(2) **(جدد)**: (الجدة) في اللغة (بالضم): هي الطريقة أو العلامة الظاهرة والجمع

(جدد) والصفة (مجدود)، والجدد هي الطرائق المختلفة الألوان، قال الجوهري: «والجدة: الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه». قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ **(فاطر: 27)**، قيل في تفسيرها: هي طرائق تخالف لون الجبل، (والجادة) معظم الطريق، والجمع (جَوَادُّ) بتشديد الدال، و(جَدَّ) الشَّيْءُ (يجد) (جدة) بكسر الجيم فيهما أي: صار جديداً و(الجديد) جمعه (جُدُدٌ)، و(الجِدُّ) هو الاجتهاد في الأمر، تقول منه (جدَّ) (يجدُّ) و(يجد) و(أجد) في الأمر أي: اجتهد فيه.

و (الجِدُّ) بالكسر ضد (الهزل) تقول منه: (جَدَّ) (يَجِدُّ) و(يَجُدُّ) في الأمر أي: أخذه على محمل (الجد)، و(أجد) تأتي بمعنى عظم، وقوله (تعالى): ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ **(الجن: 3)** أي عظمة ربنا.

و (الجَدُّ): الحظ والبخت والثراء والجمع (الجدود)، والصفة (المجدود) أي: المحظوظ أو الثري، و(الجد) أيضاً هو أبو الأب، وأبو الأم، وهو كذلك قطع الأرض المستوية.

و (الجديد) هو كل ما أُحْدِثَ إنشاؤه، و(الجديدان) و(الأجدان) هما الليل والنهار، ولذلك قيل: و(جد) الشيء أي: قطعه.

(3) **(غرابيب)**: هي جمع (غربيب) ومعناه: شديد السواد أو المشبه بالغراب في السواد، وفي قول الحق ـ ﷻ ـ: (غرابيب سود) نجد أن لفظة (سود) بدل من (غرابيب)؛ لأن توكيد الألوان لا يتقدم اللون نفسه، فيقال: أحمر قاني ولا يقال: قاني أحمر، وكلمة (غربيب) قد تكون مستمدة من اسم (الغراب) لسواده، كما قد تكون مستمدة من (الغربة) و(الاغتراب)، أو من (التغريب)، أو من (الغرب) و(المغرب) لغيبة كل من ضوء الشمس ونور النهار فيه. ويعبر عن شدة السواد إذا قيل: أسود غربيب. وهو السائد، كما قد يقال: غربيب أسود وهو قليل.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ **(فاطر: 27، 28)**.

- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في

خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها.... كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: 4)، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي (الجدد) جمع (جدة) مختلفة الألوان أيضا، قال ابن عباس: (الجدد) الطرائق، ومنها غرابيب سود، قال عكرمة: (الغرابيب) الجبال الطوال السود، وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: سود غرابيب، وفيما قاله نظر.. فتبارك الله أحسن الخالقين...، ولهذا قال تعالى بعد هذا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر...».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ جزاهما الله خيراً ـ ما مختصره: « ...﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ جمع جدة، أي: طريق في الجبل وغيره ...﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدة والضعف، ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾: عطف على جدد أي: صخور شديدة السواد، يقال كثيرا: أسود غربيب، وقليلاً: غربيب أسود».

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمةً واسعةً ـ ما مختصره: «... وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلةً عجيبةً في ظاهرها، ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية. ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ و(الجدد): الطرائق والشعاب. وهنا لفتة في النص صادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها. مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأُخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد غرابيب سود، حالكة شديدة السواد». «واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار تهز القلب هزاً، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي... هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول: إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله....».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي: ذوو طرائق وخطوط تخالف لون الجبل: بيض وحمر وسود. جمع جُدَّة، وهي الطريقة في السماء والجبل، وأصلها الخُطَّة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: أصنافها بالشدة والضعف .﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ جمع غربيب، وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه. و (سود) بدل من (غرابيب) وهي معطوفة على (بيض)، وقيل: معطوفة على (جدد). أي: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد وهو السواد الشديد، والمراد: أنها مختلفة الألوان كثيراً...».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه: «... ومن الجبال جبال ذوو طرائق وخطوط بيض وحمر مختلفة بالشدة والضعف...». وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما يلي: «ليس الإعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة هو التنويه فقط بما للجبال من ألوان مختلفة ترجع إلى اختلاف المواد التي تتألف منها صخورها... ولكن الإعجاز هو الربط بين إخراج ثمرات مختلفات الألوان يروي شجرها ماء واحد. وخلق جبال حمر وبيض وسود يرجع أصلها إلى مادة واحدة متجانسة التركيب أصل معينها من باطن الأرض، ويسميها علماء الجيولوجيا بالصهارة (أو الماجما)، وهذه الصهارة الواحدة عندما تنبثق في أماكن مختلفة من الأرض، وعلى أعماق مختلفة من السطح يعتري تركيبها الاختلاف، فتتصلب آخر الأمر في كتل أو جبال مختلفات المادة والألوان، وهكذا فسنة الله واحدة لأن الأصل واحد والفروع مختلفة متباينة وفي هذا متاع وفائدة لبني الإنسان».

• وجاء في صفوة التفاسير ما نصه: «﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق المختلفة الألوان ـ وإن كان الجميع حجراً أو تراباً ـ فمن الجبال جدد ـ أي: طرائق ـ مختلفة الألوان، بيض مختلفة البياض، وحمر مختلفة في حمرتها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: وجبال سود غرابيب أي شديدة السواد، قال ابن جزي: قدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر، وذلك لقصر التأكيد وكثيراً ما يأتي مثل هذا في كلام العرب، والغرض بيان قدرته تعالى، فليس اختلاف الألوان قاصراً على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ماهو أيضاً مختلف الألوان، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوانٍ عجيبةٍ...».

الجبال في القرآن الكريم

وردت اللفظة (**جبل**) بصيغة المفرد والجمع في القرآن الكريم39 مرة، منها: 6 مرات

بصيغة المفرد، 33 مرة بصيغة الجمع، وجاءت الإشارة إلى (الجبال) بتعبير (الرواسي) في تسع آيات أخرى، ويمكن تصنيف هذه الإشارات القرآنية (الثماني والأربعين) للجبال إلى المجموعات التالية:

(1) آيات تشير إلى شكل أرضي مرتفع ارتفاعاً ملحوظاً (البقرة: 260)، (هود: 43).

(2) آيات تشير بطريقة رمزية إلى ضخامة الكتلة الجبلية أو تدل على ارتفاعها، وطبيعتها الصلبة الهائلة: (الرعد: 31)، (إبراهيم: 46)، (الإسراء: 37)، (مريم: 90)، (الأحزاب: 72)، (الحشر: 21).

(3) آيات تذكر كلمة (جبال) في مقام التشبيه: (هود: 42)، (النور: 43).

(4) آيات تشير إلى (جبال) ذات أهمية تاريخية كجبال ثمود: (الأعراف: 74)، (الحجر: 82)، (الشعراء: 149).

(5) آيات تشير إلى (الجبال) التي شهدت بعض المعجزات كجبال نبي الله إبراهيم عليه السلام، ونبي الله موسى عليه السلام: (البقرة: 260)، (الأعراف: 143، 171).

(6) آيات تشير إلى استخدام كل من الإنسان والحيوان (للجبال) كملجأ: (النحل: 68، 81) أو كمصادر للمياه الجارية: (الرعد: 3)، (النحل15)، (النمل: 61)، (المرسلات: 27).

(7) مجموعة من الآيات تدور حول **(المفهوم العلمي للجبال)** في القرآن الكريم منها آية واحدة تصف الجبال بأنها أوتاد إشارة إلى أن أغلبها مدفون في الأرض، وأن أقلها ظاهر فوق سطح الأرض، وأن وظيفتها التثبيت: (النبإ: 7)، وآيات أُخرى تشير إلى دور الجبال في تثبيت الأرض: (الرعد: 3)، (الحجر: 19)، (النحل: 15)، (الأنبياء: 31)، (النمل: 61)، (لقمان: 10)، (فصلت: 10)، (قٓ: 7)، (المرسلات: 27)، (النازعات: 32)، و(الغاشية: 19).

وهناك فئة أُخرى من الآيات الكريمة في هذه المجموعة تشير إلى وجود جدد مختلفة الألوان بالجبال: (فاطر: 27)، أو إلى أن الجبال تتبع حركة الأرض في دورانها حول محورها (النمل: 88).

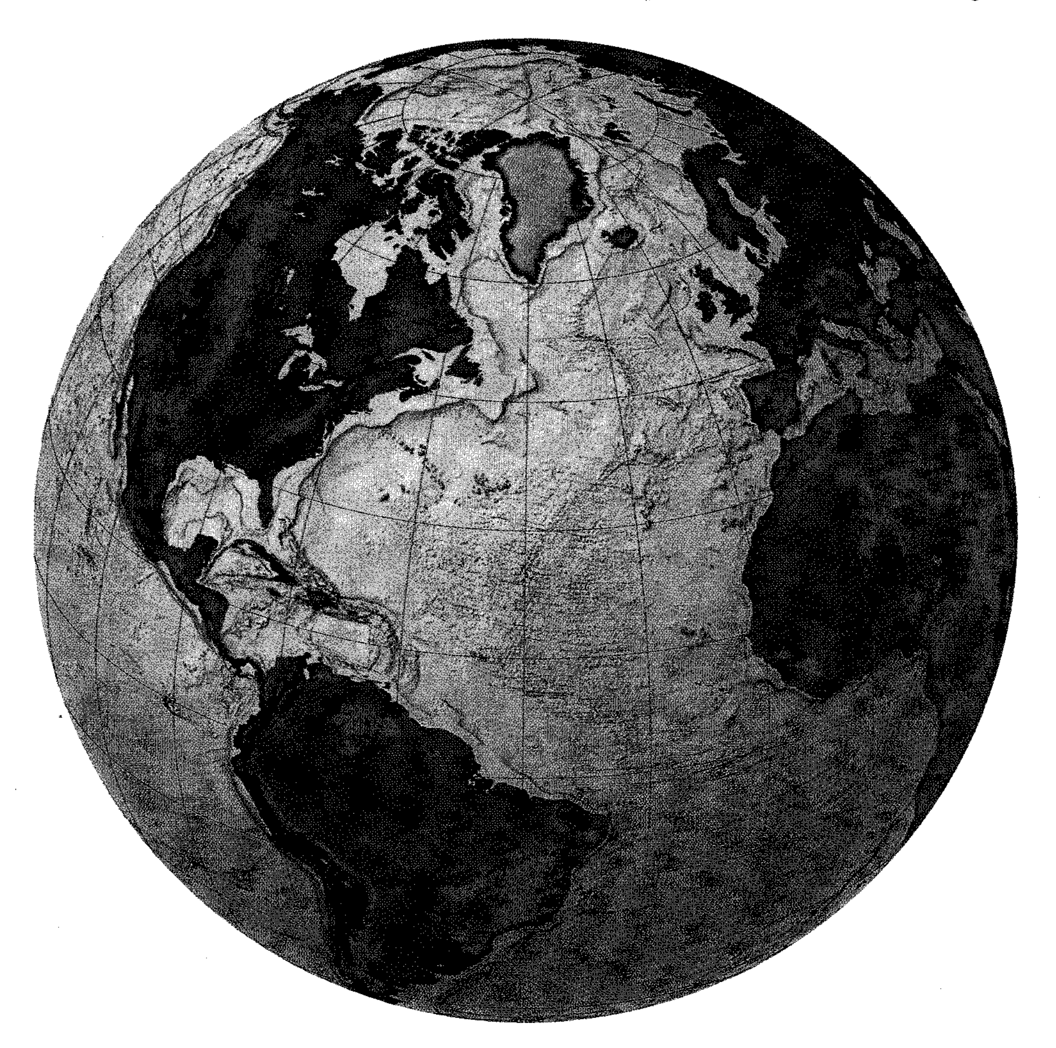
(8) آيات تشير إلى (الجبال) بوصفها من الخلق المسبح لله: (الأنبياء: 79)، (الحج: 18)، (صٓ: 18).

(9) آيات تصف مصير (الجبال) في الآخرة: (الكهف: 47)، (طه: 105)،

(الطور: 10)، (الواقعة: 5)، (الحاقة: 14)، (المعارج: 9)، (المزمل: 14)، (المرسلات: 10)، (النبإ: 20)، (التكوير: 3)، (القارعة: 5).

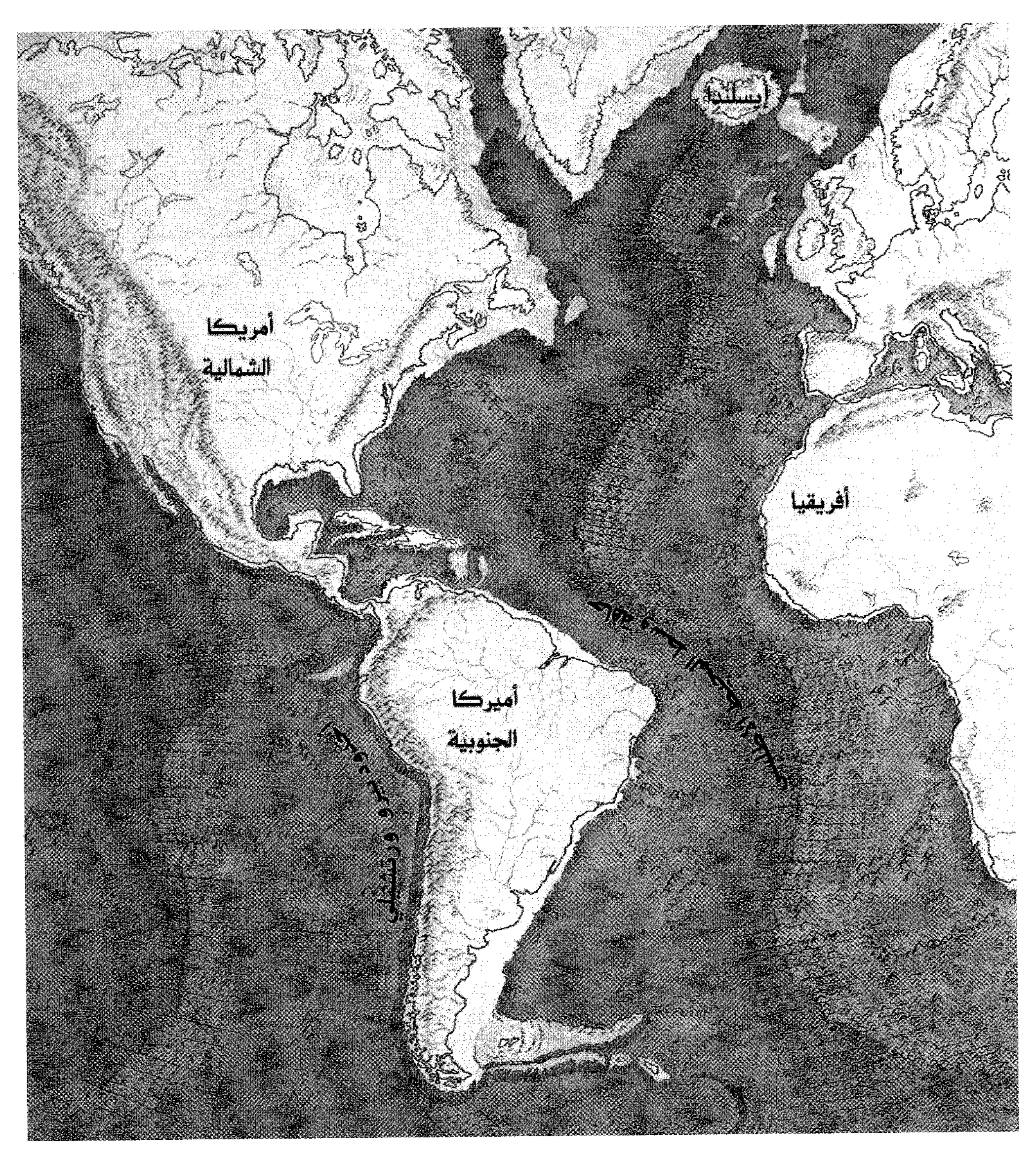
الجبال في علوم الأرض

يُعرَّف **(الجبل)** بأنه كتلة من الأرض ترتفع بارزةً فوق ما يحيطها من اليابسة بشكلٍ واضح، وتحيط بها حواف منحدرة، قد تكون أحياناً شديدة الانحدار. ويطلق مصطلح (الجبل) عادة على الارتفاعات التي تزيد عن ستمائة متر فوق مستوى سطح البحر، وإن



رسم توضيحي للكرة الأرضية يبين توزيع الجبال في أحزمة طولية لحواف القارات

كان هذا الارتفاع ليس محدداً؛ لأنه أمر نسبي يعتمد على تضاريس الأرض المحيطة، ففي منطقة سهلة التضاريس قد يكون نصف هذا الارتفاع مناسباً للوصف بتعبير الجبل. والجبال توجد عادةً متصلةً في أطواف، أو منظومات، أو سلاسل جبلية طويلة، ولكنها قد تكون أحياناً على هيئة مرتفعات فردية معزولة.



خارطة توضح حواف أواسط المحيطات والأخاديد الناتجة عن نزول قيعان المحيطات تحت القارات

وتتوزع الجبال عادة على سطح الأرض في أحزمة طولية موازية لحواف القارات إما في الاتجاه: من الشمال إلى الجنوب، أو من الشرق إلى الغرب، أو بانحرافاتٍ قليلةٍ عن هذين الاتجاهين الرئيسيين. من هذه الملاحظة تم الاستنتاج الصحيح بأن تكون الأحزمة الجبلية مرتبط بتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض وبخطوط التصادم بين تلك الألواح خاصة عندما يهبط اللوح الصخري المكون لقاع المحيط تحت اللوح الصخري الحامل للقارة المقابلة، فتتغضن وتتجعد الرسوبيات المتجمعة في الحوض العميق الناتج عن تحرك قاع المحيط تحت اللوح الصخري الحامل للقارة، وتكشط بالتدريج لتضاف إلى حواف تلك القارة، كما تضاف إليها كل الصخور النارية والمتحولة الناتجة عن الانصهار الجزئي للوح الصخري الهابط تحت القارة، وعن إزاحة كتل من الصهارة من نطاق الضعف الأرضي عند هبوط قاع المحيط فيه، وتشمل طفوحاً بركانيةً وهيئاتٍ كثيرةٍ للمتداخلات النارية، وللصخور المتحولة.

ومن هذا الخليط من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة تتكون الأطواف والمنظومات والسلاسل الجبلية، على هيئة أجزاءٍ سميكةٍ جداً من الغلاف الصخري للأرض، تنتصب شامخة فوق مستوى سطح البحر، وتمتد بأضعاف ارتفاعها إلى داخل الأرض لتطفو في نطاق الضعف الأرضي ـ وهو نطاق لدن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة ـ، تحكمها في ذلك قوانين الطفو كما تحكم جبال الجليد الطافية فوق مياه المحيطات، وعملية الطفو هذه هي التي تساعد الجبال ـ بتقدير من الله تعالى ـ على أن تبقى منتصبة فوق سطح الأرض، وفي حالة من التوازن التضاغطي المعجز مع محيطها، وفي ذلك يقول الحق ﷻ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾

(الغاشية: 17 ـ 20).

وتصل حركة ألواح الغلاف الصخري إلى نهايتها عندما يتحرك أحد هذه الألواح الحامل لقارة من القارات في اتجاه اللوح الصخري الحامل لقارة مقابلة، دافعاً أمامه قاع المحيط الفاصل بين القارتين حتى يدفنه بالكامل تحت القارة المقابلة، بعد سحب كل أو معظم الرسوبيات المتجمعة فوق هذا القاع وتكديسها مع ما يصاحبها من صخور نارية ومتحولة فوق حافة القارة الراكبة، وتصطدم القارتان اصطداماً عنيفاً يؤدي إلى تكون أعلى السلاسل الجبلية من مثل: جبال الهيمالايا. وعلى ذلك تتكون الجبال من خليط من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة شديدة الطي والتكسر.

الجدد الصخرية في علوم الأرض

بدأت قشرة الأرض بتبلور الصهير الصخري الذي نتج عن ارتطام أعداد كبيرة من النيازك الحديدية والحديدية الصخرية والصخرية بمادة الأرض الأولية، وبتبلور هذا الصهير الصخري نشأت «الصخور النارية» التي تعرف أيضاً باسم «الصخور الأولية» وتشكل اليوم حوالي 95% من مجموع صخور قشرة الأرض.

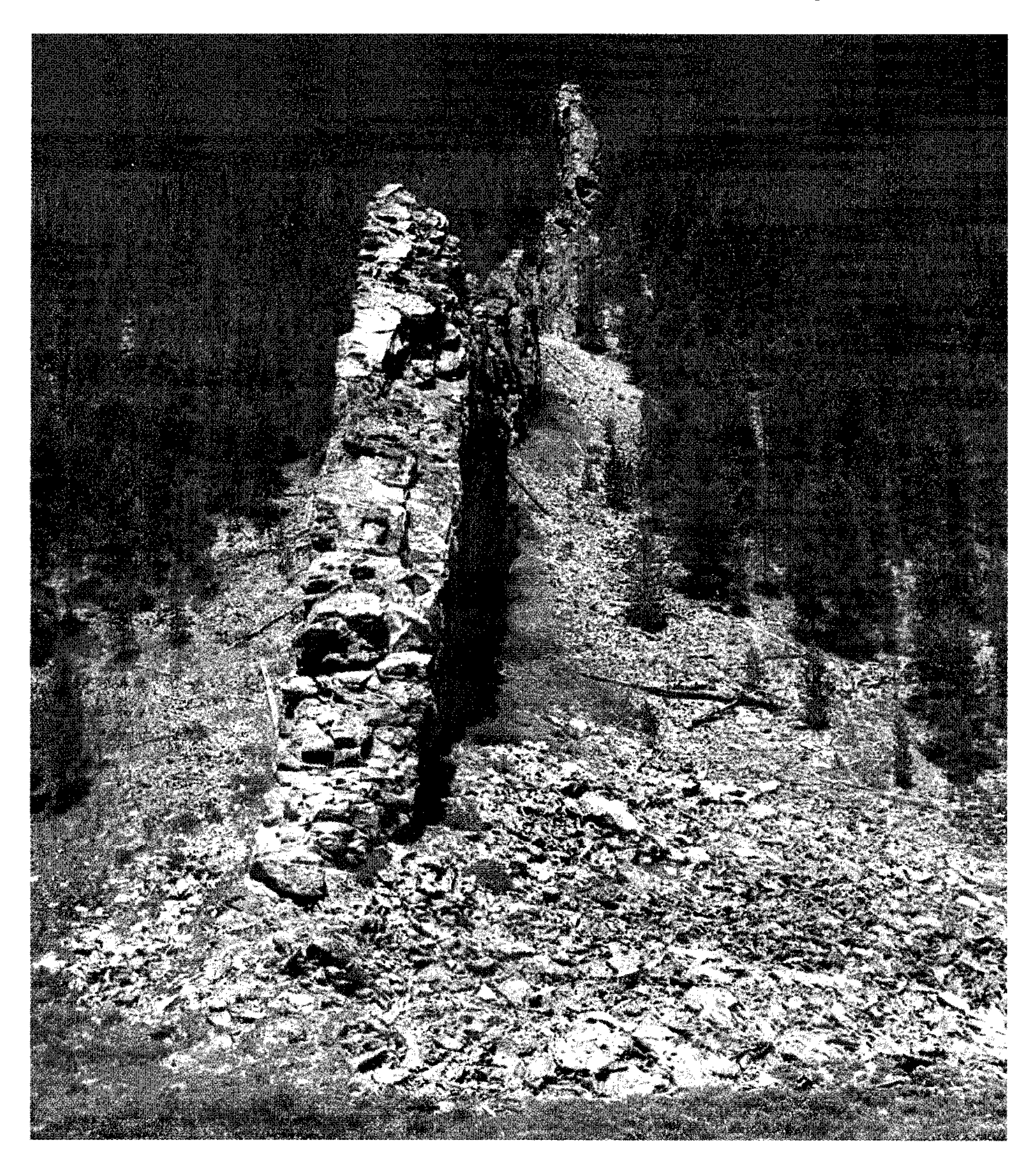
وبتعرض «الصخور النارية» لعوامل التعرية المختلفة من التجوية، والنقل، والتحات (التآكل) بعواملها المتعددة: من مثل الرياح، والمياه الجارية، والمجالد، والكائنات الحية، وفعل الجاذبية الأرضية وغيرها، تفتتت تلك الصخور الأولية وتحللت كيميائياً كلياً أو جزئياً، ونقل هذا الفتات الصخري ليرسب في كل من منخفضات اليابسة والبحار والمحيطات لينكبس ويتماسك ويتصلب على «**هيئة الصخور الرسوبية**» والتي تكوِّن اليوم



صورة لجدة قاطعة من الصخور النارية تقطع تتابعاً من الصخور المتحولة

غطاءً رقيقاً ينتشر فوق مساحات شاسعةٍ من الأرض مشكلاً حوالي 5% فقط من مجموع صخور القشرة الأرضية.

وبتعرض كل من الصخور النارية والرسوبية لعوامل التحول من الضغط، أو الحرارة،

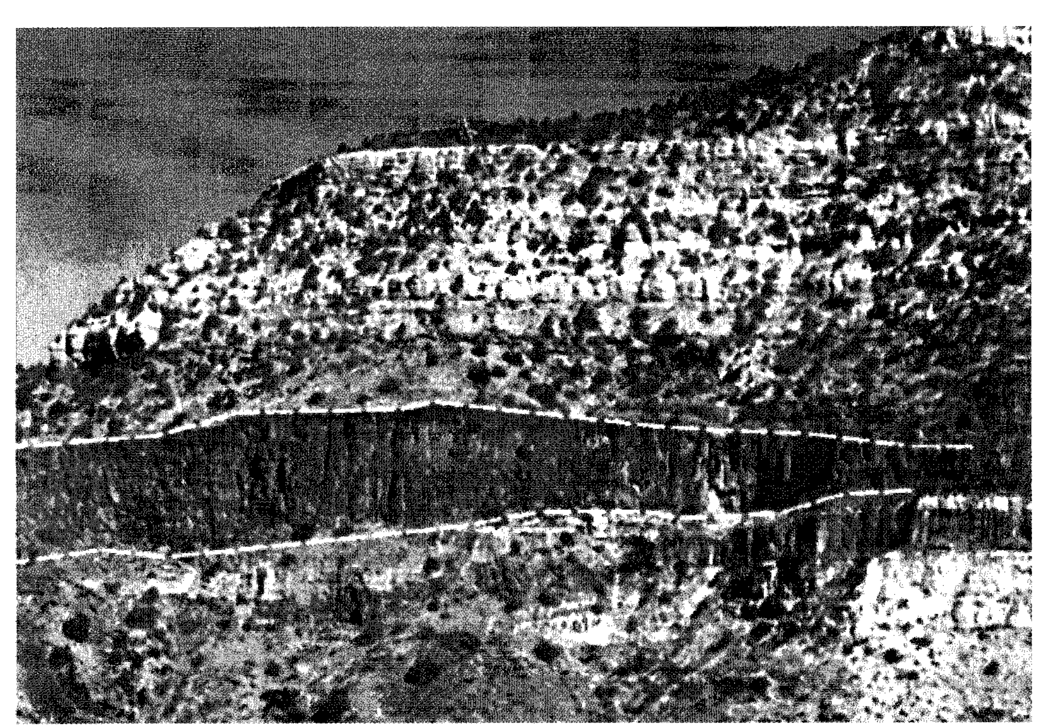


صورة لجبال كولورادو تظهر جدة عمودية قاطعة من صخور أكثر مقاومة لعوامل التعرية عما حولها فارتفعت بارزة فوقها

أو لكليهما معاً، تحولت تلك الصخور إلى ما يعرف باسم: «**الصخور المتحولة**» التي تكوّن اليوم نسبةً ضئيلةً جداً من مجموع صخور القشرة الأرضية. وبتعرض الصخور المتحولة لمزيدٍ من الحرارة تنصهر متحولةً إلى صهارة صخرية تعاود دورتها المعروفة باسم: «**دورة الصخور**».

وقد تنقطع هذه الدورة عند أية مرحلة من مراحلها، أو تتجاوزها إلى المرحلة التالية من مثل: تحول الصخور النارية مباشرة إلى الصهير الصخري متجاوزة مرحلة الصخور المتحولة أو عبرها، أو دخول أي من الصخور الرسوبية والمتحولة في دورة تعرية جديدة دون الوصول إلى مرحلة الصخور النارية، وهكذا.

وعندما تندفع الصهارة الصخرية في القشرة الأرضية من نطاق الضعف الأرضي، فإنها إما أن تندفع إلى سطح الأرض على هيئة الثورات البركانية، مكونةً الطفوح البركانية، وإما أن تتداخل في أعماق القشرة الأرضية حتى تتبلور وتجمد على هيئة المتداخلات النارية التي قد ترفعها الحركات الأرضية إلى سطح الأرض، ومنها الحركات البانية للجبال، فتعريها عوامل التعرية وتكشفها للناظرين بعد ملايين السنين.



صورة لجدد متوافقة (أفقية) في وسط الكتلة الصخرية لجبال أريزونا

والمتداخلات النارية تأخذ أشكالاً وأحجاماً متعددة منها: المتداخلات المستوية، اللوحية الشكل، ومنها: الكتلية، ومنها: المتوافق مع الصخور المتداخل فيها، ومنها: غير المتوافق (القاطع)، والأول يتداخل متوازياً مع بنيات الصخور المضيفة من مثل: مستويات التطبق في الصخور الرسوبية، والثاني يتداخل في الصخور قاطعاً لبنياتها.

ومن المتداخلات المستوية: **الجدد الموازية (المتوافقة)** وتتكون باندفاع الصهارة إلى داخل الشقوق والفواصل الموازية لمستويات التطبق، أو في مستويات التطبق ذاتها، وهناك المتداخلات غير المستوية، ومنها **الجدد القاطعة** إذا كانت رأسية أو مائلة.

والجدد الموازية (المتوافقة) إما أن تكون أفقية أو مائلة وموازية لمستويات التطبق، أو لغير ذلك من البنيات الأساسية للصخر المضيف. ومن المتداخلات النارية غير المتوافقة بقايا غرف الصهير العملاقة **(الباثوليثات)** والتي تعتبر أضخم المتداخلات النارية حجماً؛ إذ تمتد لآلاف الكيلومترات وتكون قلوب الجبال، ويغلب على تركيبها الصخور الجرانيتية والدايوريتية.

ومن المتداخلات النارية الكتلية المتوافقة أجسام عدسية الشكل تعرف باسم: **(اللاكوليثات)** سطحها العلوي محدب إلى أعلى، وسطحها السفلي أفقي تقريباً مما يعكس اتجاه اندفاع الصهير من أسفل إلى أعلى.

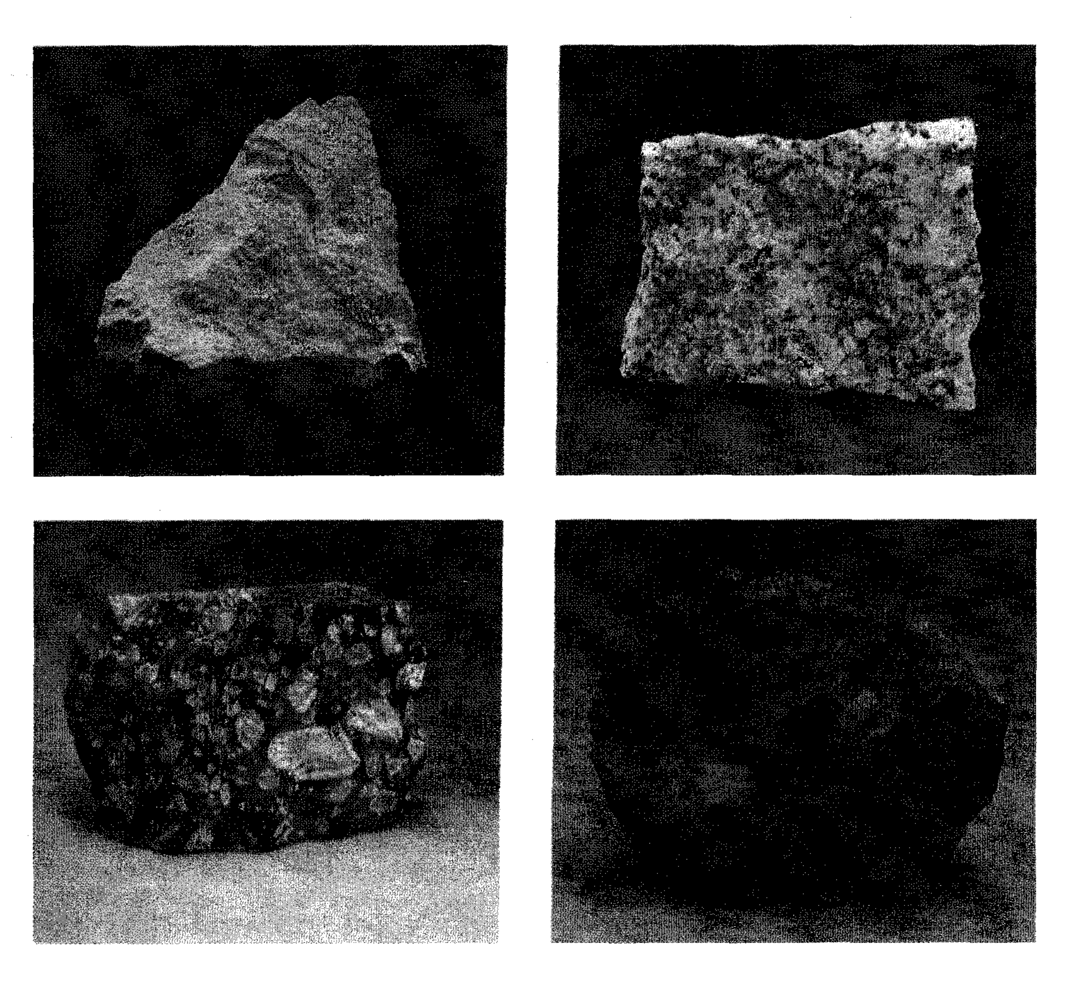
سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى ألوان الجدد باللون الأبيض والأحمر والأسود:

يقول ربنا ﷻ في محكم كتابه:

﴿. . . وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . . . ۝﴾ **(فاطر: 27)**.

والآية الكريمة تشير إلى أن **(الجدد)**: هي **الخطط** أو الطرائق المختلفة الألوان في الجبال والتي تخالف ألوانها ألوان الجبال، وعلى ذلك فهي ليست من أصل تكوين الجبال. والعلوم المكتسبة تؤكد على أن المتداخلات النارية في صخور الجبال تتكون بعد الصخور المضيفة لها بفترات متطاولة قد تقدر أحياناً بملايين السنين.

كذلك أثبتت دراسات علم الصخور أن العامل الرئيسي في تصنيف الصخور النارية هو تركيبها الكيميائي والمعدني الذي ينعكس انعكاساً واضحاً على ألوانها، وتقسم الصخور النارية على أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني إلى المجموعات الرئيسية الثلاث التالية:



صورة للصخور توضح التباين في ألوانها بناء على تركيبتها الكيمائية والمعدنية

(1) **صخور حامضية وفوق حامضية**، وتشمل عائلة الجرانيت التي تتكون أساساً من معادن المرو (الأبيض) والفلسبار البوتاسي (المقارب إلى الحمرة) والبايوتايت (الذي يتراوح بين اللونين الأصفر والبني المائل إلى الحمرة أو العسلي).

(2) **صخور متوسطة**، وتشمل عائلة الدايورايت التي تتكون أساساً من قليل من المرو ومعادن البلاجيوكليز الكلسي والصودي والأمفيبول والتي تتراوح ألوانها بين الأبيض والأحمر والرمادي.

(3) **صخور قاعدية وفوق قاعدية**، وتشمل عائلتي الجابرو والبريدوتايت، وتتميز بالألوان الداكنة التي تميل إلى السواد لوفرة معادن كل من الحديد والمغنيسيوم فيها من مثل: معادن البيروكسين والأوليفين والبلاجيوكليز الكلسي.

ومن ذلك يتضح بجلاء أن الجدد التي تتداخل في صخور الجبال هي في الأصل من الصخور النارية، وأن أفضل تصنيف لتلك الصخور هو التصنيف القائم على أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني والذي ينعكس على ألوانها على النحو التالي:

(1) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر وهي الصخور الحامضية وفوق الحامضية، وتشمل عائلة الصخور الجرانيتية (الرايولايت ـ الجرانيت).

(2) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر من جهة والألوان الداكنة من جهة أخرى، ولذا يغلب عليها الألوان الرمادية، وهي الصخور الموصوفة بالوسطية ـ بين الصخور الحامضية وفوق الحامضية من جهة، والصخور القاعدية وفوق القاعدية من جهة أخرى ـ، وتضم عائلة الصخور الدايورايتية (الأنديزايت ـ ديورايت)، وتقع تحت الوصف القرآني: مختلف ألوانها.

(3) صخور تميل ألوانها إلى الدكنة حتى السواد وهي الصخور القاعدية وفوق القاعدية، وتشمل عائلتي الجابرو (البازلت ـ الجابرو) والبريدوتايت.

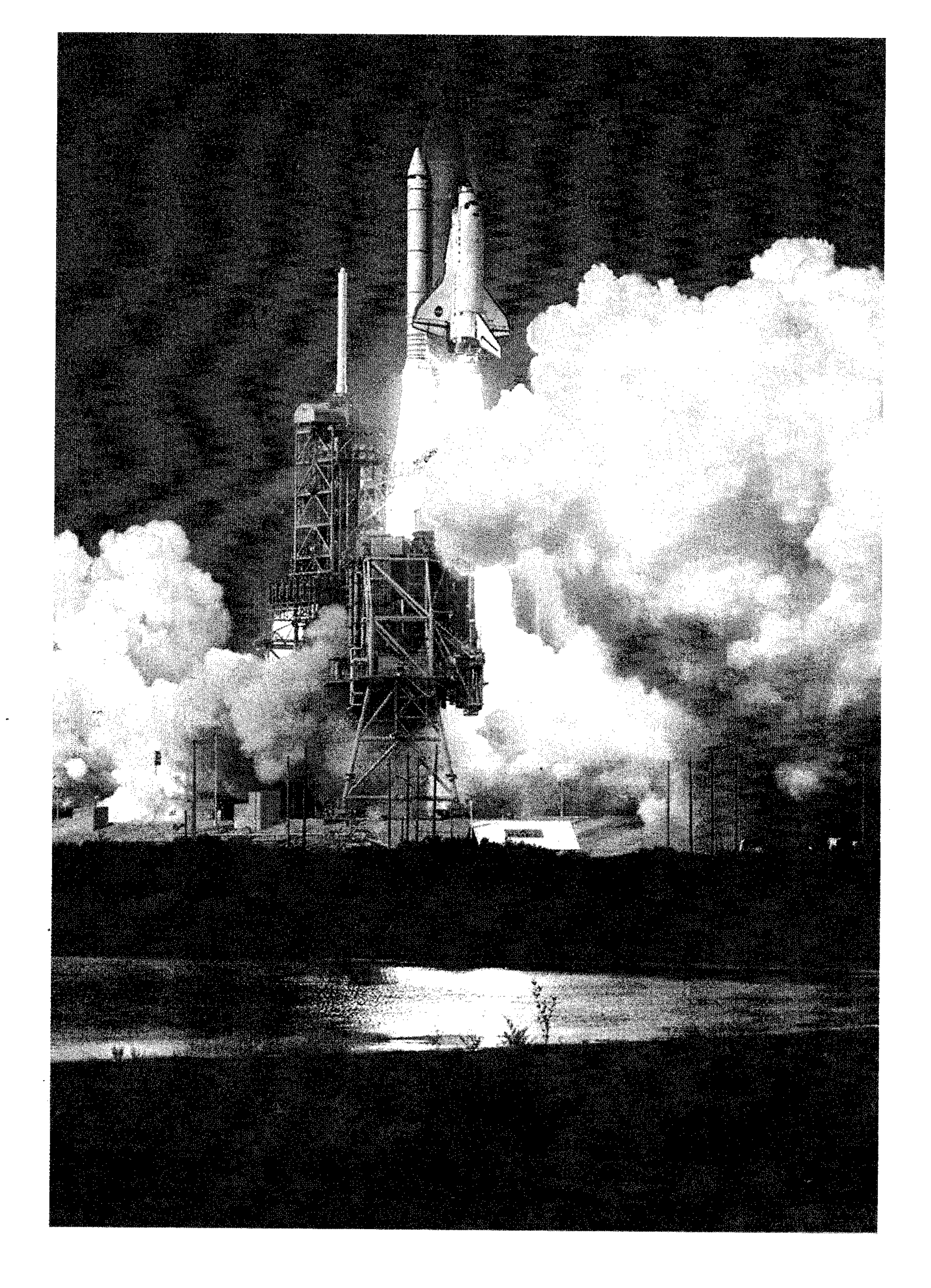
وهذا التصنيف لم يصل إليه العلماء إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء، وآلاف الساعات من البحث المضني، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليه في هذه الآية الكريمة بهذه الدقة البالغة التي تجمع الجدد البيضاء والحمراء في جهة، تعبيراً عن الصنف الأول من الصخور النارية (عائلة الجرانيت)، ثم تضيف هذه الإضافة المعجزة مختلف ألوانها لتعبر عن كل مراحل الانتقال في هذه المجموعة الحامضية وفوق الحامضية، ومنها إلى الصخور ذات التركيب الوسطي (مجموعة الصخور الدايوريتية)، وتخص المجموعة القاعدية وفوق القاعدية بهذا الوصف المبهر، وغرابيب سود (مجموعة صخور الجابرو والبريدوتايت).

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لو لم يكن هذا القرآن الكريم هو كلام الخالق ﷻ، ولو لم يكن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ موصولاً بوحي السماء فمن أين له بهذه المعلومات العلمية الدقيقة التي لم يكن لأحدٍ في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده أدنى علم بها؟

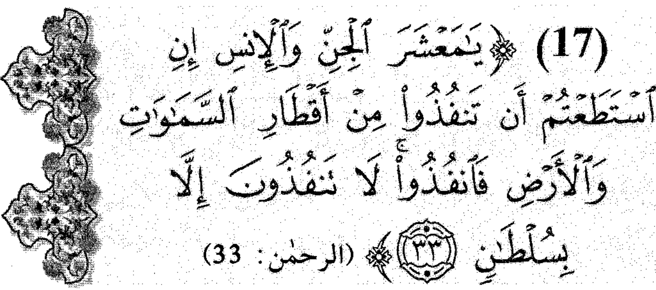
وهنا أيضاً يتضح جانب من الجوانب العديدة لحكمة الإشارة في كتاب الله الخاتم إلى عدد من حقائق الكون وظواهره، لتكون هذه الإشارات شاهدة لله الخالق بطلاقة القدرة فيما أبدع، وبطلاقتها على ما سوف يقوم به من إفناء ما قد أبدع، وإعادة خلقه من جديد، ولتكون دعوة للمسلمين خاصة، وللناس كافة، إلى دراسة كون الله، للتعرف على شيء من

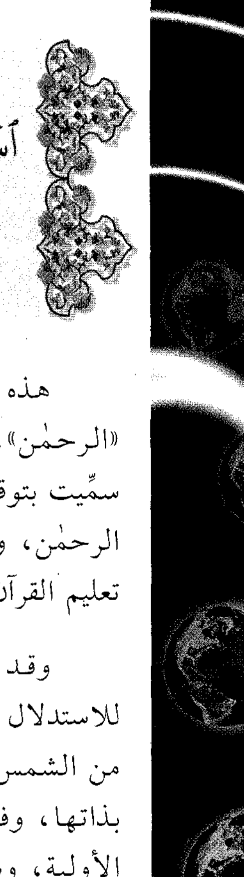
صفات هذا الخالق العظيم الجدير وحده بالطاعة والعبادة، والتقديس، والحمد، والتسبيح ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ وتكون دعوة للكفار والمشركين في هذا العصر ـ عصر العلوم والتقنيات الذي نعيشه ـ وحجة بالغة عليهم أن يسلموا بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهدوا بنبوة هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ الذي وصفه ربه ﷻ بقوله ـ عز من قائل ـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ (النجم: 3 ـ 5)

فالحمد لله أولاً وآخراً، وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على خاتم أنبياء الله ورسله، وعلى جميع آله وصحبه، ومن تبع ملته، وأحيا سنته، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



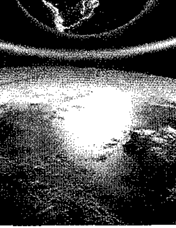
بسم الله الرحمن الرحيم





هذه الآية الكريمة جاءت قرب نهاية النصف الأول من سورة «الرحمٰن»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (78) بعد البسملة، وقد سمِّيت بتوقيف من الله (تعالى) بهذا الاسم الكريم لاستهلالها باسم الله الرحمٰن، ولِما تضمنته من لمسات رحمته، وعظيم آلائه التي من أولها تعليم القرآن، ثم خلق الإنسان وتعليمه البيان.

وقد استعرضت السورة عدداً من آيات الله الكونية المبهرة للاستدلال على عظيم آلائه، وعميم فضله على عباده ومنها: جريان كل من الشمس والقمر بحساب دقيق، كرمز لدقة حركة كل أجرام السماء بذاتها، وفي مجموعاتها، ومركباتها وبجزيئاتها، وذراتها، ولبناتها الأولية، وسجود كل مخلوق لله، حتى النجم والشجر، ورفع السماء بغير عمد مرئية، ووضع ميزان العدل بين الخلائق، ومطالبة العباد بألا يطغوا في الميزان، وأن يقيموا عدل الله في الأرض، ولا يخلُّوا بهذا الميزان، وخلق الأرض وتهيئتها لاستقبال الحياة، وفيها من النباتات وثمارها ومحاصيلها ما يشهد على ذلك، وخلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، وتكوير الأرض وإدارتها حول محورها، والتعبير عن ذلك بوصف الحق ﷻ بأنه رب المشرقين ورب المغربين، ومرج كل نوعين من أنواع ماء البحار دون اختلاط تام بينهما، وإخراج كل من اللؤلؤ والمرجان منهما، وجري السفن العملاقة في البحر، وهي تمخر عباب الماء وكأنها الجبال الشامخات، وحتمية الفناء على كل المخلوقات، مع الوجود المطلق للخالق ﷻ،



صاحب الجلال والإكرام، الحي القيوم، الأزلي بلا بدايةٍ، والأبدي بلا نهايةٍ، والإشارة إلى مركزية الأرض من الكون، وضخامة حجمها التي لا تمثل شيئاً في سعة السمٰوات وتعاظم أبعادها، وذلك بتحدي كل من الجن والإنس أن ينفذوا من أقطارهما، وتأكيد أنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً، إلا بسلطان من الله، وأن مجرد محاولة ذلك بغير هذا التفويض الإلٰهي سوف يعرض المحاول لشواظ من نار ونحاس فلا ينتصر في محاولته أبداً....!!!

ثم يأتي الحديث عن الآخرة وأهوالها، ومنها: انشقاق السماء على هيئة الوردة المدهنة، كالمهل الأحمر، ومنها: معرفة المجرمين بعلامات في وجوههم من الزرقة والسواد، وما سوف يلاقونه من صور الإذلال والمهانة، وهم يطوفون بين جهنم وبين حميم آن؛ أي: ماء في شدة الغليان؛ وعلى النقيض من ذلك تشير السورة الكريمة إلى أحوال المتقين، ومقامهم في جنات الخلد، جزاء إحسانهم في الدنيا، وتصف جانباً مما في هذه الجنات من نعيم.

وبين كل آية من آيات الله في هذه السورة المباركة، نجد آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ التي ترددت في سورة «الرحمٰن» إحدى وثلاثين مرة من مجموع آيات السورة الثماني والسبعين؛ أي: بنسبة 40% تقريباً في تقريع شديدٍ، وتبكيت واضح للمكذبين من الجن والإنس بآلاء الله وأفضاله وعلى رأسها دينه الخاتم الذي بعث به النبي والرسول الخاتم ﷺ ، الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه، بعد أن حفظه للناس كافةً في القرآن الكريم، وفي سنة الرسول الخاتم بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بذلك حتى يرث الأرض ومن عليها. وتختتم السورة الكريمة بقول الحق (سبحانه): ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾. **(الرحمٰن: 78)**

والإشارات الكونية في سورة «الرحمٰن»، يفوق عددها السبع عشرة آية صريحة، ولذلك سأقف هنا عند قول الحق ﷻ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾. **(الرحمٰن: 33 ـ 35)**.

وقبل ذلك لا بد من استعراض الدلالات اللغوية لألفاظ تلك الآيات الكريمات وأقوال عدد من المفسرين السابقين فيها.

الدلالة اللغوية

(1) **(نفذ)**: يقال في العربية: (نفذ) السهم في الرمية (نفوذاً) و(نفاذاً)، ونفذ المثقب في الخشب إذا خرق إلى الجهة الأخرى، و(نفذ) فلان في الأمر (ينفذ) (نفاذاً)، و(أنفذه) (نفاذاً)، و(نفذه) (تنفيذاً)، وفي الحديث الشريف: «**أنفذوا جيش أسامة**»؛ والأمر (النافذ) أي: المطاع، و(المنفذ) هو الممر (النافذ)، قال (تعالى): ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ بمعنى: أن تخرقوا السمٰوات والأرض من جهة أقطارها إلى الجهة الأخرى.

(2) **(أقْطار)**: قُطْرُ كل شكل وكل جسم هو: الخط الواصل من أحد أطرافه إلى الطرف المقابل مروراً بمركزه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ ..**(الأحزاب: 14)**؛ ويقال في اللغة: (قَطَرْتُه) بمعنى: ألقيته على (قطره)، و(تَقَطَّر) أي: وقع على (قطره)، ومنه (قَطَرَ) المطر أي: سقط في خطوط مستقيمة باتجاه مركز الأرض، ويسمَّى لذلك (قَطْرَاً)، وهو كذلك جمع (قطرة)؛ و(قطر) و(تقطير) الشيء تبخيره ثم تكثيفه قطرة قطرة من أجل تنقية الماء وغيره من السوائل، وتساقطه (قطرة) (قطرة) وجمعه: (قُطُرٌ) بضمتين، و(قُطُراتٌ) بضمتين أيضاً، و(قطره) غيره يتعدى ويلزم، و(تقاطر) القوم جاءوا أرسالاً (كالقطر)، ومنه (قطار الإبل)؛ و(القُطر) بالضم الناحية والجانب وجمعه (أقطار)؛ و(قطران) الماء (تقاطره) قطرة قطرة و(القطران) ما يتقطر من الهناء (القار)؛ و(قطر) البعير طلاه (بالقطران) فهو (مقطور) أو (مقطرن).

قال ـ تعالى ـ: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ ...**(إبراهيم: 50)** أي: من القار، وقرئ (من قطر آن) أي: من نحاس منصهر قد أُنِي. أي: عظم؛ حره أي: زادت درجة حرارته؛ لأن (القطر) هو النحاس.

وقال ربنا ﷻ: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ **(الكهف: 96)**؛ أي: نحاساً منصهراً، هكذا قال كل من أهل اللغة والمفسرين.

(3) **شواظ**: (الشواظ) في العربية (بضم الشين وكسرها): اللهب الذي لادخان له.

(4) **نحاس**: الأصل في اللغة العربية أن النحاس هو اللهب بلا دخان، والنحاس ـ أيضاً ـ عنصر فلزي لونه يميل إلى الحمرة (بين القرمزي والبرتقالي) قابل للطرق والسحب،

موصل جيد لكل من الكهرباء والحرارة، ومقاوم للتآكل، وقد سمي بهذا الاسم لتشابه لونه مع لون النار بلا دخان. قال (تعالى): ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾. **(الرحمٰن: 35)**.

و(النحس) ضد السعد، وقرئ في قوله تعالى: ...﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ **(القمر19)** على الصفة، والإضافة أكثر وأجود ...﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ ويقال: (نحس) الشي فهو (نحس) وفيه جاء قول ربنا ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ **(فصلت: 16)**.

وقرئ (نحسات) بالفتح أي: مشؤومات، أو شديدات البرد، وأصل النحس: أن يحمر الأفق فيصير كالنحاس أو كاللهب بِلا دخان، فصار ذلك مثلاً للشؤم.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ **(الرحمٰن: 33 ـ 35)**.

● ذكر ابن كثير ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ ما مختصره: «أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم ....﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: إلا بأمر الله؛.... ولهذا قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ قال ابن عباس: «الشواظ هو لهب النار»، وعنه: «الشواظ الدخان» وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال الضحاك: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ سيل من نار، وقوله تعالى: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قال ابن عباس: «دخان النار» وقال ابن جرير: و«العرب تسمي الدخان نحاساً»، روى الطبراني عن الضحاك أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال: «هو اللهب الذي لا دخان معه... قال: صدقت، فما النحاس؟ قال: هو الدخان الذي لا لهب له وقال مجاهد: النحاس الصفر...».

● وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيها ـ ما نصه: «﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾: تخرجوا، ﴿مِنْ أَقْطَارِ﴾: نواحي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هاربين من الحشر والحساب والجزاء، ﴿فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أمر تعجيز أي: فلن تستطيعوا ذلك ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ بقوة، ولا قوة لكم على ذلك ...﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا

﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ هو لهبها الخالص من الدخان أو: معه ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان لا لهب فيه أو هو النحاس المذاب...».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم من جهاد في سبيل نصرة الإسلام ـ ما نصه: «﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾... وكيف؟ وأين؟ ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان... ومرة أخرى يواجههما بالسؤال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾؟ هل بقي في كيانهما شيء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان؟ ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها، والتهديد الرعيب يلاحقهما، والمصير المردي يتمثل لهما: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾...».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبها ـ ما نصه: «.....﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: لا تقدرون على الخروج من أمري وقضائي إلا بقوة قهر وأنتم بمعزل عن ذلك، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ يصب عليكما ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ لهب خالص من الدخان ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أصفر مذاب، وقيل النحاس: الدخان الذي لا لهب فيه؛. أي: أنه يرسل عليهما هذا مرةً وهذا مرةً».

• وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه: «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السمٰوات والأرض هاربين فاخرجوا، لا تستطيعون الخروج إلا بقوة وقهر، ولن يكون لكم ذلك، فبأي نعمةٍ من نِعم ربكما تجحدان؟! يصب عليكما لهب من نارٍ ونحاسٍ مذاب، فلا تقدران على رفع هذا العذاب».

وجاء في تعليق هامشي ما يلي: «ثبت حتى الآن ضخامة المجهودات والطاقات المطلوبة للنفاذ من نطاق جاذبية الأرض، وحيث اقتضى النجاح الجزئي في ريادة الفضاء ـ لمدة محددة جداً بالنسبة لعظم الكون ـ بذل الكثير من الجهود العلمية الضخمة في شتى الميادين... فضلاً عن التكاليف المادية الخيالية التي أنفقت في ذلك ومازالت تنفق، ويدل ذلك دلالة قاطعة على أن النفاذ المطلق من أقطار السمٰوات والأرض التي تبلغ ملايين السنين الضوئية لإنس أو جن مستحيل. والنحاس هو: فلز يعتبر من أول العناصر الفلزية التي عرفها الإنسان؛.. ويتميز بأن درجة انصهاره مرتفعةً جداً (نحو 1083 درجة مئوية)، فإذا ما صُب هذا السائل الملتهب على جسد، مثل ذلك صنفاً من أقسى أنواع العذاب ألماً وأشدها أثراً».

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم

يقول الحق ﷻ:

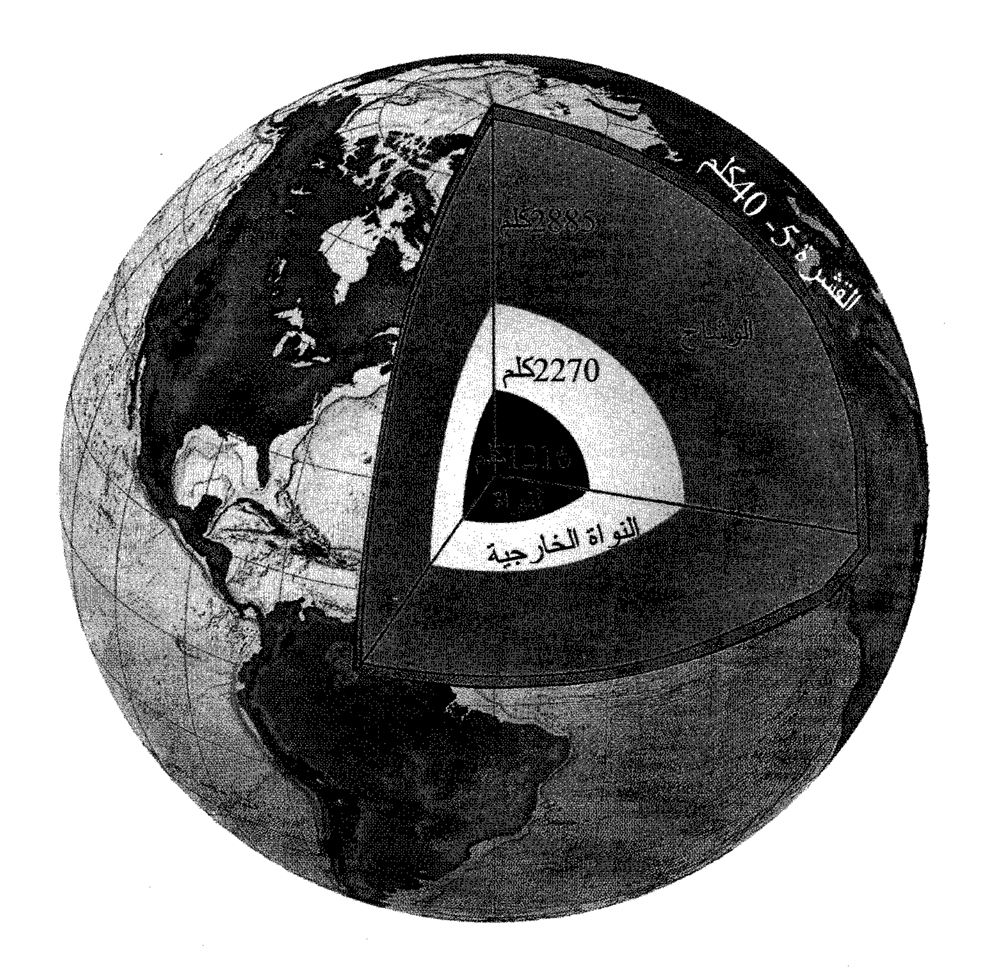
﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ (الرحمٰن: 33 ـ 35).

هذه الآيات الثلاث يتحدى القرآن الكريم فيها كلاً من الجن والإنس تحدياً صريحاً بعجزهم عن النفاذ من أقطار السمٰوات والأرض، وهو تحد يظهر ضآلة قدراتهما مجتمعين أمام طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الكون؛ لضخامة أبعاد السمٰوات والأرض، ولقصر عمر المخلوقات، وحتمية فنائها، والآيات بالإضافة إلى ذلك تحوي عدداً من الحقائق الكونية المبهرة التي لم يستطع الإنسان إدراكها إلا في العقود القليلة المتأخرة من القرن العشرين، والتي يمكن إيجازها في النقاط التالية.

أولاً: بالنسبة للنفاذ من أقطار الأرض:

إذا كان المقصود من هذه الآيات الكريمة إشعار كل من الجن والإنس بعجزهما عن النفاذ من أقطار كل من الأرض على حدة، والسمٰوات على حدة، فإن المعارف الحديثة تؤكد ذلك؛ لأن أقطار الأرض تتراوح بين و(12756) كيلومتراً بالنسبة إلى متوسط قطرها الاستوائي، (12713) كيلومتراً بالنسبة إلى متوسط قطرها القطبي؛ وذلك لأن الأرض ليست تامة الاستدارة لانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحها قليلاً عند القطبين.

ويستحيل على الإنسان اختراق الأرض من أقطارها لارتفاع كل من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز، مما لا تطيقه القدرة البشرية، ولا التقنيات المتقدمة التي حققها إنسان هذا العصر، فعلى الرغم من التطور المذهل في تقنيات حفر الآبار العميقة التي طورها الإنسان بحثاً عن النفط والغاز الطبيعي، فإن هذه الأجهزة العملاقة لم تستطع حتى اليوم تجاوز عمق 13 كيلومتراً من الغلاف الصخري للأرض، وهذا يمثل 0.10% تقريباً من طول نصف قطر الأرض الاستوائي، أو القطبي، وعند هذا العمق تعجز أدوات الحفر عن الاستمرار في عملها؛ لتزايد الضغط وللارتفاع الكبير في درجات الحرارة، إلى درجة قد تؤدي إلى صهر تلك الأدوات، فمن الثابت علمياً أن درجة الحرارة تزداد باستمرار من سطح الأرض في اتجاه مركزها حتى تصل إلى ما يقرب من درجة حرارة سطح الشمس المقدرة بستة آلاف درجة مطلقة حسب بعض التقديرات، ومن هنا كان عجز الإنسان عن الوصول إلى



رسم تخطيطي للكرة الأرضية يوضح نطق الأرض الداخلية

تلك المناطق الفائقة الحرارة والضغط، وفي ذلك يقول الحق ﷻ مخاطباً الإنسان: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ **(الإسراء: 37)**.

ولو أن الجن عالم غيبي بالنسبة لنا، إلا أن ما ينطبق على الإنس من عجز تام عن النفاذ من أقطار السمٰوات والأرض ينطبق عليهم أيضاً. والآيات الكريمة قد جاءت في مقام التشبيه بأن كلًّا من الجن والإنس لا يستطيع الهروب من قدر الله أو الفرار من قضائه، بالهروب إلى خارج الكون عبر أقطار السمٰوات والأرض حيث لا يدري أحد ماذا بعد ذلك، إلا أن العلوم المكتسبة قد أثبتت بالفعل عجز الإنسان عجزاً كاملاً عن إمكانية تحقيق جزء من ذلك، والقرآن الكريم يؤكد لنا اعتراف الجن بعجزهم الكامل عن ذلك أيضاً، كما جاء في قول الحق ﷻ على لسان الجن:

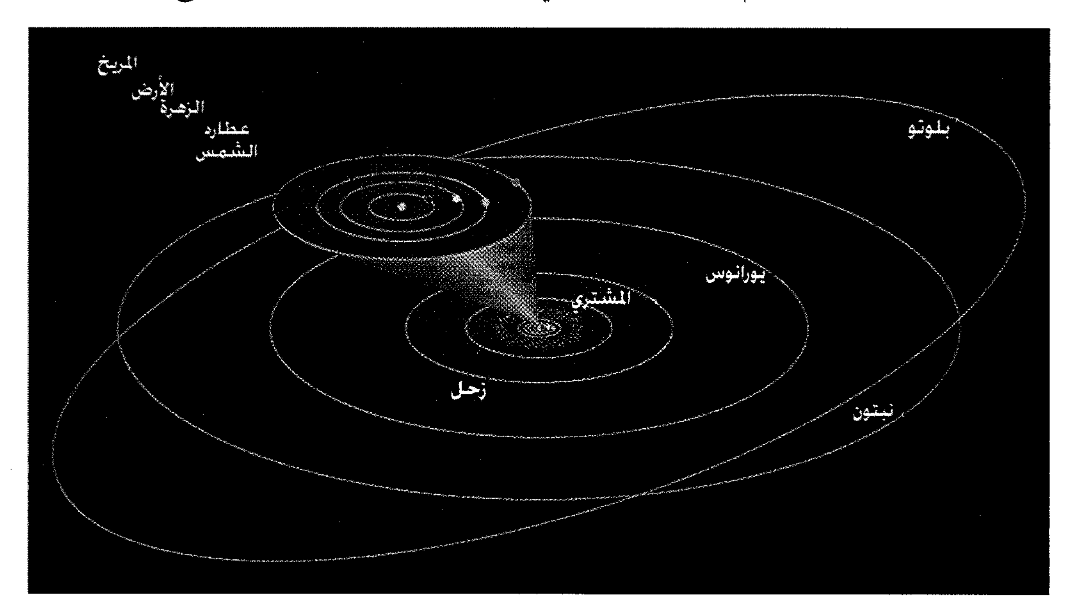
﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ **(الجن: 12)**

وذلك بعد أن قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ **(الجن: 8)**

ثانياً: بالنسبة للنفاذ من أقطار السمٰوات:

تبلغ أبعاد الجزء المدرك من السماء الدنيا من الضخامة ما لا يمكن أن تطويه قدرات المخلوقين من الإنس والجن، وهذا الأمر يشعر كلاً منهما بضآلته أمام أبعاد الكون، وبعجزه التام عن مجرد التفكير في الهروب منه،... أو النفاذ إلى المجهول من بعده...!

فمجرتنا (سكة التبَّانة) يقدر قطرها الأكبر بمائة ألف سنة ضوئية على أقل تقدير (100.000 × 9.5 مليون مليون كيلومتر تقريباً)، ويقدر قطرها الأصغر بعشرة آلاف سنة ضوئية على أقل تقدير كذلك (10.000 × 9.5 مليون مليون كيلومتر تقريباً)؛ ومعنى ذلك أن الإنسان لكي يتمكن من الخروج من مجرتنا، عبر قطرها الأصغر يحتاج إلى وسيلة تحركه بسرعة الضوء ليستخدمها؛ في حركة مستمرة لمدة تصل إلى عشرة آلاف سنة من سنيننا، وبطاقة انفلات خيالية لتخرجه من نطاق جاذبية الأجرام التي يمر بها من مكونات تلك المجرة، وهذه كلها من المستحيلات بالنسبة للإنسان الذي لا يتجاوز عمره في المتوسط خمسين سنة، ولم تتجاوز حركته في السماء ثانية ضوئية واحدة وربع الثانية فقط،



رسم للمجموعة الشمسية يبين مدار كل كوكب في دورته حول الشمس

وهي المسافة بين الأرض والقمر، على الرغم من التقدم التقني المذهل الذي حققه في صناعة أجهزة ريادة السماء، وعلى الرغم من أن حركة أي جسم مادي بسرعة الضوء تحوله إلى طاقة يستحيل استرجاعه منها بشكله الأول.

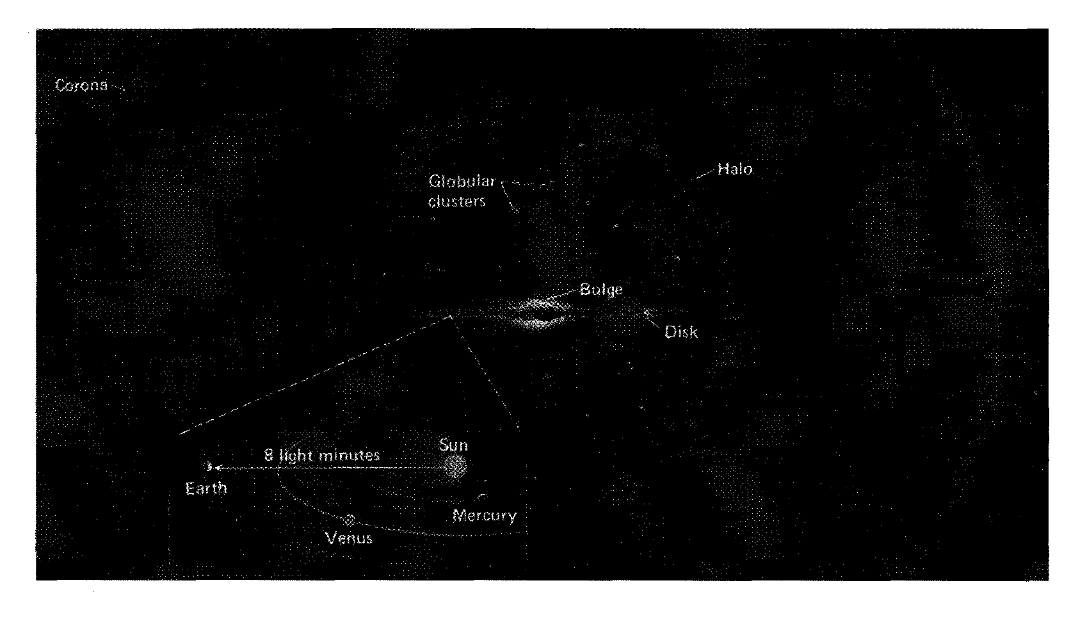
ومجموعتنا الشمسية تقع من مجرتنا على بعد حوالي ثلاثين ألفاً من السنين الضوئية من مركزها، وعشرين ألفاً من السنين الضوئية من أقرب أطرافها، فإذا حاول الإنسان الخروج من أقرب الأقطار إلى الأرض فإنه يحتاج إلى عشرين ألف سنة وهو يتحرك بسرعة الضوء لكي يخرج من أقطار مجرتنا، وهل يطيق الإنسان ذلك؟ أو هل يمكن أن يحيا إنسان لمثل تلك المدد المتطاولة؟ وهل يستطيع الإنسان أن يتحرك بسرعة الضوء؟ كل هذه حواجز تحول دون إمكان ذلك بالنسبة للإنسان، وما ينطبق عليه ينطبق على عالم الجان الغيبي بالنسبة لنا بالقياس على أنه من خلق الله الذي وصفه بالعجز عن ذلك.

ومجرتنا جزء من مجموعة من المجرات تعرف باسم: **المجموعة المحلية** يقدر قطرها بنحو ثلاثة ملايين وربع المليون من السنين الضوئية (3,261,500 سنة ضوئية)، وهذه بدورها تشكل جزءاً من **حشد مجري** يقدر قطره بأكثر من ستة ملايين ونصف المليون من السنين الضوئية (3,523,000) سنة ضوئية، وهذا الحشد المجري يكون جزءاً من **الحشد المجري الأعظم** ويقدر قطره الأكبر بمائة مليون من السنين الضوئية وسمكه بعشرة ملايين من السنين الضوئية.

وتبدو **الحشود المجرية العظمى** على هيئة كروية تدرس في شرائح مقطعية تقدر أبعادها في حدود 150 × 100 × 15 سنة ضوئية، والفلكيون يسمون أكبر تلك الشرائح مجازاً باسم: **الحائط العظيم**، وهذا الحائط يزيد طوله على مائتين وخمسين مليوناً من السنين الضوئية. وقد تم أخيراً اكتشاف نحو مائة من الحشود المجرية العظمى تكون تجمعاً أعظم على هيئة قرص يبلغ قطره الأكبر بليونين من السنين الضوئية.

والجزء المدرك من الكون يمثل جزءاً من السماء الدنيا التي زينها ربنا ﷻ بالنجوم فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ **(الملك: 5)**.

هذا الجزء المدرك من السماء الدنيا يزيد قطره على العشرين بليون سنة ضوئية؛ وهي حقائق تجعل الإنسان بكل إنجازاته العلمية يتضاءل تضاؤلاً شديداً أمام أبعاد الكون المذهلة، وكذلك الجان، وإمكانات كل منهما أقل من مجرد التفكير في إمكانية الهروب من ملك الله الذي لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه...!!!



رسم تخطيطي لقرص مجرتنا يوضح موقع مجموعتنا الشمسية منها

ثالثاً: بالنسبة للنفاذ من أقطار السمٰوات والأرض معاً:

تشير الآيات الكريمة إلى أن التحدي الذي تجابه به الجن والإنس معاً هو النفاذ من أقطار السمٰوات والأرض معاً إن استطاعوا، وثبت عجزهما عن النفاذ من أقطار أيٍّ منهما، وعجزهما أشد إذا كانت المطالبة بالنفاذ من أقطارهما معاً، وإذا كان هذا هو مقصود الآيات الكريمة، فإنه يمكن أن يشير إلى معنىً في غاية الأهمية، ألا وهو توسط الأرض للكون؛ وهو معنى لا تستطيع علوم الفلك إثباته لعجز الإنسان عن الإحاطة بأبعاد الكون، ولكن يدعم هذا الاستنتاج ما رواه كل من قتادة والسدي أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم**»[1].

ويدعمه كذلك قول المصطفى ﷺ: «**يا أهل مكة إنكم بحذاء وسط السماء**»[2].

وتوسط الأرض للكون معنى حارت فيه عقول العلماء والمفكرين عبر التاريخ.

(1) رواه الفاكهي في أخبار مكة (الحديث: 1615).

(2) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (الحديث: 9/ 216).

وعجزت العلوم المكتسبة والتقنيات الفائقة عن إثباته، ولكن ما جاء في هذه الآيات القرآنية الكريمة، وفي عدد من الأحاديث النبوية الشريفة يشير إليه، ويجعل المنطق السوي يقبله.

رابعاً: بالنسبة إلى إرسال شواظ من نار ونحاس على كل من يحاول النفاذ من أقطار السمٰوات والأرض بغير سلطان من الله تعالى:

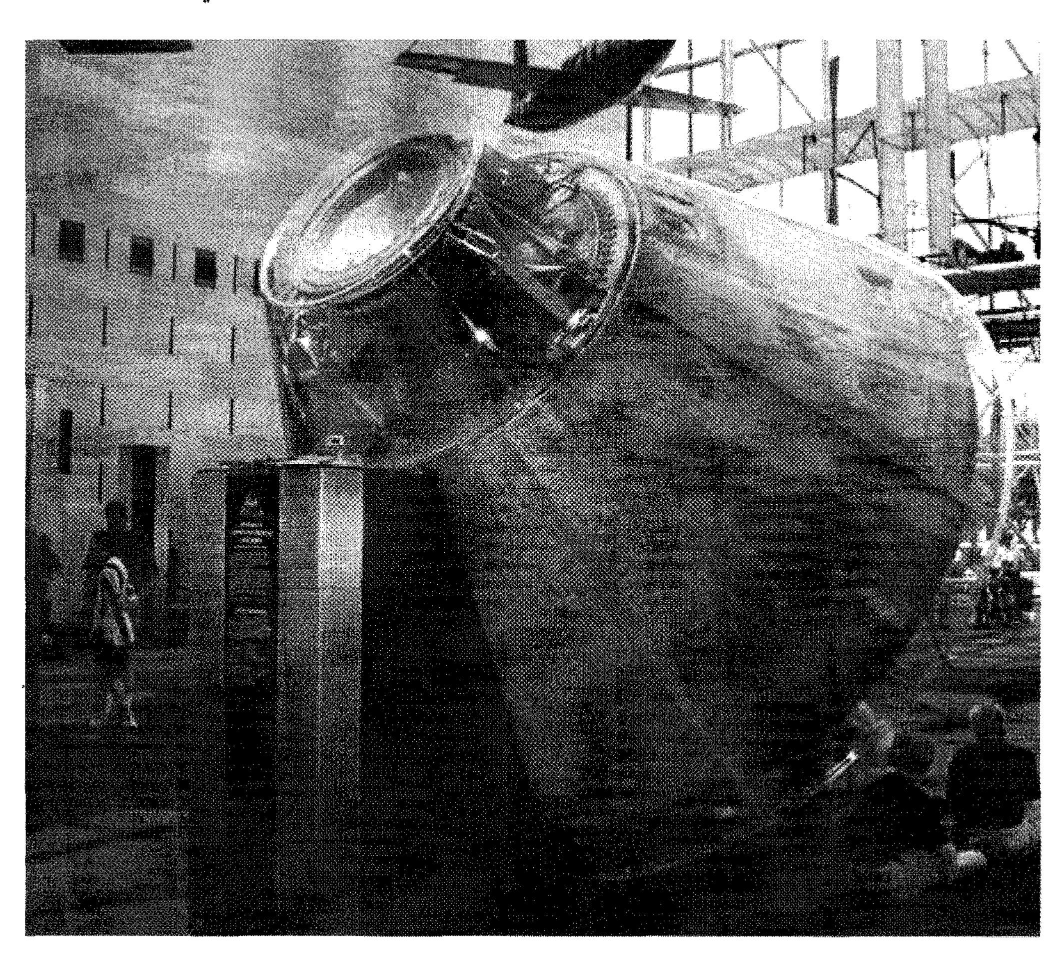
في الآية رقم (35) من سورة «الرحمٰن» يخاطب ربنا ـ ﷻ ـ كلًّا من الجن والإنس بقوله عز من قائل: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾.

وقد أجمع قدامى المفسرين ومحدثوهم على أن لفظة **شواظ** هنا تعني: اللهب الذي لا دخان له. وكلمة **نحاس** تعني: الدخان الذي لا لهب فيه؛ أو تعني: فلز النحاس الذي نعرفه جميعاً، وهو فلز معروف بدرجة انصهاره العالية (1083°م)، ودرجة غليانه الأعلى (2567°م).

ومن الثابت علمياً أن العناصر المعروفة لنا تتخلق في داخل النجوم بعملية الاندماج النووي لنوى ذرات الهيدروجين فينتج عن ذلك نوى ذرات العناصر الأثقل بالتدريج حتى يتحول لب النجم إلى حديد. والتفاعل النووي قبل تكوُّن ذرات الحديد هو تفاعل منتج للحرارة التي تصل إلى بلايين الدرجات المئوية، ولكن عملية الاندماج النووي المنتجة للحديد عملية مستهلكة للحرارة، وبالتالي لطاقة النجم حتى تضطره إلى الانفجار مما يؤدي إلى تناثر العناصر التي تكونت بداخله ـ بما فيها الحديد ـ في صفحة السماء لتدخل هذه العناصر في مجال جاذبية أجرام تحتاج إليها بتقدير من الله تعالى. أما العناصر ذات النوى الأثقل من ذرة الحديد فتتخلق بإضافة اللبنات الأولية للمادة إلى نوى ذرات الحديد السابحة في صفحة السماء، حتى تتكون بقية العناصر المعروفة لنا، والتي يزيد عددها على المائة عنصر وهذه أيضاً تنزل إلى جميع أجرام السماء بقدر معلوم. ولما كان عنصر النحاس أعلى من الحديد في كل من وزنه وعدده الذري (الوزن الذري لنظائر الحديد 54، 56، 57 والوزن الذري للنحاس 63.546 والعدد الذري للحديد26 بينما العدد الذري للنحاس 29)؛ وبناء على ذلك فإن عنصر النحاس يتخلق في صفحة السماء الدنيا باندماج نوى ذرات الحديد مع بعض اللبنات الأولية للمادة، وهذا يجعل صفحة السماء الدنيا زاخرة بذرات العناصر الثقيلة ومنها: النحاس.

هذه الملاحظة تشير إلى أن لفظة **(نحاس)** في الآية الكريمة تعني: فلز النحاس؛ لأن التأويل هنا لا داعي له على الإطلاق، فالنحاس وهو منصهر في صفحة السماء، يعد عقاباً رادعاً لكل محاولةٍ لاختراق أقطار السمٰوات والأرض إلا بإذن الله ـ تعالى ـ.

وقد اتصل بي أخٌ كريمٌ هو الدكتور عبد الله الشهابي، وأخبرني بأنه زار معرض الفضاء والطيران في مدينة (واشنطن دي. سي.) الذي يعرض نماذج الطائرات من بداياتها الأولى إلى أحدثها، كما يعرض نماذج لمركبات الفضاء، وفي المعرض شاهد قطاعاً عرضياً في كبسولة «أبولو» وأذهله أن يرى على سطحها خطوطاً طوليةً عديدةً غائرةً في جسم الكبسولة ومليئة بكربونات النحاس **(جنزار النحاس)**، وقد لفتت هذه الملاحظة نظره فذهب إلى المسؤول العلمي عن تلك الصالة وسأله: هل السبيكة التي صنعت منها الكبسولة يدخل فيها عنصر النحاس؟ فنفى ذلك نفياً قاطعاً، فأشار إلى جنزار النحاس على جسم الكبسولة وسأله: من أين جاء هذا؟ فقال له: من نوى ذرات النحاس المنتشرة في صفحة السماء

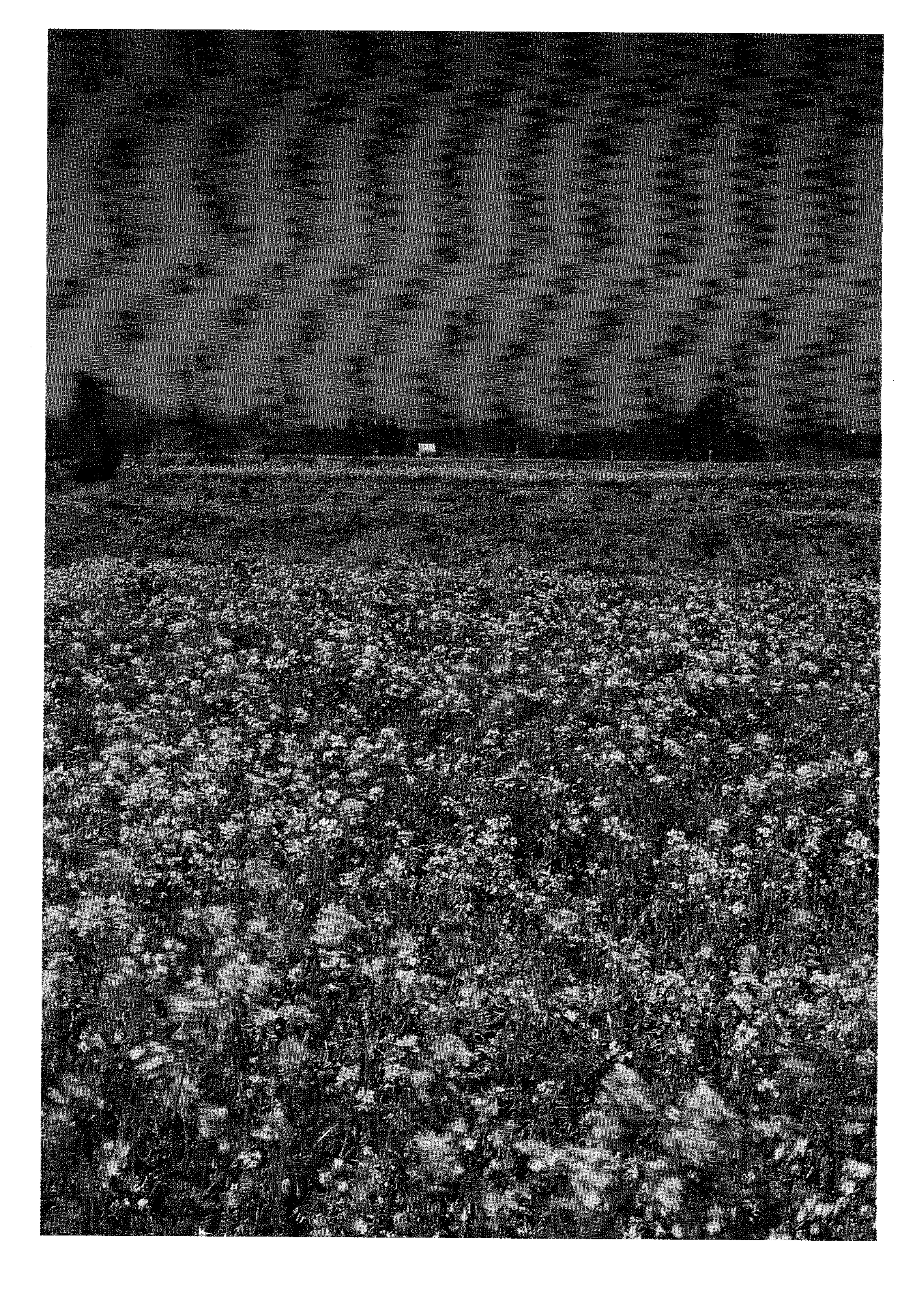


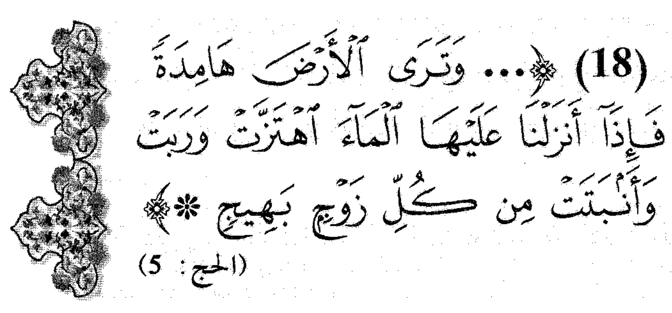
صورة للكبسولة الفضائية «أبولو 11» ويظهر على سطحها خطوط طولية لجنزار النحاس ـ معرض الفضاء والطيران ـ واشنطن دي.سي

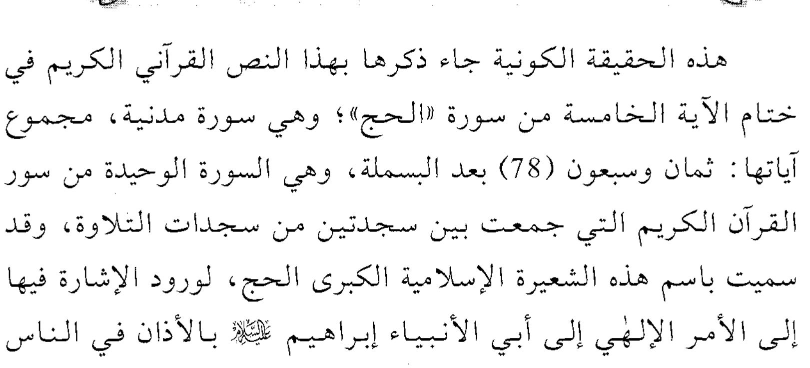
التي تضرب جسم الكبسولة طوال حركتها صعوداً إلى السماء وهبوطاً منها، وفي طريقها إلى الأرض تمر الكبسولة بطبقات بها كميات عالية نسبياً من كل من الرطوبة وثاني أكسيد الكربون، فتتحول الذرات النحاسية التي لصقت بجسم الكبسولة بالتدريج إلى جنزار النحاس. ويقول الدكتور الشهابي إنه على الفور تراءت أمام أنظاره الآية القرآنية الكريمة التي يقول فيها ربنا ﷻ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ فسجد لله شكراً على هذا السبق القرآني المذهل.

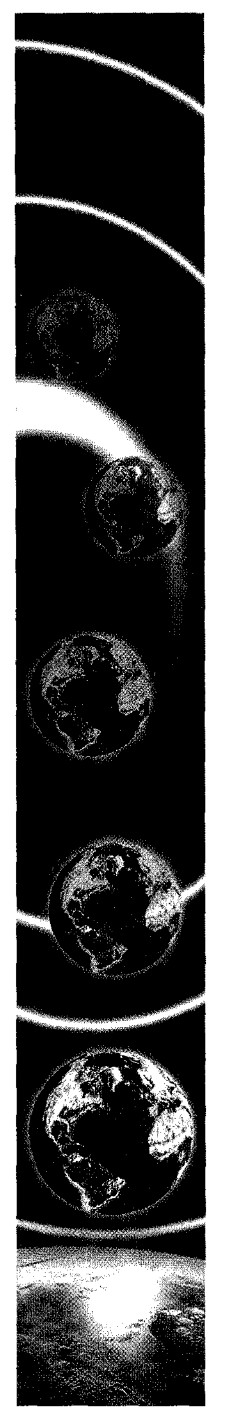
هذه الملاحظة أكدت لي ما ناديت به طويلاً بأن لفظة (**نحاس**) في الآية تعني: فلز النحاس ولا تحتاج إلى أدنى تأويل. فسبحان الذي أنزل هذه الآيات الكريمة من قبل 1400 من السنين وحفظها لنا في كتابه الكريم على مدى 14 قرناً أو يزيد، لتظهر في زماننا زمان رحلات الفضاء برهاناً مادياً ملموساً على أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، ويبقى ذلك برهاناً مادياً كذلك على أن النبي الخاتم الذي تلقى القرآن العظيم ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

صورة للمركبة الفضائية «ديسكفري» لحظة انطلاقها









هذه الحقيقة الكونية جاء ذكرها بهذا النص القرآني الكريم في ختام الآية الخامسة من سورة «الحج»؛ وهي سورة مدنية، مجموع آياتها: ثمان وسبعون (78) بعد البسملة، وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة، وقد سميت باسم هذه الشعيرة الإسلامية الكبرى الحج، لورود الإشارة فيها إلى الأمر الإلهي إلى أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ بالأذان في الناس بالحج.

ويدور محور السورة حول العديد من التشريعات الإسلامية بأحكام الحج، والطعام، والإذن بالقتال والجهاد في سبيل الله دفاعاً عن النفس، وعن الدين، وشعائره، ومقدساته، وعن أعراض وأموال وممتلكات وأراضي المسلمين، ودفعاً لظلم الظالمين، ولبغي الباغين المتجبرين في الأرض بغير الحق...!!!

ويصحب هذه التكاليف الوعد القاطع من الله ـ تعالى ـ بنصر المجاهدين في سبيله؛ وبالتمكين للمؤمنين به؛ الذين ينهضون في غير تردد لرد كل عدوان باغٍ على المسلمين أو حتى على غيرهم من البشر المسالمين، ومع تأكيد قوة الله البالغة، وضعف الشركاء المزعومين، والإشارة إلى مصارع الغابرين من الكفار والمشركين والظالمين، وإلى سنن الله في ذلك، وهي سنن لا تتوقف ولا تتبدل ولا تتخلف أبداً.

ومن الأمور المسلَّم بها أن التشريع لم يؤمر به إلا بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ومن هنا كان الاستنتاج الصحيح بأن السورة مدنية النزول، وعلى الرغم من ذلك فإن «سورة الحج» قد ابتدأت بالتحذير الإلٰهي للناس كافة من هول الساعة، وبالتأكيد على حقيقة البعث، وبالتركيز على توحيد الله، وإنكار الشرك، وبذكر الدمار الذي لحق بالمكذبين من الأمم السابقة، وتفيض السورة بوصف مشاهد الآخرة، وأهوال البعث والحساب، وجزاء المؤمنين وعقاب الكافرين وهي من قضايا القرآن المكي، وإن كان لا ينفرد بها وحده.

وتكثر السورة من الأدلة الكونية المثبتة لطلاقة القدرة الإلٰهية في الخلق، وفي الإفناء والبعث، وفي الحساب والجزاء.

وقد استهلت السورة الكريمة بالأمر بتقوى الله، وبالتحذير الشديد من أهوال ما سمَّته زلزلة الساعة، وفيها يدمر كل شيء في الكون في آخر عمر الدنيا، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ **(الحج: 1، 2)**.

وتنتقل السورة بسرعة إلى الحديث عمن يضلهم الشيطان فيجادلون في الله ـ تعالى ـ بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، أي: بالجهل والباطل، وهؤلاء لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب شديد؛ لأن مهمة الشيطان في الدنيا هي محاولة إضلال الناس حتى يقود من يطيعه منهم إلى الجحيم...!!!

وتضرب سورة «الحج» برهاناً على حتمية البعث من حقيقة خلق الإنسان من تراب، مروراً بمراحل الجنين المتعاقبة، حتى يخرج إلى الحياة طفلاً نامياً، ثم يبلغ أشده فيحيا في هذه الدنيا كما أراد له الله، وليس له من بعد هذه الحياة إلا الموت، طال أجله أم قصر..!!

وشبهت السورة خلق الإنسان بخلق النبات، وذلك بإنزال الماء على الأرض الهامدة فتهتز وتربو إلى أعلى، حتى تنشق لتفسح طريقاً سهلاً للنبتة الطيبة المنبثقة ـ بقدرة الله ـ من داخل البذرة النابتة في زوجية بهيجة، وسوف يتم إحياء الموتى بنفس الطريقة التي يحيي بها الله ـ تعالى ـ الأرض الهامدة.

وتشير السورة الكريمة إلى ظاهرة من ظواهر النفس الإنسانية، مؤداها أن من الناس من يعبد الله ـ تعالى ـ طمعاً في عظيم عطائه فقط، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، وهو الخسران المبين. وحذرت السورة من

رجس الوثنية، ومن قول الزور، ومن الشرك بالله، وعرضت لشيء من أوضاع المشركين الذين يعبدون من دون الله - تعالى - شركاء لم ينزل بهم سلطاناً - والله منزه عن الشريك والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، وعن كل أوصاف خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله - وتنكر «سورة الحج» هذه الشراكة المفتراة، وتؤكد عجز هؤلاء الشركاء عن نفع أو ضر من أشركوا بهم فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾

(الحج: 73).

كما تعرض سورة «الحج» لشيء من ثواب المؤمنين، ولعذاب الكافرين، وللفصل بين أصحاب الملل والنحل المختلفة، وتؤكد أن جميع ما في هذا الوجود يسجد لله - تعالى - في عبوديةٍ كاملةٍ، وأن هذا الخضوع بالعبودية لله الخالق هو قمة التكريم للمخلوقات، ومن يعرض عن ذلك الخضوع لله من أصحاب الإرادة الحرة فليس له من مكرم، وأشارت سورة «الحج» إلى أن من ألوان الكفر بالله الصد عن سبيله، وعن المسجد الحرام، والإلحاد والظلم فيه، وأشارت إلى هداية إبراهيم عليه السلام إلى مكان البيت الحرام، وأمره برفع قواعده، وإعادة بنائه هو وولده اسماعيل عليه السلام، وتطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود، وشرعت لفريضة الحج وما فيها من تعظيم لشعائر الله، مما يؤكد أن هذا النسك الإسلامي قد شرع للأمم من قبل بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ حتى يشكروا الله - تعالى - على فضله.

وتكرر سورة «الحج» تأكيد وحدانية الله، وطلاقة قدرته، والأمر بالخضوع الكامل لجلاله بالإسلام له، وتبشر الذين تخشع قلوبهم بذكره والصابرين على قضائه والذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله بخيري الدنيا والآخرة، وتؤكد دفاع الله - تعالى - عن المؤمنين به، وأنه - تعالى - لا يحب كلَّ خوَّان كفور.

ويتكرر الإذن بالقتال الدفاعي للذين ظلموا من الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا: ربنا الله، كإخواننا أهل فلسطين المظلومين في زماننا الذين أخرجهم من ديارهم عصابات من حثالات الأمم ونفايات الشعوب من المستعمرين الغربيين الصهاينة الذين أخرجوهم بسلسلة من المؤامرات الدولية من أرضهم وممتلكاتهم ومساكنهم، وتؤكد السورة الكريمة أن الله - تعالى - على نصرهم لقدير، وتشجع على مناصرتهم بالتأكيد على أن الله - سبحانه - ناصر من ينصره. وتتحدث السورة الكريمة في أكثر من موضع منها عن جزاء المهاجرين في سبيل الله، والشهداء في ميادين الجهاد من أجل إعلاء دينه وإقامة عدله في الأرض، وتكرر تعهد الله - تعالى - بنصرة المظلومين، وتقارن بين جزاء المؤمنين بآيات

الله، وعقاب المكذبين بها والساعين في محاولة يائسة لإطفاء نور الله في الأرض بإلقائهم في جهنم وبئس المصير، وتصف المؤمنين بالله بأنهم إن مكنوا في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وأن لله عاقبة الأمور.

وتخاطب السورة الكريمة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مواسية إياه: بأن تكذيب الكافرين لنبوته ولرسالته ليس أمراً جديداً في طبائع البشر، فقد كذبت الأمم الكافرة من قبل كل أنبياء الله ورسله: قوم كل من أنبياء الله: نوح، وعاد، وثمود، إبراهيم، لوط، وشعيب (أصحاب مدين)، موسى وغيرهم، وكان عقاب المكذبين الدمار الذي تشهد به آثارهم من القصور المهجورة والآبار المعطلة. وتتساءل السورة الكريمة: أفلم يتحرك الناس في الأرض فيدركوا هذه الحقائق حتى تكون عبرة لهم؟ وتؤكد أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور...!!

ويتعجب سياق السورة الكريمة من استعجال الكافرين لعذاب الله، ومؤكداً أن الله ـ تعالى ـ لن يخلف وعده، وإن استبعد الكافرون ذلك لطول آماد الله فاليوم عنده ـ سبحانه ـ بألف سنة مما يعد أهل الأرض. وتأمر السورة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يبلِّغ الناس كافة بأنه نذير من الله مبين.

وتختتم سورة «الحج» بتقرير أن الله ـ تعالى ـ يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وتأمر بعبادة الله ـ تعالى ـ ركوعاً وسجوداً وذكراً بما أمر، كما تأمر بفعل الخيرات، وبالجهاد في سبيل الله حق الجهاد؛ حتى يفلح العباد. وتؤكد أنه ما في دين الإسلام من حرج، وأنه رسالة السماء إلى الأرض التي أنزلها الله ﷻ على فترة من الرسل وأكملها وأتمها، وحفظها في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم المرسلين ﷺ والتي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ **(الحج: 78)**.

ولكي نكون جديرين بهذه الشهادة على الناس تختتم السورة الكريمة بأمرنا بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وبالاعتصام بالله ـ تعالى ـ هو مولانا ومولى كل موجود، وهو ـ سبحانه ـ نعم المولى ونعم النصير.

من الإشارات الكونية في سورة الحج

من الأدلة الكونية التي ساقتها سورة الحج تصديقاً لما جاء بها من أمور الغيب وأوامر الله ـ تعالى ـ ما يلي:

(1) خلق الإنسان من تراب، ودقة وصف مراحل الجنين المتتالية التي يمر بها حتى يخرج للحياة طفلاً، يحيا ما شاء له الله ـ تعالى ـ أن يحيا، ثم يتوفاه الله عند نهاية أجله المحدد، والكشوف العلمية تؤكد صدق كل ما جاء به القرآن الكريم عن ذلك.

(2) اهتزاز الأرض، وارتفاعها، واخضرارها، وإنباتها من كل زوج بهيج بمجرد إنزال الماء عليها، وشبه ذلك الإنبات من بين تربة الأرض بعملية خلق الإنسان من تراب. والعلم يؤكد ما جاء بالقرآن الكريم عن ذلك.

(3) التأكيد على سجود كل من في السمٰوات ومن في الأرض لله ـ تعالى ـ طوعاً أو كرهاً، والبحوث العلمية تكاد تقترب من إثبات ذلك.

(4) قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾. وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى سرعات فائقة لم يكن لأحد من الخلق إلمام بها وقت تنزل القرآن الكريم. ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك.

(5) التعبير عن دوران الأرض حول محورها باستخدام الوصف القائل بإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر.

(6) تسخير كل ما في السمٰوات والأرض بأمر الله، وجري الفلك في البحر بأمره.

(7) الإشارة إلى إمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله.

(8) التنبيه إلى حقيقة إحياء الإنسان؛ أي: خلقه من العدم، ثم إماتته، ثم إحياؤه مرة أُخرى؛ أي: بعثه، وكل النتائج العلمية تؤكد حقيقة ذلك.

(9) التأكيد على حقيقة عجز المخلوقين عن الخلق، وعن استنقاذ مايسلبهم الذباب من طعام أو شرب.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجةٍ مستقلةٍ؛ ولذا فسوف أقتصر هنا على النقطة الثانية فقط ألا وهي التي يصفها الحق ﷻ بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿. . . وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾. **(الحج: 5)**.

وقبل ذلك لا بد من استعراض لدلالات الألفاظ في الآية الكريمة ولأقوال عدد من المفسرين فيها.

الدلالة اللغوية

من الألفاظ التي تحتاج إلى شيء من الإيضاح في هذا النص القرآني الكريم ما يلي:

(1) **هامدة**: يقال في اللغة: (همدت) النار أي: خمدت وأطفئت جذوتها وذهبت البتة؛ ومنه أرض (هامدة) أي: لا نبات فيها، ونبات (هامد) أي: يابس، و(الإهماد) هو الإقامة بالمكان كأنه صار (ذا همد)، وقيل (الإهماد): السرعة وهي عكس الخمود والخمول، وإن كان ذلك صحيحاً فتصبح الكلمة من الأضداد كالإشكاء في كونه تارةً لإزالة الشكوى، وتارةً لإثباتها، ومعنى قوله ـ تعالى ـ: (وترى الأرض هامدةً) أي: جافةً، قاحلةً لا نبات فيها، يقال: (همدت) الأرض (تهمد) (هموداً) أي: يبست ودرست، و(همد) الثوب أي: بلي.

وقد وردت الصفة (هامدةً) مرةً واحدةً في القرآن الكريم، وجاءت بنفس المعنى بالتعبير (خاشعة) في قول الحق ﷻ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ **(فصلت: 39)**.

(2) **اهتزت**: هذا الفعل بهذه الصياغة وفي نفس المعنى جاء في كتاب الله مرتين: (فصلت: 39، والحج: 5)، كما جاء بصيغة الأمر (هزي) مرةً واحدةً (مريم: 25)، وفي صيغة المضارع (تهتز) مرتين: (النمل: 10، القصص: 31).

ومعنى اهتزت هنا: انتفضت وتحركت في رأي العين، يقال: (هز) الشيء (فاهتز) أي: حركه فتحرك بشدة؛ لأن (الهز) هو التحريك الشديد، و(الهزة الأرضية) هي الزلزلة، و (الهزة) أيضاً هي النشاط والارتياح.

(3) **و(ربت)**: أي: زاد حجمها فانتفخت وعلت، يقال في اللغة: (ربا) الشيء (يربو) (ربواً) أي: زاد ونما، و(الربوة) و(الرابية) ما ارتفع من الأرض، وكذلك (الرباوة)، و(الربا) الزيادة في كل من المال والسلع بغير مقابل، يقال: (أربيت) إذا أخذت أكثر مما أعطيت، ويقال: (أربى) عليه بمعنى: ارتفع عنه فأشرف عليه، و(الربو) هو مرض النفس العالي، ويقال: (ربا) إذا أخذه مرض (الربو)، ويقال: (رباه) (تربية) و(ترباه) أي: تعهده بالرعاية والعناية حتى (نما) وهذا لكل ما (ينمو) كالولد، والزرع، ونحوه.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾. (الحج: 5).

• ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء وقال قتادة: غبراء متهشمة، وقال السدي: ميتة، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾؛ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت مافيها من ثمار وزروع، وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسن المنظر طيب الريح...».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: يابسة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت ﴿وَرَبَتْ﴾ ارتفعت وزادت ﴿وَأَنۢبَتَتْ﴾، ﴿مِن﴾ زائدة ﴿كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن».

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «والهمود درجة بين الحياة والموت». وهكذا تكون الأرض قبل الماء، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء. فإذا نزل عليها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج. هل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون، وتنتفض بعد الهمود؟ وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً، فيسلكهم في آيةٍ واحدةٍ من آياته. وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة وإنها لدليل على وحدة عنصر الحياة، وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك، في الأرض والنبات والحيوان والإنسان».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ ما نصه: «﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يابسة لا نبات فيها، يقال: همدت الأرض تهمد هموداً، يبست ودرست، وهمد الثوب: بلي .﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت في رأي العين بسبب حركة

النبات، يقال: هز الشيء ـ من باب رد ـ فاهتز، حركه فتحرك. ﴿وَرَبَتْ﴾ زادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات. يقال: ربا الشيء يربو ربواً، زاد ونما، ومنه الربا والربوة. ﴿بَهِيجٍ﴾: نضر حسن المنظر، من بهج ـ كظرف ـ بهاجة وبهجة أي: حسن».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «... وأمر آخر يدلك على قدرة الله على البعث أنك ترى الأرض قاحلة يابسة، فإذا أنزلنا عليها الماء، دبَّت فيها الحياة وتحركت وزادت، وارتفع سطحها بما تخلله من الماء والهواء، وأظهرت من أصناف النباتات مايروق منظره، ويبهر حسنه، وتبتهج لمرآه».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خير الجزاء ـ ما نصه: «﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث؛ أي: وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾؛ أي: فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾؛ أي: وأخرجت من كل صنف عجيب ما سرَّ الناظر ببهائه ورونقه...».

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم

يقول الحق ﷻ:

﴿... وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝﴾ **(الحج: 5).**

سبق لنا وذكرنا أن لفظة الأرض وردت في القرآن الكريم بثلاثة معانٍ محددة تفهم من سياق الآية القرآنية؛ وهي إما الكوكب ككل، أو الغلاف الصخري المكون لكتل القارات التي نحيا عليها، أو قطاع التربة الذي يغطي صخور ذلك الغلاف الصخري للأرض. وواضح الأمر هنا أن المقصود بالأرض في النص القرآني الذي نتعامل معه، هو قطاع التربة الذي يحمل الكساء الخضري للأرض والذي يهتز ويربو بسقوط الماء عليه.

قطاع التربة الأرضية:

تتكون تربة الأرض بواسطة التحلل الكيميائي والحيوي لصخورها، كما تتكون نتيجة تفكك تلك الصخور بواسطة عوامل التعرية المختلفة التي تؤدي في النهاية إلى تكون غطاء رقيق لصخور الغلاف الصخري للأرض من فتات وبسيس الصخور. على هيئة حطام مفروط

يعرف باسم: **عادم الصخور**. وعلى ذلك فإن تربة الأرض تمثل الطبقة الرقيقة من عادم الصخور الناتج عن تحلل أجزاء من الغلاف الصخري للأرض. وتغطى صخور الأرض في كثير من الأحوال بقطاع التربة؛ سواء كان ناتجاً عن تحللها مباشرةً، أو منقولاً إليها ليغطيها. والتربة بذلك تمثل الحلقة الوسطى بين الغلاف الصخري للأرض وغلافيها الهوائي والمائي؛ ولذلك فهي خليط من المعادن التي تفككت من صخور الأرض بفعل عوامل التعرية المختلفة، ومن المركبات العضوية وغير العضوية الناتجة عن التفاعل والصراع بين تلك النطق الثلاثة من نطق الأرض، أو المتبقية عن الكائنات الحية التي تعمر قطاع التربة، وهي كثيرة من مثل: البكتيريا، والطحالب، والفطريات، والنباتات بمختلف هيئاتها ومراتبها، فالتربة هي مصدر كل الغذاء والماء لحياة النباتات الأرضية؛ لأنها وسَطٌ تتراكم فيه بقايا كل من العمليات الأرضية، والسلاسل الغذائية، التي تتحلل بواسطة الكائنات الدقيقة، التي تجهز بنشاطاتها كل العناصر اللازمة لنمو النباتات الأرضية في داخل تربة الأرض.

وتتكون التربة الأرضية أساساً من خليط من الماء (حوالي 25%) والهواء (حوالي 25%) والمواد العضوية (حوالي 5%) ومعادن الأرض والتي يغلب عليها معادن الصلصال، والرمال، وأكاسيد الحديد، وكربونات كل من الكالسيوم والمغنسيوم (حوالي 45%) .

وبالإضافة إلى التركيب الكيميائي والمعدني لتربة الأرض فإن حجم حبيباتها ونسيجها الداخلي له دور مهم في تصنيفها إلى أنواع عديدة، وتقسم التربة حسب حجم حبيباتها إلى التربة الصلصالية، والطميية، والرملية، والحصوية، وأكثر أنواع التربة انتشاراً هي خليط من تلك الأحجام المختلفة.

ويقسم قطاع التربة من سطح الأرض إلى الداخل إلى النطق الأربعة التالية:

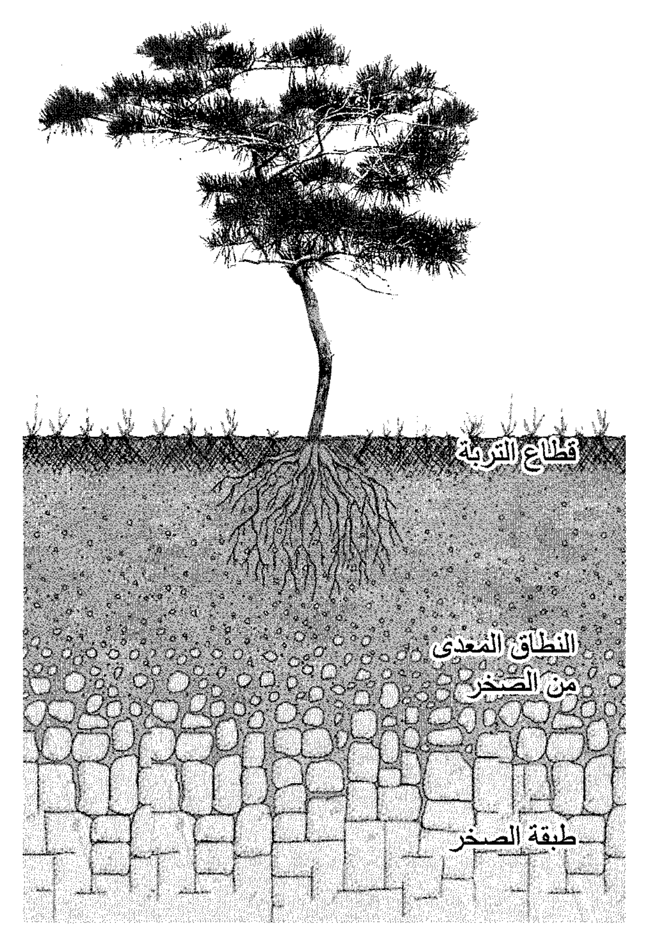
(1) نطاق السطح الأرضي أو (نطاق O): وهو غني بالمواد العضوية من مثل أوراق الأشجار وفتات زهورها، وثمارها، وأخشابها، وتزداد فيها نسبة المواد الدبالية **(Humus)** أي: العضوية المتحللة من أعلى إلى أسفل.

(2) نطاق التربة العليا أو (نطاق-A): ويتكون أساساً من فتات المعادن الخشن نسبياً، والغني بالنشاط العضوي مما يزيد من محتواه في المواد الدبالية التي تصل إلى 30% من مكونات هذا النطاق في بعض الحالات.

(3) نطاق ما تحت التربة العليا أو (نطاق ـB): وهو نطاق يتجمع فيه كثير من

العناصر والمركبات التي تحملها المياه الهابطة من النطاقين العلويين؛ ولذا يعرف باسم: نطاق التجمع. ومع كثرة هبوط حبيبات الصلصال الدقيقة من النطاقين العلويين إلى نطاق ما تحت التربة أو نطاق التجمع هذا، فإنه يحتفظ بالماء الهابط إليه من سطح الأرض.

وتمثل النطق الثلاثة **(O,A,B)** ما يسمى باسم: «**التربة الحقيقية**» وهي التي تزخر بالعمليات الحيوية، وبكل صور الحياة التي يشتهر بها قطاع التربة، وتمتد إليها جذور النباتات من فوق سطح الأرض.



رسم تخطيطي لقطاع التربة يوضح نطقها الأربعة

(4) نطاق الغلاف الصخري للأرض المتأثر ببعض عمليات التجوية:

وهذه النطق الأربعة لا تتمايز بهذا الوضوح إلا بعد تمام نضج قطاع التربة، فكثيراً ما تتكدس كلها في نطاق واحد.

وتمثل مجموعة الكائنات الدقيقة من مثل: البكتيريا، والفطريات، والطحالب أهم أنواع الحياة في تربة الأرض، وتشكل البكتيريا أغلبها (نحو 90%). وتنقسم بكتيريا التربة إلى ذاتية التغذية، وغير ذاتية التغذية، ومن الصنف الأول بكتيريا العقد الجذرية وقد أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على تثبيت غاز النيتروجين الموجود بالهواء المحيط بالأرض، وتحويله إلى مركبات نيتروجينية مهمة في التربة؛ ولذا تعرف باسم: «بكتيريا النيتروجين». وهناك «بكتيريا الإيدروجين»، و «بكتيريا الكبريت»، و «بكتيريا الحديد» وغيرها من مختلف أنواع البكتيريا التي تلعب دوراً مهماً في تزويد التربة بالأغذية المناسبة للنباتات الأرضية.

واستكمالاً لهذا الدور المهم، فإن البكتيريا غير ذاتية التغذية تقوم بتكسير المواد العضوية المعقدة من مثل: المواد السيليولوزية والكربوهيدراتية، والبروتينية، والدهنية وتحويلها إلى مواد يستطيع النبات الاستفادة بها.



الماء عنصر أساسي في إنبات الأرض، وبدونه ترى الأرض هامدة جرداء، قاحلة، متشققة خاصة إذا كانت التربة صلصالية

كيف تربو هذه التربة الأرضية بإنزال الماء عليها؟

يتكون جزيء الماء من اتحاد ذرة أكسجين واحدة مع ذرتي أيدروجين برابطةٍ قويةٍ لايسهل فكها، وتربط هذه الذرات مع بعضها البعض بشكل زاوٍ، له قطبية كهربية واضحة؛ لأن كلًّا من ذرتي الإيدروجين يحمل شحنةً موجبةً نسبيةً، وذرة الأكسجين تحمل شحنةً سالبةً نسبيةً، مما يجعل جزيء الماء غير تام التعادل كهربياً. وإلى هذه القطبية الكهربية

تعود صفات الماء المميزة له من مثل: قدرته الفائقة على الإذابة، وعلى التوتر السطحي، وشدة تلاصق جزيئاته مما يجعل له القدرة على التسلق ـ الخاصية الشعرية ـ، وعلى التكور في هيئة قطرات، وعدم امتزاج محاليله امتزاجاً كاملاً. والماء بهذه الصفات الطبيعية المميزة إذا نزل على تربة الأرض أدى إلى إثارتها كهربياً مما يجعلها تهتز وترتعش وتنتفش ويزداد حجمها فتربو وتزداد؛ وذلك لأن تربة الأرض تتكون في غالبيتها من المعادن الصلصالية التي يؤدي تميؤها إلى اهتزاز مكونات التربة، وزيادة حجمها، وارتفاعها إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق مفسحة طريقاً سهلاً آمنا لسويقة (ريشة) النبتة الطرية الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة بالتربة.

ومن أسباب اهتزاز التربة وانتفاشها وربوها ما يلي:

(1) تتكون التربة أساساً من المعادن الصلصالية، ومن صفات تلك المعادن أنها تتشبع بالتميؤ أي: بامتصاص الماء مما يؤدي إلى زيادة حجمها زيادة ملحوظة فيؤدي ذلك إلى اهتزازها بشدة وانتفاضها، فتؤدي إلى اهتزاز التربة بمجرد نزول الماء عليها.

(2) تتكون المعادن الصلصالية (سيليكات الألومنيوم المميأة) من رقائق من أكاسيد السيليكون والألومنيوم تفصلها مسافات بينية مملوءة بجزيئات الماء والغازات، وعند التسخين تطرد هذه الجزيئات المائية والغازية، فتنكمش تلك الرقائق بطرد هذه الجزيئات البينية، وعند إضافة الماء إليها تنتفض وتهتز وتربو إلى أعلى نتيجة لملء المسافات البينية الفاصلة لرقائق المعدن بالماء.

(3) نظراً لدقة حجم الحبيبات الصلصالية التي لايتعدى قطرها واحداً على 256 من المليمتر، أي أقل من 0.004 مم وهي المكون الرئيسي لتربة الأرض، فإن اختلاط الماء بتلك التربة يحولها إلى الحالة الغروية، وهي حالة تتدافع فيها جسيمات المادة بقوة وبأقدار غير متساوية في كل الاتجاهات، وعلى كل المستويات في حركة دائبة تعرف باسم: **الحركة البراونية**، نسبة إلى مكتشفها، وهي من عوامل اهتزاز التربة بشدة وانتفاضها، وكلما كان الماء المختلط بالتربة وفيراً كلما باعد بين حبيبات التربة لمسافات أكبر، وزاد من سرعة حركتها.

(4) تتكون المعادن الصلصالية أساساً من سيليكات الألومنيوم المميأة، وهذا المركَّب الكيميائي له قدرة على إحلال بعض ذرات الألومنيوم بذرات قواعد أخرى مثل: المغنيسيوم والكالسيوم، وكنتيجة لإحلال ذرات الألومنيوم بذرات غيرها من العناصر، ترتبط بعض الأيونات الموجبة الشحنة مثل: الصوديوم والكالسيوم على حواف وأسطح راقات الصلصال لمعادلة الشحنات السالبة الناتجة عن إحلال ذرة الألومنيوم الثلاثية التكافؤ بذرة الكالسيوم

أو المغنيسيوم الثنائية التكافؤ. والأيونات الموجبة مثل: أيونات الصوديوم والكالسيوم سهلة الإحلال بقواعد أخرى، مما يُحدِث اهتزازاً عنيفاً في مكونات رقائق الصلصال في وجود جزيء الماء ذي القطبية الكهربية.



التربة والماء هما العنصر الأساسي في إنبات الأرض وجعلها مروجاً تدر بالخير

(5) إن العمليات المعقدة التي كونت تربة الأرض عبر ملايين السنين أثرتها بالعديد من العناصر والمركبات الكيميائية اللازمة لحياة النباتات الأرضية، كما أن الكائنات الحية الدقيقة والكبيرة التي أسكنها الله ـ تعالى ـ تربة الأرض لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً هاماً في إثرائها بالمركبات العضوية وغير العضوية، وعند نزول جزيئات الماء ذات القطبية الكهربية، وإذابتها لبعض مكونات التربة، فإن ذلك يؤدي إلى تأيُّن تلك المكونات، وإلى تنافر الشحنات المتشابهة على أسطح رقائق الصلصال وفي محاليل الماء مما يؤدي إلى انتفاض تلك الرقائق واهتزازها بشدة.

(6) تحمل الرياح، والطيور، والحشرات، والكائنات الدقيقة إلى التربة بذور العديد من النباتات خاصة من البذور المجنحة، والأبواغ، وحبوب اللقاح والجراثيم التي تحملها الرياح لمسافات بعيدة، وعندما ينزل الماء على التربة الأرضية وتستقي منه تلك البقايا

النباتية خاصة تلك البقايا القابلة للإنبات مثل البذور فتنشط أجنتها، وتتغذّى على المواد المذابة في مياه التربة وتنمو، وتندفع جذورها إلى أسفل مكونة المجموعات الجذرية لتلك النباتات، وتندفع سويقاتها (ريشتها) إلى أعلى مسببة اهتزازات عنيفة لمكونات التربة.

(7) مع ازدياد هطول الماء على التربة تنتعش كل صور الحياة فيها من البكتريا، والفطريات، والطحالب، وغيرها، كما تغلظ المجموعات الجذرية للنباتات القائمة على سطح الأرض، ويؤدي النشاط الحيوي لكل من هذه الكائنات إلى زيادة حجم التربة، وإلى زيادة الأنشطة الكيميائية والفيزيائية فيها مما يؤدي إلى انتفاض مكوناتها واهتزازها وربوها وكثرة الإنبات فيها، وقد صورت هذه المراحل بالتصوير البطيء وأثبتت الصور صدق القرآن الكريم، في كل ما أشار إليه في هذه القضية.

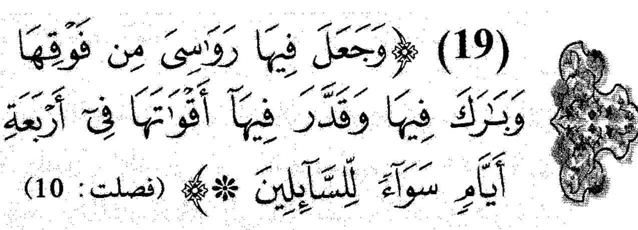
وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا في العقود القليلة الماضية، وورودها في كتاب الله المنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين بهذه الدقة العلمية، والتسلسل المنطقي الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ **(الحج: 5)**.

وتكرار المعنى في مقام آخر من كتاب الله حيث يقول ـ عز من قائل ـ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ **(فصلت: 39)**.

إن هذا كله لمن أبلغ الدلائل على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، وحفظه كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد ﷻ بذلك الحفظ إلى أن يرث ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وهو كذلك لمن أبلغ الدلائل على أن النبي الخاتم الذي تلقى القرآن الكريم كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة سيد الأنام: سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله الذي أنزل قوله الحق مخاطباً نبيه ورسوله الخاتم ﷺ الذي جاء فيه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ **(النساء: 166)**.





هذه الآية الكريمة جاءت في الخمس الأول من سورة فصلت، وهي سورة مكية، وآياتها أربع وخمسون (54) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لوصفها القرآن الكريم في مطلعها بأنه كتاب فُصِّلَتْ آياته أي ميزت لفظاً ومعنى؛ لتناولها كلام الله وهدايته إلى الثقلين بأسلوب معجز في بيانه، ونظمه، وبلاغته، ومحتواه الذي يحمل قضايا الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات؛.. وهي إما من صميم الغيب المطلق الذي لا سبيل للإنسان في الوصول إليه إلا ببيان من الله تعالى، بياناً ربانياً خالصاً لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية كقضايا العقيدة، أو هي أوامر ربانية خالصة كقضايا العبادة، والله تعالى يحب أن يعبد بما أمر، أو هي ضوابط للسلوك والمعاملات، والإنسان كان عاجزاً دوماً عن أن يضع لنفسه بنفسه ضوابط لسلوكه وتشريعات لمعاملاته، ومن هنا كان تميز القرآن الكريم.

وتبدأ سورة فصلت بالحرفين المقطعين (حم) ولذا تسمى أحياناً باسم (حم السجدة) لأن بها سجدة تلاوة واحدة؛ والحروف المقطعة التي افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم ـ في أحد الآراء ـ، وسبع وعشرون ـ في رأي آخر باعتبار كل من (طه) و (يسٓ) اسماً من أسماء رسول الله ﷺ، والتي تضم نصف أسماء حروف الهجاء الثمانية والعشرين، تعتبر سراً من أسرار القرآن الكريم التي لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ.

وبعد هذا الاستفتاح تحدثت السورة عن الوحي بالقرآن الكريم ووصفته بأنه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: 2، 3).

وتؤكد السورة الكريمة هذه الحقيقة في مقام آخر منها، يقول فيه الحق (تبارك وتعالى): ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ (فصلت: 44).

وتشير سورة «فصلت» إلى القرآن الكريم في عدد من آياتها، مؤكدة أنه كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتشير إلى كتاب موسى ﷺ وإلى اختلاف قومه فيه، وتلفت النظر إلى أن القرآن الكريم هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو في آذان الذين لا يؤمنون به وقرٌ وهو عليهم عمى...!!!

وتتحدث السورة عن مواقف المعرضين عن كتاب الله، وعن انغلاق قلوبهم دون هدايته، ورفض أسماعهم للحق الذي جاء به، وعجز طبائعهم عن موافقة دعوته إلى توحيد الله الخالق، والاستقامة على أوامره، واجتناب نواهيه، والانصياع لتحذيره المتكرر من أخطار الوقوع في الكفر بالله ـ تعالى ـ، أو الشرك به، أو منع شرائعه، وقارنت السورة الكريمة بين الموقف الجاحد لهؤلاء الكفار والمشركين وما سوف ينالهم يوم القيامة من الويل والثبور، وبين موقف المؤمنين الذين سوف يعطيهم ربهم أجراً غير ممنون.

وفي محاجَّة ملجمة للكافرين استشهدت سورة «فصلت» على وجود الله ـ تعالى ـ، وعلى ألوهيته وربوبيته ووحدانيته، وعلى طلاقة قدرته بخلق الأرض في يومين أي: على مرحلتين؛ وبخلق الجبال، ومباركة الأرض، وتقدير أقواتها فيها في أربعة أيام؛ أي: أربع مراحل من أجل تهيئتها للعمران، والمرحلتان الأوليان داخلتان في المراحل الأربع التالية؛ ثم في مرحلتين تاليتين أتم الله ـ تعالى ـ بناء الكون، وجعل السمٰوات سبعاً، وزين السماء الدنيا منها بالنجوم وحفظها بها.

وبعد استعراض هذه الآيات الكونية المبهرة، تنذر السورة جميع المعرضين عن دين الله، والكافرين به بعقاب من مثل عقاب أقوام عاد وثمود، وعقاب أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، وفصلت السورة شيئاً مما حدث لكل منهم، وكيف نجَّى الله المتقين من بينهم.

واستشهدت السورة الكريمة ببعض مشاهد العذاب في الآخرة، ومن أخطرها أن الله ـ تعالى ـ سوف يُنطق سمع وأبصار وجلود أعدائه ليشهدوا عليهم بما كانوا يعملون، وتشير السورة إلى ما سوف يدور من حوار بين هؤلاء الخاطئين وجوارحهم التي سينطقها الله ﷻ كي تشهد على جرائمهم...!!!

وتحذر السورة الكريمة الكافرين من الجحود بآيات الله، والانصراف عن الاستماع إلى القرآن الكريم، ومحاولة اللغو فيه إذا قرئ عليهم، وتهددهم بعذاب شديد، يوقفهم موقف الندم والاعتذار، ساعة لا ينفع الندم ولا يجدي الاعتذار...!!!

وتتحدث سورة «فصلت» عن شيء من مبشرات المؤمنين الذين آمنوا بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، واستقاموا على منهج الله بتنزل الملائكة عليهم في الدنيا وفي الآخرة، وفي لحظات الموت وسكراته، وحشرجة الصدر وضيقه، مطمئنة إياهم برضا الله عنهم وغفرانه لهم، ورحمته بهم، وتبشرهم بالنعيم الذي ينتظرهم...!!!

وتقارن السورة بين حسن حال المؤمنين في الدنيا والآخرة، وسوء حال الكافرين والمشركين في الدارين، وتتحدث عن شيء من أخلاق الدعاة إلى الله، وأساليبهم في الدعوة إليه، وتمايز بين الخير والشر، وبين الحسنة والسيئة.

وتُثَبِّتُ الآيات رسولَ الله ﷺ بحقيقة أن ما يقال له وعنه من الكافرين والمشركين قد قيل للرسل من قبله؛ وأن الله ـ تعالى ـ الذي وصف ذاته العلية بأنه صاحب المغفرة هو في الوقت نفسه ذو عقاب أليم...!!! وفي ذلك من التهديد والوعيد للكفار والمشركين ما فيه.

وتؤكد السورة الكريمة أن من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها... وأن الله ـ تعالى ـ ليس بظلام للعبيد، فهو أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأنه ـ تعالى ـ يُرَدُّ إليه علم الساعة، وعلم كلّ شيء...!!!

وتنتهي السورة إلى الحديث عن شيء من طبائع النفس الإنسانية؛ وتختتم بهذا الوعد الإلٰهي القاطع بأن الله ـ تعالى ـ في مستقبل بعد زمن الوحي سوف يكشف للإنسان من الحقائق العلمية في آفاق الكون وفي دخائل كل من النفس الإنسانية والجسد البشري ما يؤكد صدق كل ما جاء في كتاب الله من الإشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، وإلى كل ما يتعلق بالإنسان ومراحل خلقه، وبناء جسده، وحديث نفسه. وإذا ثبت سبق القرآن بالإشارة إلى تلك الحقائق من قبل أن تصل إلى علم الإنسان بعدد متطاول من القرون، وثبت صدق القرآن الكريم في الإشارة إليها بقدر من الدقة والشمول والإحاطة التي لم يصل إليها علم الإنسان بعد في زمن التقدم العلمي والتقني المذهل الذي نعيشه؛... إذا ثبت كل ذلك أصبحت تلك الإشارات الكونية والإنسانية في كتاب الله من أعظم الآيات الدالة على أنه الحق، والشاهدة على صدق حديثه عن الغيب، وعن الدين بركائزه الأساسية، وصدق إخباره عن الأمم السابقة، وعن البعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وكان

الشك في إمكان البعث هو أحد الحجج الرئيسية لكفر الكافرين، وإعراضهم عن الإيمان بدين الله القويم، ولذلك تختتم السورة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤﴾ **(فصلت: 53، 54).**

الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة:

(1) **(بارك)**: (البركة) هي ثبوت الخير الإلٰهي في الشيء بنمائه وزيادته بغير أسباب مدركة؛ و(المبارك) هو ما فيه ذلك الخير الإلٰهي؛ ولما كان الخير الإلٰهي يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة أنه (مبارك)، وأن فيه (بركة)؛ و(بارك) الشيء أي أودع فيه الخير الإلٰهي؛ ويقال: (بارك) الله؛ لك، وفيك، وعليك، و(باركك) أي أودع خيره فيك؛ و(تبارك) الله؛ أي اختص ـ تعالى ـ بكل خير؛ ويقال: (تبرك) بالشيء أو بالفرد من البشر أي: تيمن به.

(2) **(قدر)**: يقال في العربية (قدر) أو (قدر) الشيء (يقدره) (تقديراً)؛ أي: حدد كميته و(القدر) كمية الشيء أو مبلغه، و(مقدار) الشيء للشيء المقدر له أو به وقتاً كان أو زمناً أو كيلاً هو كميته؛ يقال: (قدرته) و(قدرته). ويقال: (قَدَّره) أي أعطاه (القدرة) وذلك من مثل قولك: (قدَّرني) الله على كذا أي قواني عليه؛ و(تقدير) الله الأشياء على وجهين: أحدهما بإعطاء القدرة وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ (المرسلات: 23)، والثاني بأن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة؛ وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: 3). وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49)، وقوله: ..﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ. . .﴾ (المزمل: 20)، وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ (عبس: 19)، وقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: 3).

و(التقدير) من الإنسان على وجهين أحدهما: التفكير في الأمر بحسب نظر العقل وبناء الأمر عليه وذلك محمود؛ والثاني أن يكون بحسب التمني والشهوة وذلك مذموم، يقول فيه الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (المدثر: 18، 19).

(3) **(أقوات)**: (القوت) هو كل ما (يقتات) به أو ما يمسك الرمق، أي: ما يقوم به بدن الإنسان (وغيره من الكائنات الحية) من الطعام، وجمعه (أقوات)؛ وفعله (قات)

أو (قوت)؛ فيقال: (قاته) (يقوته) (قوتاً) أي أطعمه قوته؛ و(أقاته) (يقيته) (قوتاً) أي جعل له ما يقوته؛ و(استقاته) (يستقيته) (استقاتة) أي سأله (القوت)؛ ويقال: (قته) (فاْقتات)؛ وهو (يتقوت) بكذا أو (يقتات) على كذا. كذلك يقال: (أقات) على الشيء اقتدر عليه؛ و(المقيت) هو القائم على الشيء يحفظه ويقيته، وقد يقصد به المقتدر والحافظ والشاهد، و(المقيت) من أسماء الله الحسنى ومن معانيه: خالق الأقوات وموزعها على الخلائق.

(4) **(أيام)**: (اليوم) في العربية وجمعه (أيام) الفترة من طلوع الشمس إلى غروبها، أو ما يعبر عنه بالنهار وهو فترة النور بين ليلين متتاليين؛ وقد يعبر بلفظة (اليوم) عن فترتي النهار والليل معاً وهو ما يعرف (باليوم الكامل) أو بيوم الأرض الشمسي، ويمثل الفترة التي تتم فيها الأرض دورة كاملة حول محورها أمام الشمس، ويعبر عنها بالفترة الزمنية بين شروقين متتاليين أو بين غروبين متتاليين للشمس ويساوي (في زماننا) أربعاً وعشرين ساعة كاملة.

ويقال في العربية: (من أول يوم) أي من أول أيام تاريخ محدد وقد يعبر بلفظ (اليوم) عن يوم محدد في السنة أو في الشهر أو في الأسبوع، وقد يعبر به عن الشدة التي يمر بها الفرد أو الجماعة من الناس وذلك مثل قولهم: (يوم كيوم عاد) أو (يوم) من (أيام) الدهر، وقد يعبر به عن واقعة محددة في التاريخ (كيوم الفتح)، أو (أيام الآخرة)، أو (أيام الله) التي لا يعرف مداها إلا هو ﷻ. وقد يعبر (باليوم) عن مدة من الزمان أيًّا كان طولها، أو عن فترة من الفترات أو مرحلة من المراحل بغض النظر عن الزمن الذي استغرقته. وقد استخدمت لفظة (يوم) في القرآن الكريم بهذه المعاني كلها.

(5) **سواء**: أي يعدل في الحكم بين الفرقاء، (فالسواء) العدل، وفعله (سوى) (يسوي) (تسوية) و(سواء) أي عدل؛ و(ساوى) (يساوي) (تسوية) أي عادل، وتسوية الشيء جعله سواء، فالمساواة هي المعادلة المعتبرة في كل شيء؛ ويقال: قسم الشيء بينهما بالسوية أي بالعدل؛ و(سوى) و(سواء) الشيء وسطه أو غيره، وتأتي بمعنى العدل، (كما تأتي بالفتح والكسر والضم للسين؛ فإذا ضممت السين أو كسرتها قصرت، وإذا فتحتها مددت)؛ يقال: مكاناً (سوي) و(سوى) و(سواء) أي عدل ووسط؛ و(سواك) و(سواك) و(سوائك) أي غيرك. يقال: هما في الأمر (سواء) أو (سواءان)، وهم (سواء) أو (أسواء) أو (سواسية). ويقال: (استوى) الشيء بمعنى اعتدل والاسم (السواء)؛ و(السي) و(السوى) صفة لكل ما يصان من الإفراط والتفريط من حيث القدر والكيفية وجمعه (أسواء). ومكان (سوى) و(سوي) و(سواء) بمعني (وسط)؛ أي: يستوي طرفاه.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالى): ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ **(فصلت: 9، 10)**.

• ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، المقتدر على كل شيء ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾... أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم، وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ **(الأعراف: 54)** ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ الآية، فأما قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾ **(النازعات: 27 ـ 31)**، ففي هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص...، وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض؛ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام، وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السموات في يومين...».

• وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما نصه: «﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾ بتحقيق الهمزة الثانية، وتسهيلها، وإدخال ألف بينهما ـ بوجهيها ـ وبين الأولى، وتركه ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ..﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ شركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ﴾ مالك ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم وهو ما سوى الله، وجمع لاختلاف أنواعه بالياء والنون وتغليباً للعقلاء .﴿وَجَعَلَ﴾ مستأنف ولايجوز عطفه على صلة ﴿الَّذِي﴾ للفاصل الأجنبي ﴿فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت تثبتها ﴿مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بكثرة المياه والزروع والضروع ﴿وَقَدَّرَ﴾ قسّم ﴿فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ للناس والبهائم ﴿فِي﴾ تمام ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي الجعل وما ذكر معه ..﴿سَوَاءً﴾ منصوب على المصدر أي استوت الأيام الأربعة استواء لا تزيد ولا

تنقص ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عن خلق الأرض بما فيها. . .». وجاء في التعليق بالهامش ما يلي: قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾، ثم قوله بعد ذلك: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، ثم قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، هذا تفصيل لمثل قوله تعالى في سورة «قٓ»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: تعب وإعياء، فتمّ خلق الأرض وتقدير أقواتها في مقدار أربعة أيام، وتم خلق السمٰوات في مقدار يومين، كل ذلك بلا ترتيب زمني، لأن (ثم) في مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ لا تفيد في حق الله تعالى ترتيباً زمنياً، لأنه تعالى لايجري عليه زمان، فكان خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في مقدار ستة أيام من غير تحديد ولاتعيين على الصحيح...».

● وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ مانصه: «... إنه يذكر حقيقة خلق الأرض في يومين، ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الأرض، يعقب على الحلقة الأولى من قصة الأرض، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.. وأنتم تكفرون به وتجعلون له أنداداً، وهو خلق هذه الأرض التي أنتم عليها، فأي تبجح وأي استهتار وأي فعل قبيح؟! وما هذه الأيام: الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض، والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسي وقدر فيهما الأقوات، وأحل فيهما البركة، فتمت بهما الأيام الأربعة؟ إنها بلا شك أيام من أيام الله التي يعلم هو مداها، وليست من أيام هذه الأرض.. والأيام التي خلقت فيها الأرض أولاً، ثم تكونت فيها الجبال، وقدرت فيها الأقوات، هي أيام أخرى، مقيسة بمقياس آخر لا نعلمه، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة. وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشري أنها هي الأزمان التي مرت بها الأرض طوراً بعد طور، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها... وبارك فيها وقدر فيها أقواتها..، وقد كانت هذه الفقرة تنقل إلى أذهان أسلافنا صورة الزرع النامي في هذه الأرض وبعض ما خبأه الله في جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما إليها..، فأما اليوم بعد ما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته في الأرض ومن أقواتها التي خزنها فيها على أزمان طويلة، فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف في أذهاننا. . .».

● وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ ما نصه: «﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي أوجدها في مقدار يومين من أيام الدنيا. وقيل: اليوم منهما كألف سنة من أيامنا. والآية تنديد بالمشركين؛ لتماديهم في الشرك مع ظهور الدلائل الموجبة للإيمان بوحدانيته ـ تعالى ـ وكمال قدرته .﴿أَندَادًا﴾

أمثالاً من مخلوقاته تعبدونها. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿مِّن فَوۡقِهَا﴾ لئلا تميد وتضطرب ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ جعلها مباركة قابلة للخير، كالإنبات وإخراج ما ينفع الناس. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ جعل أقوات أهلها التي يحتاجون إليها في معايشهم على مقادير معينة؛ بحيث جعل في كل قطر ما يناسب أهله، ليكون الناس محتاجاً بعضهم إلى بعض فيما يرتفقون به. وهو سبب عمارة الأرض ونظام العالم. ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي خلق ما في الأرض في تمام أربعة أيام ﴿سَوَآءٗ﴾ مستوية كاملة. مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لـ «أيام»؛ أي: استوت سواء أي استواء، وقيدت به لدفع توهم التجوز بإطلاقها على ما دونها بقليل ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها، المحتاجين إليها من المقتاتين. فمدة خلق كل من الأرض وما فيها مقدار يومين. وتمام المدتين أربعة أيام كاملة».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم جزاهم الله خيراً ما نصه: «قل: أيها الرسول، لهؤلاء المشركين: عجباً لكم! تكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين، وأنتم ـ مع هذا ـ تجعلون له شركاء متساوين معه، ذلك الخالق للأرض مالك العوالم كلها ومربيهم. وجعل في الأرض جبالاً ثابتة من فوقها لئلا تميد بكم، وأكثر فيها الخير وقدر فيها أرزاق أهلها، حسبما تقتضيه حكمته، كل ذلك في يومين، وأنتم ـ مع هذا ـ تجعلون له شركاء، وقدر كل شيء لا نقص فيه ولا زيادة، هذا التفصيل في خلق الأرض وما عليها بيان للسائلين». وجاء في التعليق الهامشي ما يلي: «وحدات الزمن التي يستخدمها الناس مرتبطة بالأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس، فإذا ما غادر أحد الأرض إلى جرم سماوي اختلفت هذه الوحدات طولاً أو قصراً. والآيات الكريمة تشير إلى هذه الحقيقة وإلى أن الزمن نسبي...».

• وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ ما نصه: «﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب أي: كيف تكفرون بالله وهو الإلٰه العلي الشأن القادر على كل شيء، خالق الأرض في يومين؟ ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ أي تجعلون له شركاء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ذلك الخالق المبدع هو رب العالمين كلهم .. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ أي جعل في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تميد بالبشر ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه والزروع والضروع ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ أي قدر أرزاق أهلها ومعاشهم، قال مجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي في تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولانقصان للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها...».

أيام الخلق الست في منظور العلوم الكونية:

يرى أهل العلوم المكتسبة مراحل خلق الكون الست حسب الترتيب التالي والله ـ تعالى ـ أعلم بخلقه:

(1) **مرحلة الرتق**: وهي مرحلة الجرم الأولى الذي بدأ منه خلق السمٰوات والأرض.

(2) **مرحلة الفتق**: وهي مرحلة انفجار الجرم الأولي وتحوله إلى سحابة من الدخان.

(3) **مرحلة الدخان أو تخلق العناصر** في السماء الدخانية عبر تكون نويات غازي الإيدروجين والهيليوم وبعض نويات الليثيوم.

(4) **مرحلة الإتيان؛ أي: تخلق كل من الأرض وباقي أجرام السماء** بانفصال دوامات من السحابة الدخانية الأولى وتكثفها على ذاتها بفعل الجاذبية، وإنزال الحديد عليها.

(5) **مرحلة دحو الأرض** وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية، وتصدع الغلاف الصخري للأرض، وبدء تحرك ألواحه، وتكوّن كل من القارات وقيعان المحيطات، والجبال، وبدء دورات كل من الماء، والصخور، وتبادل القارات والمحيطات، وشق الأودية والفجاج والسبل، والتعرية، وتسوية سطح الأرض، وتكون التربة، وخزن المياه تحت السطحية، وغير ذلك من العمليات الأرضية. وقد سبقت مناقشة هذه المراحل في مجلد «السماء في القرآن الكريم» وفي الصفحات السابقة من هذا المجلد ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على المرحلة السادسة والأخيرة وهي مرحلة مباركة الأرض وتقدير أقواتها فيها وهو ما نعرضه في النقطة التالية.

(6) **مرحلة خلق الحياة من أبسط صورها إلى خلق الإنسان:**

ويقدر عمر الكون بما يتراوح بين10 و15 بليون سنة، بينما يقدر عمر أقدم صخور الأرض بنحو 4.6 بليون سنة وهو نفس العمر الذي تم التوصل إليه بتحليل صخور وتراب سطح القمر، وبتحليل العديد من النيازك التي سقطت على الأرض. والفارق الكبير بين العمرين المقدرين لكل من الأرض والسماء ـ وقد خلقا في لحظة واحدة ـ سببه أن صخور الأرض تدخل في دورات عديدة، وأن العمر المقدر لها هو عمر لحظة تيبس قشرتها، وليس عمر تكون ذرات عناصرها. وعمر تيبس قشرة الأرض لا يشمل أياً من مراحل الأرض الابتدائية، ولا مراحل تخلق العناصر التي كونت أرضنا الابتدائية وما تلا ذلك من أحداث.

وتشير الآيات القرآنية رقم (29) من سورة البقرة، وأرقام (9 ـ 12) من سورة فصلت

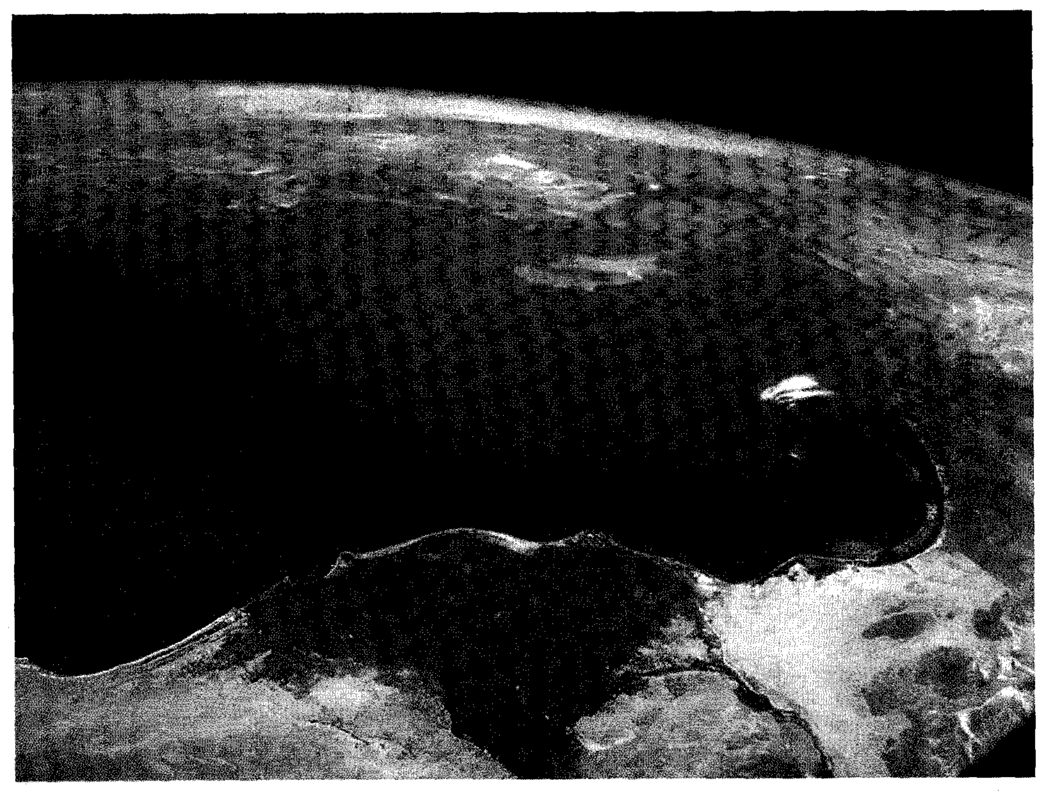
إلى سبق خلق الأرض لعملية تسوية السماء الدخانية الأولية إلى سبع سمٰوات؛ ويبدو أن المقصود هنا بالسبق هو خلق عناصر الأرض، والذي تلاه تجميع تلك العناصر على هيئة الأرض الابتدائية والتي تم رجمها بوابل من النيازك الحديدية، وتم تمايزها إلى سبع أرضين، ثم دحوها وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية وتشكيلها إلى صورتها الحالية، وذلك لأن خلق السمٰوات والأرض عمليتان متلازمتان ولايمكن لإحداهما أن تنفصل عن الأخرى.

تقدير أقوات الأرض في منظور العلوم الكونية:

الأرض هي ثالث الكواكب بعداً عن الشمس؛ وهي تجري حول هذا النجم في فلك بيضاني قليل الاستطالة (إهليلجي) بسرعة تقدر بنحو30 كيلومتراً في الثانية لتتم دورتها هذه في سنة شمسية مقدارها 365.25 يوماً تقريباً، وتدور حول نفسها بسرعة مقدارها نحو30 كيلومتراً في الدقيقة؛ لتتم دورتها هذه في يوم مقداره (24 ساعة تقريباً)، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول التي تتبادل بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها 66.5 درجة تقريباً، ويعزى للسبب نفسه هبوب الرياح، وهطول الأمطار، وفيضان الأنهار، وتتابع الدورات الزراعية.

ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بنحو150 مليون كيلومتراً، هذه المسافة التي حددتها كتلة كل من الشمس والأرض بتقدير من الخالق ﷻ تلعب دوراً مهماً في تقدير الأقوات في الأرض، وذلك لأن كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب في مجموعتنا تتناسب تناسباً عكسياً مع بعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جريه في مداره حولها، والشمس هي المصدر الرئيسي لجميع صور الطاقة الأرضية. ومن هنا تتضح الحكمة البالغة من تحديد كل من كتلة الأرض ومتوسط بعدها عن الشمس؛ فقد قدرت الطاقة التي تشعها الشمس من كل سنتيمتر مربع على سطحها بنحو عشرة أحصنة ميكانيكية يصل إلى الأرض منها جزء من بليوني جزء من هذه الطاقة الهائلة التي تشكل مصدراً مهماً من مصادر أقوات الأرض بالقدر المناسب لنوعية الحياة الأرضية.

فلو كانت الأرض أقرب قليلاً إلى الشمس لكانت كمية الطاقة التي تصلها محرقة لجميع صور الحياة على سطحها ومبخرة لمياهها ومخلخلة لغلافها الغازي. ولو كانت أبعد قليلاً لتجمدت مياهها ولتوقفت الحياة على سطحها. ويرتبط ببعد الأرض عن الشمس بقية أبعاد هذا الكوكب، ويقدر حجم الأرض بنحو مليون كيلومتراً مكعباً، ومتوسط كثافتها بنحو



صورة من أحد الأقمار الصنعيّة لدلتا النيل على البحر الأبيض المتوسط

5.52 جم/سم3، وعلى ذلك تقدر كتلتها بنحو ستة آلاف مليون مليون مليون طن، وهذه الأبعاد قد حددها ربنا تبارك وتعالى بدقة بالغة منذ اللحظة الأولى لخلق السمٰوات والأرض؛ أي: خلق الكون، فلو كانت الأرض أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً ما كانت صالحة للحياة الأرضية.

وللأرض مجال جاذبية مكنها من الاحتفاظ بغلافها الغازي، ولو فقدته ولو جزئيًّا لاستحالت الحياة على الأرض. وقد بدأت الأرض بكومة من الرماد كما أسلفنا من قبل، ثم رجمت بوابل من النيازك الحديدية ـ والتي تحتوي العناصر من الحديد إلى أعلى العناصر وزناً ذرياً ـ، والنيازك الحديدية الصخرية والصخرية. وهذه النيازك بأنواعها الثلاثة لا تزال تصل إلى الأرض بملايين الأطنان سنويًّا، وهذه العناصر وإنزالها إلى الأرض بأقدار معلومة من تقدير الأقوات فيها.

ثم مرت الأرض بمرحلة الدحو، وهو إخراج كل من أغلفتها المائية والغازية والصخرية، ثم غمرتها المياه بالكامل.



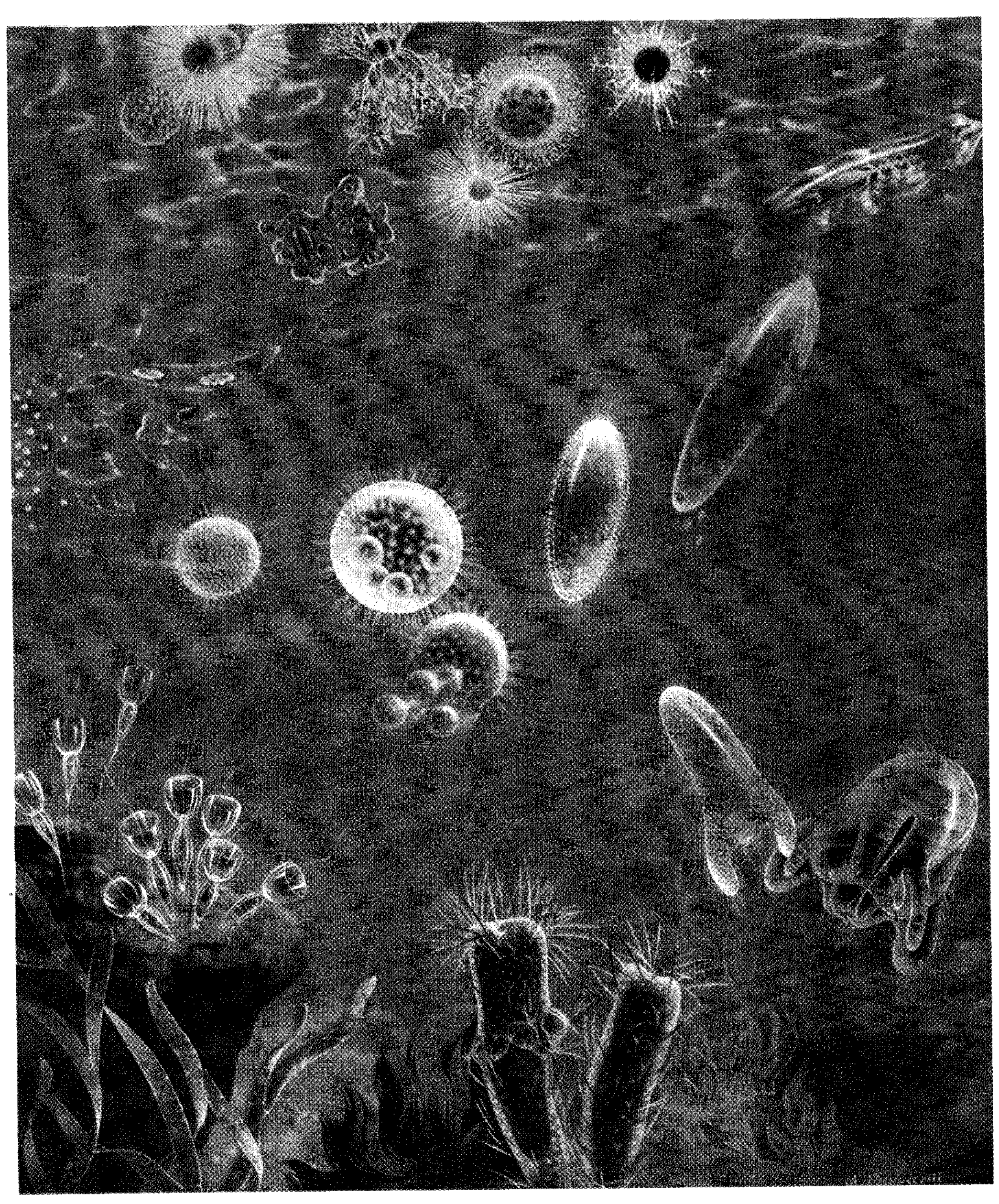
اندفاع الصهارة البركانية عبر الصدوع في قيعان المحيطات يتكون عنها الجزر البركانية

وبدأت عملية الدحو بتصدع الغلاف الصخري للأرض في قاع ذلك المحيط الغامر، واندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر تلك الصدوع، وعبر فوهات البراكين البحرية، ومن ثم بدأت عملية تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض والتي نتج عنها تكون الجزر البركانية في وسط ذلك المحيط الغامر، ثم أخذت تلك الجزر البركانية في التدافع تجاه بعضها البعض لتكون اليابسة بسلاسلها الجبلية الناتجة عن تصادم تلك الألواح الصخرية، وبدأت دورة التعرية تفتت صخور الأرض لتكون التربة، وبدأت دورات الصخور، والمياه، وتكون القارات وتفتتها حتى أصبحت الأرض مهيأة لاستقبال الحياة.

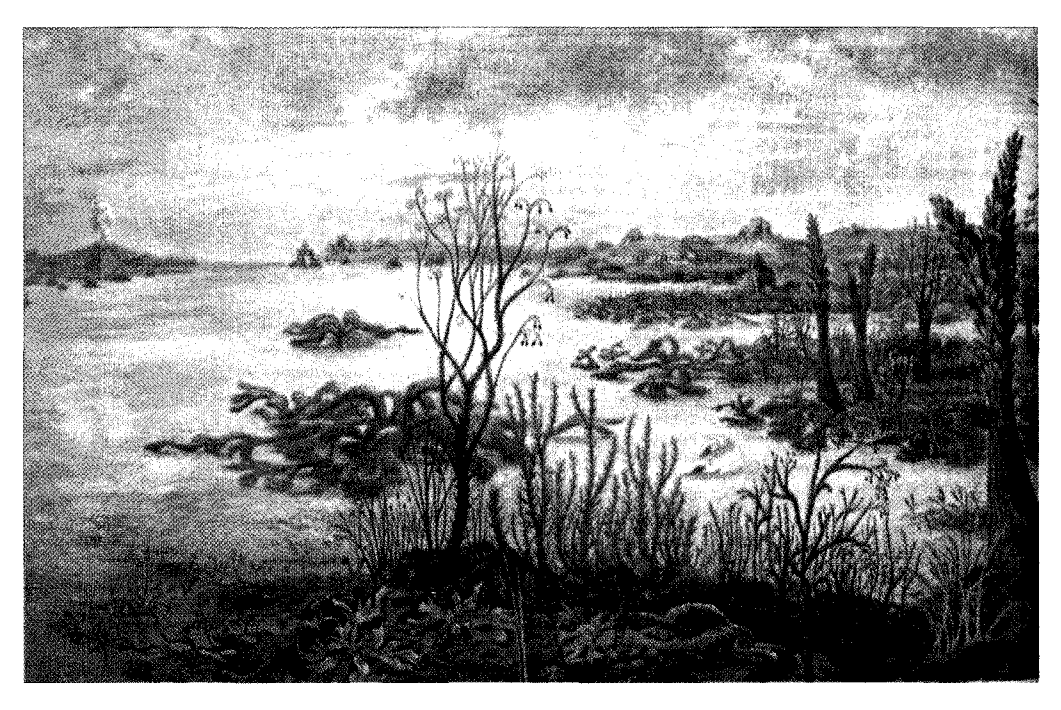
وبما أن عمر الأرض يقدر بنحو 4600 مليون سنة، وأن أقدم أثر للحياة الأرضية يقدر عمره بنحو 3800 مليون سنة؛ فإن إعداد الأرض لاستقبال الحياة قد استغرق ما لا يقلّ عن ثمانمائة مليون سنة.

وقد خلق الله تعالى الحياة الباكرة في مياه البحار والمحيطات، لأنها كانت الوسط المليء بالأملاح المذابة التي حملتها الأمطار والسيول والأنهار من اليابسة إلى قيعان البحار والمحيطات، وفي هذه الأثناء كانت صخور الأرض تُفَتَّتُ لتكوين التربة، وكانت مياه الأمطار تختزن فيها: بتهيئة حكيمة لاستقبال الحياة الأرضية.

ومن حكمة الله البالغة في الخلق أن النبات كان سابقاً في خلقه على الحيوان لأن الله ـ تعالى ـ قد أعطاه القدرة على صناعة غذائه بعملية التمثيل الضوئي مستفيداً من طاقة الشمس وغازات الجو وماء ومعادن الأرض، أما الحيوان فيعتمد في غذائه على النبات أو على



رسم للحياة الأولى على الأرض في مياه البحار والمحيطات قبل تكوين اليابسة



رسم للحياة البدائية على اليابسة ـ مرحلة النبات ـ بعد انحسار المياه

افتراس غيره من الحيوان إذا كانت له القدرة على ذلك.

وأقدم أثر للحياة على اليابسة لايتعدى عمره 450 مليون سنة، وقد بدأ بالنباتات الأرضية التي عمرت الأرض وسادت سيادة هائلة مما ساعد على تكوين راقات الفحم من بقاياها في عصر سمي باسم «عصر الفحم»، وامتد إلى نحو 300 مليون سنة مضت، واستمرت الحياة الأرضية في الازدهار حتى اكتملت بخلق الملايين من أنواع الحياة النباتية والحيوانية، ولعب كل نوع منها دوراً مهماً في استقبال المراحل التالية عليه، كما لعبت بقاياها دوراً أهم في تكوين النفط والغاز، ولعبت عوامل التعرية والحركات البانية للجبال دورها في تمهيد الأرض وتهيئتها لاستقبال هذا المخلوق المكرم المعروف باسم الإنسان، والذي لا يكاد أقدم أثر له على الأرض يتعدى المائة ألف من السنين.

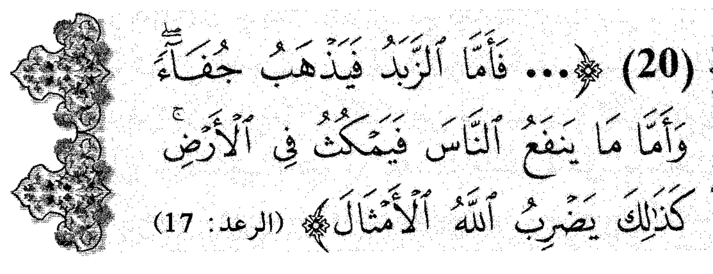
فسبحان الذي خلق الأكوان، ومنها الأرض، وهيَّأها لاستقبال هذا المخلوق المكرم بهذه المراحل المتطاولة، وهو القادر على أن يقول للشيء كن فيكون.

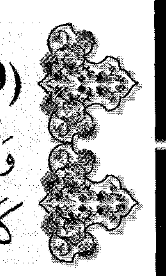
وسبحان الذي بارك الأرض، وقدَّر فيها أقواتها في أربع مراحل متتالية: هي الرتق، الفتق، الدحو، وإرساء الجبال، فقال ـ عز من قائل ـ معاتباً الكافرين والمشركين من عباده:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾. **(فصلت: 9، 10)**

وهذه الحقائق لم يتضح للإنسان شيء منها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها وهو كتاب أنزل من قبل أربعة عشر قرناً على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، لمما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، ويجزم بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، فحفظ حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وسيظل القرآن الكريم محفوظاً بحفظ الله إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها حتى يبقى حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، فالحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه، والحمد لله الذي بعث به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ والحمد لله الذي تعهد بحفظ هذا الدين القويم بمصادره الأساسية: كتاب الله، وسنة رسوله، في الوقت الذي تعرضت كل الرسالات السابقة للضياع التام وما بقي منها من ذكريات نقلت شفاهاً من الأجداد للأبناء والأحفاد والخلفاء، ومن الأبناء إلى من يليهم؛ وحينما دونت تم ذلك في لغات غير لغة الوحي فحرفت، وبُدِّلَتْ، وغُيِّرتْ، وظلت تتعرض للتحريف تلو التحريف، وللتبديل والتغيير، وللمراجعة والتحرير عقب المراجعة والتبديل والتغيير حتى أخرجوها عن إطارها الرباني، وجعلوها عاجزة عن هداية أتباعها، وبقي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة طوقا النجاة لكل مؤمن في الدنيا قبل الآخرة.









هذا النص القرآني المعجز جاء قبل منتصف سورة «الرعد» بقليل، وهي سورة مكية مدنية، عدد آياتها ثلاث وأربعون بعد البسملة، وبها سجدة تلاوة واحدة، وقد سميت باسم هذه الظاهرة الجوية (الرعد)، لإشارتها إلى حقيقة تخفى على كل الغافلين من الخلق المكلفين، وهي أن الرعد كغيره من الظواهر الكونية، هو صورة من صور تسبيح تلك الظواهر لله الخالق الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق: ﴿. . . وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ..(الإسراء: 44).

ومحور سورة «الرعد» الأساسي هو قضية العقيدة بتفاصيلها من توحيد الألوهية، والربوبية، والدينونة لله الخالق وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، وبخاتمهم أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ، والإيمان بحتمية البعث، وبضرورة الحساب، وبالخلود في حياة قادمة إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً.

وتبدأ سورة «الرعد» بأربعة حروف مقطعة (الٓمٓرٓ) والحروف المقطَّعة التي جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، والتي تضم أسماء نصف عدد حروف الهجاء العربية الثمانية والعشرين، تعتبر من الأسرار التي لم تكتشف بعد في كتاب الله.

وتؤكد السورة لرسول الله ﷺ أن القرآن الكريم الذي أنزل إليه من ربه هو الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، ثم تعرض لعددٍ من آيات

الله في الكون الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق؛ وذلك في مقام الاستشهاد على قدرته ﷻ في إفناء خلقه، وإعادة بعثهم من جديد، وبعث الكون كله من حولهم؛ وذلك لأن حجة الكافرين في كفرهم كانت ولا تزال هي عجزهم عن فهم إمكانية البعث بعد تحلل الأجساد وتحولها إلى تراب، ناسين أو متناسين أن الله على كل شيء قدير. وتعرض الآيات لعقاب المكذبين بالبعث يوم القيامة؛ وذلك لأن الكفر بالبعث كفر بالله ـ تعالى ـ وتكذيب لكتبه ورسله..!! وتعجب من استعجال الكافرين لعذاب الله، بدلاً من سؤال رحمته وهدايته، وكأنهم لم يعتبروا بما حصل للأمم من قبلهم، وتؤكد أن الله ـ تعالى ـ لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإنه لشديد العقاب..

وتذكر الآيات أن الكافرين كانوا يستعجلون نزول المعجزات الحسية، وكأن القرآن الكريم ـ مع عظم قدره ـ لم يكن كافياً لإقناعهم!!.

وتؤكد الآيات في سورة «الرعد» لرسول الله ﷺ أن هذا الموقف من الكفار لايضيره؛ لأنه قد أرسل للعالمين منذراً وهادياً، كما أرسل من قبله أعدادٌ من رسل الله لأقوامهم، وأن الله يعلم كل شيء، وهو ـ تعالى ـ علام الغيوب، وأن كل شيء عنده بمقدار، وأنه ﷻ هو الذي يحفظ خلقه، فقد أوكل بكل عبد من عباده ملائكة يحفظونه إلى أن يأتي أمر الله ـ الذي لا يغير ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ـ وأنه لا رادَّ لأمره، وأن له دعوة الحق، بينما دعاء الكافرين في ضلال!!

وتؤكد الآيات أن كل ما في الكون يسجد لله ـ تعالى ـ طوعاً وكرهاً، وحتى ظلالهم ـ في تحركها بالغدو والآصال ـ تمثل صورة من صور الخضوع لله بالطاعة لجلاله والامتثال لأوامره!!

وتأمر الآيات في سورة «الرعد» رسول الله ﷺ بسؤال الكافرين عن ربِّ السمٰوات والأرض، ويأتي الجواب صريحاً قاطعاً: الله رب السمٰوات والأرض، وانطلاقاً من ذلك تعيب الآيات على الكافرين اتخاذهم أولياء من دون الله، لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وهؤلاء الأولياء المتخذون من دون الله لم يخلقوا شيئاً، والله خالق كل شيء وهو الواحد القهار.

وتتساءل الآيات: هل يستوي الأعمى والبصير؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟ وتشبه باطل الكافرين بالزبد الطافي على وجه الماء المتدفق في الأودية أثناء السيل، أو الصاعد على وجه ما يصهر من خامات المعادن الفلزية النفيسة والنافعة، وتشبه الحق الذي أنزله الله تعالى بما يمكث في مجاري السيل وتحت خبث الفلزات من نفيس المعادن

ونافعها. وتتحدث الآيات في سورة «الرعد» بعد ذلك عن مصير كل من المؤمنين والكافرين يوم القيامة، وتعرض لشيء من صفات كل منهم، مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، فلا يتخيل كافر أو مشرك أعطي في الدنيا حظاً وفيراً أن هذا يمكن أن يكون شاهداً له أنه على الحق، وتؤكد الآيات أن فرح الكافرين والمشركين بالحياة الدنيا هو مجرد غرور؛ لأنها متاع مؤقت زائل إذا قورنت بالخلود في الآخرة!!

وتكرر الآيات في سورة «الرعد» تساؤل الكافرين عن المعجزات الحسية التي كانوا يرون ضرورة تنزلها تأييداً لرسول الله ﷺ، وترد عليهم بأن الله ـ تعالى ـ يضل من يشاء ممن أراد الضلالة، ويهدي من يشاء ممن طلب الهداية، وأن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله؛ لأن القلوب المؤمنة لاتطمئن إلا بذكره..!

وتخاطب الآيات رسول الله ﷺ مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ قد أرسله في أمة قد خلت من قبلها أمم ليتلو عليهم الذي أوحي إليه، وتدعوه أن يعلن إيمانه بالتوحيد الخالص لله تعالى، والتوكل الكامل عليه وحده، والإيمان الصادق بأن إليه عَوْد ورجوع كل موجود!! وتذكر أنه لو أن كتاباً إذا تليت آياته تحركت بها الجبال عن مواضعها، وتصدعت بها الأرض وغارت عن مناسيبها، وخوطب بها الموتى فأجابوا من داخل قبورهم.. لكان هو القرآن الكريم، وعلى الرغم من ذلك فإن كثيراً من الكفار والمشركين في صد عنه، وتطاول عليه، وعناد له، وتآمر على أهله وخاصته، ولله الأمر جميعاً! وتُطَمْئِن الآيات الذين آمنوا بأن الله ـ تعالى ـ لو يشاء لهدى الناس جميعاً، وأنه ﷻ يعاقب الذين كفروا في الدنيا قبل الآخرة، فلا يزالون ـ بأعمالهم ـ تصيبهم القوارع الشديدة أو تنزل قريباً منهم.. حتى يأتي أمر الله، والله لا يخلف الميعاد.

وتثبِّت الآيات رسول الله ﷺ بأن الرسل من قبله قد استهزىء بهم، كما استهزأ الكافرون والمشركون ـ ولا يزالون ـ بما يدعو إليه من الحق، وأن الله ـ تعالى ـ قد أخذ الذين استهزأوا برسله أخذاً وبيلاً، وأن عذابهم في الآخرة أشد وأبقى، وأن ليس لهم من واقٍ من عذاب الله. ولضلال الكافرين، ومكرهم، وشركهم بالله ـ تعالى ـ أضلهم الله، وأكد أن عقباهم النار، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازي كلاً بما يستحق!!

وفي المقابل: تعرض الآيات لشيء من أوصاف الجنة التي وعد الله بها المتقين، وتؤكد أنه من المنطقي أن يفرح الذين أوتوا علم الكتب المنزلة من قبل بما أنزل إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ؛ لأنه الصورة النهائية التي تكاملت فيها كل رسالات السماء

السابقة، وإن كفر بذلك عدد من الأحزاب المنكرة للدين، أو الجاحدة لنعم رب العالمين.

وتشير الآيات إلى أن إنزال القرآن الكريم حكماً عربياً، ومعجزة خالدة، باقية إلى يوم الدين، هو معجزة هذا النبي الخاتم، الذي يحذره ربه من اتباع أهواء الكافرين بعد الذي جاءه من العلم، وأنه ما كان لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله، وأن لكل أجل كتاباً، وأن الله ـ تعالى ـ يمحو ما يشاء ويثبت، وأن عنده أم الكتاب.

وتشير الآيات إلى إنقاص الأرض من أطرافها كإحدى الحقائق الكونية الشاهدة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة، وأن الله ـ تعالى ـ يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب، كما تشير إلى مكر الأمم السابقة، وتؤكد أن لله المكر جميعاً فهو ـ تعالى ـ يعلم ما تكسب كل نفس، وسوف يعلم الكفار لمن عقبى الدار، وتختتم السورة الكريمة بخطاب لرسول الله ﷺ بأنه إذا كان الكافرون ينكرون بعثته الشريفة فالله ـ تعالى ـ يشهد بصدقها كما يشهد بها كل من عنده علم الكتاب، وتكفيه شهادة الله ـ تعالى ـ عن كل شاهد وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ **(الرعد: 43)**.

وقد سبق وأن ذكرنا الآيات الكونية التي استعرضتها سورة الرعد، وكل قضية من قضاياها تحتاج إلى فصل خاص بها، ولكنني سوف أركز هنا فقط على قول الحق ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾

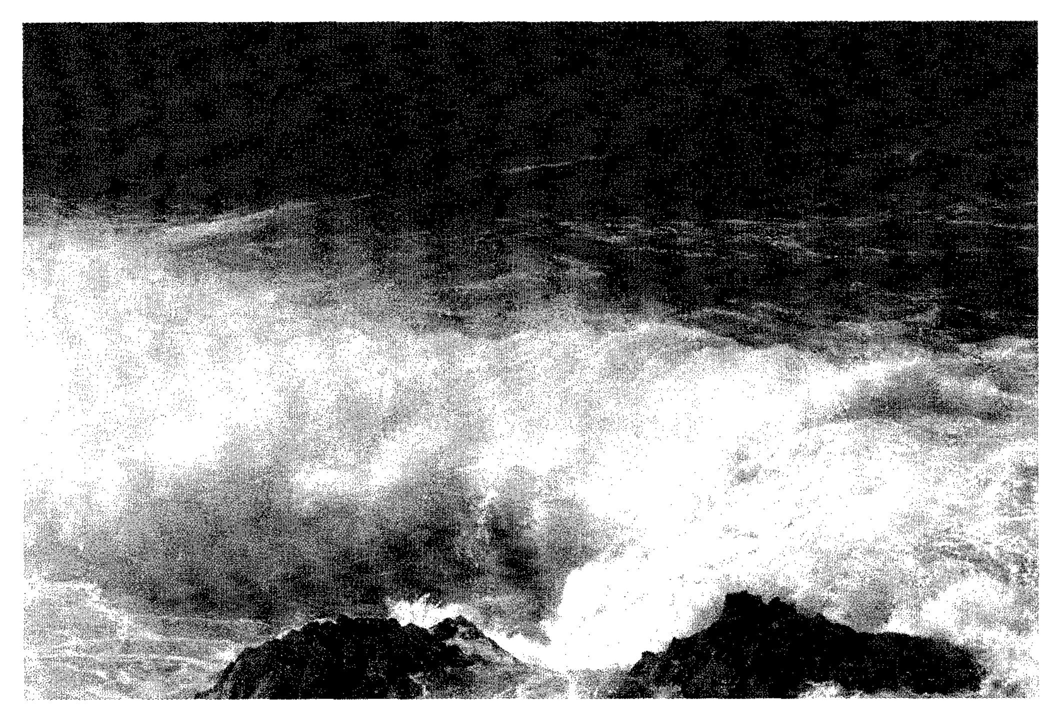
(الرعد: 17).

ولكن قبل ذلك لا بد من استعراض الدلالة اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة، ولأقوال عدد من المفسرين السابقين فيها.

الدلالة اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة:

من الألفاظ الواردة في الآية الكريمة والتي تحتاج إلى بيان دلالتها اللغوية ما يلي:

(1) **الزبد**: (الزبد) في العربية مثل: (زبد الماء)، و(زبد البعير)، و(زبد الذهب أو الفضة) وغيرها، هو فقاعات هوائية بها قليل من بخار الماء وبعض الدقائق الصلبة التي لا تكاد أن ترى على هيئة الرغوة: وينشأ (الزبد) عن التحريك الشديد للسوائل أو غليها أو تخمُّرها، وعن صهر الفلزات وغليانها، والزبد (الخبث) في الحالة الأخيرة قد يتصلب



تلاطم الأمواج في البحار واشتداد حركتها ينتج عنه الرغوة البيضاء وهي «الزبد»

ويجمد ولكنه يبقى مشابهاً لغثاء السيل في امتلائه بالفراغات والقاذورات، ولذلك تطلق لفظة (الزبد) على كل أمر تافه حقير؛ لأن هذا (الزبد) عادة لا قيمة له، ولا فائدة منه.

و (**الزبد**) عادة ما يعلو سطح الماء عند اشتداد حركته ويسمى: الغثاء (من مثل: غثاء السيل)، ويعلو سطح السوائل أو الجوامد عند غليانها على هيئة الرغوة ويسمى: الوضر أو الخبث ويقال: (أزبد) الشراب أي: صار ذا (زبد) إذا تخمر ويقال: بحر (مزبد) أي: مائج يقذف (بالزبد)، و(الزبد) اشتق اسمه من (الزُّبْد) لمشابهته إياه في اللون، ويقال: (زبده) أي: أطعمه (الزبد) كما يقال: (زبدته) (زبداً) أي: أعطيته مالاً وفيراً كالزبد كثرة، أو أطعمته (الزبد)، وفي الحديث الشريف: «**إنا لا نقبل زبد المشركين**»[1]، و(الزباد) نور يشبه الزبد بياضاً.

(2) **جُفَاء**: (الجفاء) في العربية هو القطيعة وكل ما هو ضد البر، ولذا يقال: (جفوته) (أجفوه) (جفوة) و(جفاء) أي: هجرته وقطعت كل صلة لي به، وهو بالنسبة لي

---

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (الحديث: 9/ 216).

(مجفو)، ويقال: (تجافى) جنبه عن الفراش أي: نبا عنه، و(استجفاه) أي: عده (جافياً)، كما يقال: (جفت) القدر و(أجفت) و(أجفأت زبدها) (إجفاء) أي: ألقته إلى خارجها، و(أجفأت) الأرض أي: أصبحت قاحلة (كالجفاء) بذهاب خيرها.

(3) **مكث**: (المكث) بضم الميم وكسرها: اللبث والثبات والانتظار، يقال: (مكث) (مكثاً): و(مكثاً) و(تمكث) أي: بقي وتلبث فهو (ماكث) وهم (ماكثون)، والأمر (امكثوا) أي: ابقوا وتلبثوا.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ **(الرعد: 17)**.

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «...اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطراً، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء وهذا صغير وسع بقدره ..﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾، أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ الآية، هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: ليجعل حلية، أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾، أي: إذا اجتمعا؛ فلا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ﴾ أي: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء وكذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

وجاء تفسير في الجلالين ـ رحم الله تعالى كاتبيه ـ ما نصه: «ثم ضرب مثلاً للحق والباطل فقال: ﴿أَنزَلَ﴾ تعالى ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ بمقدار

ملئها ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ عالياً عليه، والزبد هو ما على وجهه من قذر ونحوه ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ قرىء بالتاء والياء ﴿عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ من جواهر الأرض كالذهب والفضة والنحاس ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ طلب ﴿حِلْيَةٍ﴾ زينة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ ينتفع به كالأواني إذا أذيبت ـ أي: انصهرت ـ ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مثل زبد السيل، وهو خبثه الذي ينفيه الكير ﴿كَذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يضرب مثلهما ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من السيل ومما أوقد عليه من الجواهر والمعادن ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ باطلاً مرمياً به، وهذا مثل الباطل ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء والجواهر والمعادن ﴿فَيَمْكُثُ﴾ يبقى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ زماناً، وهذا مثل الحق، كذلك الباطل يضمحل وينمحق وإن علا على الحق في بعض الأوقات، والحق ثابت باقٍ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: المذكور ﴿يَضْرِبُ﴾: يبين ﴿ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾».

• وجاء في تفسير الظلال ـ رحم الله تعالى كاتبه رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «ثم نمضي مع السياق، يضرب مثلاً للحق والباطل، للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح، للخير الهادىء والشر المنتفخ، والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار، ولتدبير الخالق المدبر المقدر للأشياء، وهو من جنس المشاهد الطبيعية التي يمضي في جوها السياق: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ . . الآية. وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال في المشهد السابق، ويؤلف جانباً من المشهد الكوني العام الذي تجري في جوّه قضايا السورة وموضوعاتها وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار. وأن تسيل هذه الأودية بقدرها، كلٌّ بحسبه، وكلٌّ بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق عز وجل وتقديره لكل شيء.. وهي إحدى القضايا التي تعالجها السورة.. وليس هذا أو ذلك بعد إلا إطاراً للمثل الذي يريد الله تعالى ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذي يمرون عليه دون انتباه. إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان، هذا الزبد نافش رابٍ منتفخ. ولكنه بعد غثاء، والماء تحته سارب ساكن هادىء، ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة، كذلك يقع في المعادن التي تذاب ـ تصهر ـ لتصاغ منها حليةً كالذهب والفضة، أو آنيةً أو آلةً نافعةً للحياة كالحديد والرصاص، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل، ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء. ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً ولكنه بعد زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاءً مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئاً ساكناً، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي،

والمعدن الصريح ينفع الناس ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وكذلك يقرر مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات، ومصائر الأعمال والأقوال.. وهو الله الواحد القهار، المدبر للكون والحياة، العليم بالظاهر والباطن، والباقي والزائل».

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً ـ ما نصه:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ضرب الله مثلين للحق هما الماء الصافي، والجوهر الصافي، اللذان ينتفع بهما، ومثلين للباطل: هما زبد الماء، وزبد الجوهر، اللذان لا نفع فيهما ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ فسالت المياه في الأودية بمقدارها الذي عينه الله تعالى، واقتضته حكمته في نفع الناس، أو بمقدارها قلة وكثرة بحسب صغر الأودية وكبرها، والأودية جمع وادٍ وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة، ويطلق على الفرجة بين الجبلين .﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾ أي: فحمل الماء السائل في الأودية ﴿زَبَدًا﴾ وهو ما يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته ويسمى: الغثاء، وما يعلو على القدر عند الغليان كالرغوة ويسمى: الوضر والخبث .﴿رَّابِيًا﴾ عالياً مرتفعاً فوق الماء، طافياً عليه، وهنا تم المثل الأول، ثم ابتدأ في الثاني فقال ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: ومن الذي يفعلون عليه الإيقاد في النار كالذهب والفضة والنحاس والرصاص وغيرها من المعادن، ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: لأجل اتخاذه حليةٍ للزينة والتجمل كالأولين ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أو لأجل اتخاذه متاعاً يرتفق به كالآخرين .﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مثل ذلك الزبد في كونه رابياً فوقه، فقوله (زبد) مبتدأ مؤخر خبره ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يضرب مثلهما للناس للاعتبار، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ فأما الزبد الذي مِنْ كلٍّ منَ السيل ومما يوقدون عليه في النار فيذهب مرمياً به مطروحاً، يقال: جفأ الماء بالزبد أي: إذا قذفه ورمى به، وجفأت القدر: رمت بزبدها عند الغليان، وأجفأت به وأجفأته.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله تعالى خيراً ـ مانصه: «فهو الذي أنزل عليكم الأمطار من السحاب، فتسيل بها الأنهار والوديان كلٌّ بالمقدار الذي قدره الله تعالى لإنبات الزرع وإثمار الشجر، والأنهار في جريانها تحمل ما لا نفع فيه ويعلو على سطحها، فيكون فيها ما فيه نفع فيبقى، وما لا نفع فيه يذهب، ومثل ذلك الحق والباطل، فالأول يبقى والثاني يذهب، ومن المعادن التي يصهرونها بالنار مايتخذون منها حلية كالذهب والفضة ومنافع ينتفعون بها كالحديد والنحاس، ومنها ما لا نفع فيه يعلو السطح، وأن ما لا نفع فيه يُرمى وينبذ، وما فيه النفع يبقى، كذلك الأمر في

العقائد: ما هو ضلال يذهب، وما هو صدق يبقى، وبمثل هذا يبين الله سبحانه الحقائق، ويمثل بعضها ببعض لتكون كلها واضحةً بينةً». وجاء في الهامش: «بين الله شبيهين للحق هما الماء الصافي والمعدن الصافي ينتفع بهما، وبين شبيهين للباطل هما زبد الماء وزبد المعادن المذابة (المنصهرة) لا نفع منها فقال: أنزل من السحاب مطراً فسالت مياه أودية بمقدارها في الصغر والكبر فحمل الماء السائل زبداً عالياً على وجه الماء يسمى: غثاء، ومن بعض المعادن التي يوقد الناس عليها في النار كالذهب والفضة والنحاس والرصاص طالبين عمل حلية أو متاع ينتفع به كالأواني وغيره، زبد مثل زبد الماء في كونه عالياً فوق سوائل ـ والأصح هو منصهر ـ المعادن يسمى: خبثاً كهذا المذكور من الماء وزبده والمعدن وزبده، بيّن الله ﷻ للناس الحق والباطل، فالحق كالماء الصافي والمعدن الصافي والباطل كالزبد الذي لاينتفع به. فأما الزبد الناشيء عن السيل والمعادن فيذهب مرمياً به، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن فيبقى في الأرض للنفع كهذين المثلين في الجلاء والوضوح، يبين الله ﷻ الأمثال للناس فيبصرهم بالخير والشر».

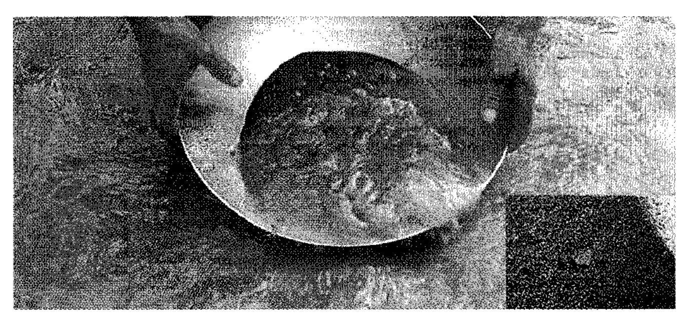
مفهوم الآية الكريمة في ضوء المعارف الحديثة:

يقول ربنا ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝١٧﴾ **(الرعد: 17)**.

هذا المثل القرآني الرائع يشبه باطل الدنيا بالزبد الذي يطفو فوق أسطح السيول المتدفقة بالماء في الأودية الضيقة والواسعة على حد سواء، أو بما يشبهه من الزبد الذي يطفو فوق أسطح المعادن الفلزية النفيسة والنافعة حينما يتم صهرها مع بعض المواد لتنقيتها من الشوائب العالقة بها، وفي الحالتين يتضح أن الزبد الذي يحمله السيل ـ غثاء السيل ـ، والزبد الذي يطفو فوق أسطح الفلزات المصهورة ـ خبث الفلزات ـ لا قيمة لهما، ولا فائدة في أي منهما، وكلاهما نهايته النبذ والإلقاء،.. وكذلك الباطل...!!

وفي المقابل يشبه هذا المثل القرآني الحق بما يمكث في الأرض مما ينتفع به الناس في الحالتين: ففي حالة السيول الجارية في الأودية ينتفع الناس بمائها ـ والماء سر من أسرار الحياة ـ كما ينتفعون بما يحمله السيل من ثرواتٍ معدنيةٍ كبيرةٍ تترسب بالتدريج على طول قاع الوادي الذي يندفع فيه السيل، وذلك مع تباطؤ سرعة جريان الماء المتدفق في الأودية وتناقص قدرته على الحمل، فتترسب هذه المعادن كل حسب حجم حبيباته وكثافته

النوعية: الأثقل فالأقل كتلة بالتدريج حتى يتم تمايز حمولة تلك السيول من المعادن، وتركيز كل منها في مناطق محددة من مجاري السيول، وتعرف هذه الترسيبات المعدنية باسم:



البحث عن الذهب من خلال الرسوبيات القرارة ـ الترسبات المعدنية ـ الموجودة في مجاري السيول والأنهار

رسوبيات القرارة **(Placer Deposits)** وكثير من الثروات الأرضية كالذهب والفضة تتجمع بمثل هذه الطريقة لوجودها أصلاً بنسبٍ ضئيلةٍ في صخور الأرض، ويتم ذلك بتكرار هذه العملية لمرات عديدة عبر آلاف السنين، إن لم يكن عبر عشرات الآلاف من القرون، وهذه حقيقة لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد نزوله، ولذلك ركز الأقدمون من المفسرين على أن ما يمكث في الأرض بعد ذهاب غثاء السيل، (أي: زبده الذي يذهب جفاء) هو الماء، وما يستفاد به منه في حياة الناس من شرب، وسقيا للحيوانات، وري للنباتات والمزروعات..

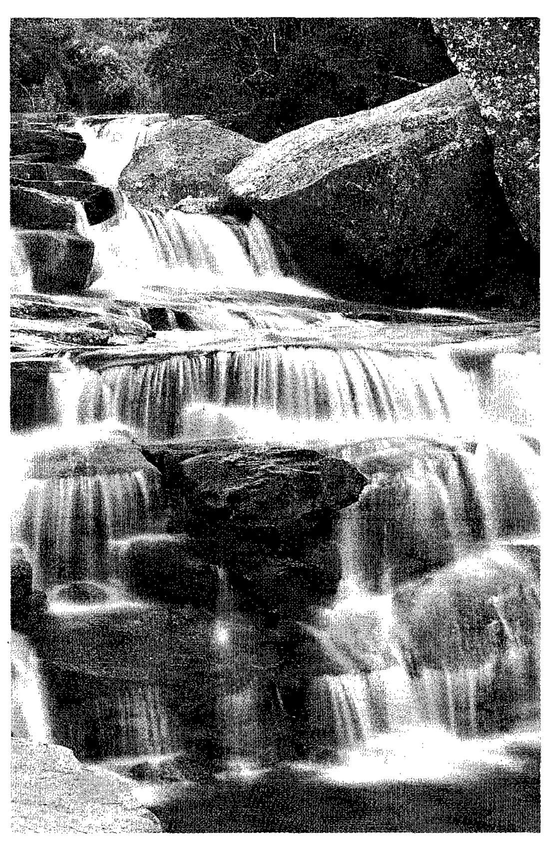
وفي حالة خامات الفلزات النفيسة كالذهب والفضة والبلاتين، والمفيدة كالحديد والنحاس والرصاص والقصدير وغيرها، فإنه يضاف إلى تلك الخامات بعض المواد التي تساعد على انصهارها، وعلى تنقيتها مما فيها من شوائب، وهذه المواد المساعدة من مثل الحجر الجيري، والرمل، وثاني أكسيد المنجنيز وغيرها تتحد مع ما بتلك الفلزات من شوائب عند صهرها وتطفو بها فوق سطح الفلز المنصهر مكونةً ما يعرف باسم: خبث الفلزات، وهذا الخبث ينفصل تماماً عن الفلز المنصهر الصافي، وحينما يترك ليتبرد يتجمد على هيئة طبقة زجاجية سوداء، مليئة بالفقاعات الهوائية، تشبه إلى حد بعيد غثاء السيل وما يحمل معه من شوائب، وبانفصال طبقة الخبث يصبح الفلز في درجة عالية من الصفاء والنقاء، وبه يشبه القرآن الكريم الحق في صفائه ونقائه.

والتشبيه في الحالتين: تشبيه الباطل بالزبد الجافي، وتشبيه الحق بما يمكث في الأرض فينتفع به الناس جاء على قدر من الدقة اللغوية والعلمية، والإحاطة والشمول بالمعنى المقصود لم تكن متوافرة لأحدٍ من الخلق وقت تنزل القرآن الكريم ولا لأكثر من عشرة قرون بعد تنزله.. مما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة

والرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقَّاه صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

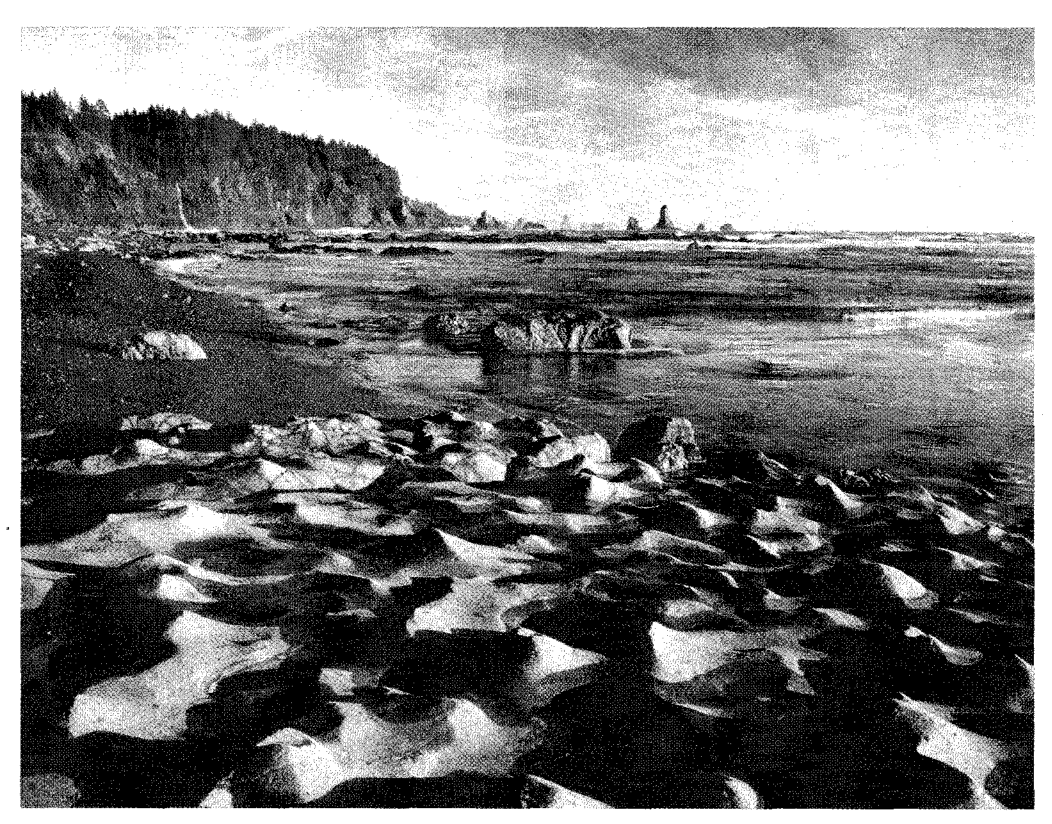
ومن الأمور الثابتة اليوم أن دوراً من الأدوار المنوطة بماء الأرض ـ والماء أصلاً هو سر من أسرار الحياة ـ منذ اللحظة الأولى لانبثاقه من داخل الأرض إلى خارجها ـ خلال فترة دحوها ـ وبدء دورته حول الأرض هو شق المجاري المائية والأودية، وتسوية سطح الأرض، والتعاون على تعرية الصخور ونحتها وبريها، وتفتيت مكوناتها، وإذابة ما يقبل الذوبان من تلك المكونات وحمله إلى مياه البحار والمحيطات، وترك الباقي على هيئة تربة الأرض، أو حمله أيضاً إلى البحار والمحيطات والبحيرات والمنخفضات على هيئة الرسوبيات التي تتضاغط تدريجياً لتكوّن الصخور الرسوبية.

ومن المعروف أن صخور الأرض تتكون من المعادن، وأن تلك المعادن تتباين في تركيبها الكيميائي، وفي صفاتها الفيزيائية ـ الفطرية ـ، فمنها ما يتحمل عمليات التعرية ويقاومها فيبقى لفترة طويلة، ومنها ما لا يقوى على ذلك فيبلى بسرعة فائقة، ومنها ما هو عالي الكثافة فيرسب في الماء، ومنها ما هو أقل كثافة من الماء فيحمله الماء إلى مسافات بعيدة ويظل عالقاً به لفترات طويلة، وحينما تحمل السيول الجارفة هذا الفتات الصخري منحدرة به من قمم الجبال الشاهقة إلى سفوحها الهابطة والسهول المحيطة بها، قد تنتهي به إلى قيعان البحار والمحيطات أو إلى دالات داخلية في قلب السهول والسهوب الصحراوية، وتقوى السيول على حمل الفتات الصخري طالما كانت مندفعة بسرعات عالية، ولكن حينما تضعف سرعة التيار المائي تتناقص قدرته على



اندفاع الماء في المجاري والأودية يساهم في شق الفجاج والسبل، وفي تسوية سطح الأرض وتعرية الصخور وحتِّها

حمل الفتات الصخري فيبدأ في ترسيبه في مجرى الوادي الذي يتحرك فيه السيل بالتدريج حسب كتلة ما يحمل من فتات، وبهذه الطريقة يتمايز هذا الفتات الصخري حسب حجم حبيباته، والكثافة النوعية لكل منها، فالمعادن ذات الكثافة العالية والحبيبات الخشنة تترسب أولاً، ويليها بالتدريج المعادن ذات الكثافة الأقل وحجم الحبيبات الأدق، وتؤدي عملية التمايز تلك إلى ترسيب عدد من جواهر الأرض كالألماس والياقوت، والزمرد، والزبرجد، والعقيق، والفيروز، وغيرها، وإلى تركيز عدد من الخامات الفلزية النفيسة من مثل: الذهب، والفضة، والبلاتين، وغيرها، والنافعة من مثل: الحديد، والنحاس، والرصاص، والقصدير، والزنك، والمنجنيز، والكروم، والنيكل، وغيرها، على هيئة تجمعات رسوبية في قيعان الأودية التي مرت بها تلك السيول، ولعل هذا هو من دلالات قول الحق ﷻ: ﴿... وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ وليس ما يمكث في الأرض هو الماء فقط كما تصور السابقون من المفسرين (جزاهم الله خيراً).



المد والجزر يفتت الصخور ويعريها ويحمل الخفيف من المعادن المترسبة بفعل السيول ويركز الثقيل منها على الشواطىء

كذلك في قول الحق ﷻ. . ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ .. نرى بالإضافة إلى حجم الوادي ضِيقاً وسعةً (وبالتالي قلة في كم الماء المندفع فيه وكثرة) أنه يمكن إضافة إمكانية أن يكون من المقصود أيضاً الطريق الذي يسلكه الماء ماراً بمناطق مُمَعدنة أو غير ممعدنة وبأي نوع وقدر من التمعدن؛ لأن هذا من تقدير الله كمًّا ونوعاً.

أما المواد الخفيفة التي تحملها فقاقيع الهواء المتكوِّنة بسبب سرعة اندفاع الماء في الوادي على هيئة زبد السيل أو غثائه، فتتكون من الأتربة الدقيقة، وبقايا المعادن المسحوقة أو الرقيقة، والقش، وغيره من فتات النباتات، مما لا قيمة له، ولا نفع منه، ولذا تجمع تحت اسم: «غثاء السيل» ويعبَّر به عن كل تافه وحقير. ويحمل السيل غثاءه فوق سطح مائه حتى يلقي به على جوانب الوادي أو في دلتاه الداخلية أو في عرض البحر فلا يكاد يبقى له من أثر..!!

وعلى ذلك فإن عوامل التعرية ـ وبخاصة الماء، سائلاً ومتجمداً ـ قد لعبت، ولا تزال تلعب دوراً مهماً في تهيئة الأرض، لكي تكون صالحةً للعمران، ومن أهم هذه الأدوار ـ بالإضافة إلى كون الماء مصدراً من مصادر الحياة وسراً من أسرار الله فيها ـ هو دور الماء في تفتيت الصخور، وتكوين كل من التربة والرسوبيات المختلفة، وفرز ما فيها من معادن غير قابلة للذوبان في الماء، ومعادن مقاومة لعمليات البري والتفتيت، وتركيزها عبر نقلها من مكنوناتها في داخل الصخور بعد تفتيتها، وحملها بواسطة السيول، وترسيبها في مجاري الأودية والأنهار ودالاتها، وعلى شواطئ البحار وفي مستنقعاتها، مع تباطؤ سرعة جريان السيل، وتناقص قدرة الماء على الحمل، ومن هنا كانت تسمية تلك الرسوبيات باسم: **رسوبيات القرارة**، أما على شواطئ البحار فتقوم عمليات المد والجزر بحمل الخفيف من المعادن وتركيز الثقيل منها على الشواطئ تحت مسمًّى: «**الرمال السوداء**».

ويعد كل من الذهب والفضة والقصدير من الثروات الأرضية المهمة التي تركز في رسوبيات القرارة، وتستخرج من رواسب الأودية، ومن قيعان ودالات بعض الأنهار؛ ولذا تعتبر رسوبيات القرارة من المصادر التعدينية الهامة والميسرة على وجه الأرض.

وقد قامت السيول المائية في القديم ـ ولا تزال تقوم ـ بإزالة ما بطريقها من نباتات، وحملها إلى عدد من البحيرات الداخلية، والمستنقعات، وشواطئ البحار، حيث تم طمرها بالرسوبيات، وتفحمها بمعزل عن الهواء، مكونةً طبقاتٍ من الفحم ذات القيمة الاقتصادية العالية، وبزيادة الحرارة على تلك الطبقات الفحمية في بعض المناطق تحولت إلى الغاز

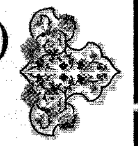
الطبيعي، وهو أيضاً ذو قيمةٍ اقتصاديةٍ عالية.

كذلك فإن العديد من صور الحياة الهائمة والسابحة في مياه البحار وفي دالات الأنهار، تهبط حين تموت إلى قيعان البحار حيث تطمر بالرسوبيات، وتدفن في الأعماق، فتتحلل تلك البقايا مكوِّنة كلًّا من النفط والغاز المصاحب له، واللذين لا تخفى أهميتهما اليوم على عاقل.

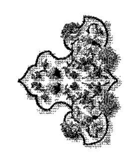
أما ما يحمل ماء السيول من عناصر ومركبات مذابة فيه فإنها تترسب أيضاً بالتفاعلات الكيميائية في مجاري الأودية والأنهار ودالاتها، وفوق قيعان البحار والبحيرات على هيئة عدد من الركازات المعدنية المهمة التي منها: الحجر الجيري، الفوسفات، البوتاس، الكبريت، الملح، الجبس، الأنهيدرايت، البوكسايت (ثالث أكسيد الألومنيوم)، الماجنيزايت (كربونات المغنيسيوم) وغيرها. ولعل هذا كله مما يمكن ضمه تحت مدلول النص القرآني المعجز .

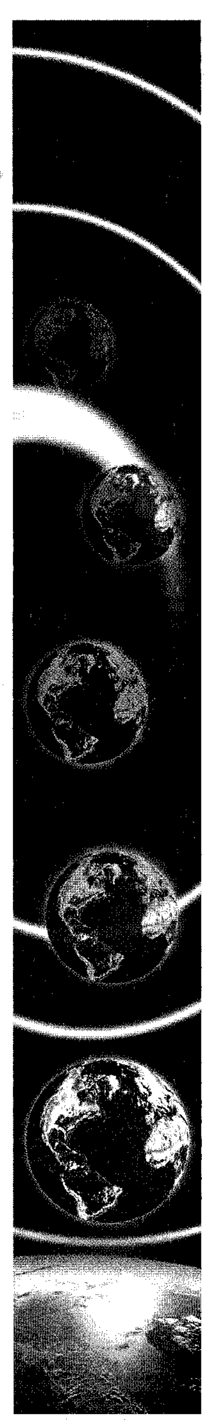
هذه الدقة في التعبير، والشمول والإحاطة في الدلالة على عدد من العمليات الأرضية التي لم يصل الإنسان إلى فهمها إلا بعد مجاهدةٍ استغرقت عشرات الآلاف من العلماء لمئات من السنين.. ورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذا الأسلوب المعجز ـ وقد جاءت في مقام التشبيه ـ مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، دون أن ينتقص منه حرف واحد أو أن يضاف إليه حرف واحد، وسوف يظل محفوظاً بحفظ الله حتى يرث الأرض ومن عليها. هذا الحفظ الدقيق للقرآن الكريم ومحتواه المعجز يشهد كذلك للنبي الخاتم الذي تلقاه بأنه كان موصولاً بالوحي، ومعلَّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.. فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم



(21) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا...﴾ (غافر: 64)





هذا النص القرآني المعجز جاء في الربع الأخير من سورة «غافر» وهي سورة مكية، عدد آياتها: (85) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم الجليل (غافر) الذي هو صفة من صفات الله العليا لوروده في مطلع السورة، ومجيئه في ثناياها بصيغة (الغفار) وهو من أسماء الله الحسنى.

ويدور محور سورة «غافر» حول قضيتي: الإيمان والكفر، وصراع أهليهما عبر التاريخ، ومحاولات أهل الباطل للعلو في الأرض، والتجبر على الخلق بغير الحق ـ تماماً كما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية وذنبها الأعوج المسمى باسم «إسرائيل»، وحلفاؤهما اليوم ـ وترد آيات السورة الكريمة باستعراض لبأس الله الذي يأخذ المتجبرين في الأرض أخذ عزيز مقتدر، وتشير إلى عدد من مصارع الغابرين الذين طغوا وبغوا في الأرض بغير الحق، فكان جزاؤهم من الله الإفناء الكامل، الذي نستعجل الله ـ تعالى ـ إنزاله بمتجبري اليوم، وما ذلك على الله بعزيز...!!

وتبدأ سورة «غافر» بالحرفين المقطعين (حمٓ) وبهما تبدأ سبع سور من سور القرآن الكريم وتسمى (بالحواميم)، والحروف المقطعة التي تفتتح بها سبع وعشرون (في أحد الآراء) وتسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم (في رأي آخر)، والتي تضم أسماء نصف حروف الهجاء العربية الثمانية والعشرين تعتبر من أسرار القرآن التي لم يتم اكتشافها بعد، وإن بذلت محاولات عديدة من أجل ذلك.

ويلي هذا الاستفتاح بيان من الله (تعالى) بأن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز العليم الذي وصف ذاته العَلِية بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ (غافر: 3)

و(الغفر): هو الستر والمحو والتكفير، و(الطول) هو الفضل والإنعام عن غنى وسعة واقتدار.

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ بالحقيقة الواقعة: أنه لا يجادل في آيات الله بغير علم إلا الذين كفروا، وأنه لا يجوز أن يحزنه تقلب الكافرين في البلاد بشيء من السلطان والبطش (كما ينقلب الأمريكان والإسرائيليون وأعوانهم اليوم) فإن ذلك استدراج لهم، حتى إذا ما بالغوا في جرائمهم أخذهم الله بذنوبهم أخذ من سبقوهم من الأمم الكافرة والمشركة من أمثال قوم نوح والأحزاب الذين أفسدوا في الأرض إفساداً كبيراً، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وتؤكد السورة أن مصيرهم جميعاً إلى جهنم وبئس المصير...!!

وتحدثت السورة عن حملة العرش وعمن حولهم من الملائكة الذين يسبحون بحمد الله ويؤمنون به، ويستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، ويدعون للذين تابوا منهم بالنجاة من عذاب الجحيم، ويسألون الله ـ تعالى ـ لهم، ولمن صلح من آبائهم، وأزواجهم، وذرياتهم جنات عدن، وأن يجنبهم السيئات، كما تعرض لشيء من أحوال الكافرين والمشركين وهم يتذللون بين يدي الله يوم القيامة في انكسار واضح ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ (غافر: 11).

وتستشهد السورة بالعديد من آيات الله في الكون، وتوصي المؤمنين بالثبات على التوحيد الخالص لله ولو كره الكافرون، وتصفه ﷻ بأنه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾ وهو يوم التقاء الخلق في المحشر، وهو يوم عصيب، يبرز فيه الخلق أمام الله ـ تعالى ـ لا يخفى على الله منهم شيء، وينادي فيهم المنادي: لمن الملك اليوم؟ ويأتي الجواب حاسماً، جازماً قاطعاً: لله الواحد القهار.

و(الروح) هنا هي الوحي والنبوة؛ لأن القلوب تحيا بهما كما تحيا الأجساد بأرواحها...!! ويأتي القرار الإلهي: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ (غافر: 17).

وتحذِّر الآيات من أهوال يوم القيامة فتقول: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾، وتؤكد أن الله ـ تعالى ـ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩ وَٱللَّهُ يَقۡضِى بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَىۡءٍۗ إِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ (غافر: 19، 20).

وتعتب الآيات على الذين لم يعتبروا بمصارع الأمم البائدة فتقول: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (غافر: 21).

وتعرض السورة لقصة سيدنا موسى عليه السلام مع كل من فرعون وهامان وقارون، ومحاولة فرعون القضاء على الحق وأتباعه، قمعاً للإيمان، ونشراً للشرك والكفر والطغيان (تماماً كما يفعل الأمريكان وأذنابهم وحلفاؤهم اليوم) وتشير إلى مؤمن آل فرعون الذي كان يخفي إيمانه، وحديثه إلى قومه، وتحذيره إياهم من مصائر الغابرين، ومن أهوال يوم التناد، ومن إهمالهم دعوة يوسف عليه السلام من قبل، ومن اغترارهم بالدنيا ومتاعها الزائل بينما الآخرة هي دار القرار، وذلك كله بشيء من اللطف والحذر الشديد.

وتتحدَّث الآيات عن كيفية ضلال فرعون فتقول: ﴿. . . وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ. . .﴾ (غافر: 37) وتقول ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر: 45) ـ بغرقه في اليم هو وجنده وأعوانه ونجاة رسول الله موسى ومن آمن معه ـ، ثم ما يتعرضون له من عذاب في قبورهم، كما تؤكد الآيات، ويوم تقوم الساعة حيث يلقون أشد العذاب فتقول: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾. (غافر: 46)

وتعرض الآيات للحوار بين الذين اتُّبِعوا والذين اتَّبَعوا وهم في النار، ورجاؤهم في مذلة بادية إلى خزنة جهنم كي يدعوا الله ـ تعالى ـ أن يخفف عنهم يوماً من العذاب....!!

وفي عقب ذلك تؤكد الآيات أن الله ـ تعالى شأنه ـ ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وتعرض لشيء من أخبار سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وتأمر المصطفى ﷺ بالصبر والاستغفار والتسبيح بحمد الله بالعشي والإبكار، والاستعاذة بالله من الكبر الكاذب الذي يتخفَّى وراءه الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، من مثل المتطاولين على الإسلام في هذه الأيام من مختلف صور الكفار والمشركين.

وتؤكد الآيات أنه لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي المسيئون والصالحون، وتجزم بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وتطالب المؤمنين بالتوجه إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء، فيستجيب لهم؛ لأن الدعاء هو مخ العبادة وقمة الخضوع لله بالطاعة، وأن الذين يستكبرون عن الدعاء سوف يدخلون إلى جهنم داخرين...

وتصف الآيات شيئاً من أحوال المكذبين بكتب الله ورسله من الكفار والمشركين، وتوصي رسول الله ﷺ بالثبات على التوحيد الخالص لله، والصبر على ما يلقى من عناد الكافرين، وتؤكد أن وعد الله حق، وأن الله ـ تعالى ـ قد أرسل رسلاً من قبل، وقص شيئاً من أخبار بعضهم عليه، ولم يقصص عن البعض الآخر، وأنه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فإذا جاءت الآية،... وجحد بها المكذبون..! استحقوا حينئذٍ عقاب رب العالمين فخسروا خسراناً مبيناً...!!

وتختتم هذه السورة المباركة بعتاب للمرة الثانية على الذين لم يعتبروا بمصارع الأمم البائدة من قبلهم وقد كانوا أكثر منهم عدداً، وأشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فتقول: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (غافر: 82)؛ لأنهم كذبوا رسل الله إليهم، واستعلوا عليهم بما كان عندهم من أسباب الغلبة المادية، فحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، فلما رأوا عقاب الله محيطاً بهم قالوا: آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين، ولكن ما كان ينفعهم هذا الإيمان الاضطراري بعد أن رأوا العذاب واقعاً بهم، وهي سنة الله التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون...!!

الإشارات الكونية في سورة غافر

من الآيات الكونية التي استشهدت بها السورة على توحيد الألوهية، والربوبية، وتنزيه الأسماء والصفات لهذا الخالق العظيم، والاستدلال على طلاقة قدرته في إبداعه لخلقه ما يلي:

(1) الإشارة إلى إنزال الرزق من السماء، والبحوث العلمية الحديثة تؤكد ذلك.

(2) تأكيد تضاؤل خلق الناس ـ على عظمته ـ بجوار خلق السمٰوات والأرض.

(3) التأكيد على حتمية الآخرة، وكل الدراسات الحديثة تشير إلى ذلك.

(4) الإشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ قد خصص الليل لراحة وسكون العباد، وجعل النهار مبصراً لجريهم على المعايش وعلى عمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها.

(5) التأكيد على حقيقة الخلق وعلى وحدانية الخالق، وكل المعطيات الكلية للعلوم تؤكد ذلك.

(6) الإشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ قد جعل الأرض قراراً، والسماء بناءً.

(7) تأكيد أن الله ـ تعالى ـ قد صوَّر بني الإنسان فأحسن صورهم، ورزقهم من الطيبات.

(8) ذكر أن الله ـ تعالى ـ قد خلق الناس من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم يخرجهم طفلاً، ثم ليبلغوا أشدهم، ثم ليكونوا شيوخاً، حتى يبلغوا أجلاً مسمًّى، فيتوفاهم الله، ومنهم من يتوفى من قبل، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر.

(9) التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يحيي ويميت.

(10) الإشارة إلى خلق الله ـ تعالى ـ الأنعام ليركب الناس منها، ومنها يأكلون.

(11) التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي مكن بقدرته مياه البحار أن تحمل الفلك بقوانين الطفو حتى تكون وسيلة لنقل الناس وحمل أمتعتهم.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على جعل الأرض قراراً، وأبدأ بدلالة تلك اللفظة في اللغة العربية، وبأقوال عدد من المفسرين السابقين في شرح دلالة هذا النص القرآني الكريم.

مدلول اللفظة (قراراً) في اللغة العربية:

يقال في العربية: **(قرّ)** في مكانه **(يقرّ)** **(قراراً)** إذا ثبت ثبوتاً جامداً، وأصله من (القرّ) وهو البرد؛ لأنه يقتضي السكون، والحر يقتضي الحركة، و(القرار) المستقر من الأرض، و(القرار) في المكان (الاستقرار) فيه، تقول: (قررت) بالمكان، بالكسر (أقرّ) (قراراً)، و(قَرَرْتُ) أيضاً بالفتح (قراراً) و(قروراً)، و(استقرّ) فلان إذا تحرى (القرار)، و(الإقرار): إثبات الشيء.

قال ـ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾... أي: مستقراً تعيشون فيها، ويسأل ﷻ ـ سؤال التبكيت للكافرين بقوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾... **(النمل: 61)**؛ أي: مستقراً، وقال ـ تعالى ـ في صفة الآخرة: ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ **(غافر: 39)**.

وقال في أصحاب الجنة:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ **(الفرقان: 24)**.

وقال ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ **(الفرقان: 76)**.

وقال في وصف النار: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ **(الفرقان: 66)**.

وقال ﷻ: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ **(إبراهيم: 29)**.

وقال ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ **(البقرة: 36 والأعراف24)**.

وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ **(الأنعام: 98)**.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ (غافر: 64).

● ذكر ابن كثير ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ ما مختصره: «.... أي: جعلها لكم مستقراً، تعيشون عليها وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها...».

● وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «أي: مكاناً لاستقراركم وحياتكم».

● وجاء في الظلال: ـ رحم الله كاتبها رحمةً واسعةً ـ ما نصه: «.... والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها إجمالاً....».

● وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ ما نصه: «﴿ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقراً تعيشون فيها..».

● وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله المشاركين في كتابته خير الجزاء ـ ما نصه: «الله ـ وحده ـ الذي جعل لكم الأرض مستقرةً صالحةً لحياتكم عليها...».

● وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خير الجزاء ـ ما نصه: «أي: جعلها مستقراً لكم في حياتكم وبعد مماتكم، قال ابن عباس: «جعلها منزلاً لكم في حال الحياة وبعد الموت...».

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم

جاء ذكر حقيقة أن الله ـ تعالى ـ قد جعل الأرض قراراً في كتاب الله مرتين: أولاهما في سورة النمل والثانية في سور غافر على النحو التالي:

(1) في سورة النمل يقول ربنا ﷻ:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ (النمل61).

وتكرر هذا السؤال التقريري، التقريعي، الاستنكاري: «أءلٰه مع الله؟» خمس مرات في خمس آيات متتاليات من سورة النمل استنكاراً لشرك المشركين بالله...!! ويأتي الجواب قاطعاً جازماً حاسماً في كل مرة:

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل: 60).

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: 61).

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: 62).

﴿تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: 63).

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (النمل: 64).

وتسبق هذه الآيات الخمس بالحقيقة القاطعة التي يقررها ربنا ﷻ لذاته العَلِيَّة على لسان هدهد سليمان بقوله الحق: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ (النمل: 26).

(2) في سورة غافر يقول الحق ﷻ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (غافر: 64).

وواضح من دلالة اللغة، ومن شروح المفسرين أن تعبير (جعل الأرض قراراً) يعني: مستقرة في ذاتها، وقراراً للحياة على سطحها، وهما قضيتان مختلفتان ولكنهما متصلتان اتصالاً وثيقاً ببعضهما على النحو التالي:

أولاً: جعل الأرض قراراً بمعنى: مستقرة بذاتها:

الأرض ثالثة الكواكب السيارة جرياً حول الشمس، ويسبقها من هذه الكواكب قرباً من الشمس كل من: عطارد والزهرة على التوالي، ويليها إلى الخارج؛ أي: بعداً عن الشمس بالترتيب: المريخ، المشتري، زحل، يورانوس، نبتون، وبلوتو، وهناك مدار لمجموعة من الكويكبات بين كل من المريخ والمشتري يعتقد



رسم يوضح ترتيب ونسب أحجام كواكب المجموعة الشمسية التسعة

بأنها بقايا لكوكب عاشر انفجر منذ زمن بعيد، كما أن الحسابات الفلكية التي قام بها عدد من الفلكيين الروس تشير إلى احتمال وجود كوكب حادي عشر لم يتم رصده بعد، أطلقوا عليه اسم: «بروسوبينا أو برريينا».

وبهذا يصبح عدد كواكب المجموعة الشمسية أحد عشر كوكباً، وهنا يبرز التساؤل عن إمكانية وجود علاقة ما بين هذه الحقيقة الفلكية ـ التي لم تكتمل معرفتها إلا في أواخر القرن العشرين ـ وبين رؤيا سيدنا يوسف ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ التي يصفها الحق ﷻ في محكم كتابه بقوله:

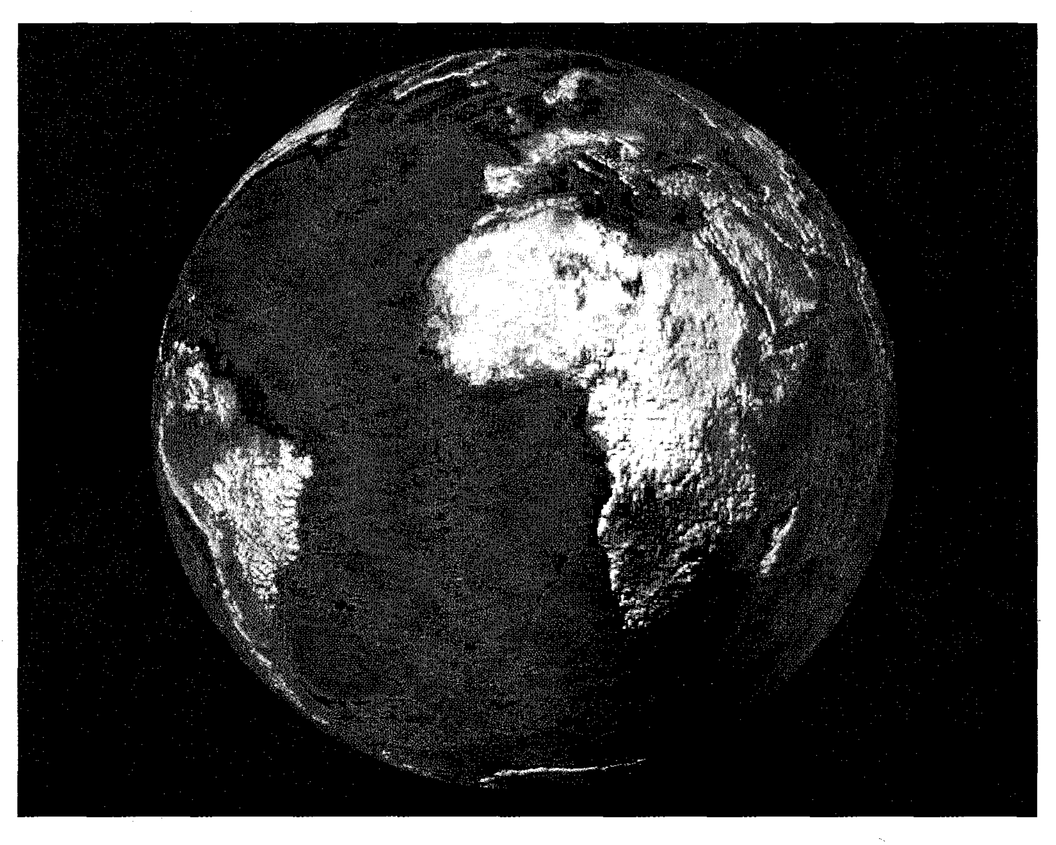
﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ **(يوسف: 4)**.

وإن كان ظاهر الأمر في السورة الكريمة أن المقصود هو ما تحقق بالفعل بعد تلك الرؤيا بسنين عديدة من سجود إخوة يوسف الأحد عشر وأبويه له عند قدومهم إلى مصر من بادية الشام، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه العلاقة لايمكن استبعادها.

والأرض عبارة عن كوكب صخري، شبه كروي له الأبعاد التالية:

• متوسط قطر الأرض	=	12.742 كم.
• متوسط محيط الأرض	=	40.042 كم.
• مساحة سطح الأرض	=	510.000.000 كم^2 منها: 149 مليون كم2 يابسة. و361 مليون كم2 ماء.
• حجم الأرض	=	108.000.000 كم^3.
• متوسط كثافة الأرض	=	5.52 جرام/ سم^3 .
• كتلة الأرض	=	5520 مليون مليون مليون طن.
• متوسط كثافة الصخور في قشرة الأرض	=	5.52 جرام/ سم^3 .
• متوسط كثافة الصخور الجرانيتية المكونة لكتل القارات	=	2.7 جرام/ سم^3 .
• متوسط كثافة الصخور البازلتية المكونة لقيعان المحيطات	=	2.9 جرام/ سم^3 .

وبمقارنة متوسط كثافة الصخور المكونة لقشرة الأرض والتي تتراوح بين 2.7، 2.9 جرام للسنتيمتر المكعب مع متوسط كثافة الأرض ككل والمقدرة بحوالي5.52 جرام للسنتيمتر



مجسم يبين أن الأرض كوكب صخري مليء بالتضاريس

المكعب، أمكن استنتاج أن كثافة المادة المكونة للأرض تزداد باستمرار من سطحها في اتجاه مركزها حيث تتراوح الكثافة من10 إلى 13.5 جراماً للسنتيمتر المكعب. ويفسر ارتفاع متوسط الكثافة بالقرب من مركز الأرض بوجود نسبةٍ عاليةٍ من الحديد، وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض، وتتناقص نسبة هذه العناصر الثقيلة بالتدريج في اتجاه قشرة الأرض.

وتقدر نسبة الحديد في الأرض بحوالي 35.9% من مجموع كتلة الأرض المقدرة بحوالي 5520 مليون مليون مليون طن؛ وعلى ذلك فإن كمية الحديد في الأرض تقدر بما يقرب من ألفي مليون مليون مليون طن، ويتركز هذا الحديد في قلب الأرض على هيئة كرة ضخمة من الحديد تقدر كتلتها بحوالي 1711 مليون مليون مليون طن، وتقدر نسبة الحديد فيها بحوالي (90%) والنيكل (9%) وبعض العناصر الخفيفة من مثل: السيليكون، والكربون والفوسفور والكبريت بحوالي 1% من كتلة هذه الكرة الحديدية التي تعرف باسم: لب الأرض، ويحيط بهذه الكرة الحديدية الصلبة لب سائل له نفس التركيب الكيميائي بما

يوصل نسبة الحديد في الأرض إلى ما يقرب من ألفي مليون مليون مليون طن (10^{18} × **1981.68**) وتشكل كتلة لب الأرض الصلب والسائل حوالي 31% من كتلة الأرض، ويمثل طول قطرها حوالي 55% من طول قطر الأرض، أما باقي الحديد في الأرض فيتوزع على كل من وشاح الأرض وغلافها الصخري، بسمك يقدر بحوالي ثلاثة آلاف كم (2895 كم)، في تناقص مستمر يصل بنسبة الحديد في الغلاف الصخري للأرض إلى 5.6% وتركيز هذه الكتلة الهائلة من الحديد وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض هو من وسائل جعل هذا الكوكب جرماً مستقراً في ذاته، وفي مختلف حركاته.

وتأتي الإشارة القرآنية إلى تلك الحقيقة العلمية سبقاً يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة؛ لأن أحداً في زمانه ـ ولا لقرون متطاولة من بعده ـ لم يكن يعلم بهذه الحقيقة التي لم يكتشفها الإنسان إلا في القرن العشرين، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ **(الزلزلة: 1، 2).**

والأثقال جمع ثقل (بكسر فسكون) وهو الحمل الثقيل، أو جمع ثقل (بالتحريك) وهو كل نفيس مصون. وفي الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه، يروي عن رسول الله ﷺ قوله: «**تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً**»[1].

وهذا الحديث الشريف يؤكد أن المقصود بأثقال الأرض في سورة «الزلزلة» هو الأحمال الثقيلة كما أثبتت الدراسات العلمية الحديثة، وليست أجساد الموتى فقط كما تخيل العديد من المفسرين السابقين، وهذا سبق علمي قرآني ونبوي معجز؛ لأن أحداً من البشر لم يكن له علم بأن أثقال الأرض في جوفها حتى مشارف القرن العشرين.

ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بحوالي مائة وخمسين مليوناً من الكيلومترات، وهذه المسافة قد حددتها ـ بتقدير من الله الخالق ﷻ ـ كتلة الأرض تطبيقاً لقوانين الجاذبية، والتي تنادي بأن قوة الجذب بين جسمين تتناسب تناسباً طردياً مع كتلة كل منهما، وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينهما، وهذا يعني أنه كلما زادت كتلة كل من

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة (الحديث: 2338)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن (الحديث: 2208).

الجسمين المتجاذبين زادت قوة الجذب بينهما، وكلما زادت المسافة الفاصلة بينهما قلت قوة الجاذبية الرابطة بينهما.

والاتزان بين قوة جذب الشمس للأرض من جهة، وبين القوة النابذة المركزية التي دفعت بالأرض الأولية من الشمس، أو من الأصل الذي نشأت عنه المجموعة الشمسية كلها من جهة أخرى هو الذي حدد ـ بمشيئة الله الخالق ـ بُعد الأرض عن الشمس، وحدد الارتباط الوثيق بين كل من كتلتي الأرض والشمس بطريقةٍ منتظمة؛ بمعنى: أنه كلما تغيرت كتلة أحدهما تغيرت كتلة الآخر بنفس المعدل، وهو من الأمور التي تعمل على تثبيت بُعد الأرض عن الشمس، وجعلها مستقرة في دورانها حول محورها، وفي جريها حول الشمس في مدار محدد لها، مما يؤدي إلى تثبيت كمية الطاقة الشمسية التي تصل إلى الأرض وهي من عوامل تهيئتها لاستقبال الحياة، ومن مبررات استقرارها؛ وذلك لأن كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب من كواكبها تتناسب تناسباً عكسياً مع بُعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جري الكوكب في مداره حول الشمس.

والأرض كوكب فريد في صفاته الفيزيائية والكيميائية والفلكية مما أهله بجدارة لكي يكون مهداً للحياة الأرضية النباتية والحيوانية والإنسية. فقد أثبتت دراسات الفيزياء الأرضية أن الأرض مبنية من عدد من النطق المتمركزة حول كرة مصمطة من الحديد والنيكل تعرف باسم: **لب الأرض الصلب** أو **اللب الداخلي للأرض**. وتقسم هذه النطق الأرضية على أساس من أي من تركيبها الكيميائي أو صفاتها الميكانيكية على النحو التالي:

(1) قشرة الأرض (أو الجزء العلوي من الغلاف الصخري للأرض) **The Earth's Crust (or the Upper Lithosphere)**: وتتكون من صخور نارية ومتحولة صلبة تتغطى بسمك قليل من الصخور الرسوبية أو الرسوبيات ـ التربة ـ في كثير من الأحيان، وتغلب الصخور الحامضية وفوق الحامضية على كتل القارات وذلك من مثل: الجرانيت والصخور الجرانيتية (بمتوسط كثافة 2.7 جرام/للسنتيمتر المكعب) بينما يغلب على قيعان كل من البحار الحقيقية والمحيطات الصخور القاعدية وفوق القاعدية من مثل: البازلت والجابرو (بمتوسط كثافة 2.9 جرام/ للسنتيمتر المكعب). ويتراوح متوسط سمك القشرة الأرضية في كتل القارات من 35 إلى 40 كيلومتراً، وإن تجاوز ذلك تحت المرتفعات الأرضية من مثل الجبال. بينما ترق القشرة الأرضية المكونة لقيعان البحار والمحيطات بشكل ملحوظ فيتراوح سمكها في المتوسط بين 5 و8 من الكيلومترات.

(2) الجزء السفلي من الغلاف الصخري للأرض (The Lower Lithosphere):

ويتكون من صخور صلبة تغلب عليها الصخور الحامضية وفوق الحامضية في كتل القارات بسمك يصل إلى 5 و8 كيلومتراً، بينما تغلب عليها الصخور القاعدية وفوق القاعدية تحت البحار والمحيطات بسمك يقارب 60 كيلومتراً.

ويفصل هذا النطاق عن قشرة الأرض سطح انقطاع للموجات الاهتزازية يعرف باسم: الموهو **(The Moho Discontinuity)**.



رسم قطعي يظهر طبقات الأرض

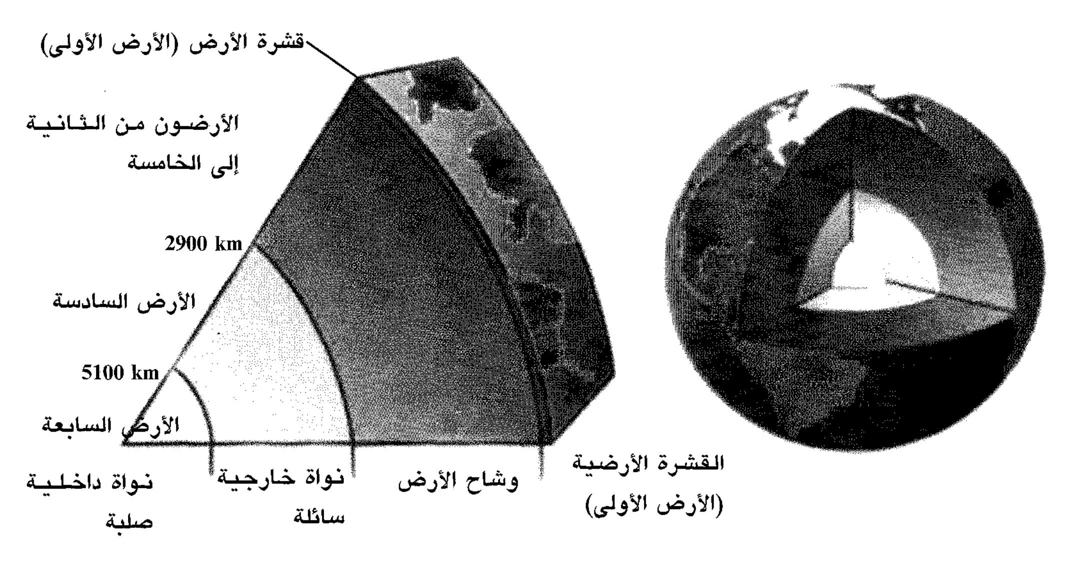
(3) الجزء العلوي من وشاح الأرض (نطاق الضعف الأرضي)

The Upper Mantle (The Asthenosphere):

وتوجد فيه الصخور في حالة لدنة، شبه منصهرة أو منصهرة انصهاراً جزئياً في حدود 1%، ويتراوح سمك هذا النطاق بين 280 كيلومتراً و335 كيلومتراً، وهو مصدر للعديد من نشاطات الأرض الداخلية من مثل: الزلازل، والبراكين، وتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتكون الجبال والسلاسل الجبلية، وغير ذلك من الحركات الأرضية الداخلية.

(4) الجزء الأوسط من وشاح الأرض (The Middle Mantle): ويتكون هذا النطاق من مواد صلبة، كثيفة، بسمك يقدر بحوالي 270 كيلومتراً، ويحده من أسفل ومن أعلى مستويان

من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل، يقع أحدهما على عمق يقدر بحوالي 400 كم من سطح الأرض، ويقع الآخر على عمق670 كم من سطح الأرض.



قطاع رأسي للكرة الأرضية يظهر نطق الأرض الداخلية (بنيتها الداخلية)

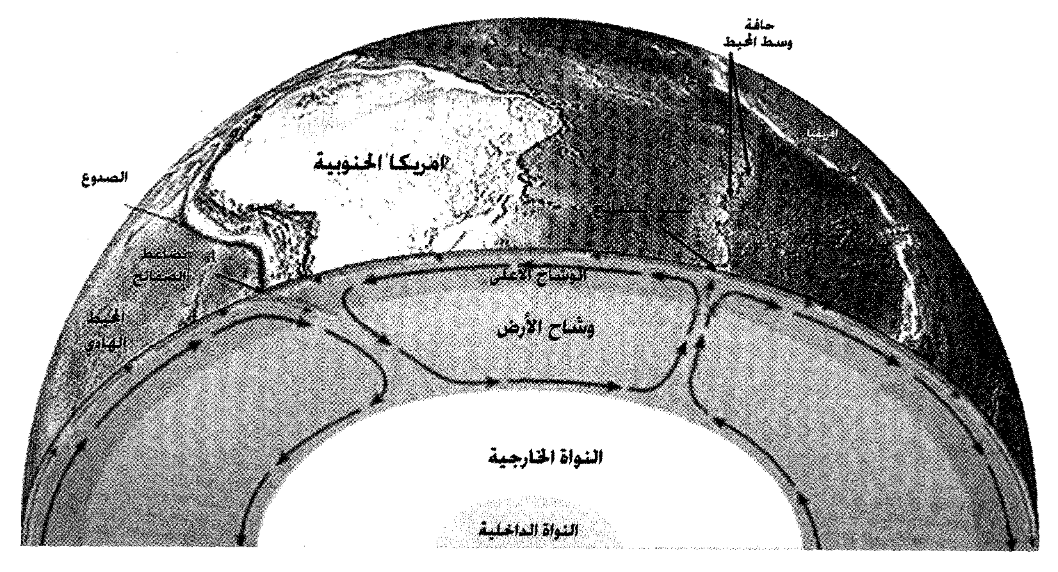
(5) الجزء السفلي من وشاح الأرض (The Lower Mantle): ويتكون من مواد صلبة تعلو لب الأرض السائل، ويحده من أعلى أحد مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل على عمق670 كم من سطح الأرض، ويحده من أسفل نطاق انتقالي شبه منصهر يفصله عن لب الأرض السائل على عمق2885 كم من سطح الأرض، وبذلك يقدر سمك هذا النطاق بحوالي2215 كم.

(6) لب الأرض السائل (الجزء الخارجي من لب الأرض):

The Outer (Liquid) Core

وهو نطاق سائل يحيط بلب الأرض الصلب، وله نفس تركيبه الكيميائي تقريباً، ويقدر سمكه بحوالي 2275 كم (من عمق 2885 كم إلى عمق 5160 كم تحت سطح الأرض)، وتفصله عن النطاقين الأعلى والأسفل منطقتان انتقاليتان شبه منصهرتين، أضخمهما المنطقة السفلى والتي يقدر سمكها بحوالي 450 كم.

(7) لب الأرض الصلب (اللب الداخلي للأرض) The Solid (Inner) Core: وهو عبارة عن كرة ضخمة من الحديد (90%) والنيكل (9%) مع القليل من العناصر الخفيفة من



رسم قطعي للكرة الأرضية يظهر نطق الأرض الداخلية وحركاتها، وتأثيرها على السطح

مثل: السيليكون، الكربون، الكبريت، الفوسفور والتي لاتكاد نسبتها أن تتعدى 1%. وهذا هو نفس تركيب النيازك الحديدية تقريباً، والتي تصل الأرض بملايين الأطنان سنوياً، ويعتقد بأنها ناتجة عن انفجار بعض الأجرام السماوية. ويبلغ طول قطر لب الأرض الصلب (1220) كم.

وهذه البنية الداخلية للأرض تدعمها دراسة النيازك التي تهبط على الأرض، كما تؤيدها قياسات الجاذبية الأرضية، والاهتزازات الناتجة عن الزلازل الأرضية.

ولولا هذه البنية الداخلية للأرض، ما تَكَوَّنَ مجالها المغناطيسي، ولا قوتها الجاذبية، ولولا جاذبية الأرض لهرب منها كل من غلافيها الغازي والمائي، واستحالت الحياة على سطحها، ولولا المجال المغناطيسي للأرض لدمرتها الأشعة الكونية المتسارعة القادمة إليها من الشمس ومن بقية نجوم السماء.

والأرض تجري حول الشمس في فلك بيضاوي قليل الاستطالة، بسرعة تقدر بحوالي 30 كم في الثانية، لتتم دورتها في سنة شمسية مقدارها 25. 365 يوماً تقريباً، وتدور حول محورها بسرعة تقدر اليوم بحوالي 30 كيلومتراً في الدقيقة عند خط الاستواء فتتم دورتها هذه في يوم مقداره 24 ساعة تقريباً، يتقاسمه ليل ونهار، بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول السنوية، التي تنتج بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها 66.5 درجة تقريباً.

كذلك فإن حركات الأرض العديدة ومنها: حركتها المحورية والمدارية، وترنحها في دورانها حول محورها، وتذبذبها (نودانها أو ميسانها)، وقربها وبعدها من الشمس في حركتها المدارية، والتغير التدريجي في توازن حركاتها مع حركات القمر من حولها، ومع باقي كواكب المجموعة الشمسية ومع الشمس حول مركز المجرة، وباتجاه كوكبة الجاثي، ومع المجرة حول مركز التجمع المجري، وغير ذلك من الحركات في فسحة الكون كلها حركات تحتاج إلى ضبط وإحكام حتى تصبح الأرض مستقرةً بذاتها، وقراراً للحياة على سطحها. وتكفي في ذلك الإشارة إلى دور الجبال في تثبيت الغلاف الصخري للأرض، وفي التقليل من ترنحها في دورانها حول محورها تماماً، كما تقوم قطع الرصاص التي توضع حول إطارات السيارات في التقليل من معدلات ترنحها يمنة ويسرة أثناء جري السيارة إلى الأمام أو تراجعها إلى الخلف.

ثانياً: كما جعل الله الأرض قراراً في ذاتها جعلها قراراً لسكانها:

ومن معاني جعل الأرض قراراً لسكانها هو جعل الظروف العامة للأرض مناسبة للحياة على سطحها؛ ومن أولها **مقدار جاذبية الأرض** الذي يمسك بكل من غلافيها المائي والغازي وبالأحياء على سطحها، والماء هو سر الحياة على الأرض، ولذا جعل ربنا ﷻ كوكب الأرض أكثر الكواكب التي نعرفها غناءً بالماء، حتى ليسميه العلماء بالكوكب الأزرق أو الكوكب المائي، وتقدر كمية المياه على سطح الأرض بحوالي1360 مليون كم^3، ويغطي الماء حوالي 71% من مساحة سطح الأرض.

كذلك **جعل الله ـ تعالى ـ للأرض غلافاً غازياً** تقدر كتلته بحوالي ستة آلاف مليون مليون طن، ويقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، وإن كان لا يكاد الإنسان أن يدركه بعد ألف كيلومتر لتناقص ضغطه مع الارتفاع باستمرار، فبينما يصل ضغط الغلاف الغازي للأرض إلى حوالي كيلوجرام على السنتيمتر المربع فوق مستوى سطح البحر فإنه يتناقص مع الارتفاع إلى واحد من مليون من ذلك الضغط في أجزائه العليا.

ويضم الجزء السفلي من هذا الغلاف الغازي (من 0 إلى 20 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر) حوالي 66% من كتلته، ويتكون من غازات النيتروجين (بنسبة 78.1% بالحجم) والأوكسجين (بنسبة 21% بالحجم) والأرجون (بنسبة 0.93% بالحجم)، وثاني أكسيد الكربون (بنسبة 0.03% بالحجم) بالإضافة إلى نسب ضئيلة من بخار الماء وغازات أخرى. ولولا هذا التركيب للغلاف الغازي ما استقامت الحياة على الأرض. وذلك لأن غاز

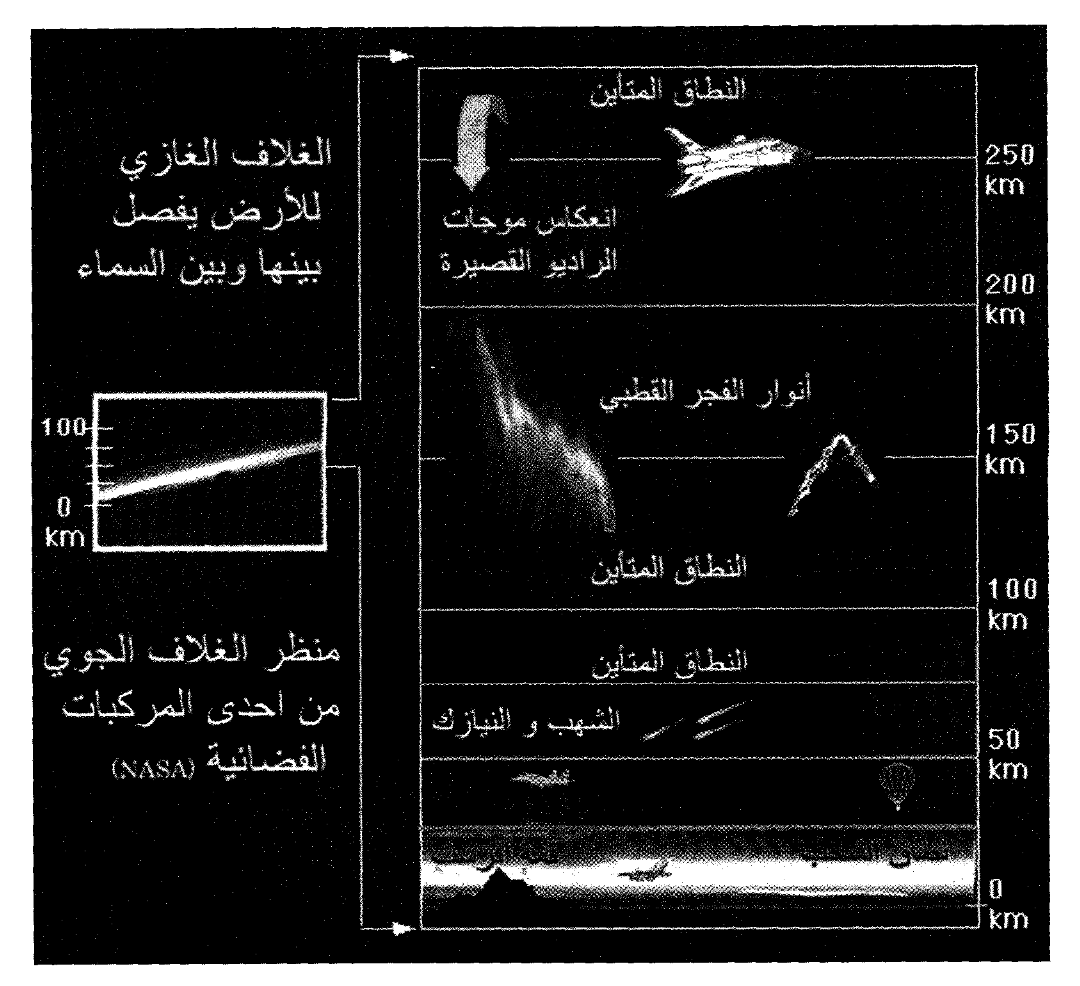


تغطي المياه حوالي 71٪ من سطح الكوكب الأزرق

الأوكسجين يشكل سراً من أسرار الحياة الأرضية.

كذلك فإن كلاً من كتلة وأبعاد الأرض، **وبعدها عن الشمس** قد قدر بدقة بالغة، فلو كانت كتلة الأرض أقل قليلاً من كتلتها الحالية لاندفعت بعيداً عن الشمس، ولفقدت الكثير من الطاقة التي تصلها من هذا النجم، ولما كان بمقدورها الاحتفاظ بغلافيها المائي

والغازي، وبالتالي لاستحالت الحياة على سطحها. ولو كانت كتلتها أكبر قليلاً لاندفعت إلى مسافة أقرب من الشمس ولأحرقتها حرارتها وبخرت غلافها المائي، وخلخلت غلافها الغازي، وقضت على الحياة فوق سطحها، ولزادت قدرتها على جذب الأشياء زيادة



رسم تخطيطي يوضح نطق الغلاف الغازي للأرض

ملحوظة مما يعوق الحركة، ويحول دون النمو الكامل للأحياء إن بقي على سطحها حياة.

وكذلك يعتمد طول السنة الأرضية على بعد الأرض عن الشمس، ويعتمد طول يوم الأرض على سرعة دورانها حول محورها، وكل ذلك مرتبط بأبعاد الأرض، وكذلك يعتمد تبادل الفصول المناخية على ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج، فلو لم يكن مائلاً ما تبادلت الفصول، ولاختل نظام الحياة على الأرض.

ولولا تصدع الغلاف الصخري للأرض، وتحرك ألواحه متباعدة عن بعضها البعض ومصطدمة ببعضها البعض ما تكونت الجبال، ولا ثارت البراكين، ولاحدثت الهزات الأرضية، وكلها من صور ديناميكية الأرض، ووسائل تجديد وتثبيت غلافها الصخري، وإثرائه بالمعادن، وتكوين التربة وتحرك دورة الماء حول الأرض، ودورة الصخور، وبناء القارات وهدمها، وتكون المحيطات واتساعها ثم إغلاقها وزوالها؛ وهذه الحركات الأرضية (وغيرها كثير) لعبت ـ ولاتزال تلعب ـ أدواراً أساسيةً في جعل الأرض كوكباً مهيَّئاً لاستقبال الحياة وصالحاً للعمران.

فأرضنا تدور حول محورها بسرعة تقدر بحوالي 18.00 كم/ساعة، وتجري في مدارها حول الشمس بسرعة تقدر بحوالي 108.000 كم/ساعة، وتركض مع الشمس ومجموعتها حول مركز المجرة، وتدور مع **المجرة** حول **مركز للتجمع المحلي ثم حول مركز للتجمع المجري،** ومع الأخير حول **مركز للتجمع المحلي الأعظم،** ثم حول **مركز للتجمع المجري الأعظم،** ثم حول ما هو أكبر من ذلك إلى نهاية لا يعلمها إلا الله. ومع هذه الحركات كلها يبقى ما عليها من صور الحياة والعمران مستقراً فعلياً برعاية الله ورحمته.



(الصورة لوكالة ناسا)

الأرض كما تبدو من على سطح القمر

هذه بعض آيات الله في جعل الأرض كوكباً مستقراً في ذاته على الرغم من حركاته العديدة، وجريه في فسحة الكون، وفي تهيئته ليكون مستقراً للحياة التي أراد الله أن تزدهر على سطحه، على الرغم من المخاطر العديدة المحيطة به، حتى يؤمن الناس بحاجتهم إلى الرعاية الإلٰهية التي يحيطنا الله ﷻ بها في هذا الكون، ويستشعرون حاجتهم إلى هذا الخالق العظيم وإلى رحمته وعنايته في كل وقت وفي كل حين؛ لأننا لو تركنا لأنفسنا طرفة عين أو أقل من ذلك لهلكنا أجمعين، وسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

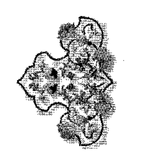
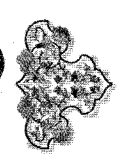
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ **(غافر: 64).**

وسبحان الله الخالق البارىء المصور الذي عاتب الكافرين والمشركين والمتشككين بقوله الحق:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ **(النمل: 61).**

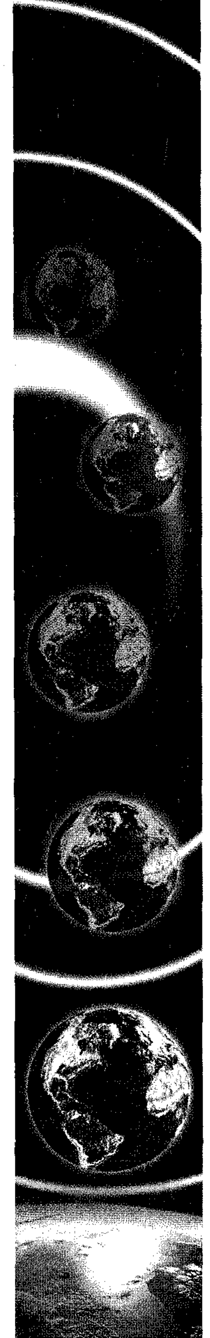
هذه الحقائق العلمية التي سبق القرآن الكريم جميع المعارف الإنسانية بالإشارة إليها تشهد لهذا الكتاب المجيد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، حتى يبقى حجة على جميع الخلق إلى قيام الساعة بما فيه من مختلف صور الإعجاز.

وأمثال هذه الحقائق العلمية العديدة والمتنوعة في كتاب الله تشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، وبأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فأكمل به الدين، وأتم به النعمة، وحفظ به الهداية الربانية لجميع البشرية إلى يوم الدين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(22) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ...﴾ (فصلت: 37)



هذا النص القرآني جاء في مطلع الثلث الأخير من سورة فصلت وهي سورة مكية، وآياتها: أربع وخمسون، ويدور محورها الرئيسي حول القرآن الكريم الذي هو ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، والذي أنزله الله الرحمٰن الرحيم هدًى وشفاءً للمؤمنين، على الرغم من صد المشركين والكافرين عنه، وعن دعوته الرئيسية إلى توحيد الله، ورفض الاستقامة على هديه، وعلى الرغم كذلك من تشكيكهم الباطل في ربانيته، وحجيته، وصدق وحيه، وفي نبوة النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ، دفاعاً عما بأيديهم من باطل، وحسداً من عند أنفسهم وانطلاقاً مما غرقوا فيه من ضلال.

وقد استهلت السورة الكريمة بقول الحق ﷻ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ (فصلت: 1 ـ 3).

و(حم) حرفان من حروف الهجاء تكررا بمفردهما مرات في مطلع ست من سور القرآن الكريم، وتكررا مرة سابعة في الصيغة الخماسية «حم * عسق» في مطلع سورة الشورى، والحروف المقطعة افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم ـ في أحد الآراء ـ وسبع وعشرون ـ في رأي آخر ـ، وتضم أسماء نصف عدد حروف الهجاء الثمانية والعشرين، وتعتبر من أسرار القرآن على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلت من أجل تفسير دلالاتها، كما أوضحنا ذلك في مقام سابق.

وبعد هذا الاستهلال، تحدثت السورة الكريمة عن أن القرآن

الكريم هو تنزيل من الله الرحمٰن الرحيم، وأنه كتاب فصلت آياته؛ أي: ميزت لفظاً ومعنىً، وأنه أنزل بلسان عربي ليخاطب العرب في المقام الأول، وليحمله العرب إلى غيرهم من الأمم. وقد يحتج نفر من غير العرب على إنزال القرآن الكريم باللغة العربية، ولو أنه أنزل بأية لغة أُخرى لأثير نفس التساؤل: لماذا أنزل بهذه اللغة دون غيرها؟ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: 54).

ويرد عليهم ربنا ﷻ في سورة فصلت ذاتها بقوله عز من قائل:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ. . .﴾ (فصلت: 44)

وتركز «سورة فصلت» على القرآن الكريم مؤكدة أنه كلام الله الذي أنزله بشيراً ونذيراً، ووصفه بقوله: ﴿. . . وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: 41، 42).

وبينت السورة الكريمة موقف كل من المؤمنين والمشركين من هذا الكتاب العزيز، وأمرت رسول الله ﷺ بالتأكيد على بشريته، واصطفائه للنبوة وللرسالة ولتلقي الوحي من الله، وتبليغه للناس كافة في دعوة سماوية إلى التوحيد الخالص لله الخالق ـ بغير شريك ولاشبيه ولامنازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، والتحذير من الوقوع في جريمة الشرك بالله، والتأكيد على عواقبها الوخيمة في الدنيا والآخرة، واستشهدت السورة الكريمة بعدد من آيات الله في الكون على تفرد الخالق سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وعلى طلاقة قدرته في إبداع الخلق، ووظفت كل ذلك في إثبات قدرته ﷻ على الإفناء وإعادة الخلق من جديد في يوم البعث.

وتنذر سورة «فصلت» المعرضين عن دين الله بعقاب من مثل: عقاب قوم عاد وثمود، وعقاب غيرهم من الأمم التي قد خلت من قبلهم من كل من الجن والإنس، وتذكر ببعض مشاهد العذاب في الآخرة، ومن أخطرها حوار الخاطئين مع جوارحهم التي سوف تشهد عليهم وعلى جرائمهم التي ارتكبوها في حياتهم الدنيا، وحوار المشركين مع من أشركوا بهم.

كما تتحدَّث السورة الكريمة عن عدد من المبشرات للمؤمنين الذين آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، واستقاموا على منهج الله، ومنها: أن الملائكة تتنزل عليهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وفي لحظات الموت وسكراته، وفي أثناء حشرجة الصدر، وخروج الروح: مطمئنة إياهم برضاء الله سبحانه وتعالى عنهم، ومغفرته لهم، ورحمته بهم، ومبشرة بالنعيم المقيم الذي ينتظرهم إن شاء الله تعالى.

وتقارن السورة الكريمة بين أحوال كل من المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة، وتتحدث عن شيء من أخلاق الدعاة إلى الله، وأساليبهم في الدعوة إليه، كما تمايز بين كل من الخير والشر، والحسنة والسيئة، وتؤكد أنهما لايستويان أبداً، وتثبت رسول الله ﷺ بأن من قبله من الأنبياء والمرسلين قد جوبهوا بمثل ما قوبل به من الكفار والمشركين، وتطمئنه بأن الله تعالى هو صاحب المغفرة وهو في الوقت نفسه ذو عقاب أليم....، وأن من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.. وأن الله ـ تعالى ـ ليس بظلام للعبيد، وأنه ـ تعالى ـ يُرَدُّ إليه علم الساعة، وعلم كل شيء، وهو ـ سبحانه ـ علام الغيوب. وتتخلص سورة «فصلت» إلى الحديث عن شيء من طبائع النفس الإنسانية، وتختتم بهذا الوعد الإلٰهي القاطع والوعيد الحاسم لكل مكذب بالبعث والذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ (فصلت: 53، 54).

وفي هاتين الآيتين الكريمتين من التأكيد القاطع بأن مستقبل الإنسانية سوف يرى من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس ما يشهد على صدق القرآن الكريم، وأن جدل الكافرين حول قضية البعث وشكهم في إمكانية وقوعه نابع من سقوطهم في خطأ القياس على الله تعالى بقدرات الإنسان المحدودة مما دفعهم إلى ما هم فيه من كفر وضلال...!!

والآيات الكونية التي استشهدت بها السورة الكريمة على طلاقة القدرة الإلٰهية عديدة سبق لي ذكرها من قبل، وسوف أقصر حديثي هنا على تبادل كل من الليل والنهار وأبدأ بأقوال المفسرين السابقين في تلك القضية.

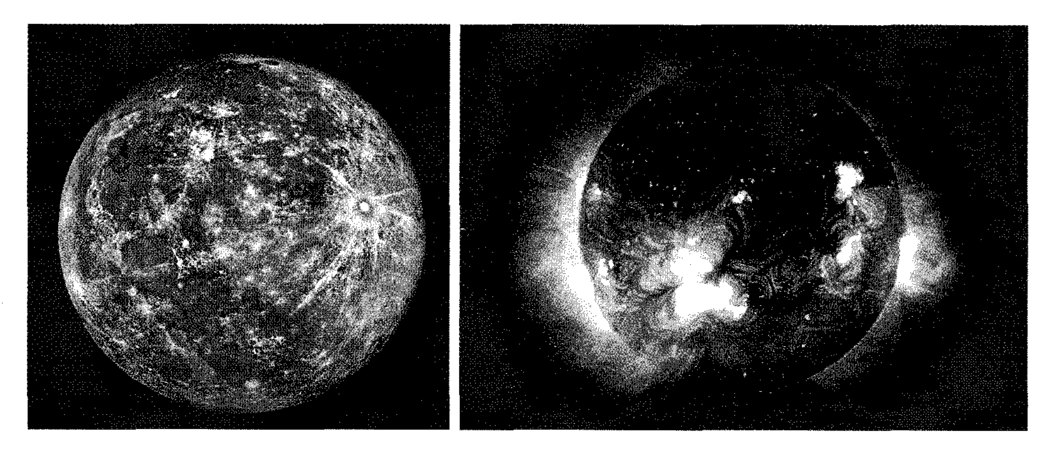
من أقوال المفسرين

• في قول الحق ﷻ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (فصلت: 37).

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قدير: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه (نوره)، وهما متعاقبان لا يفتران. والشمس وإشراقها والقمر وضياؤه (ونوره) وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في

سمائه، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والشهور والأعوام؛ ويتبين بذلك حلول أوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كانت الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة...، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا، به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به...».



﴿هو الذي جعل لكم الشمس ضياء﴾ مصدر للضوء ﴿والقمر نوراً﴾ يتلقى الضوء فيعكسه نوراً. وصف قرآني دقيق للشمس والقمر

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمةً واسعةً ـ ما مختصره: «وهذه الآيات معروضة للأنظار، يراها العالم والجاهل، ولها في القلب البشري روعة مباشرة، ولو لم يعلم الإنسان شيئاً عن حقيقتها العلمية. فبينها وبين الكائن البشري صلة أعمق من المعرفة العلمية، بينها وبينه هذا الاتصال في النشأة، وفي الفطرة، وفي التكوين، فهو منها وهي منه، تكوينه تكوينها، ومادته مادتها، وفطرته فطرتها، وناموسه ناموسها، وإلٰهه إلٰهها.. فهو من ثم يستقبلها بحسه العميق في هزة وإدراك مباشر لمنطقها العريق!!».

«لهذا يكتفي القرآن غالباً بتوجيه القلب إليها، وإيقاظه من غفلته عنها، هذه الغفلة التي ترد عليه من طول الألفة تارةً، ومن تراكم الحواجز والموانع عليه تارةً، فيجلوها القرآن عنه، لينتفض جديداً حياً يقظاً يعاطف هذا الكون الصديق، ويتجاوب معه بالمعرفة القديمة العميقة الجذور. . .».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ أن في هذه

الآية الكريمة ردًّا قاطعاً على عبدة الشمس والقمر، كالصابئة الذين يعبدون الكواكب.

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: «... ومن علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته تعاقب الليل والنهار، وتذليل الشمس والقمر، مسخرين لمصالح البشر!».

الليل والنهار في القرآن الكريم:

جاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنتين وتسعين مرةً، منها ثلاثة وسبعون بلفظ (الليل)، ومرةً واحدةً بلفظ (ليل)، وثماني مرات بلفظ (ليلة)، وخمس مرات بلفظ (ليلاً)، وثلاث مرات بلفظ (ليال)، ومرةً واحدةً بكل من اللفظين (ليلها) و(ليالي).

وفي المقابل جاء ذكر النهار في القرآن الكريم سبعة وخمسين مرة منها أربع وخمسون بلفظ (النهار)، وثلاث مرات بلفظ (نهاراً).

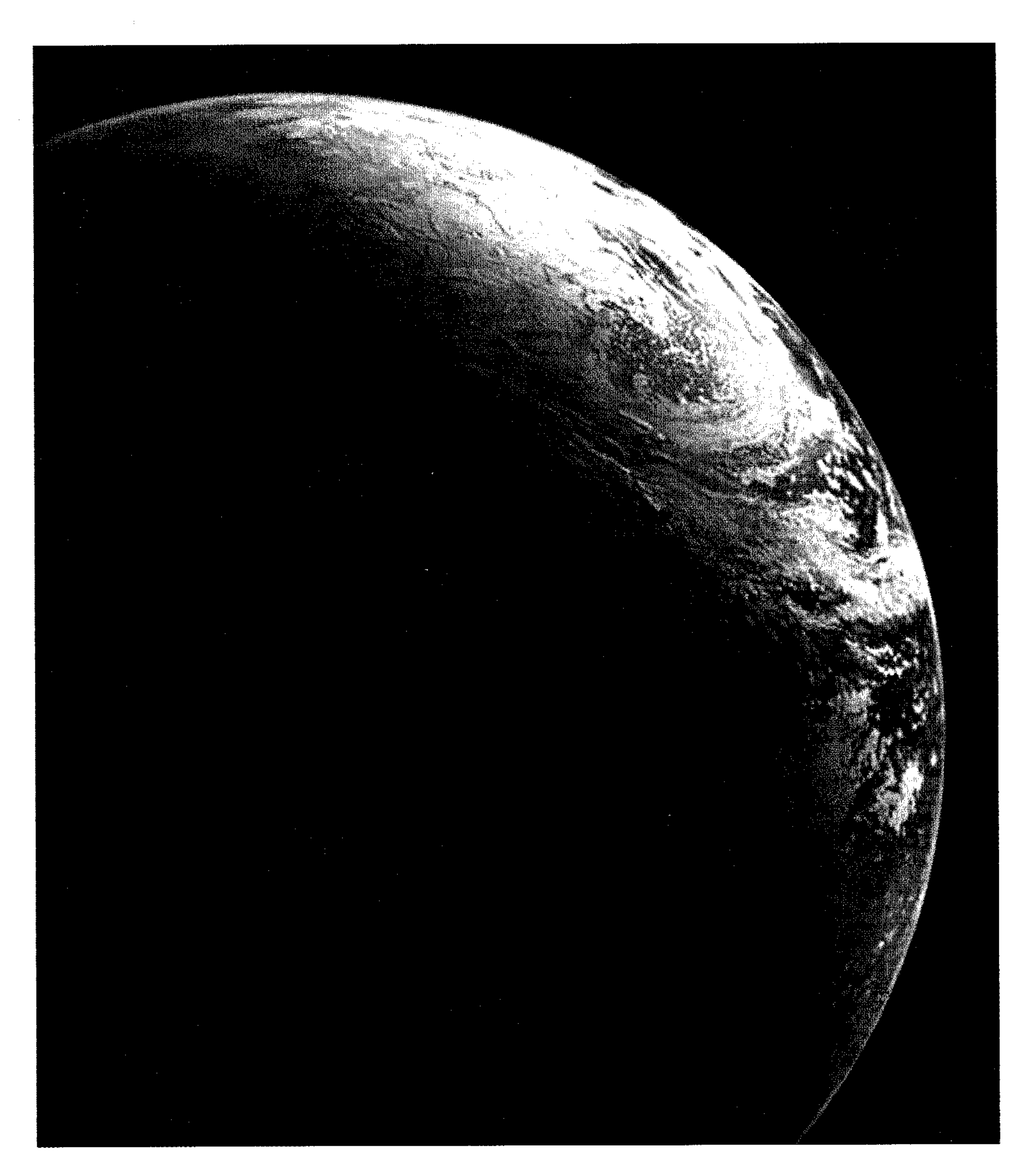
كما وردت ألفاظ (الصبح) و(الإصباح)، و(الفلق)، و(بكرة) ومشتقاتها بمدلول النهار في آيات أُخرى عديدة، كما جاءت كلمة (يوم) أحياناً بمعنى: النهار في عدد من آيات القرآن الكريم، وإن جاء أغلب ورودها بمدلول يوم الأرض الكامل الشامل لكل من النهار والليل.

وفي العديد من آي القرن الكريم يمنّ علينا ربنا ﷻ بتبادل الليل والنهار، ويعتبرهما من آياته الكبرى؛ لأن في ذلك استقامةً للحياة على الأرض، وعوناً للإنسان على تحديد الزمن، والتأريخ للأحداث المتتالية، ولأنه بدون هذا التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير تتوقف الحياة على الأرض، ويتلاشى إحساس الإنسان بمرور الزمن، وتتوقف قدرته على متابعة الأحداث والتأريخ لها.

والليل والنهار آيتان كونيتان عظيمتان من آيات الله في الخلق، تشهدان على انتظام دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.... **(فصلت: 37)**

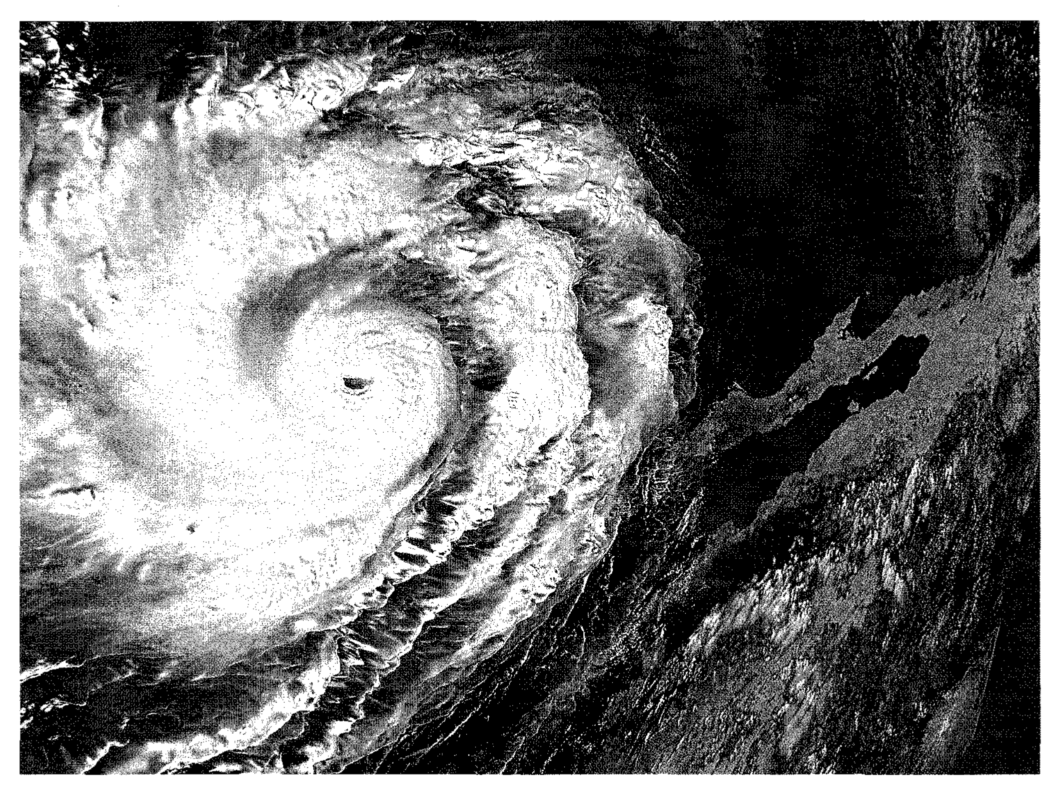
تبادل الليل والنهار في منظور العلوم الكونية:

إن التبادل المنتظم بين الليل المظلم والنهار المنير على نصفي الأرض هو من الضرورات اللازمة للحياة الأرضية، ولاستمرارية وجودها بصورها المختلفة حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها؛ فبهذا التبادل بين الظلمة والنور يتم التحكم في توزيع ما يصل



صورة للأرض وتظهر فيها طبقة النهار للقسم المواجه للشمس وطبقة الليل في ظلمة الكون

إلى الأرض من الطاقة الشمسية، وبالتالي ما يعين على التحكم في درجات الحرارة، والرطوبة، وكميات النور والظلام في مختلف البيئات الأرضية، كما يعين على التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية وغير الحياتية من مثل: **التنفس والأيض في كل من الإنسان والحيوان، وعمليات النتح والتمثيل الضوئي في النباتات الخضراء**، كما يتم **ضبط التركيب**



صورة بالأقمار الصنعية لحركة الرياح والسحب ضمن الغلاف الغازي للأرض (أمريكا الشمالية ـ خليج كاليفورنيا)

الكيميائي للغلافين الغازي والمائي المحيطين بالأرض، وضبط الكثير من دورات النشاط الأرضي من مثل: **دورة الماء بين الأرض والسماء** (الطبقات الدنيا من غلافها الغازي)، **وحركات الرياح والسحاب، وتوزيع نزول المطر** بتقدير من الله ﷻ، كما تتم **دورة تعرية الصخور بتفتيتها**، ونقل هذا الفتات أو إبقائه في مكانه، من أجل تكوين التربة، أو الرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من خيرات أرضية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن اختلاف الليل المظلم والنهار المنير يُعْتَبَرُ تقسيماً لليوم الأرضي إلى فترة للحركة والعمل والنشاط، وفترة للراحة والاستجمام والسكون، فالإنسان ـ على سبيل المثال ـ محتاج إلى السكينة بالليل كي يخلد فيه إلى شيء من الراحة النفسية بالعبادة والتفكر، والراحة البدنية بالاسترخاء والإغفاء والنوم، حتى يستعيد كلًّا من نشاطه البدني والذهني، ويستجمع قواه فيتهيأ للعمل بالنهار التالي وما يتطلبه ذلك من القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وقد ثبت علمياً أن أفضل النوم يكون بالليل، وأقله

فائدة هو نوم النهار (فيما عدا فترة القيلولة)، كما ثبت أن كثرة النوم بالنهار تؤثر في نشاط الدورة الدموية في جسم الإنسان، وتتهدده بالتيبس في العضلات، وتؤدي إلى تراكم الدهون، وزيادة الوزن، وإلى العديد من صور التوتر العصبي والقلق النفسي، وربما كان من مبررات التوجيه الرباني بالنوم بالليل والنشاط بالنهار، أن طبقات الحماية التي أوجدها ربنا ﷻ في الغلاف الغازي للأرض، ومن أهمها النطق المتأينة **(Ionospheres)** وما بها من أحزمة الإشعاع **Radiation Belts** تتمدد بالنهار فتزداد قدراتها على حماية الحياة الأرضية، مما يسمح للإنسان بالحركة والنشاط دون مخاطر، وهذه النطق تنكمش انكماشاً ملحوظاً بالليل مما يقلل من قدراتها على الحماية فيُنصَحُ الإنسان بالركون إلى النوم والراحة حماية له من تلك المخاطر، وفي ذلك يقول ربنا ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ **(النبإ: 10، 11).**

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ **(الأنعام: 96).**

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ **(يونس: 67).**

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ **(النمل: 86).**

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ **(القصص: 71 ـ 73).**

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ **(غافر: 61).**

وكما سبق وأن أسلفنا فإن التبادل بين الليل المظلم، والنهار المنير، يحدد لنا يوم الأرض، ويعيننا على إدراك الزمن، وعلى تحديد الأوقات بدقة وانضباط ضروريين للقيام بمختلف الأعمال، ولأداء كل العبادات، وإنجاز كافة المعاملات، والوفاء بمختلف العهود والمواثيق والعقود، وغير ذلك من النشاطات الإنسانية، وإن هذه النعمة لهي بحق من نعم

الله ـ تعالى ـ على الإنسان في هذه الحياة، وعلى كافة الأحياء الأرضية من حوله؛ لأنه بدونها لا تستقيم الحياة على الأرض، ولا يستطيع الإنسان أن يميز ماضياً من حاضر أو مستقبل، وبالتالي فإنه بدونها لا بد وأن تتوقف مسيرة الحياة.

من هنا كانت الدعوة إلى التدبر في ظاهرة تعاقب الليل والنهار دعوة إلى الإيمان بالله، وإلى إدراك شيء من بديع صنعه في هذه الحياة، ومن هنا أيضاً جاءت الآية الكريمة التي نحن بصددها، وغيرها من الآيات التي تشير إلى تبادل الليل والنهار في صياغة معجزة ـ شأنها في ذلك شأن كل آيات القرآن الكريم ـ ومن جوانب ذلك الإعجاز إشارتها إلى عدد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك مما يجزم بأنه لايمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة الحقة، والرسالة الخاتمة.

الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار:

(1) **التأكيد على كروية الأرض**: إن تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض، وتعاقبهما وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، في كل ذلك إشارات ضمنية رقيقة إلى كروية الأرض؛ وذلك لأن كلًّا من الليل والنهار هي فترات زمنية تعتري الأرض، وليست أجساماً مادية تكور، فإذا تكوَّرا كان ذلك كناية عن تكور الأرض، ثم إنه لو لم تكن الأرض كرةً ما أمكن تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض.

هذه الحقيقة العلمية جاء بها القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين في وقت ساد كل الناس الاعتقاد باستواء الأرض، على الرغم من إثبات عدد من قدامى المفكرين غير ذلك.

ونزول الآيات القرآنية العديدة بهذه الحقيقة الكونية الثابتة من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدوية بسيطة ليس لها أدنى حظ من المعرفة العلمية ومناهجها ولا بالكون ومكوناته، لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم لايمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه، والذي أنزل القرآن الكريم بعلمه وحكمته على خاتم أنبيائه ورسله فجاء بالحق المبين في كل آية من آياته، وكل كلمة من كلماته، وكل حرف من حروفه، كما يقطع ذلك بأن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

(2) التأكيد على دوران الأرض حول محورها أمام الشمس: هذه الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها وأشباهها من آيات هذا الكتاب العزيز تؤكد كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس، لأنه لو لم تكن الأرض كرويةً ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار، وهذا الدوران عبرت عنه الآيات القرآنية في أكثر من عشرين آية صريحة، بتعبيراتٍ ضمنيةٍ رقيقة، ولكنها مصاغةً صياغةً علميةً دقيقةً، تبلغ من الدقة والشمول والكمال ما لم يبلغه العلم الحديث منها: **إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، واختلافهما، وتعاقبهما، وتقليبهما، وإدبار أحدهما وإقبال الآخر، وإغشاء النهار بالليل، وتجلية الليل بالنهار، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وجعل كل منهما خلفة للآخر، وسريان الليل وعسعسته بعد إظلامه وسجوه، وإسفار الصبح وتنفسه وطلوع ضحاه وتجليه بعد إغشاء الليل وإظلامه** (آل عمران: 27، الرعد: 3، الحج: 61، المؤمنون: 80، النور: 44، الفرقان: 62، لقمان: 29، الجاثية: 3 ـ 5، الحديد: 6، المدثر: 33 ـ 35، التكوير: 17 ـ 19، الفجر: 4، الليل: 1، 2، الضحى: 1، 2).

وقد أنزلت هذه الآيات القرآنية الكريمة من قبل ألف وأربعمائة سنة مؤكدة حقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس وهو أمر معجز للغاية لأنه جاء في وقت ساد الاعتقاد بثبات الأرض ورسوخها، بمعنى عدم دورانها أو تحركها.

(3) التأكيد على أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في المراحل الأولى لخلق الكون كانت أعلى من سرعتها الحالية: هذه الحقيقة لم يتمكن العلم المكتسب من إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وقد سبقها القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرناً بقول الحق ﷻ:

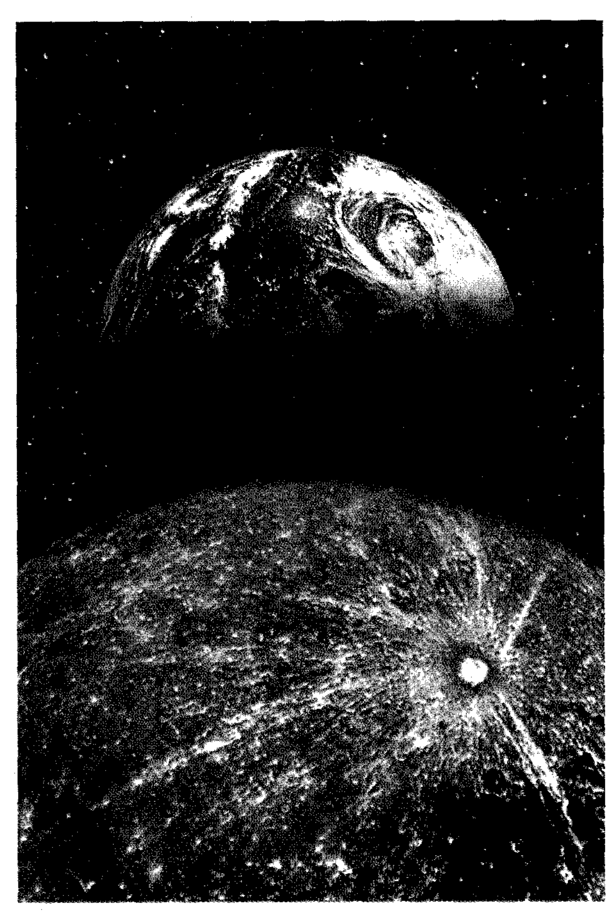
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ **(الأعراف: 54)**.

وإغشاء النهار بالليل جاء في القرآن الكريم أربع مرات (الأعراف: 54، الرعد: 3، الشمس: 1 ـ 4، الليل: 1، 2)، والمرة الوحيدة التي جاء فيها الوصف: **(يطلبه حثيثاً)** أي: سريعاً، هي هذه الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف؛ لأنها تتحدث عن بداية خلق السمٰوات والأرض، وهي حقيقة مدونة في هياكل الحيوانات، وأخشاب النباتات بدقة بالغة، ولم يكن لأحدٍ من الخلق إلمام بأية فكرة عنها حتى جاءت العقود المتأخرة من القرن

العشرين حين اكتشف العلماء أن تبادل الليل والنهار كان يتم في العقود الجيولوجية القديمة بسرعة فائقة جعلت من عدد الأيام في السنة عند بدء الخلق أكثر من ألفي يوم، وجعلت من طول الليل والنهار معاً أقل من أربع ساعات، وكان إبطاء سرعة دوران الأرض حول محورها آية من آيات الله في إعداد الأرض لاستقبال الحياة؛ لأن صور الحياة - وفي مقدمتها الإنسان - ما كان ممكناً أن تتلاءم مع هذه السرعات الفائقة لدوران الأرض ولا لقصر طول كل من الليل والنهار.

(4) التأكيد على سبح الأرض في مدارها حول الشمس:

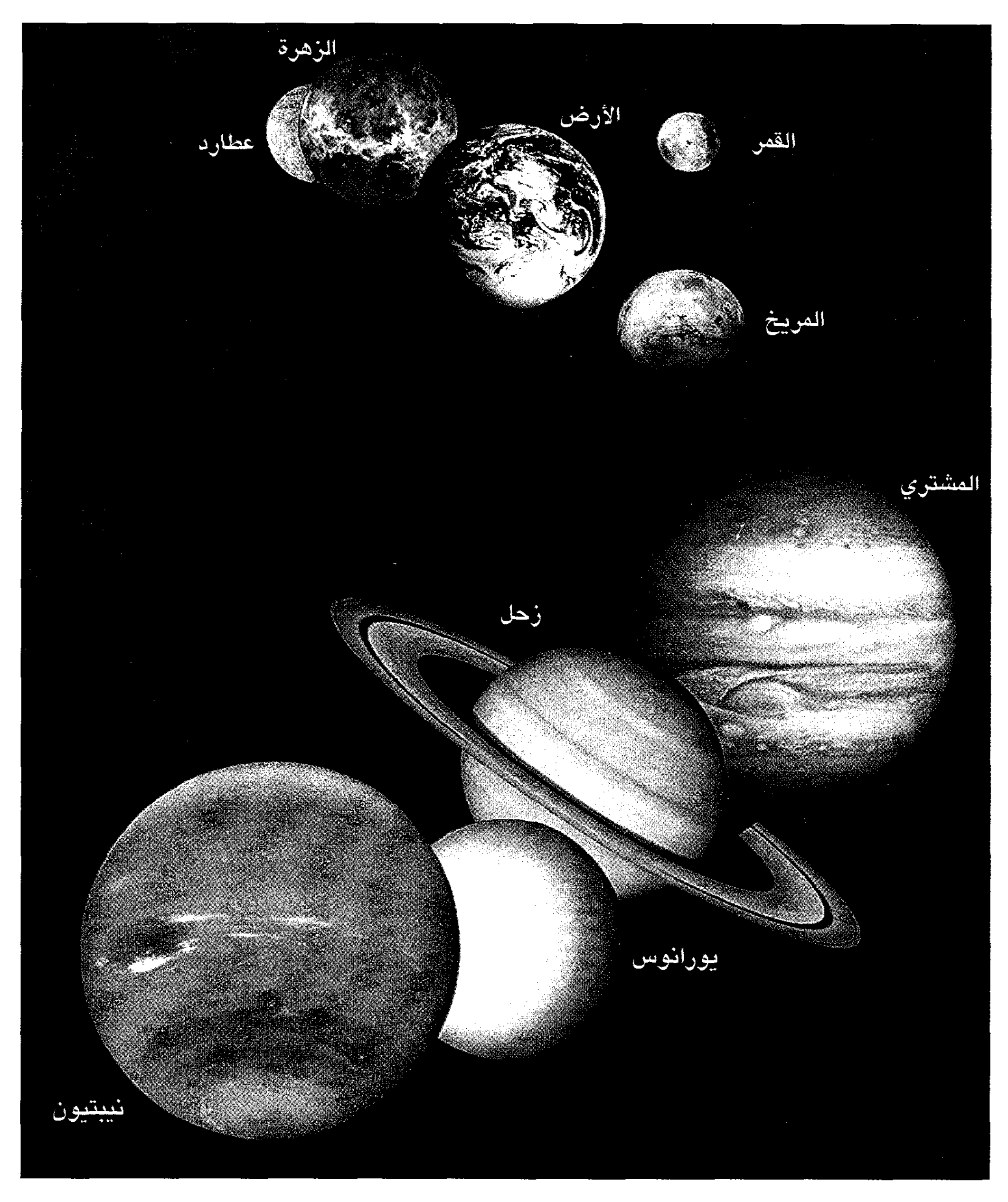
يعبِّر القرآن الكريم عن الأرض في عدد من آياته بالليل والنهار كما جاء في قول الحق ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنبياء: 33).



الأرض والقمر يسبحان في ظلمة الكون وتظهر رقة طبقة النهار في مواجهة الشمس

وفي قوله - عز من قائل -: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يسٓ: 40).

وذلك لأن كلًّا من الليل والنهار عبارة عن ظرف زمان، وليس جسماً مادياً، ولا بد للزمان من مكان يظهر فيه، والمكان في هذه الحالة هو كوكب الأرض الذي يقتسم الليل نصفه، والنهار النصف الآخر في حركة دائبة، وتبادل مستمر، فلو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تدور حول محورها أمام الشمس، لما تبادل على سطحها الليل والنهار في تعاقب مستمر، ولولا جريُ الأرض في مدارها حول الشمس ما تغيرت البروج، ولو لم تكن الأرض مائلةً بمحور دورانها على دائرة البروج بزاوية مقدارها 66.5 درجة تقريباً ما



صورة حقيقية لكواكب المجموعة الشمسية التقطتها سفينة الفضاء «فويدجر ـ 1» من خلف مدار كوكب نيبتيون (Voyager-1 Photograph for the Plantes of our Solar System)

تبادلت الفصول، ولولا علم الله بجهل الناس لتلك الحقائق في الأزمنة السابقة، لأنزل الحقيقة الكونية بلغة صادعة قاطعة؛ ولكن لكي لايفزع الخلق في وقت تنزل القرآن الكريم أشار إلى جري الأرض في مدارها المحدد لها حول الشمس بسبح كل من الليل والنهار،

والسبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسط أقل كثافة منها، فالسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم المادي بحركة ذاتية فيه من مثل: سبح الإنسان أو الحيوان في الماء، وسبح الطيور في الهواء، وحركات كلٍّ من الأرض والقمر والشمس وغيرها من أجرام السماء كلٌّ في مداره وحول جرم أكبر منه، ويؤكد هذا الاستنتاج صيغة الجمع ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ التي جاءت في الآيتين؛ لأنه لو كان المقصود بالسبح هو الشمس والقمر فحسب لجاء التعبير بالتثنية: (وكلاهما يسبحان).

(5) التأكيد على الرقة الشديدة لطبقة النهار في الغلاف الغازي لنصف الأرض المواجه للشمس: وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا بعد ريادة الفضاء، في منتصف الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين، وقد سبق القرآن الكريم هذا الكشف العلمي بأربعة عشر قرناً وذلك بقول الحق ﷻ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾. **(يسٓ: 37).**

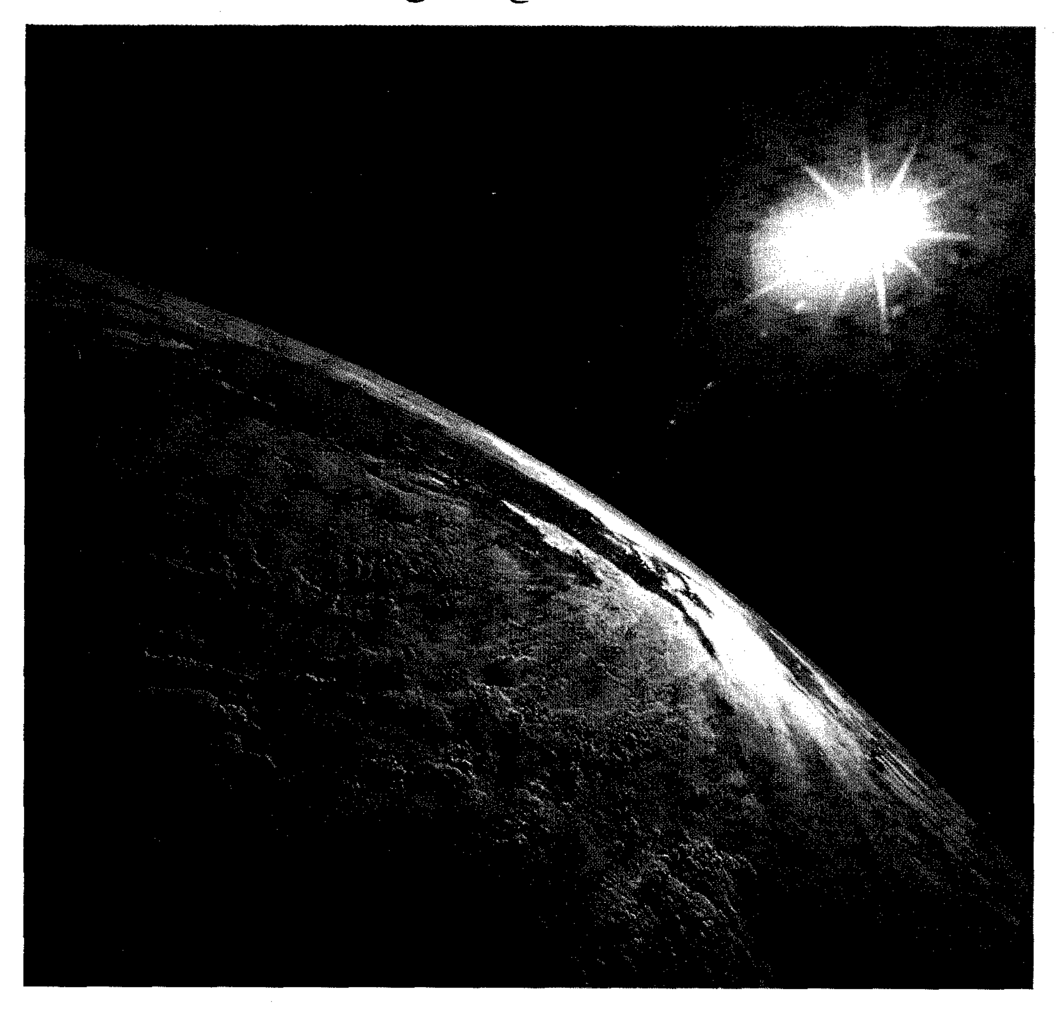
وهذه الآية الكريمة تؤكد أن الأصل في الكون الظلام، وأن طبقة النهار في الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس، والتي تتحرك باستمرار لتحل محل ظلام الليل بإشراق الفجر، هي طبقة بالغة الرقة لايكاد سمكها أن يتعدى مائتي كيلومتر فوق مستوى سطح البحر، وإذا نسبنا هذا السمك إلى المسافة بين الأرض والشمس وهي مقدرة بحوالي المائة والخمسين مليون كيلومتر كانت النسبة واحداً إلى سبعمائة وخمسين ألفاً تقريباً (200كم/ 150،000،000كم = 1/ 750،000 تقريباً).

وإذا نسبنا سمك طبقة النهار (على نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس) إلى نصف قطر الجزء المدرك من الكون والمقدر بأكثر من اثني عشر بليون سنةً ضوئيةً تضاءلت هذه النسبة تماماً إلى ما يقرب الصفر؛ ومن هنا تتضح ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار، كما يتضح عدم استقرارها لانتقالها باستمرار من نقطةٍ إلى أُخرى على سطح الأرض مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس. ويتضح كذلك أن تلك الطبقة الرقيقة من نور النهار تحجب عنا ظلام الكون الخارجي؛ لأن الذين تعدُّوا طبقة النهار من روَّاد الفضاء رأوا الشمس في منتصف النهار قرصاً أزرق في صفحة سوداء.

وبهذه المعلومات التي اكتشفت منذ أقل من نصف قرن تتَّضح روعة التشبيه القرآني لانسلاخ نور النهار عن ظلمة الكون بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها، وهذا يؤكد أن الظلمة هي الأصل في الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرةً نورانيةً عارضةً رقيقةً جداً، لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض في نصفه المواجه للشمس،

وبواسطة دوران الأرض حول محورها أمام ذلك النجم ينسلخ النهار تدريجياً أمام ظلمة ليل الأرض، والتي تلتقي بظلمة السماء، فما أروع هذا التشبيه القرآني وما أجمله!!.

وتجلي النهار على الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض بهذا النور الأبيض المبهج هو من نعم الله الكبرى على عباده، ويفسر تشتت ضوء الشمس بانعكاساته المتكررة على هباءات الغبار وعلى جزيئات كلٍّ من بخار الماء والهواء بالغلاف الغازي القريب من سطح الأرض. وبعد تجاوز مائتي كيلومتر فوق مستوى سطح البحر يبدأ الهواء في التخلخل لتضاؤل تركيزه، وتناقص كثافته باستمرار مع الارتفاع، وندرة كل من جسيمات الغبار



صورة حقيقية للشمس وهي تبدو قرصاً أزرق في صفحة سوداء والنهار يظهر فقط ضمن الطبقة الرقيقة من الغلاف الغازي لنصف الأرض المواجه للشمس

وبخار الماء فيه، حتى تتلاشى؛ ولذلك تبدو شمسنا ـ كما يبدو غيرها من نجوم السماء الدنيا ـ بقعاً زرقاء باهتة في بحر غامر من ظلمة الكون.

(6) التأكيد على دقة الحساب الزمني بواسطة تتابع كل من الليل والنهار والشمس والقمر:

من المعروف أن السنة الهجرية هي سنة شمسية/ قمرية؛ لأن هذه السنة تحددها دورة الأرض حول الشمس دورةً كاملةً تتمها في 365.25 يوماً تقريباً، وأن هذه السنة تقسم إلى اثني عشر شهراً بواسطة دوران القمر حول الأرض، كما يقسم الشهر إلى أسابيع وأيام بمراحل القمر ومنازله، وإلى أيام وليال بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وقد تقسم الشهور بواسطة البروج التي تمر بها الأرض في أثناء جريها في مدارها حول الشمس، كما تدرك الأيام بتبادل كلٍّ من الليل والنهار، ويقسم النهار إلى وحدات أصغر بواسطة تحرك ظل الأجسام المعتمة مداً وقبضاً أمام الحركة الظاهرية لأشعة الشمس كما يتم ذلك بواسطة المزولة الشمسية، ومن هنا كان القَسم القرآني بالليل والنهار والشمس والقمر في خمس آيات قرآنية كريمة هي على التوالي (الأنعام: 96، إبراهيم: 33، النحل: 12، الأنبياء: 33، فصلت: 37).

(7) الإشارة إلى أن ليل الأرض كان في بدء الخلق ينار بعدد من الظواهر الكونية التي تلاشت بالتدريج ولا يزال لها بقايا حتى اليوم: وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ **(الإسراء: 12).**

ويستشف من هذه الآية أن ظاهرة الشفق القطبي وأطيافه **(Aurora and Auroral Spectra)** والتي تعرف أيضاً باسم: ظاهرة الأنوار القطبية **(Polar Lights)**، أو باسم: ظاهرة فجر الليل القطبي **(Polar Night's Dawn)** هي ظاهرة نورانية ترى بالليل في سماء المناطق القطبية وما حولها، أي ما يعرف باسم المناطق حول القطبية، وتتكون نتيجة ٱرتطام الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الجزء المدرك من الكون ـ على هيئة الجسيمات الأولية للمادة ـ بالغلاف الغازي للأرض، مما يؤدي إلى تأينه، أي شحنه بالكهرباء، وإصدار أشعة كونية ثانوية؛ ونتيجة لذلك تتصادم الأشعات بشحناتها الكهربية المختلفة مع كلٍّ من أحزمة الإشعاع ونطق التأين في الغلاف الغازي للأرض، ويؤدي ذلك التصادم إلى تفريغ شحناتها الكهربية فَتُوهِّجُها، والجسيمات الأولية للمادة متناهية في الدقة، وتحمل

شحناتٍ كهربيةً عاليةً، وتتحرك بسرعاتٍ تقترب من سرعة الضوء، ولم تكتشف إلا في سنة1936 م.



صورة تظهر فجر الليل القطبي ـ شمال النرويج

ولا يحمي الأرض من أخطار تلك الأشعة الكونية إلا ما جعل الله ـ تعالى ـ لها من المجال المغناطيسي **(The Magnetosphere)**، فتتحرك الأشعة الكونية بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض التي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين فتؤدي إلى تأين الغلاف الغازي للأرض فوق القطبين، ومن ثم إلى توهجه في المنطقتين القطبيتين وفيما حولهما.

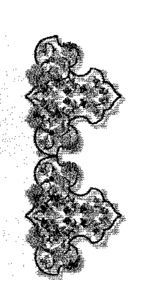
ومن الثابت علميًّا أن نطق الحماية المتعددة في الغلاف الغازي للأرض من مثل: **نطاق الأوزون، ونطق التأين، وأحزمة الإشعاع، والنطاق المغناطيسي** للأرض لم تكن موجودة في بدء خلق الأرض؛ ولذلك فقد كانت الأشعة الكونية تصل إلى المستويات الدنيا

من الغلاف الغازي للأرض فتؤدي إلى توهجه ليلاً حول جميع الأرض. وبعد تكون نطق الحماية المختلفة أخذت هذه الظاهرة في التضاؤل التدريجي حتى اختفت من فوق معظم سطح الأرض. فيما عدا مناطق محدودة حول القطبين، لتبقى شاهدة على أن ليل الأرض في المراحل الأولى من خلقها كان يضاء بوهج لايقل في شدته عن نور الفجر الصادق؛ وهنا تتضح روعة التعبير القرآني الذي أنزله الخالق ﷻ من قبل أربعة عشر قرناً فقال فيه:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ **(الإسراء: 12)**.

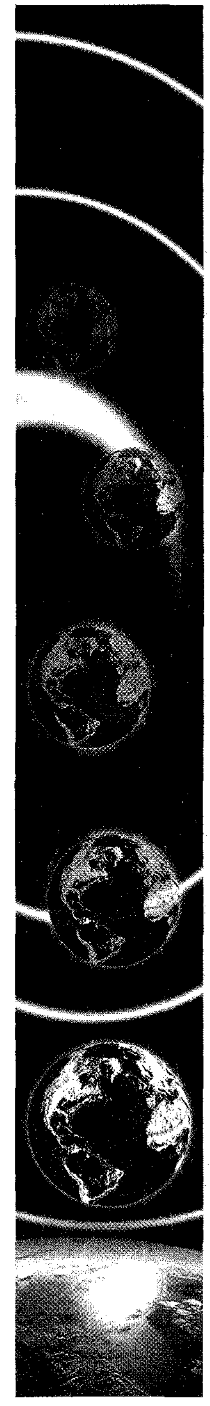
هذه الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار بدءاً بتأكيد **كروية الأرض**، ثم **دورانها حول محورها، وتباطؤ هذا الدوران مع الزمن، وجريها في مدارها المحدد حول الشمس، والرقة الشديدة لطبقة النهار، والدقة الفائقة لحساب الزمن بواسطة تتابع كل من الليل والنهار والشمس والقمر**، والإشارة إلى أن ليل الأرض كان يضاء في بدء الخلق بوهج لايقل في شدته عن **نور الفجر الصادق**، وأن من بقايا هذا الوهج القديم في زمننا الحالي **ظاهرة الفجر القطبي** التي لا ترى إلا فوق المنطقتين القطبيتين وما حولهما. هذه الشواهد لم يصل الإنسان إلى إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها من قبل أربعة عشر قرناً في كتاب الله الذي أنزل على نبيٍّ أميٍّ ﷺ في أمةٍ كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلَّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، ولذلك وصفه ربه ﷻ بقوله: **﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾**

(النجم: 3 ـ 5).





(23) ﴿... وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: 17)



هذا النص القرآني المعجز جاء في السبع الأُول من سورة «المائدة» وهي سورة مدنية، وآياتها مائة وعشرون (120) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر المائدة التي طلبها الحواريون من نبي الله عيسى ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ منزلة من السماء وذلك في ختام السورة.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المائدة» حول التشريعات اللازمة لإقامة الدولة الإسلامية، وتنظيم مجتمعاتها على أساس من الإيمان بوحدانية الخالق ﷻ، وربوبيته وألوهيته، وتفرده بالسلطان في ملكه، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد. ومن ثم فلا بد وأن تتلقَّى الدولة الإسلامية دستور حياتها، وجميع تشريعاتها، ونظمها وقيمها من وحي السماء كما تكامل في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تعهد ربنا ﷻ بحفظه فحفظ، في الوقت الذي تعرضت كل صور الوحي السابقة للضياع التام، وما بقي من ذكريات مشوهة عن بعضها تعرض ـ ولا يزال يتعرض ـ للتحريف والتزوير في كل يوم إلى وقتنا الراهن وحتى قيام الساعة.

وأول بنود هذا الدستور الإسلامي: عقد الإيمان بالله ربًّا وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، وهو العقد الذي تقوم عليه سائر العقود في حياة الناس: أفراداً وجماعاتٍ: من عقيدة، وعبادة، ودستور أخلاق، وتشريعات للمعاملات؛ أي: يقوم عليه الدين بتفاصيله الربانية، بمعنى كل الضوابط السلوكية، والعقائد الغيبية،

والشرائع التعبدية كما قررها الله تعالى، ومن ذلك نصت السورة الكريمة على بيان الحلال والحرام في قضايا عديدة من مثل: قضايا الذبائح، والمطاعم، والمشارب، والزواج وغيرها، كما نصت على شرح العقيدة الصحيحة: وتوضيح علاقات المسلمين بغيرهم من أصحاب الملل والنحل، أفراداً، وجماعاتٍ، وأمماً، وتحذرهم من الافتتان بهؤلاء الكافرين عن بعض ما أنزل الله، كما تحذرهم من الحيود عن العدل تحت ضغوط المشاعر الشخصية، وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿... ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **(المائدة: 3).**

وتعرض السورة الكريمة للصلاة، ولأحكام الطهارة لها، ويكل الله ـ تعالى ـ الإنسان في ذلك كله إلى القلوب، وتأمر الآيات المؤمنين أن يكونوا: قوامين لله شهداء بالقسط، وتبشرهم بالمغفرة والأجر العظيم، وتتهدد الذين كفروا وكذبوا بآيات الله بأن مصيرهم إلى الجحيم، كما تستعرض مواقف بعض أهل الكتاب من مواثيقهم، وما حل بالكافرين منهم من دمار نتيجة نقضهم لمواثيقهم، وتنادي على أهل الكتاب بنداء يتكرر عدة مرات يقول لهم فيه ربنا ﷻ:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٩﴾ **(المائدة: 19).**

ثم تعرض السورة الكريمة لعدد من الأحكام المتعلقة بحماية كل من النفس، والدين، والعقل والعرض، والمال، وحماية كلٍّ من الملكيات الفردية والعامة، والمجتمعات الإنسانية، وصيانتها، والمحافظة على السلطة وحقوقها، وتقدم لهذا كله بقصة ولَدَيْ آدم كرمز للصراع بين الحق والباطل في هذه الحياة..!!

وتعرج السورة الكريمة إلى شيء من تثبيت رسول الله ﷺ في مواجهته لشرك المشركين وانحرافهم، ولكفر الكافرين، وكذبهم، وأكلهم السحت؛ ثم تنتقل بعد ذلك إلى قضية الحكم بما أنزل الله، وتجرِّم الخروج على ذلك؛ لأن حق التشريع بالحل والحرمة هو لله ـ تعالى ـ وحده، ولذلك كان قبول شرع الله، والرضى بحكمه هو إقرار لله بالألوهية، والربوبية، والوحدانية، والقوامة على خلقه بغير شريك ولا شبيه ولا منازع. وتؤكد سورة «المائدة» قضية الولاء والبراء على أنها من الوسائل النفسية الأساسية للتربية الإسلامية، ولضبط سلوك المسلمين أفراداً وجماعات.

وتنتقل السورة بعد ذلك إلى الحديث عن عدد من الأحكام الشرعية في الأيمان، وتؤكد تحريم كلٍّ من الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، كما تضع ضوابط للصيد، منها تحريمه والعبد في إحرامه، وتدعو إلى تعظيم كلٍّ من الكعبة المشرفة والأشهر الحرم، وتؤكد تعرض انحراف أهل الكتاب عمَّا قد أنزل إليهم، وتأمر بطاعة الله ورسوله، وتنهى عن مخالفتهما خشية عذاب الله، وتذكر بحتمية الآخرة.

وتلمح السورة الكريمة لعدد من الضوابط التربوية الأُخرى في حياة المسلمين: أفراداً وجماعاتٍ، ومنها: عدم الانبهار بكثرة الخبيث، والالتزام بجميع آداب التعامل مع الله ورسوله، والدعوة إلى إبطال ما كان قد بقي من تقاليد الجاهلين المبتدعة، والتأكيد على حكم الإشهاد على الوصية في حالة السفر وغير ذلك من التشريعات التي ربطتها كلها بمراقبة الله وتقواه ومخافة معصيته.

ومن الأحكام الشرعية التي تناولتها سورة «المائدة» ما يلي: **أحكام العقود، الذبائح، الصيد، الإحرام، زواج الكتابيات، حد الردة، أحكام الطهارة، حد السرقة، حد البغي والإفساد في الأرض، أحكام الخمر والميسر، كفارة اليمين، تحريم قتل الصيد في الإحرام، أحكام الوصية عند الموت، أحكام البحيرة والسائبة، حكم ترك العمل بشريعة الله، وأحكام الولاء والبراء.**

وتختتم السورة الكريمة بذكر يوم القيامة الذي يجمع الله تعالى فيه كل الخلق ـ وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلين ـ وذلك للحساب والجزاء. ثم تشير إلى عدد من المعجزات التي أيد الله ـ تعالى ـ بها عبده ورسوله عيسى ابن مريم، ومنها إنزال المائدة من السماء، وتنتهي إلى تبرئة السيد المسيح ـ على نبينا وعليه السلام ـ وتبرئة أمه الصديقة مما ألصق بهما من دعاوى الألوهية الكاذبة، فالله واحدٌ أحد، فردٌ صمد، لا منازع له في سلطانه، ولا شريك له في ملكه.

من التشريعات الإسلامية في سورة «المائدة»

1 ـ **الأمر بالوفاء بالعقود** أي العهود المؤكدة بين العباد وخالقهم، وبينهم وبعضهم البعض. ومن العقود المبرمة بين العباد وخالقهم والعباد بعد في عالم الذر: الإيمان بربوبيته، وألوهيته، ووحدانيته، وتنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وعبادته تعالى بما أمر، وحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض.

2 ـ **تأكيد ضرورة الحكم بما أنزل الله** ـ تعالى ـ، ومن ذلك أحكام القصاص،

والردة، والحنث في اليمين، وتأكيد قضية الولاء والبراء، والأمر بالعدل في القضاء، وبتقوى الله ﷻ في السر والعلن، وبالتوكل عليه حق التوكل، وبعدم خشية غيره، وبطاعة الله ورسوله، وبالحرص على عمل الصالحات ومن ذلك الإحسان إلى الخلق.

3 ـ **الأمر بالمحافظة على حرمات الدين وشعائره** من مثل حرمة الكعبة المشرفة، وحرمة كلٍّ من الحج ومناسكه، والأشهر الحرم، وما يهدى إلى البيت الحرام، وما يقلد به الهدي، وحرمة قاصدي البيت الحرام من الحجاج والمعتمرين، وحرمة أمنهم وسلامتهم.

4 ـ **الأمر بالتعاون على البر والتقوى**؛ أي: على حسن الخلق وفعل الطاعات، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان؛ أي: على فعل المنكرات والمنهيات، وعن مجاوزة حدود الله.

5 ـ **الأمر بالجهاد في سبيل الله**، طلباً لمرضاته، وابتغاء للوسيلة إليه ﷻ.

6 ـ **تحريم قتل النفس** التي حرم الله إلا بالحق، وتحديد عقوبة القتل.

7 ـ **تحريم قطع الطريق** والاعتداء على الخلق، وتحديد عقوبة القتل.

8 ـ **تحريم السرقة**، وأكل السحت بمختلف أشكاله وألوانه ومنه الرشوة، والربا، والغش في التجارة، وتطفيف الموازين والمكاييل، وعدم الأمانة في الصنعة والعمل، وتحديد عقوبة كل واحدة من تلك الأعمال السيئة والخاطئة.

9 ـ **تحليل أكل لحوم الأنعام وشرب ألبانها**، من مثل كل من الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وما يمثلها من الثدييات اللبونة المجترة والمقتصرة على أكل الأعشاب كالظباء، والغزلان، والزراف، وبقر الوحش. وأشباهها.

10 ـ **تحريم أكل كلٍّ من الميتة، والدم، ولحم الخنزير**، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما أُدْرِكَ ذكاؤه من الأصناف الخمسة الأخيرة أي إتمام ذبحه قبل أن يموت، وما ذبح على النصب، إلا من اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم.

11 ـ **تحريم الصيد على المُحْرِمِ** بالحج أو بالعمرة، وكفارة ذلك، وهذا التحريم يشمل مجرد الانتفاع بالصيد سواء كان المحرم في الحل أو في الحرم، ويقع في حكم المُحْرِمِ من كان مقيماً في الحرم وليس محرماً.

12 ـ **تحريم كل من الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام**؛ والاستقسام بالأزلام يشمل كل محاولة لاستشراف الغيب بواسطة القداح ـ وهي سهام كانت لدى أهل

الجاهلية ـ وذلك من مثل قراءة الطالع، أو الكف، أو الفنجان، أو فتح أوراق اللعب، وغيرها من وسائل الدجل والنصب المتعددة.

13 ـ **تحليل صيد البحر وطعامه**، وصيد البر المباح بعد ذكر اسم الله على وسيلة الصيد من الجوارح قبل إطلاقها.

14 ـ **تحليل طعام أهل الكتاب**، وتحليل ذبائحهم إذا ذكروا اسم الله ـ تعالى ـ عليها أثناء الذبح.

15 ـ **تحليل زواج المحصنات من المؤمنات**، أي: العفيفات المترفعات عن الرذائل، وزواج المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، بعد دفع مهورهن، ومع عدم الاختلاء بهن قبل الزواج.

16 ـ **تفصيل أحكام الطهارة** في جميع الحالات.

17 ـ **تفصيل أحكام الوصية.**

18 ـ الحكم بأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا...﴾ **(المائدة: 32).**

19 ـ الحكم بأن حزب الله هم الغالبون وأن ﴿... ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **(المائدة: 36).**

من ركائز العقيدة في سورة المائدة:

1 ـ **الإيمان بالله**، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبأن إلى الله المصير، وتحريم الشرك بالله تحريماً قاطعاً لقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ **(المائدة: 72).**

2 ـ **الإيمان ببعثة الرسول الخاتم** ﷺ الذي أكمل الله سبحانه وتعالى ببعثته الدين، وأتم النعمة بتعهده ـ عز وجل ـ بحفظ القرآن الكريم، وبرضاه الإسلام ديناً لعباده.

3 ـ **الإيمان بوحدة رسالة السماء**، وبالأخوة بين الأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى جميعاً برسالة واحدة هي الإسلام الذي دعا إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وإلى الالتزام بمكارم الأخلاق، وإلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وإلى الاتباع في الدين، وإلى عدم الابتداع فيه.

4 ـ **اليقين الجازم بأن المسيح عيسى ابن مريم هو عبد الله ورسوله**، وأنه قد خلت من قبله الرسل، وأن أمه صديقة، وأنهما كانا يأكلان الطعام، وأنه بشَّر بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وأن الإيمان بالمعجزات التي أجراها الله ـ تعالى ـ له وعلى يديه كما رواها القرآن الكريم هو جزء لا يتجزأ من إيمان المسلمين، وأن الفضل فيها يعود لله ﷻ وحده.

5 ـ **التسليم بالحقيقة القرآنية** التي مؤداها أن اليهود قد زيفوا رسالة الله إليهم، وأنهم سمَّاعون للكذب، أكَّالون للسحت، مسارعون في الإثم والعدوان، ولذلك وصفهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ **(المائدة: 82)**.

من الإشارات العلمية في سورة المائدة

1 ـ **تحريم كل من:** الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما ذُكِّي من الأنواع الخمسة الأخيرة قبل مفارقته للحياة. والتجارب المختبرية والسريرية تؤكد أخطار تناول كل هذه الأطعمة على صحة الإنسان.

2 ـ **التأكيد على أن لله ملك السمٰوات والأرض** وما بينهما في موضعين متتابعين من السورة (17، 18)، وأن له ـ تعالى ـ وحده ملك ما فيهن (120)، وهذه البينية الفاصلة بين السمٰوات والأرض بدأت العلوم المكتسبة في إدراكها مؤخراً، مع تبيين أن الغلاف الغازي للأرض هو خليط من مادتي كل من الأرض والسماء، وليس خالصاً لأي منهما. وهذه البينية أيضاً تشير إلى توسط الأرض للسمٰوات، وإلى مركزيتها بالنسبة إلى الكون، وهو ما لا يمكن للإنسان أن يثبته أبداً.

3 ـ **التأكيد على أن اليهود قد حرَّفوا دينهم** (41)، وأنهم سمّاعون للكذب أكّالون للسحت (42)، وأن كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان (62)، وأن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، وأن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى.. (82)، وأن كثيراً من الناس لفاسقون (49).

4 ـ **تحريم كل من** الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام (90)، والدراسات العلمية تؤكد حتمية ذلك التحريم.

5 ـ **جعل الكعبة المشرفة قياماً للناس** (97)، والعلم يثبت توسطها لليابسة، وتميز موقعها وتفرده بالعديد من الشواهد الحسية والمعنوية التي تشهد بخصوصية وكرامة المكان.

6 ـ **التأكيد على إنزال المائدة** التي طلبها حواريو عيسى عليه السلام من السماء (114، 115).

7 ـ **التأكيد على معجزات السيد المسيح** عليه السلام (110، 111)، وعلى بشريته الكاملة (117).

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك سوف أقصر الكلام هنا على قضيةٍ واحدةٍ وصفها القرآن الكريم بما بين السمٰوات والأرض، والتعبير بـ (رب السمٰوات والأرض وما بينهما) جاء في عشرين موضعاً من القرآن الكريم على النحو التالي:

(1) ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ (المائدة: 17).

(2) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (المائدة: 18).

(3) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ (الحجر: 85).

(4) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ (مريم: 64، 65).

(5) ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ (طه: 4 ـ 6).

(6) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الأنبياء: 16).

(7) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ (الفرقان: 59).

(8) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (الشعراء: 23، 24).

(9) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الروم: 8).

(10) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ (السجدة: 4).

(11) ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ (الصافات: 4، 5).

(12) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ (صٓ: 9، 10).

(13) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ (صٓ: 27).

(14) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ (صٓ: 66).

(15) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (الزخرف: 84، 85).

(16) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾ (الدخان: 7).

(17) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الدخان: 38، 39).

(18) ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأحقاف: 3).

(19) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ (قٓ: 38).

(20) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾(النبإ: 37).

و(**بين**) بالتخفيف في اللغة العربية ظرف مكان أو زمان بمعنى وسط، أو موضوع للخلالة بين الشيئين أو الزمنين، ووسطهما، يقال: لقد تقطع بَينَكُم أي: ما (بَينَكُم) على الحذف، فإن جعلته اسماً فاعلاً أعربته تقول: لقد تقطع (بينكم) أي: وصلكم، فـ (البين)

هو الوصل و(البينونة)، وهو أيضاً الفراق لأنه من الأضداد؛ و(البون) و(البين) هو الفضل والمزية أو البعد، يقال: بينهما (بون) أو (بين) بعيد، والواو أفصح؛ فأما بمعنى البعد فيقال: إن بينهما (بيناً) لا تميد.

ما بين السموات والأرض في أقوال المفسرين:

في قوله ـ تعالى ـ:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (المائدة17، 18).

- جاء التعبير القرآني مرتين، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الأولى منهما: «أي: جميع الموجودات ملكه وخلقه، وفي تفسير الثانية قال: «أي: الجميع ملكه، وتحت قهره وسلطانه»...
- وقال صاحب الظلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أي: «أن الله هو المالك لكل شيء».
- وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيراً ـ في الأولى؛ «أي: من الخلق والعجائب» وفي الثانية: «أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه».
- وفي التعليق على نص مشابه (في الآية59 من سورة الفرقان) ذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم أن هذا النص يشير إلى سائر أجرام السماء من نجوم وكواكب وأقمار وأتربة كونية وغازات وطاقات يتألف الكون منها.

والحقيقة أن هناك آيتين من آيات القرآن الكريم تلقيان بعض الضوء على دلالة ما بين السموات والأرض، في أولاهما يقول ربنا ﷻ:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة: 164).

ومن هذه الآية الكريمة يفهم أن السحاب هو مما بين السماء والأرض.

وفي الآية الثانية يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ **(الطلاق: 12)**.

ومن هذه الآية الكريمة يفهم أن الأمر الإلٰهي هو مما يتنزل بين السمٰوات السبع والأرضين السبع.

وفي الحديث المروي عن رسول الله ﷺ يقول فيه: «**سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق...**»[1].

ويقول ﷺ في حديث آخر: «**أطت السماء وحق لها أن تئط... ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملك قائم أو راكع أو ساجد يعبد ربه... لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»[2]...

ما بين السموات والأرض في العلوم المكتسبة:

وصل معظم المفسرين ـ من القدامى والمعاصرين ـ إلى أن من دلالات قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أنه ـ تعالى ـ هو رب العوالم علويِّها وسفليِّها، فلا ربوبية لغيره، ولا شريك له في ملكه؛ وهذا صحيح، ولكنه لا يفسر لنا ماهية الموجود بين السمٰوات والأرض، الذي تشير الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والعلوم المكتسبة إلى أنه يشمل فيما يلي:

(1) المكان والزمان في حدود نطاق يفصل بين السمٰوات والأرض.

(2) المادة والطاقة في هذا النطاق.

(3) السحاب المسخر بين السماء والأرض في هذا النطاق.

(4) الملائكة وغيرهم من الخلائق في هذا النطاق.

(5) الأوامر الإلٰهية المتنزلة في هذا النطاق وعبره.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا اعتبر القرآن الكريم أن هناك فاصلاً بين السمٰوات والأرض؟ وماذا تقول العلوم المكتسبة عن هذا الفاصل؟

---

(1) أخرجه أبو داود (الحديث: 1500) وأخرجه الترمذي (الحديث: 3568).

(2) أخرجه الترمذي (الحديث: 2312).

تجمع العلوم المكتسبة في مجالي علم الفلك والفيزياء الفلكية على أن خلق كل من المكان والزمان والمادة والطاقة قد تزامن مع عملية الانفجار العظيم؛ فلا يوجد في الكون الذي نعرفه مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، كما لا يوجد مكان وزمان بغير مادة وطاقة.

فالمادة والطاقة موجودتان بين كل من الأرض والشمس، وبينهما وبين كافة أجرام المجموعة الشمسية، ليس هذا فقط، بل بين النجوم وحولها، وبين المجرات وحولها، بل في الجزء المدرك من الكون كله.

وعلماء الفلك والطبيعة الفلكية يتحدثون اليوم عن المادة حول الكواكب **(Circum-Planetary Matter)** وبين الكواكب **(Inter-Planetary Matter)** وحول النجوم **(Cirlum-Syellar Matter)** وبينهما **(Inter-Stellar Matter)** وحول المجرات **(Circum-galacter Matter)** وبينهما **(Inter-galacter Matter)**، وبين كل تجمع سماوي مهما تعاظم حجمه وفسحة السماء، وذلك لأن تحرك كل من المادة والطاقة بين أجرام السماء وبين المكان والزمان والمحيطين بهما من الأمور التي أكدتها الدراسات الفلكية مؤخراً، ومن أثقلتها تخلق النجوم من الدخان الكوني وعودتها إليه في دوره حياة النجوم.

ومن أمثلة المادة المنتشرة بين الأرض والسماء ما يلي:

أولا: المادة بين الكواكب (The Inter-Planetary Matter):

وهي عبارة عن خليط من الغازات والجسيمات الصلبة المتناهية في دقة الحجم (من 0.001 من المليمتر إلى 0.1 من المليمتر في القطر ـ وإن كانت أقطار تلك الجسيمات الصلبة قد تصل في حالات نادرة إلى أقطار كل من النيازك والكويكبات ـ وتنتشر مادة ما بين الكواكب بين الأرض والشمس، وبينهما وبين بقية كواكب المجموعة الشمسية، وتتراوح كثافة تلك المادة بين (10^{-21}، 10^{-23}) جراماً للسنتيمتر المكعب، وتقدر كميتها في مدار الأرض بحوالي واحد من مائة مليون من كتلة الأرض. وتتكون هذه المادة أساساً من غاز الإيدروجين المتأيّن؛ أي: من البروتونات والإليكترونات؛ ومن نوى ذرات الهيليوم.

ويقدر ما يصل إلى الأرض من مادة الشهب والنيازك بحوالي جزء من عشرة أجزاء من الطن إلى مائة طن في اليوم الواحد، وتختلف حركة الجسيمات الصلبة في مادة ما بين الكواكب حسب اختلاف أقطارها وحسب قوانين ميكانيكا السماء أو ما يعرف باسم الميكانيكا الكونية.

وفي نفس الوقت يتصاعد من فوهات البراكين الأرضية كميات هائلة من الغازات

والأبخرة التي يغلب على تركيبها بخار الماء (حوالي 70%)، بالإضافة إلى أخلاط من الغازات المختلفة التي تترتب حسب نسبة كل منها على النحو التالي: ثاني أكسيد الكربون، الإيدروجين، أبخرة حمض الكلور، النيتروجين، فلوريد الإيدروجين، ثاني أكسيد الكبريت، كبريتيد الإيدروجين، غازات الميثان والأمونيا وغيرها، بالإضافة إلى بعض الجسيمات الصلبة.

ثانياً: الغلاف الغازي للأرض:

باختلاط ما تصاعد ـ ولا يزال يتصاعد ـ من فوهات البراكين مع ما حول الأرض من مادة ما بين الكواكب تكون الغلاف الغازي للأرض، وهو خليط من كل من: مادة الأرض ومادة السماء الدنيا، ولا يمكن نسبته بالكامل إلى أي منهما؛ وذلك لتميزه تميزاً واضحاً عن كل منهما. ومن هنا كان حديث القرآن الكريم عن السمٰوات والأرض وما بينهما.

وتقدر كتلة الغلاف الغازي للأرض بأكثر قليلاً من خمسة آلاف مليون مليون طن (5.2×10^{15} من الأطنان)، ويقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، ويتناقص ضغطه من نحو الكيلوجرام على السنتيمتر المربع عند هذا المستوى إلى واحد من المليون من ذلك في أجزائه العليا.

ويقسم الغلاف الغازي للأرض إلى قسمين رئيسين على النحو التالي:

(أ) **الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض (The Lower Atmosphere)**: ويتكون أساساً من خليط من جزيئات النيتروجين والأوكسجين وعدد من الغازات الأُخرى ويعرف باسم: النطاق المتجانس (**The Homosphere**)، ويقسم إلى ثلاثة نطيقات (تصغير نطق) متميزة من أسفل إلى أعلى على النحو التالي:

(1) **نطيق التغيرات الجوية أو نُطيق الطقس أو الرجع (The Troposphere)**:

وهو الجزء من الغلاف الغازي الملامس للأرض مباشرة، ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع حوالي17 كم فوق خط الاستواء، متناقصاً في السمك إلى ما بين 6 كم، 8 كم فوق القطبين، ويختلف سمكه فوق خطوط العرض الوسطى باختلاف ظروفها الجوية، فينكمش إلى ما دون السبعة كيلومترات في مناطق الضغط المنخفض ويمتد إلى حوالي13 كم في مناطق الضغط المرتفع.

ويضم هذا النطيق حوالي ثلثي كتلة الغلاف الغازي للأرض (66%)، وتتناقص درجة الحرارة فيه باستمرار مع الارتفاع بمعدل ست درجات مئوية كل كيلومتر ارتفاع ـ في

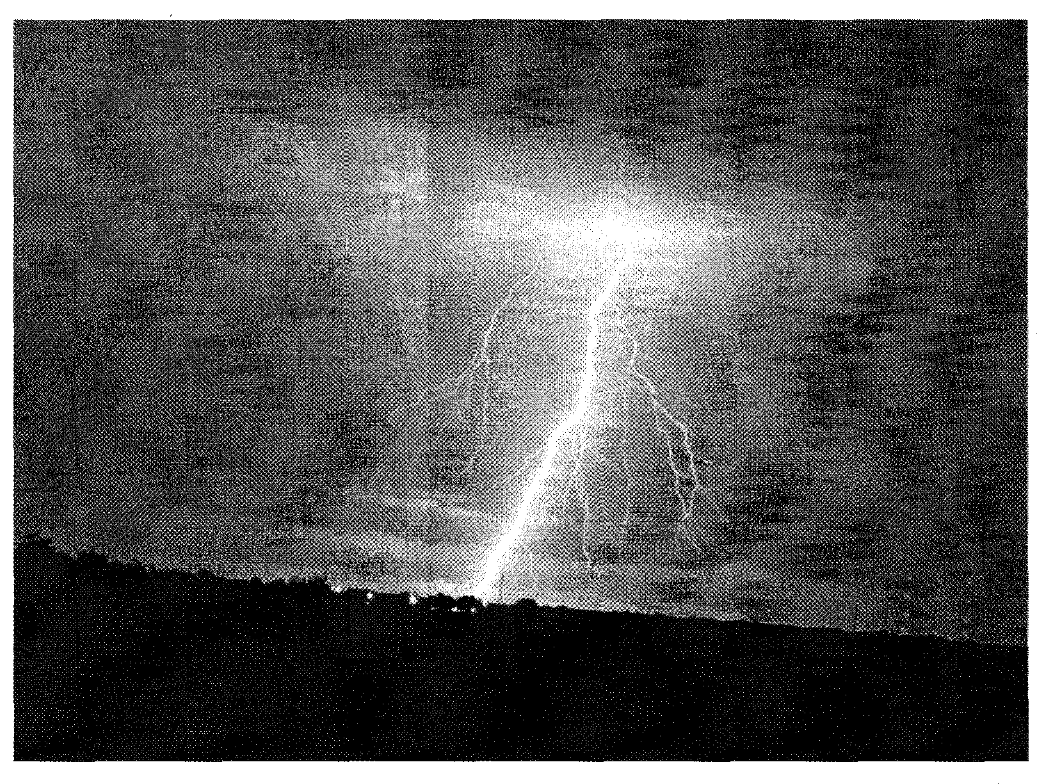
المتوسط ـ حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمة هذا النطيق المعروفة باسم: مستوى الركود الجوي **(The Tropopause)** وذلك لتناقص الضغط فيه إلى حوالي عُشر الضغط الجوي عند سطح البحر.

ويحدث هذا التناقص في درجة حرارة الغلاف الغازي للأرض مع الارتفاع نتيجة للبعد عن سطح الأرض، وهو مصدر التدفئة الصاعدة إلى هذا النطيق بعد امتصاص صخور الأرض لجزء من حرارة الشمس في كل نهار وإعادة إشعاعه إلى جو الأرض. ويتكثف بخار الماء الصاعد من الأرض في نطيق التغيرات الجوية، فتتكون السحب فيه، ويهطل كلٌّ من المطر والبرَد والثلج منه، وتحدث ظواهر الرعد والبرق، والعواصف، والدوامات، وتيارات الحمل الهوائية وغير ذلك من حركات الرياح فيه، ولذا يقول الحق ﷻ في محكم كتابه:

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ...(البقرة: 164).

رسم تخطيطي لتركيب الغلاف الغازي للأرض

ويتركب هذا النطيق أساساً من جزيئات كلٍّ من غازات النيتروجين (بنسبة 78.1% بالحجم) والأوكسجين (بنسبة 21% بالحجم)، والأرجون (بنسبة 0.93% بالحجم)، وثاني



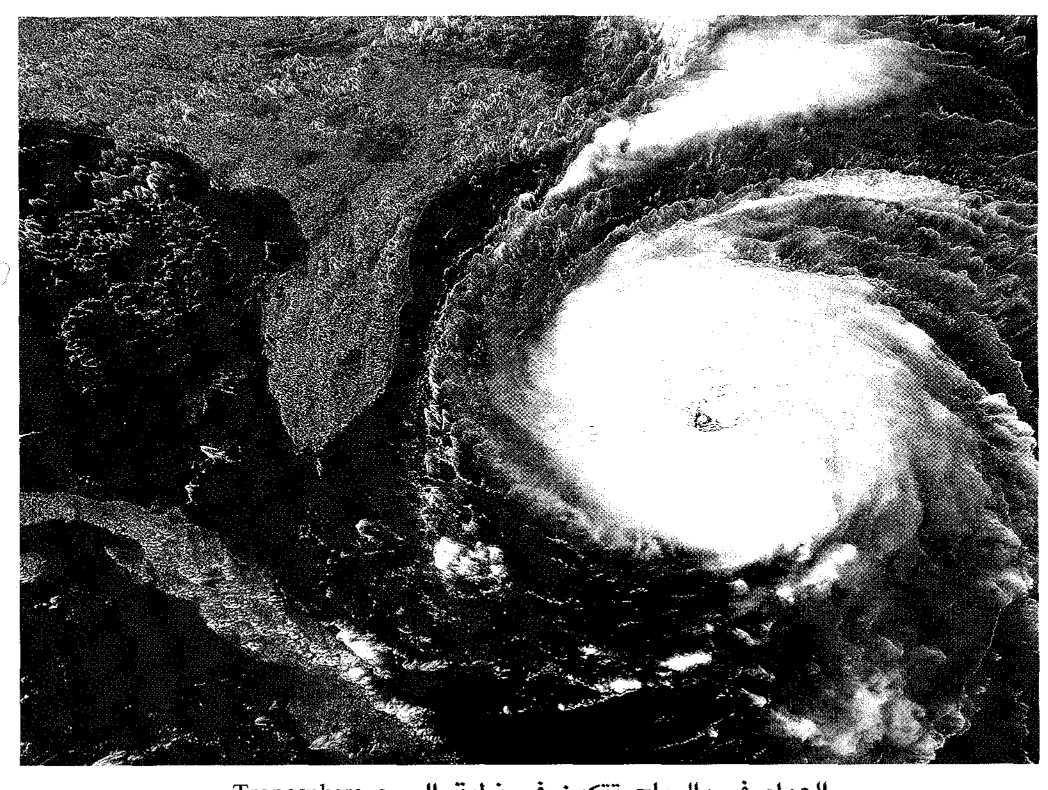
صورة للبرق الذي يحدث في نطيق المناخ (بين السماء والأرض)

أكسيد الكربون (بنسبة 0.03% بالحجم)، بالإضافة إلى نسب ضئيلة من بخار الماء، وآثار طفيفة من كلٍّ من غازات الميثان، وأكاسيد النيتروجين، وأول أكسيد الكربون، والإيدروجين، والهيليوم، والأوزون، وبعض الغازات الخاملة مثل: الأرجون.

(2) نطيق التطبق (The Stratosphere):

ويمتد من فوق مستوى الركود الجوي (**The Tropopause**) إلى قرابة الخمسين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر (ويتراوح سمكه بين33، 44 كيلومتراً) وينتهي بمستوى الركود الطبقي (**The Stratospause**).

وترتفع درجة الحرارة في هذا النطيق من حوالي الستين مئوية تحت الصفر عند قاعدته إلى نحو ثلاث درجات مئوية فوق الصفر عند قمته، ويرجع ذلك إلى امتصاص قدر من الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون المنتشرة فيما يسمى باسم: حزام الأوزون (**The Ozone Belt or The Ozonosphere**)، الموجود في الجزء السفلي من هذا النطيق (بين ارتفاعي18، 30 كم فوق مستوى سطح البحر).



العواصف والرياح تتكون في نطيق الرجع Troposphere

ويتركز غاز الأوزون في هذا الحزام بنسبة 0.001%، ولكنها على ضآلتها تعتبر نسبة كافية لحماية الحياة على الأرض من أضرار الأشعة فوق البنفسجية، وهي أشعة غير مرئية منبعثة من الشمس، وهي جزء من طاقتها ولها آثار ضارة على جميع الأحياء. وهي أشعة قصيرة الموجة عالية التردد ومكونة من ثلاثة أطوال موجية مختلفة أ، ب، جـ أطولها النوع أ (ويتراوح طول موجته بين 4000، 3150 أنجستروم) ويسبب حرق الشمس، ويليه في الطول النوع ب (ويتراوح طول موجته بين 3150، 2800 أنجستروم) والتعرض الطويل له يسبب سرطان الجلد؛ وأقصر وأخطر هذه الموجات الثلاث هو النوع جـ (ويتراوح طول موجته بين 2800، 150 أنجستروم) ويسبب العديد من الأورام السرطانية الخطيرة. وتقوم طبقة الأوزون في نطيق التطبق بامتصاص كل الأشعة قصيرة الموجة ومعظم الأشعة متوسطة وطويلة الموجة فلا يصل إلى الأرض منها إلا نسبة ضئيلة من الموجات أ، ب فيحمى الخالق ﷻ الحياة على الأرض من الدمار، ولولا هذه الحماية الربانية والعديد غيرها من صور الحماية الإلٰهية التي وضعها الخالق ﷻ ـ بين السماء والأرض ـ والتي لا يتسع المقام لسردها ـ لاستحالت الحياة على سطح هذا الكوكب.

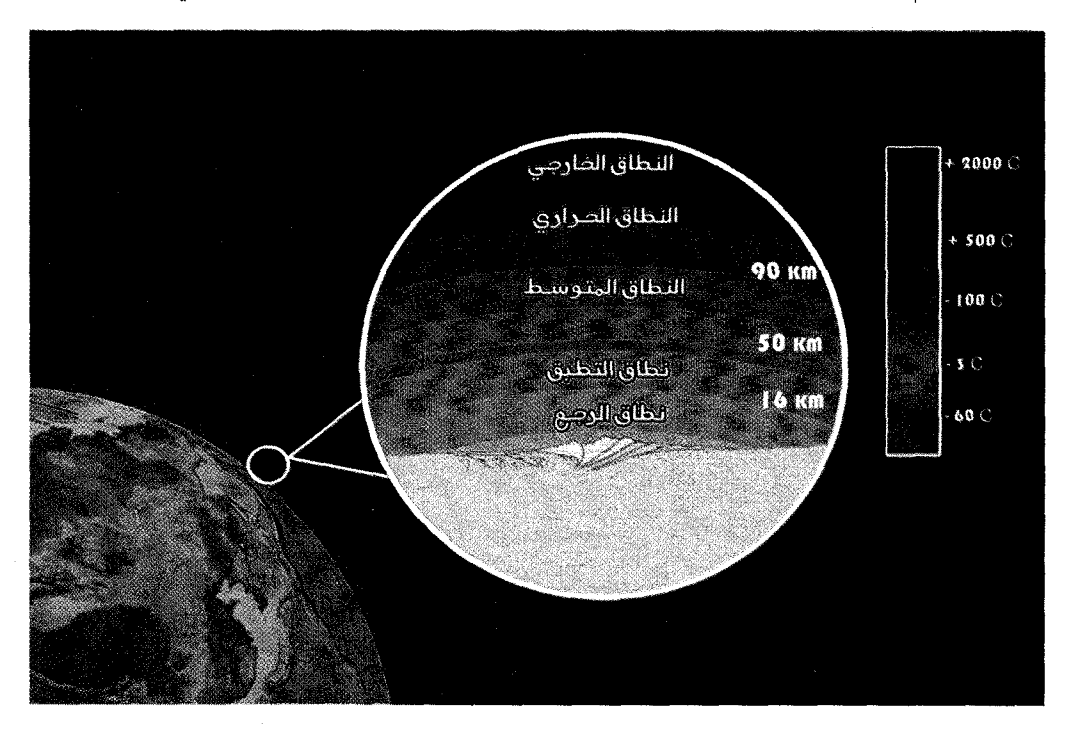
ويستمر الضغط الجوي في الانخفاض في نطيق التطبق من قاعدته إلى قمته حتى يصل إلى واحد من الألف من الضغط الجوي المقاس عند سطح البحر.

(3) النطيق المتوسط (The Mesosphere):

ويمتد من مستوى الركود الطبقي إلى ارتفاع80 ـ 90 كم فوق مستوى سطح البحر، فيتراوح سمكه بين30 ـ 40 كم، وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطيق بمعدل ثلاث درجات لكل كيلومتر ارتفاع تقريباً، حتى تصل إلى نحو مائة درجة مئوية تحت الصفر عند حده العلوي والمعروف باسم: مستوى الركود الأوسط **(The Mesopause)**، وإن كانت درجة الحرارة تلك تتغير باستمرار مع تغير الفصول المناخية، كذلك يستمر الضغط في الانخفاض مع الارتفاع حتى يصل في قمة هذا النطيق إلى أربعة من المليون من الضغط الجوي المقاس عند سطح البحر.

(ب) الجزء العلوي من الغلاف الغازي للأرض **(The Upper Atmosphere)**:

وهذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض يختلف اختلافاً كلياً عن جزئه السفلي ولذا يعرف باسم: نطاق التباين **(The Heterosphere)** وتبدأ جزيئات مكوناته في التفكك إلى



رسم يبين رقة طبقات الغلاف الغازي للأرض واختلاف الحرارة فيها

ذراتها وأيوناتها بفعل كل من أشعة الشمس والأشعة الكونية، كذلك تسود فيه ذرات الغازات الخفيفة مثل: الإيدروجين والهيليوم، على حساب الذرات الكثيفة نسبياً مثل: الأوكسجين والنيتروجين. وتواصل درجات الحرارة الارتفاع في هذا الجزء حتى تصل إلى أكثر من ألفي درجة مئوية، ويواصل الضغط في الانخفاض حتى يصل في قمته إلى أقل من واحد في المليون من الضغط الجوي المقاس عند مستوى سطح البحر، ويحوي هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض على نطيقين متميزين هما من أسفل إلى أعلى كما يلي:

(1) نطيق الحرارة (The Thermosphere):

ويمتد من مستوى الركود المتوسط إلى عدة مئات من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، ويقدر سمكه بعدة كيلومترات، وتواصل درجة الحرارة في الارتفاع فيه من نحو مائة درجة مئوية إلى مابين227 ـ 500 درجة مئوية عند ارتفاع مائة وعشرين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، وتبقى درجة الحرارة ثابتة تقريباً عند درجة 500°م إلى ارتفاع يتراوح بين300، 400 كم فوق مستوى سطح البحر، ثم تقفز بعد ذلك إلى مابين1500 ـ 2000 درجة مئوية في نهاية النطيق، وتزيد عن ذلك في فترات النشاط الشمسي.

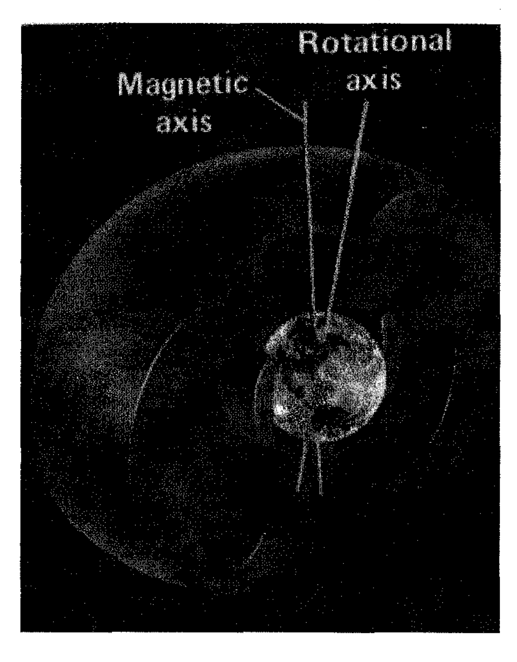
(2) النطيق الخارجي (The Exosphere):

ويعلو النطاق الحراري مباشرة، وتثبت فيه درجة الحرارة نسبياً، ولذا يطلق عليه أحياناً اسم: نطيق التساوي الحراري **(The Isothermalsphere)**، ويتضاءل الضغط فيه وتتمدد الغازات بشكل كبير وتتحرك ذراتها بحرية كاملة في مساراتها، فتقل فرص التلاقي بينها بعد ارتفاع يطلق عليه اسم: الارتفاع الحرج **(The Critical Elevation)**، ويسمى أحياناً باسم خط ركود الضغط الجوي **(The Isopause)** أو باسم قاعدة العوالم الخارجية عن الأرض **(Base of the Extra-Terrestrial world)** وعند هذا الحد يبدأ الغلاف الغازي للأرض في الالتحام بقاعدة السماء الدنيا، حيث تسود الغازات الخفيفة وفي مقدمتها غاز الإيدروجين. وهنا تتضاءل سيطرة الجاذبية الأرضية على ذرات الغازات الخفيفة في الجزء العلوي من هذا النطيق الخارجي، مما يزيد من قدرات تلك الذرات على الانفلات من قيود الجاذبية الأرضية والهروب إلى فسحة الكون. وفي المنطقة من قمة النطيق المتوسط إلى أقصى الحدود العلوية للغلاف الغازي للأرض، تتأين ذرات الغازات الموجودة بفعل كل من الأشعة فوق البنفسجية، والسينية، القادمة مع أشعة الشمس، وبفعل بعض جسيمات كل من الأشعة الشمسية والكونية **(Solar and cosmic particles)**. ويطلق على هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض اسم: نطاق التأين **(The Ionosphere)**، والمنطقة التي تفوق فيها طاقة الأيونات الطاقة الحرارية تتحرك الأيونات بين خطوط قوى مجال الجاذبية

الأرضية مكوِّنة منطقة تعرف باسم: النطاق المغناطيسي للأرض **(The Magnetosphere)**، وتمتد إلى نهاية الغلاف الغازي للأرض. وقد تتداخل في نطاق المادة بين الكواكب.

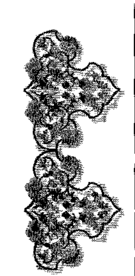
كذلك تم اكتشاف زوجين من الأحزمة الإشعاعية **(The Radiation Belts)**، التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة على هيئة كرتين متطابقتين تغلف الكرة الخارجة منهما الكرة الداخلة وكل نصف كرة منهما على هيئةٍ هلاليةٍ تزيد في السمك عند خط الاستواء، وترق رقةً شديدة عند القطبين، وفيها تحتبس الأيونات واللبنات الأولية للمادة التي يقتنصها المجال المغناطيسي للأرض، فتتحرك عبر ذلك المجال من أحد قطبي الأرض إلى الآخر وبالعكس في حركة دائبة.

وهذه النطق والنطيقات المكونة للغلاف الغازي للأرض لم يدركها العلماء إلا في بداية الستينيات من القرن العشرين، وهي تمثل فاصلاً حقيقياً بين الأرض والسماء، ومن هنا فإن الإشارات القرآنية بقول الحق ﷻ: في أكثر من عشرين موضعاً من كتاب الله تأتي سبقاً علمياً يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً على مدى يزيد على الأربعة عشر قرناً وتعهد ﷻ بهذا الحفظ إلى أن يرث الأرض ومن عليها، حتى يبقى القرآن الكريم حجة لله الخالق فوق جميع خلقه، فلا يتعلل نفر منهم بأنه لم يأته بشير ولا نذير من لدن رب العالمين، وتبقى حقائق القرآن الكريم شاهدة له بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وشاهدة بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

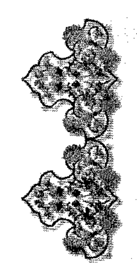


شكل أحزمة الإشعاع التي ترجع عنّا الأشعة الكونيّة

بسم الله الرحمن الرحيم



(24) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (المؤمنون: 18)





هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية السدس الأول من سورة «المؤمنون»، وهي سورة مكية، وآياتها مائة وثماني عشرة (118) آية بعد البسملة، وسميت بهذا الاسم إشادة بالمؤمنين، وعرضاً لبعض صفاتهم حتى يستطيع قارىء هذه السورة أن يقيس نفسه بمعاييرها المنضبطة فيعلم إن كان من المؤمنين، أو من المقصرين، أو ممن استزلهم الشيطان الرجيم فأغرقهم في أوحال الشرك أو الشك أو الكفر بالله.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المؤمنون» حول قضية الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً، واحداً أحداً، فرداً صمداً، وتنزيهه ـ سبحانه ـ تنزيهاً كاملاً عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل ادعاء الشريك أو الشبيه، أو الصاحبة، أو الولد له، وغير ذلك من صفات المخلوقين، والله ﷻ منزه عن جميع صفات خلقه: (الشورى: 11).

وقد استهلت هذه السورة الكريمة بإثبات الفلاح للمؤمنين، واستعراض جانب من صفاتهم، وإثبات ميراث جنات الفردوس لهم خالدين فيها أبداً، وفي ذلك تقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (المؤمنون: 1 ـ 11).

وقد أخرج الإمام أحمد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: قول رسول الله ﷺ في الآيات العشر الأولى من سورة «المؤمنون» حيث قال: «. . . **لقد نزلت عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**»[1].

ثم تابعت هذه السورة الكريمة بالإشارة إلى عدد من آيات الله في الأنفس والآفاق، تشهد له ﷻ بكمال الألوهية، والربوبية، والوحدانية، وبطلاقة القدرة المبدعة في الخلق، مما يثبت له ﷻ القدرة على الإفناء والبعث، وقد كانا دوماً من حجج الكافرين والمتشككين والمعاندين.

واستمرت سورة «المؤمنون» بعد ذلك في تأكيد حقيقة الإيمان كما دعا إليها رسل الله أجمعين، ومنهم الصفوة من لدن سيدنا نوح ﵇ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ابن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وعرضت لشيء من قصصهم وقد حملوا لأممهم الأمر الإلهي بالإيمان بالله ـ تعالى ـ ربًّا، وتوحيده، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله، والخضوع له بالطاعة والعبادة، مع الحرص على المطعم الحلال الطيب، والعمل الصالح المفيد، وتأكيد وحدة الإنسانية، ووحدة الدين. فهذه الإنسانية خالقها واحد، وأصلها واحد، ودينها واحد، فلا بد أن تكون هداية الله ـ تعالى ـ لها واحدة، أنزلت على فترة من الرسل، ثم أكملها وأتمها وختمها برسالته الخاتمة التي بعث بها خاتم أنبيائه ورسله، سيد الأولين والآخرين وإمام المتقين سيدنا محمد بن عبد الله، الذي ليس من بعده من نبي ولا من رسول، ولذلك تعهد الله ـ تعالى ـ بحفظ رسالته في نفس لغة وحيه إلى يوم الدين حين يرجع الجميع ويعودون إلى هذا الخالق العظيم الذي له ملك السمٰوات والأرض ومن فيهن، ليحاسَبوا على أعمالهم في حياتهم الدنيا بالإحسان إحساناً، وبالإساءة عقاباً أو غفراناً حسب مشيئة رب العالمين وأمره وعدله المطلق.

وتابعت السورة الكريمة باستعراض عدد من شبهات المكذبين لدين الله الحق، الضالين عن هدايته، المحاربين لرسله وأنبيائه وأوليائه إلى الحد الذي يدفع الرسل والأنبياء والأولياء إلى الاستنصار بربهم، فيهلك الله المكذبين (من أمثال الصهاينة المجرمين الذين يعيثون اليوم فساداً في أرض فلسطين، بدعم من الإدارة الأمريكية الفاجرة الكافرة، التي غزت كلاً من أرض أفغانستان والعراق متعدية بذلك على كل القوانين والأعراف الدولية، ومتجاوزة حقوق الإنسان تجاوزاً أسقط هذه الحضارة الغربية في موازين الله وعند خلقه، وجرَّدها من كل

---

(1) أخرجه الإمام أحمد «مسنده».

القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية، والدليل على ذلك السلوكيات المنحطة للأمريكان والإنجليز وغيرهم من المحتلين مع المعتقلين في سجون العراق وأفغانستان وجوانتانامو، والتي تمت في ظل صمْت من بقية المشركين والكافرين والمتخاذلين في العالم الذي يدّعي لنفسه أنه عالم متحضر)، ومن سنن الله التي لا تتوقف، ولا تتخلف أن يهلك المكذبين الكافرين الفجرة، وأن ينجي عباده المؤمنين، كما سيحدث إن شاء الله ـ تعالى ـ على أرض فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وكشمير والشيشان وفي كل أرض محتلة أو محاصرة وفي كل شعب مظلوم.

وتمضي السورة الكريمة في استعراض اختلاف الناس بعد الرسل، مؤكدة مرة أُخرى وحدة الرسالة السماوية، ووحدة الجنس البشري، وإن افترقوا إلى مؤمن وكافر، وتكرر ذكر شيء من صفات كل من هاتين المجموعتين من البشر، وتشير إلى مصير كل منهم في الآخرة، وتؤكد أن مَدَّ الله ـ تعالى ـ لنفر من الكافرين والمشركين والطغاة المتجبرين في هذه الحياة الدنيا هو من قبيل استدراجهم، وليس دليل خير فيهم، فالمدد بالمال والبنين، والعلو الكاذب في الأرض، كما هو الحال مع كل من الأمريكيين الفاجرين والصهاينة الغاصبين، لا يمكن أن يكون إلا غضباً من الله تعالى عليهم وذلك من قبيل استدراجهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم إن شاء الله تعالى....!!!.

وتستنكر سورة «المؤمنون» المواقف المعادية من المشركين لرسول الله ﷺ في القديم، كما تستنكره في الحديث، وتشير إلى تعلل المشركين والكافرين بتشككهم في إمكانية البعث بعد الموت لجهلهم بطلاقة القدرة الإلهية، وقياسهم على الله ـ تعالى ـ ظلماً بمعايير البشر.

وتسأل الناس عدداً من الأسئلة المنطقية حتى يجيبوا بفطرتهم، وينطقوا بما يؤكد تفرد الله ـ تعالى ـ بالألوهية، والربوبية والوحدانية، وأنه تعالى قيوم السمٰوات والأرض ومن فيهن، المنزَّه عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد وأن ـ تعالى ـ بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولايجار عليه. ويأمر الله ـ تعالى ـ رسوله الكريم في هذه السورة المباركة ـ والأمر بالتالي لكل المسلمين ـ أن يدفع بالتي هي أحسن، وأن يستعيذ بالله من همزات الشياطين.

وتختتم السورة بمشهد من مشاهد الآخرة يهان فيه كل كافر ومشرك، ويؤاخذ على مواقفه الخاطئة في الدنيا، وتنتهي بإقرار التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ، وبالتوجيه بضرورة طلب الرحمة والمغفرة منه؛ فهو سبحانه وتعالى أرحم الراحمين..

والإشارات الكونية التي استشهدت بها سورة «المؤمنون» على ما ورد فيها من حق إشارات عديدة منها ما يلي:

(1) خلق السمٰوات والأرض بالحق.

(2) اختلاف الليل والنهار.

(3) إنزال الماء من السماء بقدرٍ وإسكانه في الأرض.

(4) خلق الحياة بمختلف صورها.

(5) خلق الإنسان بمراحله المختلفة ـ الجنينية وما بعد الجنين ـ حتى يكتمل خلقه، ويتم ميلاده، ويستمر في مراحل نموه حتى وفاته، ثم بعثه وحسابه، وخلوده في حياة أبدية مقبلة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

(6) خلق السمع والبصر والأفئدة للإنسان، وبث جنسه في مختلف بقاع الأرض.

وتقديم السمع على كل من البصر والأفئدة هنا وفي العديد من آيات القرآن الكريم.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة علمية خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثالثة من القائمة السابقة، وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض عدد من أقوال المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

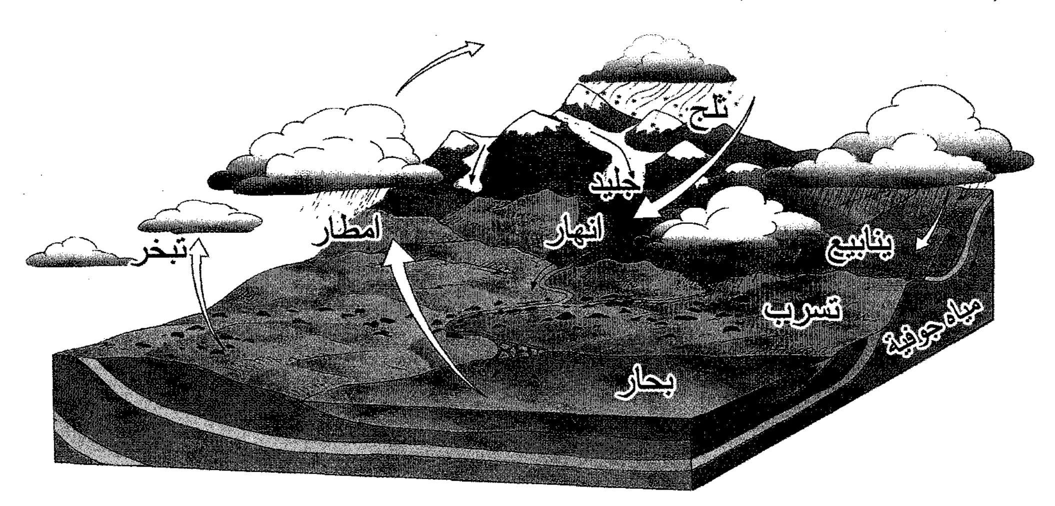
في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ **(المؤمنون: 18)**.

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ما مختصره: «يذكر الله تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله المطر من السماء بقدر، أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزرع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به...، فسبحان اللطيف الخبير الغفور، وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية إليه، تشربه، ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسُقيا لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى

مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، ويسقي به الزروع والثمار، تشربون منه وتشرب دوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه، وتتطهرون منه وتتنظفون، فله الحمد والمنة».

وجاء في باقي التفاسير كلام مشابه تماماً لما ذكره «ابن كثير»، فيما عدا المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كاتبيه خيراً ـ والذي جاءت في هامشه إشارة إلى شيء من ارتباط هذه الآية الكريمة بدورة الماء حول الأرض وذلك بالنص التالي: «وتشير هذه الآية إلى الحكمة العالية في توزيع الماء بقدر أي: بتقدير لائق حكيم، لاستجلاب المنافع ودفع المضار.. ثم معنى آخر للآية الكريمة يفيد أن مشيئة الخالق ـ جل وعلا ـ اقتضت أن تسكن في الأرض كمية معلومة من المياه في محيطاتها وبحارها تكفي لحدوث التوازن الحراري المناسب في هذا الكوكب، وعدم وجود فروق عظيمة بين درجات حرارة الصيف والشتاء لا تلائم الحياة، كما في بعض الكواكب والتوابع كالقمر... كما أن مياه الأرض أُنزِلت بقدرٍ معلوم، لا يزيد فيغطي كل سطحها، ولا يقل فيقصر دون ري الجزء البري منها».



شكل تخطيطي يمثل دورة الماء حول الأرض وداخلها

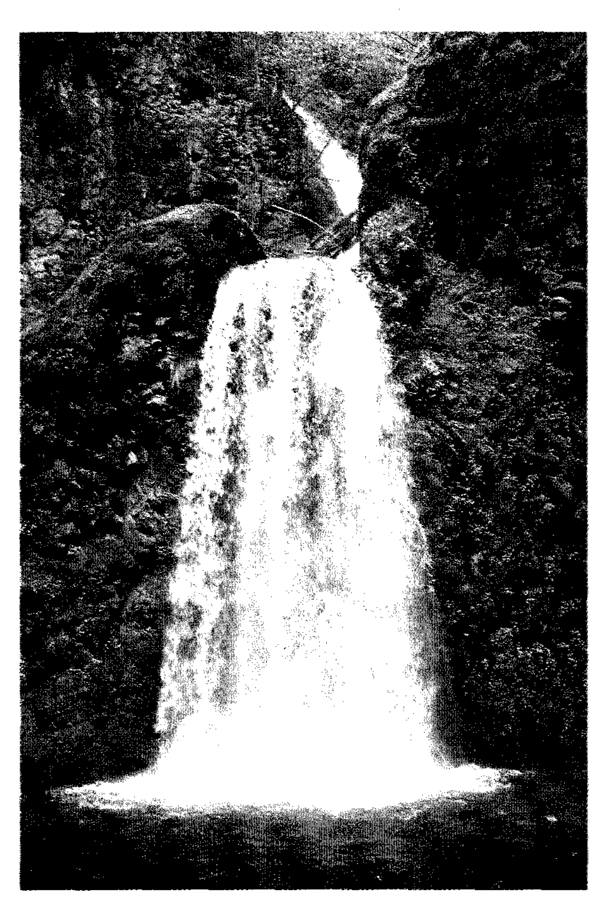
دلالة الآية الكريمة في ضوء المعارف العلمية المكتسبة

هذا السبق القرآني بالإشارة إلى أن أصل الماء الذي يمكن أن يستفيد به الإنسان من تحت سطح الأرض هو ماء المطر، يعتبر صورة من صور الإعجاز العلمي في كتاب الله؛

وذلك لأن السائد في كل الحضارات السابقة على البعثة المحمدية الشريفة ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ من مثل: الحضارة اليونانية القديمة أن الماء المتجمع تحت سطح الأرض مندفع إلى داخل القارات من ماء البحار والمحيطات عبر هوة سحيقة تخيلوها وأسموها: تاتار (**Tatare**)، أو أن بخار ماء التربة يتكاثف في تجاويف الأرض كما افترض أرسطو. وقد استمرت هذه الافتراضات الخاطئة سائدة حتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي (1877 م)، ولم تتبلور العلاقة بين ماء المطر والماء تحت سطح الأرض إلا مع بدايات القرن العشرين، وإن كان فرنسياً باسم برنارد باليسي (**Bernard Palissy**) قد أشار إلى شيء من ذلك في أواخر القرن السادس عشر الميلادي (1580 م) وتبعه في ذلك «ديكارت» في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، وأغلب الظن أنهما قد استمدا هذه المعلومات من عدد من المصادر الإسلامية المترجمة التي كانت متاحة لكلٍّ منهما.

والماء سائل شفاف، وهو في نقائه لا لون له ولا طعم ولا رائحة. ويتركب جزيء الماء من ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأكسجين، وترتبط هذه الذرات الثلاث مع بعضها البعض برابطتين تَساهُميتين تشكلان زاوية مقدارها (105) درجات، مما جعل لجزيء الماء قطبين كهربيين يحمل أحدهما شحنة موجبة والآخر شحنة سالبة.

والماء من أهم ضرورات الحياة، فبدونه لا تقوم، ولذلك كان خلق الماء قبل خلق الحياة، وكان خلق الحياة الباكرة في الماء. وقد ظلت الحياة في الماء منذ 3.8 بليون سنة مضت وإلى يومنا الراهن، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، بينما لا يتعدى عمر الحياة الأرضية على اليابسة أربعمائة مليون سنة. وأجساد الكائنات الحية كلها يغلب على تركيبها الماء الذي تتراوح نسبته في جسم الإنسان بين 93% بالنسبة للجنين في أشهره الأولى (الثلاثة إلى الأربعة الأولى من حياة الجنين) إلى ما بين 54% و71% في الإنسان البالغ. هذا بالإضافة إلى أن جميع الأنشطة الحياتية من مثل: عمليات تصنيع الغذاء في النبات، وعمليات هضمه، وتمثيله، وإخراجه عند كل من الإنسان والحيوان، وعمليات الأكسدة والاختزال، والانقسام، والنمو، والتكاثر، وغيرها في أجساد جميع الكائنات الحية لا يمكن لها أن تتم في غيبة الماء. فالنبات ـ على سبيل المثال ـ يأخذ غذاءه من الأرض عن طريق العناصر والمركبات الذائبة في ماء التربة على هيئة محاليل مخففة يمتصها النبات امتصاصاً اختيارياً بواسطة الشعيرات الجذرية، وترتفع هذه العصارة الغذائية في الأوعية الخشبية للنبات بالقدرة التي أعطاها الله تعالى للماء على الارتفاع بالخاصية الشعرية في الأنابيب الضيقة مثل الأوعية الخشبية المنتشرة في مختلف أجزاء النبات، ويعين الماء على



الماء أهم عنصر لاستمرار الحياة على الأرض

ذلك ما وهبه الله ـ تعالى ـ من خصائص أخرى عديدة من مثل خاصية التوتر السطحي؛ كذلك فإن عمليات التمثيل الضوئي لا يمكن أن تتم في غيبة الماء الذي يحلله النبات باستخدام الطاقة الشمسية إلى مكونيه من الأكسجين والهيدروجين فيطلق الأول إلى الجو ويحتفظ بالثاني. كذلك يحلل النبات ما يمتصه من ثاني أكسيد الكربون من الجو بواسطة الطاقة المستمدة من الشمس أيضاً إلى مكونيه الكربون والأكسجين فيحتفظ بالأول، ويطلق الثاني إلى الجو، ثم بطاقة الشمس أيضاً يربط النبات ما احتفظ به من ذرات الكربون والهيدروجين في سلاسل متعددة من الكربوهيدرات ـ ومنها السكر بمختلف أنواعه، والنشاء، والسيليولوز ـ التي يبني منها النبات مختلف أجزائه، ويختزن بعضها في ثماره أو محاصيله المختلفة.

وبعد الاستفادة بالقدر الكافي من الماء في بناء خلاياه وأزهاره وثماره، يطلق النبات الماء الزائد عن حاجته إلى الجو بعمليات عديدة منها: النتح والتبخر. وبالمثل، فإن كلًّا من الإنسان والحيوان يأخذ القدر اللازم له من الماء عن طريق الطعام والشراب، ويفقد الزائد منه عن حاجته بواسطة العديد من العمليات من مثل: التنفس، والعرق، والدموع، والإخراج، وغيرها من الإفرازات الجسدية.

أولاً: من الصفات الطبيعية المميزة للماء

من الصفات الطبيعية التي خص الله ـ تعالى ـ بها الماء والتي جعل لها أهمية قصوى للحياة ما يلي:

(1) **البناء الجزيئي ذو القطبية المزدوجة**: يتكون جزيء الماء من ذرتي هيدروجين تحملان شحنة كهربية موجبة وترتبطان بذرة أكسجين تحمل شحنة كهربية سالبة بواسطة رابطتين تَساهُميتين تشكلان زاوية مقدارها 105 درجات، وهذا البناء الجزيئي المميز جعل للماء من الصفات الطبيعية والكيميائية مايميزه عن غيره من السوائل والمركبات الهيدروجينية.

(2) **درجتا التجمد والغليان**: يتجمد الماء عند درجة4 مئوية، ويغلي عند درجة مائة مئوية، ولهاتين الخاصيتين أهمية قصوى لاستمرارية الحياة، إذ يبقى الماء سائلاً في درجات حرارة أجساد كل الكائنات الحية ليساعد على إتمام جميع الأنشطة الحيوية ومنها: التغذية، وتمثيل الغذاء ونقله إلى الخلايا والأنسجة المختلفة وإتمام عملية الأكسدة والاختزال وإخراج الفضلات والنمو والتكاثر وغيرها.

(3) **الحرارة النوعية**: ويقصد بها كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة جرام واحد من الماء عند درجة 4 مئوية بمقدار درجة مئوية واحدة. وهي حرارة نوعية مرتفعة مما يمكِّن جسم الإنسان وأجساد غيره من الكائنات الحية من مقاومة التغيرات الجوية المختلفة بدرجة كبيرة.

(4) **الحرارة الكامنة**: الحرارة الكامنة لتبخر الماء هي الحرارة اللازمة لتبخير جرام واحد من الماء دون أن تتغير درجة حرارته، وتبلغ 540 سعراً حرارياً، وكذلك فإن الحرارة الكامنة لانصهار الماء المتجمد (الجليد)، أي: كمية الحرارة اللازمة لصهر جرام واحد منه دون أن تتغير درجة حرارته تبلغ 80 سعراً حرارياً. وارتفاع قيم الحرارة الكامنة للماء يكسبه مقاومة كبيرة في التحول من الحالة الصلبة إلى السائلة إلى الغازية، وهذه الخاصية تجعل من الماء واحداً من أفضل السوائل المستخدمة في إطفاء الحرائق، إذ يستهلك كمية كبيرة من الحرارة من الوسط الذي يحترق قبل أن ترتفع درجة حرارته، مما يعين على خفض درجة الحرارة وإلى إطفاء الحرائق.

(5) **اللزوجة والتوتر السطحي**: وتعرف لزوجة السائل بمقاومته للحركة، أما التوتر السطحي فهو خاصية من خصائص السوائل الساكنة، وفيه يكون السطح الحر للسائل مشدوداً ليأخذ أقل مساحة ممكنة. ويتميز الماء بلزوجة عالية نسبياً بسبب انجذاب جزيئاته إلى بعض بفعل الرابطة الهيدروجينية، وتزيد هذه اللزوجة بانخفاض درجة حرارة الماء لزيادة قرب جزيئاته من بعضها البعض حتى درجة4 مئوية حين تبدأ في التباعد، وتتسبب الرابطة الهيدروجينية في زيادة التوتر السطحي للماء مقارنة بالسوائل الشبيهة وهاتان

الخاصيتان تساعدان على مزيد من التماسك بين مواد الخلية الحية، وعلى إكساب الخلايا شكلها الخاص، وتساعدان على امتصاص العصارة الغذائية بواسطة الشعيرات الجذرية، وعلى رفعها إلى أعلى ضد مقاومة الجاذبية الأرضية حتى تتمكن من الوصول إلى كلٍّ من الفروع والأوراق والقمم النامية في أعلى النبات بارتفاع يفوق الارتفاع الذي يحدثه الضغط الجوي ـ حوالي عشرة أمتار ـ، ويعين على ذلك فقدان الماء من الأوراق بواسطة عمليات النتح والتبخر حيث يصل الضغط المائي في داخل أوعية النبات عدة أضعاف الضغط الجوي، وإن كان ذلك يختلف حسب نوع النبات وظروفه البيئية، وذلك لكي يستمر ارتفاع العصارة الغذائية من الشعيرات الجذرية عبر السيقان والفروع إلى الأوراق والزهور والثمار.

وتساعد خاصيتا لزوجة الماء وتوتره السطحي أيضاً على إبطاء عملية فقدان الماء من الأوراق عبر ثغورها، ومن أجساد الإنسان والحيوان عبر مسام الجلد، وإذا خرج الماء



جزئيات الماء تصبح رباعية في حالة الجليد الرخو (Snow)

الزائد، يبقى على سطح كل من الأوراق والجلد برهة حيث يتبخر فيبردهما ويكسبهما شيئاً من الرطوبة في الجو الحار.

كذلك فإن الارتفاع النسبي لخاصيتي اللزوجة والتوتر السطحي للماء، تساعدان في حماية السفن والبواخر المحملة بالأحمال الثقيلة من الغوص في الأعماق، وذلك بدفعها إلى أعلى وزيادة قدرتها على الطفو.

(6) **قلة كثافة الماء عند تجمده:** من الثابت علمياً أن قوة الرابطة الهيدروجينية تتلاشى بين جزيئات الماء بارتفاع درجة حرارته، مما يجعل جزيئات الماء منفردة جزيئاً جزيئاً في حالة التبخر، ومزدوجة أو ثلاثية في حالة السيولة ـ حسب درجة الحرارة ـ، وفي حالة رباعية في حالة الجليد الرخو **(Snow)**، وفي حالة ثمانية في حالة الجليد الصلب **(Ice)**، وفي الحالة الأخيرة يزداد الحيز المكاني الذي تشغله ثماني جزيئات؛ مما يقلل من كثافة الجليد، وهي خاصية ينفرد بها الماء؛ لأنها لازمة لحياة الكائنات البحرية الحية في



تجمد سطح البحر ـ خاصية ينفرد بها الماء لحفظ درجة الحرارة المناسبة للحياة داخل الماء

المناطق المتجمدة حيث يتجمد الماء عند سطح البحر فيطفو ويبقى ما دونه من ماء سائلاً حتى لا يقضى على بلايين الأحياء التي تعيش فيه، ويعين سقف الجليد على حفظ درجة حرارة مناسبة للماء والأحياء من دونه.

ثانياً: من الصفات الكيميائية المميزة للماء

لقد خص الخالق ﷻ الماء بتركيب جزيئي فريد وبعدد من الصفات الطبيعية والكيميائية الخاصة. ومن الصفات الكيميائية المميزة التي خص الله تعالى بها الماء ما يلي:

(1) مقاومة جزيء الماء للتحلل إلى ذراته: نظراً للرابطة الهيدروجينية القوية لجزيء الماء، ولوجود الذرات في داخل الجزيء بشكل مائل؛ فإن هذا الجزيء يصعب تحلله إلى ذراته إلا بنسب ضئيلة (11%)، وفي درجات حرارة مرتفعة (2700 درجة مئوية)، وهذه الخاصية تعين المحاليل الحيوية المختلفة على البقاء في أجساد الكائنات الحية لأطول مدة ممكنة.

(2) قدرة الماء الفائقة على إذابة العديد من المواد الصلبة والسائلة والغازية: إن البناء الجزيئي للماء بميل ذراته، وثنائية قطبيته، وروابطه الهيدروجينية جعلت من الماء أعظم مذيب يعرفه الإنسان، خاصة بالنسبة للمواد المؤينة من مثل: الأملاح، والقواعد، والأحماض، ولذلك أطلق عليه اسم: المذيب العالمي **(The International Solvent)**.

ويذيب الماء ثاني أكسيد الكربون مكوِّناً حمض الكربون، بينما يذوب الأكسجين في الماء متخللاً جزيئاته، وفي الحالة الأولى يسهل الماء نقل ثاني أكسيد الكربون للاستفادة به في عمليات من مثل عملية التمثيل الضوئي التي تقوم عليها حياة النباتات الخضراء، كما يسهل عملية التخلص من ثاني أكسيد الكربون في كلٍّ من الإنسان والحيوان والنبات عن طريق التنفس والإخراج أو النتح والتبخر، وفي الحالة الثانية، يعتبر ذوبان الأكسجين في الماء من ضرورات الحياة للاستفادة به في عمليات التنفس بالنسبة للكائنات التي تعيش في الماء، وفي عمليات تطهير الماء وتعقيمه.

(3) قدرة الماء على الأكسدة والاختزال:

يدخل الماء في العديد من عمليات الأكسدة والاختزال، وفي الأكسدة تفقد العناصر إليكتروناً أو أكثر، بينما تكسب ذلك في عمليات الاختزال، والعمليتان أساسيتان في تفتيت الصخور، وتكوين التربة، وتركيز الخامات، وإعداد الغذاء لكلٍّ من النبات والحيوان والإنسان، وفي أكسدة الدم واختزاله، والدم يتكون أساساً من الماء.

(4) قدرة الماء الفائقة على التفاعل مع المركبات:

يتحد الماء مع أكاسيد الفلزات مكوِّناً إيدروكسيداتها ومطلقاً الحرارة، ومع أكاسيد غير الفلزات مكوناً أحماضاً، وهي عمليات مهمة في تفتيت صخور الأرض، وتكوين التربة، وإنتاج العديد من الثروات الأرضية وتركيزها، وفي إعداد العصارات الغذائية للنبات، وإنتاج مختلف أجزائه من أخشابه إلى زهوره وثماره أو محاصيله، وفي مساعدة كلٍّ من الإنسان والحيوان على هضم وتمثيل طعامه، وفي عمليات نموه وتكاثره، وغير ذلك من أنشطة حيوية مختلفة.

(5) قدرة الماء المحدودة على التأين:

يتأين الماء بصعوبة إلى أيون الهيدروكسيل السالب، وأيون الهيدروجين الموجب، ويساعد هذا التأين على إتمام العديد من العمليات الكيميائية اللازمة لاستمرارية الحياة.

(6) قدرة الماء على انصداع التربة وشقها:

تتكون التربة أساساً من المعادن الصلصالية، وهذه تتكون من صفائح رقيقة جدًّا، أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على التشبع بالماء (التميؤ)، فتتمدد إلى عشرات مرات أطوالها، ويؤدي ذلك إلى تباعد أسطحها عن بعضها البعض، فتهتز وتربو إلى أعلى، وترق رقة شديدة حتى تنشق لتفسح طريقاً سهلاً للسويقة الطرية المنبثقة من داخل البذرة النابتة، ولولا هذه الخاصية ما أنبتت الأرض، ولا كانت صالحة للعمران. وتتمدد صفائح الصلصال بالتميؤ كذلك لحملها شحنات كهربية سالبة على أسطحها، تمكنها من التنافر مع الشحنات السالبة على جزيء الماء، ومن التجاذب مع شحنات جزيء الماء الموجبة مما يؤدي إلى تشقق التربة وانصداعها وإلى جعل تلك الصفائح متباعدة عن بعضها البعض. والعكس من ذلك يحدث عند الجفاف؛ حيث تتلاشى الروابط الكهربية بين شحنات صفائح الصلصال وشحنات جزيء الماء لاختفائه عند الجفاف، فتتشقق الأرض لشقوق سداسية أو قريبة من السداسية، مما يعين على شيء من تهوية التربة.

ثالثاً: توزيع الماء الأرضي

يعتبر كوكب الأرض أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء؛ ولذا يسميه علماء الأرض باسم: «الكوكب المائي» أو «الكوكب الأزرق»، وتقدر كمية الماء الأرضي بحوالي 1337 مليون كيلومتر مكعب، ويوجد في الحالات السائلة والغازية والصلبة موزعاً في البحار والمحيطات والبحيرات وفي كلٍّ من الأنهار والجداول، والمجاري المائية الأخرى،

ويوجد على هيئة جليد فوق القطبين، وعلى قمم الجبال، وعلى هيئة مخزون مائي كبير تحت سطح الأرض، كما يوجد على هيئة قدر من الرطوبة في كل من التربة والغلاف الغازي للأرض.

ويغطي الماء السائل أكثر قليلاً من 71% من مساحة سطح الأرض، بينما يغطي الجليد نحو 9% من تلك المساحة. ويتعذر في الطبيعة وجود ماء نقي تماماً، غير أن ماء الأمطار والثلوج المتساقطة تعد من أنقى حالات الماء الطبيعي، ولكنه ما أن يصل إلى سطح الأرض حتى يبدأ في إذابة جزء من أملاح صخورها.

رابعاً: دورة الماء حول الأرض

ثبت أخيراً أن كل الماء الموجود على سطح الأرض قد اندفع إلى سطحها أصلاً من داخل الأرض عبر ثورات البراكين، وقد سبق القرآن الكريم كل المعارف المكتسبة بثلاثة عشر قرناً على الأقل حيث أشار إلى تلك الحقيقة التي يصفها الحق ﷻ في محكم كتابه بقوله ـ عز من قائل ـ:

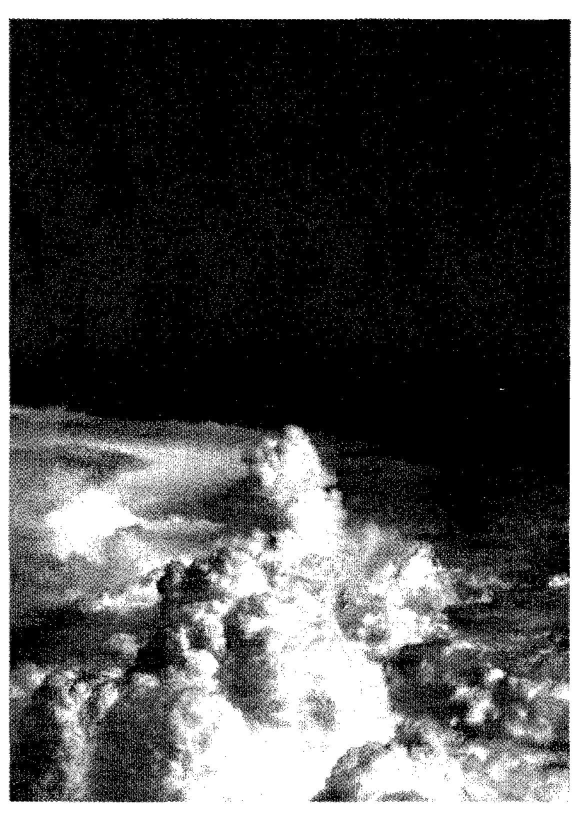
﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ **(النازعات: 30 ـ 31).**

وعندما بدأ هذا البخار في التصاعد من فوهات البراكين إلى الغلاف الغازي للأرض، وجد أن الله ـ تعالى ـ قد هيأ له سطحاً بارداً يتكثف عليه في الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية ـ نطاق الرجع ـ، الذي يتميز بتبرده مع الارتفاع حتى تصل درجة حرارته إلى أكثر من ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء؛ وذلك للبعد عن سطح الأرض الذي يمتص حرارة الشمس أثناء النهار ويعيد إشعاعها إلى غلافها الغازي بعد غروب الشمس.

وعند انخفاض درجة حرارة الهواء المحمل ببخار الماء مع الارتفاع فوق مستوى سطح البحر، فإن رطوبته النسبية ترتفع نظراً لانخفاض كثافته، وبالتالي انخفاض ضغطه، وعندما تبلغ رطوبته النسبية 100% فإن ضغطه يساوي ضغط بخار الماء، وتسمى درجة الحرارة تلك باسم: نقطة الندى **(Dew Point)**، أو درجة حرارة التشبع ببخار الماء.

وانخفاض درجة حرارة الهواء المشبع ببخار الماء بارتفاعه في نطاق التغيرات الجوية إلى ما دون نقطة الندى يؤدي مباشرة إلى تكثف قطرات الماء منه، وانفصالها عنه، فتتكون السحب على هيئة كتل من الهواء المشبع بقطيرات الماء المتناهية الضآلة في الحجم (نحو

عشرة ميكرونات في القطر)، وتبدأ السحب في التكون على ارتفاع كيلومترين إلى نحو 8 كيلومترات فوق مستوى سطح البحر في المتوسط؛ وإن تعدت ذلك الارتفاع في قليل من الأحوال.



تجمع السحب على هيئة كتل في نطاق التغيرات الجوية

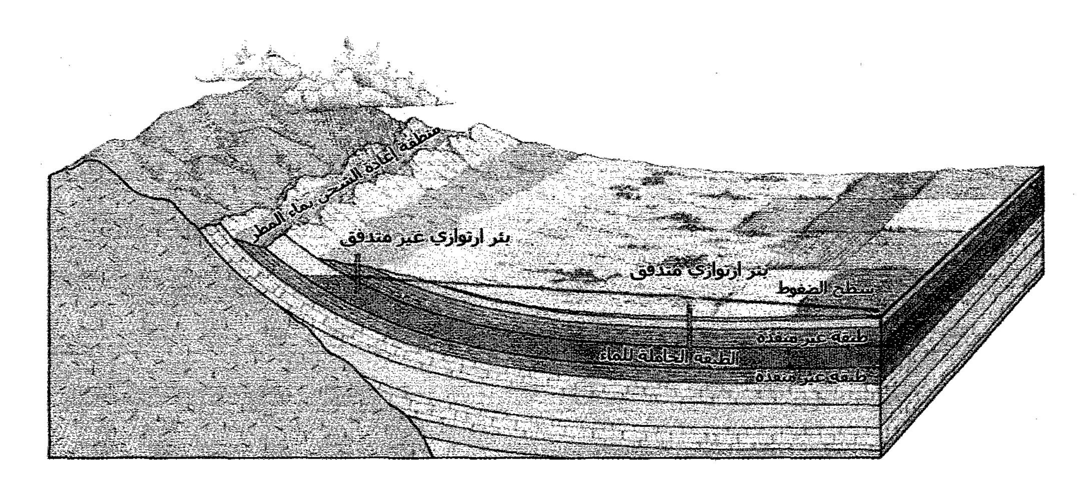
والهواء المحمل ببخار الماء يتبرد بارتفاعه إلى المستويات العليا من نطاق التغيرات الجوية (7 إلى 16 كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر)، أو باصطدامه بقمم الجبال الشاهقة، أو بالتقائه مع موجة هوائية باردة.

والهواء الجاف يتبرد عادة بمعدل عشر درجات مئوية لكل كيلومتر ارتفاعاً فوق مستوى سطح البحر، ويتناقص هذا المعدل إلى ست درجات مئوية مع كل كيلومتر ارتفاع في حالة الهواء الرطب؛ نظراً لتأثير الحرارة الكامنة على تبخر جزء من الماء المحمول مع الهواء الرطب.

هذا بالإضافة إلى أن ارتفاع الهواء إلى أعلى يؤدي إلى تمدده لوجوده تحت ضغط منخفض، ويؤدي هذا التمدد إلى مزيد من الانخفاض في درجة الحرارة تبعاً لقوانين تمدد الغازات. وبالإضافة إلى انخفاض درجة حرارة الهواء المشبع ببخار الماء إلى ما دون درجة الندى، فإن سقوط ماء المطر يتطلب تكون نويات من البرد أو الثلج، أو وجود بعض هباءات من الغبار أو الأملاح القابلة للذوبان في الماء؛ وهذه تسهم في مزيد من تجميع قطيرات الماء إلى بعضها البعض، وبالتالي تؤدي إلى هطول الأمطار لعجز الهواء عن حمل القطيرات الكبيرة الحجم نسبياً من الماء (من عشري مليمتر إلى نصف مليمتر في القطر أو أكثر من ذلك)، فتبدأ بالتساقط على الأرض بفعل الجاذبية.

وبسقوط الماء على سطح الأرض، وعودته إليها ليجري على سطحها سيولاً جارفة، تُفَتِّتْ الصخور، وتُشَق الفجاج والسبل، وتتشكل الأودية ومجاري الأنهار والجداول، وتتكون التربة، وتتركز أعداد من ثروات الأرض، ثم يفيض الماء إلى المنخفضات مكوناً البحيرات، والبحار والمحيطات، كما قد يتجمد جزء من هذا الماء على هيئة طبقات الجليد فوق قطبي الأرض، وفي قمم الجبال العالية، أو يتسرب عبر ظاهر (منكشف) الطبقات المسامية والمنفذة إلى ما تحت سطح الأرض، على هيئة عدد من التجمعات المائية المختزنة في صخور القشرة الأرضية ذات المسامية والنفاذية العاليتين، ويبقى بعضه عالقاً بالتربة على هيئة رطوبة التربة، أو بالغلاف الغازي للأرض على هيئة بخار الماء (رطوبة الجو).

ومن هنا بدأت دورة الماء حول الأرض في ثبات واستقرار، يشهدان لله الخالق بطلاقة القدرة، وعظيم الصنعة، وإتقان الخلق؛ فبفعل حرارة الشمس يتبخر سنوياً 380,000 كيلومتر مكعب من الماء من الأرض إلى الجزء السفلي من غلافها الغازي، منها 320,000 كيلومتر مكعب يتبخر من أسطح البحار والمحيطات، ويتبخر الباقي (60,000 كيلومتر مكعب) من أسطح اليابسة (من الأنهار وغيرها من المجاري المائية، ومن البحيرات، ومن النتح والبخر من أسطح النباتات، ومن تنفس وعرق ودموع وإخراجات كلٍّ من الإنسان والحيوان، ومما يتبخَّر من الخزانات المائية تحت سطح الأرض، ومن رطوبة التربة)، وهذا البخار المائي تحمله الرياح وترفعه إلى الأجزاء العليا من نطاق التغيرات



رسم لحركة الماء وخزنه داخل قشرة الأرض

الجوية (7 ـ 16 كم فوق مستوى سطح البحر)، حيث يتكثف ما به من بخار الماء ويعود مرة أُخرى إلى الأرض مطراً، أو ثلجاً، أو برداً، أو ضباباً أو ندى، ليعاود الكرة من جديد حتى تستمر دورة الماء حول الأرض.

ومن سمات إحكام تلك الدورة أن مجموع كمية المطر النازلة على أسطح البحار والمحيطات سنوياً والمقدرة بحوالي (284,000 كيلومتر مكعب) تقل عما يتبخر منها بحوالي 36,000 كم^3، ومجموع كمية المطر الساقطة على اليابسة سنوياً والتي تقدر بحوالي (96,000 كم^3) تزيد بنفس الكمية (36,000 كم^3)، عن مجموع كمية التبخر من سطح اليابسة (60,000 كم^3) وهذه الزيادة تفيض إلى البحار والمحيطات حتى يبقى سطح الماء بها ثابتاً في الفترة الزمنية الواحدة، فأي إحكام هذا الذي تتم به دورة الماء حول الأرض التي لولاها لفسد كل ماء الأرض، ولتعرَّض كوكبنا لحرارة قاتلة بالنهار، ولبرودة مجمدة بالليل، تقضي على جميع صور الحياة على سطحه؟

خامساً: خزانات الماء تحت سطح الأرض

تنقسم خزانات الماء تحت سطح الأرض إلى نوعين رئيسيين كما يلي:

(1) خزانات ماء مالح إلى شديد الملوحة: وهذا الماء محتبس بين مسام الصخور الرسوبية المتجمعة في البحار القديمة التي كانت تغمر مساحات كبيرة من يابسة اليوم ثم انحسرت عنها، وبقي هذا الماء المالح، بل الشديد الملوحة في بعض الأحيان محصوراً بين حبيبات تلك الصخور الترسيبية القديمة لملايين السنين، حيث تزداد ملوحته باستمرار تعرضه لشيء من التفاعلات الكيميائية (من مثل: إذابة المزيد من الأملاح) والفيزيائية (من مثل: التبخر). وهذا الماء المالح عادةً ما يوجد على أعماق بعيدة نسبياً من سطح الأرض، ومن أمثلته الماء المصاحب للنفط في مكامنه.

(2) خزانات ماء قليل الملوحة إلى متوسط الملوحة:

وهو ماء متجمع من مطر السماء؛ بمتوسط ملوحة دون20 جزءاً في المليون، وماء المطر عندما ينزل على الصخور المسامية والمنفذة، يتحرك فيها بفعل الجاذبية الأرضية متجهاً أولاً إلى الأسفل؛ أي: إلى مستويات أدنى من سطح الأرض حيث تزداد ملوحته بالتدريج، وتستمر هذه الحركة الرأسية للماء حتى تتضاءل المسامية والنفاذية، وهنا يبدأ ماء المطر في التحرك جانبياً فوق طبقات قليلة المسامية والنفاذية أو عديمتهما، لتكوّن خزاناً مائياً تحت سطح الأرض. وإن كانت الطبقات مائلة فإن الماء يتحرك في اتجاه ميل

الطبقات حتى يصل إلى البحر أو إلى الماء المالح المحصور بين حبيبات الرسوبيات التي تجمعت في البحار القديمة والتي انحسرت عن الأرض منذ ملايين السنين، فيتجمع الماء القليل الملوحة طافياً فوق كلٍّ من الماء المالح والشديد الملوحة للفرق بين كثافتي الماءين.

ولولا مسامية ونفاذية بعض صخور الأرض، ما تجمع ماء المطر، ولا أسكن في الأرض، ولولا التغيرات الرأسية والجانبية في كل من المسامية والنفاذية ما أمكن خزن أي من ماء المطر، ولا أمكن إسكانه في صخور الأرض على هيئة مكامن مائية لآلاف بل لعشرات الآلاف من السنين؛ إن لم يكن لملايين السنين في بعض الأحوال؛ حتى تستفيد به أجيال من الخلق قادمة في مستقبل لا يعلمه إلا الله، ـ تعالى ـ الذي خزنه لهم بعلمه وقدرته وحكمته ورحمته...!!!

ولولا حفظ هذه المكامن المائية من أخطار الحركات الأرضية الداخلية العنيفة من مثل: الخسوف والتصدعات الأرضية، والثورات البركانية، والمتداخلات النارية، ما بقيت تلك المكامن المائية، بل دمرت بالكامل، أو غارت إلى أعماق لا تصل إليها إمكانات الإنسان ولذلك قال ربنا ﷻ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ **(المؤمنون: 18)**.

وقال ـ عز من قائل ـ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ **(الملك: 30)**.

وقد يغور الماء المخزون في صخور القشرة الأرضية بتكوُّن الصدوع والخسوف الأرضية، كما قد يغور بالضخ المفرط الزائد عن معدل تدفق الماء إلى البئر، وفي الحالتين لا يحفظ الماء في صخور الأرض أو يعوِّضه إذا نفد أو غار إلَّا ربُّ العالمين. ويخرج الماء من تحت سطح الأرض بقوة واندفاع إذا كان واقعاً تحت ضغوط عالية، وقد يخرج بطريقة طبيعية على هيئة العيون والينابيع الطبيعية التي قد تشارك في تغذية بعض الأنهار أو البحيرات، ولكن إذا كان الماء تحت سطح الأرض تحت ضغوط منخفضة، فإنه لا يمكن الوصول إليه إلا بتشقق الأرض عنه أو بالحفر عليه. ويصف القرآن الكريم هاتين الحالتين بقول الحق ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ . . .﴾ **(البقرة: 74)**.

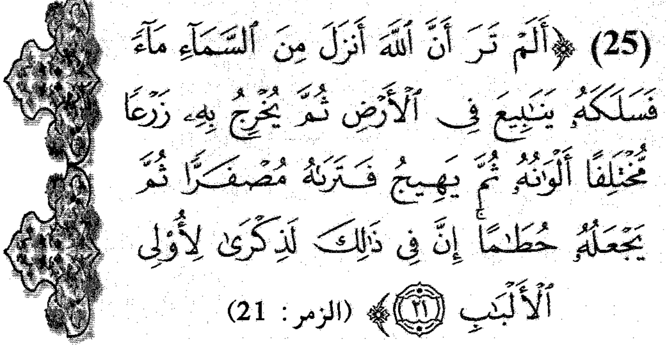
وتتراوح **مسامية الصخور** الخازنة للماء تحت سطح الأرض **(Rock Porosity)** بين (20%) و(30%) في المتوسط وإن تدنت في بعض الحالات إلى (5%) أو زادت إلى (60%)، وتختلف درجة اتصال هذه الفراغات مع بعضها البعض باختلاف الصخور، وتعرف هذه الخاصية باسم: **النفاذية (Permeability)**، ويستدل بها على قدرة الصخور في

إنفاذ السوائل من خلالها؛ علماً بأن حركة السوائل في الصخور بطيئة بصفة عامة، وإن كانت مستمرة دائبة. ولولا هذا الإعداد المتقن لصخور الأرض، وتمايزها في مساميتها ونفاذيتها، وظهور تلك الطبقات المنفذة على سطح الأرض، وتبادلها مع طبقات مصمتة أو غير منفذة، ولولا الإحكام الشديد في دورة الماء حول الأرض، ولولا إخراج هذا الماء أصلاً من داخل الأرض، ما أمكن لهذا الكوكب أن يكون صالحاً للحياة، ولذلك يمنُّ علينا ربنا ﷻ بقوله ـ عز من قائل ـ:

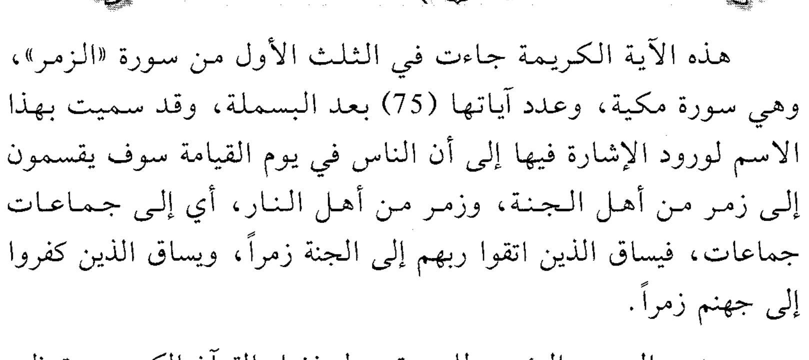
﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ **(المؤمنون: 18)**.

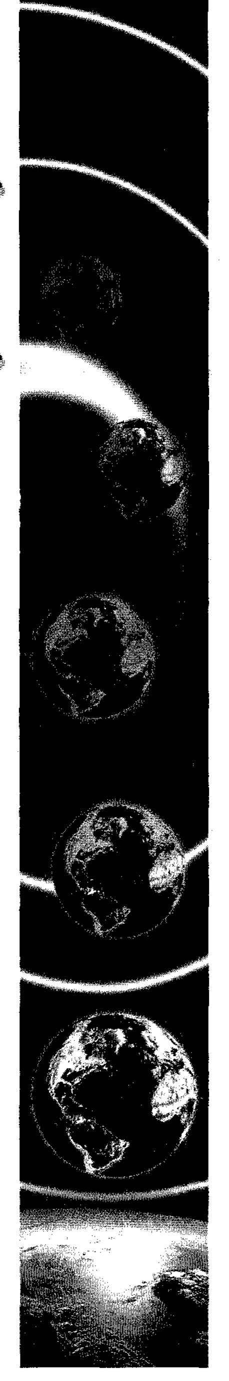
وهذه كلها حقائق تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، كما تشهد للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة؛ لأنه لم يكن لأحد في زمن البعثة المحمدية الشريفة، ولا لقرون متطاولة من بعدها إلمام بأي من تلك الحقائق، فسبحان منزِّل القرآن بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحافظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها، حتى يبقى هذا الكتاب الخالد هادياً للبشر أجمعين وحجة عليهم إلى يوم الدين، والصلاة والسلام على خاتم أنبياء الله ورسله وعلى كل من تبع هداه ودعا بدعوته واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.





(25) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾ (الزمر: 21)





هذه الآية الكريمة جاءت في الثلث الأول من سورة «الزمر»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (75) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أن الناس في يوم القيامة سوف يقسمون إلى زمر من أهل الجنة، وزمر من أهل النار، أي إلى جماعات جماعات، فيساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، ويساق الذين كفروا إلى جهنم زمراً.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول فضل القرآن الكريم، وتعظيم التوحيد الخالص لله رب العالمين، والأمر به، وتشنيع الشرك به ﷻ، والنهي عنه، لأنه يحبط الأعمال، ويجعل الواقع في وحله من الخاسرين في الدنيا والآخرة، كما تركز السورة الكريمة على حقيقة الآخرة، وتصور لنا عدداً من مشاهدها، مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء من عباده، مادحة المؤمنين، وذاكرة طرفاً من إكرام الله ـ تعالى ـ لهم، وذامة الكفار والمشركين، وواصفة طرفاً من عقابهم.

وتشير سورة «الزمر» إلى شيء من طبائع النفس الإنسانية، وتلمح إلى عدد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الكون، وتضرب عدداً من الأمثال للناس، موجهة الخطاب بين الحين والآخر إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

وتبدأ سورة «الزمر» بتأكيد الحقيقة الواقعة أن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز الحكيم، أنزله إلى خاتم أنبيائه ورسله، بالحق المبين الذي أمره بعبادة الله ـ تعالى ـ مخلصاً له الدين، وهو الإسلام العظيم، ذلك الدين الخالص لله تعالى وحده، بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله ﷻ منزه عن صفات خلقه أجمعين، وعلى ذلك يكون الشرك بالله كذباً عليه ـ سبحانه ـ، وكفراً به، والله لا يهدي من هو كاذب كفّار، ولذلك تنفي الآيات في سورة «الزمر» ـ كما تنفي في غيرها من سور القرآن الكريم ـ كل دعاوى المبطلين بنسبة الولد إليه ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

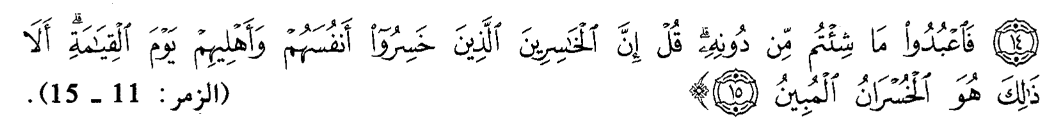
﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ **(الزمر: 4)**.

ثم تستعرض سورة «الزمر» عدداً من الآيات الكونية الشاهدة لله ـ تعالى ـ بأنه خالق الكون، وإلهه، وربه، ومليكه، مؤكدة أنه ـ تعالى ـ يرضى من عباده الشكر على نعمه، ولا يرضى منهم الكفر، فإن كفروا فإن الله ـ تعالى ـ غني عن العالمين، وتقرر أن نفساً لا تحمل إثمَ أُخرى، مؤكدة أن إلى الله مرجع الجميع، فينبئهم بما كانوا يعملون، إنه عليم بذات الصدور أي بما تكنه القلوب التي في الصدور.

وتتحدث الآيات في سورة «الزمر» عن جانب من جوانب النفس الإنسانية ومنها اللجوء إلى الله في الشدائد، ونسيان ذلك في حالات الرخاء والسعة، والتبجح بالشرك لإضلال الخلق عن الحق، وأن هذا الصنف من الناس قد يتمتع بكفره قليلاً، ولكن مصيره في الآخرة إلى جهنم وبئس المصير...!! وتقارن الآيات بين هذه الحالة من حالات النفس الإنسانية وبين الذين يرجون رحمة الله ويحذرون الآخرة، فيجتهدون في العبادة آناء الليل وأطراف النهار، وتقرر أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأنه لا يتذكر إلا أولو الألباب.

وتوجه الآيات الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يطالب الذين آمنوا من عباد الله بتقوى الله، مؤكداً أن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأنه لا يجوز للمؤمن بالله أن يقبل الظلم أبداً، فأرض الله واسعة، وأن الصبر على مجاهدة الظلم والظالمين من أعظم القربات إلى رب العالمين، وأن الصابرين يوفّون أجرهم بغير حساب، وتطالبه الآيات ﷺ أن يقول للناس كافة:

﴿... إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى



﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ **(الزمر: 11 ـ 15).**

وتقارن الآيات بين عذاب الخاسرين من الكفار والمشركين يوم القيامة، وبين نعيم الذين اجتنبوا الطاغوت، وأنابوا إلى الله من أولي الألباب الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، مؤكدة أن الذي شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه يختلف حاله تماماً عن الذين أعرضوا عن دين الله، فضلوا ضلالاً بعيداً، وأصبحت قلوبهم قاسية إلى الحد الذي لا يحركها ذكر الله، ولا النظر في آياته. وتعاود إبراز قدر القرآن الكريم عند رب العالمين، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ **(الزمر: 23).**

وتكرر سورة «الزمر» المقارنة بين مصائر كل من الصالحين والطالحين يوم القيامة، وتشير إلى عقاب المكذبين من الأمم السابقة بالخزي في الدنيا وبالعذاب في الآخرة، وتضرب للناس الأمثال بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ **(الزمر: 27، 28).**

ومن هذه الأمثال تشبيه المشرك برجل مملوك لعدد من الشركاء المتنازعين فيه، وتشبيه الموحد لله برجل ملكيته خالصة لفرد واحد، وواضح الأمر أنهما لا يستويان مثلاً، فالحمد لله الذي أقام الحجة على عباده وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بحقائق الموت والبعث والحساب، وذلك بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ له:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ **(الزمر: 30، 31).**

وتقرر الآيات أن من كذب على الله فنسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو كذَّب بالحق الذي أوحاه إلى أنبيائه ورسله، والذي أتمه، وأكمله، وحفظه في بعثة خاتمهم أجمعين فإنه قد ظلم نفسه لأن مثواه سيكون في جهنم، وهي مثوى الكافرين، أما الذين صدقوا الله ـ تعالى ـ وصدّقوا بما أنزله على خاتم أنبيائه ورسله فأولئك هم المتقون، المحسنون الذين لهم عند ربهم ما يشاءون.

وتؤكد سورة «الزمر» أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يكفي خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ويكفي المؤمنين برسالته من بعده كل ما يواجهون من تحديات الكفار والمشركين، فكفار قريش ومشركوها كانوا يتوعدون رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها من دون الله، والله يهدي من يشاء لعلمه أنه اختار الهداية على الضلالة، ويضلّ من يشاء لعلمه ـ سبحانه ـ أنه اختار الضلالة على الهدى، وفي ذلك تقول الآيات:

...﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧﴾ (الزمر: 36، 37).

وفي النهي عن الشرك والتحقير من شأنه تخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (الزمر: 38 ـ 40).

وفي التأكيد مرة ثالثة على قدر القرآن الكريم عند رب العالمين، وما فيه حق، وعلى قدرته الهادية للخلق تعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٤١﴾ (الزمر: 41).

وتنعي الآيات على المشركين اتخاذهم شفعاء يتقربون بهم إلى الله، وهم يعلمون حق العلم أن هؤلاء الشفعاء لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؛ ولذلك تؤكد حقيقة أن الشفاعة كلها لله وحده، لا ينالها أحد إلا برضاه، وهو وحده الذي له ملك السمٰوات والأرض، وهو الذي سوف يرجع الخلق جميعهم إليه فيحاسبهم على أعمالهم.

وتنتقد الآيات على المشركين أنهم إذا ذكر الله وحده ـ دون ذكر الذين أشركوهم في عبادته زوراً وبهتاناً ـ انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر شركاؤهم الذين أشركوهم في عبادة الله فإنهم لكفرهم يستبشرون، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر: 46).

وتعاود الآيات التحذير من الظلم بمختلف أبعاده، وأشكاله، وصوره، ومنها ظلم النفس بإغراقها في دياجير الكفر بالله أو الشرك به، وظلم الآخرين باغتيالهم، أو اغتيال حقوقهم، أو ممتلكاتهم، أو أعراضهم، أو حرياتهم، وفي ذلك تقول محذرة الواقعين في الظلم من سوء العاقبة:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الزمر: 47، 48).

وتتحدث الآيات مرة ثانية عن جانب من جوانب النفس الإنسانية فتقول:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الزمر: 49 ـ 52).

وتحذر الآيات من قنوط الذين أسرفوا في المعاصي من رحمة الله، ومن التكذيب بالرسالة الخاتمة وبالرسول الخاتم، ومن الاستكبار على الحق، وتدعو إلى سرعة التوبة والإنابة إلى الله وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ (الزمر: 53 ـ 59).

وتعرض الآيات لمشهد من مشاهد يوم القيامة فتقول:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾. **(الزمر: 60، 61)**.

ومعنى هاتين الآيتين الكريمتين: أن الذين كذبوا على الله فنسبوا إليه من الصفات ما لا يليق بجلاله، (كالشريك أو الصاحبة أو الولد) سوف يأتون يوم القيامة ووجوههم مسودة من الكذب على الله في الدنيا، ثم يلقون في نار جهنم وبئس مثوى المكذبين بالحق، المتكبرين عليه وعلى أتباعه، بينما ينجي الله الذين اتقوه في الدنيا بفوزهم بالجنة، لا يمسهم السوء ولا يغشاهم شيء من الحزن الذي يغشى الكفار والمشركين في يوم الفزع الأكبر.

ثم تؤكد الآيات أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل، وأن له وحدة تصريف أُمور السمٰوات والأرض؛ ولذلك فإن الكافرين بالله وآياته المنظورة والمقروءة هم بالقطع الخاسرون في الدنيا والآخرة.

ولذلك تنعي الآيات على المشركين شركهم وتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ **(الزمر: 64 ـ 66)**.

وتؤكد الآيات أن الذين كفروا بالله ـ تعالى ـ أو أشركوا به ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ لم يعظموه التعظيم الذي يليق بجلاله، وسوف يرون جانباً من قدر الألوهية في يوم القيامة والأرض جميعاً في قبضته، والسمٰوات مطويات بيمينه ﷻ.

وبعد ذلك تشير الآيات إلى نفخة الصور، وما يتبعها من موت من في السمٰوات والأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أُخرى فإذا الجميع قائمون من قبورهم، وفي هذا اليوم ـ يوم الفزع الأكبر ـ، وكل واحد منتظر مصيره تشرق الأرض بنور ربها، ويوضع الكتاب، ويحضر النبيون والشهداء ليشهدوا على أممهم، فيفصل الله بين الخلائق بالحق، ويعطي كل نفس حقها جزاء ما عملت وهم لا يظلمون، والله أعلم بما يفعلون.

ثم تصور الآيات ختام الحساب الإلهي بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ

لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾. **(الزمر: 71 ـ 74).**

وتختتم سورة «الزمر» بتصوير مشهد آخر من مشاهد الآخرة يجسد الخشوع لله ـ تعالى ـ تقول فيه:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ **(الزمر: 75).**

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. **(الزمر: 21).**

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ما مختصره: «يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كَمُن في الأرض ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروقاً في الأرض تغيره فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعده، وكذا قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي...، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾؛ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه أي أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطة اليبس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزاً شوهاء

والشاب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زرعاً وثماراً ثم يكون بعد ذلك حطاماً كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

(الكهف: 45).

• وجاء في كل من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان لمعاني القرآن، والمنتخب، وصفوة التفاسير كلام مشابه، وإن تميز كل تفسير بأسلوب كاتبه، وطريقة عرضه.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: الإشارة إلى أن الماء المخزون تحت سطح الأرض كله من ماء المطر:

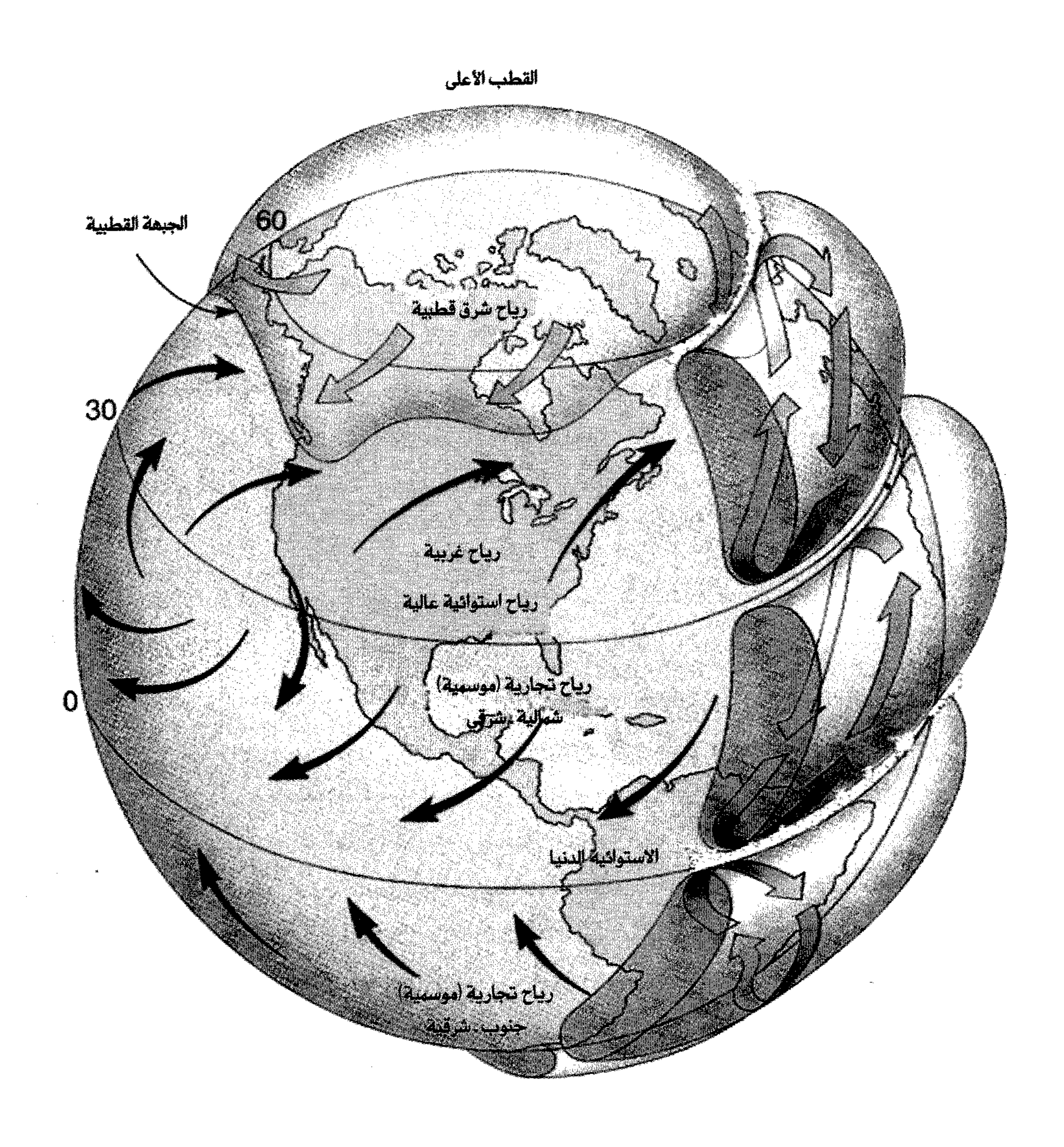
تشير هذه الآية الكريمة إلى دورة الماء حول الأرض وهي دورة لم تعرف إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ففي الوقت الذي ساد الاعتقاد بأن الماء المتجمع تحت سطح الأرض مندفع إلى داخل كتل القارات من ماء البحار والمحيطات بتأثير من حركة الرياح نزل القرآن الكريم مؤكداً أن كل ماء الأرض (والمقدرة كميته حالياً بنحو 1.4 بليون كيلومتر مكعب) قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كله من داخل الأرض، وذلك بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾

(النازعات: 30، 31).

ونعلم اليوم أن هذا الكم الهائل من الماء قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على هيئة بخار الماء المتصاعد من فوهات البراكين، ومن صدوع الأرض العميقة، وعند انبثاق هذا البخار المائي كان الله ـ تعالى ـ قد هيأ له وسائل التكثيف من الرياح التي حملته إلى الأجزاء العليا من نطاق المناخ الذي يتراوح سمكه بين 7 و 16 كيلومتراً، والذي يتميز بانخفاض درجات الحرارة فيه مع الارتفاع حتى تصل عند قمته إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر (60م) فوق خط الاستواء، وبوصول بخار الماء إلى تلك المستويات يكثف على هيئة السحب، ثم لقحت الرياح تلك السحب بهباءات الغبار وغيرها من نوى التكثف حتى تكونت السحب الممطرة (المزن أو السحب المزنية)، وتكونت فيها قطيرات الماء في بادىء الأمر دقيقة الحجم جداً حتى يتمكن هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض من حملها. وبتكرار عمليات التكثف يزداد حجم تلك القطيرات وكتلة كل منها بالتدريج حتى تسقط

بمشيئة الله وتقديره على هيئة زخات من المطر أو رشات من البرد أو الثلج نزلت إلى سطح الأرض وفاضت إلى منخفضاتها لتكون البحار والمحيطات، وبتعرض الماء في تلك المنخفضات لأشعة الشمس يتبخر جزء منه وبذلك بدأت دورة الماء حول الأرض.



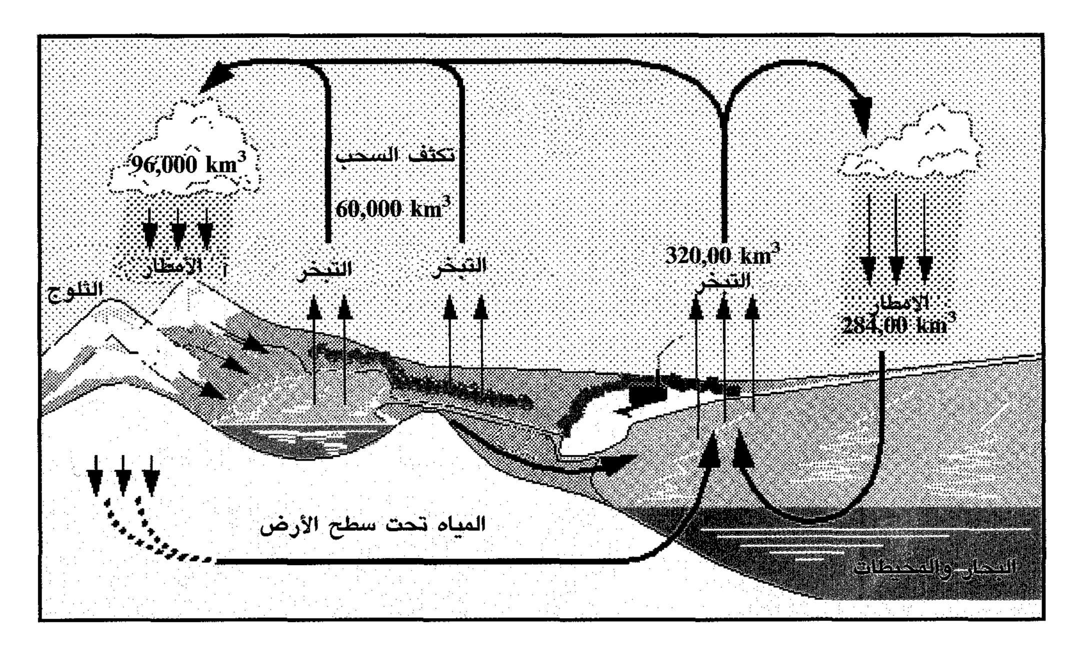
حركة تصريف الرياح وتداخل الكتل الهوائية

وبتصريف الرياح حسب مشيئة الله وإرادته تكونت السحب ولا تزال تتكون، وشحنت ولا تزال تشحن بمزيد من بخار الماء وذلك بالتفاعل بين الكتل الهوائية المختلفة وهي دافئة ورطبة فوق المسطحات المائية بالمناطق المدارية، وحارة جافة فوق صحاريها، وباردة جافة فوق المناطق القطبية، وبتداخل هذه الكتل الهوائية مع بعضها البعض بتصريف من الله ـ تعالى ـ لها تتكون السحب الممطرة والأعاصير، وغير ذلك من المظاهر الجوية التي تعقد تضاريس سطح الأرض من أنشطتها المختلفة.

وعندما يسخن الهواء بملامسته سطح الأرض بحيث يصبح أدفأ من كتل الهواء المحيطة به فإنه يتمدد، فتقل كثافته ويرتفع إلى أعلى، وبارتفاعه يتناقص ضغطه، وتنخفض درجة حرارته حتى تصل رطوبته إلى درجة التشبع فيبدأ ما به من بخار الماء في التكثف.

وبحمل مزيد من بخار الماء للسحب المتكونة، وبتوافر مزيد من نوى التكثف ، من مثل الهباءات الدقيقة من الغبار وبعض المركبات الكيميائية التي لها جاذبية لبخار الماء، من مثل كبريتات النشادر، وبعض دقائق الأملاح المتصاعدة مع بخار الماء، تزداد قطيرات الماء حجماً وكتلة حتى تسقط بفعل الجاذبية الأرضية متى وحيث يريدها الله، وبالكم الذي يقدره ﷻ.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن حرارة الشمس تبخر من ماء الأرض سنويًّا380،000 كيلومتراً مكعباً من الماء، منها 320،000 كيلومتر مكعب تتبخر من أسطح البحار والمحيطات، 60,000 كيلومتر مكعب تتبخر من ماء اليابسة السطحي ومما تحت سطح الأرض، ويتبخر أيضاً من نتح وبخر النباتات ومن تنفس وإفرازات كل من الإنسان والحيوان، وهذه الكمية المتبخرة من ماء الأرض تعود كلها إلى الأرض ثانية، ولكن يعاد توزيعها بعلم الله وحكمته وبفضل منه ورحمة، فيعاد إنزال 284,000 كيلومتر مكعب من ماء المطر على البحار والمحيطات، 96,000، كيلومتر مكعب منه على اليابسة (بفارق 36,000 كيلومتر مكعب من الماء تنقص من مجموع ما تبخر من ماء البحار والمحيطات وتزيد على مجموع ما تبخر من ماء اليابسة، فتجري على سطحها وتفيض في النهاية إلى البحار والمحيطات ليبقى منسوب الماء فيها ثابتاً عند مستوى محدد في كل فترة زمنية محددة. وماء المطر أثناء جريه على سطح الأرض يروي كلًّا من النبات والحيوان والإنسان، ويتسرب جزء منه إلى داخل القشرة الأرضية عبر الصخور المنفذة فيخزن فيها بمشيئة الله ـ تعالى ـ وإرادته وتقديره حتى يخرجه ربنا تبارك وتعالى لنا على هيئة العيون والينابيع الطبيعية، أو يصل إليه الإنسان بواسطة حفر الآبار مختلفة الأعماق.



رسم تخطيطي لدورة الماء حول الأرض

ويقوم ماء المطر عند هطوله بتفتيت صخور الأرض، وتكوين التربة وشحنها بقدر من الرطوبة، كما يقوم بشق الفجاج والسبل، وتسوية سطح الأرض، وتلطيف الجو، والمحافظة على رطوبة الهواء، وبإذابة العديد من الأملاح التي في الصخور وحملها إلى البحار والمحيطات، وتركيز العديد من الخامات المعدنية والثروات الأرضية المختلفة.

ولولا هذه الدورة لماء الأرض لفسد وتعفن وأسن، لأن الأوساط المائية يعيش ويموت فيها البلايين من الكائنات الحية في كل لحظة، ولذلك يمنّ علينا ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة وفي العديد غيرها من الآيات القرانية بإنزال الماء طهوراً مباركاً ثجاجاً من السماء وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

- ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ **(الحجر: 22).**
- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ **(المؤمنون: 18).**
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ **(الفرقان: 48)**
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ **(فاطر: 27).**

• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الزمر: 21).

• ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (الواقعة: 68، 69)

• ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ (الملك: 30).

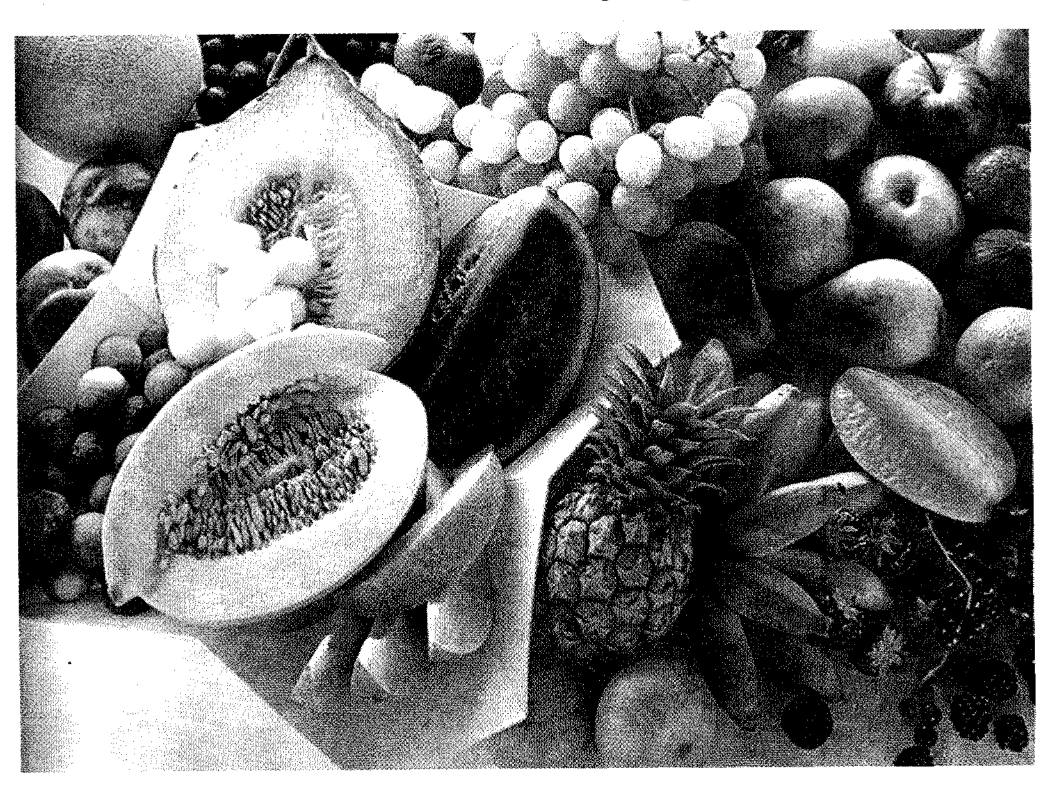
• ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ (النبإ: 14).

هذه الحقائق أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من قبل أربعة عشر قرناً، وكان فلاسفة الحضارة الإغريقية من قبل ذلك يعتقدون أن الماء المتجمع تحت سطح الأرض مندفع إلى داخل القارات من ماء البحار والمحيطات بتأثير حركة الرياح، وأن الماء المخزون في صخور الأرض يعاود الحركة إلى المحيطات عبر هوة خيالية سحيقة أطلقوا عليها اسم تاتار، وقد سادت هذه الخرافات فكر الحضارة الإغريقية وتبناها العديد من فلاسفتهم من أمثال طاليس في القرن السابع قبل الميلاد، وكل من أفلاطون وأرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد، وأضاف الأخير أن بخار ماء التربة يتكثف في التجاويف الباردة للجبال مما يشكل بحيرات تحت سطح الأرض تغذي الينابيع المائية، وقد تبعه في ذلك سينيكا في القرن الأول الميلادي، واستمر اعتقاد الأوروبيين في هذه الخرافات حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي (1877م) على الرغم من أن عالماً فرنسيًّا عُرف باسم برنارد باليسي **(Bernard Palissy)** كان قد أشار في سنة1580م؛ أي: بعد بدء تنزل القرآن الكريم بنحو القرون العشرة إلى أن الماء الأرضي يعود أصله إلى ماء المطر، ووافقه على ذلك كل من ماريوت **(E.Mariotte)** وبيرو **(P.Perraut)** في القرن السابع عشر الميلادي، وعارضهم جميعاً بالخرافات القديمة واحد من أبرز مفكري القرن السابع عشر الميلادي وهو رينيه ديكارت **(Réné Descartes)** المتوفى سنة1650 ميلادية.

ومن الثابت علميًّا اليوم أن الماء الذي خزن في صخور الأرض بتقدير من الله ﷻ أصله كله من ماء المطر الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترات متطاولة من الزمن، وأن هذا الماء يتحرك راسياً في مناطق التشبع السطحية، ثم يتحرك أفقيًّا أو مائلاً حتى يخزن في أحد مكامن الماء التي أعدتها الإرادة الإلهية بحكمة بالغة، لمدد قد تطول إلى عدة آلاف من السنين، وقد تتجدد بماء المطر السنوي أو لا تتجدد، وقد يصادف هذا الماء المخزون تحت سطح الأرض في حركته بعض الصدوع، أو الفواصل أو الشقوق فيصعد منها إلى سطح الأرض على هيئة ينابيع أو عيون مائية، ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثانياً: إخراج الزروع مختلفة الألوان بمجرد إنزال المطر:

يعرف العلم في زماننا الراهن أكثر من350،000 نوع من أنواع النباتات، ويمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد، وكل نوع من هذه الأنواع له من صفاته الخارجية (الشكلية) والداخلية (التشريحية) ما يميزه عن غيره، وبعض هذه النباتات له زهوره، وثماره الخاصة به (النباتات المزهرة)، وكل ثمرة من تلك الثمار لها طعومها، وروائحها، وألوانها، وأشكالها المميزة لها. ومن هذه النباتات ما يزرع، ومنها ما ينبت بطريقة فطرية، وإن كان الله ـ تعالى ـ قد خلقها كلها في بادىء الأمر بطريقة فطرية لا دخل للإنسان فيها لأنها كلها سابقة على وجوده بمئات ملايين السنين.



مجموعة من الثمار المختلفة ـ لكل منها طعم ولون ورائحة وشكل ـ تسقى من ماء واحد

وإخراج كل هذه النباتات والزروع المتباينة في صفاتها، وكلها يسقى بماء واحد يشير إلى ما أعطاه الله ـ تعالى ـ لكل نبتة من قدرة فائقة على اختيار ما يناسبها من عناصر الأرض ومركباتها، ولولا هذه القدرة الإلهية المبدعة في بناء الشيفرة الوراثية لكل نوع من

أنواع النبات، بل لكل فرد منها، ما أنبتت الأرض على الإطلاق، ولولا إنزال الماء من السماء ما نشطت تلك الشيفرة الوراثية، ولولا ما أعطى الله ﷻ للبذرة النابتة من قدرة على امتصاص الماء، والازدياد في الحجم، وإحداث ضغوط هائلة على أغلفتها حتى تتشقق وتنفجر ما أنبتت تلك البذور، ولا كانت تلك النباتات...!! ولولا ما أعطى الله ﷻ للجنين في داخل البذرة أو النواة من قدرة على اليقظة من سباته بمجرد وصول الماء إليه وهو كامن، ساكن في داخل بذرته أو نواته، ثم النمو بسرعة ملحوظة، ما أنبتت تلك البذور، ولا كانت تلك النباتات والزروع. ولولا ما وضع الله ـ تعالى ـ في تربة الأرض من قدرة على التفاعل مع ماء السماء، والاتحاد معه، والانتفاش بتشربه، والارتفاع إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة ما استطاعت السويقة الطرية الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة من الصعود إلى سطح الأرض.

هذا إذا كان المقصود بألوان الزروع والنباتات هنا هو أنواعها وأصنافها العديدة، أما إذا كان المقصود ألوانها التي تتراءى بها لعين كلٍّ من الإنسان والحيوان نتيجة لامتصاصها بعض أطياف نور النهار الأبيض الناصع فإننا نعلم اليوم أن ألوان كلٍّ من الزهور، والثمار، والأوراق في النباتات المزهرة تصنعها يد القدرة الإلهية المبدعة عن طريق عدد من **الأصباغ الأساسية** (من مثل الكلوروفيلات الخضراء، والأنثوسيانينات الحمراء، والكاروتينات الصفراء) وعدد آخر من الأصباغ الثانوية التي تعرف باسم **أصباغ الإحساس**. وبتباين نسب تلك الأصباغ إلى بعضها البعض تكون هذه الأطياف المبهرة لألوان الزروع والنباتات المختلفة التي جعلها الله ـ تعالى ـ متعة للناظرين.

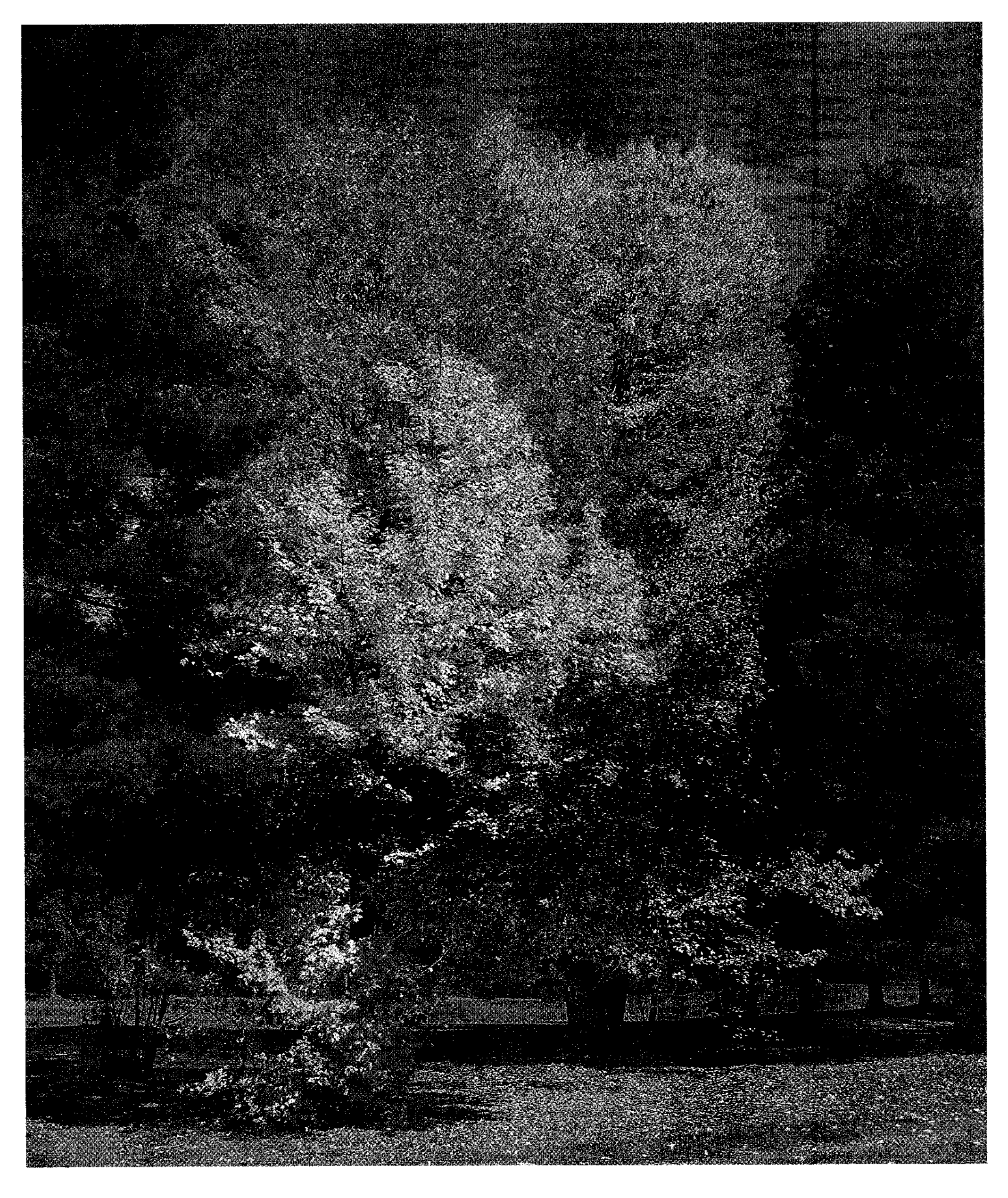
ثالثاً: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾:

في بدء حياة النبتة من الزروع المختلفة تطغى الأصباغ الخضراء على لونها، وذلك لحاجة النبات إليها في عملية التمثيل الضوئي التي يبنى بواسطتها غذاءه، وعند تمام نضج الثمار تتوقف حاجة النبات إلى الغذاء، وبالتالي تتوقف قدرته على إنتاج الأصباغ الخضراء، وما تبقى منها يبدأ في التحلّل والتحول إلى عدد من المركبات الكيميائية التي تفتقر إلى الخضرة، وهنا تبدأ الأصباغ الصفراء الشبيهة بأصباغ الجزر (الأصباغ الكاروتينية) في الظهور التدريجي حتى تسود. وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾.

رابعاً: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾.

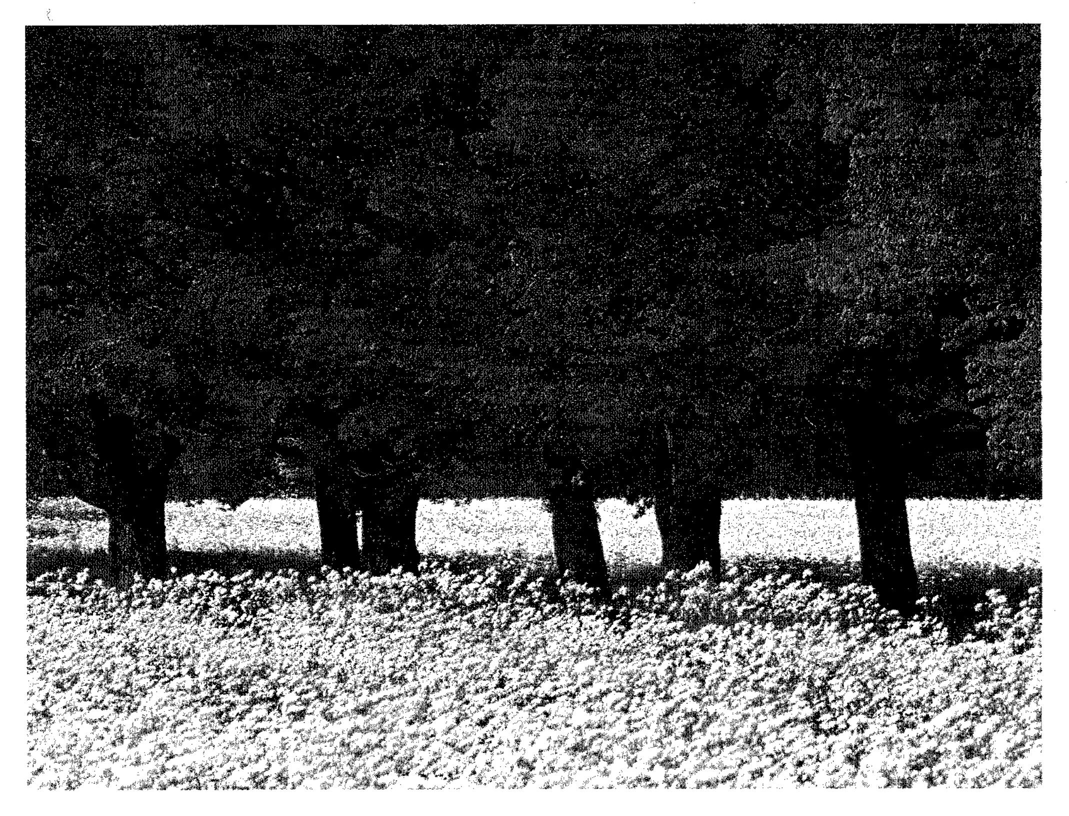
يكون الماء أغلب أنسجة النباتات (نحو80% في المتوسط)، وعند نضج الثمار فإنها



اختلاف ألوان الأشجار وأنواعها

تفقد نسباً متباينة من مكوناتها المائية، خاصة في حالة الحبوب الجافة، وكذلك تفقد باقي أنسجة النبات ماءها في حالة المحاصيل الحولية، وتبقى موادها الصلبة، كما يبقى ما كان ذائباً في مائها من أملاح، وهنا تتوقف حياة النبات، وتبدأ مادته الجافة في التحلل بواسطة

العديد من النباتات المتطفلة مثل الحزازيات **(Mosses)**، والأشنات **(Lichens)**، والأبواغ **(Spores)**، والفطريات **(Fungi)** والتي تفرز أعداداً من الإنزيمات التي تساعد على تحلل بقايا النبات، وقد تأتي جيوش من البكتيريا لتتم عملية التحلل، كما قد تساعد عوامل التعرية المختلفة على تفتيت جسم النبات اليابس أو المتحلل حتى تجعله حطاماً، وقد يتحول هذا الحطام في النهاية إلى مكوناته الأساسية التي تمتصها التربة، وهي صورة مصغرة لدورة الحياة والموت التي يتعرض لها كل مخلوق ولذلك تختم الآية الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾.

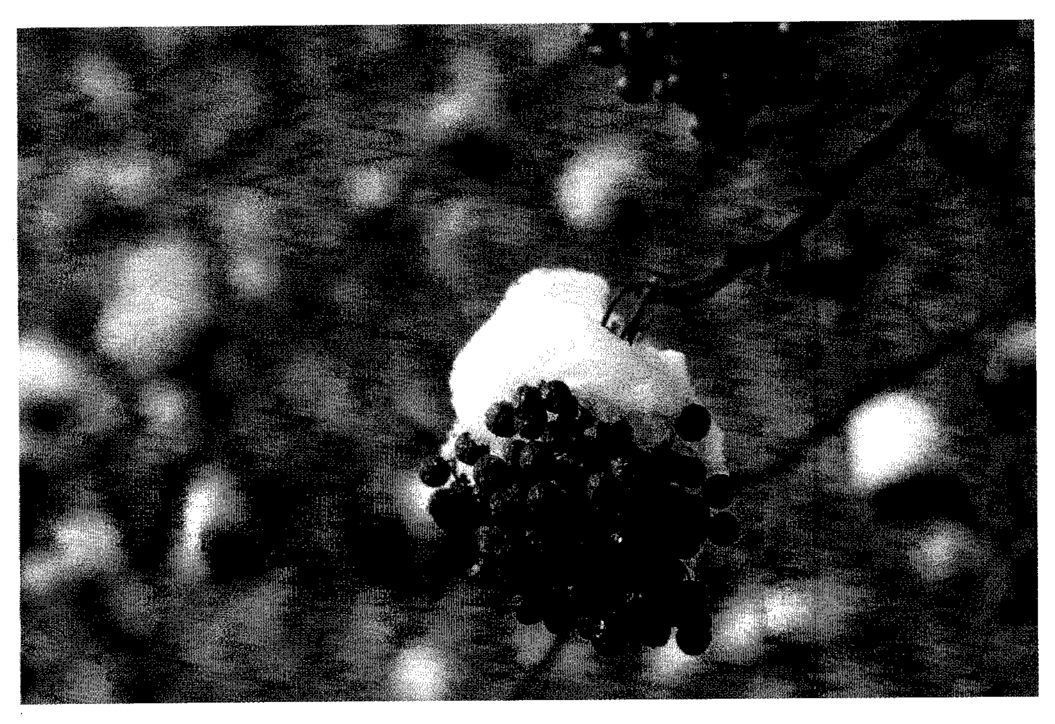


اختلاف الألوان في الأشجار والزهور هي متعة للناظرين ومن نعم الخالق علينا

هذه الحقائق لم تبدأ في التكشف للإنسان إلا على مراحل متطاولة في القرون الثلاثة الماضية ولم تتم بلورتها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وورودها في كتاب الله بهذه الدقة العلمية، والشمول والإحاطة، والكمال، وهو كتاب أنزل قبل معرفة الإنسان بتلك الحقائق بنحو عشرة قرون كاملة ـ على أقل تقدير ـ لمما يثبت لكل ذي بصيرة أن

القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ فحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى يزيد على الأربعة عشر قرناً، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وذلك تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ :

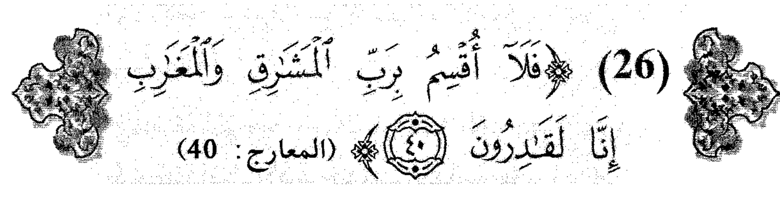
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾. **(الحجر: 9).**



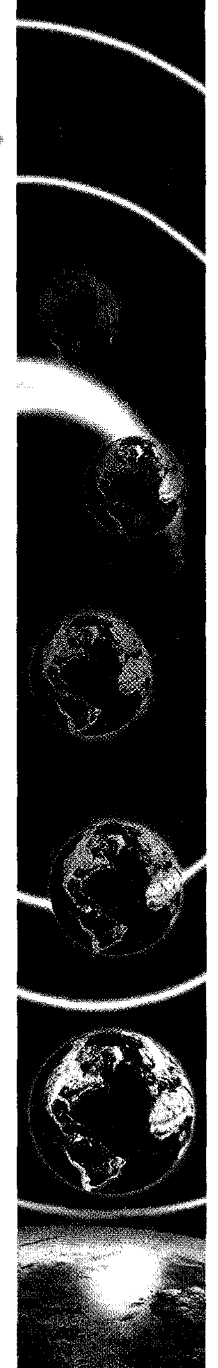
صورة من صور اختلاف ألوان الثمار على الأشجار

فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على هدى خير الأنام، سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، الذي بعثه الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





(26) ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (المعارج: 40)



هذه الآية الكريمة جاءت في خواتيم سورة «المعارج»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها أربع وأربعون (44) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود وصف من أوصاف الله ـ تعالى ـ فيها، يصف به ربنا ـ تبارك اسمه ـ ذاته العلية بوصف ﴿ذِى ٱلۡمَعَارِجِ﴾ أي ذي العلو والرفعة، لأن المعارج هي المصاعد والمدارج التي يُرْتَقى بها إلى الأعلى، جمع معرج ـ بفتح الميم وكسرها ـ؛ والقرآن الكريم يسمي الحركة في السماء دوماً بالعروج، ومنها معراج رسول الله ﷺ.

وعن أسباب نزول هذه السورة المباركة يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله بأن أحد كفار قريش (وكان اسمه النضر بن الحارث) حين سمع تحذير رسول الله ﷺ من عذاب الله ـ تعالى ـ قال مستكبراً قولته الخبيثة التي سجلها عليه القرآن الكريم في سورة الأنفال، بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ **(الأنفال: 32)**.

فأنزل الله ـ تعالى ـ رده الحق في مطلع سورة المعارج التي استهلها بقولة العزيز:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِى يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ **(المعارج: 1 ـ 4)**.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المعارج» حول حقيقة الآخرة،

وما يصاحبها من بعث، وحساب، وجزاء، يعقبه الخلود في حياة أبدية قادمة إما في الجنة أو في النار، كما يدور حول صعوبة استيعاب الكفار والمشركين لإمكانية البعث انطلاقاً من إنكارهم لوجود الله، أو من تشويه مفهوم الألوهية لديهم في عدد من المعتقدات الفاسدة والرائجة عندهم. . . !!

وتبدأ السورة الكريمة باستنكار هذا الموقف المستهتر الذي وقفه أحد كفار قريش مستهيناً بالآخرة وعذابها، فدعا بنزول العذاب على نفسه وعلى قومه، فنزل عذاب الله فوراً به وبهم، فقد هلك هذا الكافر في يوم بدر، ونزلت الهزيمة المنكرة بقومه يومها.

وتأكيداً على طلاقة القدرة الإلهية تصف الآيات بعد ذلك حركة كلٍّ من الروح والملائكة في السماء بالعروج إلى الله ذي المعارج، وإن كانت طبيعة كلٍّ من الملائكة والروح من الأمور الغائبة عن علم الإنسان وإدراكه غيبة مطلقة، إلا أن الآيات تشير إلى أن مثل هذا العروج يتم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

وبعد ذلك توصي الآيات رسول الله ﷺ بالصبر الجميل أمام إنكار الكافرين، لبعثته الشريفة، ولما جاء به من الحق في زمانه، والوصية مستمرة إلى زماننا وحتى قيام الساعة توصي أتباع هذا النبي والرسول الخاتم بالصبر الجميل أمام كفر الكافرين، وشرك المشركين، وإصرارهم على إنكار بعثة خاتم المرسلين ﷺ، وإنكار ما بعث به من دين خاتم.

وتؤكد الآيات في سورة «المعارج» أن الكافرين يرون يوم القيامة بعيداً، ويراه ربنا قريباً لأن يوماً عنده بخمسين ألف سنة مما نعدّ نحن أهل الأرض؛ والزمن من خلق الله، فهو يحدنا ولا يحد الله ـ تعالى ـ لأن المخلوق لا يحد الخالق أبداً. . . !!

وبعد ذلك تبدأ الآيات في استعراض جانب من أهوال يوم القيامة التي يصفها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.
(المعارج: 8 ـ 10).

أي: يوم تنهار مادة السماء فتكون كالرصاص المصهور؛ وتتطاير الجبال فتكون كالصوف المندوف المنفوش، أو المصبوغ بالألوان، إشارة إلى احتفاظ مكونات الجبال بألوان صخورها رغم نسفها وتدميرها. . . !! وساعتها لايملك الإنسان السؤال عن أقرب الناس إليه، وأحبهم إلى قلبه، وذلك من هول الفزع، على الرغم من رؤية بعضهم بعضاً، وتعرف بعضهم على بعض، وذلك لانشغال كل واحد منهم بنفسه وهمه ، وتمنيه لو يستطيع

أن يفديها من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وعشيرته التي ينتمي إليها، وبجميع من في الأرض من الخلق، ولكن هيهات أن يكون له ذلك...!! وهنا يأتي رد الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ **(المعارج: 15 ـ 18)**.

و (كلا) في العربية أداة زجر وردع، ولذلك تأتي الآيات من بعدها بشيء من أوصاف جهنم ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ، ومن ذلك أن نيرانها تشتعل بلهب خالص (وهو اللظى)، وأنها تنزع بشدة حرها جوارح المعذبين فيها، ثم تعاد تلك الجوارح إلى مواضعها ليتكرر العذاب، وذلك من قبيل الزيادة في التنكيل بكل كافر ومشرك وظالم، أعرض عن الحق، وأدار ظهره له، وأفسد في الأرض، وتجبّر على الخلق، ونسي الآخرة وما فيها من حساب، وركز على جمع المال وكنزه، وإمساكه في أوعيته، ولم يؤد حق الله فيه. و(الشوى) جمع (شواه) وهي من جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلاً.

ثم تعرض سورة «المعارج» لشيء من طبائع النفس البشرية التي تجزع عند الشدة، وتبخل وتبطر عند النعمة، فتميل إلى منع حقوق الفقراء والمساكين؛ ومن هذا الحكم العام تستثني سورة المعارج المصلين، فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ **(المعارج: 23 ـ 27)**.

فكل عاقل حصيف يسعى جاهداً في هذه الحياة، وهو حريص كل الحرص على اجتناب كل عمل يستوجب غضب الله وعذابه، وكل إنسان عفيف يستعف نفسه عن محارم الله، لأن الخوض فيها اعتداء على أوامره، وتجاوز لحدوده ﷻ.

وعقبت السورة الكريمة بشيء من صفات المؤمنين ومنها مراعاة الأمانات، وحفظ العهود، والقيام بشهادة الحق مهما كلفهم ذلك من ثمن، والمحافظة على الصلاة مهما كانت الظروف والملابسات، مؤكدة أن هؤلاء هم الذين سوف يكرمهم الله ـ تعالى ـ بإدخالهم إلى جنات النعيم، خالدين فيها أبداً، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر...!!

ثم تنتقل سورة «المعارج» بسؤال استنكاري عن الكفار والمشركين الذين كانوا يتسارعون إلى التجمهر حول رسول الله ﷺ عن اليمين وعن الشمال يستمعون إليه دون أن يؤمنوا به، ويدفعهم الغرور والتطاول إلى الادعاء الباطل بأنهم أولى بالجنة من أصحابه الذين آمنوا به، وأيدوه، ونصروه..، ويأتي الرد الإلهي عليهم بهذا الاستفهام التوبيخي

الاستنكاري الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (المعارج: 38).

ويزيدهم ﷻ تقريعاً بقوله ـ عز من قائل ـ: «كلا»؛ أي: ليس الأمر أبداً كما يطمعون، فليس لهم إيمان أو عمل صالح يؤهلهم لدخول الجنة، وهو ـ تعالى ـ عليم بخلقهم، ولذلك يقسم بذاته العلية أنه قادر على إهلاكهم وعلى استبدالهم بمن هم خير منهم فيقول ﷻ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾. (المعارج: 40 ـ 41).

وتختتم السورة الكريمة بأمر من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يدع هؤلاء الكافرين والمشركين يخوضون في باطلهم، يلهون ويلعبون حتى يلاقوا يومهم الذي وعدهم الله إياه وتوعدهم به فيقول ﷻ: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾. (المعارج: 42 ـ 44).

الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة المعارج

استشهدت سورة المعارج على صدق ما جاء بها من أُمور الغيب المطلق بالعديد من الآيات الكونية الشاهدة لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة على إبداع الخلق، وعلى إفنائه وإعادة خلقه من جديد، ومن هذه الآيات مايلي:

(1) وصف الحركة في السماء بالعروج، وأن كلًّا من الملائكة والروح تعرج إلى الله ـ تعالى ـ الذي وصف ذاته بالوصف ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾. والعروج بمعنى ارتفاع وتحرك كل شيء في صفحة السماء في خطوط متعرجة هو حقيقة علمية لم تدرك إلا في أواخر القرن العشرين.

(2) التعبير القرآني المعجز الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: 4) فيه إشارة إلى سرعات فائقة في الكون، وتأكيد على تواصل كلٍّ من المكان والزمان، وعلى تعاظم أبعاد الكون، وإلى نسبية كل شيء في العلم المكتسب بواسطة الإنسان بحكم نسبية مكانه من الكون، وزمانه؛ أي: عمره، ونسبية كل حواسه وقدرات عقله؛ أي: محدوديتها. والنسبية لم تدركها معارف الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين.

(3) وصف السماء بأنها سوف تكون يوم القيامة كالمهل، والحرارة الفائقة في داخل النجوم، والمستعرات، وما فوقها، تؤكد إمكانية ذلك مع اليقين بأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تماماً.

(4) وصف الجبال بأنها سوف تكون يوم القيامة كالعهن، وعوامل التعرية النشطة اليوم تشير إلى إمكانية ذلك، مع إيماننا بأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تماماً.

(5) وصف طبيعة النفس البشرية عامة بالهلع والجزع عند وقوع الشر، وبالبطر والشح عند نزول النعمة، إلا المصلين.

(6) القسم بالمشارق والمغارب، وفية إشارة ضمنية رقيقة إلى كلٍّ من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى كروية كل أجرام السماء ودورانها حول محاورها، وجريها في مداراتها، فلولا ذلك ما تعددت المشارق والمغارب أبداً.

(7) الإشارة إلى خلق الإنسان من ماء مهين.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذا فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة السادسة في القائمة السابقة والمتعلقة بتعدد المشارق والمغارب، ودلالاتها العلمية، وقبل مناقشة ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين من القدامى والمعاصرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ **(المعارج: 40 ـ 41)**.

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: ... ثم قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي الذي خلق السمٰوات والأرض، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي بعاجزين... واختار ابن جرير ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي أُمة تطيعنا ولا تعصينا... والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم....».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿فَلَا﴾ لا زائدة [لتأكيد القسم] ﴿أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ للشمس والقمر، وسائر الكواكب ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ نأتي بدلهم ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بعاجزين عن ذلك».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبه ـ ما مختصره: والأمر ليس في حاجة إلى قسم، ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب يوحي بعظمة الخالق. والمشارق والمغارب قد تعني مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها في هذا الكون الفسيح، كما أنها تعني المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض، وهي تتوالى في كل لحظة؛ ففي كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفي مغرب... وأيًّا كان مدلول المشارق والمغارب فهو يوحي إلى القلب بضخامة هذا الوجود، وبعظمة الخالق لهذا الوجود. فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب على أنه



الشمس في حالة الغروب لتشرق في مكان آخر من الأرض

سبحانه قادر على أن يخلق خيراً منهم وأنهم لايسبقونه ولايفوتونه ولايهربون من مصيرهم المحتوم؟».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه:

«أقسم، و (لا) مزيدة... والمشارق والمغارب: مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي بمغلوبين، أو عاجزين عن أن نأتي بقوم آخرين خير منهم».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه:

«فلا أقسم برب المشارق والمغارب... إنا لقادرون على أن نهلكهم ونأتي بمن هو أطوع منهم لله، وما نحن بعاجزين عن هذا التبديل». وجاء في الهامش ما يلي: «قد يكون المراد بالمشارق والمغارب: أقطار ملك الله على سعته التي لا تحد كما أشير في الآيه137 من سورة الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ **(الأعراف: 137)**، للدلالة على أرجاء الأرض المشار إليها. وقد يكون المراد أيضاً مشارق الشمس والقمر وكافة النجوم والكواكب ومغاربها جميعاً للدلالة أيضاً على ملك الله كله. وترجع ظاهرة شروق الأجرام السماوية وغروبها إلى دوران الأرض حول محورها من الغرب نحو الشرق، ومن ثم تبدو لنا تلك الأجرام متحركة في قبة السماء على عكس ذلك الاتجاه مشرقه على الأفق الشرقي وغاربة من الأفق الغربي، أو على الأقل دائرة من المشرق إلى المغرب حول النجم القطبي في نصف الكرة الشمالي مثلاً، وإذا كان البعد القطبي للنجم أصغر من عرض مكان الراصد فالنجم لايشرق ولايغرب بل يرسم دائرة صغيرة وهمية حول القطب الشمالي، وبذلك تشير الآية كذلك إلى ساعات الليل، راجع قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ **(النحل: 16)**.

وظاهرة الشروق والغروب إشارة إذن إلى دوران كرة الأرض، وهي نعمة كبرى من نعم الله على أحياء هذا الكوكب، فلولا دوران الأرض حول محورها لتعرض نصفها لضوء الشمس مدة نصف سنة وحرم من الضوء تماماً النصف الآخر، وهذا ما لا تستقيم معه الحياة كما نعهدها.

وإذا اقتصرنا عند ذكر المشارق والمغارب على تدبير الشمس وحدها دون سائر النجوم والكواكب، كانت هذه إشارة إلى التعدد اللانهائي (غير النهائي) لمشارق الأرض ومغاربها يوماً بعد يوم في كل موضع على سطح الأرض، أو حتى في لحظة من لحظات

الزمان تمر على الكرة الأرضية، فالشمس في كل لحظة غاربة عند نقطة ومشرقة في نقطة أُخرى تقابلها. وهذا من محكم تدبير الله وإعجاز قدرته.

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: «أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها».

المشارق والمغارب في القرآن الكريم

جاء ذكر المشرق والمغرب في القرآن الكريم بالإفراد، والتثنية والجمع في أحد عشر موضعاً على النحو التالي:

أولاً: بالإفراد: جاء ذكر المشرق والمغرب في ست آيات قرآنية كريمة هي كما يلي:

1 ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ **(البقرة: 115).**

2 ـ ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ **(البقرة: 142).**

3 ـ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ **(البقرة: 177).**

4 ـ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **(البقرة: 258).**

5 ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ **(الشعراء: 28).**

6 ـ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ **(المزمل: 9).**

ثانياً: وجاء ذكر المشرقين أو ذكر المشرقين والمغربين مرتين في كتاب الله على النحو التالي:

1 ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾

(الزخرف: 38).

2 ـ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ **(الرحمٰن: 17).**

ثالثاً: وجاء ذكر المشارق وحدها مرة وذكر المشارق والمغارب مرتين في كتاب الله على النحو التالي:

1 ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ (الصافات: 5).

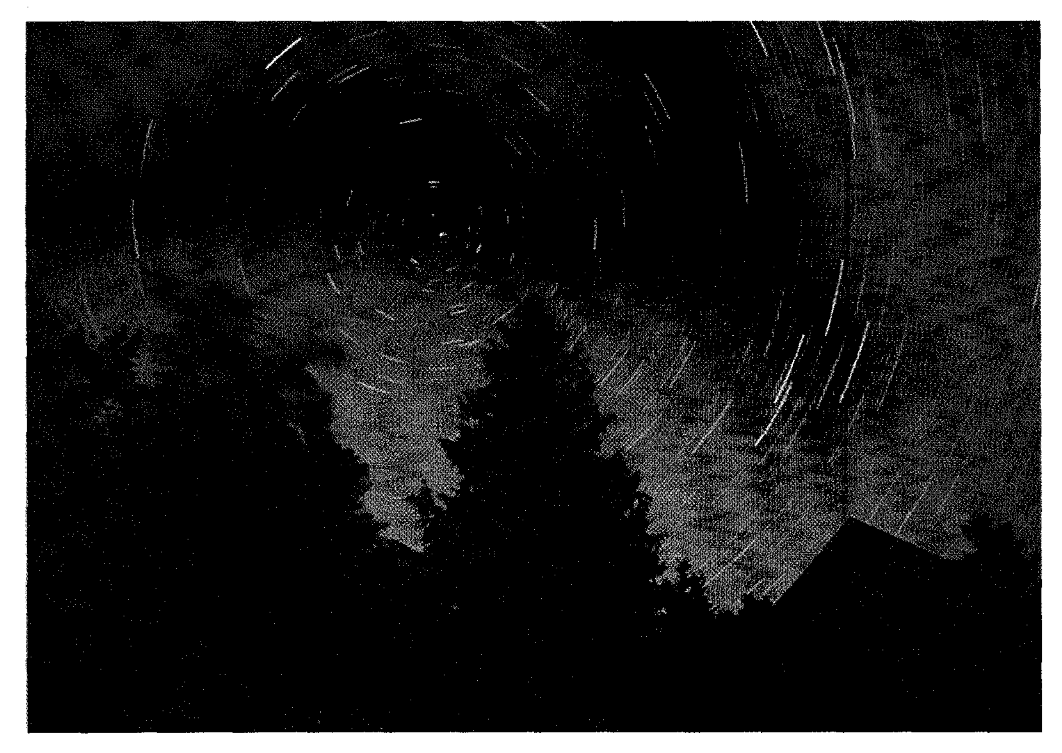
2 ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف: 137).

3 ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (المعارج: 40).

وهنا ثار تساؤل المفسرين عن سبب ذكر المشرق والمغرب بالإفراد، والمشرقين والمغربين بالتثنية، والمشارق والمغارب بالجمع وتعددت إجاباتهم، ومن هنا كانت ضرورة توظيف الحقائق العلمية التي توفرت في زماننا حتى يمكن فهم دلالة هذه الآيات الكريمة بشكل أعمق.

المدلول العلمي للآية الكريمة

بما أن المخاطبين بالقرآن الكريم هم أهل الأرض جميعاً، فمن المنطقي أن يكون المقصود بالتعبير القرآني (**رب المشارق والمغارب**) هو مشارق الأرض ومغاربها؛ ولكن بما



صورة في المنطقة الشمالية القطبية تبين ثبات النجم القطبي (تصوير بطيء)

أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي له ملك السمٰوات والأرض وما بينهما، فإن دلالة الآية الكريمة تتسع لتشمل مشارق ومغارب كل أجرام السماء، وعلى ذلك فلا بد من فهم دلالة الآية الكريمة في هذين الإطارين على النحو التالي:

أولاً: المشارق والمغارب بالنسبة إلى الأرض:

(1) مشرق الأرض ومغربها:

على الرغم من أن كل ما في صفحة السماء من أجرام يدور حول محوره، ويسبح جارياً في مداره إلا أن النجم القطبي يبدو ثابتاً في مكانه بالنسبة للأرض، ولا يشترك في الدوران الظاهري لقبة السماء وما بها من نجوم، والناتج عن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق دورة كاملة في كل أربع وعشرين ساعة في زماننا الراهن؛ والسبب في ذلك هو أن النجم القطبي يقع على امتداد محور دوران الأرض حول نفسها تماماً، وبذلك يحدد لنا اتجاه الشمال الحقيقي (المعروف باسم الشمالي الجغرافي)؛ ويتعامد على هذا الاتجاة يميناً شرق الأرض. ويساراً غربها أي **اتجاه الشرق الحقيقي والغرب الحقيقي** بالنسبة للأرض ككوكب؛ ويتضح من ذلك جانب من جوانب الحكمة الإلهية المبدعة بخلق هذه العلاقة حتى يبقى النجم القطبي بمثابة البوصلة الكونية المعلقة في السماء الدنيا لإرشاد أهل الأرض إلى الاتجاهات الأربعة الأصلية، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ **(النحل: 16).**

ويقول: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ **(المزمل: 9).**

(2) مشارق الأرض ومغاربها:

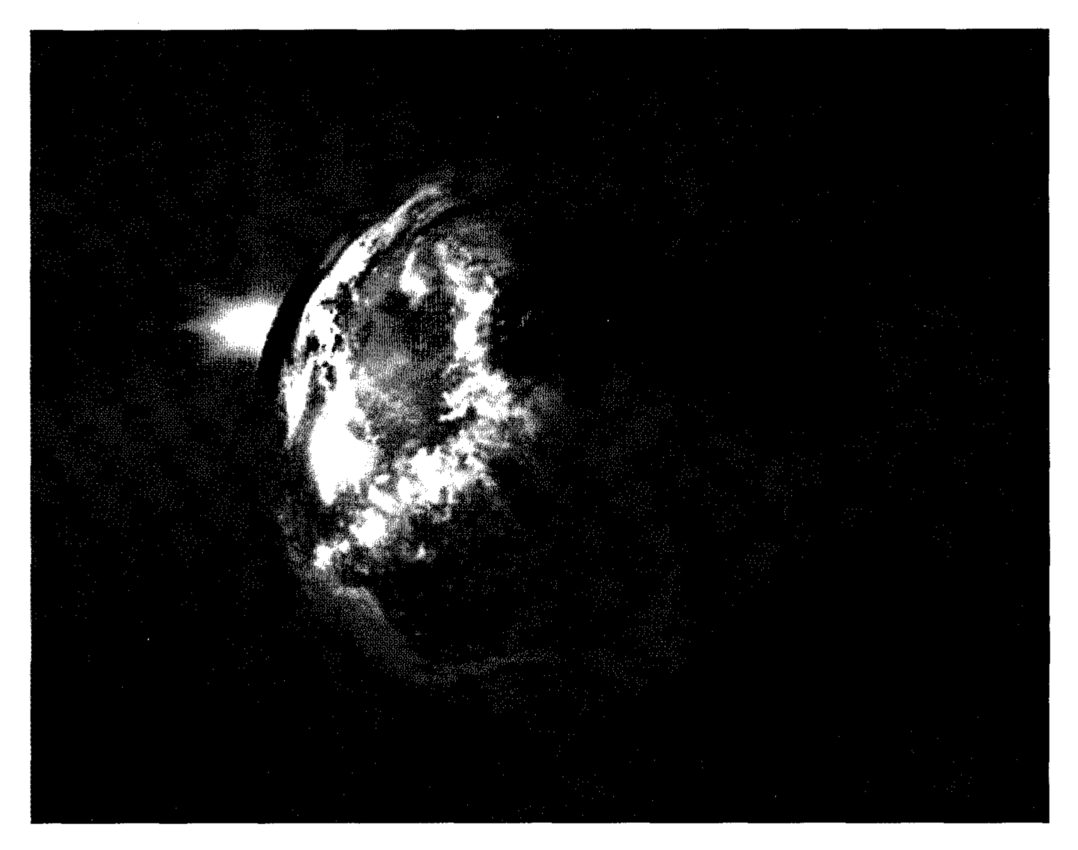
بدوران الأرض حول محورها دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة في زماننا الراهن يتحدد يوم الأرض الذي يتقاسمه الليل والنهار. وبدوران القمر دورة كاملة حول محوره، وحول الأرض في مدة تقدر بحوالي 29.5 يوماً يتحدد شهر الأرض القمري الذي يمكن تقسيمه إلى أيام وأسابيع بتتابع مراحل شكل القمر من الميلاد إلى المحاق. ويتم القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض في كل دورة كاملة للأرض حول الشمس تقريباً وبذلك يتحدد طول السنة القمرية بحوالي 354 يوماً، وتقسم إلى اثني عشر شهراً قمرياً محدداً.

ويسبح كلٌ من الأرض وقمرها حول الشمس في مدار محدد ليتما دورة كاملة في مدة تقدر بحوالي (365.25) يوماً تتحدد السنة الشمسية للأرض، وهي تزيد على السنة القمرية بحوالي 11 يوماً. وبسبب ميل محور دوران الأرض على الخط الواصل بين مركزي الأرض

والشمس تتبادل السنة الشمسية فصول أربعة هي الربيع والصيف والخريف والشتاء. وبواسطة تتابع بروج السماء التي تمر بها الأرض في أثناء سبحها في مدارها حول الشمس يمكن تقسيم السنة الشمسية إلى شهورها الاثني عشر.

وكان قدماء المصريين قد قدروا السنة الشمسية بحوالي 365 يوماً، وتلاهم البابليون في الربط بين محيط الدائرة الذي يبلغ 360 درجة، وبين عدد أيام السنة الشمسية، وشَكَّل هذا الربط أساس تقسيمات الساعة إلى 60 دقيقة، والدقيقة إلى 60 ثانية. وكانت ملاحظة تغير المواقع الظاهرية للشمس بالنهار بين شروقها وغروبها وسيلة من وسائل إدراك مرور الزمن وتتبع حركته.

وبفعل دوران الأرض حول محورها دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة، فإن مساحة نصف الكرة الأرضية المغمور بنور النهار تتناقص من أحد طرفيها بولوجه في ظلمة الليل،

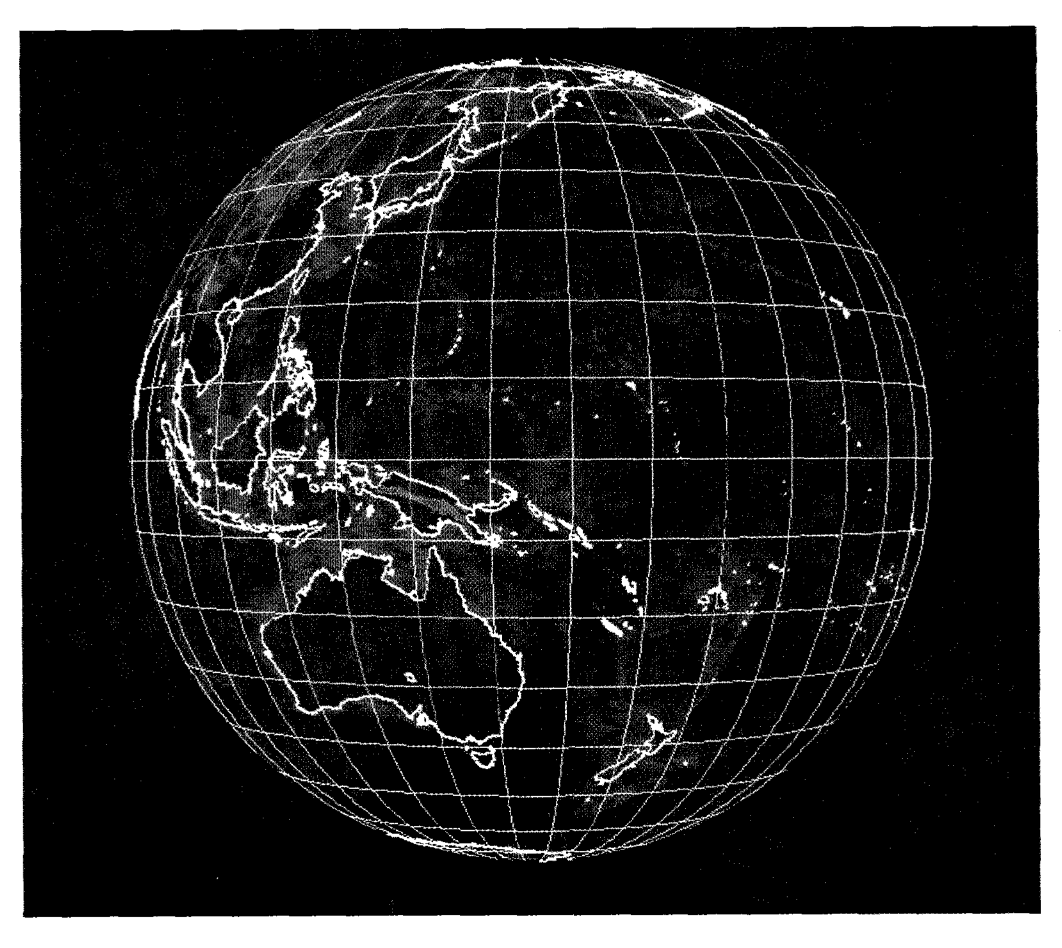


المشرق يظهر على القسم المواجه للشمس فقط وفي نفس الوقت يظهر الظلام على القسم الآخر للأرض

وتتزايد بنفس القدر من الطرف الآخر الذي يخرج من ظلمة الليل إلى نور النهار، ويستمر الحال كذلك في تبادل بطيء حتى يعم نور النهار نصف الأرض الذي كان مظلماً، ويعم ظلام الليل نصفها الذي كان منيراً، ومن هنا **تتعدد المشارق والمغارب على خط العرض الواحد**، ويتأخر شروق الشمس كلما اتجهنا إلى الغرب. ولما كانت الأرض تدور حول محورها دورة كاملة أي (360) درجة كل 24 ساعة، فإن ضوء الشمس ينتقل 15 درجة من درجات خطوط الطول في الساعة الواحدة من الشرق إلى الغرب؛ أي بمعدل 4 دقائق لخط الطول الواحد؛ ومعنى ذلك أن الفرق الزمني الناشيء عن اختلاف خطوط الطول على خط العرض الواحد يقدر بأربع دقائق لكل درجة من درجات خطوط الطول، ويضاف هذا الفرق إذا كان الموقع في نصف الأرض الشرقي، ويطرح إذا كان في نصفها الغربي. **ويعتبر خط الطول (180) هو الخط العالمي للتأريخ**، وباجتيازه من الشرق إلى الغرب يتأخر الزمن يوماً كاملاً؛ ويتعرج الخط العالمي **للتأريخ** شرقاً وغرباً عبر خط طول (180) وذلك بتأثير خطوط العرض، ويمر من مضيق بيرنج شمالاً إلى شرق جزيرة نيوزيلندا جنوباً. ويتغير الزمن من موقع لآخر على طول خط الاستواء بسبب الانتقال من خط طول إلى خط طول آخر.

أما الاختلاف في الزمن وبالتالي في لحظتي شروق الشمس وغروبها عند الانتقال من خط الاستواء إلى خطوط العرض شمالاً وجنوباً فهو أكبر من الانتقال على خط العرض الواحد؛ وذلك لأن الانتقال عبر خطوط العرض له أبلغ الأثر على زمني شروق وغروب الشمس، وهذا الأثر ليس ثابتاً على مر الأيام بسبب ميل محور دوران الأرض، كما أنه لا يتناسب تناسباً طردياً مع فروق خطوط العرض، ويتضح ذلك من أن مقدار الفرق الزمني لكل من شروق وغروب الشمس بين خطي العرض 50 و 60 درجة شمالاً أكبر بأضعاف كثيرة من مقدار الفرق الزمني بين خطي عرض 10 و 20 شمالاً.

أضف إلى ذلك أن هذه الفروق غير ثابتة على مدار السنة مما يعدد مشارق الأرض ومغاربها إلى أرقام لا تكاد تدرك. والفروق بين أزمنة الشروق والغروب في نفس اليوم عند موقعين على خط طول واحد ولكنهما على خطي عرض مختلفين هي أقل من الفروق بين موقعين بينهما نفس القيمة في مقدار خطي العرض، بينما يقعان على خطي طول مختلفين. كذلك إذا حسبنا زمني شروق وغروب الشمس في المكان الواحد من سطح الأرض على مدار السنة، فإننا نجدهما يتغيران تغيراً كبيراً خاصة عند خطوط العرض العليا. فالمكان الواحد على سطح الأرض له مشارق ومغارب عديدة على مدار السنة.

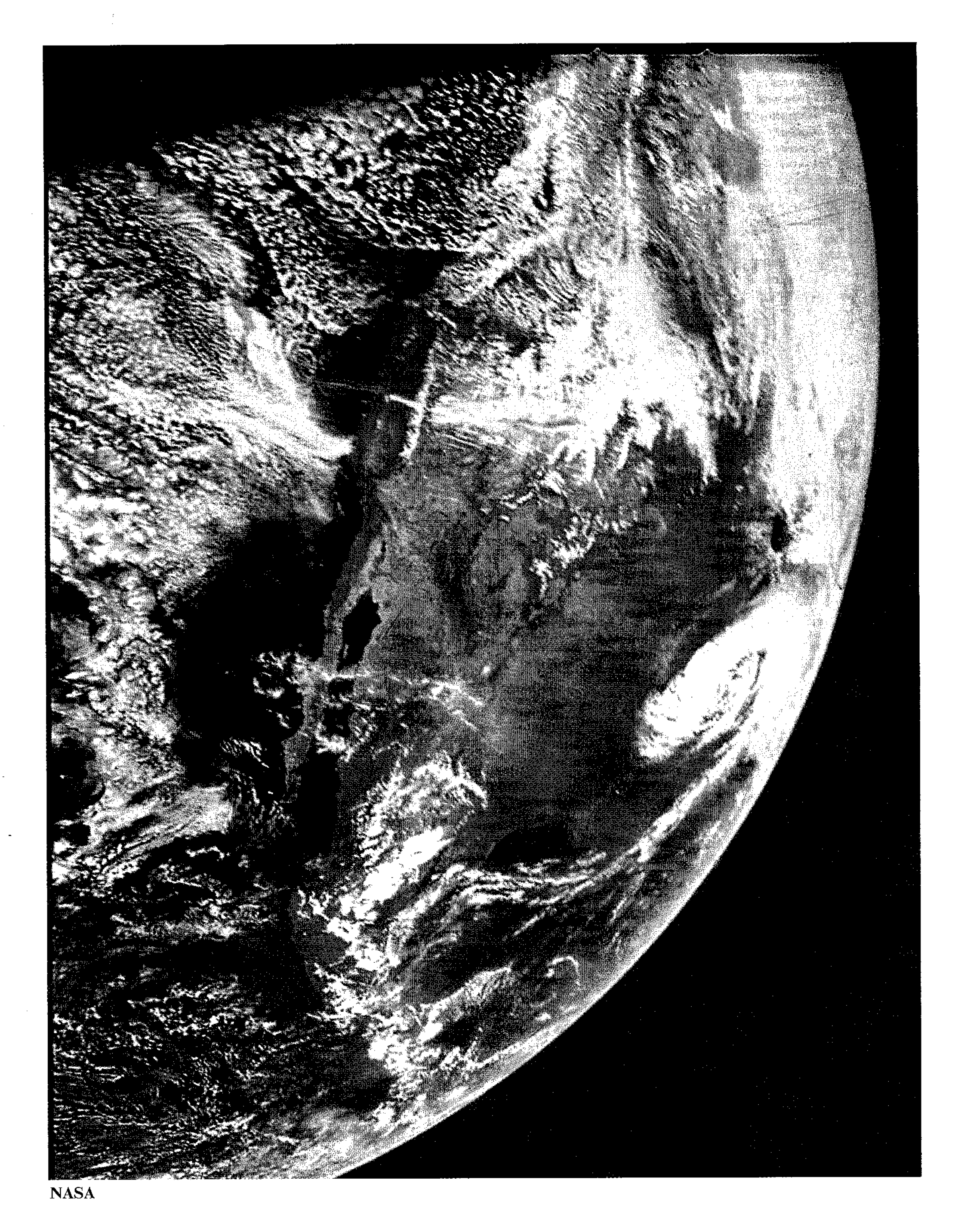


خطوط الطول والعرض الوهمية لقياس الوقت وتحديد المكان

والحركة الظاهرية للشمس في مستوى دائرة البروج تؤثر في مقدار الميل الاستوائي لها، وتجعله يتغير من يوم إلى يوم آخر؛ والميل الاستوائي له تأثير كبير في تحديد مكان وزمان لحظتي الشروق والغروب للشمس، ويزداد ذلك بزيادة قيم خطوط العرض.

وقد تتحد نقاط على خطوط طول وعرض مختلفة في لحظتي الشروق والغروب، والخطوط الواصلة بينها تعرف باسم «**خطوط اتحاد المطالع**» أو «**خطوط اتحاد المغارب**»، وهذه الخطوط يختلف شكلها من يوم إلى آخر: وهي في اليوم الواحد تكون موازية لبعضها البعض.

في 21 مارس/ آذار من كل عام يقع الاعتدال الربيعي، وفي 23 سبتمبر/ أيلول يقع الاعتدال الخريفي في نصف الكرة الشمالي فيتساوى الليل والنهار لتعامد أشعة الشمس على خط الاستواء.



NASA

ظهور طبقة النهار على القارة الأمريكية ـ ويبدو في الصورة خليج كاليفورنيا ـ وفي أعلى الصورة ـ المنطقة المظلمة تبدأ فيها حالة الشروق بفعل دوران الأرض حول محورها

وفي 21 يونيو/ حزيران من كل عام يقع الانقلاب الصيفي في نصف الكرة الشمالي لتعامد أشعة الشمس على مدار السرطان، ويكون النهار أطول نهار في السنة، وتتمتع المنطقة الواقعة حول القطب الشمالي بنهار يدوم 24 ساعة، ويحل ليل مدته 24 ساعة على المناطق الواقعة حول القطب الجنوبي. ويكون النهار أقصر ما يكون في نصف الكرة الجنوبي في 21/يونيو، أما عند خط الاستواء فيتساوي طول كل من الليل والنهار على مدار السنة.

في 22 ديسمبر/ كانون الأول من كل عام يقع الانقلاب الشتوي في نصف الكرة الشمالي حيث تتعامد أشعة الشمس على مدار الجدي، وتتمتع المنطقة حول القطب الجنوبي بنهار يدوم 24 ساعة، بينما تتمتع المنطقة حول القطب الشمالي بليل يدوم 24 ساعة كاملة.

من هذا الاستعراض يتضح تعدد المشارق والمغارب بتبادل الأيام والفصول على الموقع الواحد في كل سنة، وبتعدد المواقع على خط العرض الواحد مع تعدد خطوط الطول، وعلى خط الطول الواحد بتعدد خطوط العرض، وبتعدد كل ذلك تتعدد المشارق والمغارب تعدداً مذهلاً فسبحان الذي أقسم برب المشارق والمغارب فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

3 ـ مشرقا الأرض ومغرباها:

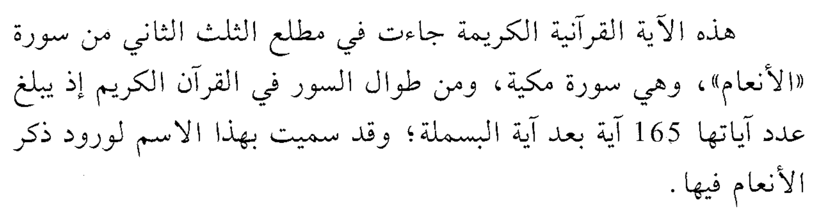
نتيجة لدوران الأرض حول محورها، انبعجت قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحت قليلاً عند القطبين، ونتيجة لذلك أصبح لكلٍّ من المشارق والمغارب العديدة نهايتان تمثلان أقصى زمانين ومكانين لكلٍّ من شروق الشمس وغروبها على أقصى بقعتين من بقاع الأرض تمثل كلٌّ منهما مرة أقصى الشروق، ومرة أقصى الغروب، ومن هنا كان للأرض مشرقان ومغربان، فسبحان القائل ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾﴾.

ثانياً: المشارق والمغارب بالنسبة لباقي أجرام السماء:

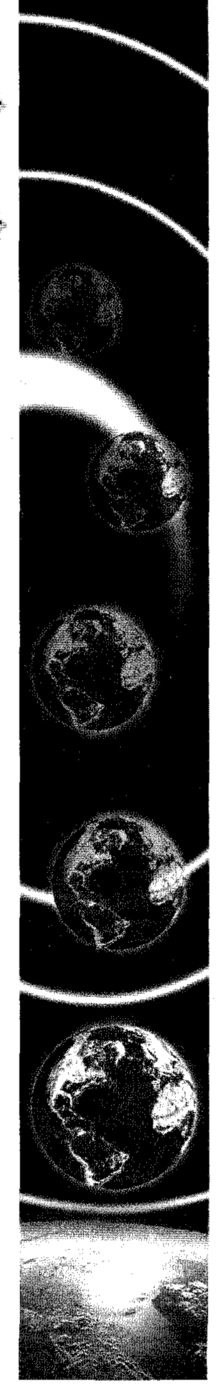
من الواضح أن المؤثرات السابقة كلها على زمني ومكاني شروق وغروب الشمس تشترك في التأثير على زمني ومكاني شروق وغروب القمر، ويزيد عليهما بالنسبة للقمر عامل آخر هو مقدار خط عرض القمر السماوي، وهو يتغير في حدود 5 درجات تقريباً إيجاباً وسلباً، وعندما يكون خط العرض السماوي للقمر صفراً فإنه يتحد في غروبه مع الشمس، وبذلك يكون للقمر العديد من المشارق والمغارب كما يكون له مشرق واحد

ومغرب واحد، ونهايتان لكل من شروقه وغروبه، وكذلك الحال مع بقية أجرام السماء والتي نتيجة لتكورها ولدورانها حول محاورها، ولسبحها حول أجرام أكبر فإن مشارقها ومغاربها تتعدد تعدداً كبيراً، مع وجود نهايتين عظميين لكل من الشروق والغروب، ووجود اتجاهات أصلية لكل جرم سماوي تحدد له شرقه وغربه الأساسيين.

من هنا جاءت الإشارة في كتاب الله إلى كلٍّ من المشرق والمغرب بالإفراد وبالمثنى وبالجمع تأكيداً على العديد من حقائق الأرض وحقائق أجرام السماء، وهي حقائق لم تدرك إلا في زمن العلم الذي نعيشه، فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه فحفظه على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، ولا يزال عهده ماضياً حتى قيام الساعة، وحفظه بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة وحرفاً حرفاً بكل إشراقاته الربانية، وحقائقه النورانية في كل قضية عرض لها، حتى يبقى حجة على الناس جميعاً، ومنهم أهل عصرنا من المسلمين وغير المسلمين، وشاهداً على الطبيعة الربانية لهذا الكتاب الخالد، وعلى صدق نبوة الرسول الخاتم والنبي الخاتم الذي تلقاه، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(27) ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾ (الأنعام: 96)



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الثاني من سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية، ومن طوال السور في القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها 165 آية بعد آية البسملة؛ وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة، وفي مقدمتها الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ نبيًّا ورسولاً؛ والإيمان بحقيقة الوحي، وبوحدة رسالة السماء؛ وبحتمية البعث والحساب، وبالخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً...!!

والإيمان بالله ـ تعالى ـ يقتضي توحيده توحيداً مطلقاً فوق كل خلقه، وتنزيهه عن كل وصف لايليق بجلاله من مثل الادعاء الكاذب له بالشريك أو الصاحبة أو الولد ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ، والإقرار له ﷻ بطلاقة القدرة التي لا تحدها حدود، وبالسلطان المطلق الذي لا ينازعه فيه منازع، وبالألوهية والربوبية فوق كل خلقه، فهو ـ تعالى ـ رب هذا الكون ومليكه والمتصرف فيه وحده.

وقد سبق لنا استعراض سورة «الأنعام» تحت موضوع الآية الأولى منها، ولا أرى داعياً لتكرار ذلك هنا.

كذلك سبق لنا استعراض الإشارات الكونية الواردة في سورة «الأنعام»، وسوف أقصر الحديث هنا على الآية السادسة والتسعين منها التي تشير إلى جريان كلٍّ من الشمس والقمر بنظام محسوب بدقة بالغة

مما يعين على حساب الزمن، والتأريخ للأحداث، وأداء الحقوق والواجبات والعبادات في أوقاتها المحسوبة، وقبل الدخول إلى ذلك لابد من الاستعراض السريع لأقوال عدد من المفسرين السابقين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ **(الأنعام: 96)**.

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي خالق الضياء ﴿ٱلنُّورَ﴾ والظلام كما قال في أول السورة ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ أي فهو سبحانه يغلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه (بنوره) وإشراقه.....، وقوله ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب؛ بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ **(يونس: 5)** الآية، وكما قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ **(يس: 40)**، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ **(الأعراف: 54)**، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يمانَع، ولا يخالف، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم»....

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ مصدر بمعنى الصبح؛ أي: شاق عمود الصبح، وهو: أول ما يبدو من نور النهار عن ظلمة الليل... ﴿سَكَنًا﴾ يسكن فيه الخلق من التعب، ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب عطفاً على محل الليل.. ﴿حُسْبَانًا﴾ حساباً للأوقات، والباء محذوفة، وهو حال من مقدر أي: يجريان بحسبان... ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضاً، وهو الذي جعل الليل للسكون، وجعل الشمس والقمر

محسوبة حركاتهما، مقدرة دوراتهما.. مقدراً ذلك كله بقدرته التي تهيمن على كل شيء، وبعلمه الذي يحيط بكل شيء.

وانغلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انغلاق الحبة والنواة، وانبثاق النور في تلك الحركة، كانبثاق البراعم في هذه الحركة، وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة، ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك... وبين انغلاق الحب والنوى وانغلاق الإصباح، وسكون الليل صلة أُخرى...

«إن الإصباح والإمساء، والحركة والسكون، في هذا الكون أو في هذه الأرض ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة».



«فالق الإصباح» الشمس في حالة الشروق

«إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس، وكون القمر بهذا الحجم، وبهذا البعد من الأرض، وكون الشمس كذلك بهذا الحجم، وهذا البعد، وهذه

الدرجة من الحرارة هي تقديرات من ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ ذي السلطان القادر ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ ذي العلم الشامل؛ ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو، ولما انبثق النبت والشجر من الحب والنوى».

«إنه كون مقدر بحساب دقيق. ومقدر فيه حساب الحياة، ودرجة هذه الحياة، ونوع هذه الحياة. . . كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه».

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ـ ما نصه: «﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ الإصباح: مصدر سمي به الصبح؛ أي شاق ظلمة الصبح وهو الغبش في آخر الليل الذي يلي الفجر المستطيل الكاذب عن بياض النهار؛ فيضيء الوجود ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده ويجيء النهار بضيائه ـ والأصح هو بنوره ـ. ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ يسكن إليه من يتعب بالنهار ويستأنس به لاسترواحه فيه. ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ أي يجريان في الفلك بحساب مقدر معلوم، لا يتغير ولا يضطرب حتى ينتهيا إلى أقصى منازليهما؛ بحيث تتم الشمس دورتها في سنة، ويتم القمر دورته في شهر، وبذلك تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها. والحسبان: مصدر حسبت المال حسباً من باب فتل: أحصيته عدداً».

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «وهو الذي يشق غبش الصبح بضوء ـ والصحيح هو بنور ـ النهار؛ ليسعى الأحياء إلى تحصيل أسباب حياتهم، وجعل الليل ذا راحة للجسم والنفس، وجعل سير الشمس والقمر بنظام دقيق يعرف به الناس مواقيت عباداتهم، ومعاملاتهم. ذلك النظام المحكم، تدبير القادر المسيطر على الكون المحيط بكل شيء علماً».

وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ أي شاق الضياء ـ والصحيح هو النور ـ عن الظلام وكاشفه، قال الطبري: شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾؛ أي: بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد، ويعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء، العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة كونية مؤداها أن الله ـ تعالى ـ قد قدر للأرض أن تدور حول محورها أمام الشمس، كما قدر لكل جرمٍ من أجرام السماء أن يدور حول محوره، وأن يسبح في فلكه، وبذلك فإنه يفصل الأرضَ عن ليل السماء بطبقة نور النهار الرقيقة (التي لايتعدى سمكها مائتي كيلومتر بالنسبة إلى المسافة بين الأرض والشمس المقدرة بنحو 150 مليون كيلومتر) وتغطي طبقة نور النهار نصف الأرض المواجه للشمس، بينما تغمر ظلمة ليل الأرض نصفها البعيد عن مواجهة الشمس. ومع دوران الأرض حول محورها تتحرك طبقة نور النهار لتحل محل ظلمة الليل بالتدريج، وهي ملتحمة مع ظلمة الكون، وبذلك فهو ﷻ يفلق هاتين الظلمتين المتداخلتين بالتدريج فيحل النهار محل ظلمة ليل الأرض، وتبقى ظلمة السماء، ولذلك وصف ذاته العلية بأنه فالق الإصباح؛ أي: الصبح ولا يقوى على ذلك أحد غيره.

ثم يضيف وصفاً آخر لتلك الذات العلية هي قوله العزيز: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾، ويصف تقدير ذلك بأنه: ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

وجاء التعبير ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ إشارة إلى تبادل كلٍّ من النهار والليل، وإلى جعل النهار لعمارة الأرض، وإقامة عدل الله فيها، وللجري وراء المعايش، وللكدح من أجل كسب الرزق الحلال، وجعل الليل للسكن والاستجمام، والراحة والاسترخاء، والتأمل والعبادة بعد كدح النهار؛ وتبادل كلٍّ من الليل والنهار لايتم إلا بدوران الأرض الكروية حول محورها أمام الشمس.

وهذه الدورة الأرضية التي تعرف باسم «**الدورة المحورية**»، أو «**المغزلية**»، أو «**الدورانية**» تتم بسرعة تقدر بنحو الثلاثين كيلومتراً في الدقيقة (465 متراً في الثانية × 60 = 27.9 كيلومتر في الدقيقة × 60 = 1674 كيلومتراً في الساعة) لتتم دورة كاملة في يوم مقداره 24 ساعة (23 ساعة 56 دقيقة 4 ثوان في المتوسط)، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت قليل في طول كلٍّ منهما؛ وذلك بسبب ميل محور دوران الأرض على مستوى مدار الأرض حول الشمس؛ مما ينتج عنه تبادل فصول السنة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء.

ويوم الأرض (الناتج عن دورانها دورة كاملة حول محورها) يختلف طوله على مدار السنة بسبب تغيير سرعة سبح الأرض في فلكها حول الشمس (**سرعة الحركة المدارية**

للأرض) تبعاً لبعدها عن الشمس، وبسبب **آثار ظاهرتي المد والجزر، والدوران الفعلي للغلاف الغازي المحيط بالأرض**، وبسبب **بعض التغيرات في لب الأرض**.

وقد حددت الثانية كوحدة للزمن على أساس أنها الفترة الزمنية المكافئة لـ 86,400:1 من متوسط طول اليوم الشمسي على مدار السنة (24 ساعة × 60 دقيقة × 60 ثانية = 86,400 ثانية).

ولتفادي ما ثبت من تناقص سرعة دوران الأرض حول محورها، وبالتالي زيادة متوسط طول اليوم الشمسي بنحو0.001 من الثانية في القرن الواحد، فقد تم الاتفاق على تعيين طول الثانية ذريًّا بأنها الفترة التي يتردد منها قفز الإليكترون من مدار إلى آخر حول نواة ذرة نظير عنصر (السيزيوم 133) نحو تسعة بلايين مرة (9,192,631,770 مرة)، كما يمكن تقسيم الثانية إلى وحدات أقل.

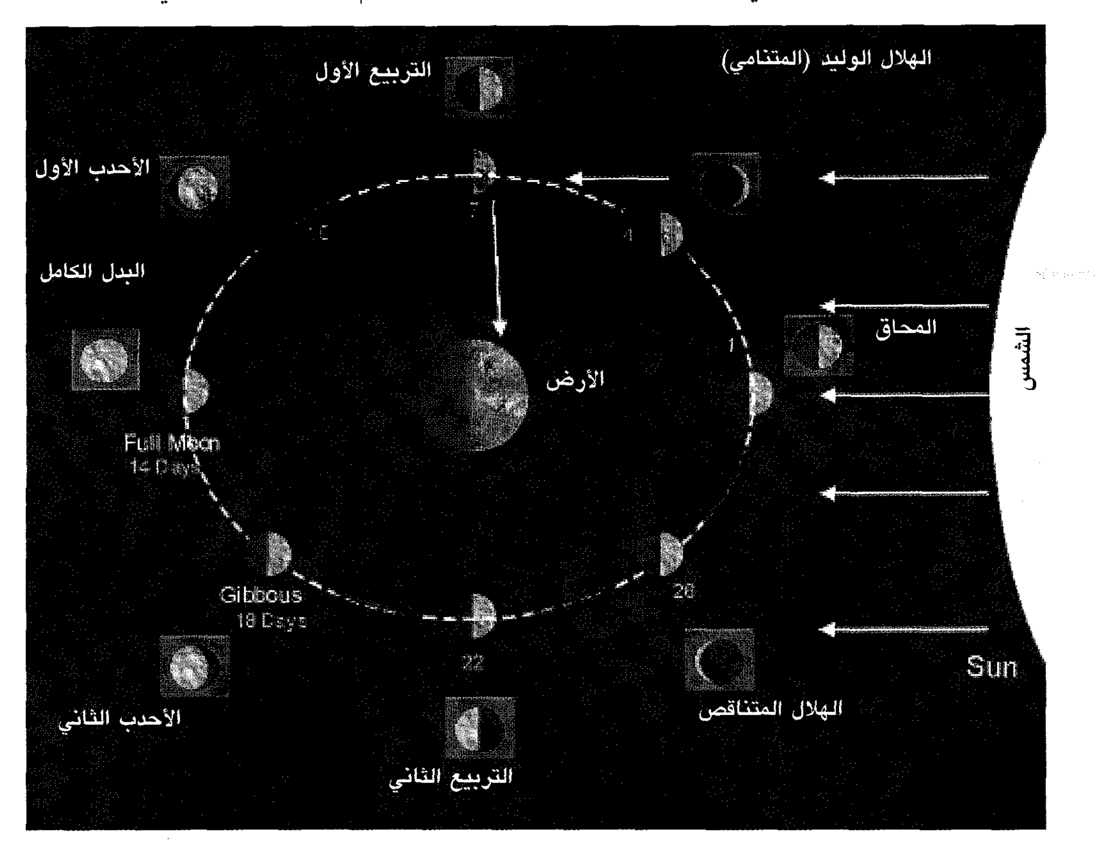
ومع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من الغرب إلى الشرق يبدو لنا هذا النجم (الشمس) صاعداً من جهة الشرق، وغائباً في جهة الغرب في حركة ظاهرية تحدد لنا كلًّا من ليل ونهار ويوم الأرض؛ وباستخدام كل من المزولة، أو البندول المعلق من سقف مرتفع، أو الساعات ـ باختلاف أنواعها ودرجة دقتها حتى الساعة الذرية ـ يمكن تقسيم كل من الليل والنهار إلى الساعات والدقائق والثواني، وفي بعض الحالات إلى أجزاء من الثانية.

والدورة اليومية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها دورة كاملة في كل يوم تجعل جميع ما نراه في صفحة السماء الدنيا وكأنه يدور من حولنا، وليست الشمس وحدها؛ فبالمثل يبدو القمر وكأنه يطلع على الأرض من جهة الشرق، ويغيب عنها في جهة الغرب، وهذه دورة ظاهرية، وللقمر دورة حقيقية حول محوره المائل على مستوى مداره أمام الأرض بسرعة متوسطة تقدر بنحو 3675 كيلومتراً في الساعة؛ أي نحو كيلومتر واحد في الثانية (1.021كم/ث)، وهي نفس سرعة سبحه حول الأرض في مدار دائري يقدر طوله بنحو 2.4 مليون كيلومتر لتتم هذه الدورة في أكثر قليلاً من السبعة والعشرين يوماً (27.3217يوم)، ولكن نظراً لسبح الأرض حول الشمس في نفس الوقت مما يؤدي إلى تباعد نقطة البداية في كل دورة قمرية عن سابقتها فإن القمر يتم دورتة الشهرية فعلاً في نحو 29,5 يوم (29.5309يوم) هي مدة الشهر القمري. ويقدر متوسط بعد القمر عن الأرض بنحو 384 ألف كيلومتر؛ وبذلك يكون يوم القمر هو الشهر القمري للأرض، وهو يوم يقدر طول كلٍّ من ليله ونهاره بنحو 14,5 يوم أرضي.

ويشترك في تحديد الشهر القمري كلٌّ من الشمس، والقمر، والأرض بأوضاعها

المحددة بالنسبة لبعضها البعض، وكلٍّ من حركاتها الحقيقية، والظاهرية؛ فالقمر في سبحه في مداره حول الأرض، وهو يواجهها بوجه واحد يتم دورته في شهر قمري يتراوح طوله بين 29.53 يوماً (بمتوسط 29,53 يوم) فيبدأ بالخروج من **دور المحاق (طور الاقتران)** بميلاد **الهلال الجديد**، ثم بزيادة مساحة الجزء المنير من سطح القمر بالتدريج يتحرك إلى **التربيع الأول**، ثم **الأحدب الأول**، ثم **البدر الكامل (طور الاستقبال)**، وبعد ذلك تبدأ مساحة الجزء المنير من سطح القمر في التناقص بالتدريج إلى **الأحدب الثاني**، ثم **التربيع الثاني**، ثم **الهلال الأخير** حتى يدخل في **طور المحاق**، فيختفي نور القمر بالكامل لمدة يوم أو يومين حسب طول الشهر القمري، ويعاود الظهور في أول الشهر القمري التالي بميلاد هلال جديد، وهكذا إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الكون بما فيه، ومن فيه.

والأرض تسبح حول الشمس في فلك محدد لها ومعها قمرها؛ لتتم دورة كاملة في سنة شمسية يقدر طولها في زماننا الراهن بنحو (365.25 يوم) موزعة على اثني عشر شهراً



رسم توضيحي لمراحل أشكال القمر المتتالية في خلال الشهر القمري

بعدد بروج السماء. ونظراً لميل محور دوران الأرض فإن **فصول السنة** تتبادل: الربيع، والصيف والخريف، والشتاء، وذلك بتقدير العزيز الحكيم.

ولقد شاءت إرادة الله الخالق ﷻ أن يتحدد يوم الأرض ـ بليله ونهاره ـ عن طريق دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وأن يتحدد شهر الأرض القمري بواسطة دورة القمر الشهرية حول الأرض، ويتحدد شهرها الشمسي عن طريق بروج السماء، وأن يقسم شهرها القمري إلى أسابيع، وأيام بواسطة منازل القمر، وأطواره المتتالية في كل شهر.

والسنة القمرية هي الفترة الزمنية التي يتم فيها القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض، ويستغرق ذلك (354.37 يوم)، ولما كان كسر اليوم يجمع ليكون يوماً في كل ثلاث سنوات تقريباً، اعتبرت السنة القمرية البسيطة 354 يوماً، والكبيسة 355 يوماً؛ بينما تستغرق السنة الشمسية 365.25 يوم.

ومن الناحية الشرعية فإن الشهر القمري يبدأ برؤية الهلال الجديد بعد غروب شمس اليوم التاسع والعشرين أو الثلاثين من الشهر القمري السابق، وينتهي برؤية الهلال الجديد الذي يليه بعد غروب شمس التاسع والعشرين أو الثلاثين منه؛ وعلى ذلك فإن الفترة الزمنية للشهر القمري تكون عدداً صحيحاً من الأيام، إما تسعة وعشرين يوماً، أو ثلاثين يوماً.

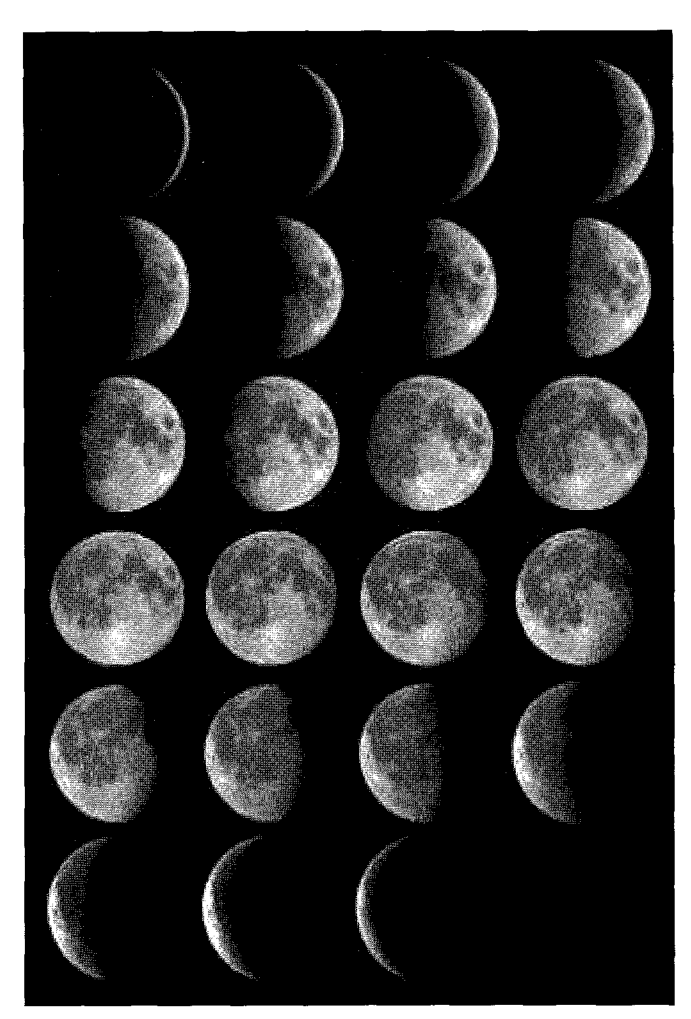
ومن المعلوم أن الطول الفعلي للشهر القمري يتراوح بين (29 يوماً، 5 ساعات)، و (29 يوماً، 19 ساعة أو أكثر قليلاً)؛ وعلى ذلك فإن مدته الوسيطة تقدر بنحو (29 يوماً، 12 ساعة، 44 دقيقة)، وانطلاقاً من ذلك فإن الأشهر الكاملة قد تتوالى مرة أو مرتين، كما قد تتوالي الأشهر الناقصة مرة أو مرتين، وسطح الأرض منقسم إلى قسمين يفصل بينهما **خط اتحاد المطالع**، وجميع الأماكن التي تقع إلى الغرب من هذا الخط إذا رأت الهلال بدأ عندها الشهر القمري الجديد من اليوم التالي للرؤية، بينما جميع الأماكن الواقعة إلى الشرق من خط اتحاد المطالع فإنها لا ترى الهلال إلا في اليوم التالي. واليوم يبدأ في التقويم القمري من غروب الشمس إلى غروبها التالي، وبذلك يكون الليل سابقاً للنهار؛ وفي التقويم الشمسي يبدأ اليوم من منتصف الليل إلى منتصفه التالي.

وعلى ذلك فقد أصبحت حركات كل من الأرض والقمر والشمس معلومة لنا بدقة كبيرة لدرجة أن الساعات الزمنية تضبط اليوم على حركاتها، وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾ **(الأنعام: 96)**.

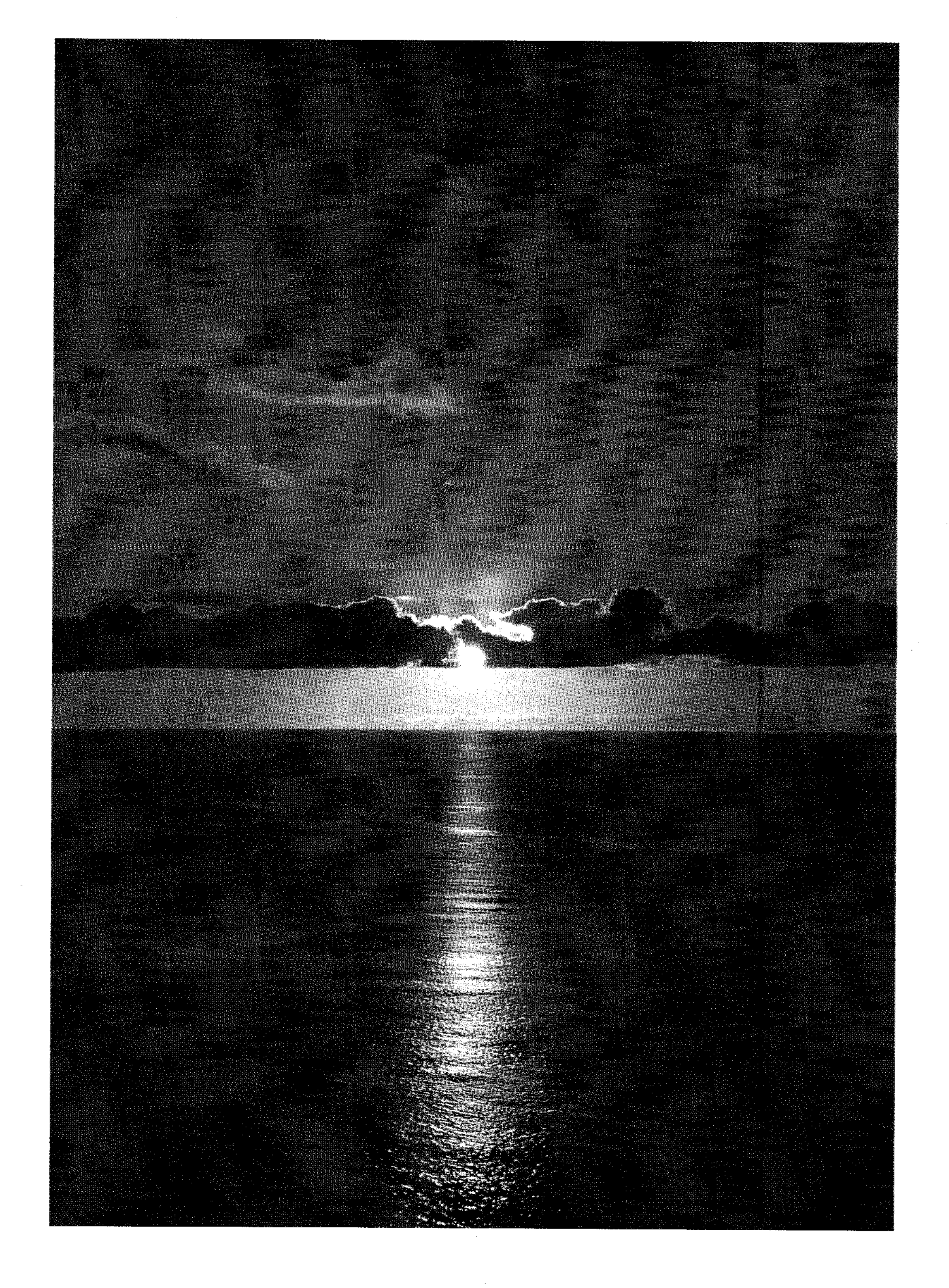
وصدق ربنا ـ العزيز الحكيم ـ الذي أنزل كذلك قوله الحق: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ

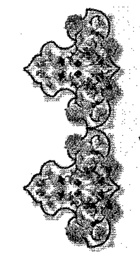
﴿بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمٰن: 5)، أي بحساب محكم دقيق يعين الإنسان على إدراك الزمن وحسابه والتأريخ للأحداث، وأداء العبادات، والحقوق، والواجبات ولولا ذلك لتعذرت الحياة على الأرض.

وهي قضايا لم يدركها الإنسان إلا بعد قرون طويلة من تنزل القرآن الكريم؛ مما يقطع بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة، والرسالة للرسول الخاتم الذي تلقاه بحق، وأبلغه بأمانة، وصدق، وجاهد في سبيله حتى أتاه اليقين، فصلَّى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

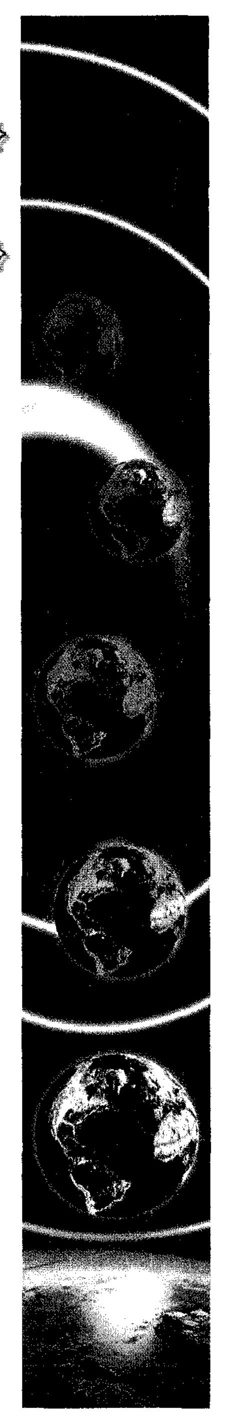


صورة توضح التدرج في زيادة الجزء المنير من سطح القمر مع الزمن في كل شهر قمري ثم تناقصه إلى المحاق





بسم الله الرحمن الرحيم



(28) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

(مريم: 65)

هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الأخير من سورة «مريم»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (98) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود قصة السيدة مريم ابنة عمران فيها، ومعجزة ولادتها للسيد المسيح عليه السلام، وهي عذراء لم يمسسها بشر، ومعجزة كلامه عليه السلام، وهو في المهد دفاعاً عن أمه ـ شرّفها الله ـ التي حاول اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ أن ينالوا من شرفها، كما لوثوا سيرة كل نبي وكل رسول!!

والمحور الرئيسي لسورة «مريم» يدور حول قضية العقيدة بأبعادها المختلفة، وفي مقدمتها توحيد الله، توحيداً مطلقاً فوق كل خلقه، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل نسبة الولد أو الشريك إليه، والتأكيد على طلاقة قدرته التي لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها عائق؛ وترسيخ عقيدة البعث، والحساب، والجنة، والنار، وإثبات وحدة رسالة السماء التي أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترة من الرسل، وسماها باسم (الإسلام)، والدعوة إلى الاجتهاد في القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بحسن عمارتها، وإقامة عدل الله فيها، وإشاعة الأمن والفضيلة في أرجائها، والتذكير بالآخرة والتحذير من أهوالها. . .!!

ولتأكيد هذه المعاني تعرض سورة «مريم» لجوانب من القصص المتعلق بعدد من أنبياء الله، كما تعرض لمصارع مكذبيهم في الدنيا من الكفار والمشركين، ولمصيرهم الأسود في الآخرة. . .!!

وتبدأ سورة «مريم» بخمسة من الحروف المقطعة، وهي (كٓهيعٓصٓ)، وقد وردت بهذة الصيغة مرة واحدة في القرآن الكريم

كله. وهذة الفواتح الهجائية، أو الحروف المقطعة تتكون من أربعة عشر حرفاً، جمعت في أربع عشرة صيغة، ورد كل منها مرة واحدة إلا أربعاً منها هي: (الٓمٓ)، وقد تكررت ست مرات في القرآن الكريم، (الٓر)، وقد تكررت خمس مرات، (طسٓمٓ)، وقد تكررت مرتين، و(حمٓ)، وقد تكررت بمفردها ست مرات، وتكررت مرة سابعة في الصيغة الخماسية (حمٓ* عٓسٓقٓ)، وبذلك يكون مجموع الصيغ المكررة تسع عشرة، ومجموع الصيغ غير المكررة عشرة صيغ، وتضم هذه الفواتح الهجائية أسماء نصف حروف الهجاء الثمانية والعشرين، وقد استفتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم (في أغلب الآراء) وسبع وعشرين (في رأي آخر).

وهذه الفواتح الهجائية هي من أسرار القرآن العظيم، التي توقف عن الخوض فيها أعداد من علماء المسلمين، مكتفين بتفويض الأمر فيها إلى الله ﷻ، ورأى عدد آخر ضرورة الاجتهاد في تفسيرها وفهم دلالاتها ـ وإن لم يصلوا بعد إلى إجماع في ذلك ـ، فمنهم من رأى فيها رموزاً إلى كلمات أو معانٍ، أو أعداد معينة، أو أسماء للسور التي وردت في أوائلها؛ ومنهم من رأى فيها وسيلة قرع لأسماع وقلوب القارئين للقرآن أو المستمعين إليه، حتى يتهيأوا لتلقي كلام الله؛ ومنهم من رأى فيها معجزة لرسول الله ﷺ من حيث نطقه بأسماء الحروف، وهو أمي ـ والأمي ينطق بأصوات الحروف دون معرفة أسمائها ـ؛ ومنهم من رأى فيها تنبيهاً عن إعجاز القرآن الكريم الذي صيغ من جنس تلك الحروف الهجائية التي يتكلم بها العرب، وقد عجزوا ـ ولا يزالون عاجزين ـ عن الإتيان بشيء من مثله، وقد يكون فيها كل ذلك، وغيره مما لايعلمه إلا الله ـ تعالى ـ؛ هذا وقد جمع عدد من المفسرين هذه الحروف في مجموعات من الجمل من أشهرها: (نص حكيم قاطع له سر).

وبعد هذا الاستهلال المميز استعرضت السورة الكريمة ضراعة نبي الله زكريا ﵇ إلى الله ـ تعالى ـ، خفية، أن يهبه ذرية صالحة، وقد بلغ منه الكبر مبلغاً، وكانت ٱمرأته عاقراً، وكيف استجاب الله لدعائه، ووهبه يحيى نبيًّا، وسيداً، وحصوراً، وكانت ولادته من أم عاقر، وأب طاعن في السن معجزة ناطقة بطلاقة القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود.

ثم انتقلت السورة إلى قصة السيدة مريم البتول ـ عليها رضوان الله ـ، وحملها دون أن يمسها بشر، ووضعها لنبي الله عيسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ؛ وإنطاق الله ـ تعالى ـ لهذا الوليد المبارك، وهو في المهد، وما رافق هذه المعجزات من مشاهد وأحداث تؤكد عبودية المسيح لله الخالق ﷻ، وذلك بنطقه المدون في سورة مريم بالنص التالي:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (مريم: 30 ـ 33).

وتستمر الآيات مؤكدة اختلاف كل من اليهود والنصارى حول شخص المسيح ـ على نبينا وعليه السلام ـ، وانحراف غالبية أتباعه عن منهجه، وانقسامهم إلى العديد من الفرق؛ وانغماسهم في بحور من الضلال المبين، ولذلك تتهددهم الآيات بيوم القيامة ومشاهده المفزعة كما تؤكد تنزيه الله ـ تعالى ـ عن الولد، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

(مريم: 34 ـ 40).

وبعد ذلك تعرض سورة «مريم» لجانب من قصة نبي الله إبراهيم ـ على نبينا وعليه السلام ـ وحواره مع أبيه، وثباته على الحق الذي شرح الله صدره له، وإكرام الله ـ تعالى ـ له بذرية صالحة من الأنبياء على الرغم من كبر سنه؛ وأتبعت ذلك بالحديث عن سلسلة من أنبياء الله ـ على نبينا وعليهم من الله السلام ـ، ومنهم موسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وجميعهم من ذرية آدم عليه السلام، ومنهم من هو ممن حملهم الله ـ تعالى ـ مع نوح، ومنهم من هو من ذرية كل من إبراهيم، ويعقوب عليهما السلام، وممن هدى الله واجتبى، وقد استغرق الحديث عن هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء ثلثي سورة «مريم» تقريباً.

وقد ألمحت السورة الكريمة إلى انحراف الذين جاءوا من بعد هذه السلسلة الصالحة، فحادوا عن منهج الله، وفيهم تقرأ الآيات:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ (مريم: 59، 60).

واستعرضت السورة جانباً من وصف الجنة؛ ثم انتقلت إلى تأكيد حقيقة أن الملائكة لا تتنزل إلا بأمر الله، وتوصي الرسول الخاتم ﷺ ومن ثم توصي أتباعه بالاصطبار على

عبادة الله وجعلها محوراً للحياة، فتقول:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

(مريم: 64، 65).

وتعرج السورة الكريمة إلى إنكار الكثيرين لحقيقة البعث، وتذكرهم بخلقهم الأول من العدم، وتهددهم بحشرهم جثيًّا على ركبهم حول جهنم، وإلقائهم جثيًّا فيها، ونجاة المتقين من هذا المشهد الرهيب.

وتشير سورة «مريم» إلى تفاخر الكفار والمشركين في هذه الدنيا بشيء من حطامها الفاني، ومتاعها الزائل، وتستنكر تعاليهم على المسلمين، وتعييرهم لهم بفقرهم، وترد عليهم بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

(مريم: 75).

وتذكّر السورة الكريمة بالهالكين من الأمم السابقة؛ وبأن الله - تعالى - يمدّ للضالين في غيّهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، ويزيد الذين اهتدوا هدى، وأنه لا يبقى من هذه الحياة الدنيا إلا العمل الصالح.

وتستعرض السورة مواقف بعض الكفار والمشركين في استعلائهم على الحق وأهله، وصلفهم في التعامل مع الله ومع خلقه، وتطالب الآيات رسول الله ﷺ أن يصبر على أذاهم وبألا يعجل عليهم، لأن حساب الله ينتظرهم في يوم يصفه الحق - تبارك وتعالى - بقوله:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

(مريم: 85، 86).

وعاودت سورة «مريم» الاستنكار الشديد من قبل الله - تعالى - ومن الكون كله لادعاءات المبطلين نسبة الولد زوراً إلى الله تعالى، وهو - سبحانه وتعالى - المنزه عن هذا النقص، المتصف بكل صفات الكمال المطلق، وفي ذلك نزلت الآيات بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (مريم: 88 - 92).

وتختتم السورة الكريمة بالقرار الإلهي:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ (مريم: 96).

وبأن القرآن الكريم قد يسره ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على لسان هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً لدًا.

وتعاود سورة «مريم» التذكير في آخر آياتها بالأمم البائدة التي أهلكها الله ـ تعالى ـ عقاباً على كفرها، وتسأل رسول الله ﷺ: هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم همساً؟ كما توجه السؤال إلى كل الخلق لعلهم يعتبرون، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾ (مريم: 98).

والحقائق التاريخية والعلمية التي أوردتها سورة «مريم» أكثر من أن تحصى في مقال واحد، ولذا فسوف أقصر الحديث هنا على آية واحدة هي الآية رقم (65)، التي جاءت فيها الإشارة إلى (السمٰوات والأرض، وما بينهما)، وقبل تبيان الدلالة العلمية التي يمكن استخلاصها من تلك الآية المباركة لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالتها.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ (مريم: 65).

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: . . . «وقوله ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لامعقب لحكمه، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ قال ابن عباس: «هل تعلم للربّ مثلاً أو شبيهاً». وقال عكرمة، عن ابن عباس: «ليس أحد يسمى الرحمٰن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه».

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «وهو ﴿رَّبُّ﴾ مالك ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ أي: اصبر عليها ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ أي مسمى بذلك؟ لا».

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعه ـ ما مختصره: «رب السمٰوات والأرض وما بينهما فلا ربوبية لغيره، ولا شرك معه في هذا الكون الكبير. ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ . . . اعبده واصطبر على تكاليف العبادة، وهي تكاليف الارتقاء إلى أفق

المثول بين يدي المعبود، والثبات في هذا المرتقى العالي. اعبده واحشد نفسك وعبئ طاقتك للقاء والتلقي في ذلك الأفق العلوي... إنها مشقة، مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل مشاغل، ومن كل هاتف، ومن كل التفات... وإنها مع المشقة للذة لايعرفها إلا من ذاقها، ولكنها لا تنال إلا بتلك المشقة، وبالتجرد لها، والاستغراق فيها، والتحفز لها بكل جارحة وخالجة، فهي لاتفشي سرها، ولاتمنح عطرها إلا لمن يتجرد لها، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعاً».

«﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾... والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر؛ إنما هي كل نشاط: كل حركة، كل خالجة، كل نية، كل اتجاه، وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا كله إلى الله وحده دون سواه، مشقة تحتاج إلى الاصطبار ليتوجه القلب في كل نشاط من أنشطة الأرض إلى السماء، خالصاً من أوشاب الأرض، وأوهاق الضرورات، وشهوات النفس، ومواضعات الحياة».

«إنه منهج حياة كامل، يعيش الإنسان وفقه، وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله، فيرتفع في نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضيء. وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة. ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾.. فهو الواحد الذي يعبد في هذا الوجود الذي تتجه إليه الفطر والقلوب.. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؟ هل تعرف له نظيراً؟ تعالى الله عن السميّ وعن النظير»...

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ نظيراً أو شبيهاً يستحق العبادة لربوبيته وألوهيته، وكمال تنزهه عن النقائص، واتصافه بصفاته الجليلة».

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «فهو سبحانه الخالق المالك للسموات والأرض وما بينهما، والمدبر لشؤونهما، والمستحق وحده للعبادة، فاعبده أيها المخاطب، وثابر على عبادته صابراً مطمئناً، فهو سبحانه المستحق وحده للعبادة، وليس له نظير يستحق العبادة، أو يسمى باسم من أسمائه».

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ﴾ أي هو رب العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً؟.

السمٰوات والأرض وما بينهما في القرآن الكريم

ورد تعبير (السمٰوات والأرض وما بينهما) في ثمانية عشر موضعاً من القرآن الكريم، كما جاء تعبير (السماء والأرض وما بينهما) في موضعين من كتاب الله، وبذلك يكون مجموع مرات ورود هذه الإشارة العلمية الدقيقة عشرين مرة على النحو التالي:

(1) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ (المائدة: 17).

(2) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (المائدة: 18).

(3) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾. (الحجر: 85).

(4) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾. (مريم: 65).

(5) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾. (طه: 6).

(6) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾. (الأنبياء: 16).

(7) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾. (الفرقان: 59).

(8) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾. (الشعراء: 24).

(9) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾. (الروم: 8).

(10) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾. (السجدة: 4).

(11) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾. (الصافات: 5).

(12) ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾. (صٓ: 10).

(13) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾. (صٓ: 27).

(14) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ (صٓ: 66).

(15) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾. (الزخرف: 85).

(16) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾. (الدخان: 7).

(17) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (الدخان: 38).

(18) ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾. (الأحقاف: 3).

(19) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾. (قٓ: 38).

(20) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.
(النبإ: 37).

وقد احتار المفسرون في شرح دلالة التعبيرين القرآنيين: (السمٰوات والأرض وما بينهما)، و (السماء والأرض وما بينهما)؛ فمنهم من قال: إنها دلالة على أن جميع الموجودات هي من خلق الله ـ تعالى ـ، وملك يمينه، وتحت قهره، وسلطانه؛ لأن الله تعالى هو المالك لكل شيء، ومنهم من قال: إن هذا النص يشير إلى سائر أجرام السماء من نجوم وكواكب وأقمار وأتربة كونية، وغازات وطاقات يتألف الكون منها، ومنهم من مر بها في صمت ودون أدنى تعليق، ولكن هناك آيتان من آيات القرآن الحكيم تلقيان الضوء على دلالة هذا النص القرآني المعجز (السمٰوات والأرض وما بينهما)، أو (السماء والأرض وما بينهما) في الأولى منهما يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾. (البقرة: 164).

ومن هذه الآية الكريمة يتضح أن السحاب هو مما بين السماء والأرض.

وفي الآية الثانية يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾. (الطلاق: 12).

ومن هذه الآية الكريمة يفهم أن هناك مسافات بينية تفصل كل سماء عن التي تليها، كما تفصل كل أرض عن التي تليها، وتفصل كلًّا من السماء الدنيا، وباقي السمٰوات السبع عن الأرض، ولايتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض في مركز السمٰوات.

ويروى عن رسول الله ﷺ قوله: «**سبحان الله عدد ما خلق في السماء، سبحان الله عدد ما خلق في الأرض، سبحان الله عدد ما بين ذلك، سبحان الله عدد ما هو خالق**»[1]...

وقوله ـ ﷺ ـ: «**أطت السماء، وحقّ لها أن تئط...، ما من موضع أربع أصابع إلا وفيها ملك قائم أو راكع أو ساجد يعبد ربه**»[2]...

ما بين السمٰوات والأرض في العلوم المكتسبة

تجمع العلوم المكتسبة على أن كلًّا من المادة والطاقة يملأ فسحة الكون بتركيز مختلف، لأن خلق كل من المكان والزمان؛ والمادة والطاقة قد تزامن مع عملية الانفجار العظيم (فتق الرتق)، فلا يمكن تصور مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، كما لايمكن تصور مكان وزمان بغير مادة وطاقة. فكل من المادة والطاقة يتكثف في مختلف أجرام السماء بتركيز مختلف، كما يوجد بكثافات قليلة ومتباينة بين كل جرم والآخر، وتحرك المادة والطاقة بين السماء الدنيا وأجرامها من الأمور الثابتة علميًّا التي أكدتها الدراسات الفلكية، ومن أمثلتها: تخلق النجوم من الدخان الكوني، وعودتها إليه بانفجارها في دورة حياة النجوم، ومن أمثلتها كذلك: انتثار الكواكب وعودة مادتها إلى الغبار الكوني أو إلى الشهب والنيازك التي إما أن تحترق أو تتهاوى على عدد من أجرام السماء.

وقد فصلنا في مقال سابق تركيب كل نطاق من نطق الغلاف الغازي للأرض، وتناقص تركيز كل من المادة والطاقة بالارتفاع فيه حتى يتداخل في تركيب الجزء الأسفل من السماء الدنيا مكوناً خليطاً من مادتهما لعله المقصود بالبينية الفاصلة بين الأرض والسماء الدنيا؛ وهذة المادة الفاصلة بين السماء والأرض تكونت باختلاط ما تصاعد من فوهات البراكينَ مع ما كان حول الأرض من مادة ما بين الكواكب، فتكون الخليط المعروف باسم الغلاف الغازي للأرض وهو خليط مكون من مادة الأرض، ومادة السماء الدنيا، فحق له أن يفصل بين كل منهما بوصف القرآن الكريم له بصفة البينية **(السماء والأرض وما بينهما)**.

وأول نطق الغلاف الغازي للأرض هو **نطاق الرجع** أو نطاق التغيرات الجوية أو نطاق

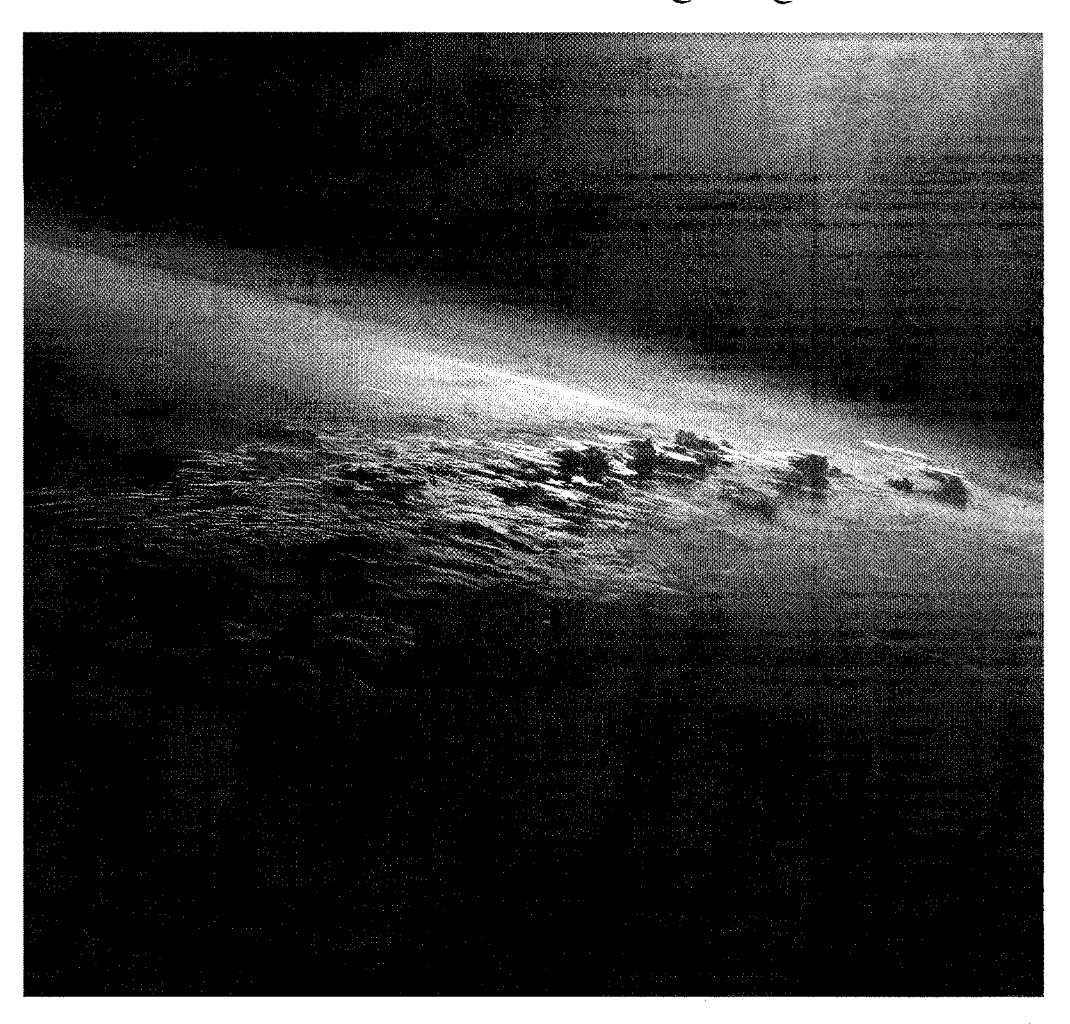
---

(1) أخرجه مسلم (الحديث: 780).

(2) تقدم تخريجه.

الطقس، ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع نحو 17 كيلومتراً فوق خط الاستواء (ويتناقص هذا السمك إلى ما بين 6، 8 كيلومترات فوق القطبين؛ ويختلف فوق مناطق العروض الوسطى باختلاف ظروفها الجوية فينكمش إلى ما دون السبعة كيلومترات في مناطق الضغط المنخفض ويتمدد إلى نحو 13 كيلومتراً في مناطق الضغط المرتفع).

ويضم نطاق الرجع نحو ثلث كتلة الغلاف الغازي للأرض (66%)، وتتناقص درجة الحرارة فيه باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط



صورة للأرض ويبدو فيها جَلياً نطاق الرجع الذي تتجمع فيه السحب ويمثل فاصلاً حقيقياً بين الأرض والسماء

الاستواء، وذلك في قمة هذا النطاق المعروفة باسم **مستوى الركود الجوي**، ويتناقص عنده الضغط إلى نحو عشر قيمته عند سطح البحر.

وفي هذا النطاق يتكثف بخار الماء الصاعد من الأرض مكوناً السحب، ومنها يهطل كل من المطر والبرد والثلج بإذن الله، وتحدث ظواهر الرعد والبرق، والعواصف، والدوامات وتيارات الحمل الهوائية، وغير ذلك من حركات الرياح، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: . . . ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. **(البقرة: 164)**.

وعلى ذلك فإن نطاق الرجع ومن فوقه بقية نطق الغلاف الغازي للأرض حتى حدود النطاق المغناطيسي يمثل فاصلاً حقيقيًّا بين الأرض والسماء الدنيا، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه **(البينية)** من قبل ألف وأربعمائة سنة يعتبر ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله، لم يصل إليها علم البشر إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

الأهمية العلمية للتعبير القرآني (السمٰوات والأرض وما بينهما)

إضافة إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة في عشرين موضعاً منه إلى (ما بين السماء والأرض) أو (ما بين السمٰوات والأرض)، وهو سبق علمي حقيقي لم تدركه العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، فإن هذه الإشارة المعجزة تحوي من الحقائق العلمية ما يفوق هذا الكشف العلمي أهمية وجدارة، وذلك لأن أول ما يمكن استنتاجه من هذا النص القرآني هو **توسط الأرض للسماء الدنيا وللسمٰوات السبع كلها**، لأنها متطابقة يغلف الخارج منها الداخل، وهي حقيقة لايمكن للإنسان أن يصل إليها لأنه على الرغم من تقدمه العلمي والتقني المذهل فهو محدود بحدود حسه وعقله، وبحدود مكانه؛ أي وجوده على كوكب الأرض، وبحدود زمانه؛ أي عمره؛ ومن هنا فإن الإنسان لايستطيع أن يدرك من الكون إلا جزءاً صغيراً من السماء الدنيا، وهذا الجزء الصغير مليء بالغيوب من مثل الثقوب السود، المادة الداكنة، الكتل المفقودة، وغيرها مما يرغم علماء الفلك والفيزياء الفلكية على الاعتراف بأن أقصى ما يمكن إدراكه في الجزء المشاهد من الكون لا يتعدى عشرة بالمائة من مجموع المادة والطاقة الموجودة فيه.

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يؤكدان توسط الأرض للكون

• إن مقابلة القرآن الكريم (في مئات من آياته) للأرض مع السماء أو مع السمٰوات على ضآلة أبعاد الأرض بالنسبة إلى أبعاد السمٰوات يؤكد أهمية موقع الأرض من الكون.

• إن ذكر القرآن الكريم للنصين (السمٰوات والأرض وما بينهما)، و (السماء والأرض وما بينهما) في عشرين موضعاً منه يؤكد مركزية الأرض من السماء الدنيا، ومن مجموع السمٰوات السبع؛ وذلك لأن هذه البينية لايمكن أن تتم لو لم تكن الأرض في مركز السمٰوات السبع.

• ويؤكد ذلك جمع القرآن الكريم لأقطار السمٰوات والأرض في وصف واحد كما جاء في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾. **(الرحمٰن: 33)**.

وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه، مروراً بمركزه، فإذا توحدت أقطار السمٰوات والأرض؛ فمعنى ذلك أن الأرض لا بد وأن تكون في مركز الكون.

• ويؤكد ماسبق حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه مجاهد عنه بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»[1] أي في وضع متوسط منها؛ لأن الوصف (مناء) معناه قصده وعلى حذاه.

ومن أقوال رسول الله ﷺ: «**البيت المعمور منا مكة**»[2]؛ أي في مقابلتها وبمحاذاتها.

ويروى كل من قتادة والسدي عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه مسجد في السماء السابعة بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم**»[3].

---

(1) رواه ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (4/ 368)

(2) رواه ابن الجوزي في غريب الحديث (2/ 376)

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (الحديث: 27/ 17)

• ويزيد ذلك تأكيداً حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «**كانت الكعبة خشعة على الماء، فدحيت منها الأرض**»[1]؛ والخشعة هي أكمة متواضعة.

وتأتي أبحاث الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعه ـ لتؤكد توسط مكة لليابسة، فتبرز جانباً من جوانب التكريم المادي الملموس لهذا المكان الطيب الطاهر الذي فضله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على كل أماكن الأرض فجعل فيه كعبته المشرفة أول بيت عبد الله فيه على الأرض، وجعلها قبلة للمصلين حيثما كانوا، وللحج والعمرة للقادرين من المسلمين، ولو لمرة واحدة في العمر ليتعرضوا لبركات هذا المكان الذي جعل الله ﷻ الصلاة فيه بمائة ألف صلاة كما أخبرنا الحبيب المصطفى ﷺ[2].

ويأتي العلم في أوج عطائه ليؤكد لنا توسط مكة ليابسة الأرض، وتأتي أحاديث رسول الله ﷺ مؤكدة قيام موقع الكعبة المشرفة الذي هو أصل اليابسة على حيال البيت المعمور في السماء السابعة، ويأتي القرآن الكريم مؤكداً توسط الأرض للسمٰوات السبع حتى تبقى الكعبة المشرفة مركز الكون بأسره، وهي حقيقة لايمكن للعلوم المكتسبة أن تصل إليها أبداً. . .!!

فسبحان الذي خلق الأكوان وأنشأ نظمها بعلمه وجعل الكعبة مركزاً لكونه. . .!!

وسبحان الذي أنزل القرآن، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه فحفظ بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظ حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وآية آية، وسورة سورة، بنفس الترتيب الذي جمع به على عهد رسول الله ﷺ، والموجود في بلايين المصاحف والأسطوانات والأشرطة الممغنطة، والذي نقل لنا متواتراً عبر بلايين الصدور ولايزال يحفظ في البلايين منها، وذلك خلال الألف والأربعمائة سنة الماضية، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. . .!

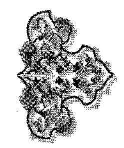
فالحمد لله منزل القرآن الكريم، والصلاة والسلام على الرسول الخاتم الذي تلقاه، ونقله إلينا بأمانة، وعاش به وله، فأقام أعظم دولة عرفها التاريخ، ولعل الله تعالى يعيننا على أن نعيد للقرآن الكريم دولته وسط الفوضى العالمية التي اجتاحت الأرض كلها في غيبة الاحتكام إلى شريعة الله. . .!! ووسط السقوط بين مخالب طواغيت الأرض. . .!!! وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

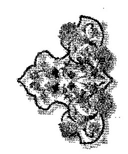
(1) رواه الزمخشري في غريب الحديث (1/ 286).

(2) أخرجه ابن ماجه في السنن (الحديث: 1406)، ورواه الفاكهي في أخبار مكة (الحديث: 1183)

بسم الله الرحمن الرحيم



(29) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾



(طه: 6)



هذه الآية الكريمة جاءت في مقدمات سورة «طه» وهي سورة مكية، وعدد آياتها (135) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم تكريماً لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ لأن (طه) اسم من أسمائه الشريفة بدليل توجيه الخطاب إليه مباشرة بعد هذا النداء، وإن اعتبره نفر من المفسرين من المقطعات الهجائية التي استهل بها عدد من سور القرآن الكريم.

والخطاب من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فيه من التكريم، والتشريف ما فيه، خاصة أنه قد جاء تطييباً لخاطره، وتسرية عنه، وتخفيفاً لثقل ما كان يلقاه من كفار قريش ومشركيها من إنكار لنبوته، وتكذيب لرسالته، وصد لدعوته، وتجريح لشخصه الكريم وهو الذي اشتهر بينهم بالصادق الأمين.

والسورة من بدايتها إلى نهايتها خطاب موجه من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ، وفي هذا الخطاب الإلهي تأكيد لنبوته، وتأييد لرسالته، وتهوين للأمر عليه بحصر رسالته في البلاغ عن الله ـ تعالى ـ، والإنذار والتبشير، وترك الخيار للناس، استجاب من استجاب، وأبى من أبى لأن أمرهم بعد ذلك متروك لله وحده... ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. (البقرة: 284)

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من ركائز العقيدة الإسلامية، وفي مقدمتها الإيمان بالله، وتوحيده ﷻ وتنزيهه عن كل وصف لايليق بجلاله، والإيمان بملائكة الله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبحقيقة الوحي، ونبوة الأنبياء والمرسلين، وحتمية البعث

والنشور، والحساب والجزاء بعد العرض الأكبر أمام الله ـ تعالى ـ، ولذلك أوردت السورة الكريمة بعض مشاهد القيامة، وأحداث يوم الحشر حتى يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار.

كذلك عرضت السورة الكريمة لقصة موسى وهارون عليهما السلام بتفاصيلها، ومن ذلك موقفهما مع فرعون مصر، وما دار بينهما من حوارات وجدل انتهى بتحدي السحرة وهزيمتهم، ثم خضوعهم لأمر الله وإيمانهم به سبحانه وتعالى وبما جاء به موسى، وغير ذلك من تفاصيل لموقف المناجاة، والتكليف بالرسالة، وتمتدح السورة القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى قرآناً عربياً، وصرّف فيه من الوعيد لعل الخلق يتقون أو يحدث لهم القرآن عظة واعتباراً.

وفي عجالة عرضت هذه السورة الكريمة ـ أيضاً ـ لقصة أبينا آدم عليه السلام الذي غفر الله سبحانه وتعالى له خطيئته، وهداه كما هدى ذريته بإرسال الأنبياء والمرسلين إليهم مبشرين ومنذرين، وترك الخيار للناس؛ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل.

وختمت سورة «طه» كما بدئت بخطاب إلى رسول الله وخاتم النبيين ﷺ أن يصبر على ما يقول الكفار والمشركون، وأن يسبح بحمد الله قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن آناء الليل وأطراف النهار، وأن يأمر أهله بالصلاة وأن يصطبر عليها، وأن ينفض يده من الكفار والمشركين بعد أن يخبرهم بقرار رب العالمين الذي يقول فيه: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾. (طه: 135).

والخطاب كما كان موجهاً إلى كفار ومشركي قريش هو موجه إلى الكفار والمشركين، وإلى الظلمة المتجبرين على الخلق في كل زمان وعصر إلى قيام الساعة.. خاصة في زمن الفتن الذي يعيشه أهل عصرنا في هذه الأيام النحسات من تاريخ البشرية على هذه الأرض..!!

من ركائز العقيدة في سورة طه

(1) إن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ الذي ذكرته السورة الكريمة باسم (طه)، وأنزلت السورة لتكون تذكرة لمن يخشى.

(2) إن الله ـ تعالى ـ هو خالق الأرض والسمٰوات العلى الذي أعطى كل شيء خلقه

ثم هدى، وأنه ﷻ هو الرحمٰن على العرش استوى (استواء يليق بجلاله) وأن من صفاته ﷻ أنه لايضل ولا ينسى.

(3) وأن له ﷻ ما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

(4) وأنه ﷻ يعلم السر وأخفى، وأنه وسع كل شيء علماً، وأنه يعلم مابين أيدي خلقه وما خلفهم، ولايحيطون به علماً، وأنه لا إلٰه إلا هو له الأسماء الحسنى.

(5) وأنه ـ تعالى ـ خلق الناس من الأرض، وفيها يعيدهم، ومنها يخرجهم تارة أُخرى.

(6) أن عبادة الله ـ تعالى ـ بما أمر، وإقامة الصلاة لذكره جلت قدرته هي من حقوق الله ﷻ على خلقه، ومن هنا فلا يجوز التقصير فيها أبداً، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾. **(طه: 124 ـ 127).**

(7) أن الساعة آتية لا محالة، يكاد الله ـ تعالى ـ يخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، وأن من لايؤمن بها كافر هالك، وأن العذاب على من كذب وتولى، وأنه قد خاب من افترى.

(8) أنـــه ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾. **(طه: 74 ـ 76).**

(9) وأن من يحلل عليه غضب الله فقد هوى، وأن الله ـ تعالى ـ ﴿لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾. **(طه: 82).**

(10) أن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأن السحر من الكبائر.

﴿... وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ (طه: 69)، وأنه من أبشع أنواع الظلم.. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾. **(طه: 111).**

(11) أنه لا يجوز للمسلم أن يكشف عورات إنسان آخر، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾. **(طه: 131).**

من الإشارات الكونية في سورة طه

(1) إن الله ـ تعالى ـ هو خالق الأرض والسموات العلى؛ بمعنى أنها كلها مخلوقة، وليست أزلية ولا أبدية، بل لها بداية يحاول العلم التجريبي حسابها، وكل ما له بداية لا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية (طه: الآية4).

(2) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾. (طه: 6).

في الآية الكريمة إشارة إلى مركزية الأرض من الكون، وإلى وجود حياة مزدهرة في قطاع التربة، وهي حقائق لم تكن معروفة لأحد من الخلق غير رسول الله ﷺ في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وتظل مجهولة لغالبية الناس في زمن تفجر المعارف العلمية الذي نعيشه اليوم.

(3) ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾. (طه: 7).

وهي إشارة إلى ثلاث مراتب من التعبير وهي: الجهر الذي يعلمه صاحبه، ويعلمه من سمعه، ويعلمه الله ـ تعالى ـ، والسر هو ما حدث الإنسان به غيره في خفاء، والذي يعلمه صاحبه ومن أسر به إليه ويعلمه الله، ويجهله من لم يسمع به، والأخفى هو الأخفى من السر، وقد يشير إلى الخواطر النفسية التي لا يحدث المرء بها غيره أو ما يعرف باسم حديث النفس، أو هو ما استقر في العقل الباطن ولا يدري به صاحبه ولكن الله ـ تعالى ـ يعلمه لأنه ﷻ علام الغيوب.

(4) ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾. (طه: 50).

وهي إشارة إلى حقيقة الخلق وربوبية الخالق ﷻ وإلى السنن الحاكمة لكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون وهي كلها من أمر الله وهدايته.

(5) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾(طه: 53 ـ 55).

في هذه الآيات الكريمة إشارات إلى تمهيد الأرض، وشق السبل فيها، وإنزال الماء من السماء في دورته حول الأرض، وإخراج مئات الآلاف من أنواع النبات المختلفة، وكلها في زوجية واضحة، وهي سنّة عمّمها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على جميع خلقه حتى يبقى متفرداً بالوحدانية المطلقة دون سواه ﷻ.

ثم تأمر الآيات الإنسان بالأكل مما خلق له الله ـ تعالى ـ من هذه النباتات، ويرعى فيها أنعامه، وأن يتأملها بنظرة العاقل البصير؛ لأن في كل منها آيات لأولي النهي.

وتؤكد الآيات خلق الخلق من الأرض، ودفنهم فيها، وحتمية إخراجهم منها.

(6) الإشارة إلى معجزة شق البحر لنبي الله موسى ﷺ ولمن آمن معه. والمعجزات خوارق للسنن، وبالتالي لا تستطيع العلوم المكتسبة تفسيرها، ولكن من رحمة الله بخلقه أن يترك لهم عدداً من الآثار الحسية المترتبة على وقوع المعجزة حتى يمكنهم التسليم بوقوعها، وليتنا نهتم بتحقيق تلك الشواهد الحسية وبإبرازها للناس على هيئة ورقة دعوية مقنعة في زمن العلم الذي نعيشه.

(7) وصف مصير الجبال في الآخرة وصفاً علمياً دقيقاً، وإن كنا نؤمن بأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تماماً، إلا أنه من رحمة الله بنا أن يبقي لنا من الشواهد الحسية في صخور الأرض، وفي صفحة السماء مايؤكد إمكانية حدوث ماوصفه الله ـ تعالى ـ في الآخرة، وفي وصف نهاية الجبال في الآخرة يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة (طه) ما نصه:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾. **(طه: 105 ـ 107).**

ونحن نرى في حياتنا الدنيا أن الجبال تتكون بعمليات الطي (العوج) أو عمليات التصدع وما لها من صفات لرفع سطح الأرض وخفضه (الأمت)، وقد تشترك العمليتان في تشكيل العديد من جبال الأرض اليوم، وهي حقائق لم تدرك إلا بعد تطور المعارف العلمية في مجال علوم الأرض عبر القرنين الماضيين، وورودها في كتاب أنزل من قبل أربعة عشر قرناً، على نبي أمي ﷺ، وفي أُمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمما يجزم بأن القرآن الكريم لايمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد ﷻ بحفظه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، فحفظ، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ ولذلك بقي محتفظاً بجلال الربوبية الذي يتلألأ بين آياته وكلماته، وبعدد من صفاته التي تشهد بإعجازه ومن أوضحها الآيات الكونية في هذا الكتاب العزيز الذي قال عنه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾. **(الحجر: 9)**

وكل آية من هذه الآيات الكونية التي أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة (طه)

تحتاج إلى معالجة خاصة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثانية من القائمة السابقة، التي جاءت في الآية السادسة من سورة (طه)، وقبل البدء في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله - تعالى - :

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ . (طه: 6)

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مامختصره:... «وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ أي الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته، وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه، وإلهه لا إله سواه، وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ قال محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة...

وجاء في تفسير الجلالين - رحم الله كاتبيه - ما نصه: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ هو التراب الندي، والمراد: الأرضون السبع لأنها تحته..

• وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه:

.. «ومع الهيمنة والاستعلاء الملك والإحاطة: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾.. والمشاهد الكونية تستخدم في التعبير لإبراز معنى الملك والإحاطة في صورة يدركها التصور البشري.

والأمر أكبر من ذلك جداً. ولله ما في الوجود كله وهو أكبر مما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى..

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - رحم الله كاتبها - ما نصه:

..﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ الثرى: التراب الندي. يقال: ثريت الأرض كرضيت ثرياً فهي ثرية، إذا نديت ولانت بعد الجدوبة واليبس، والمراد: ماوراء الثرى وهو تخوم الأرض إلى نهايتها، وخص بالذكر مع دخوله في قوله: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لزيادة التقرير.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «له وحده سبحانه ملك السمٰوات وما فيها والأرض وما عليها، وملك ما بينهما، وما اختبأ في الأرض من معادن وخيرات.

• وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه:..

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كله: السمٰوات السبع، والأرضون وما بينهما من المخلوقات، وما تحت التراب من معادن ومكنونات، الكل ملكه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه..

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: ما في السمٰوات: (السماء) لغة اسم مشتق من السمو بمعنى الارتفاع والعلو؛ وعلى ذلك فإن سماء كل شيء أعلاه، ولذلك قيل: كل ما علاك فأظلك فهو سماء، والسماء الدنيا هي كل ما يقابل الأرض من الكون؛ ويراد بها ذلك العالم العلوي من حولنا الذي يضم الأجرام السماوية المختلفة الموجودة على هيئات متعددة وما يوجد فيها أو حولها أو ينتج منها أو عنها من مختلف صور الطاقة التي تملأ فسحة الكون بصورة واضحة جلية، أو مستترة خفية.

وقد خلق الله ـ تعالى ـ السماء وهو خالق كل شيء ورفعها بغير عمد نراها، وجعل لها عماراً من الملائكة، ومما لا نعلم من الخلق، وحرسها من كل شيطان مارد، فهي محفوظة بحفظه ـ تعالى ـ إلى أن يرث هذا الكون بما فيه ومن فيه.

أما من الناحية الفلكية فإن علماء الفلك يقدرون الجزء المدرك من الكون المرئي بأكثر من أربعة وعشرين بليوناً من السنين الضوئية (24 بليوناً 9.5 مليون مليون كم = 228 ألف مليون مليون مليون كم)، وهذا كله في السماء الدنيا، وهي دائمة الاتساع بسرعات مذهلة إلى نهاية لايعلمها إلا الله ﷻ وذلك لقوله ـ تعالى ـ:

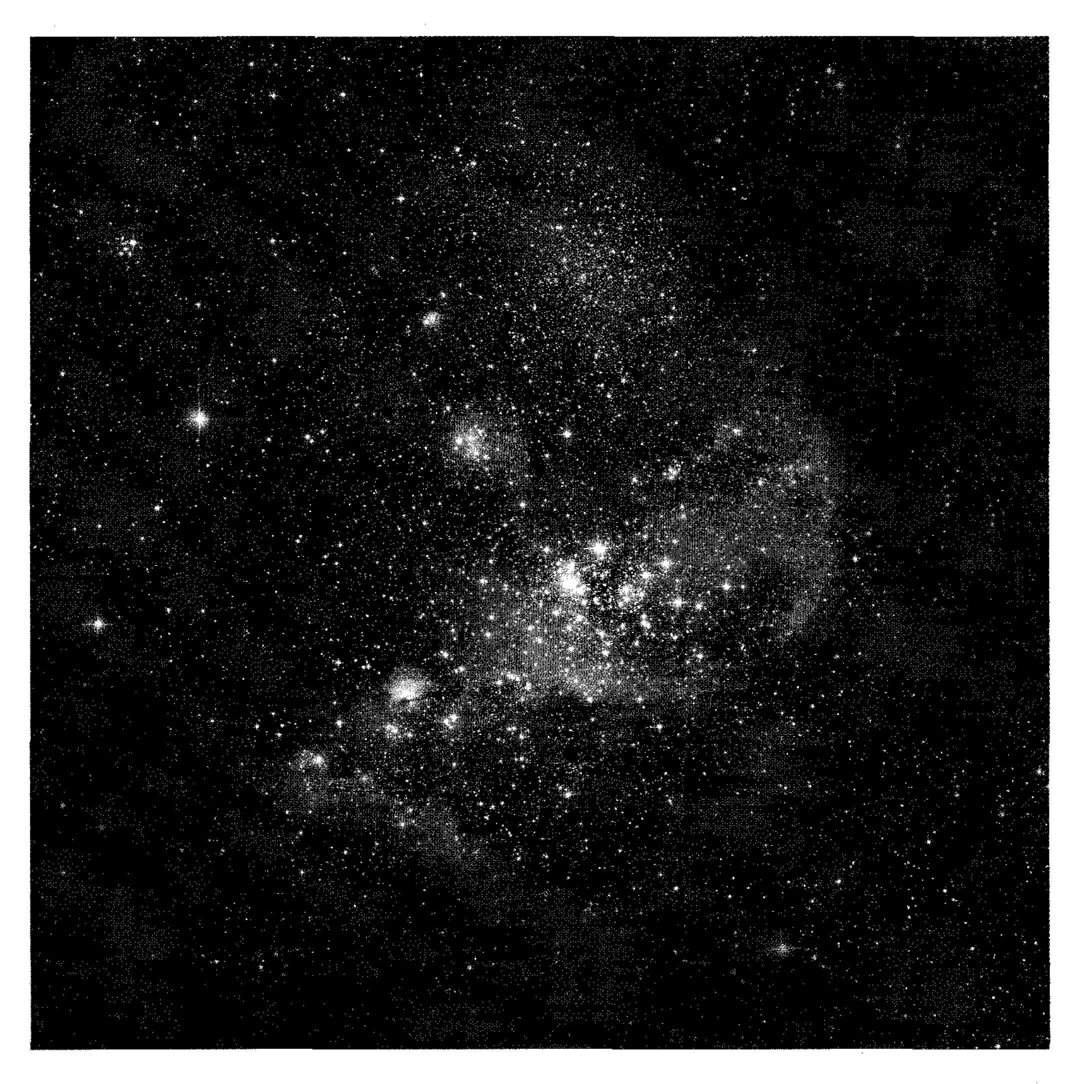
﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾... **(الملك: 5)**.

ولقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ **(الذاريات: 47)**.

وهذا الجزء المدرك من الكون مبني بدقة بالغة، وعلى نمط واحد، يبدأ بتجمعات عدد من الكواكب، والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والشهب، والنيازك حول نجم من النجوم التي تنتظم بملايين الملايين في مجرات، وتنتظم المجرات في مجموعات محلية، ثم في الحشود المجرية، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية، ثم في حشود مجرية عظمى، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية العظمى إلى ما هو أكبر من ذلك في تصاعد إلى نهاية لايعلمها إلا الله ﷻ.

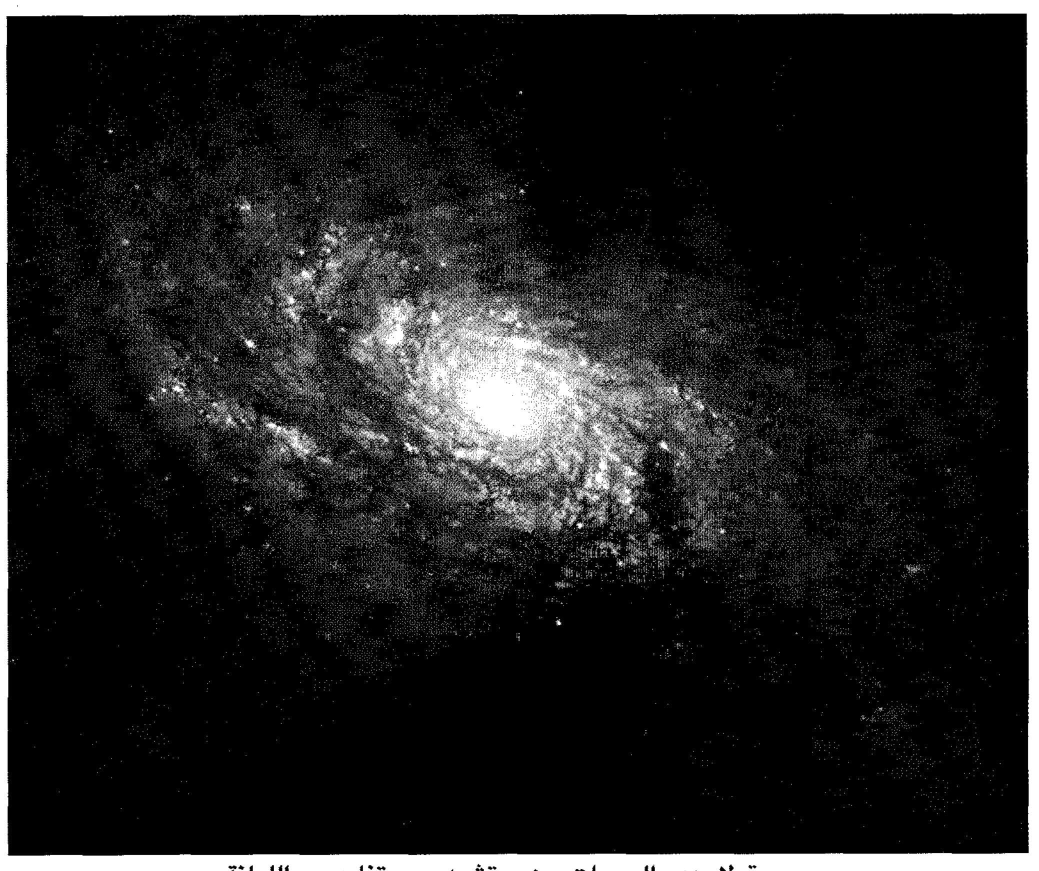
ويحصي العلماء في الجزء المدرك من السماء الدنيا أكثر من مائتي ألف مليون



السحب الدخانية والنجوم هي مما بين السماء والأرض

مجرة، بعضها أكبر كثيراً من مجرتنا (مجرة الطريق اللبني، درب اللبانة، أو سكة التبانة)، والبعض الآخر أصغر قليلاً منها، وبالمجرات أيضاً السدم بمختلف أشكالها وأحجامها، والمادة الداكنة أو المادة الخفية.

وتنتشر المادة بين النجوم، وبين المجرات على هيئة سحب دخانية يغلب على تركيبها غاز الأيدروجين المحمّل بهباءات متناهية الدقة من المواد الصلبة، وتتخلق النجوم من الدخان الكوني في داخل السدم. وللنجوم مراحل حياة من الميلاد والطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة والاحتضار لتعود إلى دخان السماء، ومن مراحل النجوم ما يعرف



صورة لإحدى المجرات وهي تشبه مجرتنا درب اللبانة

باسم النجوم الابتدائية (ومنها النجوم العادية، ومنها العماليق الضخمة)، وعند انفجار النجوم العادية تتحول حسب كتلتها إلى العماليق الحمر أو العماليق الحمر العظام، وبعد ذلك تتحول العماليق الحمر إلى السدم الكوكبية والأقزام البيض، ثم إلى المستعر الأعظم من النوع الأول ويتحول العملاق الأحمر الأعظم إلى المستعر الأعظم من النوع الثاني ثم إلى النجم النيوتروني أو إلى الثقب الأسود حسب الكتلة الابتدائية للنجم.

وهناك أيضاً أشباه النجوم وهي أجسام ضئيلة الكثافة جداً تنتشر على أطراف الجزء المدرك من السماء الدنيا وتصدر موجات راديوية عالية، وإن كان بعضها صامتاً لا يصدر مثل تلك الموجات.

وهذه الأجرام المعروفة لنا في الجزء المدرك من السماء الدنيا لا يعرف أحد من أهل العلم إن كانت معمورة بخلق من خلق الله أم لا، ولكن الآية القرآنية الكريمة التاسعة والعشرين من سورة الشورى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ **(الشورى: 29)**.

وهذة الآية الكريمة تشير إلى وجود خلق في السمٰوات.

والعلوم المكتسبة لا تعرف إلا جزءاً يسيراً من السماء الدنيا، ولولا أن الله ـ تعالى ـ قد أخبرنا في محكم كتابه أنه خلق سبع سمٰوات طباقاً ما كان أمام الإنسان من وسيلة لإدراك ذلك، والسمٰوات السبع وما فيها ومن فيها ملك لله الخالق ﷻ وحده.

ثانياً: وما في الأرض:

يقدر حجم الأرض بمائة وثمانية ملايين كيلومتر مكعب، ومتوسط كثافتها بحوالي 5.25 جم/سم^3، تقدر كتلتها بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن، والأرض بداخلها ست أرضين على النحو التالي:

1 ـ **الأرض الأولى**: وتمثل بقشرة الأرض الصلبة التي نحيا عليها، ويتراوح سمكها بين حوالي 5، 8 كيلومترات تحت المحيطات وبين 30، 40 كيلومتراً في القارات.

2 ـ **الأرض الثانية**: وتمثل بما دون القشرة من الغلاف الصخري للأرض ويتراوح سمكها بين 60، 70 كيلومتراً تحت المحيطات، و80 و90 كيلومتراً تحت القارات.

3 ـ **الأرض الثالثة**: وتمثل بالجزء العلوي من وشاح الأرض والذي يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي وتوجد فيه الصخور في حالة لدنة، شبه منصهرة، عالية الكثافة واللزوجة، ويقدر سمكها بحوالي 280 كيلومتراً (من عمق 120 كم إلى عمق 400 كم).

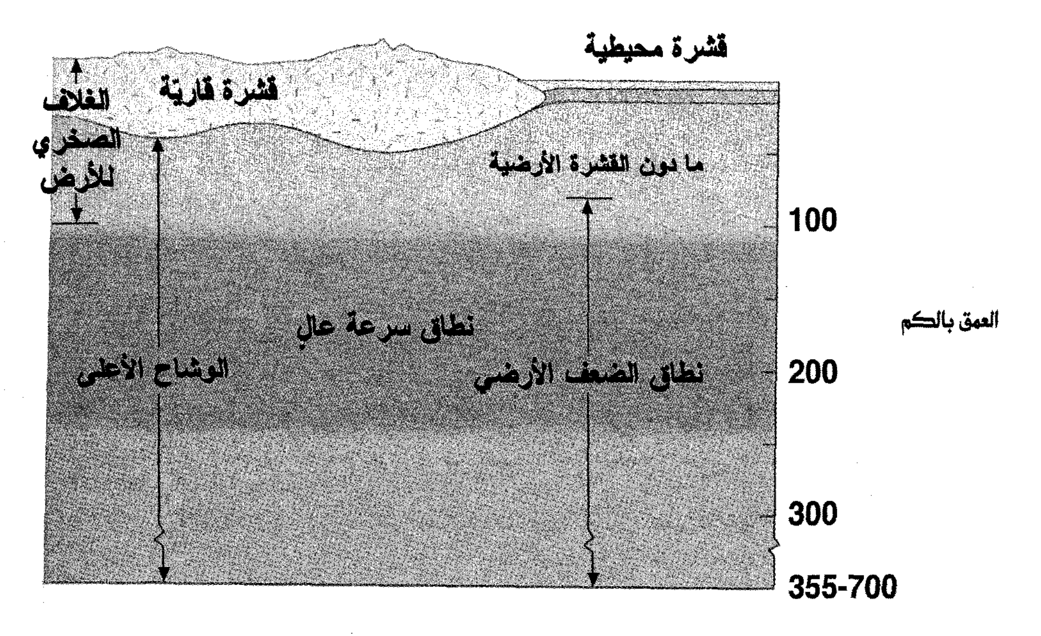
4 ـ **الأرض الرابعة**: وتعرف باسم الجزء الأوسط من وشاح الأرض، وتوجد فيه الصخور في حالة صلبة جامدة، ويقدر سمكها بحوالي 270 كيلومتراً (من عمق 400 كم إلى عمق 670).

5 ـ **الأرض الخامسة**: وتعرف باسم الجزء السفلي من وشاح الأرض، وتوجد فيه الصخور في حالة صلبة جامدة، ويقدر سمكها بحوالي 2215 كيلومتراً (من عمق 670 كم إلى عمق 2885 كم تحت مستوى سطح البحر).

6 ـ **الأرض السادسة**: وتعرف باسم لب الأرض السائل، ويتكون أساساً من الحديد (90%) والنيكل (9%) وقليل من العناصر الخفيفة (1%) والكل في حالة منصهرة، ويبلغ سمك الأرض السادسة حوالي (2270) كيلومتراً (من عمق 2885 كم إلى عمق 5155 كم تحت مستوى سطح البحر).

7 ـ الأرض السابعة: وتعرف باسم لب الأرض الصلب وهو عبارة عن كرة مصمطة من الحديد (90%) والنيكل (9%) وبعض العناصر الخفيفة مثل الكبريت، والفوسفور، والكربون أو السيليكون (1%) ويبلغ نصف قطر هذه النواة حوالي (1216) كيلومتراً.

وعلى ذلك يقدر متوسط نصف قطر الأرض بحوالي 6371 كيلومتراً، ومتوسط محيطها بحوالي 40042 كيلومتراً، ومساحة سطحها بحوالي 510 ملايين كيلومتر.



ويقدر حجم الغلاف المائي للأرض بحوالي 1.4 بليون كيلومتر مكعب، تغطي مساحة 362 مليون كيلومتر مربع من مساحة سطح الأرض، تاركة 148 مليون كيلومتر مربع من اليابسة.

ويحيا على سطح الأرض اليوم أكثر من سبعة مليارات نسمة من الآدميين ترجع كلها إلى أب واحد هو آدم ﷺ، وأم واحدة هي حواء ـ عليها رضوان الله ـ.

ويعيش على سطح الأرض وفي أوساطها المائية أكثر من مليون ونصف المليون نوع من أنواع الحياة، بالإضافة إلى وجود سجل أحفوري لأكثر من ربع مليون نوع من الأحافير المنقرضة، وبمعدل الاكتشافات السنوية لأنواع جديدة من أنواع الحياة المزدهرة اليوم والمنقرضة التي تكتشف بقاياها في صخور الأرض على هيئة الأحافير، يعتقد العلماء أن عدد أنواع الحياة على الأرض يصل إلى حوالي خمسة ملايين نوع، مُثِّل كل منها في الماضي أو يمثل اليوم ببلايين الأفراد.

ويقدر أقل عمر للأرض بحوالي الخمسة بلايين من السنين (4,600,000,000 سنة)، بينما يقدر عمر الكون بأكثر من عشرة بلايين من السنين، ويقدر متوسط عمر الإنسان بحوالي الخمسين سنة تقريباً.

والأرض بها العديد من الثروات المعدنية من مختلف العناصر، والمركبات الكيميائية، ومصادر الطاقة المتعددة، ومصادر الماء، والثروات النباتية والحيوانية. وغير ذلك مما نعلم وما لا نعلم من خيرات الله، وينزل عليها سنويًّا ملايين الأطنان من العناصر والمركبات، والإشعاعات والطاقات. وهذا كله ملك لله وحده، ومن فضله، وكرمه، وجوده وإحسانه.

ثالثاً: وما بينهما:

في عشرين آية قرآنية صريحة جاءت الإشارة إلى البينية الفاصلة للسمٰوات (على ضخامة أبعادها) عن الأرض (على ضآلة أبعادها بالنسبة إلى الجزء المدرك من السماء الدنيا)، وهذه البينية ـ بالإضافة إلى شواهد عديدة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة ـ تشير إلى أن الأرض ـ وهي تضم سبع أراضين في هيئة كروية، متطابقة يغلف الخارج منها الداخل فيها ـ تقع في مركز السمٰوات السبع التي خلقت كذلك بهيئة كروية مغلقة يغلف الخارج منها الداخل. وما بين السمٰوات والأرض هو حيز مكاني/ زماني يفصل بينهما، وهذا الحيز مليء بمختلف صور المادة والطاقة، ومسخر به السحاب بنص القرآن الكريم، ومسخرة به الملائكة، وربما غيرهم من خلق الله، وأن الأوامر الإلهية المنزلة تتنزل عبر هذا الحيز الفاصل بين السمٰوات والأرض.

وتشير العلوم المكتسبة إلى أن خلق السمٰوات والأرض بعملية كالتي تصفها نظرية الانفجار العظيم ـ والتي يؤيدها القرآن الكريم ـ تشير إلى أن خلق كلٍّ من المكان والزمان،

والمادة والطاقة قد تم في وقت واحد، فلا يوجد في الجزء المدرك لنا من الكون مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، كما لايوجد مكان وزمان بغير مادة وطاقة، وعلى ذلك فالمادة والطاقة موجودتان بين كل أجرام السماء من مثل ما بين كل من الأرض والشمس، وما بينهما وبين بقية أفراد المجموعة الشمسية. ثم شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن تدحى الأرض بثورة براكينها، فأخرج الله ﷻ من داخل الأرض كلًّا من غلافيها المائي والغازي، والماء عاد بإرادة الله ـ تعالى ـ إلى الأرض ودار حولها في دورة مذهلة، وغازات الأرض حين اندفعت من داخل الأرض اختلطت بدخان السماء لتكون نطاقاً متميزاً عن كل من الأرض والسماء وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم وصف (ما بين السماء والأرض)؛ لأنه مغاير لكلٍّ منهما، وهذا النطاق يعرف اليوم باسم نطاق الرجع **(TheTroposphere)** وهو يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع يختلف باختلاف النطق المناخية، ويتراوح بين 6 كم و 17 كم، ويتكدس فيه أكثر من 66% من مادة الغلاف الغازي للأرض كله. وتتناقص فيه درجة الحرارة مع الارتفاع باستمرار حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء، ويعرف هذا المستوى باسم مستوى الركود الجوي، وذلك لتناقص الضغط الجوي فيه إلى حوالي عشر الضغط الجوي المقاس فوق مستوى سطح البحر.

ويتركب هذا النطاق الفاصل بين السمٰوات والأرض أساساً من جزيئات النيتروجين (بنسبة 78.1% بالحجم)، والأكسجين (بنسبة 21% بالحجم)، والأرجون (بنسبة 0.93% بالحجم)، وثاني أكسيد الكربون (بنسبة 0.03% بالحجم)، وذلك بالإضافة إلى نسب ضئيلة من بخار الماء، وآثار طفيفة من كل من غازات الميثان، وأول أكسيد الكربون، وأكاسيد النيتروجين، والأيدروجين، والهيليوم، والأوزون، وبعض الغازات الخاملة مثل الأرجون. وهذا التركيب مغاير تماماً لتركيب المادة بين الكواكب الأُخرى والنجوم، ومغاير لتركيب الدخان الكوني الذي خلقت منه السمٰوات والأرض ابتداء؛ ومن هنا كانت الإشارة إليه من المعجزات العلمية في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ الذي يروى عنه قوله الشريف:

«**سبحان الله عدد ما خلق في السماء، سبحان الله عدد ما خلق في الأرض، سبحان الله عدد ما خلق بين ذلك، سبحان الله عدد ما هو خالق**»[1]. وهذا النطاق الفاصل بين السمٰوات والأرض بكل ما فيه ومن فيه هو ملك كامل للذي فطر السمٰوات والأرض، لا ينازعه في سلطانه أحد من خلقه، وليس له شريك في ملكه، ولاشبيه من عباده، ولا صاحبة، ولا ولد.

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه (الحديث: 1500)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الحديث: 837)

رابعاً: وما تحت الثرى:

احتار المفسرون في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ فقال بعضهم أن المقصود بذلك هو أن جميع الموجودات ملكه وخلقه، وتحت قهره وسلطانه، وقال آخرون: أي أن الله ـ تعالى ـ هو المالك لكل شيء من الخلق والعجائب.

و ﴿**الثرى**﴾ في اللغة هو التراب الندي، ومن المعروف علميًا أن التربة الدبالية؛ أي المحتوية على الدبال ـ وهو المادة السمراء التي تنشأ عن تحلل المواد العضوية ـ نباتية كانت أو حيوانية ـ لها قدرة عالية على الاحتفاظ بالماء، وهي تربة غنية بمركبات معدنية عديدة مثل نترات وكبريتات العناصر، وهي جيدة التهوية، وتعطي ما بها من ماء بسهولة؛ ونتيجة لذلك فقد ثبت أن هذه التربة، وما تحتها من نطق قطاع التربة غنية جداً بالكائنات الحية التي تسكنها ومن ذلك ما يلي:

(أ) مجموعات من النباتات الدقيقة ومن البقايا الدقيقة للنباتات الكبيرة وذلك من مثل **البكتيريا**، و**الفطريات**، و**الطحالب** و**الأبواغ وحبوب اللقاح**، وغيرها بمختلف أشكالها وهيئاتها، ومن البكتيريا ما يعمل على تثبيت النيتروجين، أو الأيدروجين، أو ثاني أكسيد الكربون أو الكبريت، أو الحديد، أو المنجنيز أو غير ذلك من العناصر والمركبات التي تزيد من خصوبة التربة، ومنها مايقوم بتكسير المواد الكربوهيدراتية، أو السيليولوزية، أو البروتينية، أو الدهنية في البقايا العضوية الموجودة بالتربة فتثريها بما يحتاجه النبات النامي فوقها من غذاء.

(ب) مجموعات من الحيوانات المتباينة الأحجام والصفات منها الدقيقة مثل **الأوليات (الطلائعيات)**، والمتوسطة إلى الكبيرة مثل **الديدان**، و**الرخويات**، و**الحشرات ويرقاتها**، و**العناكب**، **وبعض القشريات والفقاريات الحفارة**، وغيرها.

وتقسم التربة عادة إلى ثلاثة نطق متميزة تعلو صخور الأرض التي استمدت منها بفعل عوامل التعرية المختلفة، وهذة النطق هي من أعلى إلى أسفل على النحو التالي:

(1) **المنطقة العليا (نطاق الثرى)**: وهي أكثر أجزاء التربة تعرية ورطوبة وقد تمتد من سطح الأرض إلى الركام الصخري أو إلى الصخر غير المعرى ذاته. وتتجمع فيها بعض البقايا العضوية، ولكن حركة الماء فيها من أعلى إلى أسفل تنزع منها كثيراً من محتواها الغذائي للنبات، ويتراوح سمكها بين سنتيمترات قليلة إلى عشرات السنتيمترات.

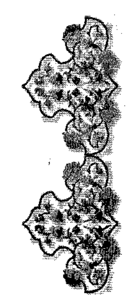
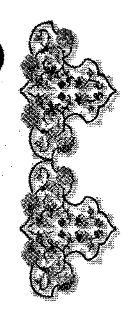
(2) **المنطقة الوسطى (نطاق ما تحت الثرى)**: وتمتد من قاعدة نطاق الثرى إلى عمق يصل إلى قرابة المتر، وهي منطقة متوسطة التعرية لكن حركة الماء من أعلى إلى أسفل

تصلها وتثريها بالعديد من المركبات الكيميائية المهمة المنزوعة من منطقة الثرى ولذلك فهي أغنى قطاعات التربة في مختلف صور الحياة.

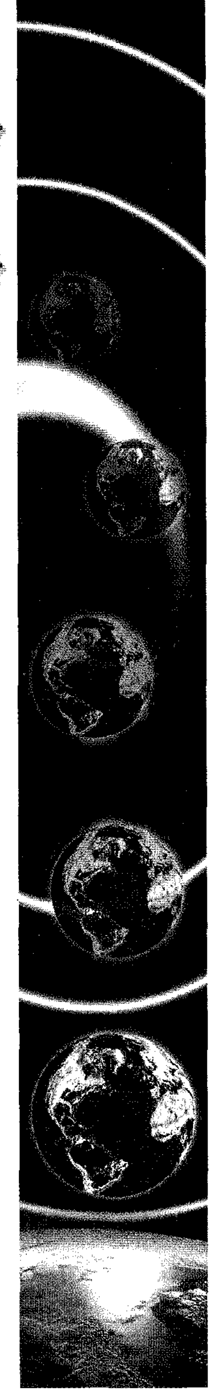
(3) **النطاق الصخري**: وهو الذي استمد منه النطاقان العلويان مادتيهما بفعل عوامل التعرية بصورها المختلفة.

وازدهار الحياة فيما تحت الثرى من قطاع التربة حقيقة لم تكن معروفة في زمن تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده، ووجود الإشارة إليها في هذا الكتاب العزيز يشهد له بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه، وبأنه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(30) ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...﴾ (التوبة: 36)



هذه الآية الكريمة جاءت في الثلث الأول من سورة «التوبة»، وهي سورة مدنية، آياتها 129، وهي من أواخر ما نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي لم تستفتح بالبسملة، لاستفتاحها بتبرئ الله ورسوله من عهود المشركين بعد أن نقضوها، وهذا التبرؤ منهم، ومن نجسهم كان عقاباً لهم على شركهم بالله سبحانه وتعالى.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول التشريع الإسلامي بصفة عامة، وما يخص علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم بصفة خاصة.

وتؤكد هذه السورة الكريمة على فريضة الجهاد الإسلامي، وتنعي على المتثاقلين عنه؛ وتجرم النفاق والمنافقين، وتفضح دخائل نفوسهم، ووضيع تصرفاتهم، وحقيقة نياتهم وحيلهم، وتحذر المؤمنين من مكائدهم؛ كما تشير إلى ظاهرة تعدد المستويات الإيمانية في كل مجتمع من المجتمعات البشرية، وتقرر طبيعة البيعة مع الله على الجهاد في سبيله بالمال والنفس، من أجل إعلاء دينه وإقامة عدله في الأرض، وتشجب التقاعس عن ذلك مهما كانت قوة الكافرين والمشركين؛ لأن الله تعالى قد تعهد بنصر عباده المؤمنين، والله تعالى لا يخلف وعده.

وحددت السورة الكريمة المصارف الشرعية للزكاة؛ وتساءلت:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ (التوبة: 63).

وأوردت هذا القرار الجازم:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ (التوبة: 68).

وذكرت السورة بعدد من الأمم السابقة:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (التوبة: 70).

وفي المقابل تعرض السورة الكريمة لجانب من صفات المؤمنين فتقول:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 71).

وختمت سورة التوبة بآيتين كريمتين وجهت الخطاب في أولاهما إلى كفار قريش وهو من بعدهم خطاب إلى الناس كافة يقول لهم فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة: 128).

ثم توجهت السورة في آخر آية منها بالخطاب إلى رسول الله ﷺ يقول فيه ربنا تقدست أسماؤه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (التوبة: 129).

وهو خطاب لكل مسلم يحمل لواء الدعوة إلى دين الله في مواجهة طواغيت الأرض من العصاة المتجبرين، ومن الكفار والمشركين حتى يوم الدين.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ

وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.
(التوبة: 36).

● ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما نصه: «عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: **«ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذوالقعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»**[1].

وعن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: **«أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذوالقعدة، وذوالحجة والمحرم»**.

وقال سعيد بن منصور عن ابن عباس في قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة، وقوله ﷺ في الحديث: **«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض»** تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقص، ولانسيء ولاتبديل، كما قال في تحريم مكة: **«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة»**، وهكذا قال هٰهنا: **«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض»**؛ أي الأمر اليوم شرعاً كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السمٰوات والأرض؛ أي أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة كان في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة. . .

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه؛ وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرد، وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهر وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج، ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعدة شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود لوطنه فيه آمناً.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 4662) وأخرجه مسلم في (الحديث: 4359).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول، قال تعالى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها... وقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أي جميعكم ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةًۚ﴾ أي جميعاً ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

● وفي كل من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان لمعاني القرآن، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم، وصفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبيها خيراً ـ جاء كلام مشابه بتباين في طول السرد أو قصره، ولذلك لا داعي لتكراره هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

هذه الآية الكريمة تتحدث عن عدة الشهور في سنة من سني الأرض؛ لأن الخطاب القرآني موجه لنا نحن أهل الأرض ولأن كل جرم من أجرام السماء له أزمنته الخاصة به من السنين، والشهور، والأسابيع، والأيام، وإذا كان الجرم جسماً معتماً كان له أيضاً ليله ونهاره، ويتضح هذا التباين في أزمنة كل جرم من أجرام السماء بالتباين بين أزمنة أجرام مجموعتنا الشمسية الذي بيانه كما يلي:

* سنة الشمس: 225 مليون سنة من سني الأرض.
* سنة عطارد = 0.24 من السنة الأرضية (= 88 يوماً من أيام الأرض).
* سنة الزهرة = 0.70 من السنة الأرضية (= 255 يومًا من أيام الأرض).
* سنة الأرض = 1 سنة أرضية (= 365.25 يوم من أيام الأرض).
* سنة المريخ = 1.88 سنة أرضية (= 686.67 يوم من أيام الأرض).
* سنة المشتري = 11.86 سنة أرضية (= 4332 يوماً من أيام الأرض).
* سنة زحل = 29.46 سنة أرضية (= 10760.27 يوم من أيام الأرض).
* سنة يورانوس = 84.02 سنة أرضية (= 30688.01 يوم من أيام الأرض).
* سنة نبتيون = 164.80 سنة أرضية (= 60193.20 يوم من أيام الأرض).
* سنة بلوتو = 247.70 سنة أرضية (= 90472.40 يومًا من أيام الأرض).

وهذا التباين في أزمنة كل جرم من أجرام مجموعتنا الشمسية، بل كل جرم من أجرام السماء يؤكد على نسبية كل شيء في وجودنا، حتى يبقى العلم الحقيقي المطلق، الكامل،

المحيط لخالق هذا الكون وحده، الذي هو فوق الخلق كله، فوق المادة والطاقة وأضدادهما، وفوق المكان والزمان بمختلف أشكالهما وأبعادهما: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

(الشورى: 11).

وعلى الرغم من إيماننا بمحدودية علمنا فإننا ندرك أن من صور تسخير ما في السمٰوات، وما في الأرض لهذا الإنسان الضعيف، المحدود القدرات والحواس أن يمكنه ربه تبارك وتعالى من الوصول إلى شيء من الحق في صفحة السماء على تعاظم أبعادها مما يشهد للخالق سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية، والوحدانية، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع.

والخطاب الإلهي: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...﴾ كما يشمل سنة الأرض لا بد أن له دلالة كونية مهمة منطلقة من أن الأرض في مركز الكون حسبما جاء في العديد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون

يمكن استنتاج مركزية الأرض بالنسبة إلى السمٰوات من الإشارات التالية:

(1) يشير القرآن الكريم، كما تشير الأحاديث النبوية الشريفة في مئات المواضع إلى السمٰوات والأرض، فقد جاءت لفظة السماء في القرآن الكريم بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشرة مواضع، منها مائة وعشرون مرة بالإفراد، ومائة وتسعون مرة بالجمع.

كذلك جاءت الإشارة إلى الأرض في القرآن الكريم في أربعمائة وواحد وستين موضعاً منها ما يشير إلى الكوكب ككل، ومنها ما يشير إلى كتل القارات التي نحيا عليها، وما بها من صخور، ومنها ما يشير إلى قطاع التربة الذي يغطي صخور الأرض، وفي معظم هذه الآيات نجد المقابلة القرآنية الصريحة بين الأرض على ضآلة حجمها (بالنسبة إلى بقية الكون) والسماء على ضخامة أبعادها، وقطر الجزء المرئي من السماء الدنيا يقدر بأربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية وهذه المقابلة لا يمكن أن تقوم إلا إذا كان للأرض وضع متميز بالنسبة إلى السماء الدنيا.

(2) في إحدى وعشرين آية قرآنية كريمة جاء ذكر الوصف الإلهي **﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾** وهذه البينية لا يمكن أن تتم إلا إذا كانت الأرض في مركز الكون.

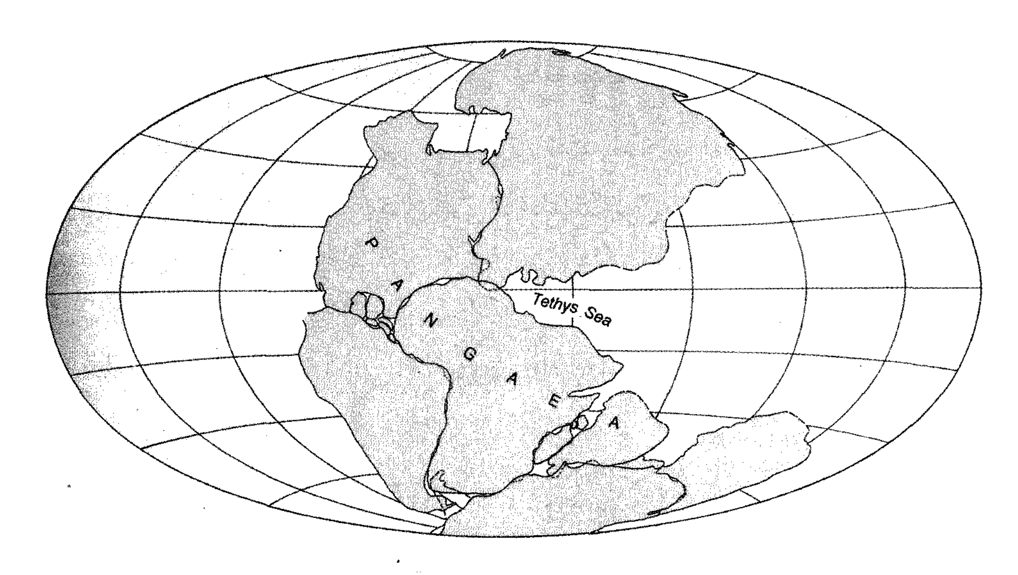
(3) جاء في سورة الرحمٰن قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾. (الرحمٰن: 33).

وقطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مروراً بمركزه. فإذا كانت أقطار السمٰوات والأرض واحدة فلا بد أن تكون الأرض في مركز الكون.

(4) في أغلب الحضارات القديمة اعتبرت الأرض مركزاً للكون. وكل المعارف الصحيحة في تلك الحضارات خاصة في القضايا الغيبية، هي بالقطع من وحي السماء، أو من بقايا قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾. **(البقرة: 31)**.

(5) تبدو السماء للناظر إليها من أي مكان على سطح الأرض وكأنها كرة شاسعة الأبعاد تحيط بالأرض من كل جانب، ولذلك يسميها الفلكيون باسم **الكرة السماوية** ويرسمونها دائماً بجعل كوكب الأرض مركزاً لها، ومع توزيع أجرام السماء على سطح تلك الكرة السماوية.



رسم للقارة الأم Pangaea

(6) روى كلٌّ من الإمام الهروي في غريب الحديث (362/ 3)، والإمام الزمخشري في الفائق من غريب الحديث عن رسول الله ﷺ قوله: «**كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض**» والخشعة: الأكمة الصغيرة، والعلم يثبت اليوم توسط الكعبة المشرفة لليابسة، كما يثبت أن الأرض مرت في مرحلة من مراحل إعدادها لاستقبال الحياة بفترة

كانت مغمورة غمراً كاملاً بالماء، ولم تكن هناك يابسة، ثم فجر الله تعالى قاع هذا المحيط الغامر بثورة بركانية من تحت الماء فكونت أول جزيرة بركانية في العالم، ثم دحيت بقية اليابسة حول هذه الجزيرة لتكون قارة وحيدة اسمها: القارة الأم أو **Pangaea**، ثم تفتت هذه القارة الأم إلى القارات السبع الحالية التي تتوسطها الكعبة المشرفة اليوم كما توسطتها في جميع مراحل نموها.

(7) كذلك روى مجاهد عن رسول الله ﷺ قوله: «**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»، ولفظة (مناء) معناها: قصده، وفي حذاه، يقال: داري منا دار فلان أي في مقابلتها؛ ومعنى هذا الحديث الشريف أن الكعبة المشرفة هي مركز اليابسة في الأرض الأولى، ومن تحتها ست أرضين، وأن هذه الأرضون السبع محاطة إحاطة كاملة بالسمٰوات السبع، وعلى ذلك فإن الكعبة المشرفة هي مركز الكون.

وتأكيداً لذلك قال المصطفى ﷺ: «**البيت المعمور مناء مكة**»، وسأل جمعاً من الصحابة بقوله الشريف: «**أتدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «**هو بيت في السماء السابعة، على حيال الكعبة تماماً حتى لو خر لخر فوقها**».

كل ذلك يؤكد موقع الكعبة المشرفة من الكون كله، كما يشير إلى توسط الأرض للكون، ومن هنا كان لسنة الأرض المكونة من اثني عشر شهراً معنى كونياً لم يدركه العلم المكتسب بعد وتتضح دلالته من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ . . .﴾.

ما هو الشهر القمري؟:

يعرف الشهر لغة بأنه مدة مشهورة بإهلال الهلال، وقيل: الشهر القمر، سمي بذلك لشهرته وظهوره؛ وقيل: هو العدد المعروف من الأيام يشهر بالقمر، وفيه علامة ابتدائه وانتهائه؛ والجمع أشهر وشهور؛ والعرب تقول: رأيت الشهر، أي: رأيت هلاله.

وقال الإمام الرازي: «وأما الشهر فهو عبارة عن حركة القمر من نقطة معينة من فلكه الخاص إلى أن يعود إلى تلك النقطة». . .

هذا، وقد ذكرت لفظة الشهر بالإفراد في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة، جاء نصفها تماماً بالصيغة المعرفة الشهر، والنصف الآخر بالصيغة غير المعرفة شهر أو شهراً.

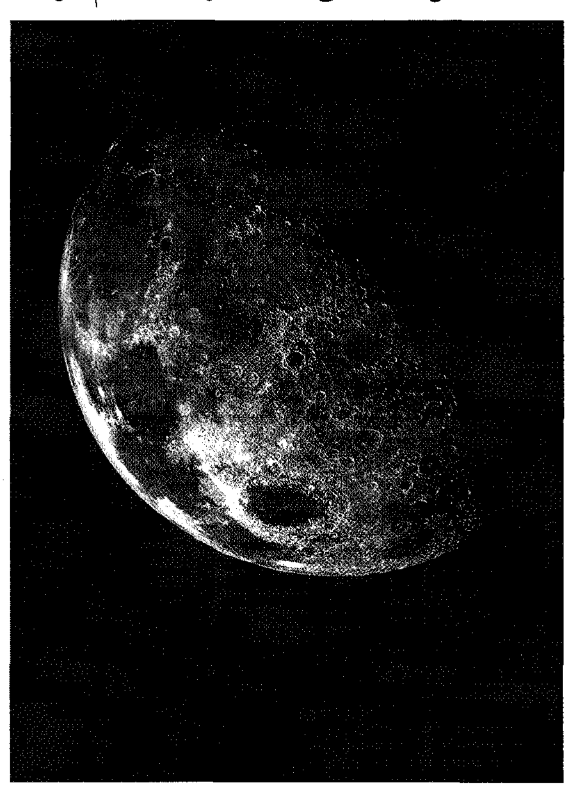
كما جاءت الإشارة إلى الشهر بالتثنية «شهرين» مرتين، وبالجمع سبع مرات، إحداها

بالصيغة المعرفة «الشهور»، والباقي بالصيغة غير المعرفة «أشهر».

ويعرف الشهر القمري فلكيًّا بأنه دورة القمر حول الأرض، منسوبة إلى موقع الشمس في صفحة السماء، وهي دورة معقدة يدخل فيها دوران القمر حول الأرض، ودورانه مع الأرض حول الشمس، ومع باقي أفراد المجموعة الشمسية حول مركز المجرة، وما فوق ذلك من حركات لايعلمها إلا الله ـ تعالى ـ.

ولتباين سرعة كل دورة من هذه الدورات في جريها الحقيقي، وفي حركاتها الظاهرية التي نراها بها من على سطح الأرض فإن الحركة الظاهرية للشمس تبدو لنا أسرع من الحركة الظاهرية للقمر، وإن كان لكل منهما مداره المحدد الخاص به.

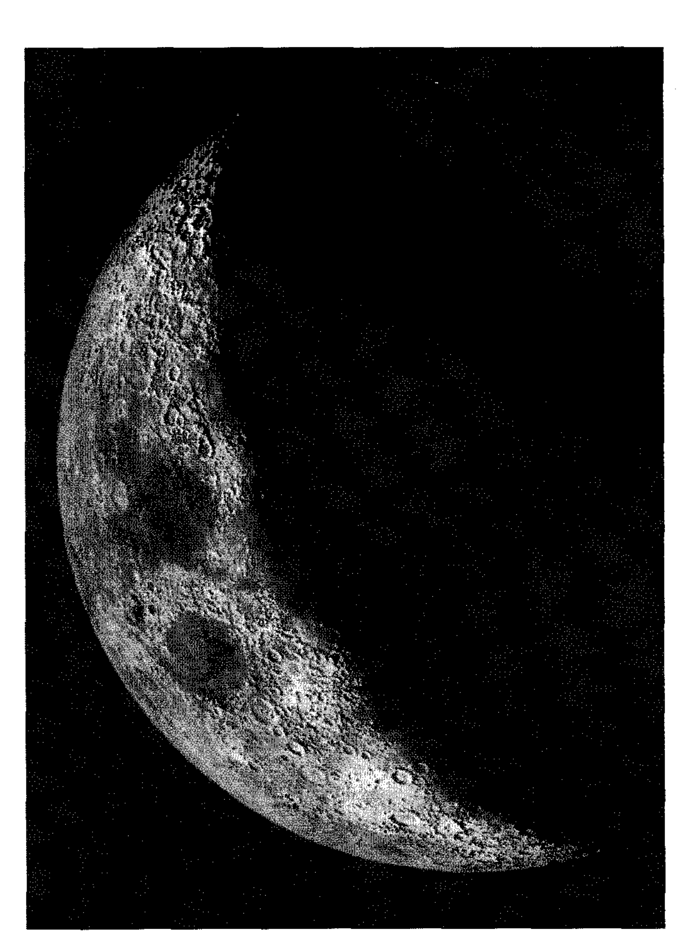
ونتيجة لهذه الحركات المتعددة فإن القمر يمر بين الأرض والشمس فيكون وجهه المنير في اتجاه الشمس، ووجهه المظلم في اتجاه الأرض، وتسمى هذه المرحلة باسم **مرحلة المحاق أو مرحلة الاقتران**؛ وبمجرد خروج القمر عن هذا الوضع يبدأ أهل الأرض في رؤية حافته المنيرة التي تؤذن بميلاد شهر قمري جديد.



صورة للقمر في إحدى مراحله وتبدو على سطحه الحفر النيزكية

وبتواصل دوران القمر حول الأرض تزداد مساحة الجزء المنير من سطحه المواجه لنا فيتحرك من **الهلال الوليد أو الهلال المتنامي**، إلى **التربيع الأول**، إلى **الأحدب المتنامي** إلى **البدر الكامل**، ثم تبدأ مساحة الجزء المنير من سطح القمر المواجه لنا في التناقص التدريجي حتى **المحاق**، ويمر خلال فترة التناقص تلك بمراحل **الأحدب المتناقص**، ثم **التربيع الثاني**، ثم **الهلال المتناقص** إلى **المحاق** ليختم شهراً قمرياً، ويؤذن بميلاد شهر جديد مع هلال وليد جديد.

والقمر يدور حول نفسه، وحول الأرض بنفس السرعة المتوسطة المقدرة بنحو كيلومتر واحد في الثانية، فيواجه الأرض دائماً بوجه واحد، وبذلك يصبح يوم القمر شهراً قمريًا كاملاً نصفه ليل، ونصفه نهار، وتفصل بين هذين النصفين دائرة قريبة من الدائرة العظمى تعرف باسم **دائرة النور**، كما تفصل بين ما يرى وما لا يرى من سطح القمر دائرة أُخرى تعرف باسم **دائرة الرؤية**؛ وهاتان الدائرتان تنطبقان في مرحلتي البدر الكامل (الاستقبال)، والمحاق (الاقتران أو الاجتماع)، وتتقاطعان بزوايا مختلفة في المراحل المتوسطة بين هذين الحدين؛ وتنشأ عن تطابقهما وتقاطعهما الأشكال المختلفة لوجه القمر المواجه للأرض: من المحاق إلى البدر الكامل، ومنه إلى المحاق الذي يليه. فعند تطابق دائرتي النور والرؤية في وضع الاقتران يكون القمر في المحاق، وفي وضع الاستقبال يكون القمر في البدر الكامل، وعند تقاطع هاتين الدائرتين فإننا نرى جزءاً من نصف القمر المنير، وجزءاً من نصفه المظلم، ويبقى القمر في مرحلة الهلال المتنامي الذي يزداد حجمه بالتدريج حتى يصل إلى مرحلة التربيع الأول في اليوم السابع من الشهر القمري، ثم إلى مرحلة الأحدب المتنامي بعد مضي أحد عشر يوماً من بدء الشهر القمري، ويصل إلى البدر الكامل بعد مضي أربعة عشر يوماً أو نحوها من بداية الشهر القمري، ويصل إلى مرحلة الأحدب المتناقص بعد انقضاء أربعة أيام تقريباً على مرحلة البدر، وبعد مضي 22 يوماً تقريباً من الشهر القمري يصل إلى مرحلة التربيع الثاني، وفي الأيام الثلاثة التي تلي



القمر في مرحلة الهلال

التربيع الثاني يصل القمر إلى مرحلة الهلال المتناقص، وفي آخر يوم من الشهر القمري يكون القمر قد أصبح بين الأرض والشمس على استقامة واحدة فيدخل في مرحلة الإظلام الكامل أو المحاق، والمراحل الرئيسية في هذه الدورة: التربيع الأول، البدر الكامل، التربيع الثاني، المحاق التي يستمر كل منها قرابة الأيام السبعة كانت أساس تقسيم الشهر القمري إلى أربعة أسابيع.

وفي دورة القمر حول الأرض فإنه يمر عبر برج من بروج السماء الاثني عشر في كل شهر حتى يعود إلى البرج الذي بدأ به مع فروق تقدر بنحو 11 يوماً، وبذلك تتحدد سنة كاملة.

كذلك يمر القمر في كل ليلة بمكان معين من البرج الشهري، وينسب هذا المكان إلى عدد من النجوم التي تبدو ظاهريًا أنها قريبة من القمر، وتعرف هذه المواقع باسم منازل القمر؛ أي أماكن وجود القمر في كل ليلة من ليالي الشهر القمري بالنسبة إلى نجم معين أو مجموعة نجمية محددة؛ وعدد هذه المنازل ثمانية وعشرون منزلاً بعدد الليالي التي يرى فيها القمر، ومتوسط مدة كل منها 13 يوماً بالنسبة إلى السنة الشمسية.

ما هي السنة القمرية؟:

تعرف السنة القمرية بالفترة الزمنية التي يتم فيها القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض؛ وتستغرق هذه الفترة (354.37 يوم؛ لأن متوسط عدد الأيام في كل شهر قمري هو نحو (29.53 يوم)؛ ولما كانت كسور الأيام لا تدخل في حساب الشهور، ولا في حساب السنين اعتبرت السنة القمرية مساوية للرقم الصحيح (354 يوماً)، **وتعرف بالسنة القمرية البسيطة**، وتتجمع الكسور لتتم يوماً كاملاً مرة كل ثلاث سنوات تقريباً تصبح مدة السنة القمرية فيها (355 يوماً)، **وتعرف باسم السنة القمرية الكبيسة**، وتظهر 11 مرة في كل 30 سنة تقريباً.

والتعبير اللغوي سنة مستمد من (سنا)، (يسنو)؛ بمعنى: دار يدور حتى يعود إلى مكانه الأول، وكذلك تعبير الحول مستمد من حال يحول، وهو بنفس المعنى، كما أن السنة هي أول السن.

ما هي السنة الشمسية؟:

السنة الشمسية تحددها دورة كاملة للأرض حول الشمس، وتقسم هذه السنة بواسطة بروج السماء الاثني عشر إلى اثني عشر شهراً، كما يمكن أن تقسم بواسطة اثنتي عشرة

دورة كاملة للقمر حول الأرض بفرق يقدر بنحو الأحد عشر يوماً، وهو الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية، لأن السنة الشمسية يقدر زمنها بنحو 365.25 يوم، بينما يقدر زمن السنة القمرية بنحو 354 يوماً.

ما هو الشهر الشمسي؟:

يقوم حساب الشهور الشمسية أساساً على مراقبة بروج السماء الاثني عشر الرئيسية، وهذه البروج هي تجمعات من النجوم تمر بها الأرض في دورتها السنوية حول الشمس، وتبدو هذه البروج من فوق سطح الأرض بأشكال محددة تميز برجاً عن الآخر؛ ودائرة البروج هي مسار الشمس السنوي بين النجوم كما يظهر لنا من على سطح الأرض؛ وهي في حركتها الظاهرية لنا تبدو وكأنها تمر باثني عشر برجاً تسمى باسم منازل الشمس، وتبقى في كل واحد منها نحو الشهر، ثم تعود في نهاية السنة الشمسية إلى البرج الذي بدأت منه، وهكذا دواليك. وهذه البروج هي: الجدي، الدلو، الحوت، الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، العذراء، الميزان، العقرب، والقوس؛ مبتدئين بالأول من شهر يناير، ومنتهين بشهر ديسمبر تقريباً، وإن سميت تلك البروج بأسماء مختلفة في الدول المختلفة.

الشهور في القرآن الكريم هي الشهور القمرية:

الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها تؤكد أن الشهر المقصود في القرآن الكريم هو الشهر القمري، وكذلك العديد من الآيات الأُخرى في كتاب الله، والشهور القمرية عرفتها أغلب الحضارات القديمة كما استخدمها العرب قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وكان هذا من بقايا وحي السماء الذي توارثوه عن كل من نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل ـ على نبينا وعليهما من الله السلام ـ.

ويؤكد هذا أن جميع التكاليف الشرعية قد ربطها الشارع الحكيم بالأهلة؛ وعلى ذلك فإن السنة المعتبرة في الإسلام هي **السنة القمرية**، وأن الشهور المعتبرة هي **الشهور القمرية**.

كذلك كان من تراث النبوة أن العرب قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كانوا يعظمون **الأشهر الحرم**؛ وهي: **ذو القعدة**، **وذو الحجة**، **والمحرم**، **ورجب** حتى في زمن شركهم وجاهليتهم. ومعروف شرعاً أن المعصية في هذه الشهور تلقى عقاباً من الله أشد، كما أن الطاعة تلقى أجراً أعظم وثواباً أكثر من بقية شهور السنة. وعلى المسلمين اليوم إدراك ذلك ومتابعته كي تتعزز مكانة هذه الأشهر الحرم في قلوبهم وعقولهم فتتحقق الحكمة من قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

ويأتي بعد ذلك أن القمر هو أقرب أجرام السماء إلينا، وحركاته هي أكثر حركات أي جرم من الأجرام الكونية وضوحاً لنا، وضبط الأزمنة به أحكم من ضبطها بأي وسيلة كونية أُخرى.

وتبقى الحكمة الإلهية واضحة جلية بوجود هذا الفارق الزمني الطفيف بين السنتين الشمسية والقمرية حتى لا ترتبط العبادات الشرعية بظروف مناخية محددة على مدار الزمن، بل تتحرك مع فصول السنة ومناخاتها المتباينة، فتؤدي في كل من الحر والقر، وفي طول أي من النهار والليل أو قصره، ومع ذلك فلا يوجد مايمنع من اعتبار كل من الشهور القمرية والسنة القمرية جنباً إلى جنب مع السنة الشمسية التي تحددها دورة الأرض حول الشمس دورة كاملة في كل اثنتي عشرة دورة كاملة للقمر حول الأرض، مع حساب الفارق المقدر بأحد عشر يوماً بينهما، بدلاً من استخدام أسماء الشهور الميلادية، وأغلبها من الوثنيات القديمة.

وبذلك تكون السنة الإسلامية شمسية/ قمرية تحدد السنة فيها دورة كاملة للأرض حول الشمس، وتقسم هذه السنة إلى اثني عشر شهراً دورة القمر حول الأرض في اثنتي عشرة دورة كاملة مع حساب الفوارق.

من أوجه الإعجاز العلمي في الآية الكريمة

بتحديد الآية الكريمة التي نحن بصددها عدة الشهور عند الله باثني عشر شهراً تحديد للسنة القمرية كما هو تحديد للسنة الشمسية، فكلاهما مكون من هذا العدد من الشهور على الرغم من تأكيد القرآن الكريم على الشهور القمرية ومن ثم على السنة القمرية.

وسنة أي كوكب هي الفترة الزمنية التي يستغرقها ليتم دورة كاملة حول النجم الذي يتبعه، وهو يجري في مدار محدد حول ذلك النجم، وبمتوسط سرعة محدد كذلك. ويحدد سنة الكوكب، كما يحدد متوسط سرعة جريانه عاملان ضابطان مهمان: هما طول مدار الكوكب حول النجم ويحدده متوسط نصف قطر هذا المدار، وكتلة الكوكب بالنسبة إلى كتلة النجم وكلاهما مرتبط بقوة الجاذبية بين كل من النجم والكوكب الذي يدور حوله.

ومدار كل الأجرام المعروفة لنا مثل مدار كلٍّ من القمر حول الأرض، والأرض حول الشمس هو مدار إهليلجي (بيضاوي) الشكل، على شكل القطع الناقص، ومن قوانين الحركة في مدار القطع الناقص **خضوع السرعة المحيطية لقانون تكافؤ المساحات مع**

الزمن، وهذا القانون يحتم اختلاف مقدار السرعة على طول المحيط، فعندما يقترب القمر من الأرض، أو يقتربان معاً من الشمس لابد من أن تزداد سرعة كلٍّ منهما المحيطية حتى تزداد بالتبعية قوة الطرد المركزي على كل منهما، وإلا انهار هذا النظام بالكامل بارتطام القمر بالأرض، أو باندفاعهما معاً إلى سعير الشمس.

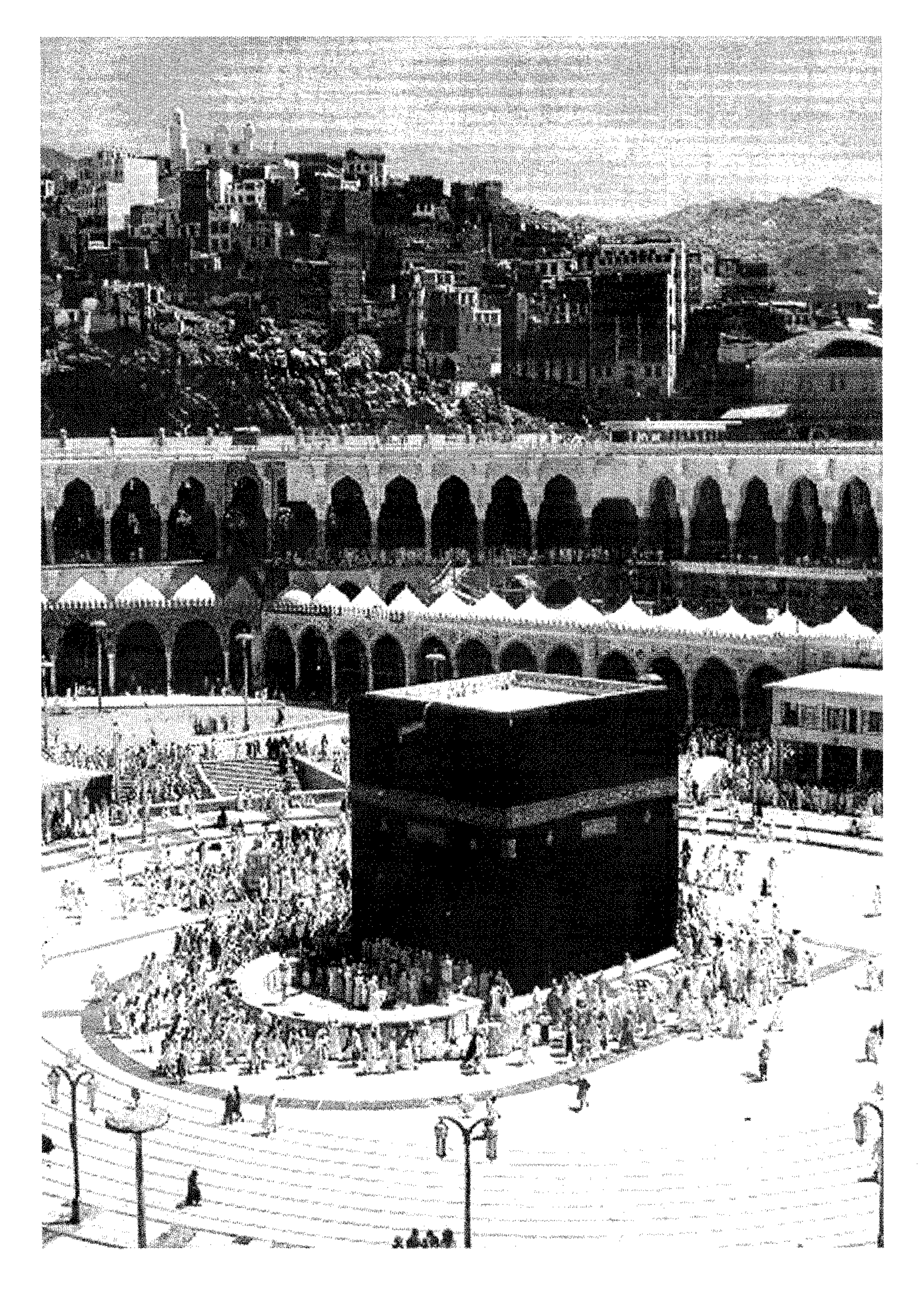
وبالمقابل فعندما يبتعد القمر في مداره عن الأرض، أو يبتعدان معاً عن الشمس، فإن السرعة المحيطية لكل منهما لابد وأن تتناقص بنسب محددة حتى تقل قوة الطرد المركزي لكل منهما، وإلا انفلت القمر من عقال جاذبية الأرض، أو انفلتا معاً من عقال جاذبية الشمس فيضيعان في فسحة الكون.

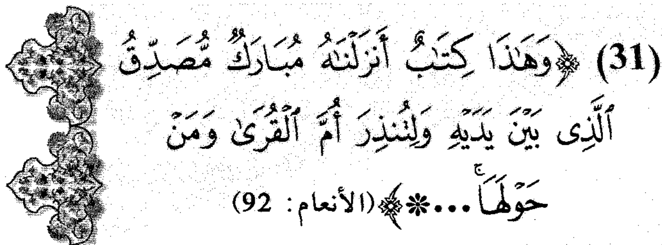
والإشارة القرآنية الكريمة إلى ثبات عدة الشهور باثني عشر شهراً منذ خلق الله السمٰوات والأرض تأكيد ضمني على انضباط كتل، وأحجام، وأبعاد وسرعات الأرض، وجميع أجرام السماء منذ اللحظة الأولى للخلق، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وإلا لانهار بناء الكون. وفي انضباط هذه المسافات ضبط لكميات الطاقة التي تصل من النجم إلى كل كوكب يدور في فلكه مثل الأرض، ولو زادت كمية الطاقة التي تصلنا من الشمس، ولو قليلاً لأحرقتنا ولأحرقت كل ما حولنا، ولو قلت قليلاً لجمدتنا، وجمدت كل شيء حولنا.

ولذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الحقائق التي لم تدرك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. كما يشير في مقام آخر إلى أن أولى بوادر إنهاء النظام الكوني هو انفلات القمر من عقال جاذبية الأرض، ووقوعه في جحيم الشمس، فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ **(المدثر: 9)**.

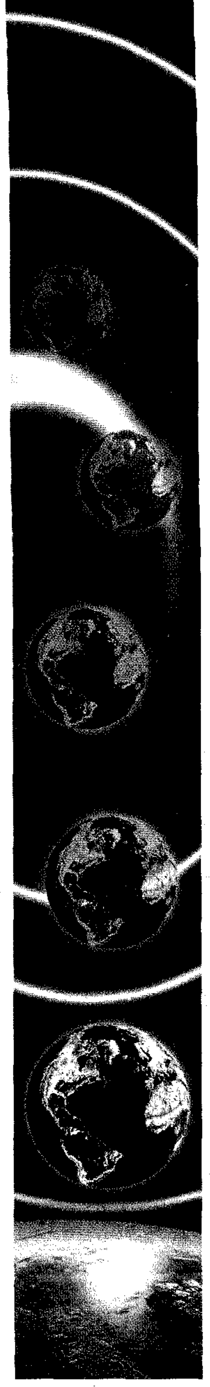
وقد ثبت أن بوادر ذلك قد ظهرت في قدر من التباعد بين القمر والأرض.

فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تلقاه بحق فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، والحمد لله رب العالمين في الأول والآخر.






(31) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾ (الأنعام: 92)



هذا النص القرآني المعجز جاء في مطلع النصف الثاني من سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها 165 بدون البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها في أكثر من موضع.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من العقائد والتشريعات الإسلامية، وقصص عدد من الأنبياء والمرسلين السابقين على بعثة سيدنا محمد ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وقصص عدد من الأمم البائدة، وعدد كبير من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية. وقد سبق لنا استعراض سورة «الأنعام» لذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقاط الرئيسة فيها كما يلي:.

أولاً: من العقائد الإسلامية في سورة «الأنعام»

(1) الإيمان بالله الخالق، الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور، الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد؛ الإله الحق، الذي لا إلٰه غيره، ولا معبود سواه، مالك الملك، ومحصي أعمال الخلق، فاطر السمٰوات والأرض وقيومهما، خالق الإنسان من طين، ومحدد الأجل والرزق له، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، السميع العليم، كاشف الضر، ومنزل الخير، القاهر فوق عباده، الذي يطعم ولا يطعم، الذي لا يشبهه أحد من خلقه، ولا ينازعه أحد في ملكه، ولا يشاركه أحد في سلطانه، الباعث الشهيد، البر الودود، الغفور الرحيم، بديع السمٰوات والأرض، ربّ كل شيء ومليكه، خالق كل شيء ومبدعه، والعليم بكل شيء من

السر والعلن، والقادر على كل شيء مهما عظم؛ عالم الغيب والشهادة، الحكيم الخبير؛ فالق الإصباح، وفالق كل من الحب والنوى، مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي؛ أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وخير الفاصلين الذي لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، الغني، ذو الرحمة الواسعة التي لا تضيق بشيء؛ منزل الكتاب؛ ومرسل الأنبياء والمرسلين؛ الذي يدرك الأبصار، ولا تدركه الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

(2) الإيمان بملائكة الله، وكتبه، ورسله، وبخاتمهم أجمعين، وبأنهم ما أرسلوا إلَّا مبشرين ومنذرين.

(3) الإيمان بعوالم الغيب التي أخبرنا بها ـ تبارك وتعالى ـ دون الخوض في هذه العوالم الغيبية بغير علم.

(4) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ بجوده، وكرمه، وإحسانه يجازي الحسنة بعشر أمثالها (إلى سبعمائة ضعف) ولا يجازي السيئة إلا بمثلها، ومن هنا كانت ضرورة التوبة وحسن الاستغفار.

(5) الإيمان بحتمية البعث، وبحتمية الحساب والجزاء في الآخرة، التي هي خلود بلا موت، إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، ومن هنا كان وصف ربنا ـ تبارك وتعالى ـ للحياة الدنيا بأنها لعب ولهو كما جاء في قوله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾. **(الأنعام: 32)**.

(6) اليقين بأن من عمل سوءاً بجهالة ممن يؤمنون بالله وبآياته ثم تاب من بعده وأصلح فإن الله غفور رحيم.

(7) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ قد أتم وحيه في القرآن الكريم، ـ رسالته الخاتمه ـ، وأنه ﷻ قد أكمل دينه الذي أنزله لعباده؛ على فترة من الرسل في هذه الرسالة الخاتمة، ولذلك تعهد ﷻ بحفظها من التبديل والتحريف الذي تعرضت له كل الرسالات السابقة.

ثانياً: من التشريعات الإلهية في سورة «الأنعام»:

(1) تحريم الشرك بالله.

(2) تحريم وقتل الأولاد من إملاق؛ أي من فقر.

(3) الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

(4) تحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

(5) تحريم أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

(6) الأمر بالتزام صراط الله المستقيم وعدم اتباع السبل الملتوية فتتفرق بالناس عن سبيله، فيضيعون في الدنيا، ويذلون ويهلكون في الآخرة.

(7) الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وبتقوى الله ـ تعالى ـ في جميع الأحوال.

(8) تحريم الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(9) الأمر بوفاء الكيل والميزان بالقسط، وتحريم كل إخلال بذلك.

(10) الأمر بالعدل في القول، وبالإخلاص في العمل؛ وبالوفاء بعهود الله.

(11) تحريم أكل كل ما لم يذكر اسم الله عليه وما أهل لغير الله به؛ وكذلك تحريم أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير إلا من اضطر غير باغ ولاعاد فإن الله غفور رحيم.

ثالثاً: من قصص الأمم البائدة في سورة الأنعام

(1) جاء ذكر عدد من أنبياء الله ورسله السابقين على بعثة النبي والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وهم: نوح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، عيسى، إلياس، اليسع، ويونس ـ على نبينا وعليهم جميعاً من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ.

(2) وصف عناد الأمم الكافرة الباغية، ورفضها لآيات ربها، وإعراضها عنها، على الرغم من إهلاك أمثالها من الأمم السابقة عليها، وقد استمرت البشرية في تكرار أخطائها إلى زمن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ولاتزال مستمرة في ذلك إلى زماننا الراهن، وحتى قيام الساعة دون استخلاص للعبر، وأخذ للدروس.

(3) أكدت سورة «الأنعام» تحريف اليهود للتوراة، وانحرافهم عن منهج الله، كما أكدت تكامل كل رسالات السماء في القرآن الكريم الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على خاتم أنبيائه ورسله لينذر به أهل مكة المكرمة ومن حولها أهل الأرض جميعاً.

(4) استنكار افتراء الكذب على الله، والادعاء الباطل من قبل بعض المشعوذين بتلقي شيء من الوحي، أو بالقدرة على الإتيان بشيء من مثل القرآن الكريم، وهي افتراءات وادعاءات صاحبت مسيرة الكفر والشرك وغيرهما من الانحرافات البشرية عبر التاريخ إلى زماننا الراهن، وحتى قيام الساعة.

الآيات الكونية التي استعرضتها سورة الأنعام:

(1) خلق السمٰوات والأرض بالحق.

(2) خلق الظلمات والنور في الكون.

(3) خلق الإنسان من طين، وتحديد أجله زماناً ومكاناً.

(4) خلق كائنات تسكن بالليل وأخرى تسكن بالنهار.

(5) إثبات أن كل خلق من خلق الله يشكل أُمة مثل أُمة بني الإنسان.

(6) الإخبار من قبل ألف وأربعمائة سنة مضت بالتقدم العلمي والتقني المذهل الذي تحققة اليوم الأمم الكافرة، وأن هذا التقدم دون التزام ديني، وأخلاقي وروحي سوف يكون وبالاً عليهم، ومن أسباب إفنائهم والقضاء عليهم، ونحن نرى بوادر ذلك الانهيار واضحة في مختلف أرجاء الأرض.

(7) التأكيد على أن بالكون أموراً غيبية غيبة مطلقة لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ.

(8) التأكيد على حقيقة أن النوم صورة من صور الوفاة، وأن اليقظة من النوم صورة مصغرة عن البعث بعد الموت.

(9) التأكيد على ظلمات كل من البر والبحر؛ بمعنى أن الظلمة هي الأصل في الكون، وأن النور نعمة يمنّ بها الخالق على خلقه.

(10) الإشارة إلى توسط مكة المكرمة بالنسبة إلى اليابسة.

(11) التلميح إلى معجزة فلق كل من الحب والنوى لحظة الإنبات.

(12) استخدام تبادل الليل والنهار في الإشارة اللطيفة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس.

(13) تشبيه طلوع الصبح من ظلمة الليل بفلق الحبة أو النواة لإخراج السويقة والجذير منها لحظة الإنبات.

(14) الإشارة إلى الحكمة الإلهية من جعل الليل للسكن، وجعل النهار لعمارة الأرض وللجري وراء المعايش.

(15) التأكيد على أن الشمس والقمر يجريان بنظام محكم دقيق يمكن الإنسان من حساب الزمن، والتأريخ للأحداث، وأداء العبادات والحقوق.

(16) خلق النجوم ومن فوائدها للإنسان الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.

(17) الإشارة إلى خلق السلالة البشرية كلها من نفس واحدة.

(18) إخراج الحب المتراكب من الخضر الذي يخلقه الله ـ تعالى ـ في داخل كل نباتات الحبوب.

(19) إخراج القنوان الدانية وهي العراجين المتدلية من النخل، (جمع قنو، وهو العذق أو عنقود التمر) من طلوع النخل وهو أول ما يبدو من ثمر النخل وهو يخرج كالكيزان.

(20) كذلك إخراج جنات من أعناب، ومن الزيتون والرمان، مشتبهاً وغير متشابه وذلك بإنزال الماء من السماء إلى الأرض، واعتبار ثمره إذا أثمر وينعه من الآيات لقوم يؤمنون.

(21) إثبات أن التصعد في السماء ـ بغير وقاية حقيقية ـ يجعل صدر الصاعد ضيقاً حرجاً.

(22) إنشاء جنات من المعروشات وغير المعروشات، والنخل والزرع مختلفاً أكله، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه مما يؤكد طلاقة القدرة الإلهية الخلاقة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ولذلك سوف أقصر حديثي هنا على النقطة العاشرة من القائمة السابقة والتي تتحدث عن توسط مكة المكرمة لليابسة، وقبل الدخول إلى ذلك لا بد من الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين في شرح هذه القضية.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنعام: 92).

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾؛ يعني القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ يعني مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ

عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**» وذكر منهن: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[1]، ولهذا قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها».

● وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: «﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله من الكتب ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ بالتاء والياء، عطف على معنى ما قبله؛ أي: أنزلناه للبركة والتصديق ولتنذر به ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: أهل



(وكالة ناسا)

صورة بالأقمار الصناعية للحرم المكي الشريف بعد التوسعة التي أمر بها ورعاها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز (يرحمه الله)

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 427) وأخرجه النسائي في (الحديث: 426).

مكة وسائر الناس والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون خوفاً من عقابها؛ أي خوفاً من عقاب تاركها، وخص الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات وأفضلها بعد الإيمان.

• وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعه ـ ما نصه: . . . إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل، وأن ينزل الله عليهم الكتب، وهذا الكتاب الجديد، الذي ينكرون تنزيله، هو كتاب مبارك، وصدق الله، فإنه والله لمبارك. . . ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهو يصدق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله في صورتها التي لم تحرف، لا فيما حرفته المجامع وقالت إنّه من عند الله . . . .

فأما حكمة إنزال هذا الكتاب، فلكي ينذر به الرسول ﷺ أهل مكة أم القرى وما حولها ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ وسميت مكة أم القرى لأنها تضم بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه وحده بلا شريك، وجعله مثابة أمن للناس وللإيحاء جميعاً، ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض، ولم تكن دعوة عامة من قبل. . .

• وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه: ﴿مُبَارَكٌ﴾ القرآن، ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة والمراد أهلها؛ وسميت بذلك لأنها قبلة أهل القرى ومحجهم. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أهل المشارق والمغارب؛ لعموم بعثته ﷺ للناس كافة.

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: وهذا القرآن كتاب أنزلناه كما أنزلنا التوراة كثير الخير، باق إلى يوم القيامة، مصدق لما تقدمه من الكتب المنزلة، مخبر عن نزولها، لتبشر به المؤمنين، وتخوف الكفار من أهل مكة ومن حولها في جميع أنحاء الأرض من غضب الله، إذا لم يذعنوا له، والذين يصدقون بيوم الجزاء يحملهم رجاء الثواب والخوف من العقاب على الإيمان به، وهم لذلك يحافظون على أداء صلاتهم كاملة مستوفاة.

• وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ ما نصه: . . . «أي وهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي يصدق أصول كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل في أصولهما الصحيحة ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس؛ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي والذين يصدقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ﴿وَهُمْ عَلَىٰ

صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها، قال الصاوي: خص الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات...

وتوسط مكة المكرمة لليابسة يفسر دلالة النص القرآني ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

لقد كانت حركة الاستشراق في جذورها حركة استخبارية، تجسسية، معادية للإسلام والمسلمين، حريصة على تصيد كل فرصة لمهاجمة دين الله الخاتم بدون وجه حق، ومن القضايا التي أثارها المستشرقون زوراً اقتطاع هذا النص الكريم الذي نحن بصدده (ولتنذر أم القرى ومن حولها) من مضمونه وقصره على أهل مكة وبعض القرى من حولها، واعتباره معارضاً للعديد من النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد عالمية الرسالة الخاتمة من مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ **(الأنبياء: 107).**

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ **(سبأ: 28).**

وقول المصطفى ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**»... وذكر منهن:... «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[1].

وفي محاولة علمية جادة لتحديد الاتجاهات الدقيقة إلى القبلة، أي إلى الكعبة المشرفة من المدن الرئيسية في العالم باستخدام الحاسوب (الكمبيوتر) ذكر الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين رحمه الله برحمته الواسعة؛ الذي شغل درجة الأستاذية لمادة المساحة بكلية الهندسة في عدد من الجامعات والمعاهد العليا مثل جامعات **القاهرة**، وأسيوط، والرياض، وبغداد، والأزهر الشريف، والمعهد العالي للمساحة بالقاهرة أنه لاحظ تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزاً لليابسة، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا

---

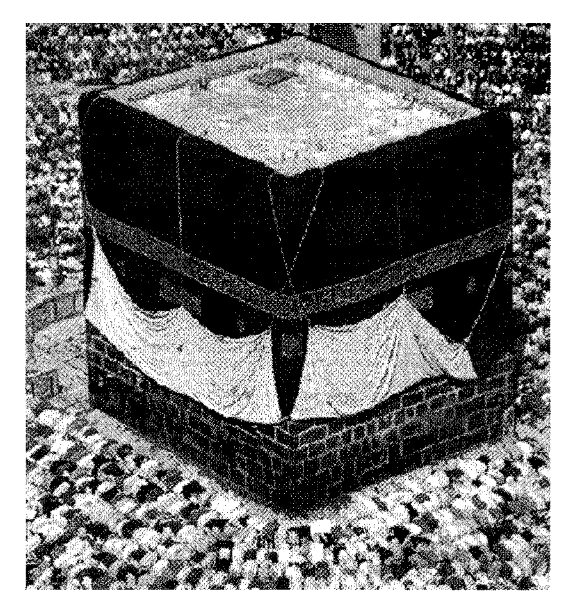
(1) تقدم تخريجه.



مكة المكرمة مركزاً لليابسة

رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۞﴾. (الشورى: 7).

وقد ثبت علميًّا أن القارات السبع التي تكون اليابسة على أرضنا في هذه الأيام كانت في الأصل قارة واحدة ثم تفتتت بفعل الصدوع والخسوف الأرضية إلى تلك القارات السبع التي أخذت في التباعد عن بعضها البعض ولا تزال تتباعد. وبمتابعة جهود الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله برحمته الواسعة ـ وجدت أنه في كل الحالات: واليابسة قطعة واحدة، وبعد تفتتها إلى القارات السبع مع قربها من بعضها البعض، وفي كل مراحل زحف هذه القارات ببطء شديد متباعدة عن بعضها البعض حتى وصلت إلى أوضاعها الحالية، في كل هذه الحالات كانت مكة المكرمة دائماً في وسط اليابسة.



الكعبة المشرفة مركز اليابسة

وقد ثبت علميًّا ـ أيضاً ـ أن أرضنا في مرحلة من مراحلها الابتدائية كانت مغمورة غمراً كاملاً بالماء، ثم فجر الله ـ تعالى ـ قاع هذا المحيط الغامر بثورة

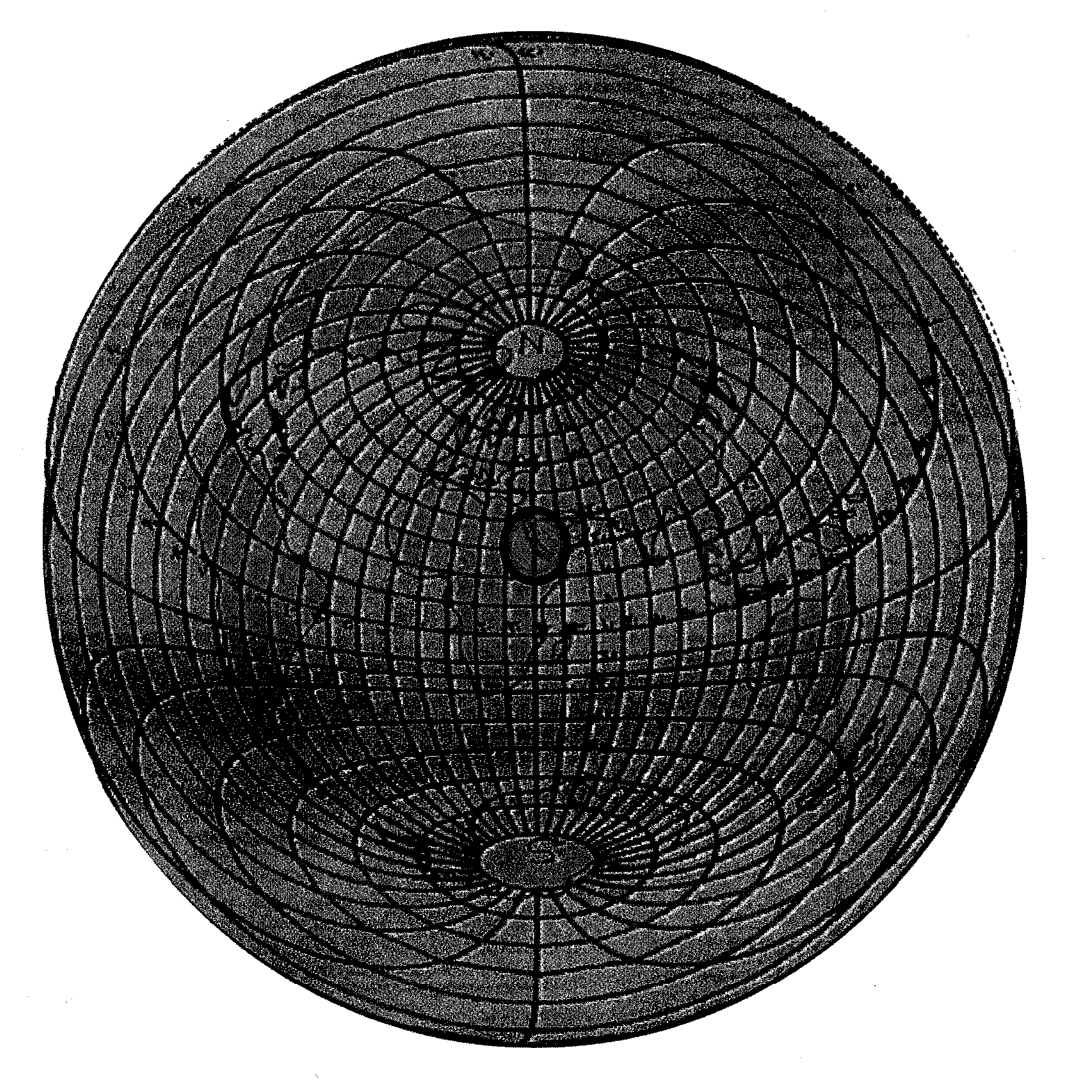
بركانية عارمة عن طريق تصدع وخسف هذا القاع، وأخذت الثورة البركانية تلقي بحممها فوق قاع هذا المحيط لتبني سلسلة من سلاسل جبال أواسط المحيطات، ومع ارتفاع أعلى قمة في تلك السلسلة فوق مستوى سطح ماء هذا المحيط الغامر تكونت أول مساحة من اليابسة على هيئة جزيرة بركانية تشبه العديد من الجزر البركانية المتكونة في أواسط محيطات اليوم كجزر اليابان، الفلبين، إندونيسيا، هاواي، وغيرها.

ويروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض**»؛ وهذا الحديث ذكره الهروي في غريب الحديث (362/ 3) وذكره الزمخشري في (الفائق في غريب الحديث) (371/ 1)، وذلك لأن مدلوله العلمي سابق لزمانه بألف وأربعمائة سنة؛ و(الخشعة) هي الأكمة المتواضعة؛ فهل يمكن أن تكون أرض الكعبة المشرفة أول جزء من اليابسة ظهر فوق سطح المحيط الذي غمر الأرض في مراحلها الأولى؟ هذا سؤال لم تكتمل الإجابة عليه بعد.

خصوصية انتفاء الانحراف المغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة

أضاف الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ في بحثه القيم المعنون «إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة» والمنشور في العدد الثاني من المجلد الأول لمجلة البحوث الإسلامية الصادرة بالرياض سنة 1395/ 1396هـ (الموافق 1975/ 1976م) أن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول (39.817 شرقاً) تقع جميعها في هذا الإسقاط على خط مستقيم، هو خط الشمال/الجنوب الجغرافي المار بها؛ أي أن المدن التي تشترك مع مدينة مكة المكرمة في خط الطول يكون اتجاه الصلاة فيها إلى الشمال أو الجنوب الجغرافي تماماً، والمدن التي تتجه في الصلاة إلى الجنوب الجغرافي تبدأ من القطب الشمالي للأرض إلى خط عرض مكة المكرمة (21.437 شمالاً) وأما المدن التي تقع على خط الطول الممتد من جنوب مكة المكرمة إلى القطب الجنوبي فإن اتجاه القبلة فيها يكون ناحية الشمال الجغرافي تماماً.

وكذلك الحال على خط الطول المقابل لخط طول مكة المكرمة، وهو خط الطول المرقم (140.183 درجة غرباً) فإن المدن الواقعة عليه تصح الصلاة فيها نحو الشمال الجغرافي أو الجنوب الجغرافي تماماً حسب موقع خط عرض كل منها بالنسبة إلى خط عرض مكة المكرمة. فالمدن الواقعة إلى الجنوب من خط العرض المقابل لخط عرض أم



توسط مكة المكرمة لليابسة يجعلها في الإسقاط المساحي المكي مركزاً للعالم

القرى؛ أي من خط عرض 21.437 جنوباً إلى القطب الجنوبي تتجه في صلاتها إلى الجنوب الجغرافي تماماً، والمدن الواقعة شمالاً من خط العرض ذلك إلى القطب الشمالي تتجه في صلاتها إلى الشمال الجغرافي تماماً.

أما المدينة الواقعة على خط الطول المقابل لمكة المكرمة تماماً وعلى خط عرضها تماماً فإن الصلاة تجوز فيها نحو أيٍّ من الشمال أو الجنوب الجغرافيين تماماً، كما تجوز في كل الاتجاهات الأُخرى شرقاً وغرباً؛ وذلك لوقوع تلك المدينة على امتداد قطر الكرة

الأرضية المار بمكة المكرمة. معنى هذا الكلام أنه لايوجد انحراف مغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة وعند جميع الخطوط الموازية له، باستثناء حالة واحدة.

والسبب في ذلك أن قطبي الأرض المغناطيسيين في تجوال مستمر حتى يتم انقلابهما فيصبح القطب الشمالي جنوباً والقطب الجنوبي شمالاً، وعند ذلك يحدث الكثير من الكوارث الطبيعية واندثارات الحياة، وقد ثبت حدوث مثل هذه الانقلابات المغناطيسية في تاريخ الأرض عدة مرات.

وتعلل المغناطيسية الأرضية بوجود مغناطيس كبير يمر بمركز الأرض، ويميل محوره حالياً بمقدار 11.5 درجة بالنسبة للمحور القطبي الجغرافي للكرة الأرضية، ويعتقد بأن هذا المجال المغناطيسي ناتج عن حركة لب الأرض المائع مع دوران كوكبنا حول محوره.

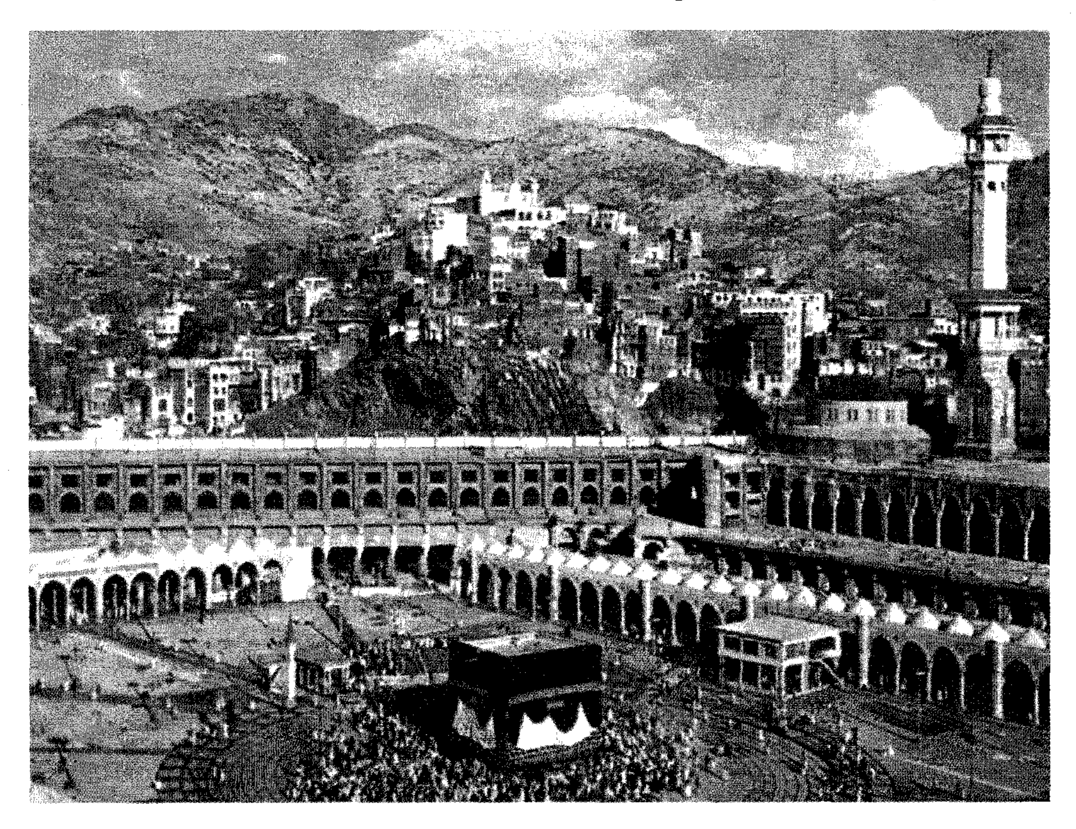
وعلى ذلك فإن الاتجاه المغناطيسي الذي يحدد بالبوصلة أو بغيرها من الأجهزة المساحية التي تستخدم الإبرة الممغنطة تختلف عن الاتجاه الحقيقي بزاوية تعرف **باسم زاوية الانحراف المغناطيسي**، وهي تحدد على جميع أنواع الخرائط لكي يحسب الاتجاه الحقيقي بمعرفة كل من الشمال المغناطيسي والشمال الحقيقي.

ومن الثابت تاريخياً أن خط طول جرينيتش قد فرضته بريطانيا بالقوة إبان هيمنتها على العالم في سنة 1884م أثناء مؤتمر عقد في واشنطن/ كولومبيا لتحديد خط طول الأساس وكان اختباراً سيئاً فرضته الهيمنة البريطانية الغاشمة في العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر الميلادي؛ لأن زاوية الانحراف المغناطيسي في الجزر البريطانية كما قيست في سنة 1972 كانت في حدود 8.5 درجة إلى الغرب من الشمال.

يظهر ذلك خصوصية خط طول مكة المكرمة بانطباق الشمال المغناطيسي على الشمال الحقيقي، ومن هنا كان اختيار الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لخط طول مكة المكرمة كخط طول أساسي للكرة الأرضية وإعادة إسقاط خطوط طول الكرة الأرضية بدءاً منه، أي بالنسبة إلى مكة المكرمة لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلاً مذهلاً وتذكر المراجع العلمية أن هناك خطّاً من خطوط الطول يمر بمدينة (سنسنائي أوهايو) تتضاءل عنده زاوية الانحراف المغناطيسي إلى قرابة الصفر ويعرف باسم خط انعدام زاوية الانحراف المغناطيسي **(The Agonicline)** وعلاقة هذا الخط بخط طول مكة المكرمة لم تدرس بعد.

مكة المكرمة مركز الكون

استقراء لآيات القرآن الكريم ولأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يتضح بجلاء توسط مكة المكرمة بين السمٰوات السبع والأرضين السبع وهي حقيقة دينية لا يمكن للعلم المكتسب أن يصل إليها؛ وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى من فوق سطح الأرض إلا شريحة صغيرة من السماء الدنيا ووسيلته في ذلك هي النجوم التي تزين السماء الدنيا وحدها لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:



صورة للحرم المكي الشريف قبل التوسعة ويبدو في الخلف جبل أبو قبيس

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ . . .﴾ **(الملك: 5)**.

ومن مبررات ذلك ما يلي:

(1) ورود ذكر الأرض في مقابلة السماء في عشرات الآيات القرآنية على ضآلة حجم الأرض إذا ما قورنت بالسماء مما يشير إلى تميز موقع الأرض بالنسبة إلى السماء.

(2) إشارة القرآن الكريم إلى البينية الفاصلة للسماء أو السمٰوات عن الأرض، في عشرين آية صريحة، وهذه البينية لا يمكن أن تتم مع تناهي الأرض في الضآلة وتناهي السمٰوات في الضخامة إلا إذا كانت الأرض في المركز بين السمٰوات السبع والأرضين السبع.

(3) إشارة القرآن الكريم في سورة (الرحمٰن) إلى أقطار السمٰوات والأرض وقطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفين من أطرافه مروراً بمركزه، وإذا كانت أقطار السمٰوات والأرض واحدة فلا بد وأن تكون أرضنا في المركز من السمٰوات السبع.

(4) حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه بقوله: **إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»[1]، ولفظة (مناء) معناها القصد في الاتجاه والاستقامة مع كل من السمٰوات السبع والأرضين السبع؛ أي التواجد بينهما، وعلى استقامة مراكزها وتأكد ذلك بإثبات توسط الكعبة المشرفة للأرض الأولى أي اليابسة.

(5) حديث رسول الله ﷺ المروي عنه بقوله: «**البيت المعمور منا مكة**»[2] ووصف ذلك البيت المعمور في حديث آخر يروى عنه ﷺ بقوله: «**هو بيت في السماء السابعة على حيال الكعبة تماماً حتى لو خرّ لخر فوقها**»[3].

من ذلك كله تتضح ومضة الإعجاز القرآني في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فتتضح وسطية أم القرى ليابسة الأرض، ومن هنا يكون المنذرون هم جميع أهل الأرض بلا استثناء، ويتضح وضع الكعبة المشرفة في وسط الأرض الأولى وهي اليابسة ودونها ست أرضين، ويحيط بذلك كله سبع سمٰوات وفوق الكعبة المشرفة البيت المعمور زادها الله تشريفاً وتعظيماً.

فالحمد لله على نعمة الإسلام والحمد لله على نعمة القرآن، وصلى الله وسلم وبارك على النبي الخاتم الذي تلقاه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

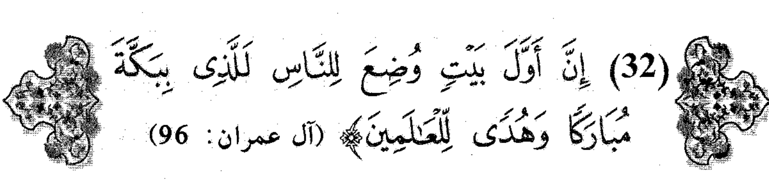
---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

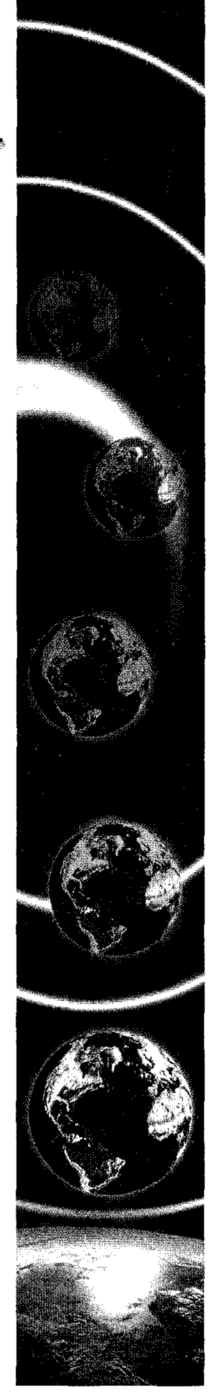
(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(3) تقدم تخريجه سابقاً.

بسم الله الرحمن الرحيم



(32) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: 96)



هذه الآية الكريمة جاءت في منتصف سورة «آل عمران»، وهي سورة مدنية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها مائتي آية بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أسرة السيدة مريم ابنة عمران، أم نبي الله عيسى ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

(آل عمران: 33 ـ 34).

وتروي السورة الكريمة **قصة امرأة عمران**، وابنتهما مريم أم عيسى عليه السلام، كما تروي معجزة ميلاده من أم بغير أب، والمعجزات التي أجراها الله تعالى على يديه.

كذلك جاءت الإشارة في هذه السورة الكريمة إلى كل من **نبي الله زكريا وولده يحيى** الذي وهبه الله له على الكبر، كما جاء بالسورة وصف تفصيلي لما حدث في معركة أحد.

ويدور المحور الرئيسي لسورة آل عمران حول **حوار أهل الكتاب**، ويتحدد من خلال هذا الحوار عدد من ركائز العقيدة الإسلامية وتشريعاتها.

وتستفتح السورة بالحروف المقطعة الثلاثة الٓمٓ التي تكررت في مطلع ست من سور القرآن الكريم. وينقسم المفسرون حيال هذه الفواتح الهجائية إلى مجموعتين؛ ترى الأولى منهما ضرورة التوقف عن الخوض فيها وتفويض أمرها إلى الله، وترى المجموعة الثانية عدم التحرج من النظر فيها، والاجتهاد في فهم دلالاتها.

ويدور حوالي نصف عدد آيات السورة (من 1 ـ 83) في الحوار مع أهل الكتاب، ممثلين في وفد نصارى نجران الذي قدم المدينة المنورة في السنة التاسعة للهجرة.

وتتضمن هذه الآيات الكريمة إشارات إلى اليهود، وحقيقة نواياهم، وما انطوت عليه نفوسهم المريضة من خبث، ومكر، ودهاء، وكراهية للحق، كما تتضمن تحذيرات للمسلمين من دسائسهم ودسائس غيرهم من المشركين والكفار والمنافقين.

وقد جاء الخطاب إلى أهل الكتاب في اثنتي عشرة آية نختار منها قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾. **(آل عمران: 59).**

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾. **(آل عمران: 64).**

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى تأكيد إيمان المسلم بجميع الرسالات السماوية، وبجميع أنبياء الله ورسله دون أدنى تفريق، مؤكدة أن رسالتهم جميعاً واحدة؛ ألا وهي الإسلام العظيم الذي بعث به كل نبي وكل رسول، وتتبع تلك الحقيقة بالقرار الإلهي الحاسم الجازم الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾. **(آل عمران: 85).**

وذلك بعد أن قرر في أوائل السورة الكريمة قراراً آخر يقول فيه ربنا (جلت قدرته):

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩﴾. **(آل عمران: 19).**

وبعد ذلك تحدثت الآيات عن عقاب المرتدين، وعن حكم الله فيهم، ودعت إلى الإنفاق في سبيل الله، وحذرت من تحريف اليهود للتوراة، وأمرت باتباع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين..

وأشارت سورة (آل عمران) إلى الكعبة المشرفة بصفتها.. أول بيت وضع للناس..، وأكدت فريضة الحج على المستطيع من المسلمين، وعاتبت أهل الكتاب في أكثر من مقام، كما عاتبت أهل الكفر والضلال من العرب على كفرهم، وآيات الله تتلى عليهم، وفيهم رسوله، وأوصت بتقوى الله، وأكدت ضرورة الاعتصام بحبله جميعاً دون فرقة، وذكرت

بنعم الله على العباد، ودعت إلى نفرة أُمة من المسلمين للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووصفتهم بأنهم هم المفلحون.

ونهت السورة الكريمة عن فرقة الكلمة، وتحدثت عن مصائر كل من المؤمنين والكافرين في يوم الدين، وعن جزاء كل منهم، وأكدت أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، أنزله بالحق على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وأنه هدى وموعظة للمتقين..

وخاطبت السورة الكريمة أُمة الإسلام بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾. **(آل عمران: 110)**.

وعرجت الآيات مرة أُخرى إلى الحديث عن أهل الكتاب، وأكدت أن منهم المؤمنين، وأكثرهم الفاسقون، وأثنت على الذين يؤمنون منهم وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.
(آل عمران: 115).

ثم انتقلت سورة (آل عمران) إلى الحديث عن **غزوة أحد،** وما أصاب المسلمين فيها من انكسار بسبب مخالفتهم لأوامر رسول الله ﷺ في ساحة المعركة، وذكرت بانتصارات بدر، وبمبررات ذلك الانتصار، وصاغت الأحداث صياغة ربانية معجزة لا تتوقف عند حدود وصف المعركتين وصفاً مجرداً، ولكن تتجاوز ذلك لتصبح توجيهات ربانية دائمة في بناء الجماعة المسلمة، وتوضيح سنن الله في النصر والهزيمة إلى يوم الدين.

وتؤكد السورة الكريمة في أكثر من آية أن لله ما في السمٰوات وما في الأرض، وأن الله ـ تعالى ـ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وأن الله غفور رحيم.

وتنهى هذه السورة عن أكل الربا، وتحذر من عذاب النار، وتأمر بطاعة الله ورسوله، كما تنصح بالمسارعة إلى طلب المغفرة من الله، وسؤاله الجنة التي أعدت للمتقين الذين أوردت شيئاً من صفاتهم، وتوصي بالسير في الأرض من أجل الاعتبار بعواقب المكذبين.

ثم عاودت سورة (آل عمران) إلى التذكير بغزوة أحد في مواساة رقيقة للمسلمين، مؤكدة لهم أنهم هم دائماً الأعلون ما داموا على إيمانهم بالله، على الرغم من تعرضهم لبعض النكسات والهزائم أحياناً، وأن النصر والهزيمة من سنن الله في الحياة، لكل منها قوانينه، وأن الأيام دول يداولها الله ﷻ بين الناس لحكمة يعلمها، لعل منها أن يتخذ من

المؤمنين شهداء، وأن يميز المؤمنين من المنافقين، وأن يطهر المؤمنين بهذا التمحيص من الذنوب، ويهلك الكافرين والمشركين والمنافقين بذنوبهم، والله تعالى لا يحب الظالمين من المعتدين ولا من المتخاذلين عن الدفاع عن دمائهم وأعراضهم ومقدساتهم وممتلكاتهم، وعن الحق وأهله، وهذا الخطاب كما كان لأصحاب رسول الله ﷺ ولأهل زمانه هو خطاب لنا اليوم في تقاعسنا عن الدفاع عن الحق وأهله!!.

وأكدت سورة (آل عمران) أن سيدنا محمد ﷺ هو رسول قد خلت من قبله الرسل، لا يجوز لأي ممن آمن به واتبعه أن يرتد عن ذلك إن مات أو قتل ﷺ، وفي ذلك إشارة إلى ما أشاعه الكافرون أثناء معركة أحد بأن رسول الله قد قتل، فتصور المنافقون المندسون في وسط المسلمين أن رسالته قد انتهت، وأن بإمكانهم الارتداد عن دينه، وتؤكد الآيات أن من يرتد عن الإسلام فلن يضر الله شيئاً، ولكنه يهلك نفسه بتعريضها لسخط الله وعذابه.

وتنتقل الآيات إلى **قضية الأجل** مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ قد جعل لكل نفس أجلاً محدداً لا تموت إلا عنده، وقد جعله الله سبحانه وتعالى غيباً حتى لا تتوقف عجلة الحياة، وأخبر بتلك الحقيقة تشجيعاً للمؤمنين على تجاوز حاجز الخوف من الموت، وتأييداً للانخراط في مواكب المجاهدين في سبيل الله دون مهابة.

وتؤكد الآيات في سورة (آل عمران) أن من قصد بعمله أجر الدنيا، أعطاه الله إياه، وليس له في الآخرة من نصيب، وأن من قصد بعمله أجر الآخرة أعطاه الله ـ تعالى ـ أجري الدنيا والآخرة، وأن الله ﷻ يجزي عباده بحسب شكرهم له، واعترافهم بعظيم نعمه عليهم، وإن كانت هذه أحكاماً عامة إلا أن فيها تعريضاً واضحاً بمن رغبوا في غنائم الحرب أثناء غزوة أحد فتسببوا في هزيمة جيش المسلمين.

ثم تنتقل الآيات في سورة (آل عمران) إلى الحديث عن أعداد كبيرة من **العلماء الربانيين، والمجاهدين الصادقين** الذين قاتلوا مع أنبياء الله ورسله، في سبيل الله، ومن أجل إعلاء دينه، فقتل منهم من قتل، وأصيب من أصيب ولكنهم لم يذلوا لعدوهم ولم يخضعوا له، واحتسبوا وصبروا في الشدائد والمحن وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ممتدحاً إياهم:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

(آل عمران: 146 ـ 147)

ثم يأتي قرار الله ـ تعالى ـ بأجرهم الذي يقول فيه ـ عز من قائل ـ:

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾. **(آل عمران: 148)**.

وتعاود السورة المباركة إلى تحذير المؤمنين من موالاة كل من المشركين والكافرين، وتؤكد للمؤمنين أن الله ـ تعالى ـ هو مولاهم وهو خير الناصرين، وأنه ـ تعالى ـ يعدهم النصر بقوله الحق:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾. **(آل عمران: 151)**.

ومرة أُخرى تستعرض الآيات (152 ـ 175) أحداث معركة أحد بهدف تربية المسلمين، وتصحيح مفاهيمهم وتصوراتهم، وتحذيرهم من مزالق الطريق، وتنبيههم إلى ما أحاط بهم من كيد قديم، وما يمكن أن يحيط بهم من كيد يتجدد إلى يوم الدين، (كالذي نحن فيه اليوم واقعون من مؤامرات، ومكائد، وفتن يخطط لها أعداء الإسلام المتربصون بنا الدوائر)، ويحاول الشيطان أن يعينهم على ذلك، لكي يجعل من أوليائه مصدر إرهاب وتخويف للمؤمنين، والآيات في سورة (آل عمران) تؤكد أن الخوف لا يكون إلا من الله ـ تعالى ـ.

وتطلب الآيات من رسول الله ﷺ ألا يحزن على الذين يسارعون في الكفر لأنهم لن يضروا الله سبحانه وتعالى شيئاً، ولكن يضروا أنفسهم، ويريد الله ـ تعالى ـ ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة، ولهم عذاب عظيم، وإمهالهم في الدنيا بتمديد آجالهم والتمكين لهم ليس في صالحهم؛ لأنهم يزدادون بذلك معاصي وآثاماً فيتضاعف عذابهم في الآخرة، وفي المقابل فإن ابتلاء الله للمؤمنين هو ليميز الخبيث من الطيب (وهو أعلم بهم)، ويظهر ذلك لمن يشاء من عباده كما فعل في معركة أحد وقال ـ عز من قائل ـ:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾. **(آل عمران: 179)**.

وتنصح الآيات في سورة (آل عمران) بالإيمان بالله وتقواه، وببذل المال في سبيل الله، وتتوعد الذين يبخلون بذلك لأنهم:

﴿... سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾. **(آل عمران: 180)**.

ثم عاودت السورة الكريمة الإشارة إلى شيء من جرائم اليهود المروعة، ودسائسهم الخبيثة، وأساليبهم الملتوية في التطاول على الله ـ تعالى ـ وعلى خلقه، وفي محاربة دينه، وأنبيائه ورسله، وفي نقض العهود والمواثيق، ونشر المعلومات الكاذبة، والإشاعات المختلقة، والادعاءات الباطلة.

كما عاودت إلى تأييد رسول الله ﷺ في وجه المكذبين لبعثته الشريفة فتخاطبه بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾. **(آل عمران: 184)**

وتؤكد الآيات أن الفناء هو مصير الخلائق كلها، وأن كل نفس ميتة لا محالة.. وأن الخلائق سوف تلقي جزاء أعمالها وافياً يوم القيامة، وأن الابتلاء من سنن الحياة، وتوصي في مواجهته بالصبر والاحتساب، وبتقوى الله، وتعتبر ذلك من عزم الأمور.

وتعاود السورة إلى استعراض بعض المواقف المخزية لبني إسرائيل، ومنها أن الله تعالى كان قد أخذ عليهم كل العهود والمواثيق اللازمة كي يظهروا للناس حقيقة ما أنزل على أنبيائهم ورسلهم من أحكام فكتموها، ونبذوها وراء ظهورهم، واشتروا بها أشياء حقيرة من حطام الدنيا الفانية. وتعليقاً على ذلك يقول ربنا ﷻ:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾. **(آل عمران: 188).**

وتختتم هذه السورة الكريمة بتوجيه الناس كافة إلى التأمل في خلق السمٰوات والأرض، واستخلاص شيء من صفات الخلاق العليم بالتعرف على بديع صنعه في خلقه، وبتوجيههم كذلك إلى تكثيف الرجاء والدعاء إلى الله تعالى بالنجاة من النار، ومن خزي يوم القيامة، وبطلب المغفرة للذنوب، وتكفير السيئات، ورفع الدرجات.

ويستجيب لهم الله ﷻ من فيض كرمه فيقول:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾. **(آل عمران: 195).**

ثم يأتي الخطاب إلى رسول الله ﷺ وإلى جميع المسلمين ألا يغتروا بتقلب الذين كفروا في البلاد في شيء من النعمة، والجاه، والسلطان، فمتاع الدنيا قليل، ومن ثم ينتهي

بهم إلى جهنم وبئس المصير، وفي المقابل فإن الصالحين المتقين قد يعيشون في الدنيا في شيء من الحرمان وشظف العيش، ولكن الله ـ تعالى ـ قد أعد لهم في الآخرة خيراً كثيراً.

وتعاود السورة في خواتيمها إلى ذكر أهل الكتاب، وتقرر أن منهم من سلك طريق الهداية فانتهى إلى نفس النهاية: آمن بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله بغير تفريق ولا تمييز، بما في ذلك إيمانهم بخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وبالقرآن الكريم الذي أنزل إليه، فمنَّ الله ـ تعالى ـ عليهم بالخشوع لله، والخضوع لكلامه، والاعتزاز به، وتعظيمه، وأكرمهم، بأن لهم أجرهم عند ربهم.

وتختتم سورة آل عمران بوصية من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين من خلقه يقول لهم فيها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

وهي عدة المؤمن في مواجهة أهل الباطل في هذه الحياة.

من ركائز العقيدة في سورة آل عمران

تتلخص ركائز العقيدة التي جاءت بها سورة آل عمران في النقاط التالية:

● **أولاً**: الإيمان بالله تعالى رباً، وتوحيده توحيداً مطلقاً بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، وتنزيهه ﷻ عن كل وصف لا يليق بجلاله، من مثل نسبة الزوجة أو الولد له وهما من صفات المخلوقين ولا تليق بجلال الله.

والإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الحي القيوم، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه ﷻ هو الذي يصور الخلق في أرحام أمهاتهم كيف يشاء، وأنه هو العزيز الحكيم، وبأنه هو البصير بالعباد، مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، وأن النصر منه وحده يؤيد بنصره من يشاء، وأن الهدى هدى الله، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهو رؤوف بالعباد، وفي الوقت نفسه هو عزيز ذو انتقام، يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، وأنه لا يخلف الميعاد.

● **ثانياً**: الإيمان بالوحي الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترة من الرسل، هداية للناس، وأتمه، وأكمله، وحفظه في رسالته الخاتمة ـ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ، وأن هذه الرسالة الخاتمة مصدقة لما سبقها من صور الوحي، ومهيمنة عليها،

وعلى ذلك فإن الإيمان برسل الله مكمل للإيمان بوحي السماء.

● **ثالثاً**: الإيمان بأن القرآن الكريم يضم آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات (لا يعلم تأويلهن إلا الله).

● **رابعاً**: الإيمان بأن كل نفس ذائقة الموت، وأن الله ـ تعالى ـ جامع الناس ليوم لاريب فيه؛ أي: الإيمان بحقيقة الآخرة وحتميتها، وبحقيقة ما فيها من أحداث كبرى من مثل البعث والحساب، والجنة والنار، وبأن الجنة مثوى المتقين، وبأن النار مثوى الكافرين، وبأن المؤمنين تبيض وجوههم في يوم القيامة بينما تسود وجوه الذين يكفرون بعد إيمانهم.

● **خامساً**: الإيمان بأن الدين عند الله الإسلام، وأن أهل الكتاب لم يختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، وبأن من يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب.

● **سادساً**: الإيمان بضرورة طاعة الله، وطاعة الرسول الخاتم ﷺ واتباع سنته، والاعتصام بحبل الله، ومحاربة فرقة الكلمة بين المسلمين.

● **سابعاً**: الإيمان بأن أُمة الاسلام هي خير أُمة أخرجت للناس؛ لأنها تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، فإذا لم تقم بذلك فقدت هذه الخيرية.

● **ثامناً**: الإيمان بقضاء الله وقدره، وبأن البلاء من سنن الحياة، ولابد من مقابلته بالتسليم والصبر والرضاء بقضاء الله.

من ركائز التشريع في سورة آل عمران

1 ـ تحريم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

2 ـ تحريم افتراء الكذب على الله، أو أن يشتري المرء بعهد الله وإيمانه ثمناً قليلاً.

3 ـ تحريم الردة في الإسلام، وعلى المرتد أن يستتاب، فإن تاب بصدق قبلت توبته إن شاء الله، وإن لم يتب ومات فإنه يموت على الكفر، ويخلد في النار أبداً في عذاب أليم، وما له من ناصرين.

4 ـ وجوب الإنفاق في سبيل الله.

5 ـ إن لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

6 ـ تحريم أكل الربا تحريماً قاطعاً.

7 ـ تحريم التولي يوم الزحف.

8 ـ تحريم الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة خفية.

9 ـ تحريم النفاق.

10 ـ الحث على الاستشهاد في سبيل الله.

11 ـ فرض الشورى كقاعدة إسلامية في الحكم.

من الآيات الكونية في سورة آل عمران

(1) إن الله ـ تعالى ـ هو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء.

(2) الإشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بذكر ولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل بأمر من الله تعالى.

(3) الإشارة إلى دورة الحياة والممات والبعث بإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي.

(4) الإشارة إلى خلق آدم من تراب.

(5) التأكيد على حقيقة أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً.

(6) التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ له ما في السموات وما في الأرض، وأن إليه ترجع الأمور.

(7) التأكيد على أن كل نفس ذائقة الموت، وأنه ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً.

(8) الإشارة إلى معالجة الغم بغم جديد وهي قضية نفسية عرفها الإنسان مؤخراً..

(9) الإشارة إلى حقيقة أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار فيهما آيات لأولي الألباب، وأن تدبرهما والتفكر فيهما من وسائل التعرف على الخالق ﷻ وعلى شيء من صفاته العليا، وقدراته التي لا تحدها حدود في إبداعه لخلقه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، وسوف أقوم بذلك إن شاء الله ـ تعالى ـ تباعاً في فصول قادمة، ولكني أقصر حديثي هنا على النقطة الخامسة المتعلقة بأول بيت وضع للناس، ولكن قبل الشروع في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح هذه الآية الكريمة.

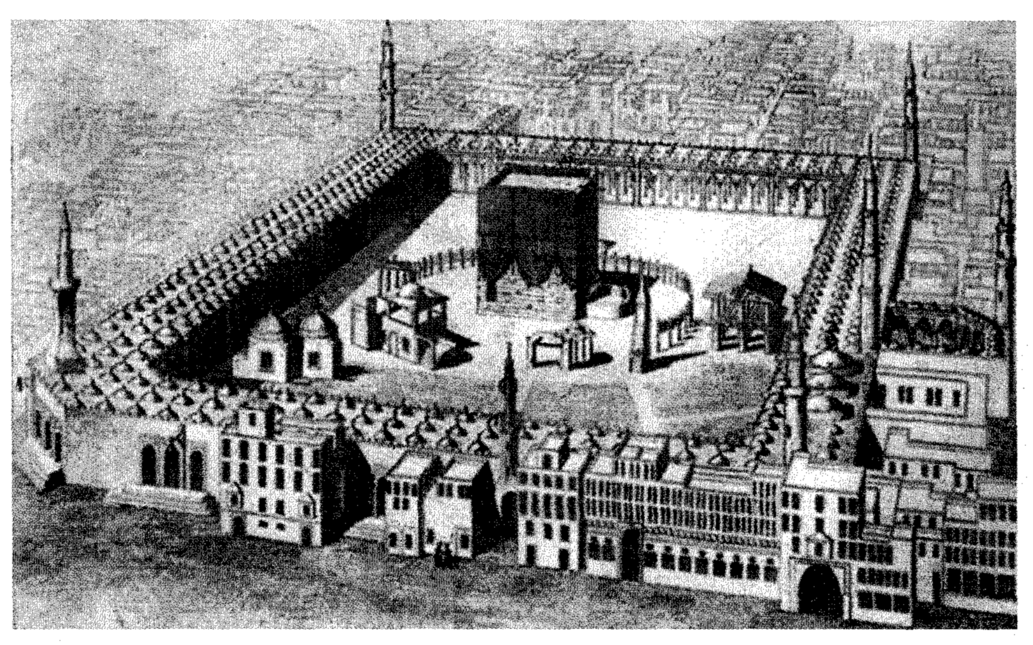
من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

(آل عمران: 96).

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما نصه: يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس؛ أي لعموم الناس، لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به، ويصلون إليه، ويعتكفون عنده ـ للذي ببكة ـ يعني الكعبة التي بناها (رفع قواعدها) إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ (وولده إسماعيل عليه من الله السلام)، ولهذا قال تعالى: ﴿**مُبَارَكًا**﴾ أي وضع مباركاً؛ ﴿**وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ**﴾. عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**»، قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم حيث أدركتك الصلاة فصلِّ فكلها مسجد**» (رواه أحمد، وأخرجه الشيخان بنحوه).



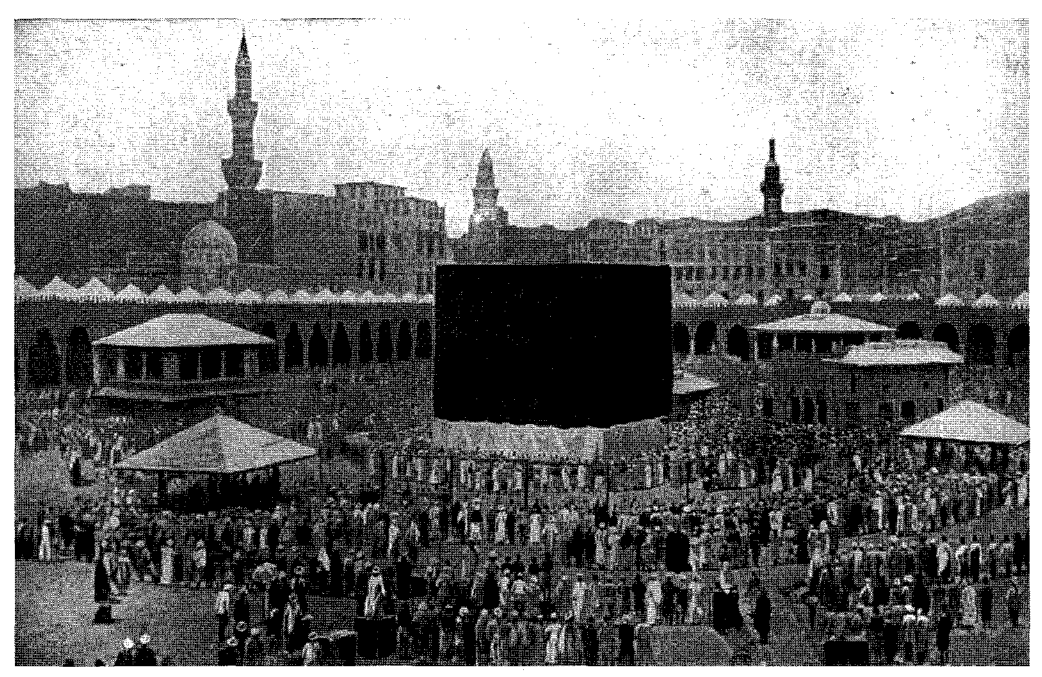
رسم للحرم المكي

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ...... قال: «كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله». وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض، مطلقاً..، وهذا فهم رائع وسابق

لزمانه بقرون طويلة على الرغم من إضافة ابن كثير قوله: والصحيح قول علي رضي الله عنه.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ فإن (بكة) من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تبكّ أعناق الظلمة والجبابرة؛ بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون، قال قتادة: إن الله بكّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها، وقال شعبة عن إبراهيم: (بكة) البيت والمسجد، وقال عكرمة: البيت وما حوله بكة وما وراء ذلك مكة وقال مقاتل بن حيان: (بكة) موضع البيت وما سوى ذلك مكة، وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة (مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم القرى، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والحاطمة، والرأس، والبلدة، والبنية، والكعبة).

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ متعبداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ في الأرض ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ بالباء لغة في (مكة) سميت بذلك لأنها تبكّ أعناق الجبابرة، أي: تدقّها، بناه الملائكة قبل خلق آدم، ووضع بعده الأقصى، وبينهما أربعون سنة كما في حديث الصحيحين، وفي حديث أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب



صورة أخذت للكعبة المشرفة عام 1297 هـ ـ 1880 م

عن ابن عمر موقوفاً عليه: أنه أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السمٰوات والأرض زبدة ـ بفتح الزاي ـ؛ أي: كتلة من الزبد) بيضاء فدحيت الأرض من تحته، ﴿مُبَارَكًا﴾ حال من ﴿ٱلَّذِى﴾؛ أي: ذا بركة ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم.

- وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «...ثم يقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل، فهي أول بيت وضع في الأرض للعبادة وخصص لها... وجعله مباركاً وجعله هدى للعالمين»..

- وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ـ ما نصه:

.... «إن أول بيت وضعه الله متعبداً للناس وقبلة للصلاة وموضعاً للحج والطواف، سواء العاكف فيه والباد، لهو الكعبة....»!، ﴿بِبَكَّةَ﴾ لغة في (مكة)، والميم والباء يتعاقبان لغة، كما في لازم ولازب، ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره، أو اعتكف فيه أو طاف حوله، لمضاعفة ثواب العبادة فيه؛ من البركة، وهي النماء والزيادة.

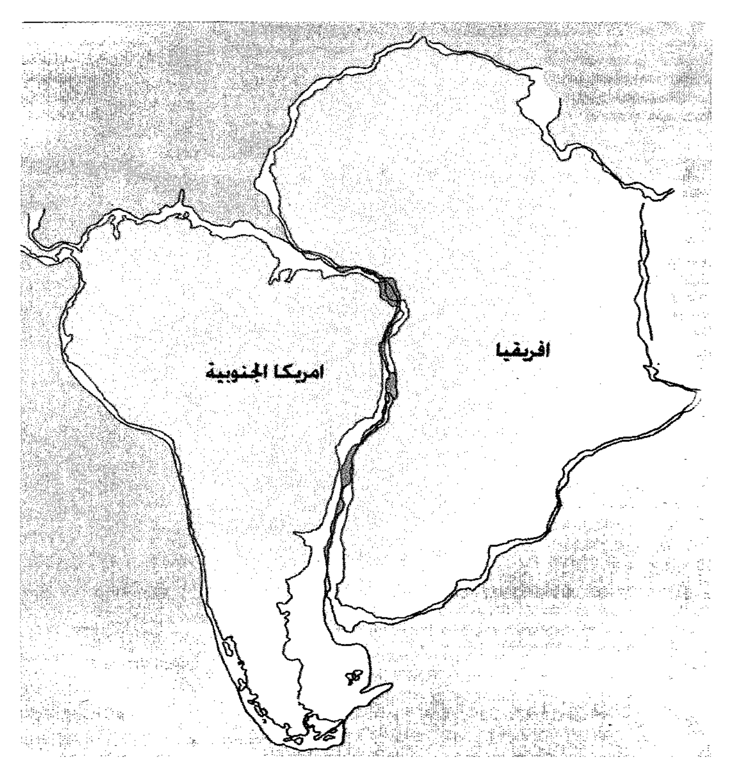
- وذكر كل من أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم وصاحب صفوة التفاسير ـ جزاهم الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً، لا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

الدلالة العلمية للآية الكريمة

بعد مجاهدة طويلة استغرقت آلافاً من العلماء، عبر عشرات من العقود ثبت لنا في منتصف الستينيات من القرن العشرين أن أرضنا في مرحلة من مراحل خلقها كانت مغمورة بالماء غمراً كاملاً، لم يدع فيها شيئاً مكشوفاً من اليابسة، ثم شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن يفجر قاع هذا المحيط الغامر بثورة بركانية عنيفة ظلت تلقي بحممها التي تراكمت فوق بعضها البعض مكونة سلسلة جبلية في وسط هذا المحيط الغامر، وظلت هذه السلسلة في النمو والارتفاع حتى ظهرت قمتها فوق سطح الماء مكونة أول جزء من اليابسة على هيئة جزيرة بركانية من مثل الجزر البركانية العديدة والمنتشرة في محيطات اليوم (جزر اليابان، الفلبين، إندونيسيا، هاواي، وغيرها)، وباستمرار عمليات النشاط البركاني نمت هذه الجزيرة الأولية بالتدريج بواسطة الثورات البركانية المتلاحقة التي أضافت إليها مساحات جديدة من اليابسة محولة إياها إلى قارة كبيرة تعرف باسم القارة الأم أو بانجيا **(Pangaea)** وهذا النمو ـ بالإضافة على مراحل ـ يعرف باسم الدحو الذي يعرف لغة: بالمد والبسط والإلقاء وهو تعريف دقيق لعمليات بناء الأرض بواسطة الثورات البركانية.

وبعد اكتمال تكون القارة الأم شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن يمزقها بواسطة شبكة

هائلة من الصدوع العميقة التي شكلت خسوفاً أرضية غائرة، فصلت تلك القارة الأم إلى القارات السبع المشاهدة حالياً على سطح الأرض التي كانت في القديم أشد تقارباً إلى بعضها البعض ثم بدأت في الزحف والتباعد حتى وصلت إلى مواقعها الحالية على سطح الأرض والتي لا تزال في حركة دائبة منها اليوم.



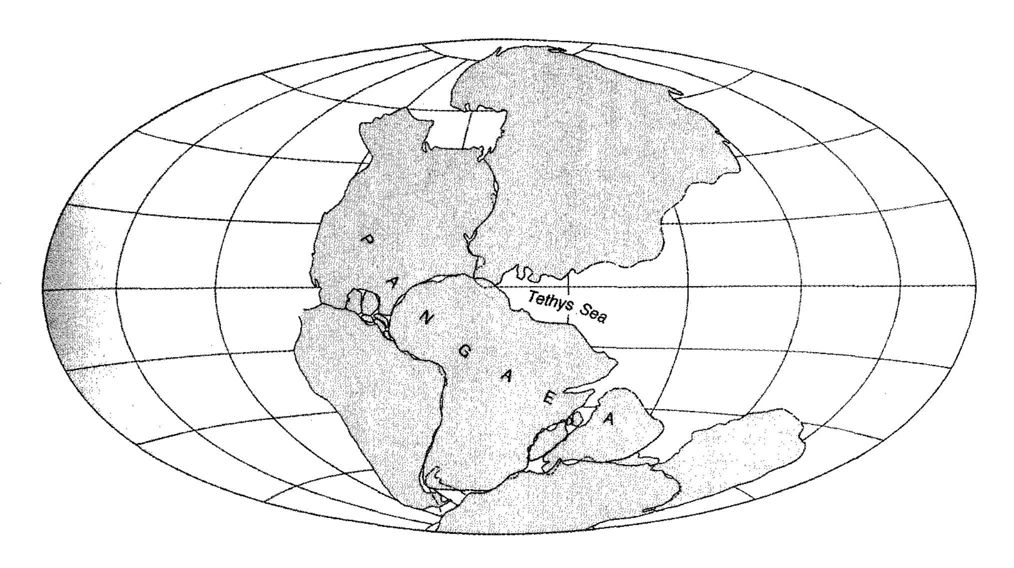
القارات كانت متقاربة وبدأت بالتباعد بواسطة تحرك الألواح والثورات البركانية

هذه الظاهرة التي يتحول فيها جزء من المحيط إلى أرض يابسة، أو تنشق الأرض اليابسة لتحتوي محيطاً فيما بينها تعرف باسم «**دورة المحيط واليابسة**».

ويتم تحول المحيط إلى أرض يابسة بواسطة الثورات البركانية المتكررة من تحت قاع المحيط التي ترتفع بجزء من ذلك القاع إلى ما فوق سطح الماء على هيئة جزر بركانية تظل تنمو بالتدريج متحولة إلى قارة، ثم بواسطة تصدع وخسف أجزاء من تلك القارة تنفصل إلى كتلتين متوازيتين يفصلهما بحر طولي شبيه بالبحر الأحمر، يظل يتسع باستمرار حتى يتحول إلى محيط.

ومن قبل ألف وأربعمائة سنة روي عن رسول الله ﷺ قوله: «**كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض**» والحديث ذكره الهروي في غريب الحديث (362/ 3)، وذكره الزمخشري في الفائق في غريب الحديث (371/ 1) لأن دلالته العلمية سابقة لعصره بألف وأربعمائة من السنين.

و(الخشعة) أكمة لاطئة بالأرض، والجمع (خشع).



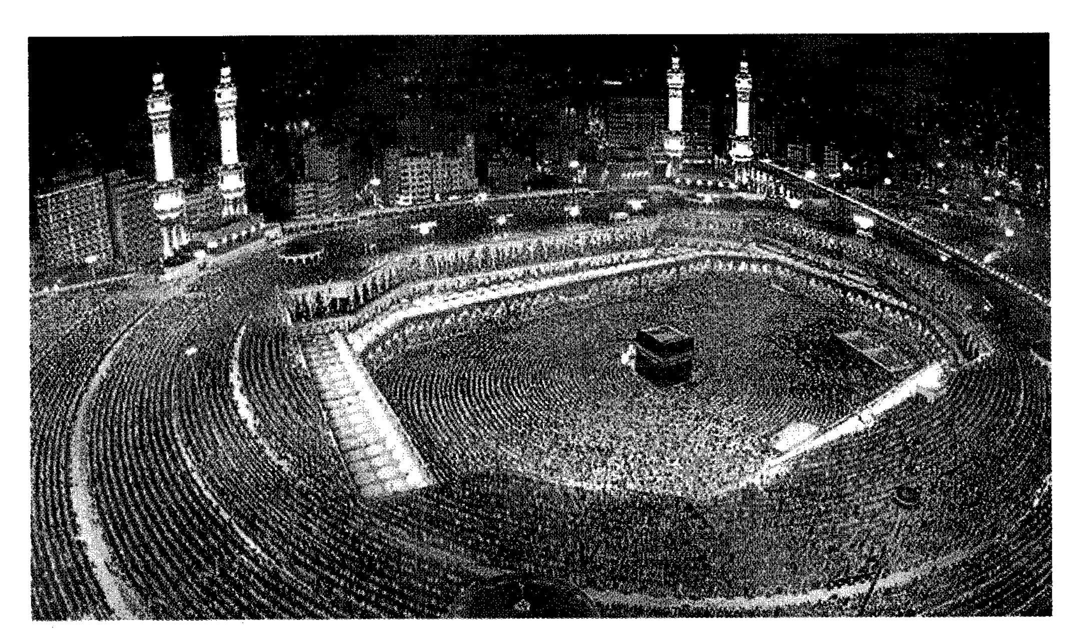
القارة الأم والتي تكونت منها القارات السبع بفعل الصدوع والتفتت (pangaea)

وهذا الحديث النبوي الشريف يدعمه حديث آخر أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً عليه: أنه؛ أي البيت الحرام أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السموات والأرض زبدة ـ بفتح الزاي ـ؛ أي كتلة من الزبد بيضاء فدحيت الأرض من تحته.

وهذان الحديثان الشريفان يعتبران سبقاً علميًّا معجزاً لرسول الله ﷺ يشهد له بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السموات والأرض؛ لأنه لم يكن لأحد من الخلق قبل منتصف الستينيات من القرن العشرين إدراك لشيء من هذه الحقيقة.

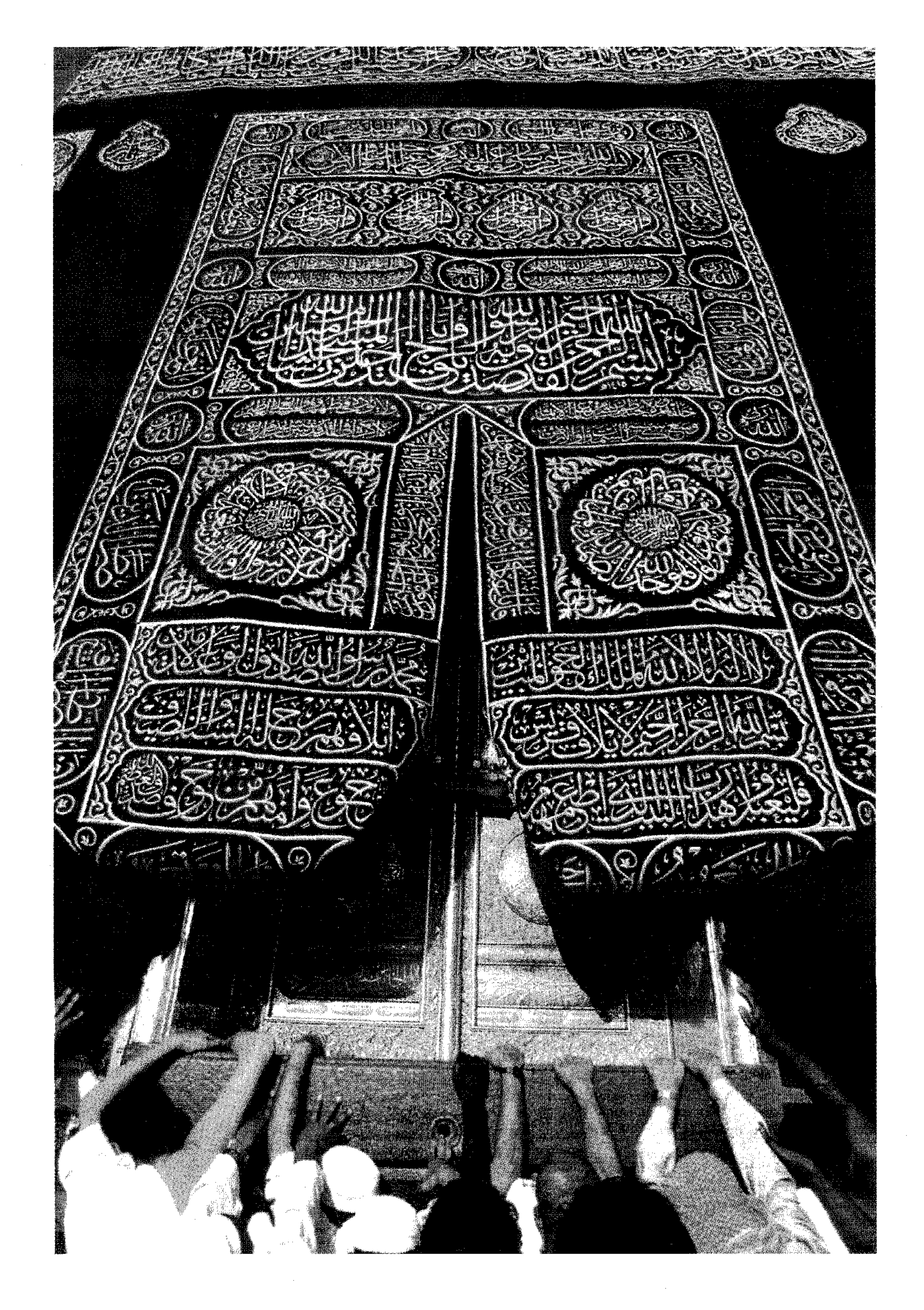
ولعل في هذين الحديثين الشريفين ما يدعم قول السدي رحمه الله في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾: إنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً....

ويؤكد ذلك ما أشرنا إليه في مقال سابق عن توسط مكة المكرمة لليابسة، كما يحمل معنى أن اليابسة تحت الكعبة المشرفة تعتبر أقدم جزء من الغلاف الصخري للأرض على الإطلاق، وهو ما لم يحاول أحد إثباته بعد، وعلى علماء المسلمين أن يتحققوا من ذلك بتحديد العمر المطلق للصخور القائمة حول الكعبة المشرفة بواسطة العناصر المشعة الموجودة فيها حتى يمكن تقديم هذا الدليل إلى الناس جميعاً مسلمين وغير مسلمين مما يعتبر وثيقة مادية ملموسة، وحجة منطقية دامغة على الناس كافة بنبوة هذا النبي الخاتم ﷺ.



صورة للحرم المكي المكرم (في الليل)

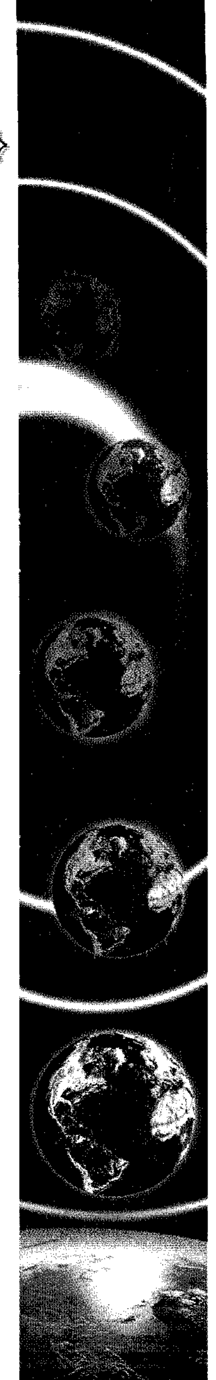
فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه لنا بلغة وحيه، كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً ليكون للعالمين نذيراً وصلى الله وسلم وبارك على النبي الخاتم الذي تلقاه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.







(33) ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ...﴾ (آل عمران: 97)



هذا النص القرآني الكريم جاء في منتصف سورة «آل عمران»، وهي سورة مدنية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها مائتي آية بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أسرة السيدة مريم ابنة عمران، أم نبي الله عيسى عليه السلام، وقصة ميلادها، وميلاده ونذرها لله من قبل أمها ـ عليها رضوان الله ـ.

وقد تطرقنا في المقال السابق إلى شرح ما تحويه سورة آل عمران من قضايا أساسية منها الردّ على أهل الكتاب في قضية العقيدة، والتأكيد على وحدة الرسالة السماوية، و وحدة النبوة، ووحدة الإنسانية، وقد ربطت رسالات السماء كلها بالكعبة المشرفة في مكة المكرمة وهي أول بيت وضع للناس، وذكرت العديد من القضايا المهمة، وقد استعرضنا ركائز العقيدة والتشريعات التي حفلت بها سورة آل عمران، وكذلك الآيات الكونية التي استشهدت بها، وفي هذا المقال نتوقف عند قوله ـ تعالى ـ في وصف أول بيت وضع للناس: **﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾** (**آل عمران: 97**) وقبل الدخول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾. (**آل عمران: 96، 97**).

• ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما يلي: وقوله تعالى ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي دلالات ظاهرة...، وأن الله عظمه وشرفه، ثم قال تعالى: ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران؛ حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى آخره عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في إمارته إلى ناحية الشرق، بحيث يتمكن الطواف منه، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف.. وقال ابن عباس في قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي فمنها مقام إبراهيم والمشاعر، وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بينة..، وقال ابن ابي حاتم عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال: الحرم كله مقام إبراهيم، وقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية... وحتى أنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك....

• وذكر بقية المفسرين كلاماً مشابهاً لتفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ورحمهم، ولا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

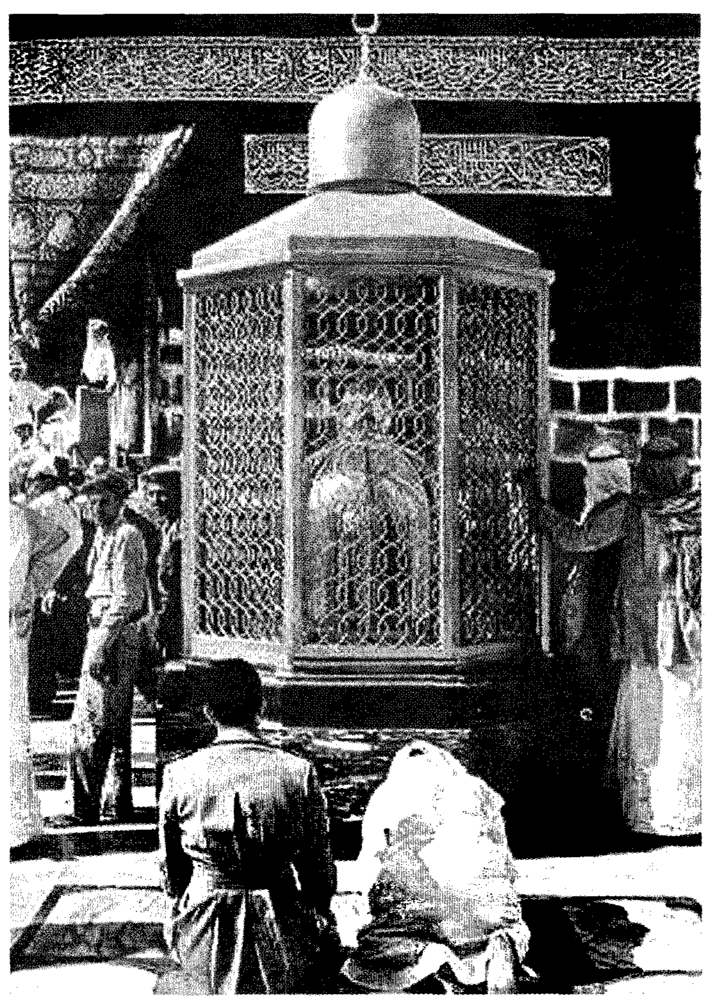
﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾. (آل عمران: 96، 97).

ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أن المقصود بتعبير ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ هو تلك الصخرة التي استعان بها سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه السلام ـ بالوقوف عليها؛ وهو يرفع القواعد من البيت العتيق، وولده إسماعيل ـ على نبينا وعليه السلام ـ يناوله الحجارة حتى تم البناء.

وانطلاقاً من ذلك قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ أن الآيات البينات التي جاء ذكرها في هاتين الآيتين الكريمتين هي أثر قدمي سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في تلك الصخرة المعروفة باسم (مقام إبراهيم).

ولكن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذكر أن المقصود بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ هو الحرم على اتساعه، وأن الآيات البينات التي فيه منهن مقام إبراهيم

والمشاعر، وأيد ذلك عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما رواه ابن أبي حاتم فقال: الحرم كله مقام إبراهيم، ويؤيد ذلك قوله ـ تعالى ـ: (من دخله كان آمناً)، أي من دخل إلى الحرم المكي.



مقام سيدنا إبراهيم مواجهاً للكعبة المشرفة

وتقدر مساحة هذا الحرم المكي بحوالي 600 كيلومتراً مربعاً على هيئة سلسلة من الأودية والمنخفضات تمتد من مكة المكرمة غرباً إلى ساحة عرفات شرقاً، مروراً بكل من وادي منى ووادي المزدلفة.

ولهذا الحرم حدود حددها ربنا ـ تبارك وتعالى لأبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وحملها جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أبي الأنبياء إبراهيم ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ وقد نصبت على هذه الحدود أعلام في جهات خمس تعتبر المداخل الرئيسية للحرم المكي، وهذه الأعلام على هيئة أحجار مرتفعة قدر متر واحد، منصوبة على جانبي كل طريق من الطرق المؤدية إلى منطقة الحرم المكي.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ماهي الآيات البينات التي أشارت إليها الآية الكريمة التي نحن بصددها في هذه المساحة الكبيرة التي تشكل الحرم المكي؟ وما هي دلالاتها على شرف المكان وعظمته وبركاته؟ وللإجابة على ذلك نورد ما يلي:

الآيات البينات في الحرم المكي:

أولاً: توسط مكة المكرمة لليابسة: وقد قام بإثبات ذلك الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ وذلك في بحث قيم بهذا العنوان في أثناء تحديده لاتجاهات القبلة من المدن الرئيسية في العالم فلاحظ تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات السبع التي تُكوِّن اليابسة.

فإذا كانت الأرض هي مركز السمٰوات السبع بنص الآية الكريمة التي يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الرحمٰن:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾. **(الرحمٰن: 33).**

وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مروراً بمركزه، وأقطار السمٰوات على ضخامتها تنطبق على **أقطار** الأرض على ضآلتها النسبية بحسب نص الآية الكريمة، فلا بد أن تكون الأرض في مركز الكون.

ويدعم هذا الاستنتاج ورود الإشارة بذكر السمٰوات والأرض وما بينهما في عشرين آية قرآنية صريحة، ومقابلة السمٰوات بالأرض في عشرات الآيات القرآنية الأُخرى.

ويدعم هذا الاستنتاج كذلك ما روي عن المصطفى ﷺ من أقوال منها:

«**كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض**».

«**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**».

«**البيت المعمور منا مكة**» ووصفه بقوله ﷺ بأنه بيت في السماء السابعة على حيال الكعبة تماماً حتى لوخرّ لخرّ فوقها.

كل هذه النصوص تؤكد مركزية مكة المكرمة لليابسة أي الأرض الأولى، ومركزية الأرض للسمٰوات السبع، فالحرم المكي مركز بين السمٰوات السبع والأرضين السبع كما وصفه المصطفى ﷺ.

ثانياً: انتفاء الانحراف المغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة:

كذلك ذكر الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ في بحثه القيم المعنون «إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة» المنشور في العدد الثاني من المجلد الأول لمجلة البحوث الإسلامية الصادرة بالرياض سنة 1396/ 1395هـ (الموافق 1976/ 1975م) أن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول ينطبق فيها الشمال المغناطيسي الذي تحدده الإبرة الممغنطة في البوصلة مع الشمال الحقيقي الذي

يحدده النجم القطبي، ومعنى ذلك أنه لايوجد أي قدر من الانحراف المغناطيسي على خط طول مكة المكرمة، بينما يوجد عند جميع خطوط الطول الأُخرى.

ثالثاً: ضبط اتجاه أضلاع الكعبة المشرفة:

الكعبة المشرفة مبنية بأركانها الأربعة في الاتجاهات الأربعة الأصلية تماماً. فركنها الشامي في اتجاه الشمال الحقيقي، ويقابله في اتجاه الجنوب الحقيقي تماماً الركن اليماني، وركن الحجر الأسعد يواجه الشرق الحقيقي تماماً ويقابله الركن المصري في اتجاه الغرب الحقيقي تماماً.

وتحديد تلك الاتجاهات بهذه الدقة في زمن موغل في التاريخ كالذي بنيت فيه الكعبة المشرفة ينفي إمكانية كونه عملاً بشريًا.

رابعاً: الحجر الأسعد من أحجار السماء:

روى أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحجر الأسود نزل به ملك من السماء**»[1].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم**»[2].



الحجر الأسعد

وروي عنه أيضاً قوله ﷺ لأم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تطوف معه بالكعبة المشرفة حين استلم الركن: «**لولا ما طبع على هذا الحجر يا عائشة من أرجاس الجاهلية وأنجاسها إذن لاستشفي به من كل عاهة، ولألفي اليوم كهيئته يوم أنزله الله ﷻ، وليعيدنه إلى ما خلقه أول مرة، وأنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، ولكن الله سبحانه وتعالى غيره بمعصية العاصين، وستر زينته عن الظلمة والأثمة، لأنه لا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء كان بدؤه من الجنة**» رواه الأزرقي عن وهب بن منبه)[3].

---

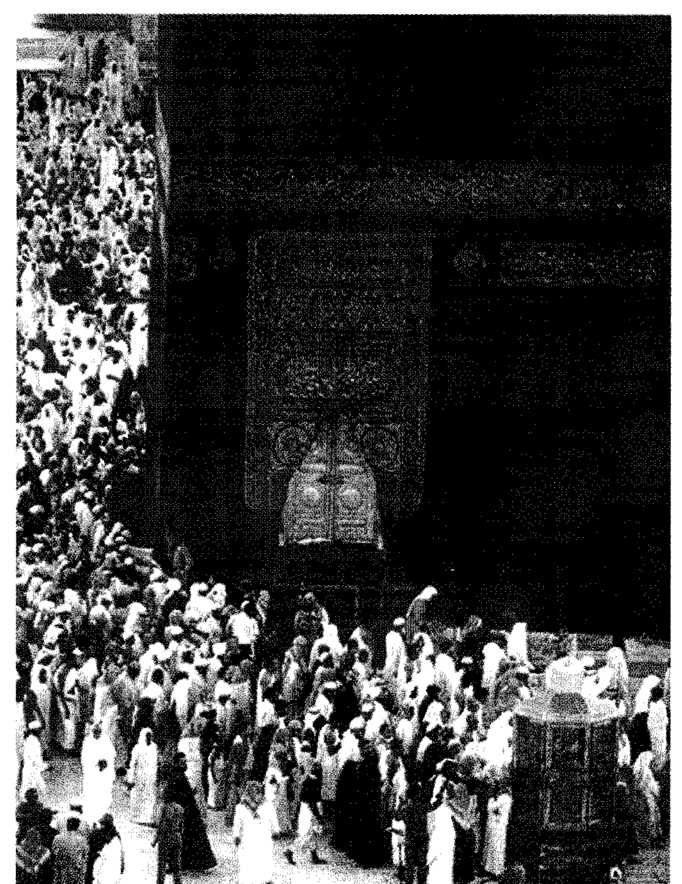
(1) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34731).

(2) أخرجه الترمذي في سننه (الحديث: 877).

(3) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (الحديث: 29).

كذلك أخرج كلٌّ من الترمذي، وأحمد، والحاكم، وابن حبان قول رسول الله ﷺ: «**إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة**»[1].

وجاء في رواية للبيهقي أن رسول الله ﷺ أضاف: «**ولولا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضاءا ما بين المشرق والمغرب، وما مسهما من ذي عاهة ولا سقم إلا شفي**»[2].



الكعبة المشرفة ويبدو موقع مقام سيدنا إبراهيم بالقرب منها

وحينما قرأ المستشرقون هذه الأحاديث النبوية الشريفة ظنوا الحجر الأسعد قطعة من البازلت الذي جرفته السيول من الحرات المجاورة وألقت به إلى منخفض مكة المكرمة.

ومن أجل إثبات ذلك استأجرت الجمعية الملكية الجغرافية البريطانية ضابطاً بريطانياً باسم ريتشارد فرانسيس بيرتون **(Richard Francis Burton)** جاء إلى الحجاز في هيئة حاج أفغاني وذلك في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (1269هـ/ 1853م) بهدف سرقة جزء من الحجر الأسود والفرار به إلى بريطانيا، وبالفعل تم له ذلك، وبدراسة العينة المسروقة ثبت أنها من أحجار السماء، لأنها تشبه أحجار النيازك، وإن تميزت بتركيب كيميائي ومعدني خاص، وكان هذا الاكتشاف سبباً في إسلامه، وقد سجل قصته في كتاب من جزءين بعنوان: رحلة إلى مكة **(A Journey To Mecca)**، وتوفي بيرتون في سنة1890م/ 1308هـ.

---

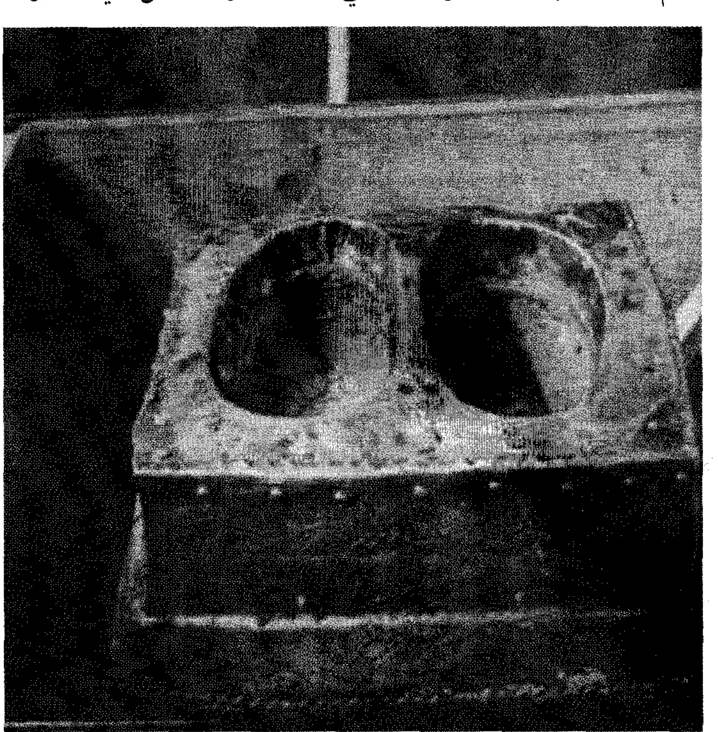
(1) أخرجه الترمذي (الحديث: 879) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(2) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34742).

خامساً: مقام إبراهيم ﷺ يحمل طبعة قدميه:

أشرنا مسبقاً بأن كلمة (المقام) ـ بفتح الميم الأولى وضمها ـ تأتي بمعنى (الإقامة)، من الفعل (أقام)، (يقيم)، (إقامة)، و (مقاماً)، ومن هنا أخذ التعبير القرآني (مقام إبراهيم) على أنه الحرم المكي بكامل حدوده، ولكن من مدلول الكلمة أيضاً (موضع القيام) من الفعل (قام) (يقوم) (مقاماً)، ولذلك فهم تعبير (مقام إبراهيم) بالصخرة التي (قام) عليها وهو يرفع القواعد من البيت، وبهذا المفهوم فإن هذه الصخرة تحمل آية بينة وهي أنه على الرغم من صلادتها (صلابتها) الشديدة فإنها تحمل طبعة غائرة لقدمي أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ، ولين هذه الصخرة الصلدة إلى الحد الذي يمكنها من حمل طبعة قدمي هذا النبي الكريم معجزة بكل المقاييس العلمية يقف العلم عاجزاً أمام إمكانية تفسيرها، لأن المعجزات خوارق للسنن والقوانين، ولذلك لايمكن للعلم المكتسب أن يفسرها، وهي آية محسوسة لكل ذي بصيرة.

وفي الأثر أن هذا المقام كان يرتفع بإبراهيم ﷺ حتى يضع الحجر في مكانه المحدد من البناية، ثم يهبط به ليتناول حجراً آخر من ولده إسماعيل ـ عليه من الله السلام ـ.



أثر قدمي سيدنا إبراهيم في حجر مقامه

وفيما يروى عن رسول الله ﷺ قوله: **«الركن والمقام من الجنة»**[1]، وقوله: **«الحجر والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة»**[2].

سادساً: بئر زمزم آية من آيات الحرم المكي:

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

إن تدفق الماء من بئر زمزم على مدى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، من قلب صخور نارية ومتحولة شديدة التبلور هو أمر لافت للنظر.. على الرغم من طمرها وحفرها لعدة مرات، ولم يعرف مصدر هذا الماء المتدفق إلى البئر إلا بعد حفر الأنفاق حول مكة المكرمة، حين أدرك العاملون في حفر تلك الأنفاق أن الماء يتدفق من تشققات شعرية دقيقة تمتد لمسافات بعيدة خارج حدود مكة المكرمة وفي جميع الاتجاهات من حولها، وهذه الملاحظة تؤكد وصف المصطفى ﷺ لهذه البئر المباركة بأنها نتجت عن طرقة شديدة وصفها بقوله الشريف: «**هي هزمة جبريل وسقيا الله لإسماعيل**»[1]؛ لأن الهزمة في اللغة هي الطرقة الشديدة.

وبئر زمزم هي إحدى الآيات المادية الملموسة الدالة على كرامة المكان ويصف رسول الله ﷺ ماءها بقوله: «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام طعم وشفاء سقم**»[2]؛ وقوله ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له**»[3].

سابعاً: أن أعداداً كبيرة من الأنبياء والصالحين مدفونون في الحرم المكي وفي مسجد **الخيف**، فعلى سبيل المثال يذكر أن سيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه السيدة هاجر رضي الله عنها مدفونان في حجر إسماعيل، ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**في مسجد الخيف قبر سبعين نبياً**»[4].

ويروى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قوله: لو كنت من أهل مكة ما أخطأتني جمعة لا أصلي فيه، ولو يعلم الناس مافيه لضربوا إليه أكباد الإبل..

وقال مجاهد: حجّ خمسة وسبعون نبيًّا كلهم قد طاف بهذا البيت، وصلى في مسجد منى. وآثار هذه الأعداد الكبيرة من الأنبياء والصالحين لاتزال موجودة في هذه المنطقة المباركة من الأرض، وهي من الآيات البينات التي جاءت الإشارة إليها في الآية التي نحن بصددها والتي يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ...﴾.

وسوف أرجيء التعليق على بقية الآية إلى فصل آخر إن شاء الله، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد.

---

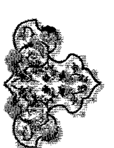
(1) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34784).

(2) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 34779) وذكره الطبراني في المعجم الكبير.

(3) أخرجه البخاري (الحديث: 1636).

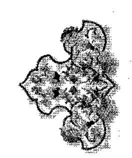
(4) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.

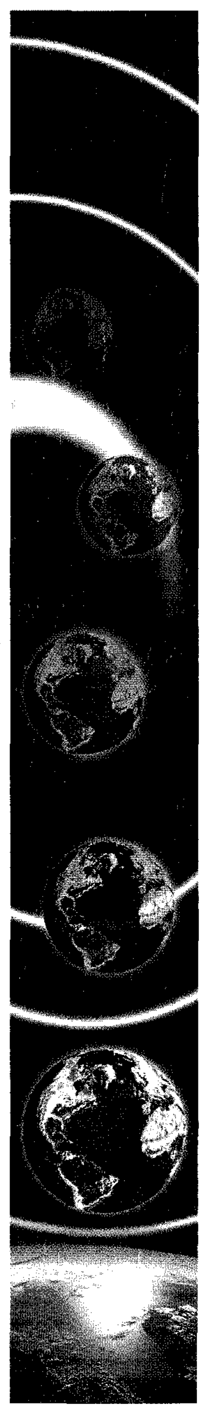
بسم الله الرحمن الرحيم



(34) ﴿...وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ...﴾

(آل عمران: 97)





هذا النص القرآني الكريم جاء حول منتصف سورة «آل عمران»، وهي سورة مدنية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها مائتين بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أسرة السيدة مريم ابنة عمران، أم نبي الله عيسى عليه السلام، وإلى المعجزات الإلهية المصاحبة لميلادها، وميلاده، وميلاد نبي الله يحيى لأبيه على الكبر وهو نبي الله زكريا عليه السلام، والمعجزات التي أجراها الله سبحانه وتعالى على يد كل منهم حتى تكون شاهدة ومؤيدة له.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من القضايا التي سبق وأن عرضناها في المقالين السابقين، وكل قضية منها تحتاج إلى وقفة خاصة؛ ولما كان المقام لا يتسع لذلك فسوف أتوقف هنا على النص القرآني المعجز في وصف الحرم المكي بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ . . .﴾ وقبل شرح الدلالة العلمية لذلك أعرج إلى قول عدد من المفسرين فيه.

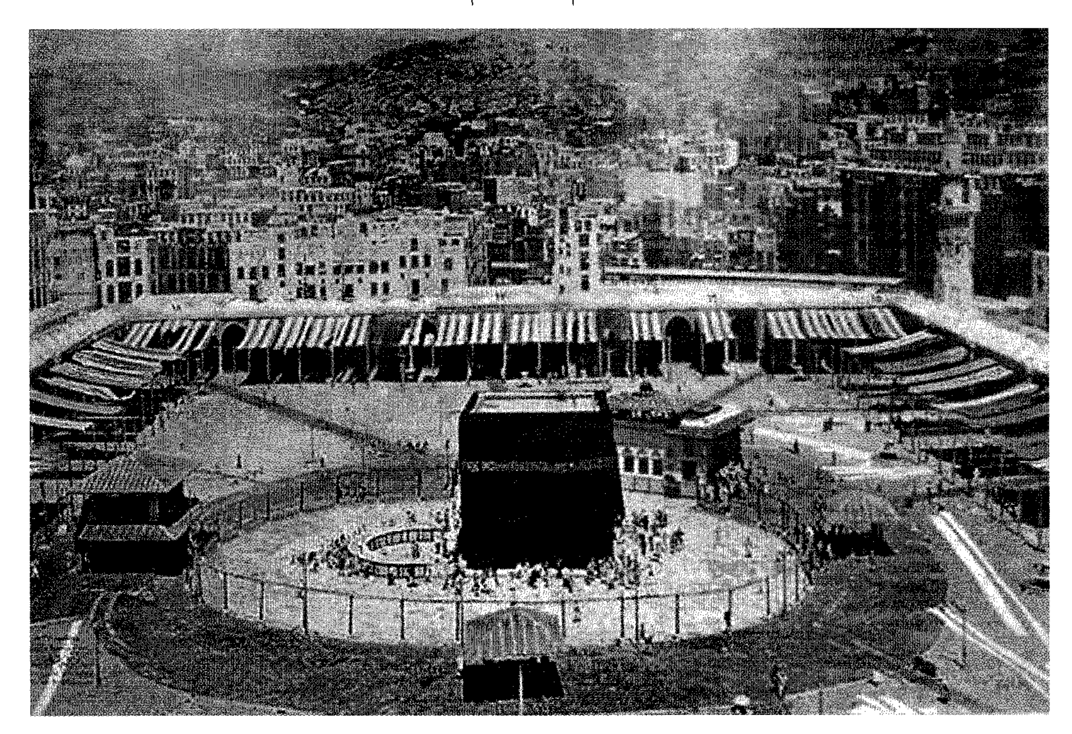
من أقوال المفسرين

• ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره ما نصه: «وقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾؛ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لايؤوي ولايطعم، ولايسقي، فإذا خرج أخذ بذنبه،

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾. **(قريش: 3، 4)**.

وحتى أنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك.

ففي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**»[1]، وقال: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامه، وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة: لا يعضد شوكه، ولاينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاه**»[2]، فقال العباس: يارسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم. فقال: «**إلا الإذخر**».



صورة للكعبة المشرفة ـ عام 1371 هـ ـ 1951 م

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 1737).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 3017) وأخرجه مسلم في (الحديث: 445).

وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: «ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قال به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به: أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«**إن مكة، حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فيها فقولوا له: إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب**»، فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لايعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة (أي سرقة إبل).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لايحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة**»، وعن عبد الله بن الحمراء الزهري، أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحرورة بسوق مكة يقول: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»[1].

وأضاف ابن كثير في نهاية هذه التطوافة المباركة قوله:

وقال بعضهم في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ قال: آمناً من النار، وهذا بعد بالمعنى عن الأمن الدنيوي الذي هو واضح القصد من النص.

ولم يزد بقية المفسرين على هذا التفصيل شيئاً يستحق تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم

- رأي المفسرون في هذا النص القرآني الكريم الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:
﴿. . . وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ . . .﴾

التأكيد على أمن من دخل إلى الحرم المكي على اتساع مساحته، فكل من دخل في هذا الحرم صار آمناً على نفسه، مطمئناً على ماله ولو كان مطلوباً للثأر ولاذ به، كان ذلك في الجاهلية، من بقايا إجلال الناس هذا المكان، الذي كرمه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ، وفضله على جميع الأرض، وجعله أشرف بقاعها على الإطلاق، متبوعاً في هذا التشريف

(1) أخرجه الترمذي (الحديث: 3925) وأخرجه ابن ماجه (الحديث: 3108).

الإلهي بالمدينة المنورة، ثم ببيت المقدس، ـ فك الله إساره من الاحتلال الصهيوني الجائر له ولجميع أرض فلسطين إن شاء الله رب العالمين اللّهم آمين آمين آمين ـ يا رب العالمين.

أما اليوم فمن اقترف جرماً فيه من جرائم الحدود أقيم عليه الحد.

الكعبة المشرفة

وفي أثناء الفتح الإسلامي لمكة المكرمة أمر رسول الله ﷺ بمنادٍ ينادي: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وأشار بعض المفسرين إلى أن الأمن في الحرم المكي ليس للإنسان فقط، بل هو أيضاً للحيوان والنبات، فقد حرم رسول الله ﷺ أن يعضد شوكه، أو يقلع حشيشه، أو يقطع شجره، أو ينفر صيده.

وقد لاحظ المراقبون أن الحيوانات الضارية لا تصطرع في الحرم المكي، ولا يؤذي بعضها بعضاً، بل تخالط من الحيوانات ما تعودت على افتراسه خارج الحرم المكي، ولا تتعرض له فيه أبداً.

كما لاحظ المراقبون أن الطيور عادة لا تعلو الكعبة المشرفة، بل تنحرف عنها كلما طارت في اتجاهها، وكأنها هي الأُخرى في طواف حولها.

ويروي لنا التاريخ أن كل جبار قصد الحرم المكي بسوء أهلكه الله، ولم يمكنه من ذلك، كما حدث مع أصحاب الفيل.

وربنا ـ تبارك وتعالى ـ يقرر حمايته لبيته العتيق بقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **(الحج: 25)**، وتحقيقاً لهذا الوعد الإلهي تُعَجَّل العقوبة لمن انتهك حرمة في الحرم المكي. لذلك قال المصطفى ﷺ: «**الدجال يطوي الأرض كلها إلا مكة والمدينة**»[1].

قال يوم فتح مكة: «**لا تغزى مكة بعد هذا اليوم أبداً**»[2].

بعض الشواهد العلمية على أمن الحرم المكي:

أولاً: حماية مكة المكرمة من الهزات الأرضية والثورات البركانية:

على الرغم من انفتاح قاع البحر الأحمر بخسوف أرضية عميقة، واتساع هذا القاع بمعدل 1 ـ 3 سنتيمترات في كل سنة (تقاس عند باب المندب)، وعلى الرغم من تحرك الجزيرة العربية ككل في الاتجاه الشمالي الشرقي؛ أي في عكس اتجاه عقرب الساعة متباعدة عن القارة الإفريقية، وعلى الرغم من السجلات الزلزالية المدونة، و الثورات البركانية العنيفة التي تركت طفوحاً هائلة من الحمم والرماد البركاني في المنطقة قديماً وحديثاً، والتي تقدر بنحو 2586 حدثاً زلزالياً بقدر يتراوح من 3.1 إلى 6.7 درجة على مقياس ريختر) خلال الفترة من سنه627م إلى 1989م، وما تلا ذلك من زلازل حتى سنة1996م بلغ قدر أعلاها 6 درجات على مقياس ريختر، أو فوق ذلك قليلاً، وامتدت من اليمن جنوباً (مثل زلزال ذمار الذي حدث في 1982/ 12/ 13م) إلى العقبة شمالاً، فلم تسجل هزة أرضية واحدة في الحرم المكي كله الممتد من وادي الشميسي غرباً على بعد 15كم من مكة المكرمة إلى الجعرانة شرقاً على بعد 16كم، ومن أضاة جنوباً على بعد 12كم إلى التنعيم شمالاً على بعد 6كم، وإلى وادي نخلة في الشمال الشرقي من مكة

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (الحديث: 37491).

(2) أخرجه الحميدي في مسنده (الحديث: 572)

المكرمة على بعد 14كم؛ أي في منطقة تقدر مساحتها بنحو ستمائة كيلومتر مربع، وذلك على الرغم من وقوع زلزال مروع في المدينة المنورة سنة 1256م، صاحبته ثورة بركانية عنيفة، وعلى الرغم من وجود أكثر من تسعين ألف كيلومتر مربع من الطفوح البركانية وآلاف الفوهات البركانية على طول أرض الحجاز.

ثانياً: إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة:

في دراسة علمية دقيقة لتحديد اتجاهات القبلة من المدن الرئيسية في العالم، أثبت الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي أن اليابسة موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً، واستنتج من ذلك أن هذه المدينة المباركة تعتبر مركزاً لليابسة.

ثالثاً: انتفاء الانحراف المغناطيسي على مسار خط طول مكة المكرمة:

كذلك أثبت هذا العالم المصري الجليل ـ الذي نسأل الله تعالى له الرحمات ـ أن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول (39.817 درجة شرقاً) تقع جميعها في الإسقاط الذي قام به على خط مستقيم هو خط الشمال الجنوب الجغرافي؛ بمعنى انعدام الانحراف المغناطيسي على طول هذا الخط، مع وجوده على باقي خطوط الطول الأُخرى، وهي ميزة ينفرد بها خط طول مكة المكرمة.

هذه الخصوصية لا (ولم) تمنع تعرض تلك الأرض المباركة لبعض التغيرات المناخية التي تسبب هطول الأمطار الموسمية بغزارة ـ على ندرة حدوث ذلك ـ، وقد تصاحب هذه الأمطار الغزيرة بالسيول الجارفة التي طاف فيها بعض الطائفين حول الكعبة المشرفة سباحة.

بعض الشواهد الإسلامية على كرامة الحرم المكي:

- في عشرات الآيات يقابل القرآن الكريم الأرض ـ على ضآلتها النسبية ـ بالسماء ـ على اتساعها المذهل ـ، وهذه المقابلة لابد أنها متعلقة بوضع خاص للأرض بالنسبة إلى السماء.

- يذكر القرآن الكريم تعبير السمٰوات والأرض وما بينهما في عشرين آية قرآنية صريحة، وهذة البينية لا تتم إلا إذا كانت الأرض في مركز السمٰوات، أي في مركز الكون.

- يؤكد هذا الوضع ـ قرآنياً ـ قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الرحمٰن:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾. **(الرحمٰن: 33).**

وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مروراً بمركزه، فإذا انطبقت أقطار السمٰوات ـ مع ضخامتها النسبية ـ مع أقطار الأرض ـ على ضآلتها النسبية ـ فلابد أن تكون الأرض في مركز السمٰوات.

• إثبات الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ توسط مكة المكرمة لليابسة، وإثبات وجود الأرضين السبع كلها في أرضنا، انطلاقاً من حديث سيد المرسلين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ الذي قال فيه: «**من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**»[1] ومن دراسات التركيب الداخلي للأرض ثبت ذلك، مما ينطبق وقول رسول الله ﷺ: «**إن الحرم حرم مناء من السمٰوات السبع والأرضين السبع**»[2]، وقوله ﷺ: «**يامعشر قريش، يامعشر أهل مكة، إنكم بحذاء وسط السماء، وأقل الأرض ثياباً، فلا تتخذوا المواشي**»[3].

وقوله ﷺ: «**البيت المعمور منا مكة**»[4]. ووصفه البيت المعمور بأنه «**بيت في السماء السابعة على حيال الكعبة تماماً حتى لو خرّ لخرّ فوقها**»[5].

كل ذلك يؤكد لنا أن الأرض في مركز الكون، وأن الكعبة المشرفة في مركز الأرض الأولى، ودونها ست أرضين، وحولها سبع سمٰوات، والكعبة تحت البيت المعمور مباشرة، والبيت المعمور تحت العرش، هذا الموقع المتميز للحرم المكي أعطاه من الشرف والكرامة، والبركة والعناية الإلهية ما جعل من هذا الوصف القرآني: ﴿... **وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا**...﴾ حقيقة مدركة ملموسة لأنه دخل في أمان الله وظل عرشه، وهل يمكن أن يضام من نال شرف التواجد في هذا المكان؟؟

من هنا كان اختيار الحرم المكي ليكون أول بيت على الأرض، عبد الله ـ تعالى ـ فيه وجعله قبلة للمسلمين، ومقصداً لحجهم واعتمارهم، وجعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة،

---

(1) ذكره الهندي في كنز العمال (الحديث: 7620).
(2) تقدم تخريجه.
(3) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة(الحديث: 1615).
(4) تقدم تخرجه.
(5) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (الحديث: 3/ 81).

والحسنة فيه بمائة ألف حسنة، لذلك قال رسول الله ﷺ في حق مكة المكرمة عشرات الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد خصوصية المكان، ومكانته عند الله ﷻ ومنها قوله ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ:

«هذا البيت دعامة الإسلام، من خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله إن قبضه أن يدخله الجنة، وإن رده أن يرده بأجرٍ وغنيمة»[1].

فسبحان الذي اختار مكة المكرمة موقعاً لأول بيت عبد فيه في الأرض، واختاره بهذه المركزية من الكون، وغمره بالكرامات والبركات، وقرر أن من دخله كان آمناً، وهذه حقائق ما كان للإنسان أن يدركها لولا نزول القرآن الكريم، وحفظه بلغة وحيه بحفظ الرحمٰن الرحيم، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة مكة المكرمة، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي قال فيه ربه ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾. **(الأحزاب: 45، 46)**.

فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

(1) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (الحديث: 9033).

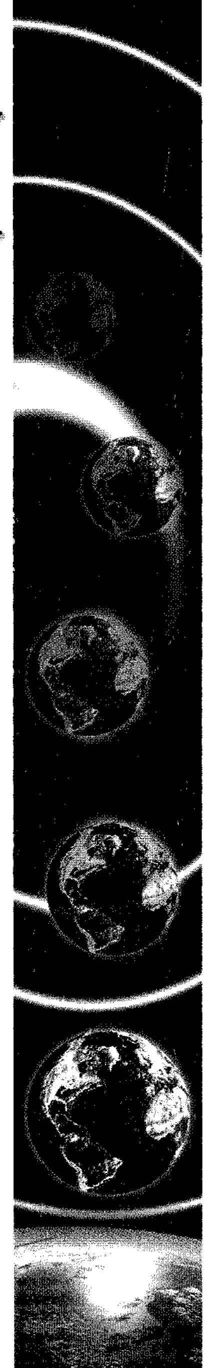






(35) ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾

(الفجر: 7، 8)



هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في آخر الربع الأول من سورة «الفجر»، وهي سورة مكية، يدور محورها الرئيسي حول قضية البعث بعد الموت، وهي من القضايا الأساسية في العقيدة الإسلامية.

وتبدأ السورة الكريمة بقسم من الله ـ تعالى ـ بالفجر، وهو يمثل الفترة الزمنية التي يبزغ فيها أول خيط من الشفق الصباحي على جزء من سطح الأرض، فيعمل ذلك على محو ظلمة الليل بالتدريج حتى شروق الشمس، ويبدأ ذلك بوضع الجزء من الأرض الذي يبزغ عليه الفجر في وضع تبدو الشمس منه وكأنها على بعد 18.5 درجة تحت الأفق، وتظل ترتفع في حركتها الظاهرية حول الأرض، والتي تتم بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس حتى ظهور حافة الشمس العليا عند الأفق فتشرق الشمس. والفجر الصادق يمثل أول النهار من الناحية الشرعية.

وظاهرة الفجر تدور مع الأرض في دورتها اليومية حول محورها أمام الشمس، فتنتقل من منطقة إلى أُخرى بانتظام حتى تمسح سطح الأرض كله بالتدريج، وهي ظاهرة تصاحب بقدر من الصفاء البيئي والنقاء لا تساويها فترة أُخرى من فترات اليوم في ذلك فتتميز بالنداوة، والرقة والهدوء، وبانعكاس ذلك كله على مختلف أنواع الخلائق، وربما كان ذلك وغيره من مبررات هذا القسم الإلهي بالفجر، والله ـ تعالى ـ غني عن القسم لعباده، والمقصود من ورود الآية القرآنية بصيغة القسم هو تنبيهنا إلى أهمية الأمر الذي جاء به القسم.

ويلي القسم بالفجر قسم ثانٍ بـ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ وقد قيل فيها أنها الليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، ومن ضمنها ليلة القدر

التي وصفها الحق ـ تبارك وتعالى ـ بأنها خير من ألف شهر، ويأتي في مقابلتها الأيام العشر الأوائل من شهر ذي الحجة، وفيها يوم عرفة الذي وصفه المصطفى ﷺ بأنه أفضل يوم عند الله، ووصف العشر من ذي الحجة بأنه ما من أيام بأفضل منها عند الله[1].

ثم يأتي قسم ثالث بالشفع والوتر وفية قيل أن المقصود بذلك الصلاة، ومنها الشفع كالصلاة الثنائية والرباعية، ومنها الوتر كالمغرب وختام الصلاة في آخر الليل.

ويلي ذلك قسم رابع بـ (الليل إذا يسر) وأصل السري هو السير بالليل، وإسناد ذلك إلى الليل قيل فيه أنه مجاز بمعنى (يسري فيه) ـ وحذفت ياؤه في الآية الكريمة وصلاً ووقفاً ـ، وقيل إنه ليس بمجاز؛ وذلك لتعاقب كل من الليل والنهار على سطح الأرض بفعل دوران الأرض حول محورها أمام الشمس حتى يخرج نصفها المظلم من انطباق ظلمة السماء على ظلمة الأرض وذلك بدخول طبقة نور النهار بينهما، وانتقال ظلمة ليل الأرض إلى جزء آخر منها كان يعمه نور النهار، ولا يخفى على عاقل فوائد تعاقب كل من الليل والنهار على سطح الأرض، وعلى الحياة الأرضية.

وبعد القسم بهذه الآيات الخمس، وبما لها من قيمة في انتظام حركة الحياة تتساءل سورة الفجر: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

أي لذي لب وعقل وبصيره؟

وجواب القسم محذوف وتقديره: ليعذبن الله ـ تعالى ـ كل كافر ومشرك ومنكر للبعث، وكل مفسد في الأرض، وكل متجبر على الخلق؛ ودلالة ذلك هو سرعة الاستشهاد بمصارع عدد من الأمم البائدة من مثل أقوام عاد وثمود وفرعون، وقد أشارت الآيات إلى صفة لازمت كل أُمة منهم، وألمحت إلى شيء من تجبرهم وطغيانهم وإفسادهم، وذكرت كيف صب الله ـ تعالى ـ على كل منهم عذابه صباً، جزاء ما اقترفوه من آثام.. وأكدت أن الله ـ تعالى ـ قائم دوماً بالمرصاد لكل متجبر على الخلق وكل مفسد في الأرض وأن سنة الله واحدة في أخذ الطغاة المفسدين في كل زمان ومكان بأقسى أنواع العقاب، وأشد ألوان العذاب..!!

وبعد أن جمعت الآيات في سورة «الفجر» مصارع عدد من عتاة المفسدين في الأرض، وأكدت أن الله ـ تعالى ـ لهم ولأمثالهم دوماً بالمرصاد، انتقلت بالحديث إلى شيء من طبائع النفس الإنسانية أمام قضية بسط الرزق وقبضه، وما فيها من ابتلاء للعباد،

(1) راجع ما أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (الحديث: 2839).

فالصالح يشكر النعمة، ويصبر على المحنة، وغير ذلك تبطره النعمة التي يراها تكريماً لشخصه، وتضجره المحنة التي يراها إهانة لكرامته، وترد الآيات بأن إنساناً هذا شأنه مخلوق أناني لا يفكر إلا في ذاته، قد جبلت نفسه على عدم الاكتراث بإكرام اليتيم، ولا بالتحاض على إطعام المسكين، وبالنهم الشديد في اقتسام الميراث، وبالحب الجم للمال، ثم تذكر الآيات فوراً بالآخرة وما فيها من أهوال حين تدك الأرض دكاً دكاً، كناية عن تدمير الكون كله، ثم بعثه وبعث كافة الخلائق فيعرضون أمام ربهم ـ لا تخفى منهم خافية ـ والملائكة وقوف صفاً صفاً بين يدي الله ـ تعالى ـ ثم يؤتى بجهنم في هذا الموقف العصيب الذي يتقرر فيه مصير كل واحد من الخلق، وحينئذ يتذكر الإنسان ما فرط فيه من حياته الدنيا حين لايفيد التذكر بشيء، ويتمنى لو أنه كان قد قدم شيئاً لهذا الموقف الرهيب..!!

وتصف الآيات جانباً من عذاب الكفار والمشركين في ذلك اليوم العصيب الذي يقول فيه الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

بينما يسمع نداء الحق ﷻ على كل نفس طيبة بقوله ـ عز من قائل ـ :

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾. (الفجر: 27 ـ 30).

والإعجاز في سورة «الفجر» يشمل فيما يشمل القسم بخمس من آيات الله لم تكن أهميتها معروفة في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده، بالإضافة إلى وصف شيء من دخائل النفس الإنسانية، ووصف عدد من المظاهر والأحداث المصاحبة للآخرة، وهي من الغيبيات المطلقة التي لا سبيل أمام الإنسان لمعرفة شيء عنها إلا من خلال وحي السماء.

أما الإعجاز التاريخي في هذه السورة المباركة فهو أبلغ جوانب الإعجاز فيها لاشتماله على ذكر ثلاثة من طواغيت التاريخ القديم هم قوم عاد، ومدينتهم إرم ذات العماد، وقوم كل من ثمود وفرعون الذين قالت الآيات الكريمة فيهم.. ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ (الفجر: 9، 10) وهذه الأمم كانت قد بادت قبل بعثة رسول الله ﷺ بمئات السنين، ولم تكن الأمة العربية أُمة تدوين وتوثيق؛ هذا فضلاً عن بعد أراضي تلك الأمم البائدة عن مكة المكرمة بمئات، بل بعشرات المئات من الكيلومترات في زمن لم تكن وسائل المواصلات ميسرة.

وذكر قوم عاد في القرآن الكريم يعتبر أكثر أنبائه بأخبار الأمم البائدة إعجازاً، وذلك لأن هذه الأمة قد أبيدت إبادة كاملة بعاصفة رملية غير عادية.. طمرتهم وردمت آثارهم

حتى أخفت كل أثر لهم من على وجه الأرض، وبسبب ذلك أنكرت الغالبية العظمى من الأثريين والمؤرخين وجود قوم عاد، واعتبروا ذكرهم في القرآن الكريم من قبيل القصص الرمزي لاستخلاص العبر والدروس، بل تطاول بعض الكتاب فاعتبروهم من الأساطير التي لا أصل لها في التاريخ، ثم جاءت الكشوف الأثرية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين بالكشف عن مدينة إرم وإثبات صدق القرآن الكريم في كل ما جاء به عن قوم عاد، وانطلاقاً من ذلك فسوف أقصر حديثي هنا على هذا الكشف الأثري المثير الذي سبق وأن سجلته سورة الفجر في الآيات (6 ـ 8) من قبل ألف وأربعمائة من السنين، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حقيقة أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه لنا بنفس لغة وحيه التي أوحى بها ـ اللغة العربية ـ فظل محتفظاً بصياغته الربانية، وإشراقاته النورانية، وبصدق كل حرف وكلمة وإشارة فيه.

وقبل البدء في الحديث عن ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ **(الفجر: 7، 8)** لا بد من استعراض سريع لقوم عاد في القرآن الكريم، ولشرح عدد من كبار المفسرين القدامى والمعاصرين لهذه الآيات القرآنية الثلاث.

قوم عاد في القرآن الكريم:

جاء ذكر قوم عاد في سورتين من سور القرآن الكريم سميت إحداهما باسم نبيهم هود عليه السلام وسميت الأُخرى باسم موطنهم الأحقاف، وفي عشرات الآيات القرانية الأُخرى التي تضمها ثماني عشرة سورة من سور القرآن الكريم جاء ذكرهم أيضا. ونختار من ذلك كله ما يلي:

(1) ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا

مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾. (الأعراف: 65 ـ 72).

(2) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾. (الشعراء: 123 ـ 140).

(3) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾. (فصلت: 13 ـ 16).

(4) ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾. (الأحقاف: 21 ـ 26).

(5) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾. **(القمر: 18 ـ 22).**

(6) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾. **(الحاقة: 6 ـ 8).**

(7) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾. **(الفجر: 6 ـ 8).**

وفي غير هذه الآيات جاء ذكر قوم عاد في كل من سورة التوبة (70)، (هود: 50 ـ 60)، إبراهيم (9)، الحج (42)، صٓ (12)، غافر (31)، قٓ (13)، الذاريات (41)، الفرقان (38)، العنكبوت (38)، والنجم (50).

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾. **(الفجر: 6 ـ 8).**

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما نصه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾؟ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً فقال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾؟ وهؤلاء ـ عاداً الأولى ـ وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن أمن معه منهم وأهلكهم، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون، فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم، وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكرهم (هود) بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ

بَصۜطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾. (الأعراف: 69).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (فصلت: 15) وقال هٰهنا: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾؛ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، وقال مجاهد: إرم أُمة قديمة يعني عاداً الأولى، قال قتادة والسدي: أن إرم بيت مملكة عاد، وكانوا أهل عمد لا يقيمون، وقال ابن عباس: إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم، واختار الأول ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ الضمير يعود على القبيلة، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم...، وسواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحهم يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما هٰهنا، والله أعلم...

• وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما نصه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ قوم هود ﷺ. (إرم) هي: عاد الأولى، ف «إرم» عطف بيان أو: بدل، ومنع الصرف للعلمية والتأنيث ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أي: ذات الأبنية المرفوعة على العمد، أو البناء المرتفع؛ ففي الصحاح والعماد: الأبنية المرتفعة، وقيل: ذات الطول... ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ في بطشهم وقوتهم..

• وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه:..... (عاد إرم) وهي عاد الأولى، وقيل: إنها من العرب العاربة أو البائدة، وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمال في جنوب الجزيرة بين حضرموت واليمن، وكانوا بدواً ذوي خيام تقوم على عماد، وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها وأميزها ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ في ذلك الأوان..

• وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ـ ما نصه:..... وعاد هو: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ﷺ، سمى أولاده باسمه... وقيل لأوائلهم وهم الذين أرسل إليهم هود ﷺ (عاد الأولى تسمية لهم باسم أبيهم)، وإرم تسمية لهم باسم جدِّهم... وقيل لمن بعدهم عاد الآخرة، و (إرم) بدل أو عطف بيان لِ(عاد)... وقيل: إن (إرم) قبيلة من (عاد) وهي بيت ملكهم؛ فهي بدل من (عاد)، بدل بعض من كل. (ذات العماد) صفة لقبيلة (إرم) أي ذات الأعمدة التي ترفع عليها بيوت الشعر؛ إذ كانوا أهل خيام وعمد ينتجعون الغيوث ويطلبون الكلأ حيث كان،

ثم يعودون إلى منازلهم، وقيل: ذات الرفعة والعزة، (لم يخلق مثلها..) صفة أُخرى لها، أي لم يخلق في بلادهم مثلها في الأيد والشدة وعظم الأجسام...

• وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزى الله كاتبيه خيراً - ما نصه: ألم تعلم كيف أنزل ربك عقابه بعاد قوم هود، أهل إرم ذات البناء الرفيع، التي لم يخلق مثلها في البلاد متانة وضخامة بناء...

• وذكر صاحب صفوة التفاسير - جزاه الله خيراً - ما نصه: «... أي ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك ماذا فعل الله بعاد قوم هود؟» ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ أي عاداً الأولى أهل إرم ذات البناء الرفيع، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عمان وحضرموت أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم، وشدتهم، وضخامة أجسامهم...

إرم ذات العماد في التراث الإسلامي

في تفسير ما جاء عن (قوم عاد) في القرآن الكريم نشطت أعداد من المفسرين والجغرافيين والمؤرخين وعلماء الأنساب المسلمين، من أمثال الطبري، والسيوطي، والقزويني والهمداني وياقوت الحموي، والمسعودي في الكشف عن حقيقة هؤلاء القوم فذكروا أنهم كانوا من العرب البائدة وهو تعبير يضم كثيراً من الأمم التي اندثرت قبل بعثة المصطفى ﷺ بمئات السنين، ومنهم قوم عاد، وثمود، والوبر وغيرهم كثير، وعلموا من آيات القرآن الكريم أن مساكن قوم عاد كانت بالأحقاف - جمع حقف أي: الرمل المائل -، وهي جزء من جنوب شرقي الربع الخالي بين حضرموت جنوباً، ومعظم الربع الخالي شمالاً، وعمان شرقاً، كما علموا من القرآن الكريم أن نبيهم كان سيدنا هود عليه السلام، وأنه بعد هلاك الكافرين من قومه سكن نبي الله هود أرض حضرموت حتى مات ودفن فيها قرب وادي برهوت إلى الشرق من مدينة تريم.

أما عن ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ فقد ذكر كل من الهمداني (المتوفى سنة 334هـ/ 946م) وياقوت الحموي (المتوفى سنة 627هـ/ 1229م) أنها كانت من بناء شداد بن عاد واندرست؛ أي: طمرت بالرمال فهي لا تعرف الآن، وإن ثارت من حولها الأساطير.

الكشف الحديث عن إرم ذات العماد

• في سنة 1984م زود أحد مكوكات الفضاء بجهاز رادار له القدرة على اختراق التربة الجافة إلى عمق عدة أمتار يعرف باسم جهاز رادار اختراق سطح الأرض

(Ground Penetrating Radar Or GPR). فكشف عن العديد من المجاري المائية الجافة مدفونة تحت رمال الحزام الصحراوي الممتد من موريتانيا غرباً إلى أواسط آسيا شرقاً.

وبمجرد نشر نتائج تحليل الصور المأخوذة بواسطة هذا الجهاز تقدم أحد هواة دراسة الآثار الأمريكان واسمه نيكولاس كلاب **Nicholss Clapp** إلى مؤسسة بحوث الفضاء الأمريكية المعروفة باسم ناسا **(NASA)** بطلب للصور التي أخذت بتلك الواسطة لجنوب الجزيرة العربية، وبدراستها اتضح وجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية إلى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التي تملأ حوض الربع الخالي، وعدد من أودية الأنهار القديمة والبحيرات الجافة التي يزيد طول بعضها عن عدة كيلومترات.



(وكالة ناسا)

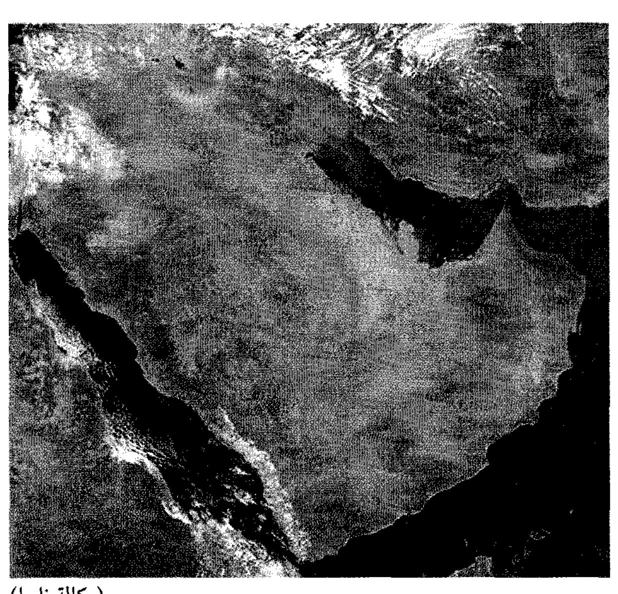
صورة لصحراء الربع الخالي في المملكة العربية السعودية تم تصويرها بجهاز رادار (GPR) له قدرة اختراق التربة لأكثر من عشرة أمتار، أظهر بعد الدراسة وجود آثار أنهار وبحيرات مدفونة تحت الرمال

وقد احتار الدارسون في معرفة حقيقة تلك الآثار، فلجأوا إلى الكتابات القديمة الموجودة في إحدى المكتبات المتخصصة في ولاية كاليفورنيا وتعرف باسم مكتبة هنتنجتون **Huntington Library**.

كما لجأوا إلى عدد من المتخصصين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وفي مقدمتهم الأمريكي «جوريس زارينز» **Juris Zarins** والبريطاني راندولف فينيس **Randulph Fiennes**.

وبعد دراسة مستفيضة أجمع الدارسون على أنها هي آثار عاصمة ملك (عاد) التي ذكر القرآن الكريم أن اسمها (إرم) كما جاء في سورة الفجر، وقدر عمرها بالفترة من3000 ق.م. إلى أن نزل بها عقاب ربها فطمرتها عاصفة رملية غير عادية. وعلى الفور قام معمل الدفع النفاث بكاليفورنيا (معهد كاليفورنيا للتقنية) **(The Jet Propulsion Laboratories, California Institute of Technology, J.P.L)**. بإعداد تقرير مطول يضم نتائج الدراسة، ويدعو رجال الأعمال والحكومات العربية إلى التبرع بسخاء للكشف عن تلك الآثار التي تملأ فراغاً في تاريخ البشرية، وكان عنوان التقرير هو: البعثة عبر الجزيرة **The Trans-Arabia Expedition**. وتحت العنوان مباشرة جاءت الآيتان الكريمتان رقما 7، 8 من سورة الفجر، وقد أرسل إليّ التقرير لدراسته، وقد قمت بذلك فعلاً وقدمت رأيي فيه كتابة إلى المسؤولين بالمملكة العربية السعودية.

وقد ذكر التقرير أن اثنين من العلماء القدامى قد سبق لهما زيارة مملكة (عاد) في أواخر حكمها، وكانت المنطقة لا تزال عامرة بحضارة زاهرة، والأنهار فيها متدفقة بالماء، والبحيرات زاخرة بالحياة، والأرض مكسوة بالخضرة، وقوم عاد مستكبرون في الأرض، ويشكلون الحضارة السائدة فيها، وذلك قبل أن يهلكهم الله ـ تعالى ـ مباشرة، وكان أحد هؤلاء هو (بليني الكبير) من علماء الحضارة الرومانية الذي عاش في الفترة من 23م إلى 79م، والآخر كان هو الفلكي والجغرافي (بطليموس الإسكندري) الذي كان أميناً لمكتبة الإسكندرية. وعاش في الفترة من 100م إلى 170م تقريباً، وقام برسم خريطة للمنطقة بأنهارها المتدفقة، وطرقاتها المتشعبة التي تلتقي حول منطقة واسعة سماها باسم (سوق عمان).


(وكالة ناسا)

صورة بالأقمار الصناعية لشبه الجزيرة العربية ـ ويبدو الربع الخالي في الجنوب الشرقي منها

ووصف (بليني الكبير) حضارة عاد الأولى بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أُخرى على وجه الأرض، وذلك في ثرائها، ووفرة خيراتها، وقوتها، حيث كانت على مفترق طرق التجارة بين كل من الصين والهند من جهة وبلاد الشام وأوروبا من جهة أُخرى التي كانت تصدر إليها البخور والعطور والأخشاب، والفواكه المجففة، والذهب، والحرير وغيرها.

وقد علّق كثير من المتأخرين على كتابات كل من (بليني الكبير) و (بطليموس الإسكندري) بأنها ضرب من الخرافات والأساطير، كما يتشكك فيها بعض مدعي العلم في زماننا ممن لم يستطيعوا تصور الربع الخالي، وهو من أكثر أجزاء الأرض قحولة وجفافاً اليوم، كان مليئاً في يوم من الأيام بالأنهار والبحيرات والعمران، ولكن صور المكوك الفضائي جاءت مطابقة لخريطة (بطليموس الإسكندري)، ومؤكدة ما قد كتبه من قبل كل منه ومن بليني الكبير كما جاء في تقرير معهد الدفع النفاث.

إرهاصات قبل الكشف عن إرم

- في سنه1975م تم اكتشاف آثار لمدينة قديمة في شمال غربي سوريا باسم مدينة (إبلا) **(Ebla)**. وتم تحديد تاريخها بحوالي 4500 سنة مضت، وفي بقايا مكتبة قصر الحكم في هذه المدينة القديمة وجدت مجموعة كبيرة من الألواح الصلصالية (حوالي 15,000 لوح) تحمل كتابات بإحدى اللغات القديمة التي تم معرفة مفاتيحها وتمت قراءتها.

- في عددها الصادر بتاريخ ديسمبر1978م نشرت المجلة الجغرافية الأهلية **(National Geographic Magazine)** مقالاً بعنوان: **«Ebla: Splendor of an unknown Empire» (vol.154, no 6, p.731-759)** لكاتب باسم **(Howard la Fay)**.

جاءت فيه الإشارة إلى أن من الأسماء التي وجدت على ألواح مدينة إبلا الاسم «إرم» على أنه اسم لمدينة غير معروفة جاء ذكره في السورة رقم 89 من القرآن الكريم.

- بعد ذلك بعام واحد (أي في سنة 1979م) نشر اثنان من غلاة الصهاينة هما: حاييم برمانت وميخائيل ويتزمان **(Chaim Bermant and Michael Wetzman)**. كتاباً بعنوان: **(Ebla-A Revelation In Archaeology)**.

ذكرا فيه أسماء ثلاثة وجدت مكتوبة على ألواح الصلصال المكتشفة في (إبلا) هي: شاموتو (أو ثمود)، و (عاد)، و (إرم) وذكرا أن هذه الأسماء الثلاثة ذكرت في السورة رقم 89 من القرآن الكريم.

وأضاف هذان الصهيونيان أن (ثمود) اسم قبيلة ذكرها سارجون الثاني **(Sargon II)** في القرن الثامن قبل الميلاد، بينما الاسم (إرم) قد اختلف فيه فمن المؤرخين من اعتبره اسماً لإحدى القبائل، ومنهم من اعتبره اسماً لمكان، أما عن الاسم الثالث (عاد) فقد اعتبراه اسماً أسطورياً، وهذا من قبيل تزييف التاريخ الذي برع فيه الصهاينة منذ القدم، وقد سبقهم في ذلك جيش من مزيفي تاريخ الجزيرة العربية على رأسهم **Thomas Bertram**، الذي نشر في الثلاثينيات من القرن العشرين كلاماً مشابهاً.

• في يوليو سنة 1990م تشكل فريق من البحاث في وكالة الفضاء الأمريكية **(NASA)** برئاسة **(Charles Elachi)** ومن معهد الدفع النفاث **(J.P.L)** برئاسة **(Ronald Blom)** للبحث عن (إرم ذات العماد) تحت رعاية وتشجيع عدد من الأسماء البارزة منها: **(Armand Hammar, Sir Randulph Fiennes, George Hedges)**.

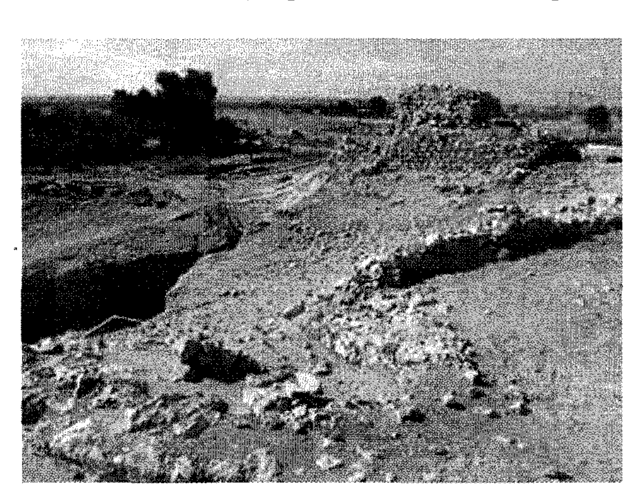
ولكن البحث تأجل بسبب حرب الخليج.

بعد الكشف عن إرم:

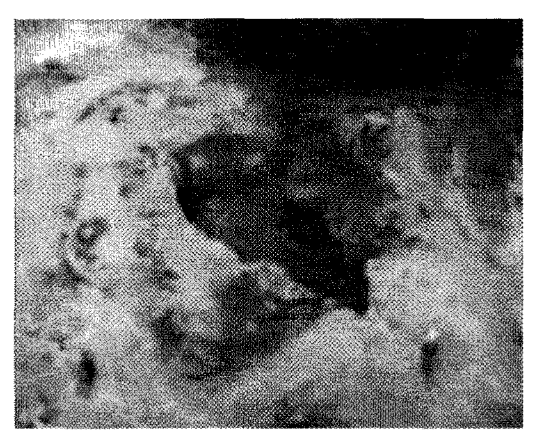
• في يناير (كانون الثاني) سنة 1991م بدأت عمليات الكشف عن الآثار في المنطقة التي حددتها الصور الفضائية واسمها الحالي الشيصار واستمر إلى مطلع سنة 1998م وأعلن خلال ذلك عن اكتشاف قلعة ثمانية الأضلاع سميكة الجدران بأبراج في زواياها مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى 9 أمتار وقطرها إلى 3 أمتار ربما تكون هي التي وصفها القرآن الكريم.

• في 17/ 2/ 1992م نشر في مجلة تايم **(Time)** الأمريكية مقال بعنوان **(Arabia Lost SandCastle By Richard Ostling)** ذكر فيه الكشف عن «إرم».

• بتاريخ 10/ 4/ 1992م كتبت مقالاً بعنوان اكتشاف مدينة «إرم ذات العماد» نشر بجريدة



صورة لبعض الآثار المكتشفة للمدينة الضائعة «إرم» ذات العماد



صورة من الفضاء للفجوة الضخمة التي اكتشفت فيها مدينة «إرم» ذات العماد

الأهرام القاهرية لخصت فيه ما وصلني من أخبار ذلك الكشف حتى تاريخه.

• في سنة 1993م نشر بيل هاريس كتابه المعنون:

(Bill Harris: Lost Civilizations).

• بتاريخ 23/ 4/ 1998م نشر **(Nicholas Clapp)** كتابه المعنون:

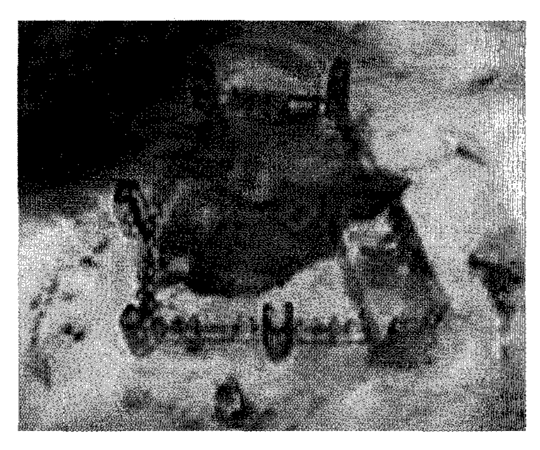
«The Road to Ubar».

• بتاريخ 14/ 6/ 1999م نشر بيكو أير **(Pico Iyer)** كتابه المعنون:

(Falling off The Map: Some Lonely Places in The World).

وتوالت الكتب والنشرات والمواقع على شبكة المعلومات الدولية منذ ذلك التاريخ، ولكن تكتم القائمون على الكشف نشر مزيد من أخباره حتى يتمكنوا من تزييفه وإلحاقه بأساطير اليهود كما فعلوا من قبل في لفائف البحر الميت وآثار (إبلا) وغيرها من المواقع، ولكن كل ما نشر على قلته يؤكد صدق ماجاء بالقرآن الكريم عن قوم عاد بأنهم:

(1) كانوا في نعمة من الله عظيمة ولكنهم بطروها ولم يشكروها ووصف (بليني) الكبير لتلك الحضارة بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أُخرى كأنه ترجمة لمنطوق الآية الكريمة التي قول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾ **(الفجر: 8).**

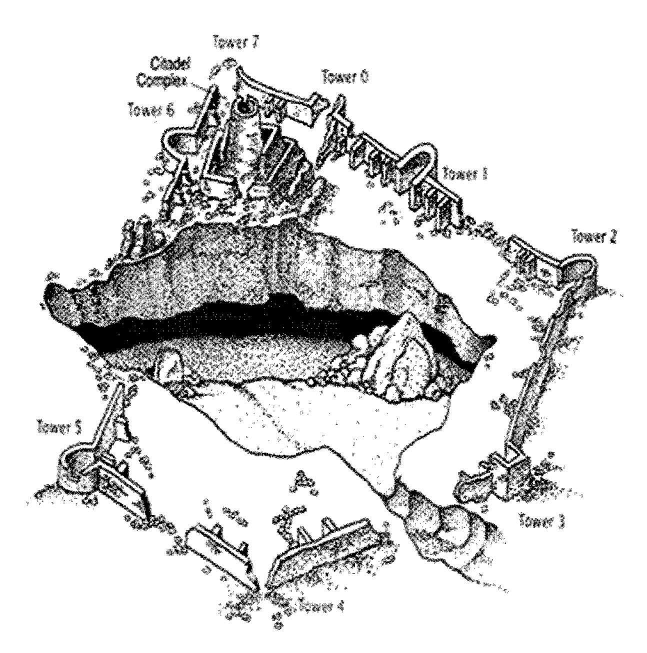


تصور لشكل القلعة التي كانت تحيط بمدينة «إرم» والمقامة على أعمدة ضخمة

(2) إن هذه الحضارة قد طمرتها عاصفة رملية غير عادية وهو ما سبق القرآن الكريم بالإشارة إليه كما ذكرنا في الآيات السابقة عن قوم عاد.

(3) إن هناك محاولات مستميتة من

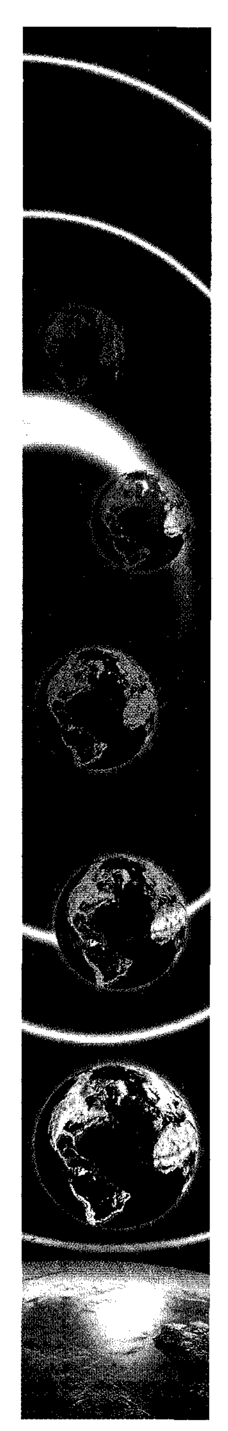
اليهود لتزييف تاريخ تلك المنطقة ونسبة كل حضارة تكتشف فيها إلى تاريخهم المزيف، ولذلك كان هذا التكتم الشديد على نتائج الكشف حتى يفاجئوا العالم بما قد زيفوه، ومن ذلك محاولة تغيير اسم (إرم) إلى اسم عبري هو أوبار **(Ubar)**.



رسم تخطيطي يوضح شكل مدينة - «إرم ذات العماد» التي ذكرها القرآن الكريم

هذه قصة ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ مدينة قوم عاد، التي جاءت الكشوف الأثرية الحديثة بإثبات ما ذكر عنها في القرآن الكريم؛ وإن كان نفر من الأقدمين قد حاول إنكار ذلك تطاولاً على الله وكتابه، فإن نفراً من المحدثين قد حاول إنكاره تطاولاً على العلم وأهله في زمن يتكلم فيه الرويبضة كما أخبرنا رسول الله ﷺ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويبقى ما جاء في القرآن الكريم من ذكر لقوم عاد ولمدينتهم ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ ولما أصابها وأصابهم من دمار بعاصفة رملية غير عادية، صورة من صور الإعجاز التاريخي في كتاب الله تشهد له بصفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والصلاة والسلام على الرسول الخاتم الذي تلقاه وجاهد في سبيله حتى أتاه اليقين، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.



الباب الخامس

خاتمة

جاءت لفظة (الأرض) في أربعمائة وواحد وستين (461) موضعاً من كتاب الله لتشير إلى الكوكب في مجموعه في مقابلة السماء، أو في مقابلة غيره من أجرامها، أو لتشير إلى اليابسة التي نحيا عليها كلها أو إلى جزء منها، واليابسة هي جزء من الغلاف الصخري للأرض المكون لكل من القارات السبع المعروفة، والجزر المحيطية العديدة (من مثل جزر اليابان، الفليبين، إندونيسيا، هاواي، وغيرها)، أو لتشير إلى قطاع التربة التي تغطي صخور الغلاف الصخري للأرض.

وهذه الإشارات الأربعمائة وواحد وستين تحوي العديد من الحقائق العلمية عن الأرض، والتي يمكن إيجازها في النقاط التالية:

(1) ـ آيات **تأمر الإنسان بالسير في الأرض،** والنظر في كيفية بدء الخلق، وهي أساس المنهجية العلمية في دراسة علوم الأرض.

(2) ـ آيات **تشير إلى شكل وحركات وأصل الأرض:** منها ما يصف كروية الأرض، ومنها ما يشير إلى دورانها، ومنها ما يؤكد على عظم مواقع النجوم منها، أو على حقيقة اتساع الكون من حولها و(الأرض جزء منه)، أو على بدء الكون بجرم واحد (مرحلة الرتق)، ثم انفجار ذلك الجرم الأوَّلي (مرحلة الفتق)، أو على بدء خلق كل من الأرض والسماء من دخان، أو على انتشار المادة بين السماء والأرض (المادة بين الكواكب وبين النجوم وبين المجرات)، أو على تطابق كل

من السمٰوات والأرض (أي: تطابق الكون حول مركز واحد).

(3) ـ آية قرآنية واحدة تؤكد **أن كل الحديد في كوكبنا الأرض قد أنزل إليها من السماء إنزالاً حقيقياً**، وهو ما أثبتته الدراسات العلمية في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

(4) ـ آية قرآنية واحدة تؤكد حقيقة **أن الأرض ذات صدع**، وهي من الصفات الأساسية لكوكبنا، وقد أثبتت له في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

(5) ـ آيات قرآنية تتحدث **عن عدد من الظواهر البحرية** المهمة من مثل ظلمات قيعان البحار العميقة والمحيطات، ودور كل من السحب والأمواج الداخلية والسطحية في تكوين تلك الظلمة التامة. وتسجير بعض هذه القيعان بحرارة عالية على الرغم من امتلائها بالماء، وتمايز المياه فيها إلى كتل متجاورة لا تختلط اختلاطاً كاملاً، نظراً لوجود حواجز أفقية ورأسية غير مرئية تفصل بينها، ويتأكد هذا الفصل بين الكتل المائية بصورة أوضح في حالة التقاء كل من المياه العذبة والمالحة عند مصاب الأنهار، مع وجوده بين مياه البحر الواحد، أو بين مياه البحار المتصلة ببعضها البعض، كالتقاء مياه البحار شبه المغلقة من مثل كل من البحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط بمياه المحيطات المجاورة (كل من المحيط الهندي، والمحيط الأطلسي على التوالي).

(6) ـ آيات قرآنية **تتحدث عن الجبال**، منها ما يصفها بأنها أوتاد، وبذلك يصف كلًّا من الشكل الخارجي الذي على ضخامته يمثل الجزء الأصغر من الجبل والامتداد الداخلي الذي يشكل غالبية جسم الجبل، كما يصف وظيفته الأساسية في تثبيت الغلاف الصخري للأرض، وفي اتزان دورانها حول محورها. وتتأكد هذه الوظيفة في اثنتين وعشرين آية قرآنية أخرى وردت بها كذلك إشارات إلى عدد من الوظائف والصفات الإضافية للجبال من مثل انتصابها فوق سطح الأرض، ودورانها معها، أو تكوينها من صخور متباينة في الألوان والأشكال والهيئة، أو دورها في إنزال المطر، وتغذية الأنهار، وشق الأودية والفجاج، أو في جريان السيول، وغير ذلك من العمليات الأرضية.

(7) ـ آيات قرآنية تشير إلى **نشأة كل من الغلافين المائي والهوائي للأرض**، وذلك بإخراج مكوناتهما من باطن الأرض، أو تصف الطبيعة الرجعية لغلافها الغازي، أو تؤكد حقيقة ظلام الكون، أو تناقص الضغط الجوي مع الارتفاع عن سطح الأرض، أو انتظام تبادل الليل والنهار، ورقة طبقة النهار حول نصف الأرض المواجه للشمس، أو تشير إلى أن ليل الأرض كان في بدء خلقها مضاءً كنهارها، ثم محا الله ﷻ ضوء الليل.

(8) ـ آيات تشير إلى **رقة الغلاف الصخري للأرض**، وإلى تسوية سطحه وتمهيده وشق الفجاج والسبل فيه، وإلى تناقص الأرض من أطرافها.

(9) ـ آيات تؤكد **إسكان ماء المطر في كل من صخور الأرض وتربتها**، مما يشير إلى دورة الماء حول الأرض وفي داخل غلافها الصخري، أو تؤكد علاقة الحياة بالماء، أو تلمح إلى إمكانية تصنيف الكائنات الحية.

(10) ـ آيات تؤكد **أن عملية الخلق قد تمت على مراحل متعاقبة عبر فترات زمنية طويلة.**

(11) ـ آيات قرآنية **تصف نهاية كل من الأرض والسمٰوات وما فيهما من كائنات؛** أي: الكون كله بعملية معاكسة لعملية الخلق الأول، كما تصف إعادة خلقهما من جديد، أرضاً غير الأرض الحالية وسمٰوات غير السمٰوات القائمة.

هذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة للإنسان قبل القرن العشرين، بل إن الكثير منها لم يتوصل الإنسان إلى معرفته إلا في العقود القليلة الماضية من نهايات ذلك القرن عبر جهود مضنية، وتحليل دقيق لكمٍّ هائل من الملاحظات والتجارب العلمية في مختلف جنبات كل من الأرض وفي الجزء المدرك من الكون، وإن السبق القرآني بالإشارة إلى مثل هذه الحقائق بأسلوب يبلغ منتهى الدقة العلمية واللغوية في التعبير، والإحاطة والشمول في الدلالة ليؤكد جانباً مهماً من جوانب الإعجاز في كتاب الله، وهو جانب الإعجاز العلمي، ومع تسليمنا بأن القرآن الكريم معجز في كل أمر من أموره، إلا أن الإعجاز العلمي يبقى من أنجح أساليب الدعوة إلى الله في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه.

ومن هنا تتضح أهمية القرآن الكريم في هداية البشرية خاصة في زمن كالذي نعيشه اليوم، والذي فتح الله ـ تعالى ـ فيه على الإنسان من أبواب العلم بالكون ومكوناته ما لم يفتح به من قبل، وفتن الإنسان فيه بالعلوم الكونية وتطبيقاتها، ونسي الهدف الرئيسي من وجوده في هذه الحياة: عبداً لله مستخلفاً في الأرض لعبادة خالقه بما أمر، ولعمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها استعداداً للقاء الله. وفي نسيان أغلب الناس لرسالة الإنسان في هذه الحياة أصبحت البشرية أحوج ما تكون إلى الهداية الربانية. كما تتضح أهمية دراسات الإعجاز العلمي في كتاب الله مهما تعددت تلك المجالات العلمية، وذلك لأن ثبات صدق الإشارات القرآنية في القضايا الكونية من مثل إشاراته إلى عدد من حقائق علوم الأرض، وهي من الأمور المادية الملموسة التي يمكن للعلماء التجريبيين إثباتها، لأدعى إلى التسليم بحقائق القرآن الأُخرى، خاصة ما يرد منها في مجال القضايا الغيبية والسلوكية من مثل

قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات والتي تمثل ركائز الدين، ولا سبيل للإنسان في الوصول إلى قواعد سليمة لها، وإلى ضوابط صحيحة فيها، إلا عن طريق بيان رباني خالص لا يداخله أدنى قدر من التصور البشري، والقرآن الكريم هو النص السماوي الوحيد الذي يمثل ذلك منذ أربعة عشر قرناً مضت وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

وقد تناولنا في هذا الكتاب خمساً وثلاثين قضية من إشارات القرآن الكريم إلى الأرض في الآيات التالية:

(1) ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (الذاريات: 20).

(2) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (الأنعام: 8).

(3) ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ . . .﴾ (الحديد: 25).

(4) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ (النازعات: 30، 31).

(5) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ (الرعد: 41).

(6) ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ (الطارق: 12).

(7) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ (الطور: 6).

(8) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ (النبإ: 6، 7).

(9) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ (النازعات: 32، 33).

(10) ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ . . . (الزمر: 5).

(11) ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ (النحل: 15).

(12) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنبياء: 33).

(13) ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (الروم: 1 ـ 5).

(14) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ . . . (البقرة: 22).

(15) ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الذاريات: 48).

(16) ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر: 27).

(17) ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الرحمن: 33).

(18) ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ (الحج: 5).

(19) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (فصلت: 10).

(20) ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: 17).

(21) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾... (غافر: 64).

(22) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾... (فصلت: 37).

(23) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: 17).

(24) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (المؤمنون: 18).

(25) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ (الزمر: 21).

(26) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (المعارج: 40).

(27) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ (الأنعام: 96).

(28) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ (مريم: 65).

(29) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ (طه: 6).

(30) ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ

﴿السَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾... (التوبة: 36).

(31) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ (الأنعام: 92).

(32) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ (آل عمران: 96).

(33) ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ (آل عمران: 97).

(34) ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾... (آل عمران: 97).

(35) ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨﴾ (الفجر: 7، 8).

ومن الحقائق العلمية التي سبقت بها هذه الآيات كل المعارف الإنسانية ما يلي:

1 ـ التلميح إلى مركزية الأرض من الكون بالإشارة إلى تطابق أقطار الأرض (مع ضآلتها وقلة حجمها النسبي) مع أقطار السمٰوات (على ضخامتها واتساع أبعادها).

2 ـ الإشارة إلى البينية الفاصلة بين السمٰوات والأرض ممثلة في الغلاف الغازي للأرض الذي هو خليط من كل من الغازات المندفعة من داخل الأرض مع ثورات البراكين والمواد المنتشرة بين كلٍّ من الأرض والقمر، والكواكب المجاورة وما يفصلها عن الشمس.

3 ـ التأكيد على أن كل الحديد في الأرض (أكثر من 35.9% من كتلتها) بل في كل مجموعتنا الشمسية قد أنزل إلى كل منهما إنزالاً حقيقياً.

4 ـ الإشارة إلى استقرار الأرض بقدرة الله ﷻ.

5 ـ إثبات أنه من صفات أرضنا أنها «أرض ذات صدع».

6 ـ إثبات صفة التسجير لقيعان عدد من البحار الخاصة التي تعرف باسم البحار المنفتحة والتي تتميز بتصدع قيعانها بأعداد من الصدوع العميقة التي تحوي بينها خسوفاً أرضية تصل إلى نطاق الضعف الأرضي المكون من صهارة في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية.

وهكذا أثبتت دراسات قيعان البحار والمحيطات بعد الحرب العالمية الثانية أن جميع محيطات الأرض بما في ذلك المحيط المتجمد الشمالي والجنوبي قيعانها مسجرة تسجيراً حقيقياً بالصهارة الصخرية المندفعة من نطاق الضعف الأرضي في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية. وكذلك أعداد من البحار التي تتوسع قيعانها بالتصدع من مثل البحر

الأحمر؛ وهذه حقائق لم تدرك إلا في أواسط الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين.

7 ـ التأكيد على كل من إرساء الجبال في الأرض وإرساء الأرض بالجبال.

8 ـ وصف الجبال بأنها (أوتاد)، والعلم يكتشف أن كل مرتفع أرضي له امتداد في داخل الأرض يتراوح طوله بين (10)، (15) ضعف ارتفاعه فوق مستوى سطح البحر.

9 ـ وصف الجبال بأنها مكونة من جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود وهي ألوان الصخور الأولية (النارية) الأساسية ووسيلة من وسائل تصنيفها العلمي الصحيح.

10 ـ الإشارة إلى كروية الأرض بتكور كلٍّ من الليل والنهار، وبتعدد المشارق والمغارب.

11 ـ الإشارة إلى تمهيد الأرض وتسوية سطحها والعلم يشير إلى أنها كانت في بداية الأمر وعرة التضاريس بشكل كبير لا تستقيم معه الحياة.

12 ـ الإشارة إلى إنقاص الأرض من أطرافها، والعلم يؤكد أن أرضنا الابتدائية كانت مائتي ضعف حجم أرضنا الحالية، وأن كتلة وحجم أرضنا في تناقص مستمر حتى تتوازن مع ما تفقده الشمس على هيئة طاقة وهو يساوي 4.6 بليون طن في كل ثانية.

13 ـ الإشارة إلى أن كل ماء الأرض، وجزءاً هاماً من غلافها الغازي قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من داخل الأرض بعلمه وحكمته وقدرته.

14 ـ التلميح إلى أن أصل الماء المخزون في صخور القشرة الأرضية هو ماء المطر النازل من السماء بقدر معلوم، وبقدرة رب العالمين الذي هو قادر على أن يسلكه ينابيع في الأرض، وعلى تغويره وضياعه إن شاء.

15 ـ الإشارة إلى اهتزاز التربة وارتفاعها إلى أعلى بمجرد نزول الماء عليها.

16 ـ التأكيد على أن الزبد «يذهب جفاءً» وأما ما ينفع الناس «فيمكث في الأرض».

17 ـ الإشارة إلى أن المعركة الفاصلة بين كل من الفرس والروم كانت في منطقة تعتبر أكثر مناطق اليابسة انخفاضاً وأقربها إلى جزيرة العرب (أدنى الأرض) وهي أرض (وادي عربة/ وادي الأردن/ طبرية) والعلم يؤكد على أن منسوب الماء في البحر الميت يصل إلى 400 م تحت المستوى العادي لسطح البحر، وأن قاع البحر الميت يصل إلى (−800م) تحت مستوى سطح البحر العادي.

18 ـ وصف كلٍّ من الليل والنهار والشمس والقمر بأنها ضوابط لتحديد الزمن

الأرضي، ووسيلة جيدة للتأريخ للأحداث، وللقيام بالعبادات، وأداء الحقوق والواجبات.

19 ـ تشبيه فلق نور فجر الصبح من ظلمة الليل على سطح الأرض بفلق الحبة النباتية، أو البذرة، أو النّواة عند إنباتها بوصول القدر الكافي من الماء إليها. والتأكيد على أن الليل للسكن، والنهار للكد والكدح وإعمار الأرض، وإقامة عدل الله فيها. وأن الشمس والقمر وسيلتان دقيقتان من وسائل حساب الزمن.

20 ـ التأكيد على أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض، مما يؤكد ثبات بعد الشمس عن الأرض وثبات سرعة جري الأرض في مدارها المخصص لها حول الشمس وهما ما يحدد سنة الأرض، كما يحدد تقسيمها إلى شهور دورة القمر حول الأرض ومنازله بالنسبة إلى بروج السماء.

21 ـ التأكيد على مركزية مكة المكرمة من الأرض.

22 ـ الإشارة إلى أن أول بيت وضع للناس هو المسجد الحرام في مكة المكرمة.

23 ـ التأكيد على أن في المسجد الحرام آيات بينات، وأن منها «مقام إبراهيم»، وأن من دخله كان آمناً.

24 ـ الإشارة إلى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ والكشوف الأثرية قد كشفت بالفعل عن أسوار هذه المدينة.

وتأتي هذه الآيات القرآنية الكريمة ضمن أكثر من ألف آية صريحة تتحدث عن عدد من أشياء هذا الكون وظواهره. وهذه الآيات الكونية جاءت في مقام الاستدلال على ألوهية الخالق ﷻ وعلى ربوبيته ووحدانيته فوق جميع خلقه، كما جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة قدرته في الخلق، وعلى قدرته على الإفناء والبعث، وكانت قضية البعث عبر التاريخ هي حجة الكفار والمشركين والجاحدين المتشككين.

وتبقى هذه الإشارات الكونية في كتاب الله ـ تعالى ـ خطاباً للناس في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه في هذه الأيام، وحجة عليهم أجمعين بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه ﷻ بعهده الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ **(الحجر: 9)**.

وإذا ثبت لهم صدق القرآن الكريم في إشاراته المتعددة إلى الكون ومكوناته وظواهره فلا بد أن يكون صادقاً في إخباره عن الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة،

والأخلاق، والمعاملات. والعقيدة غيب مطلق لا سبيل للإنسان في الوصول إليه إلا عن طريق وحي السماء، والعبادات هي أوامر ربانية خالصة لا يداخلها أدنى قدر من الصناعة البشرية أو التصورات المبتدعة.

من هنا كانت ضرورة الاهتمام بالإشارات الكونية الواردة في كلٍّ من كتاب الله وسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ؛ لأن مثل هذه الإشارات لا يمكن أن تفهم فهماً صحيحاً كاملاً في إطار اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ بل لا بد من توظيف كل الحقائق العلمية المتاحة من أجل تحقيق ذلك.

والقرآن الكريم أنزل إلينا لنفهمه ولنعمل به، وكذلك السنة النبوية المطهرة نطق بها الحبيب المصطفى ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ لكي نفهم دلالاتها ونعمل بها.

وفي فهم الدلالة العلمية للإشارة الكونية في كلٍّ من كتاب الله وسنة رسولهﷺ ترسيخ لإيمان المؤمنين، وإثبات لغيرهم بأن هذا السبق العلمي الذي جاء منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة لا يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق ﷻ. والغالبية من أهل الأرض اليوم لا تؤمن بحجية القرآن الكريم، ولا بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولا تؤمن في صدق إنبائه عن ربه وإخلاصه في تبليغ رسالته، وربما كان في لفت أنظارهم إلى هذا السبق العلمي في كل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أسلوب في الدعوة إلى دين الله يتواءم مع طبيعة العصر ومنطق الناس فيه، وتشجيع للعلماء المعاصرين على التعامل مع كلٍّ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ـ ولو في ترجمات لهما ـ وما اطلع عاقل محايد على شيء منهما إلا وأدرك ما في كلٍّ منهما من حق وعدل وصدق يفوق إمكانات البشر مجتمعين.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى إثبات ذلك الحق بكل الوسائل المتاحة حتى نتمكن من الخروج من طوق الفتن والمؤامرات المحيطة بنا، وهي فتن ومؤامرات مزودة بكل الإمكانات المادية والتقنية التي حققها الإنسان، وهي مجالات تفوق فيها أهل الباطل، وتخلف فيها أهل الحق، والحق لا ينتصر لمجرد كونه حقاً...!! بل يحتاج إلى جهاد المؤمنين به.

والسبب الحقيقي من وراء تآمر أهل الباطل علينا، وعملهم الدؤوب منذ انتهاء الحروب الصليبية على غزو العالم الإسلامي، وتمزيق جسده الواحد إلى أكثر من خمسة وخمسين دولة ودويلة، بحدود مصطنعة مختلف عليها، وتنصيب أنماط من الحكم متعارضة على هذه الكيانات الممزقة لدوام التصارع بينها، وللحيلولة دون توحدها من جديد، والتآمر

بليل من أجل إقصاء الإسلام عن مقامات اتخاذ القرار، والعمل الدؤوب على تخلف الأمة علمياً وتقنياً، وعلى بعثرة إمكاناتها المادية، والسبب الحقيقي في ذلك كله هو تخلف المسلمين عن الدعوة إلى دين الله، وتركهم الساحات مفتوحة للغلاة من كل لون وملة لتشويه صورة الإسلام، وإخافة الناس من إمكانية عودة وحدة المسلمين، وإقامة دولة الإسلام من جديد، وإذا وعى المسلمون هذه الحقيقة واهتموا بالدعوة إلى دين الله، واستخدموا في ذلك لغة العصر ـ وهي العلم ـ لإثبات حجية القرآن الكريم وصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فلعل الله ـ تعالى ـ أن يفتح القلوب لهذه الدعوة المخلصة، ويزيل من العقول الضالة التائهة، والقلوب المظلمة الصدئة ما ترسب فيها من الريب والشكوك حتى نحقق نبوءة المصطفى ﷺ التي قال فيها:

«**إن الله قد زوى لي الأرض من أطرافها فما رأيت بيت حجر ولا مدر ولا وبر إلا وقد دخله الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل**» وما ذلك على الله بعزيز.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

ثبت بالمصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

1 ـ **إبراهيم، محمد إسماعيل**: «القرآن وإعجازه العلمي» دار الفكر العربي ـ القاهرة.

2 ـ **إبراهيم، محمد محمود**: «إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض» ـ اتحاد طلاب كلية الهندسة جامعة أسيوط 1391 هـ/ 1972 م وهي مجموعة محاضرات ألقيت في الفترة من 1942 م ـ 1956 م. (133 صفحة).

3 ـ **إبراهيم، مدحت حافظ**: «الإشارات العلمية في القرآن الكريم» مكتبة غريب ـ القاهرة (1993).

4 ـ **أحمد، حنفي**: «التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن» ـ دار المعارف بمصر (454 صفحة) (1960 م).

5 ـ **الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود شكري (ت 1270 هـ)**: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة (بدون تاريخ)؛ دار الفكر ـ بيروت (1398 هـ/ 1978 م)؛ دار إحياء التراث العربي/ الحلبي/ مصر (ط 4) 1405 هـ/ 1985م.

6 ـ **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403 هـ)**: «إعجاز القرآن» ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1398 هـ/ 1978 م (89 صفحة).

7 ـ **ابن أبي الإصبع، العدواني المصري**: «بديع القرآن» ـ القاهرة (1377هـ/ 1957م).

8 ـ **ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد بن حزم الظاهري**: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني، المطابع الأميرية ـ القاهرة (1397 هـ/ 1977 م).

9 ـ **ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد**: «المقدمة» ـ القاهرة (1322 هـ/ 1904 م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1419 هـ/ 1998 م)؛ دار الشعب ـ القاهرة بتحقيق د. علي عبد الواحد وافي (بدون تاريخ).

10 ـ **ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد:** «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» ـ بيروت (1379 هـ/ 1959 م) ـ (1381 هـ/ 1961 م).

11 ـ **ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت 224 هـ):** «فضائل القرآن»؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1411 هـ/ 1991 م).

12 ـ **ابن عاشور، محمد الطاهر:** «التحرير والتنوير في التفسير»، الدار التونسية للنشر ـ تونس (1391 هـ/ 1971 م)، (1404 هـ/ 1984 م).

13 ـ **ابن عبد السلام، العز:** «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز»، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

14 ـ **ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد اللّه (ت 543):** «أحكام القرآن»، مطبعة دار السعادة ـ القاهرة ـ (1331 هـ/ 1912 م).

15 ـ **ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت 546 هـ):** «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (نشر رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ـ الدوحة) (1398 هـ)1978 م)؛ دار الكتب العلمية (1413 هـ/ 1993 م) توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

16 ـ **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774 هـ):** «تفسير القرآن العظيم» (4 أجزاء)؛ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة (ط 2)، (1373 هـ/ 1954 م).

17 ـ **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774 هـ):** «فضائل القرآن» ـ مطبعة المنار ـ (القاهرة 1327 هـ/ 1909 م).

18 ـ **أبو حيان الأندلسي، أبو عبد اللّه محمد بن يوسف:** «تفسير البحر المحيط» ـ مطبعة دار السعادة ـ القاهرة ـ (1328 هـ/ 1910 م)، دار الفكر ـ بيروت (ط 2) (1403 هـ/ 1983 م).

19 ـ **أبو خليل، شوقي:** «الإنسان بين العلم والدين»، مطبعة الإنشاء بدمشق (1970 م) 271 صفحة.

20 ـ **أبو زهرة، محمد:** «المعجزة الكبرى»، دار الفكر العربي ـ القاهرة (1977 م).

21 ـ **أبو السعود، محمد بن محمد العماري:** تفسير أبي السعود المعنون «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (جزءان)، المطبعة الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة ـ (1275 هـ/ 1858 م).

22 ـ **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403 هـ):** «إعجاز القرآن» ـ تحقيق السيد أحمد صقر، المطبعة السلفية، (القاهرة 1349 هـ ـ 1930 م)؛ دار المعارف ـ القاهرة (1391 هـ/ 1971 م). ومصطفى الحلبي (1398 هـ/ 1978 م)، وعالم الكتب ـ بيروت (1408 هـ/ 1988 م).

23 ـ **البغوي، أبو محمد الحسين**: تفسير البغوي المسمى «معالم التنزيل» ـ تحقيق خالد عبد الرحمٰن العك، ومروان سوار، دار المعرفة ـ بيروت (1406 هـ/ 1986 م).

24 ـ **البقاعي، برهان الدين بن عمر**: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة (ط 2)، (1413 هـ/ 1992 م)؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1415 هـ/ 1994 م).

25 ـ **بن نبي، مالك**: الظاهرة القرآنية، دار الفكر ـ بيروت 1968 م (364 صفحة).

26 ـ **بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمٰن)**: «الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية، لغوية وبيانية»، دار المعارف (1393 هـ/ 1973 م)، الطبعة الثانية (1404 هـ/ 1984 م)، الطبعة الثالثة (1407 هـ/ 1987 م).

27 ـ **بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمٰن)**: «التفسير البياني للقرآن الكريم» (في جزأين) ـ دار المعارف ـ القاهرة (1382 هـ/ 1962 م).

28 ـ **بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمٰن)**: «القرآن والتفسير العصري» دار المعارف ـ القاهرة 1390 هعـ/ 1970 م، (175 صفحة).

29 ـ **البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد اللَّه بن عمر الشيرازي**: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (جزءان)، المطبعة العثمانية ـ القاهرة (1305 هـ/ 1910 م).

30 ـ **البيومي، محمد رجب**: «البيان القرآني» ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة (1421 هـ/ 2001 م).

31 ـ **التجيبي، أبو يحيى محمد بن صمادح**: «مختصر تفسير الإمام الطبري» ـ دار الفجر الإسلامي ـ دمشق (1422 هـ/ 2001 م).

32 ـ **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255 هـ)**: «الحيوان»: تحقيق عبد السلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ دار الرفاعي بالرياض (1403 هـ/ 1983 م).

33 ـ **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255 هـ)**: «البيان والتبيين» تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ومكتب الهلال ـ بيروت.

34 ـ **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن (ت 471 هـ)**: «دلائل الإعجاز»، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجي ـ القاهرة (ط 2)، مطبعة المنار ـ القاهرة (1331 هـ/ 1912 م)، أعيدت طباعته بواسطة دار المعرفة ـ بيروت 1398 هـ/ 1978 م وبالاتفاق بين مكتبتي الخانجي والأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (1420 هـ/ 2000 م).

35 ـ **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن (ت 471 هـ)**: «الرسالة الشافية في إعجاز القرآن» نشرت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله أحمد،

ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411 هـ/ 1991 م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

36 ـ **الجسر، نديم**: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»، توزيع دار العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة (1389 هـ/ 1969 م). منشورات المكتب الإسلامي ـ بيروت (الطبعة الأولى: 1380 هـ/ 1961 م).

37 ـ **جوهري، طنطاوي (ت 1359 هـ/ 1940 م)**: «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» (المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات) ـ (في 26 جزءاً، 13 مجلداً) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ (1340 هـ/ 1920 م) (الطبعة الثانية: شوال 1350 هـ/ 1931 م).

38 ـ **حسب البنى، منصور محمد**: «القرآن الكريم والعلم الحديث»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1991 م).

39 ـ **الحمصي، نعيم**: «فكرة إعجاز القرآن»، مؤسسة الرسالة، بيروت (1980 م).

40 ـ **حوى، سعيد**: «الأساس في التفسير» ـ دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت (1405 هـ/ 1985 م).

41 ـ **الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي**: تفسير الخازن المعنون «لباب التأويل في معاني التنزيل» وبهامشه تفسير البغوي (في 7 أجزاء)، المطبعة الأميرية ـ القاهرة (1231/ 1232 هـ) الموافق (1815/ 1816 م). أعاد طباعته كل من دار المعرفة، ودار الفكر ـ بيروت.

42 ـ **الخطابي، أبو سلمان حمد محمد بن إبراهيم (ت 388 هـ)**: «بيان إعجاز القرآن» مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، الخطابي، والجرجاني بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة (1411 هـ/ 1991 م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

43 ـ **خليفة، محمد محمد**: «مع آيات الله في كتاب الله» مكتبة النهضة المصرية (1983 م).

44 ـ **دراز، محمد عبد الله**: «النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن»، القاهرة (1376 هـ/ 1957 م)، دار القلم (الكويت) 1405 هـ/ 1984 م.

45 ـ **الذهبي، محمد حسين**: «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة (الطبعة الثانية: 1396 هـ/ 1976 م).

46 ـ **الراجحي، عبد الغني**: «الأرض والشمس في منظور الفكر الإسلامي»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر (1981 م).

47 ـ **الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت 606 هـ)**: تفسير الرازي أو التفسير

الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» (في 8 مجلدات)، المطبعة البهية ـ القاهرة (1307 هـ/ 1321 هـ) الموافق (1889 م/ 1903 م)، أعادت طباعته كلٌّ من دار الكتب العلمية ـ طهران (1411 هـ/ 1990 م)، ودار الفكر ـ بيروت (1415 هـ/ 1995 م).

48 ـ **الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت 606 هـ)**: «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» تحقيق أحمد السقا (1992 م) دار الجيل ـ بيروت.

49 ـ **الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666 هـ)**: بترتيب السيد محمود خاطر ـ (الطبعة العاشرة) الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (1384 هـ/ 1964 م).

50 ـ **الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت 503 هـ)**: «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» ـ تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي (1392 هـ/ 1972 م).

51 ـ **الرافعي، مصطفى صادق**: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»؛ المكتبة التجارية ـ مصر (1961 م، 1965 م).

52 ـ **رضا، محمد رشيد**: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» ـ دار المنار/ القاهرة (1373 هـ/ 1953 م)؛ دار المعرفة ـ بيروت (1414 هـ/ 1994 م).

53 ـ **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386 هـ)**: «النكت في إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411 هـ/ 1991 م) صدرت تحت عنوان «من ذخائر العرب».

54 ـ **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386 هـ)**: «معاني الحروف» تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر ـ القاهرة (1973 م).

55 ـ **الزرقاني، محمد بن عبد العظيم (ت 1367 هـ)**: «مناهل العرفان في علوم القرآن» (في جزأين) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه/ دار إحياء الكتب العربية (1362 هـ/ 1943 م).

56 ـ **الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد اللّه بن بهادر (ت 794 هـ)**: «البرهان في علوم القرآن» ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (في أربعة أجزاء)، دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ القاهرة، (1376 هـ/ 1957 م)؛ أعادت طباعته دار المعرفة ـ بيروت (1391 هـ/ 1972 م).

57 ـ **الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538)**: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» ـ (في أربعة أجزاء) ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1354 هـ/ 1935 م)، (1367 هـ/ 1948 م)، (1393 هـ/ 1972 م).

58 ـ **الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد عبد الكريم (ت 651 هـ)**: «البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن»، تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب ـ مطبعة العاني ـ بغداد 1394 هـ/ 1984 م.

59 ـ **زيدان، السيد محمد (1417 هـ/ 1996 م)**: «من إعجاز القرآن العلمي في نبات المحاصيل»، من نشرات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، نشرة رقم (20).

60 ـ **سعد، شكري إبراهيم (1975 م)**: «تصنيف النباتات الزهرية»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الطبعة الثالثة) ـ الإسكندرية.

61 ـ **السعدي، عبد الرحمٰن بن ناصر**: «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (1398 هـ/ 1978 م).

62 ـ **سعيد، عبد الستار فتح الله**: «المدخل إلى التفسير الموضوعي»، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (الطبعة الثانية: 1411 هـ/ 1991 م).

63 ـ **السعيد، عبد اللّه عبد الرازق (1985 م)**: «الإعجاز الطبي في القرآن والأحاديث النبوية: الرطب والنخلة»، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

64 ـ **السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت 626 هـ)**: «مفتاح العلوم»، 1937 م ـ مطبعة الحلبي ـ مصر.

65 ـ **سليمان، أحمد محمود**: «القرآن والعلم» دار المعرفة (1968 م)، دار الكتاب العربي ـ طرابلس (1974 م) 173 صفحة.

66 ـ **سيد الأهل، عبد العزيز**: «من إشارات العلوم في القرآن الكريم» دار النهضة الحديثة ـ بيروت ـ لبنان 1392 هـ/ 1972 م (173 صفحة).

67 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911 هـ)**: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (في ستة أجزاء) مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1314 هـ/ 1896 م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1403 هـ/ 1983 م).

68 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911 هـ)**: «الإتقان في علوم القرآن» وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة التجارية (الطبعة الأولى: 1360 هـ/ 1941 م)، مصطفى الحلبي (الطبعة الرابعة: 1398 هـ/ 1978 م)، مكتبة دار التراث ـ القاهرة (الطبعة الخامسة: 1405 هـ/ 1985 م).

69 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911 هـ)**: «معترك الأقران في إعجاز القرآن» تعليق أحمد شمس الدين

(1988 م) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
70 ـ **شاكر، محمود:** «فصل في إعجاز القرآن» مقدمة الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي (1987 م) دار الفكر ـ دمشق.
71 ـ **شحاته، عبد الله:** «آيات الله في الكون تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (1422 هـ/ 2002 م).
72 ـ **شرباتي، محمد سليم:** «تعريف التعريف بالتفسير العلمي»، دار المنهل ـ دمشق (2003 م). (41 صفحة).
73 ـ **الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني:** «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، مطبعة المدني بالرياض (1386 هـ/ 1966 م).
74 ـ **الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت 1250 هـ):** «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر (1340 هـ/ج 1920 م)، (1349 هـ/ 1930 م)، دار الفكر ـ بيروت (1393 هـ/ 1973 م)، (1403 هـ/ 1983 م).
75 ـ **صالح، عبد المحسن:** «ومن كل شيء خلقنا زوجين»، عكاظ (1404 هـ/ 1984 م) (207 صفحة).
76 ـ **الصابوني، محمد علي:** «مختصر تفسير ابن كثير» (في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402 هـ/ 1981 م).
77 ـ **الصابوني، محمد علي:** «صفوة التفاسير» (في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402 هـ/ 1981 م).
78 ـ **طبارة، عفيف عبد الفتاح:** «روح الدين الإسلامي»، دار العلم للملايين 1397 هـ/ 1977 م (480 صفحة).
79 ـ **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ):** تفسير الطبري المعنون «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، المطابع الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة (في 15 مجلداً)، ودار المعارف ـ القاهرة (1321 هـ/ 1903 م)، ثم طبعات تالية من نفس الدار (1358 هـ/ 1939 م)، (1373 هـ/ 1953 م)، (1415 هـ/ 1995 م)، (1420 هـ/ 1999 م)، ثم طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (1388 هـ/ 1968 م)، وطبعة دار الفكر ببيروت (1398 هـ/ 1978 م)، وطبعة دار الحديث بالقاهرة (1407 هـ/ 1987 م).
80 ـ **عارف، أبو الفداء محمد عزت محمد (1998 م):** «شجرة المعجزات: التمر وفوائده الطبية»، دار الاعتصام.

81 ـ **عبد الباقي، محمد فؤاد**: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار ومطابع الشعب ـ القاهرة (1364 هـ/ 1945 م).

82 ـ **عبد الجبار، القاضي**: «المغنى» وزارة المعارف المصرية.

83 ـ **عروة، أحمد (1417 هـ/ 1996 م)**: «أفرأيتم النار التي تورون»، من منشورات هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة: نشرة رقم (19).

84 ـ **عشري، عبد المنعم السيد**: «تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1985 م).

85 ـ **العك، خالد عبد الرحمٰن**: «أصول التفسير لكتاب الله المنير»، مكتبة الفارابي ـ دمشق (1388 هـ/ 1968 م).

86 ـ **العمري، أحمد جمال**: «مفهوم الإعجاز القرآني (حتى القرن السادس الهجري)» دار المعارف بمصر (1984 م).

87 ـ **عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي**: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، دار الكتب العلمية بيروت.

88 ـ **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ)**: «إحياء علوم الدين»، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة (1331 هـ/ 1912 م)؛ دار المعرفة ـ بيروت؛ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1377 هـ/ 1957 م).

89 ـ **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ)**: «جواهر القرآن»، مكتبة الجندي ـ القاهرة (1384 هـ/ 1964 م)؛ الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (1401 هـ/ 1981 م).

90 ـ **الغمراوي، محمد أحمد والكرداني، أحمد عبد السلام**: «الإسلام في عصر العلم»، دار الكتب الحديثة القاهرة (1393 هـ/ 1973 م) (451 صفحة).

91 ـ **الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت 207 هـ)**: «معاني القرآن»، تحقيق النجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية (1374 هـ/ 1955 م).

92 ـ **فرج، إبراهيم محمد**: «علم الأرض» الجزء الأول والثاني، دار الكتاب المصري 1379 هـ/ 1959 م، (350 صفحة).

93 ـ **فرغلي، قطب عامر (1417 هـ/ 1996 م)**: «اختلاط الماء بالأرض الهامدة» من منشورات هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، نشرة رقم (20).

94ـ **الفندي، محمد جمال الدين**: «من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم»، دار التحرير ـ القاهرة ـ 1969 م.

95 ـ **الفندي، محمد جمال الدين**: «الكون بين العلم والدين» المجلس الأعلى للشؤون

الإسلامية 1391 هـ/ 1972 م، (158 صفحة).

96 ـ **القاسمي، محمد جمال الدين**: «محاسن التأويل»، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1376 هـ/ 1957 م)، تعليق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي.

97 ـ **القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت 671 هـ)**: تفسير القرطبي المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن» (في 20 مجلداً) دار الكتب المصرية (1352 هـ/ 1933 م)، (1358 هـ/ 1939 م)، (1370 هـ/ 1950 م)؛ (1387 هـ/ 1967 م)؛ دار القلم بيروت (1386 هـ/ 1966 م)؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1408 هـ/ 1988 م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1415 هـ/ 1995 م).

98 ـ **القطان، مناع خليل**: «مباحث في علوم القرآن»، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (1402 هـ/ 1982 م).

99 ـ **قطب، سيد**: «في ظلال القرآن» (في ستة مجلدات)، دار الشروق، بيروت (1393 هـ/ 1973 م).

100 ـ **قطب، سيد**: «التصوير الفني في القرآن»، مكتبة وهبة ـ القاهرة (1369 هـ/ 1949 م).

101 ـ **الكرماني، محمد بن حمزة**: «البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان» تحقيق ناصر بن سليمان العمر ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض.

102 ـ **كمال الدين، حسين**: «إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة»، مجلة البحوث الإسلامية ـ الرياض ـ 1395/ 1396 هـ (ص 289 ـ 338).

103 ـ **كنعان، محمد أحمد**: «قرة العينين على تفسير الجلالين» المكتب الإسلامي: بيروت، دمشق (1404 هـ/ 1984 م).

104 ـ **لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع**: «المنتخب في تفسير القرآن الكريم»، (الطبعة الثالثة) 1393 هـ/ 1973 م). المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع. القاهرة.

105 ـ **محمود، مصطفى**: «من أسرار القرآن» مؤسسة أخبار اليوم ـ القاهرة (1976 م).

106 ـ **محمود، مصطفى**: «القرآن محاولة لفهم عصري»، دار الشروق (303 صفحات).

107 ـ **مخلوف، حسنين محمد**: «صفوة البيان لمعاني القرآن» من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت الطبعة الثالثة (1407 هـ/ 1987 م).

108 ـ **المراغي، أحمد مصطفى**: «تفسير المراغي» ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (1405 هـ/ 1985 م).

109 ـ **مروة، يوسف**: «العلوم الطبيعية في القرآن»، منشورات مروة العلمية ـ بيروت. 1968

م ـ (280 صفحة).

110 ـ **مسلم، مصطفى**: «مباحث في التفسير الموضوعي» دار القلم ـ دمشق، بيروت ـ الطبعة الأولى (1410 هـ/ 1990 م).

111 ـ **مسلم، مصطفى**: «مباحث في إعجاز القرآن» ـ دار المنارة ـ جدة (1408 هـ/ 1988 م).

112 ـ **المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد**: «خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية» مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ 1413 هـ/ 1992 م.

113 ـ **النجار، زغلول راغب محمد**: «سلسلة من آيات الإعجاز العلمي» الأجزاء 1 ـ 6 (942 صفحة) ـ دار الشروق الدولية (1422 هـ ـ 1426 هـ/ 2001 م ـ 2005 م).

114 ـ **النجار، زغلول راغب محمد**: «السماء في القرآن الكريم» دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان (الطبعة الأولى 1425 هـ/ 2004 م)، (الطبعة الثانية 1426 هـ/ 2005 م) (608 صفحات).

115 ـ **النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد**: تفسير النسفي المعروف باسم «الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (في مجلدين) مطابع الحلبي ـ القاهرة (1344 هـ/ 1925 م).

116 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز»؛ كليات رسائل النور (5) دار سوزلر للنشر ـ استانبول 1414 هـ/ 1994 م تحقيق إحسان قاسم الصالحي، (335 صفحة).

117 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «من الآيات الكونية في القرآن الكريم»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (1380 هـ/ 1961 م) (104 صفحة).

118 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «الدين والعلم»، دار ومطابع الشعب (1964 م) (189 صفحة).

119 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «الله والعلم الحديث»، دار الشعب ـ القاهرة ـ (228 صفحة) (1982 م).

120 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد**: «الآيات العلمية» مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

121 ـ **نوفل عبد الرزاق (1989 م)**: «علم وبيان في تفسير القرآن»، أخبار اليوم (191 صفحة).

ثانياً: الكتب الأجنبية المترجمة:

122 ـ **بوكاي، موريس**: «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة

في ضوء المعارف الحديثة» ـ دار المعارف ـ القاهرة (1398 هـ/ 1978 م).
(Maurice Bucaille (1976) "La Bible, le Coran et la Science", Editions Seghers, 6, Place Saint-Sulpice, 75006 Paris.

123 ـ مونسما، چون كلوڤر (مشرف على التحرير): «الله يتجلى في عصر العلم» ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندي، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة.
(The Evidence of God in an Expanding Universe: edited by: John Clover Monasma; 1958; Published by G.P. Putnam's & Sons, New York).

ثالثاً: الكتب الأجنبية:

124 - Aury, G.B. (1855): On the Computation of the effect of the attraction of mountain — masses, as disturbing the apparent astronomical latitude of stations in geodetic surveys; Phil. Trans. Roy. Soc Lond. Ser. B., 145: 101-104.

125 - Ali, A. Yousuf (1934) the Holy Qur'an Text, Translation and commentary; Reprinted in 1975 by the M.S.A of the USA and Canada, 1862 pp.

126 - American Geological Institute (1976) Dictionary of Geological Terms; Revised edition, Anchor Books, 472pp.

127 - Athavale, R.N. (1973): Inferences from recent Indian Paleomagnetic results about he Nortern Margin of the Indian Plate and the Tectonic Evolution of the Himalayas; in Tarling and Runcorn (eds): Implications of Continental Drift to the Earth Sciences, vol. 1, pp. 117-130, 2 tables, 2 figs., Academic Press, London & New York.

128 - Beiser, A. and Krauskopf, K.B. (1975): Introduction to Earth Science; McGrawhill Book Co., 359 p., illustrated.

129 - Bermant, Chaim & Michael Weitzman (1979): "Ebla- A Revelation in Archaeology; Times Books, New York, New York.

130 - Bird, J.M. and Dewey, J.F. (1970): Lithospheric plate-continental margin tectonics and the evolution of the Appalachian orogen; Bull. Geol. Soc. Amer., vol.81 pp.1031-1060.

131 - Bouguer, P. (1749): La figure de la Terre, Paris, 365 pp.

132 - Cazeau, C.J., Hatcher, Jr., R.D. and Siemankowski, F.T. (1976): Physical Geology: Principles, Processes, and Problems; Harper & Row, Publishers; 518 pp;., illustrated.

133 - Cook, F.A; Brown, L.D. and Oliver, J.E. (1980): the Southern Appalachians and the Growth of Continents; Sci. Amer. (Coctober), pp. 156-168.

134 - Dewey, J.F. (1971): A model for the Lower Paleozoic evolution of the southern margin of the early Caledonides of Scothland and Ireladn; Scot. J. Geol. Vol. 7, pp.219-240.

135 -Dewey, J.F. (1972): Plate tectonics; Sci. Amer 226 (May), pp.56-66.
136 - Dewey, J.F. and Bird, J.M. (1970): Mountain Belts and the New Global Tecotonics; J. Geophys. Res., vol. 75, no. 14, pp. 2625-2647, 15 figs.
137 - Dickenson, W.R. (1970); Relations of andesites, granites and derivative sandstones to arc-trench tectonics; Rev. Geophys. Space Phys., 8, 813-860.
138 - Dickenson, W.R. (1971): Plate tectonics in geologic history; Science, 174, pp.107-113.
139 - Dietz, R.S. (1961): Continent and ocean basin evolution by spreading of the sea floor, Nature; 190, 584-857.
140 - Dietz, R.S. (1972): Geosynclines, Mountains, and Continent Building; in Wilson, J.T. (ed): Continents Adrift: Readings from Scientific American, pp. 124-132.
141 - Dutton, C.E. (1889): On some of the Greater Problems of Physical Geology, Bull. Phil. Soc. Washington, vol. 11, p. 51; reprinted in J. Washington Acad. Sci., vol. 15, p.259- 369, 1925; also in Bull. Natl. Res. Council (U.S.) vol. 78, p.203, 1931.
142 - El Naggar, Z.R. (1991): The Geological Concept Of Mountains In The Qur'an; Sources of scientific knowledge: The Association of Muslim Scientists and Engineers and the International Institute of Islamic Thought, Research Monographs Series no. (3), pp. 1-83, Text-figs 1-23.
143 - El Naggar, Z.R. (1999) Scientific Facts Revealed in the Glorious Qur'an, 34 pp. Ptoc. Qur'an conference, Univ. London.
144 - El Naggar, Z.R. (2004): "Treasures in the Sunnah Scientific Approach", Al-Falah Foundation, Cairo, pp. 1-145.
145 - Hallam, A. (1973): A Revolution in the Earth Sciences; From Continental Drift to Plate Tectonics; Clarendon Press- Oxford, 127 pp., 45 figs.
146 - Hamilton, W. (1969): Mesozoic California and the underflow of Pacific mantle; Bull. Geol. Soc. Amer., vol 80, pp. 2409-2430.
147 - Hawking, Stephen (1988, 1989, 1990): A Brief History of Time; Bantam books, pp. 1-198.
148 - Hess, H.H. (1962): History of ocean basins; In A.E.J. Engel and others (editors): Petrologic studies; a volume in honour of A. F. Guddington; Geol. Soc. Amer., New York; pp. 599-620.
149 - Hess, H.H. (1965): Mid-Oceanic Ridges and Tectonics of the Sea-Floor; in Whittard, W.F. and Bradshaw, R. (eds): Submarine Geology and Geophysics; Proc. 17th Symposium Closton Res. Soc., London, Butterworths.
150 - Jet Propulsion Laboratoires, California (1985): The Trans-Arabia Expedition (Internal Report, pp. 35).
151 - King, P.B. (1965): Tectonics of Quaternary Time in Middle North America; in Wright, H.E. and Frey, D.G. (eds): The Quaternary of the United States; Princeton University Press; pp. 831-870.
152 - La Fay, Howard (1978): Ebla: "Splendor of an unknown empire" National

Geographic magazine vol. 154, No.6, pp. 731-759.

153 - Leet, L.D. and Judson, S. (1971): Physical geology. 4th edition; Prentice Hall, Incl; 687 pp. illustrated

154 - Le Pichon, X. (1968): Sea-Floor spreading and continental drift; J. Geophys. Res., vol. 73; No.12, pp. 3661-3697.

155 - McKenzie, D.P. (1969): Speculations on the consequences and causes of plate motions. Geophys. J.Roy. Astr. Soc. vol.18, pp. 1-32.

156 - Milligan, G.C. (1977): the Changing Earth; Mcgraw-Hill Ryerson Ltd., 706 pp., illustrated.

157 - Miyashiro, A. (1961): Evolution of metamorphic belts; J. Petrology, vol.2, pp. 277-311.

158 - Miyashiro, A. (1967): Orogeny, regional metamorphism and magmatism in the Japanese islands; Medd. Dan. Geol. Foren., vol. 17, pp.390-446.

159 - Monkhouse, F.J. and Small, J. (1978): a Dictionary of the Natural Environment; Edward Arnold, 320pp.

160 - Pratt, J.H. (1859) On the attraction of the Himalayas Mountains and of the elevated regions beyond upon the plum-line in India; Phil. Trans. Ry. Soc. Lond., Ser. B. 145: pp.53-100.

161 - Press, F. and Siever, R. (1982) Earth; W.H. Freeman and Co., San Francisco, 613 pp., illustrated.

162 - Tarbuk, Edward J. & Frederick K. Lutgens (1993): The Earth and Introduction to Physical Geology, 4th ed. Macmillan Pub. Co., New York, 654 pp.

163 - Thomas, Bertram (1932): Ũbãr- The Atlantis of the Sands of Rub' Al-khali; Royal Cott. Asian Soc., v. 20, Partz. pp. 259-265.

164 - Thomas, Bertram (1932): Arabia Felix.

165 - Thompson, G.A. and Talwani, M. (1964): Crustal Structure from Pacific Basin to Central Nevada; J. Geophys. Res., 69, 4813-4837.

166 - Webster, A.M. (1971): Webster's Seventh New Collegiate Dictionary; G & C. Merriam Co., Publishers, USA, 1223 pp.

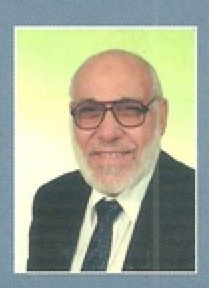
167 - Wilson, J.T. (1963): Evidence from islands on the spreading of ocean floors, nature, 197, 536.

168 - Wilson, J.T. (1965a): Tranform faults, oceanic ridges, and magnetic anomalies southwest of Vancouver Island; Science, 150, 482.

169 - Wilson, J.T. (1965b): Evidence from ocean islands suggesting movement in the earth; in a symposium on continental Drift, edited by P.M.S. Blackett, E. Bullard and S.K. Runcorn; Phil. Trnas. Roy. Soc. London, A258, 145.

170 - Wilson, J.T. (1966): Did the Atlantic close and then reopen. Nature, 211, 676.

171 - Weinberg, Steven (1977, 1988): The First Three Minutes Basic Books, Inc. Publishers, N.Y., p. 1-198.



الدكتور زغلول راغب محمد النجار

أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والغربية
زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها
ورئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة



للطباعة والنشر

هاتف: 834301 - 834332 - 858830(01) فاكس: 835614(01)

ص.ب: 11/7876 بيروت ـ لبنان ـ البريد الإلكتروني e.mail: info@marefah.com

http://www.marefah.com

ISBN 9953-85-006-2

